نـقـولا زيـَادة

أيّامي

سِـيرة ذاتيـّة

ولد الدكتور نقولا زيادة
في دمشق في ٢ كانون الاول،
ديسمبر ١٩٠٧ . درس في دار المعلمين
الابتدائية بالقدس وتابع تحصيله العالي
في جامعة لندن حيث
حصل على شهادة دكتوراه في التاريخ
الاسلامي (سنة ١٩٥٠).

عمل في حقل التعليم اولا في عكا،
فلسطين ثم حاضر في الكلية العربية والكلية
الرشيدية في القدس،
وكذلك حاضر في مركز دراسات الشرق
الاوسط بالقدس.

عمل بعدها في قسم اللغات الشرقية في
جامعة كمبردج (بريطانيا)
وعين سنة ١٩٤٩ مساعد مدير معارف برقة
في ليبيا.

والتحق في اواخر تلك السنة
بدائرة التاريخ في الجامعة الاميركية في
بيروت حيث ظل يمارس عمله
حتى تقاعد عام ١٩٧٣ .
واليوم هو استاذ شرف في تلك الدائرة.

عمل استاذا زائرا في عدد من الجامعات
الكبيرة منها هارفرد
وعين شمس والجامعة الاردنية
والجامعة اللبنانية.

للدكتور زيادة مؤلفات عديدة
باللغتين العربية والانكليزية
عددها بالعربية ٣٢ مؤلفا
و ٧ بالانكليزية، كما ترجم الى العربية عددا
من الكتب القيمة ابرزها
«ازمة الانسان الحديث»، «تاريخ العرب»
و «تاريخ البشرية».

له مقالات عديدة بالعربية والانكليزية
دارت بأكثرها حول تاريخ الشرق الاوسط
وافريقيا الشمالية.

أيّامي

نقولا زيادة

أيامي

سِيرة ذاتيَّة

الجزء الأول

هزار

جميع الحقوق محفوظة
هزار بابلشنغ لمتد، لندن
١٩٩٢
ينشر هذا الكتاب بالاشتراك مع :
EDITION HAZAR, PARIS
هزار غرافكس، بيروت
وبالتعاون مع الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت
تنفيذ واخراج فوكس ليمتد
ISBN SET 1 874371 19 9
ISBN VOL.1 1 874371 20 2
ISBN VOL. 2 1 874371 21 0

أيامي

أهديها
إلى أحفادي

بيروت، ٢ كانون الأول ١٩٩٢

نقولا زيادة يتوسط الاحفاد
من اليسار - كندة، مريانا (الخلف)
مروان، غيدا، ندى، ونائلة في
حضن الجد

١٩٨٩

فهرس الجزء الأول

القسم الأول

فتى حائر	١١
الفصل الأول	٣٠
الفصل الثاني	٥٣
الفصل الثالث	٧٢
الفصل الرابع	١٠١
الفصل الخامس	١٢٥
الفصل السادس	

القسم الثاني

في عكا	١٦٥
الفصل السابع	١٩١
الفصل الثامن	٢١٣
الفصل التاسع	٢٣٥
الفصل العاشر	٢٥٣
الفصل الحادي عشر	

القسم الثالث

أوروبا ١٩٣٥ - ١٩٣٩ (١)	٢٧٣
الفصل الثاني عشر	٢٩٧
الفصل الثالث عشر	

القسم الأول

فتى حائر

الفصل الأول

في ٢ كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩١٨ بلغتُ الحادية عشرة من عمري. فأنا مولود في الثاني من كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩٠٧.

التاريخ الذي يعود الى سنة ١٩١٨، له أهمية كبرى بالنسبة للتاريخ العالمي ولحكاية هذا الشاب الحائر خاصة. فالحرب العالمية الأولى كانت قد انتهت قبل ذلك بثلاثة أسابيع إذ عقدت الهدنة في الساعة الحادية عشرة من اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر (تشرين الثاني / نوفمبر) سنة ١٩١٨. وبانتهاء الحرب العالمية الأولى كانت الامبراطورية العثمانية قد انتهى أمرها واقعياً، وان كان تخليها عن أملاكها السابقة وانكفاؤها دولة تركية، لم يتم قانونياً إلا سنة ١٩٢٣.

أما بالنسبة لي أنا ففي ذلك اليوم، أو ما يقاربه عرفنا أن أبواب المدرسة في جنين (في الجزء الشمالي من فلسطين) ستفتح. ذلك بأن بعض الضباط الألمان، الذين كانوا جزءاً من مركز الطيران العسكري الألماني في جنين، كانوا قد اتخذوا المدرسة مسكناً لهم؛ وبذلك كنا نحن، الأولاد الذين يجب ان نجلس على مقاعد الدراسة لنتعلّم، نقضي ساعات النهار في الأزقة والحارات والشارع الوحيد في جنين، وبعد الاحتلال البريطاني حل ضباط انكليز مكانهم لبعض الوقت ولذلك فان المدرسة فتحت في مطلع سنة ١٩١٩ ودخلنا المدرسة.

وقبل أن أتحدث عن هذا الشخص الحائر، أي عن نفسي، أود أن أقص على القراء، باختصار كلي، ما كان قد مر بي قبل أن أبلغ الحادية عشرة من عمري.

أبواي من بلدة الناصرة (في شمال فلسطين) وهي البلدة التي أنجبت السيدة العذراء، أم المسيح. والذي أعرفه انه كان ثمة سبعة جدود، من جهة والدي، سكنوا الناصرة، فأنا نقولا بن عبده بن عبدالله بن حنا بن خليل بن حنا بن؟ زيادة. والذي عرفته فيما بعد هو أن أصل هذا الجد من جهات السلط (الصلت) في الأردن. وجدتي لأبي هي وردة الكردوش، ويعود أصل هذه الأسرة الى عشيرة الكرادشة في الأردن. ومن جهة أمي فان الذي رواه لي جدي لأمي هو ان أمي هي ليا (الين) بنت عبدالله أسعد (شُرُش) ريحاني. وجدي عبدالله هذا مولود في الناصرة في السنة التي انسحب فيها ابراهيم باشا، القائد المصري ابن محمد علي باشا من بلاد الشام (١٨٤٠). وكان أبوه (أو جده؟) قد هاجر الى الناصرة من الحصن (في الأردن) وهذه البلدة هي مقر الرياحنة العشيرة التي ينتسب اليها هذا الجد. وجدتي لأمي من أسرة الحداد الحورانية الأصل. واسمها وردة. وهكذا فانا أتمتع بأن اسمي جدي (لأبي وأمي) هو عبدالله واسمي جدتي (لأبي وأمي) هو وردة. ولعل هذا من حسن طالعي.

لكن والدي كان يعمل مساعد مهندس في سكة حديد الحجاز، وكان مقره في دمشق. فأنا ولدت هناك، في بيت نقولا الشاوي في باب مصلّى في حي القرشي من الميدان (التحتاني). فانا دمشقي من هذه الناحية.

في صيف سنة ١٩١٢ كنت في منتصف السنة الخامسة من عمري. ويبدو أنني بدأت أدرك أنه من حقي أن استفسر عن أمور عائلية، وأنه يترتب على أبوي، وخاصة والدي، أن يتسع وقته لي. وقد كانت الأحوال ملائمة لذلك. فنحن كنا قد انتقلنا قبل مدة الى أحد البيوت القريبة من مكاتب مؤسسة سكة الحديد الحجازية ومخازنها

ومستودعاتها ومصانعها. كانت هذه البيوت تتألف من طابق (دور) واحد؛ كانت مبنية من الطوب (الآجر او اللبن) والخشب، لكنها كانت مرتبة ونظيفة. وقد بنتها مؤسسة السكة الحديدية خصيصاً لموظفيها، وكان والدي واحداً منهم. كان اكثر القاطنين في حينا الصغير، إذا جاز التعبير، من الموظفين الالمان، وكان هناك ثلاث أو اربع أسر يتكلم أفرادها اللغة العربية. وكان هناك رجل الماني زوجته عربية؛ هذه الأسرة ربطتنا بها صداقة خاصة. ذلك ان أبي كان يتقن الالمانية، أما أمي فلم تعرف منها سوى كلمات قليلة. لذلك كانت هذه الأسرة، ونصفها يتكلم العربية، فرجاً لامي.

كانت لكل بيت قطعة من الأرض؛ كان المقيم في البيت حراً في استغلالها ـ لكن لم يكن حراً في تركها مهملة. وكان أبي بحكم انه من بلدة بساتين وحواكير (الناصرة) يعنى بذلك. وقد أوصل المهندس الذي صمم هذه المساكن ونفذ المخطط الماء في قني من الخشب ـ ثلاثة ألواح مسمرة ببعضها منها اثنان قائمان والثالث يكون ارض القناة.

اصبح البيت قريباً من مكان العمل، فبعد أن كنا نقطن بعيداً في الميدان التحتاني، أصبحنا الآن نقيم في القدم، على مقربة من المحطة، التي كان ينطلق منها القطار الى درعا وعمان ومعان والمدينة المنورة. لذلك كان أبي يأتي الى البيت مبكراً. وكانت أيام العطلة الصيفية، وكنت أقضي أيامي في البيت.

وكان مما شغل بالي اننا نحن مجموعة صغيرة ـ أبي وأمي وأنا وأختي ماري. وكانت خالتي صوفيا، التي تعمل ممرضة في المستشفى الانكليزي في القصاع تزورنا. لكن عرابي (أشبيني) أسعد صيقلي مثلاً كان له إخوة وأخوات وزوجته ثلجة كان لها إخوة وأخوات. وجارهم العزيز وشريك أسعد الياس يارد له أقارب. لذلك كان فريد، ابن أسعد وهو من جيلي، يتحدث عن أولاد عمه وأولاد خاله وهكذا دواليك. فلماذا لا يكون لنا نحن اقارب مثلهم. حتى أخي الثاني (بعد اختي) قسطنطين كان قد توفي وهو بعد طفل.

حول هذه النقطة، على ما أذكر إلى الآن، (أي بعد ست وسبعين سنة، إذ انني اكتب هذا في صيف سنة ١٩٨٨) بدأت أسئلتي لأبي. إذ طلبت منه أن يفسّر لي لماذا لا يوجد له أو لأمي أقارب. أذكر انه أخذني الى نَشَزٍ في الأرض وأجلسني الى جانبه وقال لي، مفسراً وضعنا، ما معناه: نحن يا ابني لسنا من الشام (دمشق) نحن أغراب هنا بمعنى أننا بعيدون عن بلدتنا. لذلك لا تجد أقاربي او اقارب أمك حولك. أقاربنا في بلدتنا الناصرة.

قام أبي ودخل الى البيت وعاد ومعه كتاب. فتحه وقال لي إن الكتاب يحتوي على خرط (جرب أن يفسّر لي معنى الخريطة) والكتاب يسمى أطلس. وفتح صفحة جمعت بين دمشق والناصرة لأنها، على ما يبدو، كانت تمثل التقسيم الاداري العثماني لبلاد الشام. جرّب أن يبين لي أن المكانين بعيدان جداً (وقد كانا يومها) واحدهما عن الآخر. لذلك لا يمكن لأقاربنا أن يزورونا.

وأوضح لي انه يوجد لنا في الناصرة أقارب. وقال إن أباه، يعني جدي، عبدالله زيادة، كان يملك محلاً تجارياً في سوق الجوخ في الناصرة. وسوق الجوخ كانت تباع فيه الأقمشة على اختلاف أنواعها، وهو سوق التجار المحترمين، ولو أنه لم يكن سوق التجار الأغنياء، فهؤلاء كانوا في الجرينة. جرب أبي، في مناسبات كثيرة أن يصف لي الناصرة، لكن شيئاً من ذلك لم يدخل رأسي. ولم أستطع أن أتبيّن معالم الناصرة إلا لما زرتها لأول مرة (وأنا واع) سنة ١٩١٦، وبعد أن أقمت فيها وترددت عليها. ولأسرع الى القول بأن الأجزاء المحورية من الناصرة لم تتبدل بين سنتي ١٩١٦ و١٩٤٥ إلا قليلاً. لذلك فأن وصفي لها فيما بعد ينطبق عليها لما كان أبي يقيم فيها وهو يافع.

وتعددت أسئلتي وتعددت جلساتنا وأحاديثنا، وكانت أمي تزودني ببعض المعلومات / الأسماء لأقاربها. والذي عرفته من أبي أن أباه كما ذكرت كان تاجراً في سوق الجوخ، وأن شخصاً أطلق عليه النار وأرداه قتيلاً،

وهو شاب، وكان له ولدان أبي وعمي رشيد. ورشيد كان يقيم يومها في المانية. وأم أبي، جدتي لأبي، وردة الكردوش لا تقيم في الناصرة. وعرفت من أبي أن له ابنتي عم لطيفة وعفيفة (زيادة) تقيمان في الناصرة. كما عرفت أن أقاربه كثيرون لكنهم لا يستعملون اسم زيادة بل اسمين آخرين سكران وقنيش.

لكن الذي فهمته يومها من أبوي أن أسرة أمي المعروفة في الناصرة باسم «شُرُش» كبيرة. وأن أمي لها أخوات كثيرات وأخ وحيد وأبواها (عبدالله ووردة) يقيمان في الناصرة.

والذي أُخبرته في تلك الصيفية أنني أنا ذهبت الى الناصرة مع أمي في زيارة لوالديها، ولكنني كنت صغيراً ـ دون السنة الواحدة من العمر ـ لذلك لا أتذكر شيئاً من ذلك. ثم وعدني بزيارة للناصرة، وعندها سأرى هؤلاء الأقارب. ولكن لما وصلت الناصرة بعد ذلك كان أبي قد توفي ودفن في دمشق (في مقبرة مار جريس). أحسب أن هذه الأحاديث أنعشتني. ذلك أنني لما عدت الى بيت عرابي (اشبيني) أسعد صيقلي بعد العطلة الصيفية كنت اتحدث عن أقاربي في الناصرة.

كان من الطبيعي أن تتصل الأحاديث. فبعد أن عرفت أننا من الناصرة. كان لا بد لي أن أسأل، وأن أعرف، لماذا نقيم نحن في دمشق؟ ما الذي جاء بنا الى هذه المدينة الكبيرة؟

قصة أبي، في سنواته الأولى، كما حكاها لي فضلاً عما أضافته أمي فيما بعد، ثم ما نقلته عن جدي لأمي (عبدالله أسعد شرّش ريحاني) لما أقمنا في الناصرة في بيته، تدور حول بضعة أمور، كل منها هو تاريخ جيل في بلادي. أبي مولود في سنة ١٨٨٠ وأخوه رشيد أصغر منه بسنتين. قتل أبوه عبدالله، التاجر في سوق الجوخ وأبي في نحو العاشرة من عمره. كان الناس قد تنبهوا الى أهمية التعليم.

والناصرة كانت تزود الصغار، صبياناً وبنات، بالتعليم الى مثل السن التي كان فيها أبي. وإذن يتوجب عليه ان يخرج من الناصرة، والمكان الوحيد هو القدس. لكن الفقير يجب أن يذهب الى مدرسة توفر عليه النفقات. والفقير اليتيم يفتش عن دار للأيتام. وكانت المدرسة التي هي محط آمال الأولاد (والبنات) الذين كانوا على هذه الشاكلة «دار الايتام السورية» (شنلر) في القدس. انشئت هذه المدرسة سنة ١٨٦٢ وكانت أصلاً تعنى ببعض الأيتام الذين فقدوا أهلهم في حروب الستين بلبنان. ثم وسعت أعمالها فأخذت التلاميذ من جميع المناطق وافتتحت اقساماً صناعية فنية ظلت، حتى اقفالها في الحرب العالمية الثانية والسنوات التي تلت، في مقدمة المؤسسات العلمية ـ الصناعية في المنطقة.

يبدو ان إلهة الحظ كانت ترفرف على رأسي أبي وأخيه، فقد أدخلا كلاهما مدرسة شنلر. وأقاما فيها وقتاً كافياً ليتقن فيه الاثنان اللغة الالمانية، وليتعلم عمي صناعة الخياطة. أما أبي فكان يعنى بالرسم الهندسي ودراسة المساحة: شيء يمكن أن يسمى على طريق الهندسة، لكن في الخطوات الأولى.

ترك أبي المدرسة قبل أخيه. فقد تزوجت أمه ثانية وأراد زوجها، الذي كان يعمل في التجارة، أن يعتني بالولدين ليعتنيا أيضاً بتجارته. لبى أبي الدعوة، وانضم الى زوج أمه. أما عمي رشيد فقد بقي في المدرسة حتى سنة ١٩٠١، وعندها أرسلته المدرسة الى المانية ليتعلم صناعة الخياطة تخصصاً كي يعود ويعلمها في المدرسة. ولم يعد عمي من المانية. وقد زرته في فرستنولده ان درشبري (Furstenwalde an der Spree) على مقربة من برلين في ربيع ١٩٣٦، وكنت يومها طالباً في جامعة لندن؛ ولما عدت في صيف العام ذاته وجدته قد انتقل الى رحمته تعالى مخلفاً زوجته الالمانية أيّما وابنه هينز.

أخبرني أبي في أحاديثه أننا نحن نقيم في بيت يخصّ مؤسسة سكة حديد الحجاز لأنه هو يعمل فيها. وهذه السكة، كما يعرف الناس، كانت مشروعاً مهماً من مشروعات عبدالحميد الثاني، سلطان تركية (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩). وقد بُدىء العمل بالمشروع في ايلول / سبتمبر سنة ١٩٠٠، بقصد وصل دمشق بالمدينة المنورة أولاً

ثم بمكة المكرمة وأخيراً باليمن. وفي سنة ١٩٠٢ بدأت الشركة بمد فرع يصل درعا بحيفا، وهو الذي تم بناؤه سنة ١٩٠٦.

المشروع كان حميدياً، والاموال كانت مسلمة، والسكة اعتبرت وقفاً اسلامياً، لكن العاملين في الشؤون الهندسية كانوا المانا أولاً، ثم انضم اليهم مهندسون عرب.

أخبرني أبي أنه جاء عليه وقت تضايق من العمل التجاري مع زوج أمه. لست أذكر فيما إذا كان السبب شخصياً أم أنه كان يتعلق بنوع العمل. وكانت الشركة بحاجة الى موظفين. وساعده أنه كان يتقن الألمانية. فتعين بالمؤسسة وقّافاً على العمال، وفرع درعا - حيفا في دور الانشاء. وكانت منطقة عمله في الجزء من السكة الحديدية الذي يبدأ فيه الانحدار من الهضبة السورية نحو غور الاردن، وينتهي عند محطة سمخ (غربي نهر الاردن). وحتى بعد اتمام بناء الخط احتفظت الشركة بأبي مع ترقية. وفي أحد الأيام في خريف سنة ١٩٠٦ كان يتنقل في مكان عمله بين الصخور على جانب الخط، فشبك قنبازه. وكان يرتدي القنباز مع أنه في المدرسة لبس البدلة. ووقع، وأصيب بكسور في عظام الساعد والكتف. فنقل الى المستشفى الانكليزي في الناصرة (أظن أنه كان يسمى مستشفى باثغيت (Bathgate) باسم الطبيب الذي أنشاه وعني به لسنوات طويلة). وأعطي اجازة طويلة ليستريح، مع وعد أو شبه وعد بترقية كبيرة، ونقل من حقول العمل الى أحد المراكز المستقرة. وأظن ان أبي كان يحسب انه سيرسل الى حيفا، حيث كان لسكة الحديد مكتب كبير. وحيفا، التي لا تبعد سوى نحو ٣٥ كيلومتراً عن الناصرة، كانت شيئاً مناسباً له.

إلا ان أمرين حدثا غيّرا مجرى حياة أبي، ومن ثم حياة أسرته. فقد تعرف وهو في الاجازة بالناصرة على أمي، طبعاً التعرف كان في حدود التقاليد التي تقتضي مراعاة الحشمة والأدب التي كانت تفرضها الأحوال والقواعد الاجتماعية. وكما كان يقول زميلنا في مدرسة عكا الثانوية المرحوم جبرائيل خوري، «كل شيء تنصيب، إلا الزواج قسمة ونصيب». وهكذا حكمت القسمة وصار النصيب وتزوج عبده عبدالله زيادة ليّا عبدالله أسعد شرُش في ١٩ شباط ١٩٠٧، وكان عمره سبعاً وعشرين سنة، أما أمي فقد ولدت سنة ١٨٨٥.

هذا هو الأمر الاول. أما الأمر الثاني فان الادارة كافأت والدي على نشاطه ومعرفته (اللغة الالمانية وأصول الرسم الهندسي) وتعلمه اللغة التركية، فنقلته الى دمشق - المركز الرئيسي - بمعاش جيد ووظيفة فنية، إذ ضم الى مكتب المهندسين بما يصح أن يسمى (تجوّزا) «مساعد مهندس».

وهكذا عرفت لماذا كنا نعيش في دمشق. وعرفت أنني مولود في دمشق. أما التفاصيل عن تاريخ الزواج وتواريخ ولادتنا جميعاً فقد كانت مدونة على الجلدة الخارجية (لكن من الداخل) للكتاب المقدس الخاص بالعائلة. فقد كان هذا تقليداً في كثير من الأسر المسيحية وهو أن يحتفظ كل بيت بنسخة من الكتاب المقدس يسجّل فيه رب الأسرة أول ما يسجل تاريخ زواجه. ثم يدوّن تاريخ ميلاد كل من الأطفال؛ وكان الكتاب لا يزال عندنا بعد وفاته بمدة قصيرة، ثم اختفى، اما هذه التواريخ فكانت مسجلة بالتاريخ الشرقي (أي اليولياني) والتواريخ معدلة للحساب الغربي (أي الغريغوري) كانت كالآتي:

زواج عبده وليّا (الناصرة) ١٩ شباط ١٩٠٧.

ولادة نقولا (بيت نقولا الشاوي. دمشق) ٢ كانون الأول ١٩٠٧.

ولادة ماري (في الناصرة) ٣٠ تشرين الثاني ١٩٠٨

ولادة قسطنطين (بيت الشاوي. دمشق) ١٠ شباط ١٩١٠ (توفي طفلاً)

ولادة الفرد (في المستشفى الانكليزي بالقصاع) ٢٤ حزيران ١٩١٣

ولادة جورج (بيت سليم شموط) ٢٧ نيسان ١٩١٥

انني أذكر، من أيام طفولتي الأولى، بيت نقولا الشاوي، الذي كان أول بيت سكناه في دمشق. كان للمنزل فسحة مربعة تتوسطها بركة مستديرة لها حنفيتان تيسران للسكان الحصول على الماء. كانت البرك التي تقام في وسط الفسحة في البيوت لها حفة قليلة الارتفاع. لكن بركة بيت الشاوي كانت حفتها مرتفعة، وذلك للحفاظ على أرواح الصغار. والمبنى كان له بوابة في الجهة الشرقية، فاذا دخل الواحد عرصة الدار دارت به أربعة جدران، في كل منها درج يصعد الى طابقين فوق الطابق الأرضي.

كنا نحن نسكن الطابق الأول (فوق الأرضي) في الجهة الشرقية. وفي نفسي صورتان مرتبطتان بهذا المسكن: الأولى هي وفاة أخي قسطنطين. أذكر أنه حُملَ من البيت، وأذكر أن الفرشة التي كان ينام عليها، وكنا نتقاسم غرفة واحدة، لفت على نفسها على التخت. ولما لم يرجع قسطنطين من رحلته استغربت ذلك. وكانت أمي قد قالت إنه ذهب الى المدرسة (أما لماذا يذهب هو الى المدرسة وهو الأصغر ولا أذهب أنا، فلم يفسره لي أحد). وهل يتصور القارىء ما الذي شعرت به، بل وخفت منه، لما جاء الوقت للذهاب الى المدرسة. خشيت أن لا أعود، وقد بكيت كثيراً. أما كيف أزيلت عقدة الخوف من المدرسة من نفسي، فأمر لا أدريه، لأنني لم أدركه يومها.

أما الصورة الثانية فتتعلّق بالطبيب الذي عالج أخي وهو مريض. كان اسمه الدكتور ملحم. وكان الدكتور ملحم جاراً للبناية التي نقيم نحن فيها ـ كما يقولون جار الحيط. كان الرجل بديناً، وكانت بدانته تبدو واضحة لأنه قصير القامة. وكان جميع المرضى في الجوار يعرفون الدكتور ملحم، اما في عيادته أو في بيوتهم. وفي يوم من الأيام، وكان ذلك بعد وفاة أخي بمدة قصيرة، انتشر الخبر في بيت نقولا الشاوي أن الدكتور ملحم مات. الصورة هذه المرة كانت صورتي ـ كيف يمكن للدكتور الذي يعالج المرضى ويشفيهم ان يموت هو؟ إنني أتصور الآن نفسي يومها وأنا أركض من جارة الى جارة سائلاً إياهن كيف يمكن أن يموت الحكيم؟ ولم أسأل أمي فهي التي أذاعت النبأ، ولما جاء أبي سألته كيف يمكن للحكيم ان يموت! لست أذكر ما الذي قاله، ولكنني بقيت مدة وأنا حائر في هذه القضية. وزاد من اضطرابي أنني رأيت أمي والجارات، وقد لبسن الثياب السوداء أو الغامقة جداً على الأقل، ذهبن الى بيت الرجل المتوفى لزيارة زوجته. لماذا يزرنها في هذا اليوم؟

لكن مما أذكره جيداً في تلك الأيام زيارة لخالتي منيرفا، التي كانت تقيم في الاسكندرية مع خالي الارشمندريت (المتروبوليت فيما بعد) إيليا ديب. خالتي كانت متقدمة بالنسبة لذلك العصر. قضت عندنا بضعة أيام ثم ذهبت الى بيروت لتبحر منها الى الاسكندرية. أثناء إقامتها عندنا كانت تأخذني معها إذا خرجت «للتبضع». أذكر انها دخلت يوماً محل جبران بدرا على يمين الطريق المؤدي من ساحة المرجة (الشهداء، التحرير) الى الصالحية. هذا الشارع كان يشغل رصيفاً عريضاً نسبياً وخط ترامواي وطريقا للعربات والدواب، وكل هذه كانت جزءاً من الجسر الذي كان يقوم فوق نهر بردى؛ وفي الجهة المقابلة، على الطرف الآخر من الجسر كان يقوم رصيف وخط ترامواي وطريق للعربات.

محل جبران بدرا كان، في السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى، المكان ـ أظن الوحيد ـ الذي يمكن أن تُبتاع فيه اللحوم المعلبة في دمشق. والمحل كان يعتمد على الزبائن الأجانب. وكان فيه معكرونة وشوكولاته وما شابه ذلك. وقد ابتاعت خالتي يومها علبة أسطوانية الشكل فيها لحمة مقطعة شرحات رفيعة، وقد سمتها، لما طلبتها من البائع، مرتدلا.

أما الشخص الذي كان يزورنا أكثر، والذي كانت زيارته تملأني غبطة ـ يومها وبعد ذلك ـ هو خالتي صوفيا. كانت صوفيا أصغر من أمي ببضع سنوات. وكانت تختلف عن أمي. أمي كانت قصيرة بدينة بيضاء البشرة كستنائية لون الشعر عسلية لون العينين. خالتي صوفيا كانت طويلة سمراء سوداء الشعر دعجاء العينين، ناهدة

الصدر والمشي. كنت مغرماً بها. ودون ان نرجع الى فرويد او يونغ او غيرهما، ودون أن أحاول - لا يومها ولا بعد ذلك ولا اليوم - تفسير الامر - كنت احبها. وقد زعلت جداً لما تركت دمشق وذهبت لتعيش في الناصرة. لكن مصيبتي الكبيرة جاءت لما مرضت بالكوليرا ومرضتها انا بنفسي وسجيتها في التابوت. لقد ماتت صوفيا.

لعله آن لي أن أصف ابي وصفاً طبيعياً. كان نحيف الجسم، أصلع على أن الشعر الذي كان لا يزال مقيماً في راسه كان اسود. عيناه كانتا سوداوين، وجبهته عريضة. كان يجيد الحديث، ويتحدث على مهل. لكن إذا غضب كانت القيامة تقوم - صياحاً وصراخاً لا اكثر ولا اقل. ولم تدم العاصفة طويلاً في غالب الأحيان.

ومما اذكره أيام اقامتنا في بيت نقولا الشاوي هو أن أحد السكان - وقد أنسيت اسمه - أوصى رجلاً من حوران أن يحضر له ضرفين من السمنة، والضرف هو جلد العنزة (واحدة الماعز) مخيطاً لمثل هذا الغرض بعد قشطه وتنظيفه. وجاء الرجل بضرفي السمنة في يوم شامس لطيف. وسلّم السمنة وسئل عن السعر فقال ان ثمن الضرفين ليرتان عثمانيتان.

كانت الدولة العثمانية قد أدخلت، قبيل الحرب العالمية الأولى، النقد الورقي، ووضعت النقد موضع التنفيذ، لكنها كانت تدفع نصف معاشات الموظفين والعاملين في المؤسسات الرسمية، ذهباً والنصف الثاني ورقاً. وطلبت كذلك من السكان ان يدفعوا للدولة المستحق عليهم مناصفة. وامرت بان يكون التعامل بين الناس على هذا الأساس. لذلك فان جارنا ناول الرجل ليرة ذهبية وليرة ورقية. أخذ الحوراني الليرة الذهبية فلفها بالليرة الورق ووضعها في كيسه بعناية، ثم التفت الى جارنا وسأله متى يعود لأخذ الليرة الثانية! الحوراني لم يعرف هذا الأساس الجديد للتعامل التجاري أو لعله لم يعترف به. وظن أن الورقة الملونة كانت للف الليرة الذهب حفاظاً عليها. ولما هم جارنا بالشرح والتفسير ظن الحوراني ان الرجل يمازحه. ولست أدري كيف انتهى الأمر، أو لعل الأمر لم ينته. وعلى كل انا اذكر الحادثة ولكنني لم أعرف خواتيمها.

بيت نقولا الشاوي مرتبط بأفراد عائلتنا بطريقة عضوية. فقد ولدت انا فيه. كان ابي قد اتصل بالدكتور ماك إنو (Mc Enno) طبيب المستشفى الانكليزي بالقصاع في ضاحية دمشق الشمالية الشرقية، وسجل اسم أمي هناك وهي حامل. ويبدو أنها كانت تذهب هناك للفحص، فلما اقتربت أيامها لتلد رُتِّبَ كل شيء بحيث تنقل الى المستشفى عند اقتراب الساعات الحرجة. وفي صباح يوم الاثنين، قبيل الساعة السادسة صباحاً (٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٠٧) نزلت أمي على الدرج لتحضر بعض الماء من النافورة. هناك شعرت بالطلق فحملها أبي الى البيت تمهيداً لنقلها الى المستشفى. لكن الطلق اشتد، وجاءت النسوة فساعدن، واقترحن دعوة القابلة (القانونية؟) الموجودة في الحي. ولم تكد القابلة تصل وتعدّ نفسها حتى سقط رأسي في بيت نقولا الشاوي في باب مصلى من حي القرشي في الميدان التحتاني بدمشق. كانت الساعة السادسة والربع صباحاً. هذه رواية أمي. روتها لي اكثر من مرة. وفي إحدى المرات كانت «زعلانة» مني لأنني عملت شيئاً بسرعة فاخطأت فقالت لي: «أي انت من أصلها مستعجل. ما خليتنا نروح على المستشفى مثل الناس. عجلت وولدت في البيت».

يمكن أن يدرك القارىء لماذا سميت نقولا. أولا ميلادي كان قريباً من عيد مار نقولا (٦ كانون الاول / ديسمبر) ثانياً صاحب البيت اسمه نقولا، وقد كان صديقاً لأبي. وكنت أسمع أبي يقول فيما بعد كانت أيامنا في بيت الشاوي سعيدة.

أختي ماري / ملفينا لم يعجبها على ما يبدو ان تولد في دمشق. بعد ولادتي ببضعة أشهر حملتني امي الى أهلها في الناصرة. كان لأمي أربع أخوات وأخ وهذا كان الأصغر واسمه سامي. البنات هن فرحة وعطره وليّا وكاملة وصوفيا. فرحة التي غيّرت اسمها الى منيرفا لما كانت في الاسكندرية لأن زملاء أخيها الارشمندريت

(فيما بعد المتروبوليت) ايليا ديب، وهم يونان، لم يستطيعوا لفظ الحاء فأصبح اسمها فرخة. ولأنها كانت معجبة بالأساطير الكلاسيكية، اختارت منيرفا اسماً لها. ولم تكن قد تزوجت يوم ولدت أنا. هي في الواقع سافرت الى اميركا مع أخيها لما أصبح اسقفاً (مطراناً) وتزوجت نخلة متى من حصرون، وسمت ابنيهما هومير وفرجيل وابنيتها بنلوب وسيبل. وعطره كانت قد توفيت. اما كاملة وصوفيا فلم تكونا قد تزوجتا (صوفيا لم تتزوج قط). لذلك فقد كنت أنا أول حفيد لعبدالله شرش (جدي لأمي) ووردة الحداد (ستي لأمي). فكان من الطبيعي ان تحمل المولود الأول وهو صبي (ما شاء الله!) الى الناصرة كي تكتحل عينا الابوين / الجدين برؤيته. ورافقتها خالتي صوفيا في السفرة.

كانت أمي قد حملت ثانية، فلما وصلت الناصرة، وقضت هناك بعض الوقت. كانت صعوبات السفر كبيرة لذلك يجب ان يقضي الزائر من الوقت ما يساوي المتاعب التي يتحملها في الطريق. نعم بعد ان قضت هناك بعض الوقت، رؤي من المناسب ان لا تعود الى دمشق في الشهرين الأخيرين، إذ انها ستترك الناصرة في عربة الى العفولة (نحو ساعتين) ثم ستركب القطار (قطار سكة حديد الحجاز) من العفولة الى دمشق، وكان يقضي المسافر القسم الأكبر من النهار وبعض الليل في الطريق. فالسفرة كانت مزعجة ولامرأة حامل في أسابيعها الأخيرة. إذن فلتلد الطفل الثاني في الناصرة. والمستشفى الانكليزي هناك جيد وتسجيل اسم أمي فيه ميسر بسبب صلة خالتي صوفيا به وبمن فيه. ولكن لما أقمنا في الناصرة فيما بعد، ورأيت المسافة التي تفصل بيت جدي عن المستشفى والطريق اليه أدركت انه كان من العبث ان يفكر امرؤ عاقل بنقل أمي الى المستشفى. وأدركت عندها لماذا جيء بالداية (القابلة)، ولكن على مهل، ووضعت أمي أختي في بيت أبيها. وأختي أصغر مني بسنة تنقص ثلاثة أيام.

كان من المألوف في الأسر المسيحية ان يعطى الطفل أو الطفلة اسم قديس أو قديسة عند المعمودية، اضافة الى الاسم الاصلي إن لم يكن الاسم نفسه يتصف بالقداسة. انا سُميت نقولا، فلما عُمِّدت ظل اسمي نقولا، تيمناً بالقديس نقولا حامي الحجاج والمسافرين والصبايا. (بهذه المناسبة لأن القديس نقولا هو حامي الحجاج، فهناك تقليد عند ابناء طائفة الروم الارثوذكس العرب في بلاد الشام ان يطلقوا لقب حاج على كل من اسمه نقولا). أما أختي فقد سميت ملفينا وعند المعمودية أعطيت اسم ماري، تيمناً بالسيدة العذراء، فغلب عليها هذا الاسم بحيث انها هي نسيت في وقت من الأوقات انه كان لها اسم ثان. وأهل الناصرة يلفظون الاسم مَرِي، ولذلك فقد كان اسمها في الناصرة، ولا يزال عند الناصريات يلفظ مَرِي لا ماري.

لست أذكر سبب تسمية الأخ الثاني لي (الطفل الثالث في العائلة) قسطنطين. لعل أبي كان له صديق بهذا الاسم. والذي أعرفه ان قسطنطين كان أول من ولد في المستشفى الانكليزي. لكن هذا الأخ توفي طفلاً.

كنت إذا خرجت من بوابة دار الشاوي سرت في زقاق مبلط الى الشارع الرئيسي. النقطة التي تلتقي بها الشارع الرئيسي تسمى (الى الآن) باب مصلى وكانت يومها تذكر بالجامع والسبيل. ولا يزال الجامع والسبيل قائمين (وقد رأيتهما لآخر مرة في ربيع ١٩٨٧). لكن المنظر العام اختلف. يومها كان خط الترام الذي يصل المرجة بالميدان يمر في الشارع الرئيسي. فبعد ان يخرج من المرجة كان الخط ينحرف جنوباً ويستمر في اتجاهه جنوباً ماراً بطرف سوق الحميدية تاركاً سوق النحاسين الى اليمين ثم يسير الى الميدان وباب الله (أو بوابة الله). ووسائل النقل التي كانت تزاحم الترام هي الكارّات والحناطير والحيوانات، بما في ذلك الجمال، التي كانت تنقل الى دمشق غلات حوران والأردن، وخاصة الحبوب والسمن؛ وتحمل من دمشق ما يحتاجه السكان هناك من الأقمشة والمصنوعات الجلدية، خاصة ما تحتاجه الخيول والجمال والحمير، والسكر والبن والزيت. وكان القطران الذي يستعمل كثيراً للجمال المصابة بالجرب من السلع المهمة. وكانت تظهر بين الجزء والجزء من

الطريق ساحات فيها مخازن كبيرة هي التي تتلقى منتوجات الحبوب وتعد لأهل الجنوب حاجاتهم. لذلك كان من الضروري أن تكون هناك ساحة تتسع لعشرات من الأبل تأتي لتلقي أحمالها أو لتلقى عليها الأحمال. من هذه الساحات في الميدان التحتاني تلك التي كانت تقع أمام مخازن عرابي (اشبيني) أسعد صيقلي وأخيه خليل وشركاهما. ولا تزال صورة براميل القطران الضخمة ماثلة أمام ناظري إلى الآن، مع انه قد مر عليها أكثر من سبعة عقود من السنين. وقد يحدث أن يأتي بدوي فيبتاع حاجته من القطران يضعه في وعاء ثم ينتبذ من دون الناس مكاناً قصياً، ويدهن جسم جمله أو إبله معالجاً إياها ثم يعود أدراجه. ومن هنا كانت رائحة القطران، تغلب على أي رائحة أخرى هناك.

وكانت هناك دكاكين بقالين وسمانين صغيرة كثيرة في باب مصلى.

ورد اسم أسعد صيقلي كثيراً، كما وردت الاشارة اليه انه عرابي. ولست أدري، أو لعلي لا أتذكر، كيف تعرف أبي الناصري على هذا الرجل الشهم الكريم، الذي أصبح يعتبر عبده زيادة وأسرته كأنهم جزء من أسرته. وقد كان ابن اسعد، فريد، مجايلي، فكان صديقي. لكن فريد توفي مبكراً، وتوفي أسعد قبل سنة ١٩٢٥، أما ثلجة أم فريد فقد زرتها مع زوجتي مرغريت في بيتها في دمشق سنة ١٩٤٥. ولا يزال جورج ابن أسعد صيقلي حياً؛ وتربطني به وبزوجته هند اللحام صداقة متينة.

لست أذكر، بطبيعة الحال، شيئاً عن الاحتفال بعمادي وما الذي فعله أسعد صيقلي. لكن أسعد كان عراب أخي الفرد أيضاً. وأذكر انه لمناسبة حفلة المعمودية وضعت المسكرات - الملبس والبندق وما الى ذلك - في الكان (الطشوت الكبيرة) الغسيل وخلطت قبل ان توضع في علب أو أكياس لتوزع على الذين حضروا العماد في الكنيسة.

أعرف اننا انتقلنا من باب مصلى (بيت الشاوي) الى القدم - الى بيوت مؤسسة سكة حديد الحجاز، وأرجح ان هذا كان في أواخر ربيع ١٩١١، إذ أن الذي لا تزال ذكراه قائمة في نفسي هو ان نقلتنا جاءت بعد وفاة أخي قسطنطين.

وهنا بدأت صفحة جديدة في حياتي.

كنت قد أرسلت الى المدرسة في مطلع تلك السنة. والمدرسة التي أدخلتها كانت مدرسة الفرير القريبة من بيتنا؛ وهي أقرب الى ما نسميه اليوم دار حضانة. لكن انتقالنا الى القدم كان معناه الامتناع عن الذهاب الى المدرسة. فالقدم مكان بعيد حتى للكبار، فكيف بالنسبة للصغار. ولعلي لم أرسل الى تلك المدرسة بقية الفصل المدرسي بعد انتقالنا الى القدم. إلا أن الأمر حسم في مطلع العام الدراسي الثاني. حسمه عرابي أسعد صيلقي. كانت تقوم على مقربة من بيتهم مدرسة خاصة، وهي التي كان يذهب اليها ابنه فريد، وهو من سني. إذن أذهب أنا الى تلك المدرسة، وأقيم عندهم في البيت. وأقضي يومي السبت والأحد في بيتنا. وهكذا حلت المشكلة.

لست أذكر كيف تلقيت الأمر عند البدء بهذه المعيشة المقسمة، لكن الذي أذكره الى الآن هو أن الأوقات التي قضيتها هناك كانت سعيدة. البيت كبير، وفريد صديق عزيز علي، وعمي أسعد وزوجته ثلجة كانا يعاملاننا كما لو كنا أخوين. مواعيد الدرس والنوم واللعب جميعها معينة معروفة. ووقت القصص التي كانت تحكيها لنا أخت أسعد، وقد أنسيت اسمها، كان معروفاً. والمدرسة كانت مكاناً سعدنا به كثيراً. أظن انه لم يعلمنا فيه معلم قط؛ تعليم صفنا لمدة السنتين وبعض السنة كان على يد معلمات لطيفات. كنت أسر كثيراً عندما أذهب الى البيت. وكان أبي يتابع أعمالي المدرسية بعناية. وهذا كان يشجعني. وأيام الفرص التي كنت أقضيها في البيت كانت أيام تدريب لي. فأبي كان يعطيني رفشاً صغيراً كي أساعد في الحديقة، نكشاً وسقياً وتعشيباً؛ وأمي كانت تكلفني

أعمالاً صغيرة في المطبخ؛ وكانت أختي ماري تكره ذلك لانني، بوصفي أكبر منها بسنة، كنت أسرع منها في انجاز ما يطلب مني. فكانت كثيراً ما تحرد، وتنتظر عودة أبي من العمل لتشتكينا له.

أعرف أن أمي تغيبت عن البيت بعض الوقت، واعرف انها لما رجعت كان ينتظر منها ان تستريح. يخيل الي ان هذا كان في صيف سنة ١٩١٢، إذ انني كنت يومها مقيماً في البيت. لذلك أصبح علينا أن نعمل - أنا واختي - أكثر من ذي قبل. وقد جاءت خالتي صوفيا فقضت عندنا بضعة أيام للمساعدة والتسلية. وكانت هذه اياماً سعيدة بالنسبة لي. فانا كنت فعلاً أحب خالتي.

على أن هذا كله لم يكن الشيء المهم. ان الشيء المهم كان في الحديث الذي يدور في البيت وأمام الزوار وخلاصته ان أمي يجب أن لا تحمل، لأن هذا يعرض حياتها للخطر. ومعنى هذا أنني لن يتاح لي أن يكون لي أخ آخر أو أخت أخرى. ولعل هذا هو ما أثار في نفسي هذه الأسئلة الكثيرة حول الأقارب التي عرضت لي والتي القيتها على أبي في صيف سنة ١٩١٢.

على أن الأمر الذي كان الكل يخشاه حدث. ففي مطلع سنة ١٩١٣ اتضح لنا أن أمي حامل. وكم خشيت ان اعود من بيت عمي أسعد في أحد الأيام فاجدها قد ماتت. إذ أن هذا هو الحديث الذي تردد طيلة شهور في بيتنا.

كانت أمي تذهب في أوقات معينة الى المستشفى الانكليزي لاجراء الفحوص اللازمة. وكانت تعود دوماً مطمئنة إلى أن كل شيء كان على ما يرام.

ولكن لم يكن الباقون - أبي وبعض الأصدقاء والجيران على قلتهم هناك - يقبلون ذلك دوماً. واخيراً اقترب الوقت كي تدخل أمي المستشفى لتلد، على أن تقضي هناك أياماً إضافية كي تعالج معالجة خاصة.

كنت أيام وجودها في المستشفى في البيت - شهر حزيران ١٩١٣ - وكنت أصلي من أجلها بحرارة. وأخيراً وضعت صبياً في ٢٤ حزيران من تلك السنة، ثم جاء اليوم الذي عينه الطبيب لمغادرتها المستشفى. في ذلك اليوم استأجر أبي حنطوراً حملنا نحن الثلاثة - هو وأنا واختي - وحمل معنا خروفاً مسمّناً كان أبي يعنى به دون أن يقول شيئاً. كان هذا هدية للطبيب (يعني للمستشفى). وفي المستشفى وجدنا أمي وأخي وقد أعدا للرحلة الى البيت، وجاء الطبيب فودع الجميع، وقال لي (وكان يجيد العربية، ويتكلمها باللهجة الشامية): صار إلَك أخو، واسمه مثل اسمي.

من هنا كانت تسمية أخي الفرد، وهو اسم الطبيب. لكن لما حان موعد عماده فُتش له عن اسم قديس ووقع الاختيار على فلاديمير، وهو قديس كبير في الكنيسة الارثوذكسية الروسية. ولكن لماذا هذا الاسم البعيد؟ كان لخالتي زميلة تعمل معها ممرضة في المستشفى. وكان لهذه خطيب روسي الأصل اسمه فلاديمير، فَرَجَتْ أهلي أن يطلقوا هذا الاسم على الفرد. وهكذا كان. وعلى كل فقد كان من حظ أخي ان اسمه الأول - الأقصر والأسهل - هو الذي شاع، فيما نُسيَ الاسم الآخر بالمرة. (وكنت أنا قد نسيته الى أن ذكرتني أمي به فيما بعد). ونحن كنا، في الواقع، نسمع اسمه الفرد يُلفظ باشكال مختلفة في جنين، خصوصاً وانه كان على شيء من الشقاوة، فكان ينادى «بألف قرد»، وحتى الشيخ الوقور سعيد مرعي دعاه بهذا الاسم مرة. وهذا ما حمل أخي الفرد أن يأتي البيت حانقاً (وهو في سن السابعة تقريباً) ويقول لامي: خلص أنا ما بدي هالاسم، بدي غيره، لأن الناس ينادونني «الفقرد». ولما سألته أمي عن الاسم البديل، قال دون تردد («محمد» لانه ما حدا يلفظه بشكل آخر).

عادت أمي الى البيت بعد ولادة الفرد، استراحت أياماً اضافية، وذهبت لزيارة الطبيب بضع مرات ثم ثبت للجميع انها حملت وولدت ولم تتعرض صحتها لاي خطر.

بل الذي حدث انها حملت مرة أخرى ووضعت أخي الأصغر جورج في ٢٧ نيسان سنة ١٩١٥.

لكن لما جاء جورج كنا قد تركنا بيت السكة الحديدية وانتقلنا لفترة قصيرة الى بيت سليم شموط، حيث ولد

اخي على يد قابلة. أظن أن والدي لم يستطع يومها أن يدفع نفقات المستشفى.
كان الألمان يسيطرون على ادارة سكة حديد الحجاز سيطرة تامة. صحيح انه بعد البدء بالعمل انضم الى المهندسين الألمان عدد من العرب والمسلمين خاصة إذ أن الالمان المسيحيين لا يمكن ان يعملوا في الحجاز. وقد تولى جماعة من العرب حتى بعض الشؤون الادارية. لكن القول الفصل ظل للالمان. وإذا تذكرنا أن العمل في السكة الحجازية، خاصة بعد ١٩٠٥، اتفق زمنياً مع تقوي النفوذ الالماني سياسياً وعسكرياً في استانبول، أدركنا ما كان يمكن ان يتعرض له العاملون العرب في سكة حديد الحجاز على أيدي رؤسائهم الألمان. ويبدو ان الذي مكّن لوالدي، بعد نقله الى دمشق، من الاستمرار في العمل سنوات يعود الى أن رئيسه كان من طينة المانية ألين أو أنقى أو أصفى. لكن هذا الرئيس تبدل في مطلع سنة ١٩١٤، وقامت الخلافات بين الرجلين، ويبدو ان أبي لم يُنْصَفْ، فقرر ترك العمل، على ما عرفت من أمي فيما بعد. وكان ذلك في أواخر صيف ١٩١٤.
أما الذي أدركته انا من القضية هو التبدل في حياتنا. فقد كان على أبي أن يتخلى عن بيت السكة، وبسرعة. فانتقلت الأسرة، وكانت الآن أبي وأمي وأنا وماري والفرد، الى بيت خشبي مؤقت هو جزء من بايكة كبيرة. والاقامة لم تطل هناك إذ حمل أبي وأمي الأسرة الى بيت سليم شموط، في الميدان أيضاً. هذا البيت كان يقع في الطابق الأول، وكان صغيراً ومرتباً، لكن الحي لم يكن على ما يجب.
أذكر الى الآن أنه كان على مقربة من بيتنا دُكان صغير تباع فيه حلويات الأطفال. ملبّس (لم نسمه يومها بومبون، لأننا لم نعرف الكلمة) وقضامة وقرمش وغزل البنات. كنا نحصل على خرجية بسيطة هي نحاسة (وقيمتها القانونية هي واحد من ٦٤٠ جزء من الليرة العثمانية). ولكن كان يكفينا نصفها لنبتاع ملء اليد (الصغيرة طبعاً) من هذه الأشياء المنوعة مجتمعة. واذكر أنه كان الى الجهة الغربية من المبنى ساحة مهملة كنا نلعب فيها أيام العطلة الصيفية.

وفي بيت سليم شموط، في الميدان، ولد أخي جورج، وكان اسمه عند الولادة والعماد ميشيل، ولكن لتبديل اسمه قصة لعلني أتذكر ان أرويها في مكانها. وولد على يد قابلة. ولم أدر يومها لماذا حدث هذا بعد ان ولد الفرد في المستشفى. لكن أمي أخبرتني فيما بعد ان العمل الذي حصل عليه أبي بعد تركه الشركة لم يكن مربحاً مثل قبل، ولذلك كان على الوالدين أن يتدبرا الأمور بالتي هي أهون أو أيسر، وقد لا تكون الأحسن.

أما أبي فقد عمل سائقاً للترامواي في دمشق، وكانت ساعات عمله طويلة، فلم أكن ألقاه إلا قليلاً، باستثناء أيام عطلته. ومع كل ما كان يقع على كاهله من تعب ومسؤوليات كان يعنى بدروسي. أما المدرسة التي ذهبت اليها بعد عودتنا الى الميدان فكانت مدرسة الفرير، التي قضيت فيها بعض الوقت من قبل. وكان والدي يجيد العربية، لذلك كان عوناً لي في هذا الموضوع. وأذكر أنني لما أدخلت المدرسة وفحصت وعين الصف المناسب لي، حضرت الدرس الأول باللغة العربية وكان الكتاب جزءاً من «مدارج القراءة» لجرجس همام. وكان المعلم - وهو راهب - يوقفنا صفاً على شكل شبه دائرة حوله في بعض الأوقات، ويقرئنا. فاذا أجاد الواحد منا نقله المعلم الى اليمين (يعني رفع مركزه) وإذا اخطأ نقله يساراً. أما إذا كان خطاه كثيراً فانه يعاقب بالطبشة عدداً من الضربات على يده، بحيث يتناسب عددها مع عدد أخطائه. والطبشة هي خشبة طويلة كفاية للضرب، لها عند القبضة يد مدورة، ثم تمتد كأنها لوح صغير من الخشب، بحيث انها عندما تستعمل لضرب الولد على يده تغطي اليد كلها؛ فلم تكن كالخيزرانة أو العصا. والذي أعرفه أنني لم أذق طعم الطبشة، بل كان المعلم ينقلني يميناً المرة بعد المرة، حتى أصبحت على رأس نصف الدائرة. ولا شك أنه كان للعون الذي كنت أتلقاه من أبي فضل في ذلك.
كان أبي موعوداً بعمل جيد، ولكنه قبل ان يحصل عليه، طلب للجندية. فقد كانت الحرب العالمية الأولى قد

قامت، ودخلت تركية الحرب الى جانب دول الوسط أي المانية وحليفاتها.

قبل ذلك، وقبل أن يولد أخي الأصغر، تركت خالتي صوفيا دمشق وعادت الى الناصرة. كانت، كما عرفت فيما بعد، مخطوبة لرجل شامي من بيت سماره؛ لكن خلافاً قام بينهما، ففسخت الخطبة، وقررت خالتي أن تعود الى بيت أبيها، لأن أبويها في الناصرة كانا يومها وحيدين، فقد تزوجت كاملة وانتقلت الى كفر ياسيف. واخذت خالتي أختي ماري معها، على أساس انها يمكن ان تعود مع خالي عندما ياتي لزيارتنا. ولكن خالي لم يأت يومها، وظلت ماري عند بيت جدها، ولم أرها إلا سنة ١٩١٦ لما رجعنا الى الناصرة.

وانتقلنا من بيت سليم شموط الى بيت عرب، في الميدان أيضاً. لكن بيت عرب كان كبيراً وفيه عائلات كثيرة وله ساحة واسعة مبلطة لكنها بدون بركة. وأحسب أن أبي فضّل أن تكون أمي بين عائلات، إذ أنه كان يتأخر في ساعات عمله في الترامواي.

وقد كانت هذه النقلة مفيدة لنا لما انتهى الأمر بأبي أن جند، وكنا وحدنا، أمي وأطفالها الثلاثة، والصغير رضيع.

بالنسبة لي كانت دمشق يومها تمتد من (ساحة) المرجة الى الميدان التحتاني. طريق الترامواي، وبعضها كنا نمشيها دوماً. وأهم ما كان يتفرع منها سوق الحميدية، الذي كان يتعامد على سوق النحاسين (شارع جمال باشا اعتباراً من أواخر ١٩١٤ أو أوائل ١٩١٥). سوق الحميدية لم يكن مجموعة من الحوانيت والدكاكين التي تبيع مصنوعات مستوردة من قماش ونيلون والومنيوم وارز وسكر كما هي الحال اليوم. لا لا. سوق الحميدية كانت الحوانيت فيه تحتوي على أجمل المصنوعات الشامية والحلبية من أقمشة البروكاد وشراشف التنتنة وأغطية اللحف الحرير وصايات القنابيز الحريرية والديما (القطنية) وحرائر ثياب العرائس والمرايا ذات البراويز النحاسية والفضية التي صنعتها أيدي مهرة الصناع السوريين والخزائن المزخرفة والطاولات والكراسي المطعمة بالصدف وعلب لعب الطاولة الأنيقة الصنع والأراكيل العادية والمذهبة ونرابيشها الملونة وملاقطها النحاسية. كانت هذه الحوانيت محط انظار أهل العروسين لشراء ما يجب: القماش مع التخريج والأزرار والكلفة، والقنباز الذي يخيطه الخياط العربي في سوق الحميدية ويثبتت ازراره مكانها بعد ان يلف حولها الأبريم الحريري الرفيع. وفي حوانيت سوق الحميدية كانت تبتاع المناشف التي تحملها السيدات الى الحمام، وهي لم تكن تقل أناقة عن الثياب، والطاسات النحاسية التي ترافق بقجة الحمام، وإن كانت لا تستعمل. والى المنشفة والطاسة كان لا بد من الوزرة الحريرية (أو القطنية) الملونة والمزخرفة خطوطاً حمراء وعنابية وسوداء، لكن لم يكن فيها زخرف صور.

وحوانيت سوق الحميدية كانت واسعة ومجهزة بأماكن للجلوس. إذ قلما كانت السيدة تذهب منفردة. فهي اما انها تصطحب جارتها (أو تفرض جارتها نفسها عليها)، أو تكون في رفقة أخريات خصوصاً عند تجهيز العروس. وحتى الرجال كانوا يذهبون ثنى أو جمعاً. الشراء - شراء الأشياء - سواء للنساء أو للرجال، كان بحاجة الى الرأي المشترك أولاً. ثم كان من المناسب، إن لم يكن ضرورياً، ان يكون أحد أعضاء الجماعة يعرفه صاحب الحانوت، ليعرف الجماعة عليه وبالعكس.

شراء الحاجيات، من أي حانوت، كان دائماً مرتبطاً بالمعرفة الشخصية. ولا يزال مجتمعنا الى الآن (انا اكتب سنة ١٩٨٨) يربط بين الشخص الذي يبيع وما يريد أن يبتاعه؛ المحل / الشخص / السلعة مرتبطة الواحدة منها بالاخرى ومن هنا كان للجماعة أهمية في الشراء. يضاف الى ذلك ان المساومة (المفاصلة) كانت أمراً عادياً مألوفاً في عملية البيع والشراء. والجماعة أقدر على المساومة من الفرد.

كان على مدخل سوق الحميدية، من جهة شارع جمال باشا صُناع القيمق (الدندرمة، البوظة، الجيلاتي)

الذين يقومون بخفقه وضربه في أوعية كبيرة. ولأنهم كانوا يضيفون المستكا (المسطكي) له كان يمطّ. ومع القيمق كان هؤلاء الناس يحضرون الليموناده. كل ذلك كان طازجاً، يحضَّر يومياً تقريباً. وفي أيام الشتاء كان هؤلاء الباعة أنفسهم يهيئون البزورات والقرفة والشاي.

والزبائن كانوا على نوعين. الواحد هو الفئة التي تقصد هذه الاماكن لأكل القيمق أو شرب الليموناده أو البزورات والقرفة أو الشاي. وهم في غالبهم من الذين يصلون سوق الحميدية للشراء، أو الذين يقصدون الجامع الأموي للصلاة. فالجامع الأموي كان يقع عند النهاية الشرقية لسوق الحميدية. اما النوع الثاني من الزبائن فكان الجماعات التي تقصد الحوانيت للشراء. إذ كان صاحب الحانوت يضيفها، تكريماً لما يمكن أن تشتري. ومن القصص التي كانت تروى عن تجار سوق الحميدية ان صاحب الحانوت كان، عندماتدخل عنده جماعة من الزبائن، يطلب من الصبي الذي يعمل عنده أن يحضر للزوار الشاي أو ما يطلبون. وكان «الصبي» «يمغيب»؛ فاذا لم يبتع القوم شيئاً من الحانوت، أو كانت البيعة على قد الحال فلا قيمق ولا ما يحزنون. أما إذا تم البازار وكان «بيحرز»، عندها يصرخ صاحب الحانوت على الصبي معزراً اياه على تقصيره، فيذهب ويحضر المطلوب.

كان الجامع الأموي مكاناً أقصده مع أبي للزيارة. كان أبي معجباً ببنائه وزخرفته وإيوانه وأعمدته وأبوابه. وكان يحدثني عنها، لكنني لا أدعي أنني كنت أدرك هذا كله أو حتى بعضه، إذ أن آخر مرة زرت الجامع صحبته كانت وانا في سن السادسة. لكن شيئاً واحداً حفظته وهو أن غليوم الثاني امبراطور المانية لما زار دمشق (١٨٩٨) زار الجامع الأموي ووضع رمزاً للاحترام على قبر صلاح الدين المدفون هناك. ولذلك لما قرأت، وقرأ معي أولاد صفي، في دار المعلمين في القدس سنة ١٩٢٢ قصيدة شوقي التي نظمها لهذه المناسبة، شعرت بشيء من الزهو لأنني كنت الوحيد الذي رأى ذلك. أما مطلع القصيدة فهو

عظيم الناس من يبكي العظاما

ويندبهم، ولو كانوا عظاما

كنا، سواء كنت مع أبي أو مع أمي، لا نكتفي بالمرور بسوق الحميدية، وقد نبتاع وقد لا نبتاع شيئاً، لكن كان لا بد من الدخول في بعض الأسواق الأخرى المتصلة بسوق الحميدية والتي كانت تبدو بالنسبة لي متاهات: سوق العطارين وسوق سروجا وسوق البزورية والقباقبية وما الى ذلك. في هذه الحوانيت كنا نرى ـ ونبتاع ـ الحلاوات على اختلاف أنواعها والمربيات والمسكرات والمكسرات وقمر الدين والنقوع والبهارات والعطور والثمار المجففة. وفي سوق القباقبية، كان يمكن للواحد ان يبتاع القبقاب العادي أو المزخرف، اما القبقاب المزخرف الخاص فلا بد أن يأتي من سوق الحميدية، سواء أكان قبقاباً للبيت أو قبقاباً للحمّام، وسواء أكان للعروس أم لقريباتها.

ومما كان يمكن ان يشرب في هذه الأسواق في أيام الصيف العرقسوس، وهو شراب، كما يعرف الكثيرون، يصنع من نقع جذور السوس (وكان يؤتى بالجيّد من منطقة حلب). وكان البائع يحمله في قربة ويحمل بيده الكاسات ويقرعها الواحدة بالأخرى بحيث يكون لها صوت منتظم، هو إعلان عن بضاعته.

ولم يقتصر باعة العرقسوس على الأسواق أو المرجة، بل كان هؤلاء القوم يحملون قربهم الى الحارات والأزقة في فصل الصيف، وهم يقرقعون بطاساتهم، وكان السكان يخرجون ويبتاعون منهم كميات توضع في أباريق كي يستمتع بها أهل البيت في السهرة. وكان البعض منهم يحملون القرب على عربات صغيرة ويحملون معها قطعاً من الثلج الطبيعي ملفوفة بخيش، كي لا تذوب بسرعة، فكان البعض يبتاع قطعة من الثلج يضيفها تدريجياً الى العرقسوس كي يظل بارداً.

اما الثلج الطبيعي فكان يحمل من جبل الشيخ، ويخزن في مخازن خاصة به، بحيث لا يذوب. وقد كنت استغرب كيف يظل الثلج كذلك حتى رايته بنفسي في مخازن الثلج. لكن اي عجب أو استغراب زال فيما بعد لما قرات انه في أيام الفاطميين في مصر (٣٥٧-٥٦٧/ ٩٦٩-١١٧١) والمماليك (٦٤٨-٩٢٢ / ١٢٥٠-١٥١٧) كان الثلج يحمل صيفاً من جبال لبنان ومن جبل الشيخ الى القاهرة اما على الابل أو في البحر كي يستمتع أولو الأمر بشرب الماء المثلج في حر القاهرة.

ساحة المرجة كانت قلب دمشق من حيث تفرع الطرق منها الى جهات المدينة. بعضها يذهب الى الصالحية، على سفح جبل قاسيون حيث يقوم ضريح ابن العربي (تو / ١٢٤٨). والصالحية، كما عرفت بعد سنوات، نمت لما استقر بها بنو قدامة الذين هاجروا من سلفيت، في جهات نابلس، الى دمشق بسبب احتلال الصليبيين لبلادهم.

المهم في الصعود الى الصالحية هو انك من هناك ترى دمشق منتشرة أمامك من الغوطة الى الصالحية ومن الشمال الى القدم. وترى الجامع الأموي يكاد يتوسط المدينة. هذا كان يومها، اما الآن (١٩٨٧-١٩٨٨) فقد اختفت الغوطة تقريباً، بسبب الحاجة الى دور السكن، وامتدت أحياء الميدان الى القدم تقريباً. والطرق الضيقة التي كانت تدور حول المدينة وداخلها، استعيض عنها بطرق واسعة تتمركز حول البحرات السبع وتنتشر منها: شارعا بغداد وحلب وغيرهما.

وكانت هناك جنينة الحليب. وهي حديقة على مقربة من باب توما. جنينة الحليب كانت خاصة بالعائلات. وكان فيها مكان خاص للصغار يلعبون فيه. جنينة الحليب أصبحت ملجأنا للنزهة بعد ان ترك أبي العمل في سكة حديد الحجاز. أما قبل ذلك، وبعد عندما تسمح الظروف، فقد كان مكان النزهة الاسبوعية لموظفي السكة في دُمّر. السفر بسكة حديد دمشق - بيروت (في الصباح والعودة في المساء) مجاناً. ودمر فيها اماكن جميلة للسيران (أي ليوم الشطحة أو شمة الهواء). أذكر ان أمي كانت تقول يوم نذهب الى دمر كان أبي يضع في جيب صداريته نصف ليرة عثمانية ذهباً ويقول هذه لهذا اليوم.

إلا ان السيران لم يكن الى دمر فقط. كان هناك المزة وغيرها. وهنا كان على الذاهبين ان يلجأوا الى الدواب. والمهم ان امي أخبرتني فيما بعد انه عندما كانت الأسرة تعتزم سيراناً من هذا النوع كان أبي يستأجر دابة خاصة مع خرج (أي مع كيسين محيكين معاً، يقع كل كيس منهما على جهة من جهات الدابة - البغل أو الحمار) وكان أبواي يضعانني أنا في عين من عيني الخرج، ويضعان أختي ماري في العين الأخرى.

وكانت لنا زيارات للمستشفى الانكليزي، اما لزيارة خالتي أو لزيارة الطبيب، الذي كانت تربطه بأبي صداقة متينة.

كانت كاتدرائية طائفة الروم الارثوذكس، وهي، مع ما حولها، مقر البطريركية الأرثوذكسية (الانطاكية) هذه كانت كنيستنا أولا، لكن كانت زيارتنا لها لا تنتهي عند الفراغ من القداس الالهي. كانت العادة ان يذهب المصلون لزيارة البطريرك. وكان بطريرك الارثوذكس يومها غريغوريوس حداد (١٩٠٦-١٩٢٨). فكنا إذا ذهبنا لحضور القداس الالهي نذهب لزيارة البطريرك. ولم أكن أعرف لماذا نزور البطريرك، وأهم من ذلك اننا كنا نلقى رعاية من غبطته. ظل هذا غير واضح لي إلى أن عرفت أن خالي - ايليا ديب - كان مطراناً في الكرسي الانطاكي وكان متروبوليت صور وصيدا وتوابعهما. ولو انه كان يومها في أبرشيته، وقلما يكون في دمشق. وانا لم أعرف خالي المطران فقد غادر البلاد (١٩١١) الى اميركا الجنوبية لزيارة ابناء الطائفة الكثر في البرازيل والارجنتين والتشيلي، أملاً في ان يجمع من المغتربين من ابناء الأبرشية مالاً لاصلاح شؤون الكنائس والمدارس وتقوية هذه. ولكن لما وقعت الحرب العالمية الأولى لم يتمكن من العودة. وأقام طيلة ايام الحرب في تلك الربوع،

وانتهى به المطاف بان استقر في سنتياغو (عاصمة تشيلي). والذي كنا نعرفه عنه هو أنه مرض هناك وأصبح يرى انه لن يتمكن من العودة والعناية بأبرشيته (صور وصيدا وتوابعهما). واستأذن غبطة البطريك حداد في البقاء هناك، سيما وأنه كان هناك طائفة أرثوذكسية كبيرة. فسمح البطريرك بذلك، ولكنه لم يستطع ان يعينه مطراناً هناك إذ لم تكن ثمة ابرشية في تلك الديار. وقد حلت المشكلة بان خالي بقي في سنتياغو بحيث يعنى بالطائفة بوصفه قد رسم مطراناً من قبل، وكان يوقع «ايليا ديب، متروبوليت صور وصيدا وتوابعهما سابقاً».

وقد راسلته فيما بعد، وكانت عندي منه رسائل كلها تشجيع خاصة بعد ان قرأ المقالات التي نشرتها في المقتطف في سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١. ولهذه كلها مكان في هذه الحكاية، آمل ان اتحدث عنها فيما بعد. وقد فقدت رسائله إلي في القدس سنة ١٩٤٨، يوم نهب بيتي.

كانت في دمشق ثلاثة مبان فخمة اذكرها من تلك الأيام، إلا انني يجب أن لا أنسى أنني رأيتها بعد ذلك مرات متعددة. الواحدة كانت المشيرية التي تقع على الضفة اليمنى لنهر بردى قبل أن يدخل المرجة. أما سبب تسميتها بالمشيرية فهو أنها كانت مقر المشير الرسمي. من هناك كان المشير يدير اقسام الولاية. والمبنى الثاني الكبير، وكان - ولا يزال - يقوم على مقربة من المشيرية هو محطة القنوات وهي نقطة الانطلاق الرئيسية لسكة حديد الحجاز - أي الى المدينة المنورة. وفي مقابل المحطة كان مبنى فندق أورينت بالاس. وقد كان يومها الفندق الممتاز في دمشق. ولم يكن من اليسير النزول فيه. فقد كان أبي يقول ان هذا الفندق خاص بكبار زوار الحكومة ومؤسسة سكة حديد الحجاز.

في الايام التي قضيتها في بيت نقولا الشاوي من طفولتي كان، فيما أذكر، أطفال تقرب أعمارهم من عمري. اما لما انتقلنا الى مباني السكة في القدم لم أجد هناك من يمكنني أن ألعب معهم. فقد كان ثمة أطفال لا أفهم كلامهم ولا يفهمون كلامي. انهم ألمان. لذلك كانت العابنا محدودة.

لكن الشيء الذي لم اكن أتعب من مشاهدته هو هذه القطارات التي كانت تأتي الى محطة القدم واصلة من درعا أو عمان أو المدينة المنورة أو من حيفا، والتي كانت تخرج من تلك المحطة الى الاماكن المذكورة. قاطرة تدور كي تنتقل الى الجهة المقابلة من القطار فتسحبه شمالاً مثلاً بعد ان كانت تجره جنوباً. ولأن والدي كان يعمل في تلك المصلحة كان يسيراً علينا أن ندخل المحطة في اي وقت تقريباً.

لكن اثناء اقامتنا في مباني السكة كنت انا أقضي الوقت الأطول من الاسبوع في بيت عمي أسعد، وهناك كان فريد من جيلي وكذلك ابن خليل وابن الياس يارد. وفي أوقات المدرسة كانت هذه نعم المكان للدرس واللعب.

وكان آخر بيت سكنا فيه بيت عرب. كان البيت كبيراً واسعاً. ساحته أو عرصته اذا كنت تفضل هذه الكلمة، كانت مبلطة ببلاط أحمر. وكانت واسعة - أوسع ساحة لبيت سكنته في دمشق. والذي أذكره من البيت الآن يؤكد لي انه لم يُبن وفق مخطط معين، أو لعل الأصح القول إن المخطط الأصلي أُدْخِلَت عليه تعديلات كثيرة. فالساحة الأصلية كان الوصول اليها يتم عبر ممر طويل نسبياً يدخله المرء خلال بوابةٍ ذات بابين - على نحو ما كانت أكثر البيوت الكبيرة. البوابة الصغيرة كانت للناس عند دخولهم عاديين، اما الثانية فكانت أكبر وكانت تفتح عند الحاجة.

فاذا وصلت هذه العرصة رأيت الى يسارك مجموعة من الغرف، لها بابها الخاص، كانت تسكن فيها عائلة عرب، وهم المالكون. وكان امامك مدخل الى غرف، أوسع من تلك شكلاً، كانت تقطنها اسرة لم يكن لها ببقية السكان اتصال خاص. وكل ما أذكره عن الرجل الذي كان يخرج صباحاً ويعود مساء انه كان يلبس نظارة (كُزْلُك). وفي الجهة اليمنى كانت تقوم غرفتان ومطبخ وهو المكان الذي استأجره أبي وكنا نقيم فيه والى جانب

غرفتينا كان يرتفع درج يوصل الى ما كان يسمى الطابق الفوقاني، ولم يكن هذا سوى ثلاث غرف صغيرة كانت تقوم فوق شقتنا. واذكر ان أبي يشير الى هذا البيت الفوقاني ويقول انه مبني بدون إذن.

انتقلنا الى بيت عرب وجورج أخي طفل (وهو مولود في ٢٧ نيسان ١٩١٥). ولم يقم أبي معنا سوى مدة قصيرة بعد ذلك. إذ أنه جند، وضم الى السوقيات.

من الأماكن التي ظل اسمها راسخاً في ذهني من أيام دمشق الأولى «جنينة الحليب». ظلت جزءاً من محتويات ذاكرتي الدمشقية. واذكر انني كنت أسأل عنها في زياراتي للمدينة، فلا أجد من سمع حتى باسمها.

وفي سنة ١٩٧٨ كنت أركب سيارة أجرة (تكسي) في دمشق وأنا متجه الى شارع حلب. ولاحظت ان السائق متقدم بالسن نسبياً، فسألته فيما إذا كان يعرف أين كانت جنينه الحليب. فأوقف السيارة والتفت الي. وأنا الى جانبه. وسألني كيف أعرف انا عن جنينة الحليب وأنا غريب! وأضاف ان هذه زالت من الوجود من أكثر من أربعين سنة. ولما أخبرته عن سبب اهتمامي بها، قال لي هناك عند مدخل شارع حلب توجد ساحة (ميدان) وعلى طرف الساحة تقوم كازخانة (أي محطة بنزين) وهذه تحتل جزءاً مما كان جنينة الحليب. لما سمعت هذا ساحت عبرة على خدي. ولما وصلنا الى المكان الذي أقصده، أردت أن ادفع للرجل، فرفض، وقال يكفيني أن أحد ركابي ذكرني بجنينة الحليب، فنحن أبناء ذلك الحي.

غادرت دمشق مع أمي وأخوي الفرد وجورج - من دون أبي الذي كان قد غيّبه الموت - في ربيع سنة ١٩١٦. وجئتها زائراً (لأول مرة بعد ذلك) سنة ١٩٢٥. وقد كتبت فيما بعد عن تلك الزيارة: «وأخيراً عدت الى زيارة دمشق»

«عدت لأستعيد ذكرى طفولة عذبة قضيتها في ربوع هذه المدينة، ثم انقطعت عنها سنوات طويلة. تركتها وقد لعبت مع صبيتها وتسكعت في أزقتها وركضت في منتزهاتها، وعدت لأستعيد تلك الذكرى، فاستمتع منها بساعات عذاب؛ وعدت إليها كذلك شاباً ملءُ بُرْدَيَّ رغبة في استطلاع معالمها واستنطاق آثارها واستقصاء انبائها. عدت وكلي شوق الى ذلك، فلبت دمشق شوقي واطفأت حر ظماي واشبعت بعض نهمي. فهذه الحارات التي لعبت فيها وهذه الأزقة التي قضيت فيها ساعات بدون قصد أو غاية، وهذه، الى جانب تلك، معالم التاريخ تنادي بأعلى صوتها مشيرة الى الدور الذي مثلته دمشق على مسرح التاريخ الانساني، فرددت قول شوقي.

وذكرى عن خواطرها لقلبي … اليك تلفت أبداً وخفق

وكيف لا يخفق القلب عند ذكر دمشق».

لما دخلت تركية الحرب العالمية الأولى في خريف ١٩١٤ الى جانب دول الوسط (المانية والامبراطورية النمساوية - الهنغارية وحلفائهما)، أعلنت الحكومة النفير العام في الولايات العثمانية، بما في ذلك الولايات العربية. واعلان النفير العام كان معناه وضع قانون التجنيد الاجباري موضع التنفيذ، (فالقانون كان قائماً) وبدأ أخذ الرجال الى الجندية، ليقوموا بخدمة دولتهم. وكانت ثمة شروط تحمي البعض من التجنيد، كأن يكونوا من موظفي الدولة.

لما كان والدي يعمل في سكة حديد الحجاز اعتبر موظفاً في الدولة فلم يطلب للجندية، لكن والدي كان قد ترك هذا العمل. عندها أصبح من حق الدولة أن تجنّده. إلا أن الدولة العثمانية كانت قد وضعت في قانون التجنيد الاجباري شيئاً اسمه «البَدَل». إذا كانت ثمة حجة قانونية تحول دون تجنيد رجل، فيدفع البدل وقيمته اربعون ليرة عثمانية. فباعتبار أن والدي كان يقيم مع أسرته منفردين في دمشق، وليس لها من يهتم بها، أعفي من

التجنيد ودفع البدل. ولأن الحكومة كانت أدخلت النقد الورقي قبل ذلك بقليل، وفرضت التعامل على أساس النصف من الذهب والنصف من الورق (هكذا كانت الدولة تدفع المرتبات - عندما تدفعها)، فقد ترتب على والدي ان يدفع عشرين ليرة عثمانية ذهباً - وهذا هو المهم، وعشرين ليرة ورقاً (وهذا أمر تافه). لكن أولاد الحلال كثار، كما يقول المثل، فلم يلبث والدي أن طلب الى الجندية ثانية، وذلك بعد نحو شهرين من دفع البدل الأول. ولما احتج كاد أن يسجن. وعندها تقدم بحجة ثانية، كانت مشروعة في قانون التجنيد، وهي انه مسيحي، ولذلك يستطيع ان يدفع البدل (ثانية طبعاً). وهكذا فعل. وعندها دفع عشرين ليرة عثمانية ذهباً (للمرة الثانية). على أن هذا لم يخلصه من أيدي أولاد الحلال، لذلك دعي بعدها الى الجندية. (أظن أن المسؤولين كانوا يتلاعبون بالايصالات، لذلك لم يظهر في القيود أثر لدفعة البدل الأول أو البدل الثاني). ولم يكن لديه المال اللازم. (وكان قد أمّن على حياته في شركة تأمين المانية، لكنها تبخرت من دمشق بعد اعلان الحرب). لذلك سيق عبده عبدالله زيادة جندياً.

وصل جمال باشا الى سورية حاكماً عاماً لبلاد الشام وقائداً للجيش الرابع، وكان من الأمور التي عهد بها اليه ارسال حملة الى السويس لمهاجمة مصر (لا نريد ان نتحدث هنا عن حكم جمال باشا ولا عن أحداث الحرب فهذه أمور بعيدة عن المقصود من هذه الرواية الخاصة). وهي خطة المانية كان المقصود منها رفع الضغط عن خطوط القتال في أوروبة. وإذن فلا بد من اختيار الجنود الصالحين لاجتياز صحراء سيناء والهجوم على التحصينات البريطانية وما الى ذلك. وقد كان ممن وضع في الفرقة المعدة لذلك والدي. فبنيته قوية، وهو يجيد الالمانية ويعرف التركية كما ان له بعض الخبرة الهندسية بحكم عمله. سيق الى الجندية في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٥، وضم الى الفرقة (أو على الأصح الى إحدى الفرق) التي ستهيأ لحملة السويس. وكان افراد هذه الفرق يطلق عليهم اسم «سَوْقيّات».

والفرقة التي كان فيها والدي كانت تقيم، موقتاً طبعاً، في جامع المعلقة. فقد أفردَت فيه قاعة، هي احد الأروقة، كان الأفراد يقيمون فيها - نوماً وأكلاً وما الى ذلك.

عرفنا مكان والدي بعد جهد. ولأن الفرقة كانت تقيم في جامع، لم يسمح الضابط التركي وأعوانه لوالدتي بدخول الجامع. لكن انا كان يسمح لي بالدخول.

في أول الأمر ذهبنا نحن الاثنين - أمي وأنا الى الجامع، فدخلت أنا وحملت اليه بعض ما تيسر، وكان كل شيء يفتش تفتيشاً دقيقاً (بدون لهجة لطف أو ما الى ذلك)، وكانت أمي تنتظر على بعد خشية أن ينالها من كلام الضابط التركي ما يؤذي. ثم انفردت أنا بالزيارة اليومية - في برد دمشق وأنا في مطلع الثامنة من عمري.

في هذه الفترة التي قضاها والدي في جامع المعلقة لم يكن ثمة تدريب عسكري ولا من يحزنون. كان هؤلاء هناك مؤقتاً، ينتظرون أن تصدر الأوامر لنقلهم الى ميادين التدريب أو خطوط القتال - لم يكن أحد يدري، ولست أعرف فيما إذا كان المنجّم يدري!

لم يكن أبي يدخن. والتدخين كان ممنوعاً منعاً باتاً على هؤلاء القوم. والعثور على سيجارة بيد أحدهم كان يعرضه لعقاب شديد. ولكن كان بين جنود السوقيّات (كدت أقول سجناء السوقيّات) من يدخن وهو مستعد لدفع أي ثمن للحصول على دُخَيْنَة (من كلمات الأب انستاس ماري الكرملي)، بمعنى سيجارة. وفي يوم طلب أحد هؤلاء الجنود من أبي أن أحمل أنا معي له علبة سجاير، إذ لاحظ ان الحراس لم يعودوا يفتشونني، وقبل والدي الطلب، وقال لي أن أفعل ذلك.

في اليوم التالي حملت علبة السجاير مع ما جئت به. وكان في ذلك الحكم على والدي. فهذه العلبة وقعت في يد الضابط - ولا أدري كيف - وهي بعد مع والدي (أو لعله ألقي بها اليه ثانية عند بدء التفتيش - لا أدري). فغضب

الضابط وحكم عليه ان يقضي ليلة أو ليلتين على مئذنة جامع المعلقة.

لا شك أنه من الصعب على من لا يعرف بردَ دمشق في الشتاء أن يتصور معنى ذلك. ولكن حتى لو تصوّر ذلك تصوراً طبيعياً، فهناك أمور أخرى دخلت في الموضوع: أولاً بدون أكل، ثانياً بدون الغطاء. ولم يكن أي من هؤلاء الجنود عنده من الثياب ما يعينه على قضاء ليلة أو ليلتين في العراء. إن الجيش لم يكن قد سلمهم بعد الثياب الرسمية، فكانت عندهم ثيابهم العادية، وكانت كافية في الداخل.

ولم ينفع الرجاء. فأُصعد الى المئذنة بعد العصر. ولكنه لم يحتج الى اكثر من ليلة هناك. إذ لما جئت في اليوم التالي لزيارته قيل لي انه أنزل من المئذنة مريضاً ونقل الى المستشفى. كان عنده، على ما يبدو، بدءُ رشح، فتأثر من البرد وأصيب بالحمى فحُمل الى المستشفى!

ولكن أي مستشفى؟ من يدري! وأسقط في يدي، وعدت الى الى البيت باكياً.

وهنا بدأت الرحلة المزدوجة التي كنا نقوم بها أمي وانا، هذا عندما كانت تستطيع ان توكل احدى الجارات بأخوي الصغيرين! كان في دمشق عدد من المستشفيات. هناك واحد خاص بالالمان، وهذا لا يمكن ان يكون والدي فيه. وكانت هناك بضع أبنية عادية حولت مستشفيات، وهذه كانت للجيش. لكن من يمكن أن يحصرها أو يعرف تماماً أين هي. أوقات حرب، وجمال باشا يبطش والضابط التركي يعمل بكرباجه (بسوطه) لا بلسانه. ولا من قيود ولا سجلات.

كان في دمشق مستشفيان أجنبيان: الواحد المستشفى الانكليزي (وكان يسمى يومها مستشفى مكنو - على اسم الطبيب الذي كان فيه) في القصاع. والمستشفى الفرنسي في الجوار. وكانت لنا علاقة بالمستشفى الأول لأن اخوي ولدا فيه، أما المستشفى الآخر فلا نعرف فيه أحداً. لكن هذا ليس المهم، فحتى في المستشفى الانكليزي بالذات أصبح القوامون أتراكا من الجند. فالمستشفيان تابعان لدولتين عدوّتين لذلك صودرا.

هذه فترة لا أنساها من حياتي. الترام كان ينقلني من قرب البيت الى مكان قريب من أي مستشفى نستفسر عنه من الجيران، وأمشي الباقي. وتفعل أمي الأمر نفسه. ونعود لنلتقي بعد الظهر، وكل يحمل سلة فارغة. وقد نتبادل الزيارة للمستشفيات أملاً في أن يكون احدنا قد أخطأ.

لم يكن من فائدة أن تسأل عن اسم مريض. إذا تفضل الحارس وسمح لك، كنت تدخل غرف المرضى وتفتش عن مريضك بنفسك. الآهات والأنين والتوجع، إذ لم يكن من الأطباء ما يكفي عدداً، ولم يكن ثمة من العلاج ما يخفف الألم حتى ولو لم يشف، ولم تكن الأغطية كافية. ومن الطبيعي ان يكون المرضى موضوعين معاً، بقطع النظر عن نوع المرض.

في دمشق كان باعة الكوسى الملح (بعد نقره) يعدونه مونة للشتاء؛ وعند بيعه كانوا ينادون «العشرة بعشرة يا كوسا». والعشرة الأولى هي عدد الكوسى والعشرة الثانية هي عشر بارات أي ربع قرش تركي صاغ (وهي العملة الرسمية). وكان الأمر مألوفاً، فاذا سمعته عرفت البائع والبضاعة.

كنت إذا سألت عن أبي في مستشفى، ولم أجده مع المرضى، يقال لي فتش عنه مع الموتى. وفي يوم من الأيام تشجعت ودخلت المكان الذي فيه الموتى. كانت الجثث ملقاة على الأرض كما اتفق، لا ضبط للأطراف ولا تغطية إلا القليل جداً، وكانت المياه الباردة تدور بها كي تحفظها من التعفن. لا يا سيدي القارىء، لم يكن هناك مكان لحفظ الجثث. دخلت ونظرت وفزعت وهممت بالخروج. فإذا صوت يرن في أذني «العشرة بعشرة يا كوسا». تلفت فاذا برجل متقدم في السن (حسبته يومها عجوزاً، وما كان كذلك) ينظر الى الجثث ويصفّق بيديه وينادي مشبها الجثث، في حالتها تلك، بالكوسا الذي كان يُباع.

صعقني المنظر والصوت والوضع فخرجت راكضاً، دون أن أفتش عن والدي بين الموتى. ولم أروِ القصة

لأمي ليلتها (رويتها لها في الواقع بعد شهور، وبعد ان عدنا الى بلدتنا الناصرة)، ولكنني طلبت منها أن تعفيني من الزيارة في اليوم التالي لانني كنت تعباناً.

وما الذي كان يحدث لهذه الجثث؟ بطبيعة الحال لم تكن جميع هذه الجثث لابناء دمشق، وحتى جثث ابناء دمشق لم يُفتَّش عنها جميعها، أو لم يعثر أهل أصحابها عليها. فكانت تحمل في طنابر، وتحفر لها القبور الجماعية وتدفن هناك. وفي بعض الأحيان كان يطلب من أحد رجال الدين - مسيحياً كان أو مسلماً - ان يصلي عليها. ولكن حتى هذا لم يحدث دائماً.

أما المرضى أنفسهم فكانوا يوضعون جنباً الى جنب على تخت ان كان في المستشفى اسرة، أو على فرشة أو حصيرة على الأرض. وكانت الروائح - من المصابين بالمعدة أو الامعاء - تملأ المكان. والجرحى - وأكثرهم كانوا، فيما قيل لي فيما بعد، ممن جرحتهم سِياطُ الضباط الأتراك - كان الشيء الوحيد الحسن في حظوظهم أن الفصل لم يكن فصل صيف وذباب!

وفي يوم ذهبت أنا الى المستشفى الفرنسي - لعل وعسى. وفيما أنا أنقّل ناظري في الغرف - وهذا المستشفى ظلت لبعض قاعاته سررها - فإذا بصوت يناديني «نقولا». أبي هو الذي تعرف علي. وجه شاحب، جسم ضعيف (هو أصلاً نحيف الجسم على انه كان قوي البنية)، وكان الصلع قد ازداد في راسه كثيراً (كانت سنه ستاً وثلاثين سنة يومها). لكنه حيٌ ويخاطبني. وسمح لنا أن نتحدث بضع دقائق. وأخبرني عن نقله من مستشفى الى مستشفى الى أن وصل هنا. وقال انه أرسل لنا أخباره مع جار لنا كان مريضاً معه وتعافى وخرج. واستغرب والدي ان الجار لم يوصل الرسالة. أما انا لم استغرب. ان الرجل لم يتعاف، وانما ساءت حاله، ونقلوه الى حيث العناية به أقل كي يموت. وأنا كنت أعرف انه مات، وان أمي ذهبت لتعزية الجيران به قبل ثلاثة أيام.

وأخيراً أمَرَنا الحارس بالافتراق. ورافقني أبي الى الباب (وأوقف عنده بطبيعة الحال). وهبطت أنا درجات المستشفى القليلة، والتفت اليه، وكانت شمس شتاء دمشق الجميلة تلقي نورها على وجهه، فأعاد علي ما قاله في الداخل «سلم على أمك، وقل لها أنا طيب، وسأخرج بعد ثلاثة أو اربعة أيام».

وكان هذا آخر عهدي به.

لم يخرج. يبدو انه انتكس، وكانت النكسة شديدة، ونقل - لعل نقل كما نقل جاره من قبل - الى مستشفى آخر. هذا ما قاله لي الحارس لما ذهبت أبحث عنه بعد أن تأخر.

وبدأت عملية التفتيش من جديد. أمي الى مكان وأنا الى مكان. وكنا أحياناً نذهب الى مراكز الجند، لعلنا نعثر عليه هناك. وطال التفتيش وطال الانتظار، وضعف الأمل شيئاً فشيئاً.

وفي يوم ارادتني أمي أن أبقى في البيت الى جانب اخوتي، وذهبت هي بعد الغداء للبحث والتفتيش. وعادت، وكانت الشمس قد غابت، وكنت قد أوقدت شمعة وجلست أنتظرها، فأخواي كانا قد أخذتهما سنة من النوم. وإذا بها تدخل، وكأن جميع متاعب الأيام السابقة قد سقطت عليها مرة واحدة، وكأن خيبة الآمال كانت أكبر مما حسبت، فألقت بنفسها على الفرشة (نعم الفرشة، لأننا كنا بعنا الكثير مما عندنا لنعيش) وقالت يا نقولا أبوك مات!

***

لم نتبادل كلمة واحدة تلك الليلة. ولست أدري، بعد هذه السنوات الطويلة، أيّنا كان باستطاعته أن يُعين الآخر، ولا أقول يعزيه. ولكن في اليوم التالي سألتها عن المكان الذي دُفنَ فيه فأعادت عليّ حديثاً مقتضباً جرى بينها وبين كاتب لأحد المستشفيات الرسمية، وهو الذي أخبرها انه يوجد عنده اسم عبده عبدالله زيادة وأنه مات ودُفن.

قالت: وأين دفن؟
أجاب: هذا عبده خرستيان؟ (أي مسيحي باللغة التركية)
قالت: نعم خرستيان
فكان جوابه: يمكن في تربة مار جريس! (والله أعلم!).

* * *

وفتقت أمي بيت الفرشة التي كانت تجلس على طرفها، وأخرجت منها قطعة قماش ملفوفة على شيء، واخرجت هذا الشيء من الغلاف. كانت ليرة عثمانية ذهبية.

وقالت: هذا كل ما معنا يا نقولا!

الفصل الثاني

عادت أسرتنا الصغيرة من دمشق الى الناصرة في ربيع ١٩١٦. أسرة مكونة من أم قد نقهت من مرض التيفوس، وثلاثة صغار أكبرهم أنا، وكنت قد تجاوزت الثامنة من عمري بشهور، وأصغرهم تجاوز السنة الأولى من عمره قبل شهور. لكن خفف العبء، عبء السفر، ان جاءت خالتي صوفيا الى دمشق واصطحبتنا. كانت عودتنا من دمشق الى العفّولة بالقطار. كانت سفرة متعبة للكبار، لكنها كانت، فيما أذكر، ممتعة لي. وكان أكثر الركاب من الجند العثماني - (التركي في الواقع). فقد كان من سياسة الأتراك، خاصة إبان الحرب العالمية الأولى، والحكم بيد حزب الاتحاد والترقي، أن تبعث بالجنود العرب الى الأجزء غير العربية من الامبراطورية التي كانت تسمى «الروميلّي»، وتأتي بالأتراك الى الولايات العربية. وكان هذا ينطبق بشكل خاص على الضباط.

كانت السفرة ممتعة لي بسبب وجود هؤلاء الجنود الأتراك. لم أربط بينهم وبين الضابط التركي الذي تسبب في وفاة أبي. المهم عسكر عسكر.

والعفولة تتوسط سهل مرج ابن عامر الذي هو مثلث تمتد أضلاعه الثلاثة، على وجه التقريب، بين جنين وبيسان وحيفا. ولم تكن العفولة أكثر من قرية صغيرة. ولكن لأن الخط الحديدي (المتفرع أصلاً من الخط الحجازي) الممتد من درعا الى حيفا مرّ بها، أصبحت محطة. ثم بنت الحكومة العثمانية خطاً حديداً من العفولة الى جنين فالمسعودية (ومن هنا كان يتفرع الى خطين) فنابلس أو طولكرم. وبذلك ازدادت أهميتها. والجنود الذين يجب أن يُنقلوا الى جنوب فلسطين ومن ثم الى منطقة الترعة (أي قناة السويس) كانوا يتخذون العفولة نقطة السفر (بعد أن يكونوا قد جاءوا من دمشق أو درعا) جنوباً الى وادي الصرار فبئر السبع.

أذكر أن القطار وصل العفولة حول الضحى. يومها لم نكن نستعمل الساعة والدقيقة الى الدرجة التي نستعملها اليوم. فجدتي (والتسمية العملية ستي) لأمي، لما سكنا في بيت جدي في الناصرة، كانت تناديني وتسألني إذا كانت الشمس وصلت الدرجة الخامسة أو السادسة على درج البيت (الدرج كان طبعاً من الخارج) لأن هذه كانت طريقتها في معرفة الوقت الذي يجب ان تبدأ فيه الطبخة.

وصلنا العفولة وقت الضحى. وبعد جهد استطاع خالي، الذي كان في انتظارنا هناك، أن يحصل على عربة لنقلنا الى الناصرة. لكن العربة كانت صغيرة، لا تتسع لنا جميعاً، فضلاً عن الأغراض التي كنا قد حملناها معنا من دمشق.

فما العمل؟ ليس ثمة دواب للأجرة. كانت الحكومة العثمانية قد صادرت أكثر الدواب (كأنها لم تكتف بمصادرة الرجال). وأخيراً يسر الله الحل. عثر خالي على رجل يعرفه وكان ينوي الذهاب الى الناصرة. ومعه دابة للحمل - جمل. فحملت الأغراض على الجمل، ووضعت أنا فوق الأغراض. يعني ركبت الجمل. والجمل بطيء، لكن البغل أو الكديش الذي كان يجر العربة لم يكن أسرع. وهذا ما طمأن أمي. والمسافة من العفولة الى الناصرة نحو عشرين كيلومتراً. فوصلنا الناصرة بعد نحو ثلاث ساعات. وكانت هذه التجربة، بالنسبة لي، كافية؛ فلم أركب جملاً مرة أخرى في حياتي. هذا فضلاً عن أن أمي عنيت بفخذي مدة، فقد «تصمتتا» من هزّ

الجمل!

وقد تستغرب، يا عزيزي القارىء، انه كانت ثمة طريق للعربات بين العفولة والناصرة حتى في سنة ١٩١٦! المتعارف عليه أن حكومة الانتداب البريطانية شقت في فلسطين طرقاً للعربات (ومثل ذلك فعلت حكومة الانتداب الفرنسية في لبنان وسورية). لكن أكثر الطرق التي شقت وعبدت في فترة الانتداب كان المقصود منها تمكين الجنود من الوصول الى المناطق الداخلية. وهذا بحسب التعبير الفني الحديث عمل استراتيجي. لكن الحكومة العثمانية لم تكن قد تعلمت هذه الدروس الاستراتيجية تماماً. وما احسب انها كانت تعنى بمصلحة الناس (على سبيل المثال طريق بيروت - دمشق للعربات انشئت في ستينات القرن الماضي على يد شركة فرنسية، وليس بتصميم من الدولة العثمانية، وبيروت ودمشق كانتا مهمتين للدولة).

طريق العربات القدس - نابلس، وحيفا - الناصرة - طبرية، شُق سنة ١٨٩٨ (او على الأقل كانت جاهزة في تلك السنة). وهذه السنة كانت ذات أهمية خاصة لعبدالحميد. ففيها زار غليوم الثاني قيصر المانية فلسطين. (ما دمنا ذكرنا غليوم، فلنذكر القراء بأن الأديب اللبناني الشيخ اسكندر عازار كان يسميه عشرة وعشرة. وقد أطلق عليه هذا الاسم لشدة ما كان غليوم يعنى بتعقيص شاربيه، بحيث اذا نظرت الى صورته، ظننت انهما يشيران الى عقربي الساعة عشرة وعشرة). المهم ان غليوم زار فلسطين. البارجة التي حملته الى بيروت انتظرته حتى ذهب الى دمشق وعاد. كان طريق العربات موجوداً. البارجة تنقله الى حيفا. ولكن كيف ينتقل غليوم من حيفا الى الناصرة والى طبرية؟ أمر عبدالحميد بشق طريق للعربات بحيث تكون جاهزة لاستعماله. أما سفره من يافا الى القدس فقد كان بالقطار، (خط حديد القدس - يافا بني سنة ١٨٩٢). لكن ثمة مشكلة أخرى. غليوم سيزور نابلس. اذن فليشق طريق يصل القدس بنابلس.

أما عن العفولة الى الناصرة فالطريق يسير في السهل الخصب الى أن يقترب من جبال الجليل، وعندها كان يدور قليلاً، ويلتقي بطريق حيفا - الناصرة.

وصلنا الناصرة عند العصر تقريباً. وذهبنا رأساً الى بيت جدي لأمي. جدي لأبي كان قد مات وأبي شاب، وجدتي لأبي لم تكن تقيم في الناصرة. وكان، بحكم الحق والعدل، لنا نصف بيت هو ما ورثه والدي عن جدي. لكن، وأبي بعيد عن الناصرة دبّر بقية الورثة (أولاد العم لأبي) الأمر وطوبوه (بلغة اليوم سجلوه في الدوائر العقارية). ومن حسن الحظ أن جدي لأمي كان عنده بيت يتسع للجميع، وأهم من هذا بنظري، انه كان يملك حاكورة كبيرة فيها جميع انواع الأشجار المثمرة (في جهاتنا كنا نفرّق بين حاكورة وبستان. فالحاكورة كل شيء ينمو فيها بعلاً، اي يعتمد على ماء المطر، اما البستان فهو الأرض التي يكون فيها ينابيع). لذلك في الناصرة كانت كل أرض متسعة تزرع هي حاكورة. أما إذا ذهبت الى صفورية (شمالي الناصرة) أو بير الأمير (غربها) فهناك البساتين وهي التي تروى من الينابيع.

وقد أخذ جدي يعرفني بالحاكورة منذ اليوم التالي لوصولنا. لكن اقامتي في الناصرة لم تطل!

أمي مريضة ومتعبة ومنزعجة وأخي الأصغر (جورج) كان مريضاً. ومع أن خالتي صوفيا (أهل الناصرة كانوا ينادونها صوفيّة) كانت ممرضة وكانت تعمل في المستشفى الذي كان أصلاً للجمعية التبشيرية الانكليزية ولكن الحكومة العثمانية صادرته، فأن مرض أخي لم يعرف (وهل هذا أمر غريب؟ ثمة أمراض لا يكتشفها الطب الحديث بعدته وآلاته ومختبراته سنة ١٩٨٨، فهل كان من الغريب ان لا يعرف الطب مرض أخي سنة ١٩١٦).

على كل كانت أمي، وأنا أذكر ذلك تماماً، تبدو عليها جميع إمارات الضعف. ولكن مجلس العائلة (جدي وجدتي وخالتي وخالي - بقية الخالات كن خارج الناصرة متزوجات وعندهن أسرُهُن)، خفف عن أمي العبء:

فقالت الجدة البنت (ماري) علي. وقالت الخالة وأنا أعنى بالولد الثاني (الفرد). لأن خالي اختارني من الأصل. وقيل لأمي اعتني أنت بالطفل المريض.

خالي كان موظفاً في الخط الحديدي وكان مركز عمله بطولكرم (البلدة التي ولد فيها درويش المقدادي). وإذن فهو بعيد، لذلك يمكنه ان يأخذني أنا. فأنا الأكبر سناً! معه. ومن هنا فإن اقامتي في الناصرة لم تطل. كان على خالي أن يعود الى عمله. ورافقته الى طولكرم.

كان المكتب التابع للخط الحديدي (وهو تفرع من الخط الحجازي) في المحطة في طولكرم. وكان ثمة بناءان واحد فيه مكتب المهندس شكري بك في الطابق الأرضي. وفي الطابق الذي فوقه كان منزل يسكن فيه خالي. والمبنى الثاني كان لسكنى المهندس، وهو طبعاً أوسع.

شكري بك كان تركياً، وكان يفخر بأنه هو مهندس انشاءات بالنسبة للخط الحديدي، أي ان العطل الذي قد يصيب الخط لا يدخل في اختصاصه. ولكن اذا ارادت الدولة ان تمد فرعاً جديداً للخط فهو الذي يشرف عليه. ومن ثم فقد كان يفخر دوماً بأنه هو الذي «أنشأ» الفرع الممتد من طولكرم الى الخضيرة (بضعة كيلومترات). أما الانشاءات الأخرى التي كان يُعنى بها فهي الأبنية الجديدة التي كانت تقام في المحطات. فمثلاً أثناء وجودي في طولكرم (وهي مدة كانت قصيرة) قرر ان يوسع مكتبه (واتسع بذلك منزل خالي). وعلى كل فلم يكن في الادارة كلها سوى المهندس شكري بك وخالي. وهناك ثلاثة او أربعة حراس. وفي جهة بعيدة عن المبنيين الأصليين كان يقوم مكتب بيع التذاكر. ومأمور المحطة كان يعيش في البلدة ويأتي مرة في الصباح وأخرى بعد الظهر، لبيع التذاكر إذا كان هناك ركاب، ولاعطاء الاشارة للقطار كي يقف، ثم قرع الجرس ليسير!

وشكري بك كان حاد الطبع، وله شاربان يشبهان شاربي غليوم. فاذا احتد وصرخ وشتم بالتركية (كان يعرف العربية تكلما) رقص شارباه. وقد كنت في الأيام الأولى أفزع إذا سمعت صوته صاخباً. لكن بعد مدة تعودت عليه. كان شكري بك يشرف على بناء غرفة جديدة ليقيم فيها رجلان كانا يقودان «الترزانة» (عربة صغيرة مكشوفة تسير على الخط الحديدي ويسوقها رجلان عن طريق رفع مُخْل وخفضه) التي تخص شكري بك، إذ كان يتنقل فيها للمسافات القريبة (أما المسافات الأبعد فقد كان يُحْجَزُ له ديوان في عربة من عربات القطار. ذلك ان منطقة عمله كانت تمتد من طولكرم الى سيلة الظهر، ومن هناك كان المهندس الأنيق أسعد بك يشرف على الخط الى العفولة). كان يستعملها كثيراً للذهاب الى الخضيرة للسهرة (الخضيرة كانت مستعمرة يهودية من أولى المستعمرات التي انشئت في فلسطين، وكان لشكري بك أصدقاء فيها). وكان البناء المشرف على العمل اسمه الحاج حسن. استدعاه شكري بك يوماً الى مكتبه ليسأله عن الغرفة. وفيما كان الحاج حسن يدخل مكتب شكري بك، وكان ذلك بعد الغداء، «تدشّى»، فتضايق شكري بك، ونهره قائلاً «حاج حسن كمّل شغلك»، ثم كال له من الشتائم التركية ما في قاموسه. وعاد الحاج حسن ادراجه الى عمله. فاستدعاه ثانية، وبعد ان عزره، بقدر ما يستطيع سأله لماذا لم يأت لما طلبه أولاً. فأجاب جئت ولكنك قلت لي، يا بك، كمّل شغلك فذهبت الى شغلي». فما كان من البك إلا أن قال له شغلك يعني. وأخذ يقلده وهو «يتدشّى».

كان من مدعاة سروري أن أذهب مع خالي على «الترزينة» الى احدى القرى القريبة لشراء بعض الحاجيات.

أدخلني خالي، بعد وصولنا الى طولكرم، المدرسة الرسمية الابتدائية. كنا نتعلم القراءة والحساب. وكان ثمة شيخ يعلم الدين. وكان مدير المدرسة تركياً. فلماوصلت المدرسة (كنت أذهب ماشياً لمسافة أقطعها في نحو ربع الساعة) في اليوم التالي لبدء الدراسة، استدعاني المدير وقال لي (وكان يعرف العربية) «أنت خرستيان (يعني مسيحي) مش لازم تحضر دروس الشيخ في الدين.

كانت المدرسة مؤلفة من عدد من الغرف لا أذكره. وكنا ندخلها من باب يرتفع بضع درجات عن الطريق (ولا

اقول الشارع!). والمهم ان المدرسة التي كان فيها ما لا يقل عن مئتي تلميذ لم تكن فيها دورة مياه. لذلك عندما كنا ناخذ الفرصة (كنا نسميها فَيْدوس - بالتركية) كان المعلمون ياخذوننا الى البرية (ولم تكن بعيدة فالمدرسة كانت يومها في طرف البلدة) وهناك كان كل يتخفف مما كان يثقله.

في طولكرم أكلت الكُسْبَة لأول مرة، والكسبة لمن لا يعرفها هي ما يتبقى من السمسم بعد أن يعصر ليستخرج منه الزيت أو لتصنع منه الطحينة.

وفي يوم من أيام المدرسة، وكان الصيف قد بدأ، اخرجنا من المدرسة، ونظمنا صفوفاً. أخذنا الى خارج البلدة الى الطريق الرئيسي الذي يصل طولكرم بيافا. وهناك وجدنا تلاميذ المدرسة الأعلى من مدرستنا وقد صُفُّوا، كما كان هناك عدد كبير من الناس على جانبي الطريق العام، والجند يتنقل. وبين الفينة والفينة كان الأمر يصدر إلينا بأن ننشد. وكانت الأنشودة المدرسية هذه شيئاً جديداً علي. فهي بالتركية، ولذلك لم أكن أنشد. ولم أشعر إلا ومدير مدرستي اقترب مني ورقعني كفاً قوياً وقال لي شيئاً لم أفهمه. ولما لم استطع أن انضم الى المنشدين، رقعني كفاً آخر وقال «بادشاه»، فقلت بادشاه.

ولما عدت الى البيت وقصصت على خالي القصة قال لي هذه الأنشودة الرسمية «بادشاهم تشوق يشاه» أي ليعمر السلطان طويلاً. فتعلمتها حتى لا أرقع الكف نفسه فيما بعد. وقال خالي «لعل الذي قاله المدير لك هو اولان، «أدب سز» ومعناه «وَلك، يا قليل الأدب!».

اما لماذا كنا هناك - نحن وهؤلاء الآلاف من الرجال، ولماذا وقفنا وقتاً طويلاً، لعله كان ساعتين أو أكثر في الشمس المحرقة؟ كان جمال باشا سيمر من هناك في طريقه من نابلس الى يافا. وكان يجب ان يستقبل استقبالاً حافلاً. ولما وصلت سيارته، ترجل وسلم على كبير الضباط، ورجل آخر لعله القائمقام (فقد كانت طولكرم مركز قائمقامية بني صعب)، ثم عاد الى سيارته وانطلقت به، وأظن أنه ألقى تحية عابرة (بيده) على الحاضرين. وكان مكاني، بالمصادفة، قريباً من حيث ترجل. كان قصير القامة، ملتحياً. هذا كل ما أذكره عنه. (ولما اقبلت سيارته من بعيد، تذكرت أن أول سيارة رأيتها في حياتي كانت سيارة جمال باشا نفسه في دمشق قبل ذلك بنحو سنة). ولم يكن لسيارته بوق «شأن سيارات اليوم» بل كانت أشارتها نوعاً من الصفير.

في ذلك المساء جاء الحاج حسن (البناء) ليزور خالي. وتحدثا وسمعت الحاج حسن يقول «حسبنا الباشا باشا طلع الباشا زلمه». ورسخ المثل في نفسي.

لعل اكثر ما أذكره عن محطة طولكرم، وقد جاء الصيف، هو البطيخ. بطيخ طولكرم مشهور. ولكن الذي أذكره ليس الطعم، بل الكميات. كان البطيخ يحمل على الدواب (الجمال بشكل خاص) ويكوَّم أكواماً كبيرة في المحطة تمهيداً لشحنه بالقطار الى جهات مختلفة. ولم أكن أتصور، لما كنا نبتاع بطيخة في دمشق، ان الدنيا فيها هذا العدد الكبير من البطيخ!

بدأت عطلة الصيف، لكنني بقيت مع خالي، فليس من الممكن أن أذهب الى الناصرة، وحدي، وإجازة خالي (خالي اسمه سامي، ولذلك فالناس كانوا يعرفون جدي باسم ابو سامي، ولعل الكثيرين نسوا أن اسمه عبدالله)، لم يحن موعدها بعد.

وحصلت خالتي صوفيا على اجازة من عملها في الناصرة، وجاءت الى طولكرم لزيارتنا، على أن أعود أنا معها، أو نعود كلنا الى الناصرة. ولكنها لم تعد قط. لقد أصيبت بالكوليرا. وماتت في طولكرم. وكنت أنا الذي مرضّها. جاء طبيب (لست أذكر من أين جاء، لكنه لم يكن من طولكرم) وفحصها ووصف لها علاجاً لم نعثر عليه. وماتت بعد نحو عشرة أيام. وهنا جاءت المشكلة. لم يكن في طولكرم مدفن للمسيحيين. ونقلها الى الناصرة كان مستحيلاً. (مع ان جدتي التي جاءت قبل وفاة خالتي بساعات كانت تصر على ذلك). وكان أقرب

مكان يمكن أن تدفن فيه هو قرية فرعون، التي تقع على رأس تل مرتفع. وأخذت أنا قياس خالتي، وجاء نجار فعمل لها تابوتا. ونقلناها في عربة الى نهاية السهل، ثم جاء الشباب من فرعون ومن الحقول المجاورة وتعاونوا على نقل التابوت الى حيث أجريت الطقوس الدينية ودفنت هناك. (أبي في دمشق، يمكن في مقبرة مار جريس، وخالتي في فرعون).

بعد أيام ذهبنا الى الناصرة. سافرنا في القطار. والمسافة من طولكرم الى العفولة كانت حول الستين من الكيلومترات. ومع ذلك فقد احتاج القطار نحو أربع وعشرين ساعة لقطعها. كان الفحم الحجري قد انقطع وصوله الى فلسطين. والقليل الذي كان موجوداً منه احتفظت به الدولة للخط الرئيسي: دمشق - المدينة المنورة، ودرعا - حيفا. لذلك كان القطار يسير على الحطب. كان في كل محطة كوم كبير من الحطب (وبعضه، حول سيلة الظهر مثلاً، كان من شجر الزيتون) يأخذ منه السائق والعطشجي (أي الذي يُشعل النار) حاجة القاطرة. وعندما تخمد النار كان القطار يقف حتى يفرغ الرماد قبل ان يعبأ بيت النار بالحطب.

وصلنا الناصرة. وخطب جدي وجدتي لخالي (كان في سن العشرين، وهو الابن الوحيد بين خمس بنات) وطبعاً دون احتفال لاننا كنا حزنانين على خالتي. وبعد ذلك بأيام ترك خالي الناصرة ليعود الى مركز عمله. نزل الى العفولة، ونزل ابوه معه يودعه، وركب الشاب القطار تمهيداً للسفر. وإذا بانفجار كبير يدوي في المحطة. كانت الطائرات البريطانية قد أغارت قبل مدة على العفولة وألقت القنابل بقصد تعطيل الخط الحديدي في المحطة. ولكن قنبلة لم تنفجر. عثر عليها أحد الشباب، ولعب بها فانفجرت بين يديه وقتلت ستة أو سبعة أشخاص، كان خالي أحدهم.

وهكذا عاد جدي الى الناصرة ومعه الخبر الأليم. أما الذين قتلوا فقد جمعوا كلهم ودفنوا جماعة. وبعضهم دفنت منهم أجزاء فقط، لأن الأشلاء طارت بعيداً.

وهكذا لم أعد الى طولكرم

وتحطم حلم أمي، وتقوس ظهر جدي، واتشحت جدتي بالسواد الذي لم تخلعه حتى وفاتها بعد سنوات!

واقمنا بالناصرة. وكانت حاكورة جدي تكفينا جميعاً. فالتين والصبر كان يضمن بالشجرة. والخروبة الكبيرة كان جدي يستخرج منها دبس الخروب. وقد كان الشيء الحلو الوحيد المتيسر. ففي الحرب العالمية الأولى انعدم السكر مثلاً. وكانت أمي تصنع لنا «حلوا» من طحين الذرة البيضاء في صينية، وتقطع العجينة كما تقطع صينية الكبة، وتخبز في الفرن. فاذا جاء البيت وضعنا عليه دبس الخروب وأكلنا حلوا لذيذاً.

وأهل حارة الروم (بشكل خاص) في الناصرة كان الكثيرون من رجالهم يعملون في صناعة البناء والنجارة. فكانوا يقطعون الحجارة ويقصبونها (أي يشذّبون حواشيها) ويقومون بعملية البناء، والنجارون يصنعون المنجور للبناء والحدادون (في حارة اللاتين) كانوا يصنعون حديد الشبابيك. ولكن من كان يبني في تلك الأيام العصيبة؟ والذي بنى كان يقتصر على البسيط. فبدل الحجر الناري الجيد كان يعتمد على الحجر الكلسي. وكان الشاطر يبني غرفة لنفسه. العمل في الصناعة لا مجال له أو فيه!

صحيح أن الناصرة كانت مركز القيادة العسكرية الالمانية، وكانوا يقولون ان ليمان (ليمان فون سندارس) يقيم في الناصرة. لكن من يدري أين؟ المرجح انه كان يقيم في بناء المسكوبية، وهو البناء الذي أقامته الجمعية القيصرية الروسية للأراضي المقدسة، ليكون جزء منه لدار المعلمين الروسية التي أنشأتها الجمعية هناك لتدريب المعلمين لمدارسها، والجزء الثاني كان لكبار الزوار الروس عندما يأتون في المواسم لزيارة الناصرة (والقدس وبيت لحم). لكن أهل الناصرة لم يفيدوا إلا قليلاً من وجود الضباط الألمان. هؤلاء وظفوا بعض الشباب

في أعمال مختلفة.

ولكن الحاجة أُمّ الاختراع. لذلك تفتقت عند بعض شباب حارتنا فكرة وهي ان يحملوا الخبز من الناصرة الى العفولة ليبيعوه للجنود الذي كان عددهم يتكاثر في المحطة اثناء تنقلهم من مكان الى آخر.

كانت قريبتنا أمّ نمر (ابنة عم أمي) تعجن في الصباح، فيخمر الخبز عند المساء. وعندها يفتح «فرن الطويل» (في حارتنا) ليخبز للزبائن. ولم تكن أم نمر وحيدة! إذ كان هناك جماعة من الأصحاب يذهبون معاً، وكان عددهم يتراوح بين ٨ و١٢ (ولم يكونوا الوحيدين إذ أن جماعات أخرى صارت تقلدهم فيما بعد). وينشر الخبز قليلاً ليبرد ثم يرتب في تنكة. وأظن ان التنكة كانت تسع حول مئة رغيف أو اكثر. ومع الفجر كان الشباب ينطلقون الى العفولة، ليصلوها في الوقت المناسب. كانوا يذهبون صيفاً شتاءً، خمسة أيام في الاسبوع. يبيعون الخبز، وقد يشترون بعض الأشياء اللازمة من الجنود، ويعودون الى الناصرة حول الظهر. يتناولون طعام الغذاء وينامون، فيما تعود الأمهات الى العمل.

أما القمح فكان يأتي من بيسان. وكان المتقدمون في السن - نسبياً - من الرجال هم الذين يسعون للحصول على القمح، وهم الذين يحملونه على الدواب لطحنه. وكان في الناصرة مطحنتان (هما اللتان أعرفهما انا) مطحنة الكردوش، ومطحنة يوهانس (عفواً كان الكبار في السن من أهل حارتنا يقولون بَبّور الكردوش، وبَبّور يوهانس) ولست أدري لماذا كان المتفق عليه بين هذه الجماعة هو أن يطحنوا عند يوهانس مع أنه أبعد. لعل جدي، وكان أكبر أهل الحارة سناً، كان متخاصماً مع الكردوش، ومسك الجميع خاطراً لجدي. لا أدري.

لم أكن قد بلغت العاشرة من عمري، ولكنني كنت ألح على أمي أن تسمح لي بأن أذهب مع الشباب (لشمَّة الهواء). وكانت تمانع الى أن تدخل جدي مرة وقال «خليه يروح، بيتعب وما بيعيدها». ولكنني ذهبت، وبقيتُ، وسُررت. وأعدتها مرات كثيرة.

الشباب لم يتبعوا طريق العربة (الحيفاوي)، بل كانوا يتجهون جنوباً الى جبل القفزة، آخر حدود أراضي الناصرة، ويتحدرون الى السهل. فكانوا يصلون الى العفولة في ساعة ونصف الساعة تقريباً.

عملٌ شاق. ولكن الحياة ليست دوماً يسيرة حلوة.

قلت إن الشباب كانوا يذهبون خمسة أيام في الأسبوع. كانوا يعطلون يوم الأحد (أو يتناوبونه كي لا يخسروا الزبائن). اما يوم الاثنين فلم يكن ثمة قطار يمر بالعفولة. لذلك كانوا يستريحون جميعاً.

وجبل القفزة الواقع جنوبي الناصرة اسمه مأخوذ، فيما أعتقد، من كون الانحدار فيه نحو مرج ابن عامر شديد. لكن هذا لا يكفي. ولا بد من تفسير آخر. حتى ولو كان يطال السيد المسيح. طبعاً الذي اخترع القصة لم يكونوا أهل الناصرة ولكن خصومهم. قالوا ان السيد المسيح لما عاد الى الناصرة في صغره (قبل عجيبة الخمر في كفركنّا شمالي الناصرة وهي الوارد اسمها في الكتاب المقدس قانا الجليل) كان يتعرض لمضايقات من أهل بلده (ليس نبيٌّ بلا كرامة إلا في وطنه!). فكان يهرب من الصبيان الذين يضايقونه. وقد تضايق يوماً منهم فاتجه نحو الجنوب. ولما لحقوه قفز من الجبل الى مرج ابن عامر. فسمي الجبل جبل القفزة. ما أبعد ما يتسع الخيال عند الانسان!

حاكورة جدي، كما قلت، كانت تيسّر لنا الاكتفاء الذاتي. فالواقع ان الشيء الوحيد الذي كنا نحتاجه هو اللحم. ولكن اللحم لم يكن دوماً متيسراً. جدي كان يربي الدجاج والحمام، وهذان الطائران كانا يفتشان عن طعامهما (ألا يقول المثل - فلان مثل الجاجة رزقه بين رجليه). وكان يزرع البندورة والفاصوليا والفجل والبصل والنعناع والبقدونس. والحاكورة فيها تين وصبر وعنب وقراصيا وما هبّ ودبّ. كل شيء في موسمه. والنباتات الصغيرة التي كانت تحتاج الى الماء كان يسقيها جدي من البئر التي يجمع فيها ماء المطر من السطوح

السفلى. اما السطوح العليا (الطابق الثاني) فكان ماؤها يجمع في بئر ثانية ـ للشرب والطبخ وصنع القهوة والشاي، عندما توجد القهوة والشاي!

وحتى دخانه كان جدي يزرعه في الحاكورة. وبهذه المناسبة أنا أعرف جدي مدخناً. وزرته مرة في الناصرة (بعد سنوات طويلة جداً) وكان قد تجاوز التسعين من عمره (الذي كان مديداً حقا لانه عمّر الى ١٠٢) ووجدته لا يدخّن. ولما سألته قال لي بلهجته النصراوية التي آمل أن تَرنَّ في آذان البعض «يا سِيدي بديت أقُحّ. رحت عند الحكيم فقال لي يا أبو سامي لازم تبطل شرب الدخان لانه يضرّك فبطلت. (ولم يدخن بعدها)». وسألته كم مر عليه من الزمن وهو يدخن فقال بين ٧٠ و ٧٥ سنة! بعد كل هذه المدة خشي على رئتيه!.

ذكرت ان أخي الصغير كان مريضاً. ولكن لما رجعنا من طولكرم وجدته قد شفي. والذي روته لي جدتي فيما بعد هو أنه بلغ به المرض حداً خشينا عليه أنه اذا عاش يكون ضعيفاً بالمرة. لذلك انا وأمك نذرنا نذرين: أنا (يعني جدتي) نذرت قنينة زيت زيتون (شيء كثير يومها) للكنيسة إذا أخذ الله وداعته. ونذرته أمك ان تسميه باسم مار جريس اذا شفاه. وشفي. ولذلك أصبح اسمه جورج (وكان اسمه من قبل ميشيل).

وجدت أمي نفسها في أواخر سنة ١٩١٦ وأوائل السنة التالية أمام مسؤولية كبيرة. فهناك أربعة أطفال (أنا، الأكبر، كان عمري نحو تسع سنوات) يجب أن يُرَبَّوا. كان جدي لأمي في حالة تمكّنه من العناية بنا، وقد ألحَّ على ذلك؛ لكن أمي لم تكن ترى من المناسب أن تلقي على كاهله هذا العبء الثقيل، وهو رجل كان قد تجاوز السبعين من العمر. وكان فقده ابنه الوحيد قد هَدَّ حيله، كما يقولون. لذلك أخذت أمي تسعى للحصول على عمل. ولم يكن في الناصرة شيء من ذلك.

لكن الحظ خدمنا جميعاً. فقد كان لنا قريبة (لطيفة زيادة ابنة عم أبي) تسكن في جنين. وهذه عرفت بوجود عمل في مستشفى الجيش الالماني هناك (كانت جنين مركزاً لفرقة من السلاح الجوي الالماني). وكان العمل يسيراً إذ انه أوكل اليها أمر الاشراف على غرفة الغسيل. كل شيء كان يتم بالأيدي يومها (نحن بعد في الحرب العالمية الأولى).

هناك غسالات من نساء البلدة، ولم يكن الأمر صعباً على والدتي أن تشرف عليهن، وان تدرب الأخريات على كي الشراشف وطيها وما الى ذلك. وأهم من هذا ان المرتب كان ممتازاً ـ ثلاث ليرات عثمانية ذهب شهرياً! يضاف الى هذا انه كان يعطى لها حصة، ولو بسيطة، من السكر والشاي والبسكويت والشوكولاته. وهكذا كنا نحن نتمتع بهذه الأمور التي لم تكن متيسرة الا للقلة من الناس، (إذ أن البحر الأبيض المتوسط أقفل تجارياً بالنسبة للدولة العثمانية التي كانت قد دخلت الحرب الى جانب المانية).

لكن المشكلة التي واجهت أمي هي انه لم يكن ثمة مدرسة في البلدة. فالبناء الذي كان أصلاً للمدرسة استولت عليه السلطات لاتخاذه مقراً لصف الضباط الألمان. واذن فكان أمامي اما أن اكون في الناصرة لأتعلم هناك، أو أن أتسكّع في شوارع جنين. وقد جرّبت والدتي الخطة الأولي، لكنها لم تنجح. فمع ان جدي كان على استعداد لأن يعين العائلة بأسرها، لم يحبّ تحمل وجودي وحدي معه ومع جدتي. لذلك قضيت أكثر سنة ١٩١٧ و١٩١٨ بدون مدرسة.

الا انه كان من حسن حظي ان كنت قد استطعت تعلم القراءة في دمشق والناصرة من قبل. ولذلك كنت أقرأ أي كتاب يقع تحت يدي. في هذه الفترة قرأت «ألف ليلة وليلة» و«تغريبة بني هلال» و«قصة الملك سيف». وكانت منيرفا، إحدى خالاتي، قبل هجرتها الى الولايات المتحدة، تعنى بمكتبتها وبما عندها من المجلات. فكان جدي يسمح لي، عندما أزور الناصرة، ان استعير بعض هذه الكتب. ومن المجلات التي قرأت اعداداً كبيرة منها في ذلك

الوقت مجلة «المحبّة» التي كان يصدرها في حيفا فضلو ابي حلقة الطرابلسي، وكانت مكتبة خالتي تحتوي بضع مجلدات كاملة منها. وكان هناك اعداد من مجلة «النفائس العصرية» التي كان يصدرها خليل بيدس.

ولم أقرأ القصص التي ذكرت لنفسي. فان امي وجاراتها كثيراً ما كنّ يطلبنَ مني ان اقرأ لهن بعضاً من «الف ليلة وليلة» أو غير ذلك من الكتب. فكنا نتحلق حول قنديل الكاز (نمرو ٤) إذا حصلنا على الكاز (وكان لأمي حصة تحصل عليها من المستشفى) والا فالسراج الزيتي المألوف. وكم كنت أشعر بالعظمة (أو بالغرور) عندما أرى هؤلاء النسوة يتحلقن حولي لأقرأ لهن، وكم كنت اتعزز أحياناً حين يطلبن ذلك مني!

وكانت لنا نحن الأولاد أمور نقوم بها في أوقات الفراغ وهي طبعاً، بدون مدرسة. فمن ذلك أن «عين نينَة» التي تنبع على نحو كيلومترين الى الجنوب من جنين، كانت تخترق البلدة لتتجه شمالاً في غرب فيتكوّن منها، ومن الينابيع الأخرى «نهر المقطع». كنا نذهب الى جنوبي جنين حيث كانت تتجمع المياه في برك صغيرة. هناك كان أصحابي يسبحون فيها، أما انا فلست أذكر انني جرّبت ذلك قط. ولكن الشيء الذي كنا نعود به من تلك البرك أيام الصيف هو الحنكليس النهري (الذي يسميه الناس حية الماء). كنا نصطاده من الماء ونقشره، وعندما نعود الى بيوتنا كانت أمهاتنا يقلين إياه. وهو لذيذ جداً (وبهذه المناسبة يعتبر هذا في أوروبة من ألذّ أنواع السمك، وهو ايل eel).

وكنا نزور القرى المختلفة في جهات جنين. فقد كان بعض أصحابي لهم أقارب في تلك القرى. ولأنني كنت أحب المشي وأقدر عليه، لم أجد صعوبة في ذلك، على العكس من بعض أصدقائي الذين كان يضنيهم المشي، فيلجأون الى ركوب الحمير.

أودّ أن أذكر القراء الذين يسكنون المدن اليوم في بيروت وعمان ودمشق، أنهم يذهبون الى دكان بائع الخضار ويشترون الخبيزة والهندْبة (العلِت) والبصل الاخضر والبقلة وما الى ذلك. أما في السنوات التي اتحدث عنها، وحتى بعد ذلك بسنوات، لم تكن هذه الأمور تباع في الدكاكين، وعلى كل فلم تكن تباع في جنين ولا في الناصرة. إن الشخص الذي كان أمام منزله قطعة أرض كان يزرع «مسكباً» من البقدونس والنعناع (النعنع) والبصل. وعندما يحتاج بيت من بيوت الجيران الى شيء من ذلك، يذهب أحد الأفراد الى الجار ويطلب منه عرقين بقدونس أو نعنع أو بصلتين. وقد سكنّا في بيت أول ذهابنا الى جنين كانت أمامه قطعة أرض اهتم صاحبها بزرع «مساكب» لهذه الأشياء، فكنت أساعده.

أما الخبيزة والهندبة (العلت) وحتى الفطر (يعني الشامبنيون!) فكنّا نذهب لتحويشها أو جمعها. فعندما كانت تريد أمي طبخة خبيزة أو هندبة كنت أحمل سكينة وسلة وأذهب، مع أحد أصحابي، أو حتى وحدي «فاحوِّش» الكمية اللازمة. وقد نذهب أمي وأنا (اخوتي كانوا صغاراً) لنحوّش ما نحتاج اليه.

أما الفطر فكنا نخرج لجمعه بعد فترة مطر ورعد، إذ عندها نجده نامياً عند جذوع الأشجار. وإن لم تخنّي الذاكرة فقد كنا نجده بكثرة عند جذوع شجر التين. وقد علمنا جارنا كيف نميز الفطر العادي من الفطر السام. خصوصاً بعد ان جرت حادثة تسمم في البلدة بسبب الفطر السام.

كنا نخرج مرات الى حيث يكون الرعيان يريحون قطعانهم فيعطوننا بعض الحليب الطازج (من بز العنزة أو الغنمة) فننقط عليه بضع نقط من الضافور (تين لم ينضج) فيتجمّد وناكله كانه جبنة (حلوة أو خضرة). في أكثر الحالات كنا نأخذ معنا الخبز الكافي لنا وللراعي، فيكون هذا الجبن غذاءنا.

في أحد الأيام (أظن انه كان في ربيع ١٩١٨) كنا نلعب في ساحة أمام البيت، فانتبهنا الى أن الموجودين على مقربة منا، من الرجال والنساء، كانوا يتجهون بابصارهم نحو السماء وعلى وجوههم أمارات الدهشة (أو الخوف لا أدري)، ويشيرون بأصابعهم الى أشياء كانت تطير على ارتفاع كبير. ولما تلفّتُ الى السماء رأيت

طيوراً سوداء، لكن الرجال قالوا إنها طائرات انكليزية، وأنها جاءت لضرب القاعدة الجوية الالمانية في سهل جنين. وقد تحقق قولهم، إذ القيت بعض القنابل. وسارت الطائرات شمالاً، وقيل فيما بعد أنها ألقت القنابل على العفولة، التي كانت مركزاً لتجمع الجنود، لأنها مرتبطة بسكة حديدية بدمشق وحيفا ونابلس وطولكرم. كانت تلك أول القنابل التي سمعتها في حياتي. ولكن كم سمعت ورأيت مثلها بل وأشد فتكاً منها فيما بعد!

في أواخر صيف ١٩١٨ ذهبت الى الناصرة لزيارة جدي. السفر كان يومها يتم (بين جنين والناصرة) على أن نأخذ القطار من جنين الى العفولة. وبعد ذلك فالأمر متوقف على الحظ. يمكن ان تكون هناك «كارّة» يجرها كديش أو بغل متعب. تكون هذه قد حملت بعض الناس أو المؤن من الناصرة الى العفولة، وفي عودتها تحمل الناس أو الأشياء أو النوعين. والواقع ان الذين كانوا يحظون بالكارّة كانوا يعتبرون أنفسهم موفقين، وقد يركب البعض حماراً أو بغلاً كان صاحبه قد نقل عليه شيئاً من الناصرة الى العفولة في الصباح. وقد يمشي الواحد. ولم أجد أنا أية صعوبة. فالمشي محبب الى نفسي، والطريق أعرفه جيداً. ولم يكن وجود رفقاء أمراً صعباً. (بهذه المناسبة ان العربات التي كانت من قبل تنزل من الناصرة الى العفولة لاستقبال الركاب أو التي كانت تنتقل بين الناصرة وحيفا وبين الناصرة وطبرية) قد عَزّ شأنها، وذلك لأن الحيوانات التي يمكن أن تجرها قد صودر أكثرها.

بعد وصولي الى الناصرة بنحو اسبوعين افقنا على حركة غير عادية في البلدة. الأخبار في تلك الأيام كان أكثرها ينتقل مع الناس ـ المسافرين والآتين من أماكن مختلفة. وطلب مني جدي أن أبقى يومها في البيت «لانه الدنيا مش طبيعية». وعند الظهر عرفنا القصة. كان اليوم ٢٢ ايلول / سبتمبر ١٩١٨، والحركة كان سببها أن جيوش الحلفاء دخلت يومها الناصرة، ولم نكن نعرف ان ما كان قد بقي في الناصرة من جنود أتراك قد غادروها في اليوم السابق (وكان الالمان بضباطهم قد غادروا الناصرة حتى قبل ذلك).

لا أدري ما الذي حدث في ذلك اليوم في الناصرة رسمياً ـ بمعنى تسليم المدينة وتسلمها. فالذي كان يعنينا ـ نحن أولاد الحارة ـ أن نتفرج على الجنود الذين دخلوا يركبون خيولاً ضخمة ويعتمرون قبعات واسعة، ويتمتعون بصحة جيدة، إذا قوبلوا بجنود الأتراك. كانوا من الفريق الاسترالي.

وهنا استبشر جدي خيراً. الحرب انتهت. وستكون هذه آخر حروب العالم. ولماذا؟ كان جدي يعرف الكثير من الكتاب المقدس، ولو أنها معرفة متفرقة المواضع والمواضيع. فهو يعرف أن آخر معركة (في العالم) ستكون في «أرْمَجِدّون»، وأرمجدون، بحسب معرفته، هي وادي الملح، ووادي الملح هو مكان في مرج ابن عامر. وقد بلغه انه وقعت معركة بين الجيش الانكليزي (فجيوش الحلفاء كلها كانت الجيش الانكليزي) والأتراك في وادي الملح. والمعركة التي وقعت كانت على مقربة من مجدّو (وجدي لم يعرف مجدو، ولكنه كان يتصور أنها أرمجدون التي تعرف باسم تل المتسلم)، ووادي الملح قريب منها. واذن فقد انتهينا ولله الحمد من الحروب. (كنت فيما بعد، الحرب العالمية الثانية، أذكر جدي بالنبوّة فيضحك ويصمت).

كانت جنين طبعاً قد سقطت قبل الناصرة. ووصلت أخبار (ثبت فيما بعد انها لم تكن صحيحة) أن الجيش الانكليزي أحرق جنين. (وأدعى البعض أنهم رأوا النار في جنين من رأس جبل القلعة في الناصرة). وكان من الطبيعي أن أصرّ على العودة الى جنين الى أمي وأخوي. وهنا واجهت جدي مشكلة. فالدنيا تغيّرت، وقد أُقْتَلُ وأنا في الطريق، وجدي لا يستطيع أن يرافقني. وقد جاء الحل على يد حنا. حنا كان فرارياً (أي هارباً) من الجيش العثماني. وقد سمح له جدي أن ينام في مغارة في الحاكورة ليكون بعيداً عن السلطة. والآن لم يعد حنا «فرارياً»، لذلك استأجر له جدي حماراً ليحملني عليه ويرافقني الى جنين. ودفع له. وهذا أمر أذكره جيداً.

«مجيدياً» أجرة له. وأوصاه بأن أركب أنا ويمشي هو! ورافقني حنا. ولكنه ركب أكثر الطريق ومشيت أنا. ولما وصلنا جنين أصرّ حنا على العودة حالاً حتى لا يتأخّر في اعادة الحمار (المسافة من الناصرة الى جنين كانت نحو ٢١ كم، واحتجنا الى نحو خمس ساعات أو ست لقطعها). ولكن الذي عرفته فيما بعد أن حنا لم يعد الى الناصرة ابداً؛ ولا عاد الحمار بطبيعة الحال؛ وأن جدي اضطر الى دفع ثمنه بوصفه المسؤول عن ذلك.

حلّ صف ضباط انكليزي في بناء المدرسة حيث كان صف الضباط الألمان. ولذلك لم تفتح المدرسة حالاً. على أن السلطات أخلت المدرسة وفتحت هذه في مطلع ١٩١٩. وكان فيها خليط من الطلاب والمعلمين. خليط في الأعمار في الفئة الأولى، وخليط في الثقافات بين الفئة التالية.

لما فتحت أبواب المدرسة وبدأنا بالذهاب اليها كنا نحن نسكن في البيت الذي تملكه أم عمر. كانت أم عمر أرملة، وكانت قد فقدت إحدى عينيها، لكنني أذكر أن شكلها كان فيه الكثير من الملاحة. كان لها ابن اسمه عمر وابنة اسمها صفية، كان البيت يتكون من طابق واحد، ومن حوش متسع تحيط به أربع غرف ومطبخ بسيط. كانت أمي قد استأجرت غرفتين من أم عمر، فيما كانت صاحبة المنزل تقيم في الغرفتين الباقيتين. أما المطبخ فكان يُستعمل حسب الحاجة للفريقين. كان بيت أم عمر يقع في الشارع الوحيد الموجود في جنين، والذي يجتازها من الجنوب الى الشمال، وهو جزء من طريق نابلس ـ الناصرة. وكانت ثمة أزقة بعضها ترابي وبعضها زُفِّت مع الوقت وكان البعض مبلطاً. وهذا كان في جزء من الحارة الشرقية على مقربة من الدار الكبيرة جداً التي كان صاحبها قبل أيامنا بزمن طويل حافظ (باشا) عبدالهادي أما لما كنّا نحن في جنين فقد كانت تسكن في هذه الدار زوجة الشهيد سليم عبدالهادي الذي علّقه جمال باشا في ساحة الشهداء (المرجة) في دمشق، وكانت تقيم معها ابنتها طرب، التي أصبحت فيما بعد زوج الزعيم الفلسطيني عوني عبدالهادي. وكان ثمة زقاق آخر مبلط، وفي الحارة الشرقية أيضاً، يمتد من طرف السوق الى مكان قريب من منزل بشارة عطاالله.

كان يقوم في الجهة الجنوبية الملاصقة لمنزل أم عمر فرن هو أحد الأفران الأربعة في جنين. وكان هذا مفيداً جداً لنا. في تلك الأيام لم يكن يعثر المرء على خبز للبيع في الدكاكين أو الأفران. كان على كل صاحبة بيت أن تعجن في بيتها، وكان أجير الفرن يأتي في وقت معين من أيام معروفة ليحمل العجين الى الفرن ويعيده، فيما بعد، مخبوزاً. وكان صاحب الفرن يتقاضى أجرة شهرية من كل عائلة، أظن ان ذلك كان على أساس عدد الأفراد في الأسرة. أما أجير الفرن فكان له رغيف على كل طبق، إذ أن العجين كان يرسل الى الفرن على طبق قش بعد ان يقطع بحيث تكون كل قطعة أساساً لرغيف.

والى الجهة الشمالية من منزل ام عمر كان يقع بيت تسكن فيه أسرة مكونة من أبو وديع وأم وديع وولدين صغيرين وكانت أم وديع تزور والدتي وكنت أرى فيها الدعة واللطف. ومع ذلك فكان لا بد من ان نسمع كل ليلة، في وقت كان يعتبر يومها متأخراً (لعله كان حول الثامنة مساءً) عويل أم وديع وصراخها وبكاءها. وقد سألت أمي غير مرة عن ذلك، فكانت تتحايل عليَّ في الجواب. الى ان عرفت يوما منها ان أبو وديع كان يتعاطى شرب العرق، فكان يذهب الى صديق له فيتناول هناك «كاساً» من العرق، وعندما يعود الى البيت يكون قد بلغ حداً من السكر بحيث يغضب من أي شيء مهما كان صغيراً وعندها كان «يَفِشُّ خُلقَه» في أم وديع، مع انها قلما كانت السبب في ذلك.

أما مقابل بيتنا، عبر الشارع، فكان يقوم منزل من طابقين (دورين) الأول (الأرضي) كانت فيه عيادة الدكتور سعيد النمر، وكان منزله يقع في الطابق الثاني. وكان له ابن اسمه عوني، فكان اسم الطبيب، بالنسبة لكبار السن ابو عوني. وكانت أم عوني، فيما أذكر، امرأة جميلة لطيفة، وكانت تربطها بأمي صداقة متينة.

كان الدكتور سعيد الطبيب الوحيد الذي له عيادة خاصة في جنين، وكان يقضي يومين في الاسبوعين في القرى لمعالجة المرضى. وكان هناك في ذلك الوقت، طبيب مسؤول عن ادارة الصحة الرسمية، واذكر أن أحد الاطباء الذين شغلوا هذا المنصب هو فوزي عبلا من جديدة مرجعيون في جنوب لبنان.

كان طريقنا الى المدرسة هو السير في الشارع الرئيسي في اتجاه الجنوب حتى نصل أمام بيت أم شمس. وأم شمس كانت لنا بها معرفة اقدم من أيام مدرستنا هذه. ذلك أننا لما هبطنا جنين لأول مرة سكنّا في بيت شَلْبَك وقضينا مع أم محمد وأسرتها وقتاً طيباً. كان البيت على أطراف جنين وكانت أمامه أرض متسعة كان محمد يزرعها بقولاً وزهوراً. وكانت أمه شديدة العناية بها، وكانت أمي تساعدها في ذلك. وعندما يتسع وقتي أنا (فقد كنت مشغولاً باللعب في الأزقة والحارات) كنت أقوم أيضاً بخدمة هذه الجنينة. وكانت البقول المزروعة فيها تزيّن مائدة أم محمد بأنواع السلطات وبعض الطبخات. وكانت المائدة تعمر بشكل خاص في رمضان.

ولكن محمد أراد الزواج، وإذن فلا بد لنا من أن نخلي ذلك الجزء من البيت ليسكن فيه محمد مع عروسه. أما عروسه فكانت الفتاة السمراء ذات العيون الساحرة «شمس» ومن هنا كنا نعرف ام شمس وبيتها. وكان لأم شمس بنت أخرى أنسيت أسمها، وكان الوالد قد توفي. ومع انني شخصياً تأثرت لتركنا بيت أم محمد، فقد كان يتوجب عليّ أن أفهم، أو أدّعي أنني أفهم، أن محمد أولى بالبيت منّا.

فاذا وصلنا منزل أم شمس غيّرنا الاتجاه الى الشرق وأخذنا نصعد في الطريق شيئاً فشيئاً. فنمر على اليمين بالدار الكبيرة التي كان يملكها عفيف عبدالهادي. كانت هذه الدار، في أيام العثمانيين، مستشفى عسكرياً تابعاً للجيش الالماني. وكان يقع أمامها، على الطريق، متسع من الأرض جعل منه عفيف عبدالهادي حديقة غناء، كان الورد أكثر زهورها تنوعاً من حيث الألوان والأشكال. وقد ترك الالمان لصاحب الملك أمر الاهتمام بالحديقة، وكانوا يقدمون له العون. وكنت أنا أعرف الدار من الداخل لأن أمي عملت في هذا المستشفى الألماني.

أما لما افتتحت المدرسة، وأصبحنا نمرّ أمام هذه الدار يومياً، كانت قد تغيّر سكانها. ذلك أنها أصبحت مسكناً لحاكم جنين العسكري الميجر مَكْلَرِن، الذي ظل حاكماً للبلدة والقضاء بعد انشاء الحكومة المدنية في سنة ١٩٢٠ والفرق الوحيد الذي أصابه - ظاهرياً على الأقل - هو أنه خلع البزّة العسكرية ولبس البدلة المدنية، وأصبح اسمه المستر مكلرن.

بعد ان نجتاز دارَ عفيف عبدالهادي كنا نتجه ثانية الى اليمين (أي إلى الجهة الجنوبية) ولكن لبضعة أمتار فقط، وعندها كنا نقف امام بوابة المدرسة، أو على الأصح ما تبقى من البوابة. وعندما نجتاز العتبة كنا نشاهد ساحة واسعة، اتجاهها الأطول من الجنوب الى الشمال، مبلطة، لكنها تأذت من الحرب وسكنى الجنود فيها، فتكسّر الكثير من بلاطها، وانقلع بعضه. أما المبنى فكان فيه ستُّ غرف تقوم على صفٍّ واحد، ثلاث في كل جهة من الجزء المتوسط الذي كانت فيه غرفة للمدير. كانت غرف الصفوف كبيرة، وكانت بالنسبة للطلاب في الوقت الذي كنت فيه متسعة جداً، لكنها أصبحت تدريجاً تضيق بالتلاميذ لما أقبل الأهلون على إرسال أولادهم الى المدرسة. إلا أن هذه الغرف، مثل الساحة، كانت تظهر فيها آثار الحرب. فقد كانت ألواح من الزجاج غائبة عن الوجود، وكانت بعض الأبواب قد خلعت. ولم يكن الوقت قد اتسع بعد لاصلاحها.

لم يكن في المدرسة ماء للشرب. فكان بعض التلاميذ يحملون الماء في زجاجات توضع تحت المقاعد. نعم كان هناك مقاعد جديدة، وكان في غرفة المدير طاولة جديدة وكرسي يجلس عليه. وفي أحد الأيام الباردة انكسرت زجاجة لأن الماء الذي كان في داخلها أخذ يتجمد، فتمدد فكسر الزجاجة. وكان من حسن حظنا ان الدرس كان في موضوع دروس الأشياء أي مبادىء علم الطبيعة (المبادىء جداً) فاغتنم معلمنا الفرصة وشرح لنا قضية تمدد حجم الماء أي تزايده عندما تنخفض درجة حرارته.

ولم يكن في المدرسة دورة مياه، لأن هذه لم تكن قد اصلحت، لذلك كان التلاميذ يخرجون من البوابة ويريحون أنفسهم حيث يتيسّر.

وقد اشتد البردُ في الشتاء الاول بحيث سمح لنا المدير أن نوقد النار في غرفة الصف. ولكن ماذا نوقد كانت ثمة أكوام من الحطب في منزل الحاكم مكلرن (وهو المستشفى العسكري الالماني سابقاً) فشجعنا المدير على الحصول على الحطب من هناك. ولست أدري لماذا اختارني أنا للذهاب الى اصحاب الدار وطلب بعض الحطب منهم. ولم تمتنع سيدة البيت عن مساعدتنا، فحملنا الحطب وأوقدنا النار - مع الدخان والنفيخ وما الى ذلك. فذلك كله خير من البرد.

لكن المبنى أصبح مريحاً في الربيع. فموقعه جميل إنه يعتلي تلة في جنوب شرق البلدة، وكانت المنطقة المحيطة به تكسوها الأعشاب. فكنت أنا أذهب و«أحوش» الهندباء (العلت) والخبيزة أو القرصعنّة وأحمل هذه الحشائش الى البيت كي تصنع أمي منها السلطة أو تطبخها. وكثيراً ما كنت أذهب مع أمي في أيام العطل المدرسية (وكانت أيام الجمع والآحاد عطلاً) لجمع هذه البقول من تلك الجهة.

في أيام الربيع أصبح بناء المدرسة وساحتها مكانين لطيفين جداً. ولما اقبلت أيام الصيف - وقبل العطلة الصيفية - كان رمضان قد جاء، فكنا نتعلم نصف نهار فقط.

كان بعض التلاميذ ممن عرفت من قبل ونحن نلعب في الحارات والأزقة أو نذهب لنستحم في عين نينة، الى الجنوب من البلدة. وهذه العين هي اقصى نبع لنهر المقطع (قيشون) الذي كان يبدأ من هناك، ويصب في البحر الأبيض المتوسط شمالي حيفا، بعد ان يكون قد اجتاز مرج ابن عامر في جزئه الغربي، وجمع المياه من عشرات الينابيع في طريقه. ولكن كان هناك عدد كبير من التلاميذ لم أكُنْ قد عرفتهم من قبل. فقد كان هناك أولاً أولاد الحارة الشرقية. وكان هناك أولاد لم يكونوا يلعبون في الأزقة والحارات. ثم كان هناك تلاميذ جاءوا من القرى المجاورة ليتعلموا في المدرسة.

أنا من الجيل الذي قضى السنوات الأولى من طفولته في عهد عبدالحميد الثاني، سلطان تركية (١٨٧٦ - ١٩٠٩) وخليفته محمد رشاد، وهي السنوات التي شغلت الحرب العالمية الأولى اربعا منها.

ولم أكن الوحيد الذي لم يدخل مدرسة في جنين في سنتي ١٩١٧ و١٩٨. بل كان هناك أولاد أكبر مني سناً انقطعوا عن الدراسة مرغمين، فلما دخلوا المدرسة من جديد كان وضعهم في مثل وضعي. لذلك كان يجتمع في الصف الواحد أولاد من أعمار مختلفة. فصفي مثلاً، الذي ترقى على التوالي الى الصف الثالث ثم الرابع ثم الخامس (أي السنة الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة) من الدورة الابتدائية في سنتين انضم اليه في الصف الرابع تلاميذ كان بعضهم تزيد سنه عن سني بين أربع وسبع سنوات. (وهذه حالة خبرتها فيما بعد في دار المعلمين). هذا مع العلم أن عدد طلاب صفي لم يكن يتجاوز العشرة قط!

وكان من الطبيعي، والبلدة فيها مدرسة واحدة أن يكون طلابها من جميع الطبقات الاجتماعية. أقول ذلك وأنا أقصده. ففي المدرسة كان يتعلم أولاد اسرة عبد الهادي وأسرة العبوشي الى جانب ابناء السمان والسنكري وموزع البريد والعتال. والشيء الوحيد الذي كان يميز الفريق الواحد عن الفريق الآخر هو الثياب. فنحن الفقراء، كان يبدو فقرُنا في ثيابنا المتواضعة. لكن حتى بين هؤلاء كان ثمة فرق بين الثياب (الفقيرة) المرتبة والثياب (الفقيرة) المشوّشة. فالقميص قد يكون فقيراً لكن تكون «أزراره» مخيطة في مكانها وبخيط يتناسب مع اللون. وكنت أنا، بسبب عناية أمي بهذه الأمور، أشعر بالتفوق على القميص المشوش وصاحبه، لكنني لم أكن أشعر بأنني دون الذي كان يلبس القميص الثمين.

في السنوات التي قضيتها في مدرسة جنين نعمت بشكل خاص بصداقة بعض التلاميذ. من ابناء صفي وغيرهم. أما من ابناء صفي فكان جمال عبدالهادي، ابن قاسم بك عبد الهادي، من أخداني. وقد اكتشفنا اننا نحن الاثنين كنا قد استهوانا جمع الطوابع (ولست أذكر ممن اكتسبت هذه الهواية في الناصرة، قبل سكنانا جنين). لذلك كنت أقضي ساعات عنده، خاصة أيام الجمع والآحاد، ونحن ننظم الطوابع القليلة التي كنا نحصل عليها. وكنت أحظى برعاية والده، الحاج قاسم، بقامته الرشيقة ولحيته الدقيقة وثيابه الأنيقة وكلماته الرقيقة. وكان نظمي ابو سخا واحداً آخر من أعز أصدقائي كان نظمي ضعيف البنية رقيق الحاشية. وكان ابوه يملك حانوتاً في سوق جنين يبيع فيه الثياب والنوفوته والساعات. وكنت أزور نظمي في الدكان حيث كان يقضي أوقاته خارج ساعات المدرسة. ذلك أن أباه لم يكن يسمح له باللعب والتنقل الكثير حفاظاً على صحته. ويبدو أن أباه كان على حق، وان لم نكن نحن ندرك ذلك. فقد انتقل نظمي الى رحمة الله وهو في ريعان الصبا بسبب مرض السل الذي كان ينخر جسمه. ولم تكن وسائل الشفاء من هذا المرض قد وصلت بلادنا فلسطين بعد. فأنني عرفت، فيما بعد، شباباً كانوا مصابين بالسل، لكنهم شفوا بسبب إدراك الأطباء لما كانوا يعانون، ومعرفتهم بسبل العلاج والشفاء.

وكان بين أصدقائي في المدرسة حلمي عطاالله، وهو واحد من ابناء بشارة عطاالله، أحد وجهاء جنين، والذي عُيِّن رئيساً للبلدية في جنين بعد الاحتلال البريطاني، وذلك لبعض الوقت. كانت دار عطاالله تقوم في الحارة الشرقية، وكان الوصول اليها يتم عن طريق السوق والساحة الواسعة قبله. وكانت الدار كبيرة، كما كانت أسرة بشارة عطاالله كبيرة أيضاً. إذ كان أولاده تسعة وابنة واحدة. ومع ان اثنين غير حلمي كانا من تلاميذ المدرسة، فان الصداقة ربطتني بحلمي. وقد استمرت هذه الصداقة سنوات طويلة لأن الظروف جمعتني وحلمي في عكا، لما عملت هناك معلماً (١٩٢٥-١٩٣٥)، ثم لما كنت أنا في القدس أعمل في الكلية العربية (١٩٣٩-١٩٤٧) كان هو موظفاً كبيراً في شركة صَن لايف أف كندا (Sun-Life of Canada) ويقيم في يافا وكنا نتزاور. كما كان بين الذين ارتبطت بهم برابط الصداقة يوسف مزنّر الذي اجتمعت به مرة واحدة بعد سنوات طويلة في القاهرة (سنة ١٩٥٧) وثمة تلميذ تعرفت اليه في المدرسة لما جاء والده الى جنين «حاكم صلح» سنة ١٩٢٠. أما الوالد فهو الشيخ كمال اسماعيل؛ والتلميذ هو محمد كمال. ومع ان الصداقة بيننا لم تتم في مدرسة جنين، فأن الظروف جمعت بيننا فيما بعد، وعندها قامت بيننا صداقة متينة. ومحمد كمال هو الذي انشأ التلفزيون الاردني واداره لسنوات طويلة. (توفي سنة ١٩٩٢).

وجنين التي عرفتها بين سنتي ١٩١٧ و١٩٢٣ كانت بلدة يبلغ عدد سكانها نحو أربعة آلاف نسمة. وكانت في العهد العثماني، كما صارت في عهد الانتداب، مركزاً لقضاء جنين الواسع وكان هذا القضاء، في العهدين، تابعاً لمتصرفية نابلس (عثمانيا) أو لواء نابلس (بريطانيا).

كانت جنين مركزاً لمنطقة زراعية واسعة، إذ أنها تقع في النقطة الجنوبية لمرج ابن عامر. وكان طريق العربات يجتازها في اتجاهه من الناصرة الى نابلس وبالعكس، وبعد الاحتلال البريطاني صار هذا طريقاً للسيارات التي أخذت تظهر على طرق فلسطين. وكانت جنين محطة على تفرع من الخط الحجازي الذي يبدأ من العفولة (الواقعة على خط درعا - حيفا) ويتجه جنوباً الى نابلس وطولكرم. وكان على المسافر بالقطار ان يسير كيلومترين وبعض الكيلومتر بين البلدة (جنين) والمحطة. واذا كان يستطيع دفع النفقات فانه كان يستأجر حماراً لينقله من المحطة الى البلدة أو العكس.

وكان سكان جنين من المسلمين باستثناء عدد صغير جداً من المسيحيين يبلغ نحو الخمسين نسمة، كباراً

وصغاراً. وكانت أسرة عطاالله الوحيدة المتوطنة في البلدة منذ جيلين (وأصلها من دير القمر). أما الباقون فقد وفَدوا الى البلدة للعمل فيها، من الناصرة ونابلس وصور وحمص. فجميل قعوار، وكان نسيباً لبشارة عطاالله، كان يعمل في البوليس التركي والبريطاني (وتبعه واحد من ابنائه هو فَضّول في أيام الانتداب). وأسرة حبيب وهبة ناصرية الأصل (وان كان أصلها الأقدم من جديدة مرجعيون). وكان حبيب موظفاً في الحكومة. ونحن كنا أسرة ناصرية أيضاً. وكانت أسرة نقولا المكونة من فايز الموظف وكوكب المعلمة وأخيهما موسى وأخت أخرى والوالدة ناصرية كذلك، أما أسرة يوسف خوري النابلسي الأصل (وأولاده) فقد كانوا يديرون الفندق الوحيد الذي بُنيَ في جنين في العهد العثماني. ومع انه استعمل بعض الوقت مقراً للضباط الانكليز، فانه عاد الى طبيعته، وقد ظل فندقاً مرموقاً الى سنة ١٩٤٣ على ما أعرف من اقامتي فيه في تلك السنة. وكان جريس خوري يدير مصنعاً خاصاً صغيراً للأحذية، وكان عمله يمتاز بالجودة من حيث الصُنع وبالسعر المعقول. وكان الأخوة قري (من نابلس أيضاً) موظفين في الحكومة، ولعل فائقة كانت أول فتاة عملت موظفة في جنين. اما الاخوة مزنر فقد كانوا يعملون في التجارة وخاصة بتجارة الأقمشة الرجالية. ومثلهم الاخوان حلاج (بشارة واندراوس) وهما من صور. اما الأسرة الحمصية فكانت تتكون (سنة ١٩٢٠ـ ١٩٢١) من موريس خباز (مدير المدرسة الذي عيّن في منصبه سنة ١٩١٩، ومن عروسه (رنجس) التي جاء بها في صيف ١٩٢٠. والأسرة الوحيدة التي تزوج أحد أفرادها وأنا في جنين هي أسرة عطاالله إذ تزوج وديع (بن بشارة)، الذي كان كبير موظفي المالية في جنين، سيدة من الاسكندرية، وجاءت فدى لتسكن مع زوجها في شقة خصصت لهما في الدار الكبيرة.

وهؤلاء المسيحيون كانوا من طوائف متنوعة. كان الأكثرية من طائفة الروم الارثوذكس، وكانت أسرة واحدة من الروم الكاثوليك وأسرة واحدة بروتستانتية ولم يكن في جنين كنيسة ولا راع للجماعة. لكن كان يأتينا مرة في الشهر على الأقل خوري من الناصرة أو زبوبا أو الزبابدة أو نابلس (رفيديا)، ليخدم القداس الالهي. فكان يكرس قاعة الجلوس الواسعة في بيت جميل قعوار (والبيت جزء من دار عطاالله) ويقيم الخدمة الالهية هناك. وأذكر انني كلفت أكثر من مرة قراءة الرسائل.

كان معلمونا في مدرسة جنين الابتدائية خلال الفترة التي قضيتها فيها يمثلون الجيل الذي تعلم في أواخر العهد العثماني في أنواع مختلفة من المدارس. كان مدير المدرسة في السنة الأولى لفتحها جاد الخوري من قرية المقيبلة (الى الشمال من جنين). ولست أدري ما الذي أهّله للعمل إلا أنه كان يعرف شيئاً من الانكليزية. وكان يروي لنا انه تعلم ذلك في مدرسة في القدس. لكن المدرسة عرفت في السنة التالية مديراً جديداً هو موريس خباز، الذي جاءنا يلبس بزّة عسكرية. موريس من أسرة خباز الحمصية المعروفة. وقد تعلم في مدرسة حمص الوطنية، ورحَلَ الى الولايات المتحدة. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى تطوّع جندياً، والتحق بالجيش البريطاني فيما بعد. ولما وصل مديراً لمدرسة جنين كان في رتبة ضابط.

لكن أمر البزة العسكرية لم يطل، فبعد بضعة شهور غادرنا موريس في اجازة قصيرة كما قال. ولما عاد الى المدرسة بعد انتهاء الاجازة كان يلبس بدلة مدنية كحلية وطربوشاً وحذاء أصفر. والذي أذكره هو أننا رأينا مدير مدرستنا يلبس مثل بقية المعلمين لكنه كان أكثر أناقة، باستثناء زكي بك.

كان بين معلمينا الشيخ سعيد مرعي، إمام الجامع الكبير. كان الشيخ سعيد، فضلاً عن اتقانه تجويد القرآن الكريم، ذا صوت رنّان (مثل الجرس كما كانوا يصفونه). واحسب أن كلّ بيت في جنين كان يفتح شبابيكه عندما كان الشيخ سعيد يصعد المئذنة لأذان الفجر (يومها كان الآذان يتم مباشرة بدون مسجل وميكروفون).

كان الشيخ سعيد يعلم الدين الاسلامي. وقد كان من حقي ان أترك غرفة الدرس ساعتها، لكنني لم أفعل ذلك. وحضرت دروس الشيخ سعيد جميعها لسنتين (وقد ترك التعليم بعد ذلك). وهنا، فضلاً عما تعلمته من

قواعد الدين بالذات، اتيح لي ان احفظ قدراً لا يستهان به من آي الذكر الحكيم. إذ أن الشيخ كان يصرّ على أن يحفظ الطلاب الآيات البيّنات، وكنت أنا افعل فعلهم.

واذكر من معلمينا زكي بك. ولست ادري، او لعلي لست اذكر، اسم أسرته. زكي بك الأشقر الشعر، الأزرق العينين كان عصبياً (سمّاوياً)، يغضب لكل شيء كبيراً كان أم تافهاً. ولعل الرجل كان معذوراً. كان زكي بك مديراً للمدرسة أيام العثمانيين. وكان اقل ما ينتظره أن يعاد الى عمله في المنصب نفسه. لكنه عيّن معلماً فقط. كان زكي بك (والبكوية جاءته من أهل جنين لما كان مديراً للمدرسة، وظلت معه بعدها) يقول لنا إنه درس في استانبول، وإنه «يحمل شهادة» من أعلى مدارس العاصمة العثمانية، وانه ما كان يجوز أن يكون معلماً فقط. وزكي بك كان يعلمنا الخط العربي والهندسة، أي الرسم الهندسي. ولست أنكر على الرجل غيرته على إجادة الخط. والذي عندي من وضوح في خطّي، وحتى بعض الأناقة، يعود الى تشجيع زكي بك.

كان زكي بك يتبع معنا نظاماً للمكافأة كان معروفاً من قبل. فهو، عندما يجيد الطالب كتابة سطر، كان يكتب له ما يسميه «إحسان». فاذا اجتمع للطالب أربعة «إحسانات» استبدلها «بتقدير». وعدد «التقديرات» يؤثر في العلامة في نهاية السنة. وكنت أجمع «الاحسانات» و«التقديرات» يميناً وشمالاً. وفي أحد الأيام كتب زكي بك إحساناً لنظلمي ابو سخا، ولم يكتب لي واحداً مع ان خطي (وبالحبر وبقلم البوص) كان أحسن من خطه. وانتبه زكي بك الى القضية، فقال لي باسماً انتظر وستسمع شيئاً يعجبك. وقبيل انتهاء حصة الدرس قال لنا يا شباب «لن أعطي نقولا بعد اليوم إحساناً على الخط. إن خطه أفضلُ من احسان. فهو يتميّز عليكم جميعاً. والشاطر يلحقه». وهكذا خسرت الاحسانات والتقديرات، لكنني لم أخسر تقدير زكي بك الخاص.

زكي بك، كما كان يقال، لم يكن من جنين. الشيخ سعيد مرعي كان من أهل جنين. وكان بين معلمينا، من أهل جنين أيضاً معروف السعيد وسليم عزوقة.

لم ادر يومها، ولم اعرف بعدها، ما الذي كان يعرفه معروف السعيد، ولعله كان أيسر عليّ، يومها وبعدها بقليل، ان احدد ما يجهله هذا الرجل. لم يبقَ معروف بيننا مدة طويلة، فقد نقل الى مدرسة في احدى قرى جنين. وكل ما عرفناه منه انه علّم بعضاً من دروس اللغة العربية. كان في عرف تلك الأيام في اللغة العربية شيء اسمه المحفوظات. كان المعلم يفرض على التلاميذ مقطوعة شعرية أو قطعة نثرية يطلب منهم حفظها. ولست أشك في انه من سوء حظ الطلاب في هذه الايام أن مثل هذا الدرس قد ألغي.

المهم أن معروف السعيد علمنا المحفوظات. في تلك الأيام كان كتاب «القراءة الرشيدة» المصري هو الكتاب المدرسي. كان للقراءة وللمحفوظات، ولما بدانا نتعلّم الصرف والنحو، كان المعلم الماهر يستعمله لانتزاع الأمثلة منه. كتاب واحد يدور حوله كل شيء. كم كنت أشفق على ابنيّ لما كانا في المدرسة الابتدائية في بيروت في الأربعينات والخمسينات، وكان كل منهما يحمل أربعة كتب للغة العربية «كل يوم» إلى المدرسة. هذا مع العلم ان درس المحفوظات كان قد أُسقِطَ!

وكان معروف السعيد يحدثنا بشكل ينقصه الوضوح عن جيش عربي كان هو فيه. هذا الجيش هو الذي انتصر في الحرب العالمية الأولى على الأتراك والألمان وأخرجهم من بلادنا. لكن ماذا كانت طبيعة هذا الجيش؟ أين تكوّن؟ من كان قائده؟ أين وقعت المعارك بينه وبين الأتراك والألمان، فامور لم تكن، على ما أذكر، واضحة في ذهنه. وكان يردد بين حين وآخر اسم فيصل، ويقول عنه إنه بطل عظيم.

لكن لماذا كل هذا الغموض؟ هل كان معروف السعيد يخشى أن يُعْرَفَ عنه أنّه كان في جيش فيصل؟ ولكن لماذا يخشى؟ ألم يكن هذا الجيش العربي الفيصلي حليفاً للانكليز! أم يا ترى لم ينضم معروف السعيد الى ذلك الجيش قط، وكل ما هناك أنه سَمِعَ عنه، وأراد أن «يكْبَرَ» في عيوننا فوضع نفسه هناك وتحدّث هذا الحديث

المبهم!

وعلى كلٍّ فقد دخل علينا معروف السّعيد يوماً، وقال لنا إنه يودّ أن يعطينا قطعة نثرية خاصة للحفظ. وأخذ يمليها علينا وكان مطلعها بيتاً من الشعر هو:

لا العربُ قومي ولا سورية داري ان لم تهبّوا لنيل الحق والثار

وأملى علينا صفحتين أو ثلاثاً، وحرص على أن نشكّلها على الوجه الصحيح. ولما فرغ من الاملاء، وطلب الينا أن نحفظها للدرس القادم، أخبرنا أنها من كتابته هو وقد نشرها مقالة في احدى صحف دمشق. ولكن المهم اننا لم «نُسمِّع» هذه القطعة لمعروف السعيد ابداً. فقبل أن يحين موعد الدرس القادم (وكان بعد اسبوع) كان معروف السعيد قد أرسل الى مكان آخر.

أما سليم عزوقة فقد كان يعلمنا الحساب في العام الدراسي الأول (بعد فتح المدرسة). ومشكلة سليم عزوقة كانت كبيرة. لم يكن بين أيدينا كتاب لتعلم الحساب. لذلك كان عليه أن يعد المسائل اللازمة. ولم يكن سليم عزوقة من أولئك الذين يفكرون ملياً ويخططون جلياً. لذلك كانت القضية معه أنه كان يأتي قاعة الدرس ومعه مسألتان أو ثلاث مسائل، وقد تكون واحدة منها خطأ. وكانت الحصة تنتهي بين كتابة ما معه على اللوح، وتفسير المسألة، ثم محاولة حلها. والشيء الذي أذكره جيداً عن سليم عزوقة هو أن خطه كان جيداً، لذلك لم نكن نجد صعوبة قط في قراءة الكلمات. أما فهم المسألة ثم حلها، فأمر آخر. وقد استمر سليم عزوقة معنا مدة أطول من معروف السعيد لكنه نقل أخيراً الى مدرسة أخرى.

ذكرت من قبل ان أول مدير للمدرسة كان جاد خوري من مقيبلة (شمالي جنين). وقد كنا نعرف عنه أمرين: الاول أنه كان كل يوم يبعث بخادم المدرسة ليحضر له طعام الفطور، وهو صحن كنافة ورغيف خبز. والثاني أنه كان يعلمنا الانكليزية. ولم تكن الكتب قد وصلت من مصر بعد. فكان يكتب كلمات وجملاً على اللوح الأسود يعلمنا إياها. ثم جاءت الكتب ومعها كتاب «قراءة النيل» (The Nile Reader) فاستعمله جاد في تعليمنا. ثم تواردت الكتب. وجميعها من مصر. كتاب في الجغرافية عن القارات نصفه عن إفريقية، ونصف هذا القسم عن مصر. لذلك كنا نعرف عن نهر النيل ومجراه وشلالاته وسده الكبير (أسوان)، لكننا لم نعرف شيئاً عن نهر الأردن. وكتاب الصحة كان قد وضعه بالانكليزية رجل اسمه ساروبيان، ونقل الى العربية. وكتاب الحساب من تاليف تويدي (أصلاً بالانكليزية أيضاً) مترجم الى العربية. وجميع المسائل الحسابية فيه، فيما يتعلق بالحبوب واللحوم أساسها الأردب وأجزاؤه، والرطل المصري وأقسامه، والقرش المصري وما الى ذلك. ولعل القرش المصري كان اقرب الامور إلينا لأن النقد الذي أدخلته الادارة البريطانية في فلسطين (أيام الحكم العسكري وحتى أيام الادارة المدنية الى عام ١٩٢٧) كان النقد المصري. ومن هنا نشأت صعوبة جديدة أمام سليم عزوقة تتعلق بالموازين والمكاييل المصرية. اما الكتاب الذي كان لطيفاً وفيه بعض المتعة فهو كتاب «القراءة الرشيدة» للقراءة العربية. ولا أزال أذكر الى اليوم بضعة أبيات من القصائد التي كانت في الكتاب. كما لا تزال صورة الكتاب ماثلة أمامي.

واخيراً تقرر أن يكون لصفنا، في السنة التالية، درس في قواعد اللغة العربية، وعُين موعد هذا الدرس يوم الثلاثاء بعد الظهر. وكان الشخص الذي عهد اليه بتدريسنا الصرف والنحو هو شيخ أزهري. لقد عرفت بعد هذا الرجل عدداً لا يستهان به من الأزهريين، لكن هذا الرجل كان نسيج وحده. قبل موعد الدرس ببضعة أيام كان إذا لقي أحدنا (وكان طلاب الصف لا يزيدون عن العشرة) يؤكد له أن قواعد اللغة العربية شيء صعب، وأنه قضى في الأزهر ثلاثين سنة ولم يتقن هذا الموضوع. لذلك يجب علينا أن ننتظر صعوبات وعملاً شاقاً. وقد انذرت

بذلك كما أنذر غيري. لذلك لما حان موعد هذا الدرس هربت من المدرسة خوفاً من الموضوع وفعلت الشيء نفسه يوم الثلاثاء التالي. وكان من اليسير ان يكتشف غيابي ونحن عديدنا قليل، وابلغ الأمر الى مدير المدرسة. وكان من الطبيعي أن أُستدعى الى مكتبه، وأن ألقى القصاص المناسب، وأن يطلب مني أن أحضر الدرس وأن أنقل عن التلاميذ المادة التي كان الشيخ قد أعطاها لزملائي. وقد أنذرني المدير بأنه سيشكوني الى أمي إذا عدت لمثلها.

وكان لزاماً عليّ أن أفعل هذا كله. فنقلت ما فاتني، وحضرت الصف وكنت أنقل ما يمليه علينا. اما هذا الذي كنا ننقله ونحفظه غيباً ففيه نماذج من الاعراب مأخوذة من الكتب الصفراء التي ألفها شيخُنا. كنا نحفظ المادة غيباً، ونكررها عندما نُسأل عنها، لكن الفهم لم يكن أمراً يعنينا ولا كان يعني الشيخ. لكن لم تطل محنتُنا، لأن الشيخ نُقلَ بناءً على رغبته ليعلّم في مدرسة فتحت حديثاً في قريته.

تركَنا هذا الشيخ لكنه كان يريد أن يتقدم الى امتحان (الشهادة الابتدائية للمعلمين) ليُحَسِّنَ أوضاعه في إدارة المعارف. وفي صيف ١٩٢٢، وكنت قد أصبحت أنا طالباً في دار المعلمين، جئت الى جنين لقضاء عطلة الصيف. وذهبت الى المدرسة لزيارتها. وهناك كان جمع من المعلمين في القاعات لأداء الامتحان. وفيما أنا أنقّل ناظري في قاعات المدرسة (من الخارج) إذا بالشيخ نفسه يخرج من احدى القاعات، ويأتي نحوي، ويقول لي «أنت كنت شاطراً في المدرسة،والآن تعلّمت الشيء الكثير. جاءنا في امتحان الجغرافية سؤال عن البراهين على كروية الأرض. سأذكر لك ما قلته لأرى إن كانت الاجابة صحيحة». وكان قد حَفظَ ذلك من كتاب ابتدائي في الجغرافية كلمة كلمة. فقلت له «مدهش يا معلمي. جواب صحيح تماماً». فتنفس الصُعداء، وصمت برهة، ثم قال لي «لكنني أنا لست مقتنعاً بكروية الأرض، لذلك كتبت في نهاية الجواب: وناقلُ الكفر ليس بكافر!».

وماذا حدث لدرس القواعد؟ تبدّلت الدنيا. ففي اليوم المعيّن للدرس، يوم الثلاثاء بعد الظهر، دخل علينا معلم كنا نراه في المدرسة لكنه لم يعلمنا قبلاً. لعله كان يعلم الصفوف التي كانت تلينا درجة، ولم أكن أعرف حتى اسمه. وقد كان الذي حدث ثورة بالنسبة لنا. دخل معلمنا الجديد الغرفة، وفتح كتاباً، وقال لنا إنه سيقرأ لنا قصيدة لحافظ ابراهيم. وقدم لنا حافظ ابراهيم بجمل قصيرة قليلة. ثم تلا القصيدة ومطلعها:

شبحاً أرى أم ذاك طيفُ خيالي   أم ذي فتاة بالعراء حيالي

كان صوته لطيفاً، وقراءته حسنَة، وايماؤه مناسباً وكان يتوقف بين الفينة والفينة ليفسّرَ لنا كلمة، أو يوضح لنا معنى، أو يشرح لنا فكرة. أعجبنا معلمنا الجديد. ولما فرغ من القصيدة أطبق الكتاب ثم التفت الينا وقال: «يظهر أن القصيدة أعجبتكم، ولا شك أنكم تحبون أن تقرأوا شعراً على النحو الذي قرأته لكم. ولكن كي تتمكنوا من ذلك، يتوجب عليكم أن تتعلموا شيئاً اسمه قواعد اللغة العربية أي الصرف والنحو. وعندها يمكنكم أن تضبطوا القراءة فيتضح المعنى لكم».

وانتقل الى اللوح الأسود (السبورة) وكتب أحد أبيات القصيدة - اختار بيتاً سَوِيَّ التركيب اللغوي - وأخذ يدلنا فيه على أنواع الكَلِم، وانتقل بمنتهى اليسر، ونحن ننتقل معه، الى فعل، ثم عثرنا جميعنا مشتركين على فاعله. وظل مصطفى السّعد معنا بقية العام يعلمنا قواعد اللغة العربية ولم يُنَقِّلْنا من الكتب الصفراء. في السنة التالِيَة جاءنا جراسيموس خوري لتعليمنا هذا الموضوع بالذات. ومع انه كان صاحب أسلوب حديث (يومها) فانه لم يكن مثل مصطفى السعد. وأود أن أذكر الاثنين بالخير. فقد ظللت، إذا أُشكلت عليَّ قضية في اللغة من حيث القواعد، أذهب الى مصطفى السعد في بيته ليشرحها لي. فأفدت منه كثيراً ومن ج. خ. قليلاً.

كنت ابرز في درس الانشاء العربي. وكان يسعفني في ذلك قراءاتي السابقة المنوعة والكثيرة؛ فقد زوّدتني هذه بألفاظ كانت أكبر من الدروس التي كنا نقرأها في المدرسة، و«موّنتني» بتعابير جميلة لم يكن حتى بعض

مدرسينا يقدرون على الاتيان بمثلها، ومنحتني معاني وافكاراً لم اكن أعثر على مثلها عند التلاميذ الآخرين، حتى الذين كانوا اكبر مني سناً وأعلى صفاً.

كان التغيير الكبير الذي أصاب مدرستنا في السنة التالية لفتحها مجيء موريس خباز مديراً لها. جاء موريس وعنده تجربة التعليم في مدرسة حمص الوطنية، واختبار جمعه من الفترة التي قضاها في اميركا، ونظام حمله معه من الجيش، ودقة في العمل. وقد اتضح هذا كله في الاسابيع الأولى من توليه العمل. لعل أحد أصحابنا من الطلاب لو قرأ هذا لقال بعد جاد الخوري كان كل مدير تحفة. وهذا صحيح. لكن موريس خباز كان نعمة للمدرسة. فانتظمت الساعات، وأصبحنا نرى المعلمين يَصِلُون في الوقت المحدد. ولم نعد نرى شخصاً يحمل كل صباح صحناً فيه أوقية كنافة ورغيف كي يتناول المدير طَعام الصباح.

جاءنا في هذه السنة معلمان جديدان. محمد الجاعوني الذي كان أحد خريجي دار المعلمين في القدس (الدفعة الأولى على الراجح) وجراسيموس خوري وقد مر بنا ذكر الثاني إذ انه أعطانا دروساً في العربية. وكان معلمنا هذا ضخم الجثة كبير الشاربين (لقد كان جميع معلمينا أصحاب شوارب، إذ أن حلق الشاربين لم يكن مألوفاً يومها)، وكان يحرص على حمل ساعة ذهبية كبيرة في جيب الصِّداري، وكانت تُشبَكُ بسلسال ذهبيٍّ ثخين نسبياً مربوط بداخل جيب الصداري الثاني. وقد كانت هذه الطريقة هي المثلى يومها لحمل الساعة. لكن الشيء الذي كان يضايقنا منه هو انه كان ينظر في ساعته مرات عديدة اثناء الحصة. كنت أنا أحسُّ أنه متضايق من عمله أو من تلاميذه أو من المدرسة أو من هذا كله مجتمعاً. وعرفت فيما بعد انها كانت عادةً لا اكثر ولا أقل وأنه كان يمسك بالساعة ولكنه لم يكن يعنى بالتعرّف الى الوقت.

اما محمد الجاعوني فقد كان يعلّمنا التاريخ والجغرافيا، لقد مر بي انا وقت، بعد سنوات، كنت أتعلم فيه الدرس مساء كي أعلمه في صباح اليوم التالي. وكان الموضوع التاريخ والجغرافيا لكن كان بين يدي كتب ولو باللغة الانكليزية، الخّصُ منها ما يحتاجه الطلاب. لكن محمد الجاعوني كان بين يديه كتابان مصريان واحد للتاريخ والآخر للجغرافية ولم يصطحب محمد الجاعوني حتى كتاباً واحداً معه ليعينه.

في هذه السنة (الثانية) وصلت أولى شحنات الكتب التي بعثت بها ادارة المعارف لاستعمالنا. كانت جميعها كتباً مصرية. وقد أشرت الى كتاب الحساب وتعثر سليم عزوقة معه. إلا انه كان من حسن حظنا أن أخذ موريس خباز على عاتقه تدريس الحساب. فكان يسترشد بالمسائل الموجودة في الكتاب ويضع مسائل مشابهة لها، لكن لها أساس محلي (فلسطيني في هذه الحالة)، لذلك حُلَّت المشكلة مؤقتاً. إلا أن «الموقت هذه» دامت سنوات الى أن قام المعلمون في فلسطين بوضع كتب لتدريس الحساب.

ولست أنسى السرور الذي داخلنا يوم عرفنا أن صناديق الكتب وصلت، وأنها ستفتح حتى يسهل نقل المحتويات من دار البلدية الى المدرسة. كان سبب السرور أن المدير أخذ صفي، وكان الدرس معه، الى دار البلدية كي نساعد في فتح الصناديق، وتحضير الكتب رزماً صغيرة نسبياً، كي يتسنى نقلها. وقد فتحت الصناديق وكنا نحن نتناول الكتب الجديدة النظيفة وعليها اسماؤها مطبوعة بالحرف الواضح. وقد عرفت فيما بعد سبب هذا الاتقان في العمل. كانت الكتب مطبوعة ومجلّدة في دار المعارف بالقاهرة. ودار المعارف كانت يومها وكانت قبل ذلك اليوم وظلت بعده، في طليعة دور النشر في العالم العربي.

كانت جنين في أواخر العهد العثماني مركز قضاء، وكان الموظف الاداري هو القائمقام، وكنا نعرف ان مكتبه في السراي، وكانت السراي مبنى كبيراً يقع في مقابل الجامع الكبير في النهاية الشمالية للبلدة. لكن لست أذكر أن أحداً من الذين اتصلت بهم كان يشير الى القائمقام. ولست أذكر أنني سمعت حتى اسمه. اما الرجل الذي كان

يعرفه الجميع فهو الرجل الاسمر الطويل المهيب في الثوب الرسمي وهو القوميسير (أي مدير البوليس) حسن بك. هذا هو الذي كنا نراه في البلدة، وهو الذي كان الناس يحسبون له حساباً.

وكان في جنين شخص آخر يعرفه الجميع هو المنادي أسعد. كان أسعد يُعْهَد إليه بأن يدور في البلدة ويعلن الاوامر الرسمية (باختصار)، كما كان يُعهدُ إليه بأن ينادي في البلدة في حالة اختفاء دابة (وقد تكون مسروقة، وهو أمر كان نادراً بسبب سهر حسن بك). وكان أسعد يسير متوكئاً على عصاه، متنقلاً على أخمص قدميه فقط، لانه اصيب بعاهة في صغره أصبح على اثرها لا يستطيع أن يدوس على كعب رجليه. فكان ينادي مثلاً «يا سامعين الصوت صلّوا على النبي (ص)، يا من شاف يا من سمع يا من رأى (مثلاً حماراً) صفته كذا، يخصّ فلان، فالذي يعرف عنه شيئاً يخبر بذلك البوليس أو يرده الى صاحبه...» وكان المنادي أسعد يقوم بتبليغ الناس عن عرس فلان (إذا كان فلان هذا ممّن يريد عرساً كبيراً يشترك فيه من يريد). عندما يذهب الشباب الى مكان العرس، وفي أقرب ساحة للبيت يعقدون السحجة والدّبكة ثلاث ليال متواليات (وقد تكون سبعاً).

فحسن بك القوميسير وأسعد المنادي كانا في نظري ونظر غيري أشهر شخصيتين في جنين. وكان المختار يليهما. فما اكثر ما كانت الأمور تتم في مكتبه الذي كان في احدى المقاهي!

ولما دخل الانكليز فلسطين قامت الادارة العسكرية لبعض الوقت (الى سنة ١٩٢٠). ولذلك عُهِدَ بادارة قضاء جنين الى الميجر (ماجور) مَكْلَرِن، الذي اتخذ البناء الذي كان المستشفى الحكومي في عهد الاتراك، مقراً لادارته. والبناء ضخم، وكان ملك نظمي عبدالهادي. كان مكلرن ينتقل من بيته (الذي كان المستشفى الألماني سابقاً) الى مكتبه (مسافة نحو ٦-٧ دقائق) ببزته العسكرية ومعه حرسه الخاصّ. وعند مدخل الدار الرسمية كان يُحَيّي عسكرياً وكان يذهب حول الساعة العاشرة صباحاً الى بيته ليتناول الشاي، ثم يعود الى مكتبه. وأظن ان كل هذا كان يقصد منه لفت النظر الى الوجود الجديد. أما السراي القديمة (التركية) فقد ظلّت فيها رئاسة البلدية (وقد عُيّن بشارة عطاالله رئيساً للبلدية لبعض الوقت) والمحكمة. محكمة الصلح (وكان الشيخ كمال اسماعيل حاكم صلح جنين بدءاً من سنة ١٩٢٠) والمحكمة المركزية عندما كانت المحكمة تأتي من نابلس (مركزها هو مركز اللواء التابعة جنين له) لعقد جلساتها هناك.

كان مفتي جنين في ذلك الوقت الشيخ أديب الخالدي. وكان يزور المدرسة. وأذكر أنه أراد في يوم من الأيام ان يمتحن مقدرتنا على الاملاء، فدخل الصف (صفّنا) بصحبة المدير موريس خباز وأملى علينا بيتين من الشعر. أذكر الثاني منهما لانه كان بيت القصيد في إملائه، وهو

مـــــن لا قَـــــرا ولا دَرى ولا دَرس   شـــتـــان مـــا بين حـــمـــار وفـــرس

كان يريد ان يرى فيما إذا كنا نفرّق في الكتابة بين «قرا» و«درى». ولم يضبط الكلمتين في الصف سواي. ولذلك كبرت في عينيه (على صغري في السن والحجم). فكان كثيراً ما يستوقفني في الشارع ويسألني عن دروسي وقراءاتي (غير الدروس) ويشجعني على المطالعة.

اذكر ان الجنرال «موني»، الذي كان الحاكم العسكري لفلسطين قبل ان يتولى الأمر الجنرال بولز (وهذا هو الذي جاء في ايامه هربرت صموئيل مندوباً سامياً ١٩٢٠-١٩٢٥)، زار جنين، وذهبنا، نحن تلاميذ المدرسة، الى مقر الحاكم لننشد، لمناسبة قدومه، نشيداً أعدّه وعلمنا إياه الشيخ سعيد مرعي (وقد كانت آخر شطرة من آخر بيت هي «بلقاموني الكرام»). وكذلك فعلنا لما زارَ المدرسة مدير المعارف (في الادارة العسكرية) الماجور تدْمَن. وكان تدمن طويل القامة رفيع العود. وأظن ان الشيخ سعيد علمنا النشيد نفسه بعد أن بدّل كلمة «موني» بكلمة «تدمن».

ولما انشئت الادارة المدنية في فلسطين، ظل مكلرن حاكماً لقضاء جنين ولكن بالثياب المدنية. وكان مما فعله في جنين أنه بنى ملعباً للتنس، لأنه كان يحب اللعبة. وكنا نذهب الى الملعب (الواقع غربي البلدة قرب البيادر) لنتفرج عليه وعلى زملائه من الانكليز يلعبون التنس.

أما نحن فقد أدخل موريس خباز لعبة الفوتبول (ولم تكن قد تعرفنا الى كلمة كرة القدم بعد). وكنا نذهب الى شرقي البلدة، عند البيادر الشرقية، لنلعب هناك.

ومع ادخال الادارة المدنية الى فلسطين (١٩٢٠) بدأت الحكومة بتعيين مساعدين من العرب (في المناطق العربية) للحاكم الانكليزي. وكان أول من تولى هذا المنصب في جنين عارف العارف. أما لقبه فكان المستشار المحلي (Local Advisor). وقد كانت لي معه قصة ساورويها في مكانها بعد قليل.

جاءت جنين فرقة تمثيلية وكانت الرواية التي مثلتها صلاح الدين (للشيخ نجيب الحداد). وقد حضرتها، وهي أول رواية تمثيلية أحضرها. وكانت العادة أنه لا بد من إلقاء خطاب قبل البدء بأي شيء، حتى ولو كان رواية. وكان الذي ألقى الخطاب ليلتها فهمي العبوشي، الذي كان خطيب جنين المفوه. وقد سُررت بالرواية كثيراً (دفعت ثمن التذكرة قرشين ونصف القرش بالعملة المصرية).

وما دمنا قد ذكرنا العملة، فلنشر الى النقود التي كانت تستعمل في أيام الأتراك. في مقدمتها الليرة الذهبية (التي اختفت تقريباً في آخر العهد العثماني إذ حلّت محلها الليرة الورقية التي لم يهتم بها الناس، لكن الحكومة كانت تدفع المعاشات بها). والليرة كانت ثمانية مجيديات وكان هناك نصف المجيدي وربع المجيدي ونصف الربع وهذا كان يسمى البرغوت (وهذه جميعها كانت من الفضة - ولذلك أصبحت أيضاً نادرة). ولكن العملة التي كانت بين أيدي الناس هي القطع النحاسية البِشْلِك ونصفه وربعه والمَتْليك والنحاسة. والقرشُ الرسمي كان أربعين بارة (وكان يسمى القرش الصّاغ) أما القِرش الشُرُك فكانت قيمته نحو ٣/٤ القرش الصّاغ على الغالب.

لما دخل الانكليز جاءوا معهم بالنقد المصري - الجنيه ونصف الجنيه وبقية القطع. وقد حُسِبَ القرشُ المصري (الكبير الحجم المثقوب وسطهُ) بستّة متاليك ونصف المتليك. (لذلك فانني لما دفعت ثمن تذكرة لحضور الرواية قرشين ونصف القرش، فقد دفعت مبلغاً كبيراً - وبهذه المناسبة دفعت أنا نصف ثمن التذكرة لأنني تلميذ، أما التذكرة فكان ثمنها خمسة قروش).

كان في جنين أسرتان كبيرتان تتنافسان على الوجاهة والزعامة: الواحدة آل عبدالهادي والثانية آل العبوشي. وكان لآل عبدالهادي بيوت واسعة في البلدة. فدار حافظ باشا (عبدالهادي) التي كانت تتوسط البلدة كانت شبه قلعة. وكان هناك بيت عفيف عبدالهادي (المستشفى الالماني العسكري) وبيت نظمي عبدالهادي (المستشفى الحكومي التركي ومركز الادارة البريطانية فيما بعد) وبيت قاسم عبدالهادي في جنوب البلدة، الذي كان يقطن فيه. وبيتا عفيف وقاسم كانت تحيط بكل منهما حديقة جميلة. وكان قاسم يعنى بحديقته بنفسه. والورود التي كان يزرعها كانت غاية في الجمال. (وهذا البيت كنت أعرف داخله لأن جمال، ابن قاسم، كان معي في الصف). وكان لآل العبوشي بيوت كبيرة، لكن كانت لهم منازل اكثر عدداً في القرى التي كانوا يملكون الأراضي فيها.

خلال السنوات التي قضيناها في جنين (١٩١٧-١٩٢٣) وقع رمضان في فصل الصيف، فكانت ساعات الصيام طويلة. كان الصائمون يتأخرون في الاستيقاظ صباحاً، لذلك فالحوانيت كانت تفتح متأخرة. وكانت صفوف المدرسة تبدأ بعد الوقت المعتاد بنصف ساعة. ولم يكن ثمة دوام بعد الظهر.

والمهم بالنسبة للصائمين هي ساعات بعد الظهر الطويلة. كان المتقدمون في السن يذهبون الى الجامع الكبير لأداء صلاة العصر. وكان عدد كبير من الشباب يفعل ذلك أيضاً. والجامع الكبير في جنين كان يقع في نهاية

البلدة في الشمال، وعلى يسار الخارج منها، وكان فعلاً واسعاً فسيحاً، وكانت تحيط به حديقة جميلة يدور بها سور مرتفع. وهكذا عندما ينتهي القوم من صلاة العصر كانوا يتحلقون حول الشيخ سعيد مرعي، أمام الجامع الكبير. والذي أذكره عن الشيخ سعيد، وكان أحد المدرسين في المدرسة، أن صوته كان من أجمل الأصوات التي يمكن أن تُسمع. إذا صعد الشيخ سعيد مئذنة الجامع للآذان. خاصة لصلاة الفجر. لم يبق في جنين شباك مقفلا. كان الجميع يترقبون آذانه.

فبعد صلاة العصر كان الشيخ سعيد يجلس في الجامع ويتحلق الراغبون حوله عليه ليقرأ عليهم ما تيسّر من آي الذكر الحكيم، ثم، بعد ان يكون قد أخذ بمجامع القلوب بسبب تجويده للقرآن الذي لم يكن يُجارى فيه، كان يأخذ بتفسير ما قرأه. هذا درس رمضان اليومي. وكان الشيخ سعيد بطلعته المهيبة، ووجهه الناصع، وشعره الأشقر الذي وخطه الشيب كما وخط لحيته اللطيفة، يجذب اليه الناس جذب المغناطيس. وما أكثر ما ذهبت الى الجامع الكبير مع أترابي، حيث كنا نجلس على أطراف الحصير، لنتمتع بقراءة الشيخ سعيد وشرحه.

وكان ثمة شخص آخر يلقي دروس رمضان عندما يدعوه الشيخ سعيد، أو عندما يتقدم هو بذلك. ذلك كان الشيخ أديب الخالدي، مفتي جنين. كان الشيخ أديب نحيل الجسم اسمر البشرة أسود شعر الرأس واللحية، فكان يختلف بذلك عن الشيخ سعيد. وكان صوته أقل من صوت زميله نبرة. لكنه كان عارفاً بأمور الدين، قرآناً كريماً وحديثاً شريفاً. فكان يهز القلوب بشكل لا يقل عن زميله. وقد يحدث أن يزور جنين، أو أن يدعى لزيارة جنين، أحد علماء نابلس أو القدس، فيلقي درس رمضان.

وقد يؤم الجامع الكبير، أو غيره، عدد كبير من الناس بعد تناول طعام الافطار، لصلاة العشاء والتراويح، وقد يظل عدد كبير منهم في المساجد بعد ذلك لقراءة الأوراد.

على أنه كان ثمة أمور أخرى يلجأ اليها الرجال لتمضية سهرات رمضان. ولنذكر أنه لم يكن يومها لا راديو ولا غيره. هناك الفونغراف الذي كان يدار باليد والذي كان ينقل الى المستمعين في المقاهي أغاني منيرة المهدية وعبده الحامولي وغيرهما. هذه الأغاني كانت مسجلة على اسطوانات، وكان للفونوغراف بوق كبير كي ينتشر منه الصوت. كان ثمة عدد قليل من الأسر في جنين يملك فونوغرافاً في البيت. لكن الشيء الأساسي هو أنه كان آلة الغناء في المقاهي.

وفي المقاهي يجلس الناس يحتسون الشاي أو القهوة (عندما كان هذان يُحصل عليهما في أيام الحرب) أو اليانسون أو ما إلى ذلك. كانوا يتحدثون عن الشؤون العامة والخاصة، شأن جميع الناس في مثل هذه الظروف. كان في جنين ثلاث أو أربع مقاهي. لكن واحدة فقط كانت مهيأة للسهر الطويل. إذ كان صاحبها يضيء مصباحاً كبيراً نسبياً يستعمل فيه الكاز (وفي وقت لاحق، بعد نهاية الحرب، أدخل الى مقهاه قنديل اللّوكس، الذي كان شيئاً مدهشاً بالنسبة لتلك الأيام).

ولكن لماذا هذا الاهتمام بالمصباح؟ وباللوكس بشكل خاص؟ يعود ذلك الى أن صاحب هذا المقهى كان يحضُرُ عنده رجل يقرأ على الناس قصة عنتر. وقصة عنتر، مثل الملك سيف وتغريبة بني هلال وذات الهمة، هي ذات أصل شعبي. لعلها بدأت في وقت من الأوقات حول شخصية تاريخية. لكن القصة الشعبية ضخمت هذه الشخصية ووسعت نطاق حياتها وعملها بحيث أصبحت رمزاً لأمور كثيرة من الشهامة والوفاء والبطولة.

عنتر، في الأصل، كما يعرف القراء، هو شاعر جاهلي ومن أصحاب المعلقات. أغرمَ عنتر بابنة عمه عبلة، لكن الأحوال الاجتماعية السائدة يومها لم تسمح لهما بالزواج. وكان عنتر بطلاً وقد حمى ذمار القبيلة أكثر من مرة. لكن القصة التي كان القارىء يتلوها على الناس في مقهى الحاج أحمد في جنين، تعود صيغتها الى القرن الثامن

الهجري (الرابع عشر الميلادي) والى مصر بالذات. وفي هذه القرون التسعة التي مرت على قصة عنترة الأولى اتسعت مغامرات عنترة وشهرته وزادت أشعاره وكثر خصومه فكانت بينه وبينهم معارك عنيفة.

هذه هي القصة التي كان القارىء يتلوها على روّاد المقهى. كان يجلس على كرسي مرفوع على منصة خشبية. أنا واثق من أن هذا الرجل كان يحفظ القصة عن ظهر قلبه، لكنه كان يقلب الصفحات ناظراً اليها غير مقيّد بها. كان يقرأ منها قسماً في كل ليلة، ويتوقف عند نقطة «درامية»، بحيث يتأكد من أن «السمّيعة» لا بد أن يأتوا في اليوم التالي لسماع الفصل الذي يتبع. وأنا واثق ايضاً من ان عشرات من هؤلاء «السميعة» كانوا قد أصغوا للقصة مرات ومرات. ومع ذلك فقد كانت ليالي عنترة هي ليالي الازدحام في مقهى الحاج أحمد.

لا بد من التذكير بان القصص الأخرى التي ذكرت، مثل الملك سيف وتغريبة بني هلال كانت تحظى ايضاً بلياليها. لكن «قصة عنترة» كانت في النفوس أفعل وإلى القلوب أحب.

وقد سمعت وأنا في جنين (وسمعت مثل ذلك عن قارىء قصة عنترة في عكا بعد ذلك بسنوات) ان القارىء وقف عن القراءة ليلة لما أُسرَ عنترة. فسُرَّ خصوم عنترة (من القراء) لذلك، وأخذوا يندِّدون بهذا البطل الذي يؤسر. فلم يكن من أصدقاء عنترة إلا أنهم ذهبوا الى بيت القارىء (وكان قد أوى الى مخدعه) وحملوه على العودة الى المقهى ليقرأ بضع صفحات بحيث يتخلّص عنترة من آسريه وسجنه. وعندها سرّ الأصدقاء وأكرموا القارىء.

المقاهي هذه كانت للرجال ـ شيوخاً وشباناً ـ ولم تكن للأولاد. لكننا كثيراً ما كنا نذهب الى أطراف المقهى، ونجلس على الحجارة في الظلام لنستمع الى القصة. أما إذا اكتشفنا الحاج أحمد أو أحد زبانيته فقد يكون نصيبنا الضرب ان لم نسرع هرباً!

أما الأولاد فكان لهم شيء آخر يقضون فيه بعض الوقت، إما بين العصر والمغرب أو بعيد المغرب. هو «كركوز» أو، إذا أردنا استعمال اللفظة الفنية فلنسمه «خيال الظل».

لست أدري كم من شبابنا اليوم شاهدوا «كركوز». كان صاحب مشاهد كركوز يعرض الأشخاص في صندوق من خلف رق من الجلد رقيق. ولأنه كان يبعد الضوء، فقد كانت أشخاص الظل تبدو كبيرة واضحة. والرواية المألوفة هي التي كان اشخاصها ثلاثة: كركوز وعيواظ وطَرَمان. والقصص التي كانت تُعرض علينا هي قصص لا رابطة بينها، وتتبدل بحسب رغبة العارض. لكن العارض الذكي كان، في الواقع، يتناول شخصيات من أهل البلدة بالنقد اللاذع باشارات لطيفة طريفة. وتدور القصة حول منافسة مستمرة بين كركوز وعيواظ ـ في حب أو بطولة أو سرقة أو ما إلى ذلك. ويختلف الاثنان ويقتتلان. وعندها يتقدم طرمان للفصل بين المتخاصمين، فينقلب عليه الاثنان وينال منهما «علقة» ماكنة.

ولم يكن العارض يراعي الذّوق أو يحتفل بالكلام بشكل خاص. فليالي «كركوز» كانت مستمرة طول السنة. ولأن «مسرح» كركوز كان قريباً من بيتنا فقد كنت أحضره كثيراً. وكانت الألفاظ المستعملة بذيئة وقحة لا حياء فيها ولا خجل. ولكن في أيام رمضان لم يكن العارض يستعمل كلمة واحدة بذيئة أو نابية؛ وكان يجرّب أن يدخل قصصاً اخلاقية الى درجة ما. لكن المنافسة بين كركوز وعيواظ تظل الأساس، وتدخل طرمان لاصلاح ذات البيت كان ينتهي به دوماً الى «القَتْلَة».

اذكر واحدة من قصص «كركوز» ذات علاقة بموضوع رمضان. تقول القصة إن كركوز ذهب في يوم من أيام الصيام الى البيت، فلم يجد ما يأكله للافطار، لأن زوجته نسيت يومها أن تطبخ، فضربها. لكن الزوجة كانت أخت عيواظ. فحنق أخوها وسعى الى كركوز حتى عثر عليه واخذ يضربه انتقاماً لاخته. وفجأة يظهر طرمان على المسرح محاولاً أن يفصل بين الخصمين. وعندها ينسى كركوز وعيواظ ما كان بينهما، وينهالان على

طرمان ضرباً لتاديبه لانه تدخّل فيما لا يعنيه.

والليلة الوحيدة التي لم يكن القاص يتلو قصة عنترة (أو غيرها) ولا يقوم العارض بتمثيل فصل كركوزي، كانت ليلة القدر. هذه كانت ليلة للجامع. هناك يجتمع الناس فيحتفلون بها كما يليق بليلة القدر (التي هي خَيرٌ من ألفِ شَهْر). وفي هذه الليلة كانت النساء يتوجهن بالدعاء الى الله لتحقيق آمالهن!

أما في ما تبقى من ليالي رمضان، فقد كانت النساء يقمن بزيارة الاقارب والجيران للاستمتاع بالحديث والحلوى (لمّا تيّسر للناس السكّر بعد انقطاعه أيام الحرب!).

وهنا يحلو لي أن أعود بالذاكرة الى تلك الأيام التي مر عليها ما يقرب من سبعين عاماً (أنا اكتب هذا في مطلع ١٩٨٨) أملاً أن أستعيد بعض الأحاديث التي كانت تدور في فلكي الصغير المحدود.

الفصل الثالث

أما صغر هذا الفلك فقد كان طبيعياً. فهو في الناصرة لم يكن يعدو منطقة دار جدي ودور الاقارب، في حارة الروم (الارثوذكس طبعاً) قرب فرن الطويل وخلّة (الحاكورة البعل) شرُش، وشرُش هو اسم أسرة جدي لأمي. ثم كان هناك التلاميذ الذين اجتمعت بهم في الفترة القصيرة التي كنت فيها تلميذاً في مدرسة «كاملة الحداد»، في طرف ساحة الجرينة الفوقا، في ملك كاملة وأختها نايفة. اظن أن المدة التي قضيتها هناك كانت بضعة أشهر. وكاملة الحداد كانت تربطها بجدتي لأمي (وردة الحداد) صلة القرابة، لذلك كانت تراعينا مادياً. ولست أذكر الكثيرين من الذين كانوا معي هناك. ولكنني لا يمكن أن انسى اثنين رياض حداد وسالم سالم. رياض حداد كانت لنا به صلة قرابة. لكنه في المدرسة لم يراع هذه القضية أبداً. كان رياض اكبر مني سناً، وكان جسيماً قوياً. ومثل اكثر الأقوياء يُظْهر «شطارته» على الصغار الضعفاء. فكان ينالني منه الكثير من الأذى البسيط أحياناً، والشديد (قتلة) أحياناً أخرى. وكان رياض يغارُ مني لأنني كنت أشطَر منه وكنت آخذ عملي المدرسي بشكل جدّيّ.

في سنة ١٩٧٧، وكنت يومها أستاذاً زائراً في الجامعة الاردنية بعمان (١٩٧٦-١٩٧٨)، عرفت أن رياض حداد مقيم في عمان. فتعرفت عليه من جديد. كان لا يزال ممتلئاً صحّةً وعافية وبديناً بغير إسفاف. وقد دعاني مرة الى حفلة غداء كانت كبيرة جداً، جمع فيها بناته وأصهاره وابنه وزوجته. فكانت بالنسبة لي من أيام العمر. تذكرنا فيها تلك الأيام، ورويت للحاضرين أخبار «القتلات» التي تلقّيتُها على يد رياض.

أما سالم سالم فأذكره لأنه كان يلبس برنيطة قش (يابسة) في شهور الصيف، وكان بيته قريباً من المدرسة. ولذلك كان يهرب من قتلات رياض وجماعته. ولعل بين الأسباب التي كانت تفصل بيننا هو أن أهل سالم كانوا قد اعتنقوا المذهب البروتستانتي (الانجيلي). فكان هو يشعر بانه أرقى من الارثوذكس (المتأخّرين). ولم أرَ سالم بعد تركي المدرسة، مع أننا كنا نسبياً، صديقين. وفي سنة ١٩٨٠ دُعيتُ الى تناول الشاي عند أصدقاء (كانوا) لي في بيروت، وكان من المدعوين شخص اسمه فؤاد سالم-ومن الناصرة. فسألته عن سالم سالم، فاتّضح أنه أخوه. سالم هاجر الى أميركا منذ سنوات طويلة!

وما هو نوع الحديث الذي كان يدور في هذه الحلقات؟ شكوى من الحرب (العالمية الأولى) وويلاتها وما جرّته على الناس من سوق الرجال الى ساحات القتال، دون ان يعرف عنهم شيء. وقد عاد البعض من الرجال بعد الهدنة (١١/ ١١/١٩١٨)، لكن كثيرين فُقدوا ولم يُسمع عنهم خبر لا من الحكومة العثمانية التي جندتهم، ولا من سبيل آخر. أذكر من أقاربنا مريم (ابنةَ عم أمي) أم نمر. فقد أُخِذَ زوجها جندياً ولم يعد، فقضت بقية أيامها، تلبس الثياب السوداء، على عادة تلك الأيام.

ومقابل هذه الشكاوى من ويلات الحرب كان المتقدمون بالسن، مثل جدي وأخيه خليل وأصحابهما، يتحسرون على أيامهم الحلوة: أيام شبابهم التي كانت تعود الى سنوات ١٨٦٠-١٨٩٠. ولكن لهجة جدي تبدلت في الحديث لما انفجرت قنبلة (صيف ١٩١٦) في العفولة كانت قد ألقتها الطائرات البريطانية في واحدة من

غاراتها القليلة على فلسطين (ولم تنفجر) بيد شخص كان واقفاً الى جانب عربة قطار؛ وأدّى انفجارها الى قتل سبعة أشخاص وتمزق أجسامهم وتقطّعها ارباً، وكان خالي مع القتلى.

منذ ذلك اليوم تبدّلت لهجة جدي في الحديث. جدي كان له خمس بنات (أمي كانت الوسطى بينهن). وجاء سامي بعدهن فكان بالنسبة لجدي وجدتي بؤبؤ العينين. وفي الاجازة التي قضاها عندهم كانوا قد عقدوا خطبته، على أن يتزوج في العام التالي. وهكذا بدل أن تتم فرحة الأبوين به، ناحا عليه، وطال حزنهما.

وانتقلت من هذا المحيط الصغير في الناصرة الى محيط أضيق في جنين. فالبلدة هذه أصغر. وكان الذين نعرفهم محدودي العدد. فعندي أنا شخصياً كان أولاد الشارع مثلي الذين كنت ألعب معهم. واكثرهم لم اكن أعرف عنهم سوى الاسم الأول. وعلى كل فماذا كانت مواضيع حديثنا؟ ولما دخلت المدرسة كانت لي صداقات مع زملائي في المدرسة، ولكن المهم هو مصدر الاحاديث عندنا جميعنا.

وكان لأمي صويحبات يزرنها وتزورهن. فاذا زرنها كنت في البيت، لكن ندر ما كنت أذهب معها لزيارتهن. وكانت لنا جارة جميلة شابة وزوجها متقدم بالسن كثيراً. هذه الجارة جاءت يوماً ببعض أوراق وطلبت مني أن أقرأها لها. فقرأت البعض منها. وفي يوم آخر طلبت مني أن أذهب الى بيتها لأقرأ لها بقية الأوراق. وسمحت أمي بذلك لأنها كانت تعزّها. ولما وصلت وجدت الأوراق على طاولة قهوة، وجلست هي على كرسي وأوقفتني الى جانبها كي أقرأ الأوراق، لكنها طوقتني بذراعها مدّعية أن ذلك أنسبُ لقراءة ما هو أمامي. وتنبهت الى أن الجارة كانت بمقيص النوم، فتململت من تصرفها، واغتنمت أول فرصة لأخرج من البيت. وقلت لأمي ان الجارة يمكنها أن تحضر الأوراق الى بيتنا، فذلك أريح لي. وقد جاءت ببعض الأوراق مرة ثانية، واكتفت بذلك، ولو أنها لم تمتنع عن زيارة أمي. ولست أدري ما الذي كنت سأتعلمه لو أنني استمريت اقرأ الأوراق للجارة على الطريقة التي ترغبُ هي في اتباعها.

وقد تحدثت قبلاً عن الناس الذين كنا نعرف في جنين. ولكن المهم ليس عدد الناس الصغير في الناصرة أو في جنين، المهم هو أن أتمكّن من تصوير هذا الجو المحدود لا الصغير فحسب. اليوم يجد كل فتى وفتاة، نفسه محاطاً براديو وهذا اقل الموجود وهو الذي يوصله بالعالم سماعاً. فاذا كانت أسرته تسكن في النطاق الذي تصل اليه بثات التلفزيون وهذه آخذة في الاتساع بسرعة فمن الراجح ان يكون في البيت هذه الآلة التي تصله بالدنيا عن طريق الصورة. وهاتان الأداتان تزودان هذا الفتى (والفتاة) بما يجري في العالم. ويغلب على الظن أن عدداً كبيراً من البيوت يبتاع القوامون عليها اما صحيفة يومية أو مجلة اسبوعية أو مجلة شهرية أو الثلاث معاً. وهنا يصبح الواحد من الشباب على اتصال واسع بالعالم. فكل ما يحتاجه ان يغيّر زرّ الراديو كي يسمع الاخبار من المحطات الاذاعية المتنوعة. وأما الآن فالمتغيرات سريعة جداً، والتواصل غدا متاحاً حتى للأطفال.

فأين هذامما كنا نحن فيه في تلك الأيام؟ الجرائد كانت تصدر في فلسطين - في يافا وحيفا والقدس - لكن وصولها الى جنين كان امراً إدّاً. وإذا وصلت فالى عدد محدود جداً من رجال البلدة. وما شأننا، نحن الناس العاديين والصغار، والجريدة التي قد تصل الى الحاج قاسم (بك) عبدالهادي أو الى الاستاذ فهمي العبوشي! ومن أين نصل نحن الى مجالسهم لنسمع ما يقولون؟

أنا لا أنكر أن البعض من زملائي التلاميذ في المدرسة، من ابناء هؤلاء الرجال، كان أمامهم المجال كي يتعرفوا، عن طريق آبائهم، الى أمور كثيرة كانت بعيدة عنّا نحن. وإذن فنحن ندور في أحاديثنا حول أمور محدودة. منها القتال بين الحارتين الشرقية والغربية الذي دار قبل مدة والاستعداد للمعركة القادمة. كان سلاحنا فيها، ولله الحمد، الحجارة (وكان لا يجوز ان تستعمل حجارة كبيرة). فاذا عرف موعد المعركة كنا نجمع الحجارة في النهار ونضعها في مخابىء لا يعرفها الخصوم. ومتى دارت المعركة كان منّا من يَنقُلُ

الحجارة ومن يضربُ بها. ومن الطبيعي ان يكون احد الأشخاص ماراً فيصيبه حجر يؤذيه، ولكن «ساحة الحرب» هي ساحة حرب، ومن يدخلها لا بد ان يتأذى من ذلك.

وكان من أحاديثنا أخبار الحَنْكليس الذي كان الاولاد يصطادونه من نهر عين نينة. والحنكليس سمك يشبه الثعبان، ولكنه غير سام. كنا نصطاده ونحمله الى البيت كي يقلى ويؤكل. كنا نصطاده إذا ترك الشباب لنا منه شيئاً. فالاشغال في أيام الحرب كانت قليلة، والشباب الذين لم يدعوا الى الجندية كانوا عاطلين عن العمل. فكانوا يفعلون مثل ما نفعل نحن - سباحة ومشي. والسباحة معناها صيد الحنكليس.

في شتاء ١٩٢٠ - ١٩٢١ شاع في جنين، وقد جاء الخبر من الخارج في الصحف والاخبار (هكذا قالوا)، أن نهاية العالم اقتربت. وان الدنيا ستنتهي وان القيامة ستقوم. وقد كان شتاء تلك السنة قاسياً جداً. اشتد البرد على الناس، وتساقط المطر أياماً طويلة، وسالت الأودية بحيث أنها اقتلعت جميع الخضار المزروعة فيها. وكانت منطقة واسعة مزروعة ملفوفاً (لخنة)، فلما سالت الأودية جَرَفَتْ الملفوف بحيث أنه كان من الممكن جمع ما يريده المرء على مسافة بعيدة الى الشمال من جنين.

وخاف الناس من نهاية العالم وقيام الساعة خوفاً عظيماً. وما أكثر ما صلى الناس يومها. ومع ان الجميع خافوا، فلست أشك في أن فكرة قيام الساعة بالذات والتفكير بالحساب الذي سيتعرّض له الناس أمام الديّان أوقعا رعباً خاصاً في نفوس الذين كانوا آثمين. وقد قيل يومها إن بعض الأغنياء تصدّقوا ببعض ما عندهم للفقراء. لكن ليس لديّ ما يؤكد مثل هذا الأمر.

لست أدري لماذا لم أخَفْ أنا من نهاية الدنيا. وأذكر أنني قلت لأمي يومها «ما كلّنا راح نموت، يلاّ مع السلامة».

وأخيراً انتهى الشتاء، وانتهى الموعدُ المضروبُ، بعد ان تبدّلَ ثلاث مرات، دون ان تنتهي الدنيا. وها نحن لا نزال نعيش فيها وقد مر علينا (بعد الحرب العالمية الاولى) حربٍ عالمية ثانية وحروب محلية لا عداد لها، وتشريد وتهجير من بلادنا، ومصائب وبلاوٍ ومتاعب وانقلابات لا تُعدُّ ولا تُحصى في لبنان وفلسطين والخليج، سوى ما عند غيرنا. ولا تزال الدنيا تدور، والعالم يسير وأهله يعيشون ويموتون، وإن تعددت أسباب الموت.

انني أدون هذه الكلمات في صباح عيد الميلاد (١٩٨٧) في لندن، وقد تذكّرت اليأس والخوف والألَم والامتعاض التي كانت جميعها تحيط بنا يومَ عيد الميلاد سنة ١٩٢٠ في جنين. في تلك السنة لم يأت خوري لاقامة القداس الالهي يوم العيد. فاقتصر الأمر على اجتماع تحدّث فيه الكبار عن عيد الميلاد؛ لكن كلا من الموجودين كان يخشى أن تقع الواقعة وينتهي العالم ونحن مجتمعون. وقد شاع بين الموجودين ان الخوري لم يأت لأنه لم ير حاجة للاحتفال بعيد الميلاد والعالم يوشك أن يزول.

ولكن العالم لم يزُل. وكان على «خوريٍّ ما» أن يأتي لاقامة القداس. ولما جاء فيما بعد كان اعتذاره عن عدم المجيء يوم عيد الميلاد يدور حول الطقس السيء. وقد فكّرت بعد ذلك بوقت قصير في اعتذار الخوري، فلم أقبله. وخُيِّل إليّ أن الرجل كان يعرف (بحسب الدور الذي يتقلده في مجتمعه) أن المؤمنين الذين يفعلون الخير أو على الاقل يمتنعون عن فعل الشرّ، لهم ملكوت السموات. أما الباقون، الذين ليسوا من المؤمنين والذين قد يفعلون الشرّ ولكن على درجات مختلفة فلن ينفعهم هذا القداس الأخير - وأمامهم شيء واحد هو العفو الذي يمنحه الأب السماوي لأبنائه.

وقد حملني على هذا النوع من التفكير، فيما أعتقد، ما كنت قد سمعته من بعض المسيحيين في جنين، وهم قلّة كما ذكرت، من أنه كان من الواجب أن يأتي خوري في الأحوال التي كنا نعيشها كي يصلي من أجلنا كي تُغْفَر لنا خطايانا.

ولكن نهاية العالم لم تأت، وظل للمؤمنين مكافأة الله ولغيرهم الأمل بالعفو، من لدن الغفور الرحيم.

هذا النوع من الحديث الذي تلهى به الجميع - في جنين وغيرها كما عرفت فيما بعد - كان شيئاً غير عادي. وقد تنفس الناس الصعداء لأن الأمر لم يعد الانزعاج والخوف لبضعة أسابيع. وعادوا بعدها الى أحاديثهم العادية. وما هي الأحاديث العادية؟

في أيام الحرب، أي قبل هدنة ١٩١٨، كان الناس يتحدثون عن الأشياء التي يفتقدونها. وما أكثر ما كانت هذه الأشياء. السكر غير موجود. لذلك لجأ أهل الناصرة، مثلاً، الى استعمال دبس الخروب لتحلية ما يريدون. البن والشاي معدومان. وجدتي (لأمي) كانت قد اعتادت شرب الشاي. ولم تكن هي تدري من أين جاءت بهذه العادة، بهذا أجابتني لما سألتها مرة. لأن المألوف أن الناس كانوا يشربون القهوة. والشاي كان معروفاً عند بعض الأسر التي قبلت المذهب البروتستانتي (عن الانكليز أي الانغليكان) فنقلوا شرب الشاي عن قسسهم. لكن جدتي كانت من طائفة الروم الارثوذكس. ولذلك كانت تسر جدتي سروراً عظيماً عندما تدبّر لها أمي - أثناء عملها في المستشفى العسكري الألماني في جنين - شيئاً من الشاي.

وانعدم الأرز. لذلك زاد الاعتماد على البرغل. وكان الناس يتموّنون للسنة كلها - كل ما يمكن أن يُتموّن: القمح والبرغل والعدس والفول والزيت واللبنة والجبنة والزيتون. وموسم اعداد البرغل كان مصدر سرور كبير لنا نحن الصغار. ففي الوقت المناسب، وهو أواخر الصيف، كانت كل أسرة تبتاع ما تحتاجه من القمح ليحضر البرغل. وأهل الناصرة كانوا يختارون القمح النورسيَّ الذي كان يأتي من شمال الأردن. إنه قمح صلبُ الحبَّة، ولذلك فانه أصلحُ للبرغل. وكان التعاون بين الأسر التي تربطها صلة القرابة يظهر في موسم تحضير البرغل (كما كان يظهر بشكل واضح أيضاً عند إعداد المعمول والكعك أيام عيد الفصح).

ذلك بأن الأسر كانت تتفق على «روزنامة» عمل بحيث يخصص لكل أسرة المدة اللازمة لذلك، وتبدأ الأسر بالعمل أسرة أسرة. ويمكن تلخيص العمل باكمله على النحو التالي:

توقد نار كبيرة أو أكثر بحيث توضع فوق كل منها حلّةٌ كبيرة، كان البعض يُطْلِقُ عليها اسم خلقين. يوضعُ فيها من الماء قدرٌ كاف ليغطي القمح الذي سيسلق «نصفَ سلقة». وهذا كان يحتاج الى بضع ساعات، تبدأ قبيل المغرب، فاذا وصل القمح درجة من الاستواء كافية، رُفِعَت الحلة عن النار، وأفرغ الماء تدريجاً، وأُخرجَ القمح المسلوق منها. تكون عندها الشراشف (الملاءات) التي تغطي الفرش عادة قد أعدت نظيفة، فتنشر على سطح البيت، ويُفْرَشُ القمح المسلوق عليها. وهناك يظل الى أن يجفَّ تماماً. وقد كانت حراسته من الطيور والعصافير التي تهبط فتأكله ضرورية. وكان هذا عملنا نحن الصغار في النهار، أما في الليل فلم يكن ثمة خطر من العصافير، ولا من الخفاش (الوطواط) لانه لا يأكل الحب.

عندما يجف القمح المسلوق تأخذ النساء بجرشه (لا بطحنه) على جاروشة خشنة. والذي يخرج هو البرغل. لكن هذا الذي يُجْرَشُ يحتاج بعد الى تصنيف، وذلك عن طريق استعمال غربال ذي ثقوب متّسعة نسبياً، فتظل حبات البرغل الخشن فوق، وكان هذا برغل الطبيخ الذي يستعمل للبرغل المفلفل - والله يعلم بماذا كان يفلفل أيام الحرب، إذ قد لا يكون معه من الدهن أو الزيت شيء قط. ثم يُمَرُّ البرغلُ في غربال ثقوبه أضيق من الأول، والذي يبقى فيه هو برغل الكبة، وأكثر الكبة كانت تُحضَّر بدون لحم أو بقليل منه. أما ما ينزل من ثقب هذا الغربال الثاني فانه يسمى «الصراصيرة»، وهو يستعمل لما يسمى «كبة حيلة»، وهذه كبة من أصلها بدون لحمة، وهي لا تعدو كونها هذا البرغل الناعم يبلُّ ويجعلُ كريات صغيرة (دحابير) ويطبخ عادة باللبن. ويسميها البعض رصاص عزرائيل. والتبولة تصنع إما من هذا البرغل (الثالث) أو من برغل الكبة (الثاني) وهو الغالب.

حول النيران التي يسلق عليها القمح - البرغل، كانت تدور قصص وحكايات، هي حكايات جدتي وخالتي وابنة عم أمي وغيرهن، كما كانت هناك أحاديث جدي وابناء اخوته. وهكذا تتكرر الحكاية، مع تعديل يتوقف على مقدرة الحاكي أو الحاكية، من ليلة الى ليلة ومن دار الى دار.

وكان من الطبيعي أن تصنعَ الأمهات للأولاد شيئاً من الحلوى. ولم يكن السكر متيسّراً، كما لم تكن المواد الأخرى اللازمة لصنع الحلوى متيسرة عند أكثر الناس. واخترعت الأمهات حلوى مصنوعة من دقيق الذرة البيضاء، ولو أن لونه كان فيه مشحة رمادية. كان هذا الدقيق يعجن ثم يوضع في صينية ويرسل الى الفرن حيث يخبز. فاذا تم ذلك صبّت عليه الأمهات دبس الخروب، وأطعمته للأولاد. ولست اكتم القراء أن طعمه كان لذيذاً.

وما دمنا نتحدث عن خبز الأشياء في الفرن، فانني أود أن أقول إن الأفران العادية التي توجد في البيوت - في كل بيت اليوم - لم تكن معروفة في المحيط الذي قضيت فيه السنوات التي أتحدث عنها الآن (١٩١٦ - ١٩٢١). أذكر أنني رأيت فرناً كان يستعمل فيه الحطب في دار شكري بك مهندس الانشاءات (لسكة الحديد) في طولكرم، وهو المهندس الذي كان خالي موظفاً عنده، باعتبار ان هذه السكة كانت مصلحة حكومية، (ولو أن هذه السكة كانت وقف إسلامياً). أما كل ما كان يخبز في الفرن فقد كان يرسل الى الفرن الكبير الذي ينتج الخبز أصلاً. وإنتاج الخبز كان يتم كما يلي. كانت سيدة البيت، أو الخادمة إن كان أصحاب البيت أغنياء، تعجن في البيت، عادة في المساء، فيختمر العجين مع الصباح، وعندها تقطعه (تقرّصه) صاحبته الى قطع مكوّرة كلٌ منها كافية لتصبح رغيفاً. ويأتي صبي الفرن فيأخذ الخبز الى الفرن معدوداً. وعندما يعيده يُعَدُّ ثانية ويعطى أجرته رغيفاً أو اكثر حسب كمية الخبز. وكان أكثر الناس يعجنون ثلاث أو أربع مرات في الاسبوع. وقلة كانت تعجن يومياً. أما صاحب الفرن (أو مستثمره) فانه كان يحصل على أجرة استعمال فرنه نقوداً معينة، متفقاً فيها مع كل أسرة على مبلغ يتناسب مع ما تخبز.

وقد كان من الصعوبة بمكان أن يبتاع أحد خبزاً جاهزاً من السوق، إلا أيام السوق الاسبوعية في بعض الأحيان. وقد ظلت هذه العادة متبعة في البلدان الصغيرة والقرى الكبيرة حتى أواخر الثلاثينات، أما في القرى الصغيرة فلم يُعْرَف أن الخبز بيع فيها أبداً حتى في الخمسينات.

لما كنت في الناصرة كان لنا أقارب شباب يحملون الخبز يومياً في تنك على ظهورهم من الناصرة الى العفولة كي يبيعوه للجنود. كانوا يذهبون يومياً مع الفجر الى العفولة فيبيعون الخبز ويعودون بعد الظهر. وقد رافقتهم أكثر من مرة، وأنا بعد في العاشرة، في رحلاتهم. هذه الرحلات كانت تحمل معها أحاديث خاصة عن الجنود والحرب. وكان هؤلاء الشبان يقضون بعض الوقت بعد الغداء المتأخر، وقبل النوم المبكر، مع أهلهم يحدثونهم عما شاهدوه في نهارهم وما لقوه من تعب أو نصب. وكانت أم نمر الصالح (وهي مريم ابنة عم أمي) من اكثر النساء استمتاعاً بأحاديث هؤلاء الشباب، فقد كان ابنها نمر زعيم هذه الجماعة الصغيرة التي كانت تتراوح في العدد بين ستة أشخاص وعشرة.

في جنين كان محيطي أضيق كما كان محدوداً جداً. ففضلاً عن الأحاديث التي كنت أسمعها عندما كنا نسهر عند إحدى العائلات التي يجتمع فيها الرجال والنساء كنت ألتقط من هنا وهناك خبراً أو فائدة. وهذه المناسبات كانت قليلة. والرجال الوحيدون الذين كنت اجتمع بهم باستمرار كانوا - بعد فتح المدرسة - هم معلمونا. وقد كانت معرفتهم ضئيلة وآراؤهم بالكاد تشرح لنا دروسهم. كان هناك نفر من الرجال يعنون بي مصادفة. فقاسم بك عبدالهادي كان يتحدث إليّ عندما اكون في زيارة ابنه جمال، ويكون هو في البيت. وهناك الحاج حسن المختار

الذي كان كثيراً ما يستوقفني ليسألني عن دروسي وعملي في المدرسة ويدعو لي بالتوفيق.

وما عدا هذا القليل فان الحديث كان اكثره مع طلاب المدرسة. وهؤلاء رأس مالهم كان مثل رأس مالي إلا في حالات قليلة عندما يقول واحدهم إنه سمع في مجلس العائلة خبراً هو كذا، أو عندما يشير آخر إلى انه استرقَ السّمع على ابيه وأصحابه وهم يتحدثون وقالوا كذا وكذا. والخبر او الكذا وكذا لم يكونا يزيدان عن أخبار نقل كوميسير البوليس حسن بك، الذي ظللنا نسمع انه سينقل في أيام الحكومة التركية، ولم ينقل. ولما جاءت الادارة البريطانية العسكرية قال خصومه إنه سيُعْزَل. لكنه لم يعزل بل عُهِدَ إليه الاشراف على أمن المدينة تحت إمرة ضابط انكليزي. ولم تعزله الادارة المدنية، بل ظل يترقى في جنين ثم في الادارة المركزية سنوات طويلة حتى أحيلَ على التقاعد.

وقد يكون الخبر الهام، وفعلاً كان هذا خبراً مهماً، هو تعيين عارف العارف (باشا فيما بعد) مساعداً لحاكم جنين المدني المستمر مكلرن. وقد جاء الرجل الى هذا المنصب يحمل معه سجلاً حافلاً بالعمل الوطني والصحافي وحتى النفي والحكم بالاعدام.

لكن هذه الأخبار جميعها، كانت مثل الاحاديث التي قد تتلقّفها من أفواه الناس. إنما الأحاديث التي كان لها تاثير عليّ في هذه الفترة فهي في الواقع ما كان يدور بيننا ـ الطلاب. هذه الأحاديث تخرج من التلاميذ الكبار ونسمعها نحن لأن ذلك كان طبيعياً.

كان بعض أصحابي من التلاميذ قد بلغوا (جنسياً)، لكنني أنا وصاحبي الآخر كنا بعد دون ذلك. وكان حديثهم يدور، في كثير من الأحيان حول الجنس. ولكن أي نوع من الجنس؟ اللواط. ومع انهم كانوا يعيبونه على الذين يؤتون، كانوا يذكرون أخبار تصرفاتهم في هذه الامور. أحسب أن الكثير منها كان من باب الفخر، على نحو ما عرفت فيما بعد عن اولئك الشباب الذين بدا أنهم مثل كازانوفا، وهم، مثله، يبالغون في تغطية تقصيرهم في نواحٍ أخرى في الحياة. فالذي عرفته يومها، كما عرفته فيما بعد من أصحابي من الشباب، أن مثل هذه القصص إنما تكون لسان حال الذين لم يوفقوا في الحياة إن في الدراسة أو في الوظيفة.

والحديث عن قصص اللواط بين أصحابنا يجرني الى حديث آخر، هو الاستمناء. ولذلك فانني لم أكدْ أُحسُّ بالانتصاب يتكرر، حتى أخذت أفعل كما يفعل الذين كانوا اكبر مني ر.ق. ور.ع. وم.ن. وغيرهم وهكذا أَلِفتُ هَذه العملية لوقت طويل دون أن أفرطَ فيها. ويعود اعتدالي في هذه العادة الى مقال قرأتهُ في إحدى المجلات في السنة الأولى لوجودي في دار المعلمين عن الأثر السيء للعادة السرية هذه على العيون خاصة والصحة عامة. وأظن أنه لو أن صاحبة والدتي اقتربت مني لأقرأ لها الأوراق في بيتها عندئذ لعلني ما كنت أتهرّب منها كما تهرّبت. انها حاولت في وقت مبكر بالنسبة لي. ولما بلغت الوقت الذي كنتُ أنا قد أقبل بذلك، كان من الصعب عليّ أن أعرض خدماتي، وإن كنت أعتقد أنها لم تكن تمانع.

أما الحديث عن الجنس طبيعياً ـ أي العلاقة بين الرجل والمرأة فلست أذكر انه ورد إلا لماماً بيننا. وكنت أتقزّز من سماع هذا الحديث، حديث الشذوذ الجنسي، لكن الذي بلغ الحدَّ الأقصى في تقززي هو لما تحدث ر.ع. مرة عن «مجامعة الحمارة». وقال انه سمع ذلك من رجل فعلها، وجرّبها هو ايضاً. ولكن المشكلة كانت بالنسبة إليه أن الحمارة لم تظلّ واقفة، بل مشت في الاسطبل.

ومن الطريف أن حديث اللواط كان شائعاً في دار المعلمين بين الطلاب أيضاً. وحتى حديث الحمارة عُرِضَ له مرة هناك. وأذكر أنه بعد سنوات طويلة كنت مرة سائراً بين عكا وقرية قريبة منها، وكان معي ثلاثة أو أربعة رجال يمشون، كما كان هناك البعض يركبون خيلاً وحميراً. وقد طرق مسمعي، دون أن أسمع الحديث السابق، قول أحدهم، تعقيباً على مجامعة الدابة، «يعني المسألة مسألة نفس، ولاّ ما هوّ خُزُق وخُزُق على كل حال!».

وقد لقيت أنا الامرين في جنين وفي دار المعلمين بسبب أنني كنت فتىً صغيراً ووسيماً. فقد «دار ورائي» كثيرون، ومنهم من كان يدّعي الصداقة الوثيقة، كي يوقعوا بي. لكنني صمدت لهم جميعاً. واظن ان ذلك يعود الى أمر أساسي سمعته مرة ونحن بعد في دمشق (في سن السابعة تقريباً). كانت يوماً عند أمي زائرة (هي إحدى الجارات) وتحدثتا حديثا «مستوراً» عن جارٍ أكل من جار له قتلة (علقة) ممتازة، لأنه أغرى ابنه وفعل به؛ يومها أدركت أن مثل هذا العمل خاطىء. وكل ما سمعته عن اللواط قوى رأيي في أن الأمر قبيح وسيء، لذلك قاومته بشدة وصمدت في مقاومتي. وقد كان البعض يذيع في جنين، وكذلك بعض تلاميذ دار المعلمين الذين هم من جنين، ان نقولا يمكن ان يلين ويخضع. وكم آذوني بذلك، لكنني لم أخضع ولم الن، حتى ولم اشتك على أي منهم لادارة المدرسة.

كانت أمي قد فقدت عملها بانسحاب الالمان من جنين. وأفادت بعض الشيء من الخبرة التي حصلت عليها في المستشفى العسكري الالماني، ففتحت «مغسلة» صغيرة للضباط الهنود، الذين جاءوا مع الجيش البريطاني. وجاءت بالغسّالات اللواتي كن يعملن معها في المستشفى، وكانت قد درّبت الفتيات منهن على كي الثياب، فقمن بالعمل على شكل مرض. لكن الوحدة الهندية رأت انه من الأنسب لها أن يقوم الجنود الهنود بالعمل. لذلك اقفلت أمي المحل.

كانت، أيام عملها في المستشفى الألماني تتقاضى، على ما ذكرت، مرتباً محترماً جداً. لذلك فانها كانت توفر منه، وتبتاع بما توفره حلى ذهبية (هذه كانت طريقة التوفير المضمونة يومها). فلما انقطعت عن العمل أخذت تبيع من هذه الحلى لنعيش. وبقينا في جنين لأننا اعتدنا هناك على الأصدقاء، ولأنني أنا وأخواي، كنا في المدرسة، ولم تُرِدْ أمي ان تزعج دراستنا - خاصة أنا!

ولكن ما هو الأمل الذي كان أمامي؟

كان الناس يتحدثون عن دار المعلمين في القدس، فقد كان رشيد قعوار وموسى نقولا قد دخلاها. وكان لي أمل أن أدخلها لأن عملي في مدرسة جنين كان جيداً. لكن ثمة صعوبة، أو على الأصح أكثر من صعوبة واحدة. الأولي أنني صغير السن. فقد كان يُشتَرَطُ فيمن يتقدم لامتحان الدخول أن يكون قد بلغ الخامسة عشرة من سنّه. والثانية أن «أولاد» جنين كانوا يشعرون بأنهم أحقّ مني بالتقدم لمثل هذا الامتحان. إنما الصعوبة الكبرى كانت في أنني بدأت «أشعر» بمسؤوليتي نحو أمي واخوتي. ودار المعلمين أمر بعيد المنال (في سنة ١٩٢٠). لذلك فكّرت جدياً - دون استشارة أمي - بالبحث عن عمل.

كان مأمور التلفون (وهو شيء جديد يومها) في جنين يمتّ لنا بصلة قرابة بعيدة. وكنت أزوره في محل عمله أحياناً. وفي أحد الأيام ذكر أمامي أن ادارة التلفون بحاجة الى شخص يساعده. لم أكن قد بلغت الثالثة عشرة من عمري، ومع ذلك فقد طلبت منه أن يساعدني في الحصول على العمل. كنت أعرف من اللغة الانكليزية ما اعتقدت انه كاف (لأن التلفون كان يستعمله الموظفون الانكليز - وبعض الضباط الذين كانوا في البلدة). وفي أحد الأيام قال لي الموظف - القريب، انه تحدّث الى المسؤولين بشأني وأنهم على استعداد لامتحاني. وفعلاً تقدمت للامتحان - على مَقْسَم الهاتف مباشرة. ونجحت التجربة. وحسبتُ أنني ساعيٌّ في العمل وأحصّل ثلاثة جنيهات مصرية شهرياً. لكن لما عرف المسؤول الكبير سني، رفضَ تعييني رفضاً قاطعاً، وكانت حجتهُ أنني إذا أعطيتُ نوبةً في المساء (وهذا يحدث طبعاً) فقد أنام وأنا على مقسم التلفون.

عدت بخفي حنين. وعلى كل لما عرفت أمي بعد ذلك بأيام عن محاولتي غضبت علي وقالت «تعلّم أحسن لك. بلا تلفون وغيره».

ثم ذكر مدير المدرسة أن مدير البريد بحاجة الى موزع للبريد، وفكّرتُ في الأمر. وذهبت لمقابلته (والمرتب كان مثل مرتب وظيفة التلفون) ولكن المشكلة كانت هنا أيضاً سني.

فموزع البريد في جنين كان عليه أن يذهب من البلدة الى محطة سكة الحديد لنقل البريد اليها ومنها. والمسافة كانت نحو كيلومترين. وكان على الموزع أن يأخذ حماراً لنقل البريد. فلما رآني مدير البريد قال: «ولَك انت بتعرف تدبّر حمار! هذا بيرفسك وبطيّرك!» وعدت أيضاً بخفي حنين. وعيّن أحد طلاب صفنا، وكان يكبرني بنحو ست سنوات، هو أحمد محرّم. وكم حسدته يومها على هذه النعمة. (بهذه المناسبة في سنة ١٩٤٣، أي بعد مرور أكثر من عشرين سنة على هذه الحادثة كنت في جنين، وأردت ان أعرف ما آل إليه أمر بعض أولاد صفي، ووجدت أن أحمد محرّم «ترقى» وأصبح مدير بريد جنين، وكنت انا يومها مدرساً في الكلية العربية في القدس).

إذن ضاعت من يدي فرصتان للعمل. لكن عملي في المدرسة كان جيداً جداً. وكان المدير - موريس خباز - والمدرّسون يشجعونني؛ ويبدو أنهم وضعوا أملهم فيّ في أن أتقدم لامتحان الدخول الى دار المعلمين في القدس وأبيّض وجوههم.

في السنة الدراسية ١٩٢٠ - ١٩٢١ كنتُ لامعاً في صفي. وقد دفع موريس خباز قضيتي مع مفتش معارف اللواء (شريف صبوح) الذي كان مركزه في نابلس، عندما كان يأتي لزيارة المدرسة.

ولكن تظلّ الصعوبة قائمة: سني وشكلي، لا يبدو علي أنني قد تجاوزت الخامسة عشرة قطعاً. لذلك فكرت في أن أزور في عمري. كان في حوزتي كوشان نفوس (شهادة ميلاد) عثماني رسمي من دمشق. فقلت في نفسي أبدل التاريخ. وأنا مولود سنة ١٩٠٧، ولعله كان من اليسير أن يُجْعَل الرقم «٧» / «٥»، لو أن هذا هو التاريخ الذي كان على الكوشان. لكن الحكومة العثمانية كانت قد أخذت باستعمال السنة الشمسية (وذلك لتسهيل الحصول على الضرائب الزراعية) اعتباراً من السنة ١٠٨٨ للهجرة الموافقة لسنة ١٦٧٧ للميلاد. إلا أنها احتفظت بالتقويم الهجري. لذلك فأن التاريخ الموضوع على شهادة الميلاد كان ١٣٢٥، وتبديل ذلك بزيادة اثنين جعل الأمر صعباً. وكانت النتيجة ان التزوير بدا عليه واضحاً. فاتلفت الكوشان ستراً لفضيحة التزوير.

عندها لجأت الى المختار الحاج حسن - مختار الحارة الغربية في جنين - وحكيت له القصة، ورجوته ان يعطيني شهادة ان عمري هو ١٥ سنة وزيادة أي انني مولود سنة ١٣٢٣. وقد عطف علي فاعطاني الشهادة، دون ان يتقاضى مني أجراً. كان المختار يعطف عليّ لأنه سمع مديحاً عني من مفتي جنين الشيخ أديب الخالدي.

وكان لا بد من أن توافق الادارة الرسمية على شهادة المختار. وهنا جاءني العون من عارف (باشا) العارف. ذهبت الى مكتبه - وكان مكتبه مفتوحاً للكبير والصغير - ورويت له الحادثة تماماً؛ وقلت له ان أملي الوحيد الآن أن أدخل دار المعلمين.

ولم يتردّد عارف العارف في المصادقة على شهادة المختار. وعندها أصبحت لديّ وثيقة رسمية ان عمري هو أكثر من ١٥ سنة. وقدّم المدير - مدير المدرسة - اسمي مع الشهادة (بالولادة) الجديدة.

وظللت أسابيع وأنا على أحرّ من الجمر. وفي أحد الأيام استدعاني مدير المدرسة الى مكتبه وقال لي أنه سمح لي بالتقدم الى امتحان الدخول. وأنه يترتب عليّ أن أذهب الى مكتب عارف العارف للحصول على بطاقة سفر مجانية من جنين الى القدس (وذكرني بوجوب شكرعارف العارف على مساعدته).

تذكرة السفر هذه كانت بسكة الحديد. وكان عليّ أن أذهب من جنين الى حيفا، فاقضي هناك ليلة، ثم أسافر في اليوم التالي الى القدس. وقد قضيت تلك الليلة عند أقارب لآل عطاالله بتوصية من وديع بن بشارة عطاالله.

وذهبت الى القدس. وتقدمت الى الامتحان. ونجحت (رويت قصة الامتحان فيما يلي).

ولما عدت الى جنين وعرفت أمي بالنتيجة زغردت من الفرح، ثم قالت لي، وعيناها تدمعان: يعني كان بدّك

تصير عامل تلفون أو موزع بريد! هيك كثير أحسن. الله يوفقك.

وهكذا في أواسط ايلول سنة ١٩٢١ ذهبت الى دار المعلمين تلميذاً، وبقيتُ فيها ثلاث سنوات.

لكن صلتنا بجنين لم تنقطع الا في ربيع سنة ١٩٢٣. لذلك فقد قضيت عطلة ١٩٢٢ الصيفية في جنين، حيث رأيت معلمي الشيخ يقدم امتحاناً لتحسين أوضاعه.

مرت بجنين أيام مزعجة أثناء اقامتنا فيها. ولكن اليوم الذي كان مفجعاً حقاً جاء في صيف ١٩٢٠. ذلك ان وحيد الدين (بن قاسم عبدالهادي) جيء به مقتولاً من سورية، إذ كان هناك يوم أخرج الفرنسيون فيصل من دمشق. لست أدري فيما إذا كان قد اشترك في العمل الوطني أم انه قتل في هجوم على القطار الذي كان يقلّه من دمشق الى العفولة ثم الى جنين. لقد كان أول مأتم كبير رأيته في حياتي!

وقعت مؤخراً (ربيع ١٩٨٩) في كتاب مرآة الشام في تاريخ دمشق وأهلها، تاليف عبد العزيز العظمة، تحقيق نجدة فتحي صفوة، نشر رياض الريس (لندن ١٩٨٧) ص ٢٧٠ عى التفاصيل التالية التي توضح ما الذي حدث لوحيد الدين عبدالهادي.

«لما بلغ الملك فيصل أرض حَوَران أقام في درعا يوماً أو بعض يوم قيل انه كان في خلالها يبث في الناس فكرة القيام ضد الفرنسيين، فأوعزت السلطة الفرنسية الى علاء الدين الدروبي رئيس الوزارة السورية بان ينذره بالرحيل عن درعا مسرعاً والا فالطيارات الافرنسية ستضربه بقنابلها. وقد بلغه رئيس الوزارة أمر السلطة على لسان البرق فخف الى الرحيل وذهب مسرعاً الى حيفا.

«على اثر رحيل الملك أخذ الحورانيون يتهمون أهل الشام بالخيانة، وخفّ (الصواب خفر) الزمام وازداد الهياج فيما بينهم، فرأى السيد الدروبي ان يذهب بنفسه الى حوران لنصح الأهلين وكفهم عن مثل هذه المشاغبات. فذهب وأخذ معه اثنين من زملائه الوزراء هما عبدالرحمن بك اليوسف وعطا بك الأيوبي. وعند وصول القطار الذي أقلهم الى محطة خربة الغزالة قام أهل القرية وأوقفوا القطار وانزلوا منه الوزراء قسراً وقتلوا الدروبي واليوسف ظناً منهم انهم من حاشية الوزراء، وذلك يوم ٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ و ٢٠ آب ١٩٢٠. وساعد الأجل عطا بك الأيوبي الذي لجأ الى رجل حوراني يعرفه من قبل، فانقذه هذا من قتل محقق».

«وكان بين الذين قتلوا خطأ وحيد الدين عبدالهادي بن الحاج قاسم عبدالهادي وشقيق روحي وبرهان وجمال وسامية زوجة ابراهيم طوقان».

كان مجتمع جنين، بالنسبة لنا جميعاً، كما ذكرت من قبل، محدوداً صغيراً عدداً وعدة وأشخاصاً وتنوعاً. وفي مثل هذه المجتمعات المتلاحمة بحكم الضرورة، يكثر القيل والقال، وترتفع نسبة الحسد والتحاسد.

كانت تقيم في جنين أسرة نقولا وهي ناصرية الأصل قوامها أخوان هما فايز وموسى وأخت هي كوكب والام وأظن أنه كان ثمة أخت صغرى أيضاً. كان الأب قد توفي. كوكب كانت تعمل معلمة في مدرسة البنات. وكانت جميلة «وقدّ حالها». فايز كان موظفاً لكنه كان يتجنّب الناس وهو أمر طبيعي فيه، وكان قد التحق بمعهد القانون في القدس. كان بين الحين والآخر يتحدث اليّ، عندما أذهب لزيارة الأخ موسى، عن معلمي مدرستنا وعما يعلموننا. وعندما أروي له، كان يبتسم ابتسامة صفراوية. كنت أنا أفسرها سخرية من معلمينا. وقد ثبت لي انني كنت محقاً بعد ان زادت المرات التي كان يحدثني فيها. ولم يكن هذا غيرة من فايز بالنسبة للمعلمين، فهو لو أراد لكان عُيِّن معلماً، فالطلب على المعلمين كان كبيراً. وموسى، وهو الأخ الأصغر، كان طالباً في دار المعلمين، وكان في صف رشيد قعوار، أي أن الاثنين كانا يجب أن يتخرجا سنة ١٩٢٢ إلا أن موسى لم يستطع الاستمرار في الدراسة، فنصح له بأن يترك دار المعلمين، لكنه عين مع ذلك معلماً.

نقطة القوة والضعف، بالنسبة للمجتمع يومها، في هذه الأسرة كانت كوكب. وهي جميلة، ولم تكن صغيرة سناً، لكنها كانت في عزّ الصبا وعنفوانه.

وكان ثمة مجال للتحشّر بها. لست أشك في أن كوكب كانت تحب ان تتزوج، ولست أشك في أن كوكب كانت يمكن أن تضفي السعادة على بيت تؤسسه. ففضلاً عن جمالها ومعرفتها وقوة شخصيتها كانت أيضاً ست بيت. كنت انا أعرف من زيارتي لهم، وبمقابلتها بأمي مثلاً.

لكن الأربعة الذين كان أيٌ واحد منهم يصلح زوجاً لكوكب لم يفكر احدهم بالزواج. واحد منهم جريس خوري كان يحترم نفسه فلم يقل شيئاً ولم يتحرش بها. وفريز مزنّر لم يكن مستقلاً في عمله (بيع القماش والخياطة) عن أخيه نقولا. والذي اذكره أن فريز لم يكن مستقلاً عن اخيه واسرة أخيه في اي شيء. ميزته الوحيدة التي اذكرها له انه كان أنيقاً.

وكان هناك اثنان آخران ف ق وف ع. الاول كان يعمل في البوليس وقد بلغ رتبةً لا بأس بها، لكنه لم يكن يهتم لا بعمله ولا بغير عمله. وقد جرّب أن يتحرش بكوكب، لكنّها أوقفته عند حدّه كما أوقفته سيّدة أخرى أيضاً عند حده. وعلى كل فقد ظل نحو عشر سنوات في البوليس وهو يصل الى درجة ضابط ثم يُعاد شاويشاً أو حتى اونباشياً بسبب إهماله وهمالته. ولما ركز بعض الشيء، وكان في ترشيحا وعكا (لما كنت انا هناك) كان قد استقرّ على رتبة شاويش. (وتزوج بعد ذلك بمدة).

أما فوزي عبلا فقد كان طبيباً في الصحة العامة، في جنين وهو لبناني من جديدة مرجعيون. هذا تحرّش بكوكب أصلاً عن طريق التحدث عن الزواج. هذه هي القصص التي سمعتها من أمي وهي تتحدث مع جارتنا أم وديع وغيرها. ثم ظهر أنه لم يكن صادقاً، فصدّته كوكب. هذه قصة الشباب في جنين.

وأراد أن ينتقم. فادّعى أنه أدان فايز نقولا أخا كوكب مبالغ من المال، على فترة طويلة. وطالبه بالمبلغ ولكن فايز - كما كان يقول أصحاب. ف ع - أنكر المبلغ. وفي الواقع فالرجل أنكر التهمة. ورفع ف ع قضية على فايز.

حان موعد النظر في القضية أمام المحكمة المركزية محكمة اللواء (لواء نابلس). لست أذكر فيما إذا كانت القضية قد نَظَر فيها حاكم صلح جنين أصلاً، أم أنها كانت من الأصل من اختصاص محكمة مركزية.

المحكمة المركزية كانت دوماً تتألف من ثلاثة أشخاص: رئيس بريطاني وقاضيين عربيين في الألوية العربية أو قاضيين يهوديين في المناطق اليهودية أو من قاض عربي وقاض يهودي في الجهات المختلطة. وبما ان جنين عربية فقد كانت المحكمة تتألف من قاض بريطاني رئيساً وقاضيين عربيين. وأذكر اسم القاضي البريطاني (وِب Webb)، وان كنت لا أذكر اسم القاضيين الآخرين.

انعقدت المحكمة في دار البلدية، التي كانت تضم مكاتب البلدية وحاكم الصلح ومدير البوليس وبعض الدوائر الأخرى. والمبنى هذا كان مركز الادارة كلها في أيام الحكم العثماني. وكان يقع عند نهاية البلدة في الجهة الشمالية. فأنت إذ تدخل جنين قادماً من نابلس تمر على يمينك بأول دار فخمة هي دار قاسم بك عبدالهادي. وتستمر في سيرك فتطالعك هنا وهناك، على اليمين واليسار مبان عادية حتى تصل الى مضخّة المياه على يسارك على بعد نحو نصف كيلومتر من مدخل البلدة الجنوبي. بعد هذا تمر على يمينك بدار نظمي عبدالهادي. هذه كانت المستشفى الحكومي في أيام العثمانيين الأخيرة، ثم جعلت مركز ادارة الحاكم العسكري البريطاني، ثم المدني، في بدء عهد الانتداب. وامام هذا المبنى الرخامي الضخم كانت تمر قناة مياه عين نينة، والى جانبها مكاتب صحة قضاء جنين. وهناك كان الدكتور ف. ع. وكان الصيدلي نسطاس وهو يوناني الأصل. لم يكن في جنين يومها مستشفى حكومي. لحد الآن كان سيرك في خط مستقيم. وتنحرف قليلاً بعد ذلك لتقف في ساحة تحيط بها الحوانيت المختلفة. كان من أكبرها حوانيت آل سبع العيش الذين كانوا يكادون يحتكرون سمانة جنين.

وتعود الى اتجاه مستقيم شمالاً، وعلى بعد قليل، فترى على يسارك الجامع الكبير، وهو الجامع الذي كان الشيخ سعيد مرعي المسؤول عنه. والى اليمين تقع دار البلدية التي أشرت اليها.

بعد دار البلدية ينحرف الطريق يميناً ثم يعود يساراً وعندها تقريباً كانت تنتهي البلدة في عدد من البيوت العادية، باستثناء مبنى بعيد عن الطريق هو القشلة. كان مقراً للجنود الالمان أيام الحرب، ثم أصبح ثكنة للجنود البريطانيين بعد مجيئهم الى جنين. ويقع على اليسار ميدان فسيح كان الضباط البريطانيون يلعبون فيه لعبة الصولجان (البولو). وكنا نذهب للفرجة.

في الطابق الثاني من دار البلدية، في الأقسام الخاصة بالدوائر العدلية والمحاكم، انعقدت المحكمة المركزية. ذهبت أنا لحضور المحاكمة لاتفرج على محاكمة بقطع النظر عمّن يُحاكم. لكن آخرين ذهبوا ليتفرّجوا على فايز نقولا وهو يُحاكم. وكان بعض الحضور، من مجتمعنا، يتغامزون عند ذكر المبالغ التي دفعها ف ع لفايز، وكأنهم يقولون إنه دفعها لكوكب.

لم يكن، فيما أذكر، بيد فوزي عبلا اي وثيقة تثبت ان فايز قبض منه شيئاً. وكل ما كان بيد ف ع هو دفتر صغير كان يقول إنه يسجّل فيه كل ما يدفعه (أو ينفقه لا أذكر) وأنه سجّل فيه هذه الدفعات. وفايز كان ينكر ذلك إلا في حالة واحدة قال إنه استدان من ف ع مبلغاً من المال لكنه أعاده اليه.

لست أذكر تفاصيل القضية. لكنني، وأنا بعد في الثالثة عشرة من سني، استغربت كيف صدر الحكم على فايز بأنه قبض هذه المبالغ أو أكثرها وأنه انكرها ولذلك فانه يترتب عليه أن يعيد المبلغ الى ف ع، وأن يسجن بسبب إنكاره، أي بسبب الجريمة.

لما انتهت المحاكمة وجدت أن ثلاثة من الشباب الصغار نسبياً (لكن أكبر مني بنحو ست سنوات) سُرّوا كثيراً بالحكم على فايز. وأذكر أن رشيد قعوار قال إنه سيذهب الى البريد ليبعث برقية الى ؟؟ (لا أذكر إلى من) ليبشّره بأنه قد حكم على فايز.

لست أذكر ما الذي حدث بعد ذلك. فقد دخلت دار المعلمين بعد المحاكمة بوقت قصير. وأصبحت قصص جنين اموراً أسمع عنها في العطل المدرسية، لكنها لا تكون قصصاً متسلسلة بتفاصيلها.

لكن محاكمة فايز نقولا ازعجتني يومها. ولا أدري لماذا!

على ان الذي أعرفه ان فايز أنهى فيما بعد دروسه القانونية وعمل في المحاماة في شرقي الاردن وكان محامياً لامعاً. وحتى اخذ اخاه موسى من التعليم ووظّفه في مكتبة بحيث أصبح موسى فرخ محام.

في صباح اليوم السادس من تموز / يوليو سنة ١٩٢١ وقفت مع ٨٦ يافعاً وشاباً في صف واحد أمام مبنى دار المعلمين (الكلية العربية فيما بعد)، تمهيداً لدخول قاعة الامتحان لنتقدم الى فحص الدخول الى المدرسة. كان في أول الصف أطول الطلاب شريف القبج ورفيق عبد الرزاق، وكان في آخره عبدالحميد ياسين وأنا. كنّا مجموعة غريبة. فأنا جئت من مدرسة جنين الابتدائية من الصف الرابع الابتدائي وشريف القبج جاء من الصف الثاني الثانوي بكلية روضة المعارف بالقدس، وكان الباقون بينَ بين. وكان أكبر المتقدمين سناً يبلغ الثانية والعشرين من عمره وهو بدوي العلمي، وكنت أنا، وأحسب أنني كنت الأصغر سناً، قد بلغت الثالثة عشرة وثمانية أشهر بالتمام والكمال. وكانت الأماكن التي نتنافس عليها واحداً وثلاثين فقط.

وظهر أمامنا خليل طوطح، مدير دار المعلمين، رجل ربعة في القوام، له جسم رياضي، ووجه أسمر شديد السمرة مما يثبت ان سكان رام الله (مسقطه) كان أصلهم من منطقة الشوبك في جنوب الأردن. كنا جميعنا قد رأيناه في اليوم السابق، لانه تحدث الى كل واحد منا، وكان يجلس الى جانبه جورج خميس، يتفحصّ أوراقنا.

وكان، في صباح يوم الامتحان، يرافق المدير رجل طويل القامة، في شعره شقرة وفي وجهه حمرة، عرفنا فيما بعد أنه نور الدين العباسي، مدرّس الرياضيات في المدرسة (وهو خريج دار الفنون - جامعة استانبول فيما بعد).

تحدّث الرجلان قليلاً، وسمعت همساً يدور بينهما لما اقتربا مني، فهمت منه «لماذا نكلّف هؤلاء الصغار مشقّة تقديم الامتحان؟» وارتعشتُ فرقاً. لكن المدير قال «فليجربوا، لعلنا نجد بينهم من ينجح!».

ودخلنا قاعة الامتحان وكانت الموضوعات التي طلب منا ان نتقدم فيها للامتحان: الحساب واللغة العربية ودروس الأشياء (كما كانت مبادىء العلوم تسمى يومها) والجغرافية والتاريخ. وقد أدركت يومها أن خليل طوطح رجل عملي. فامتحان اللغة العربية، مثلاً، كان يشمل كتابة رسالة الى مدير دار المعلمين يوضح فيها الطالب لماذا يريد ان يدخل هذا المعهد. ولم أكن أخشى من اللغة العربية، ذلك انه مع ان جميع دراستي الابتدائية لم تتجاوز السنوات الخمس (من الروضة الى الرابع الابتدائي) ومع انها كانت موزعة في دمشق والناصرة وجنين، فقد قضيت في جنين سنتين ونصف السنة بدون مدرسة، كنت خلالها كثير القراءة - ألف ليلة وليلة وقصة الملك سيف وقصة عنترة وتغريبة بني هلال. فثروتي اللغوية كانت جيدة. وطُلبَ منا ان نُشكل الكلمات تشكيلاً تاماً، أي أن نضع الحركات على أجزاء الكلمة كلها. أما القسم الآخر من امتحان اللغة العربية فقد كان قراءة. كان خليل طوطح، وشخص آخر، هو الذي فحصني، فناولني أحد مجلدات المقتطف القديمة، وفتح مكاناً فيه وقال اقرأ. وكان المقال عن جبل اراراط.

وانتهى الامتحان في يوم ونصف اليوم، وصحح الاساتذة أوراق الامتحان، وبعد ظهر اليوم التالي بعد الغداء (وقد قدّموا لنا الغداء في المدرسة) مباشرة قرأ جورج خميس على المجتمعين اسماء الناجحين، أي المقبولين، وكنت في عدادهم. وكان علينا أن نجتاز فحصاً طبياً (كان الطبيب الذي فحصني المرحوم الدكتور يعقوب نزهة). واجتزت هذا أيضاً. وقُبلتُ. والفرحة التي أصابتني يومها كانت عارمة، إذ أن قبولي كان قمة ما كنت أطمع فيه بالنسبة الى ما جربت أن أحصل عليه قبلاً.

خرجت من جميع هذه الاجراءات ومعي ورقتان الواحدة تعلن قبولي طالباً في دار المعلمين، والثانية فيها لائحة بالثياب التي يجب أن نحضرها معنا وكيف يجب أن تكون الأحرف الأولى من اسمائنا مطرّزةً على ما يذهب للغسيل. خرجت راكضاً مسروراً، لأنني سأعود في اليوم التالي (٨ تموز - يوليو) الى أمي لأبشّرها. وفيما أنا أقفز وأنط فرحاً وحبوراً، إذا بيد تقع على كتفي، فالتفت فاذا بالمدير يقول لي «انت يا ولد صغير، ولكننا اضطررنا الى أخذك لأنك أجدت في الامتحان وكنت الأول. لكن عندما تعود الينا في مطلع العام الدراسي القادم يجب ان يزداد طولك شبراً على الأقل!» وابتسم وهنأني.

تلك كانت بداءة صلتي بخليل طوطح. وهي صلة استمرت ثلاث سنوات تلميذاً (وكنت تلميذاً جدياً وشاطراً وطموحاً). ثم دامت بعد ذلك نحو ثلاثين سنة، اما لقاء أو مراسلة الى أن توفي في الولايات المتحدة ١٩٥٥.

كان خليل طوطح واحداً من نفر من الفلسطينيين الذي عادوا في أعقاب الحرب العالمية الأولى من المهاجر الأميركية ليخدموا بلادهم - فلسطين. وقد عرفت منهم ثلاثة معرفة شخصية. الدكتور سليم فرح (من الناصرة) وكان يحمل درجة دكتور في الفلسفة في الزراعة. سليم فرح عرض عليه في حكومة فلسطين عمل وجده انه دونه، فرفض العمل. وظل بعض الوقت يحاول ان ينشىء مزرعة حديثة، لكنه لم ينجح، واكبر ظني انه عاد الى الولايات المتحدة. والدكتور سليم شحادة (من رام الله) وكان قد تخصص في القانون، فاسندت اليه وظيفة في القضاء في فلسطين، وقد خدم بلاده خدمة كبيرة. وخليل طوطح الذي عاد يحمل شهادة ماجستير في التربية من جامعة كولومبيا.

خليل طوطح ولد في رام سنة ١٨٩٠، وبعد دراسته الابتدائية هناك التحق بمدرسة برمانا في لبنان سنة

١٩٠٤. وقد حدثنا أكثر من مرة عن طلاب المدرسة وموقفهم من الحرب اليابانية الروسية، ولكنني أوثر ان انقل ما كتبه هو عن ذلك في كتاب نشر سنة ١٩٥٥ بعنوان ديناميت في الشرق الأوسط (وسأعود الى هذا الكتاب فيما بعد). قال: «لما حطت بنا الطائرة في مطار بيروت عند الفجر من يوم ١١ اذار / مارس ١٩٥٢، لم يسعني الا ان اتذكر المرة الأولى التي وصلت فيها بيروت في مطلع سنة ١٩٠٤. كانت الحرب قائمة بين الامبراطورية الروسية العاتية واليابان الطموحة. وكنا نحن الطلاب نلعب، فيما بيننا، لعبة «شد الحبل». وكان اولئك الذين يتبعون الكنيسة الارثوذكسية (اليونانية) يشدون لصالح روسيا، التي كانت تعتبر حامية هذه الكنيسة واتباعها في الامبراطورية العثمانية. وفي الجهة المقابلة من الحبل كان الطلاب البروتستانت الذين كانوا بحكم ميولهم الانكليزية، يشدون مع اليابان. وكان الطلاب الدروز يشدّون الى جانبنا».

بعد برمانا ذهب خليل طوطح الى الولايات المتحدة حيث تخصص في التربية (جامعة كولومبيا بنيويورك) وحصل على شهادة ماجستير (كانت يومها تسمى، على طريقة الكلية السورية الانجيلية ـ الجامعة الاميركية اليوم ـ معلم علوم، ثم استعمل تعبير استاذ علوم).

أمامي، وأنا أكتب هذا الحديث عن خليل طوطح كتاب اسمه «فلسطين وتجديد حياتها». وتحت الاسم «كتاب جامع لمباحث تاريخية وعمرانية واجتماعية وسياسية عن فلسطين». ويضاف الى ذلك «عنيت بطبعه الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية في نيويورك» بادارة حنا صلاح (مهندس بنائي وصناعي. **ومطبـوع سنة ١٩١٩** في «المطبعة التجارية السورية الامريكية في نيويورك».

وانما ذكرت هذا الكتاب لأن فيه، مما يهمنا الآن، فصلاً كتبه خليل (عبدالله) طوطح بعنوان «التهذيب» (ص ١٠٠ ـ ١٠٩). ولنلاحظ انه سمى الفصل التهذيب ولم يسمه التعليم، مع ان هذا هو محتوى الفصل. فالرجل كان ينظر الى المعلم (والمدرسة) انه يقوم بتهذيب النشء. ولست أريد أن أكثر النقل من هذا الفصل (وهو أقدم ما عثرت عليه مما كتبه خليل طوطح) ولكنني أود أن أقتبس هذه العبارة التي جاءت في آخر الفصل لما لها من الدلالة حول نظرة الرجل الى هذه القضية الهامة. قال: «في كل مدارسنا يجب ان تكون الغاية واحدة وهي انماء روح الاستقلال في قلوب الناشئة وإرشاد التلميذ أو التلميذة الى الشعور بمقدرة نفسه أو نفسها والثقة في بلادهما، والاّ نظل تحت رحمة الأجانب نستقي العلم والفن من مدارسهم حسب ما يغرفون لنا من جعابهم وكما يشتهون. من الواجب علينا أن نسعى ونجد حتى نصير مستقلين من مدارس الأجانب أو مدارس الأديرة، وان نبذل النفس والنفيس لتشجيع مدارسنا الوطنية. مستقبل البلاد يتوقف على همة وإقدام ابنائها، فان لم ننصر الوطني بيننا لا ينصرنا أحد». (هذا الكلام نشر سنة ١٩١٩). وعاد خليل طوطح الى فلسطين سنة ١٩٢٠.

كانت نقلتي من جنين الى القدس، في خريف ١٩٢١، نقلة كبيرة احتجتُ الى بعض الوقت حتى استوعبتها. من جنين (والناصرة) البلدة الصغيرة الى القدس بلد التاريخ الطويل العريض والمدينة الكبيرة التي كان عدد سكانها يزيد عن الخمسين ألفاً. من البلدة التي لم تَرَ سوى أبنائها وبعض الموظفين الأتراك قبلاً والانكليز حالياً، الى المدينة التي تعرف جميع أصناف السكان، الذين يؤمونها حجاجاً وسائحين ومجاورين وعاملين. من مركز قضاء الى عاصمة البلاد. ومن مدرسة خارجية نتعلم فيها ونعود الى بيوتنا الى مدرسة داخلية تتم جميع شؤوننا بين جدرانها. ولعلّي لأنني لم أُربَّ على الدَلَع والتَّدْليع وجدت نفسي انسجم مع الجو الجديد في وقت قصير نسبياً. حقاً كان في دار المعلمين يومها عدد من ابناء الناصرة طلاباً سبقوني اليها، لكن هؤلاء، مثل غيرهم، كانوا يتألمون لأنهم لا يعودون يومياً الى بيوتهم لتعنى أمهاتهم بهم.

كان عدد الطلاب عادة دون المئة في السنوات الثلاث التي قضيتها في دار المعلمين. وكان الجميع داخليين

باستثناء ابناء مدينة القدس الذين كان يسمح لهم بالنوم في بيوتهم، إذا رغبوا في ذلك، وكانوا يتقاضون جنيهين مصريين شهرياً، بدل الاقامة الداخلية (لشهور السنة الدراسية). كان طلاب صفي ٣١ عدداً (وقد حصل على الشهادة منهم ١٢ طالباً فقط سنة ١٩٢٤).

كانت ادارة المعارف قد أنشأت دار المعلمين لتدريب المعلمين وذلك في أواخر ١٩١٨ ومطلع ١٩١٩، وكان أول مدير لها مربٍّ مصري أذكر انه من أسرة الجَمل. ثم جاء بعده الأديب الفلسطيني خليل السكاكيني. ولكن مدة السكاكيني كانت قصيرة، ذلك انه استقال من العمل في حكومة فلسطين بسبب تعيين السر هربرت صموئيل البريطاني اليهودي الصهيوني «مندوباً سامياً» على فلسطين (١٩٢٠) (وقد عاد السكاكيني فيما سنة ١٩٢٦ بعد فقبِلَ العملَ مفتشاً للغة العربية في ادارة معارف فلسطين بعد انتهاء مدة صموئيل سنة ١٩٢٥).

لما دخلنا دار المعلمين كان مديرها خليل طوطح الذي ظلّ في هذا المنصب الى سنة ١٩٢٥. وكان أساتذتنا، الذين وجدناهم هناك، والذين جاءوا ونحن طلاب، يمثلون نواحي مختلفة للتعليم الجامعي. فقد كان خليل طوطح قد تخرج من جامعة كولومبيا بدرجة ماجستير في التربية. وكان عندنا استاذ للرياضيات من خريجي دار الفنون (جزء من جامعة استانبول). وكان من مدرسينا ثلاثة من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت وواحد من خريجي مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة. وواحد متخرج من معهد ماستشوستس التكنولوجي (بوسطن). وكان هناك اثنان من اولئك الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم.

وبقدر ما كان معلمونا متباينين في مصادر دراستهم وثقافتهم كانوا مختلفين في نظرتهم إلى عملهم. فهناك الذي يعتقد أنه يجب ان يكون موظفاً إدارياً كبيراً، وهناك من يتآمر على المعهد ومديره. وقد اتضح لنا هذا لما عدنا بعد عطلة الربيع في سنة ١٩٢٢ (أي بعد بدء الدراسة بنحو ستّة شهور) فوجدنا ثلاثة من معلمينا بعيدين عن دار المعلمين، وقد ارسلوا الى مناصب إدارية في المعارف إلى أن تنتهي اتفاقيتهم السنوية (واحد لم يعد الى فلسطين بعدها أبداً، واثنان جددا الاتفاق والعمل سنوات عديدة).

كان مدير دار المعلمين رجلاً عملياً واقعياً. كان يعرف الجماعة الموجودة في المدرسة على تفاوت السنّ والمعرفة والمشرب، لا بين أبناء الدار بأجمعهم، بل بين أولاد الصف الواحد. لذلك كان يضع، بالاتفاق مع الاساتذة، البرامج التي يمكن تطبيقها آنياً، متخلياً، لبعض الوقت، عما هو أساس في التعليم والمناهج، وهو متخصص فيها. ولذلك نمت المناهج بقدر الامكان، خلال السنوات الثلاث التي قضيناها في دار المعلمين، وإن كان التطور أو النمو أو التحسّن بطيئاً. وفي سنة ١٩٢٥ جُعلَت مدّة الدراسة في دار المعلمين أربع سنوات، وكانت منذ ١٩٢٤ قد نُظِّمت امتحانات الدخول الى دار المعلمين، فكان من الطبيعي ان تأخذ سبيلها الصحيح أساليب ومناهج. وقد تبدّل اسمها (١٩٢٧) فأصبح الكليّة العربية.

لكن ما كان يعنيني أنا شخصياً لم يكن ذلك الذي يتم داخل غرف التدريس، بقطع النظر عن المعلم والمادة. كان يعنيني ما كانت تُعطيه القدسُ والبيئة الجديدة لي من توجيه وتعليم وتجربة واختبار. لقد كنت من نتاج الحرب العالمية الأولى. ولدتُ قبل اندلاع القتال بنحو سبع سنوات، وقضيت سنواتها الأربع في دمشق والناصرة وجنين، في أحوال ما كانت توحي لا بالراحة ولا بالضمان ولا بالاطمئنان، فضلاً عما كانت تحمله أيام الحرب من مشكلات وقضايا ما كان الكبير يعرف كيف ينظر اليها، فكيف بالصغير. فدار المعلمين كانت، في نظري، المؤسسة التي ستمنحني الشهادة التي ستيسّر لي العمل - أي ضمان الرزق، وكان هذا أول الحلول.

وكان الجو الذي نعيش فيه في الناصرة وجنين ضيّقاً بطبيعة الحال، وفقيراً إلا من القيل والقال. فكان

الانتقال الى القدس معناه الجوُّ الواسع. فهناك المحاضرات التي كانت تلقى في دار المعلمين - يلقيها ضيوف يقتنصهم مديرها وزملاؤه الجادون - في مختلف الشؤون. هناك سمعت الأب انسطاس ماري الكرملي العلاّمة اللغوي العراقي وخليل بيدس الرائد الفلسطيني في كتابة القصة (وترجمتها عن الروسية خاصة) وأحمد سامح الخالدي وإسعاف النشاشيبي والدكتور يعقوب نزهة والدكتور سليم سلامة والدكتور عزت طنوس والدكتور توفيق كنعان وأنيس المقدسي (من بيروت) وعادل جبر. وأنى لنا أن نسمع هؤلاء، أو حتى باسمهم، في جنين. وكنت أحضر أحياناً كثيرةً الصلاة في كنيسة القديس بولس حيث كان يعظُ القس فؤاد سابا والقس شديد باز حداد وزوار آخرون. وكانت تقام في مدرسة المطران (مدرسة سان جورج) أمسيات أحديّة يتحدث فيها الكثيرون منهم هربرت دانبي وهَمَند (مدير كلية الشباب) ورونالد ستورس حاكم القدس. وكنا نذهب الى جمعية الشبان المسيحيين - في مبناها القديم. أذكر انني حضرت سلسلة محاضرات للشيخ نديم الملاّح والقس الياس مرمورة وحسين روحي، فضلاً عن المحاضرات المتفرقة. وفي القدس حضرت تمثيل أول رواية بالانكليزية وكانت رواية مكبث لشكسبير (١٩٢٢). ولا يقلّ أهمية عن ذلك انني في القدس حضرت السينما لأول مرة وأنا واعٍ (كنت قد حضرتها في دمشق وأنا صغير!). كان ذلك في سينما القدس الكبير في باب العمود، الذي احترق بعد ذلك بمدة قصيرة.

لكن لم يكن هذا كل ما أعطتني إياه القدس في تلك السنوات الثلاث. أنا لم أكن قد عرفت شيئاً واضحاً عن الثورة العربية (١٩١٦) ولا عن وعد بلفور (١٩١٧). سمعت في جنين من معروف السعيد، أحد مدرسينا، أنه فرّ من الجيش العثماني وانضم الى جيش فيصل. ما هو جيش فيصل؟ وما هي أصوله وخلفيته؟ لم أكن أعرف عنها شيئاً. وأذكر أنه أقيم مأتم كبير في جنين (١٩٢٠) لوحيد الدين بن قاسم عبدالهادي لأنه قتل في مكان في سورية، حيث كان فيصل في طريقه الى حيفا. وذكر معروف السعيد نشيداً كان جيش فيصل ينشده وفيه

أيها الملك العظيم	فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم	ملك جدك النبي
نحو هذا الملك سيروا	لخلاص الوطن
وعلى الخصم أغيروا	قبل فوت الزمن

وقال إنه من نظم واحد من القدس لعلّ اسمه خليل السكاكيني. لكن المهم أننا لم نفهم العلاقة بين «الملك العظيم» ومُلك جده النبي.

ومثل ذلك يقال عن وعد بلفور. كلمات تُلقى هنا وهناك، ولستُ أدري فيما إذا كان معلمونا في جنين (مثلاً) كانوا يعرفون ما فيه الكفاية عن وعد بلفور وملابساته كي يعرّفونا به. ولذلك سبب في غاية البساطة يتعلق بوسائل الاعلام التي كانت في فلسطين. جريدة الكرمل تصدر في حيفا وجريدة فلسطين تُطبع في يافا. ولكن ما الذي يُوصلُ الجريدة الى جنين؟ أذكر أنني كنت أرى أعداداً من هذه الصحف بين حين وآخر، لكن في التعلُّم والتعليم والاعلام المهم الاستمرار، لا المصادفة.

ثم كان معلمونا يقولون لنا نحن عرب. لكن ما هو المعنى العميق لهذه الكلمة؟ قومية عربية لا أذكر أنني سمعتها من معلمي في جنين، لكنني كنت أسمع «ابناء عرب». لكن ما هو المضمون.

لستُ أزعم أن كل الطلاب الذين عاصرتهم في دار المعلمين كانوا على هذه الدرجة من الجهل بالأمور البديهية، إذ لعل البعض كانت ظروفهم أو بلدانهم أو أهلهم قد يَسَّرت لهم مجالاً للمعرفة. لكنني أنا أتحدّث عن نفسي. والسؤال إذن ما الذي فعلته دار المعلمين لي في هذه الناحية؟

أتاحت لي هذه المؤسسة المجال لقراءة بعض من الصحف المصرية اليومية - الأهرام والمقطم. وهذا أتاح لي الفرصة للاطلاع على أخبار العالم. يومها (وأنا أتحدّث عن الفترة بين ١٩٢١ و١٩٢٤) لم يكن ثمة اذاعات في العالم العربي، وحتى الاذاعات الغربية لم تكن أصواتها تصل العالم العربي. فضلاً عن ذلك فان آلات الراديو كانت معدودة (نسبياً) إذ أنها جميعها كانت تسير على الكهرباء (هذا قبل عصر البطارية والترانزستور بعقدين على الأقل)، والكهرباء كانت معروفة في مدن محدودة العدد في ديارنا. والصحف المصرية التي ذكرت كانت تصل القدس بعد نحو ثلاثين ساعة من توزيعها في القاهرة. فقد كانت تحمل من القاهرة الى فلسطين في القطار الذي كان يغادر العاصمة المصرية مساء، فتصل الى محطة القدس حول الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم التالي. وكانت تمر ساعات قبل ان تصل الى الموزع الذي يرسلها الى المشتركين، أو ينتظر من المشتركين أن يمروا به فيأخذوا جرائدهم. والصحف الفلسطينية التي كانت معروفة في ذلك الوقت هي الكرمل (حيفا) فلسطين (يافا) مرآة الشرق وبيت المقدس (القدس). ومع ان هذه كانت تعالج الأمور العالمية فضلاً عن الشؤون المحلية، فان وسائلها كانت محدودة. لذلك كان لا بدّ لنا من قراءة الصحف المصرية. وكانت الأهرام والمقطم في طليعة الصحف المصرية التي تشرف على العالم إخبارياً، وتحليلاً للأحداث. وهذا، بطبيعة الحال، أتاح لي (ولغيري) المجال للتعرف على الحياة السياسية المصرية. ولأنني تابعت قراءة الأهرام لسنوات بعد تركي دار المعلمين، لما كنت معلماً في عكا، فقد مرّ بي وقت كنت أعرف فيه عن أحداث مصر ورجالها وزعمائها اكثر مما أعرفه عن سورية وحتى عن فلسطين.

وأتاحت لي دار المعلمين أن أعتاد قراءة مجلات علمية أدبية رصينة، كانت تصدر في مصر مثل المقتطف والهلال. فكان في ذلك فرصة للتثقف لم يكن لِتَتَيَسَّرَ لولا هذا المعهد. والى هاتين المجلتين العربيتين تعرفت في دار المعلمين الى المجلة الجغرافية الوطنية The National Geographical Magazine الاميركية التي لم تترك جزءاً من العالم الم تكتب عنه مع الصور الملونة الواضحة والخرط المفسّرة.

وكان لنا من اثنين من اساتذتنا في الكلية مرشدان عمليان هما خليل طوطح مدير دار المعلمين ودرويش المقدادي، الذي انضم الى الهيئة التعليمية في خريف ١٩٢٢ (وكان اسمه يومها درويش الحاج ابراهيم). كان كل منهما رجلاً بمعنى الكلمة وكان وطنياً يحسّ بفلسطين وبالعروبة والقومية العربية، لكن درويش كان حديثه معنا حول هذه أوسع مجالاً وأبعد مدى. والسبب الأصلي في ذلك أنه كان يدرسنا مادة التاريخ ويعلمنا الجغرافية. لذلك كانت صلته بنا وطنياً ألصق. أما خليل طوطح فكان يتصرف تصرف الوطني العربي المؤمن ويتحدث عندما تحضر المناسبة وكان لهذين فضل عليّ. كانا يكتبان على لوحة الاعلانات عناوين المقالات الحريّة بالقراءة في الصحف والمجلات. واذا تذكرنا اننا كنا طلاباً داخليين، وكان هذان الرجلان يعيشان في المعهد، أدركنا ان مجال الاحتكاك بين الطلاب والاساتذة كان واسعاً. هذا الذي ذكرته كان يعمل من أجل الجميع وقد كنت واحداً من أولئك الذين أفادوا من هذه «الخدمات والمساعدات» جميعها. وهناك استاذ ثالث كان له في نفسي شخصياً أثركبير هو جورج خميس. هذا الرجل لم يتح له أن ينال تعليماً جامعياً، لكنه كان عندما يكلّف بتدريس موضوع يثقف نفسه به، ويطلع على كل ما يلزم كي يعلمه على أفضل وجه. أيام كنت تلميذاً كان جورج خميس يعلمنا دروس الصحة وعلم وظائف الأعضاء. والذي عرفته منه، فيما بعد، أنه كان يقرأ المادة في الكتاب الذي بين يديه، ثم يزور أصحابه من الأطباء مستفسراً إياهم، مضيفاً الى معلوماته ما يلزمه. وقد اتيح لي أن أزامله فيما بعد (١٩٣٩-١٩٤٧)، في الكلية العربية (دار المعلمين سابقاً)، وكان قد عهد اليه في ذلك الوقت تدريس الرواية المقررة على الطلاب (في امتحان المترك) من روايات شكسبير (وكانت تتبدل سنة بعد سنة) فكان، بشهادة بعض

المدرسين الانكليز الذين كانوا يعملون في القدس، من أمهر المدرسين استيعاباً لدقائق المعاني والأفكار. ومثل ذلك كان عمله في تدريس الترجمة من الانكليزية واليها. جورج خميس علّمني المثابرة والنظام. هذا هو الثلاثي الذي كان له في نفسي أثر كبير: خليل طوطح ودرويش المقدادي وجورج خميس. وقد ربطتني بكل منهم صلة خاصة بعد تخرجي من دار المعلمين دامت حتى وفاة كل منهم. ولعل صلتي بدرويش كانت أوثق، لأنني في سنة ١٩٢٥، أي بعد تخرجي بسنة، قمت وإياه برحلة على الاقدام بدأت من صفد في فلسطين وانتهت بانطاكية عبر لبنان وسورية. وهذه الرحلة وطّدت الصلة بيننا.

كان خليل طوطح رجلاً عملياً وكان يحبُّ المشي. لذلك كانت له رحلة سنوية حول سور القدس مع الطلاب الجدد. هذا السور القائم هو من بناء السلطان سليمان القانوني العثماني (١٥٤٣)، لكن في أساساته توجد حجارة ضخمة تعود الى أيام هيرودس (في القرن الأول قبل المسيح) وحتى هناك أجزاء لعلها أقدم عهداً. وزيارة سور القدس كانت تتطلب السير على أعلاه في بعض الأحيان. وكان خليل طوطح يعرف تاريخ القدس. فكانت هذه الزيارة للسور هي زيارة تاريخية للقدس بأحيائها وتحصيناتها وأبوابها وكنائسها ومساجدها ورُبُطِها وزواياها وأديرتها.

وكان وجودي في دار المعلمين معناه وجودي في القدس عاصمة البلاد ومركز الحركات السياسية. فيها كانت تؤلّف الوفود «لزيارة بريطانية لتوضيح القضية للسياسيين»، وفيها كانت تعقد المؤتمرات وتركّب اللجان والهيئات ويتم الاختلاف على السبل السياسية والخطط وتقوم المنافسات بين رئاسة المجلس الاسلامي الأعلى وبلدية القدس. وفيها كانت تقام المظاهرات (هكذا كنا نسميها والآن يسمونها المسيرات) وقد يكون بين الاثنين فرق لكنني لا أعرفه. فاشتركت فيها كما اشترك غيري. وأذكر أنني اشتركت في مظاهرة أقيمت في موسم النبي موسى في القدس (ربيع ١٩٢٤). وسرنا في المظاهرة حتى بلغنا أحد ابواب الحرم الشريف. كنت يومها ألبِس قبعة، وكان الشباب قد رفعوني على الأكتاف، (لعل هذا حدث بسبب القبعة!)، وقد أصرّ الشباب على أن أدخل الحرم بقبعتي. وكان هذا مخالفاً للقواعد المألوفة وللأوامر الحكومية التي كان تحظّر على غير المسلمين دخول الحرم أيام الجمع والأعياد الاسلامية (وهذا عيد إسلامي). ولما رفضت جاء أحد طلاب الكلية الاسلامية، وكانوا يلبسون الجبّة والعمامة، وقال (بلهجة أهل خليل الرحمن): «علي الطلاق غير تدخل على الحرم بالبرنيطة!» واصررت على عدم الدخول حرصاً على نفسي. فجاء طالب آخر (وبعد أن قال له منشي يمينك) فكّ الشاش الأبيض عن عمامته وأعطاني الطربوش الذي كان تحتها ولفّ هو الشاشَ على رأسه، وهكذا دخلنا الحرم لاتمام المظاهرة. أما القبعة فلم أقف لها بعد ذلك على أثر. وكان هذا آخر عهدي بلبس القبعة وأنا طالب.

كنت (أوعلى الأصح كنا) في القدس في القلب النابض لفلسطين علمياً وثقافياً وسياسياً وتنظيمياً (أو عدم التنظيم!)، فكان ثمة فرص للتعرف الى الناس أفراداً وجماعات. وكان ثمة مجال لفهم العمل الصهيوني (لا باعتباره ورقة تحوي وعد بلفور) بل على الأرض. بناء ومعاهد ومؤسسات ومتاجر. لئن كان غيرنا يسمع بشيء اسمه الوكالة اليهودية، فقد كنا هنا نحن نعرف مبناها وندرك مكانتها بالنسبة لحكومة فلسطين، إذ كانت الشريك «غير الشرعي» للادارة الفلسطينية. وكنا في القدس نسمع أكثر مما يسمع غيرنا ونرى مثلاً الأبنية الضخمة التي كانت تقام للجامعة العبرية ومستشفى هداسا على جبل الزيتون شرقي القدس. جميع هذه الأشياء كانت أقرب الى نفوسنا، ألماً وأملاً من أولئك البعيدين عنها (ولو أن فلسطين بأكملها لم تتجاوز مساحتها سبعة وعشرين الف كيلومتر مربع!).

كانت دار المعلمين من أحدث المدارس عهداً من حيث تاريخها. فهناك مدرسة المطران (مدرسة سان جورج)

جارتنا ومدرسة المطران غوبات (مدرسة صهيون) البعيدة عنا وكلية روضة المعارف ومدرسة تراسانطة (وهذه جميعها انما هي أمثلة)، وكانت الاجتماعات بيننا وبين هذه المدارس أصلاً رياضية - على ملاعب كرة القدم - ملعبنا أو ملعب مدرسة أخرى أو على ملعب مدرسة البوليس (في جبل المشارف - سكوبس - شمالي القدس). وأحسب أنه خلال السنوات الثلاث التي كنت فيها طالباً لم نكن بين المجلّين في هذه اللعبة، ولكننا كنا نتحسّن.

في دار المعلمين أتيح لي أن أتعرّف الى اثنين من أدباء فلسطين يومها - خليل بيدس واسعاف النشاشيبي. بعد وصولنا الى المعهد (خريف ١٩٢١) بأيام وُضِعَ بين أيدينا كتاب اسمه «الأناشيد المدرسية». الأناشيد نظمها معروف الرصافي الشاعر العراقي الكبير الذي كان استاذاً للغة العربية في الدار في الفترة السابقة لدخولي المدرسة. والأنغام اختارها خليل طوطح، وقد اقتضى الأمر تعاوناً وثيقاً بين الرجلين للوصول الى هذه الغاية. وكانت الأنغام منوعة. فهناك نشيد دار المعلمين وكان مطلعه.

دار المـــــعـــــلـــــمـــــين لا	زلت مـــــقـــــرّاً لـلـعـــــلا
فـــــإن داءَ الجـــــهـــــلا	يشـــــفـــــيـــــه من تـخـــــرجـين

وهناك «أغنية العندليب» (على نغم سانتا لوشيا) وهناك أنشودة «أوطاننا وهي الغوالي» على نغم المرسيليز الفرنسية. وهكذا.

دفعنا ثمن الكتاب خمسة قروش مصرية وهي العملة المستعملَةُ يومها في فلسطين.

ويبدو أن إسعاف النشاشيبي، الذي كانت تربطه بالرصافي وطوطح علاقات وثيقة أعجبه الكتاب فقدم له بكلمة كان عنوانها «كلمة مستجيد لجامع هذه الأناشيد». وقد أعجبني في الكلمة الحماسة والاندفاع المتجليان فيها، فرغبت في رؤية اسعاف النشاشيبي. وحدث هذا بعد ذلك بمدة قصيرة. جاء الرجل لزيارة طوطح. وحدث أن وقف معه وهو يودعه في إحدى القاعات، وكان ثمة حلقة من الطلاب دارت بهما، فكان بيننا كلمات من النوع المنتظر في مثل هذه الحالة - تشجيع من الكبير الى الصغار.

كان اسعاف قصير القامة نحيل الجسم أنيقاً في اختيار ثيابه يعتمر الطربوش وكان يلبس حذاء ذا كعب عال نسبياً. وكما أتيح لي أن أعرفه فيما بعد، خطيباً بيننا، ومفتشاً للغة العربية في ادارة معارف فلسطين لما كنت ادرّس في عكا، ومما كتبه، يمكنني القول انه كان راوية للأدب شعره ونثره، عارفاً باللغة مفردات ونحواً وبلاغة، حريصاً على استعمال الكلمة الصالحة في المكان المناسب.

أما خليل بيدس فقد كان لتعرّفي عليه سبب آخر. خليل بيدس الأديب صاحب النفائس العصرية ومحررها هو من بلدتي - الناصرة. وكان يعمل استاذاً للغة العربية في مدرسة المطران (سان جورج)، وهي جارة لنا. فضلاً عن صداقته لخليل طوطح، فقد كان خليل بيدس «يبحث» عن التلاميذ من بلدته في دار المعلمين (ويمكن في غيرها). ومن هنا كان تعرّفي عليه، والاتصال به الذي كان يحدث عندما نذهب لمدرسته لمحاضرة مثلاً، أو يأتي هو الى دار المعلمين مستطلعاً زائراً. وخليل بيدس كان أيضاً قصير القامة صغير الجسم وكان الرجل أديباً بالمعنى الوافي للكلمة.

لم نتعلم في دار المعلمين كثيراً من العلم، ولم نجمع الكثير من المعرفة. إن تنوع خلفيات الطلاب، كما ذكرت، وتقلب المدرسين علينا، وانعدام الكتب المدرسية، إلا في قواعد اللغة العربية والحساب والجبر والهندسة (ولم يتبدل هذا أو يتحسن إلا في سنتي الأخيرة، وحتى هذا التحسن كان نسبياً لا مطلقاً). كل هذا جعل حظنا من تلقي المعرفة محدوداً. كان عندنا مكتبة كانت تُنَمّى تدريجاً، فقد كانت لها موازنة محدودة (كل ميزانية دار المعلمين كانت محدودة) وكان الصف المتخرج يهدي (سنتي ١٩٢٢ و١٩٢٤) مجموعة من الكتب للدار. وأذكر ان صفي

(١٩٢٤) قدّم هدية تقرب من ثمانين كتاباً للمكتبة.

ومهما كان عدد الكتب قليلاً فقد كان ثمة مجال للافادة منها لمن يريد. وأحسب أنني قرأت (أو على الأقل اطلعت) على كل كتاب فيها خلال السنوات الثلاث التي قضيتها هناك. ومن هناك زادت الرغبة الملحة عندي في القراءة.

في دار المعلمين تعلّمنا - أو لعله من الأفضل أن ألجأ إلى المفرد فاقول تعلّمت - أموراً أخرى كانت، بالنسبة لي، لا تقل أهمية عن أي قدر من المعرفة. منها انني اعتدت التنظيم والانتظام والانضباط. وهنا كان تعلمي هذه الأمور تقليداً لخليل طوطح ودرويش المقدادي وجورج خميس. صحيح ان كلا منهم كان يلقي نصائح حول الموضوع هنا وهناك؛ لكن أنا تعلمت منهم لأن كلاً منهم كان يمارس هذه الأمور ممارسة دقيقة - في أعماله، في مواعيده، في واجباته، وفي علاقته الشخصية والرسمية. ومع ان عدداً من المدرسين الآخرين كان قليل الاحتفال بهذه الأمور، فان تصرف هؤلاء لم يؤثر عليّ سلباً.

الفصل الرابع

لم أذهب الى جنين - الى البيت - لقضاء عطلة عيد الميلاد لأول سنة لي في دار المعلمين. فقد أعلن المدير (خليل طوطح) أن دار المعلمين ستُرَتِّبُ رحلة الى أريحا والاردن والبحر الميت خلال تلك العطلة. وأخبرنا أن أي تلميذ يمكن أن يشترك. والترتيب الذي اتخذ هو أن المدرسة ستتكفّل بنفقات النقل والأكل خلال الرحلة. أما النوم فأمره متروك للطلاب. فالذين يمكنهم ان يدفعوا أجرة الفندق - وهو ١٥ قرشاً مصرياً في الليلة - ينامون هناك. أما الباقون فسترتب الأمور لهم بحيث ينامون في دير الروم الارثوذكس أو دير الأقباط أو في الجامع الكبير. موعد الرحلة كان في الشتاء (أواخر كانون الأول / ديسمبر الى أوائل كانون الثاني / يناير). لكن أريحا، التي تنخفض عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متر، تكون دافئة حتى في ذلك الفصل. وقد رتّبَتْ إدارة المدرسة لنا أن نحصل على بطّانيات (إحرامات من الصوف) تنقَلُ من القدس لاستعمالها فرشةً وغطاءً. والواقع أن الديرين قدّما لأولئك الذين ناموا فيهما الفراش والغطاء. أما الذين ناموا في الجامع فكانوا يحملون الاحرامات معهم.

كانت فكرة الرحلة بالنسبة لي تحمل مجموعة من المعاني. فأنا كنت، في صغَري لا مؤمناً فحسب، ولكنني كنت أمارسُ قراءة الصلَوات المطلوبة صباحاً ومساءً. وقد حملت معي من الناصرة الى جنين السّواعي - وهو كتاب الصلوات للكنيسة الارثوذكسية - وكنت أنهض مبكراً بحيث اقرأ الصلاة الطويلة. أما في المساء فكنت أكتفي بالصلاة الصغرى. من هنا فقد كانت الفكرة في زيارة المكان الذي تعمّد فيه المسيح في نهر الاردن شيئاً مهماً بالنسبة لي.

لكن كان هناك شيء آخر. خلال الفترة التي قضيناها في الناصرة - قبل انتقالنا الى جنين - كنت أذهب لحضور مدرسة الأحد. ومدرسة الأحد كان المقصود منها إعطاء الأولاد، صبياناً وبنات، المعلومات الدينية المسيحية الضرورية. ومدرسة الأحد في الناصرة، مثل مدارس الأحد في كثير من الأماكن في بلادنا، كان يديرها البروتستانت (الانجيليون). قد يكون المشرفون من المبشرين، وقد يكون هؤلاء بعيدين عن الاشراف، لكن هذه كانت طبيعة مدارس الأحد. ولم يكن لطائفة الارثوذكس في الناصرة يومها مثل هذه المدارس. لذلك إذا كان أهلنا يريدون لنا هذه الثقافة الدينية والتعليم المسيحي كنا نرسل الى المدارس الموجودة. وكانت توزع علينا في المدارس هذه صور ذات موضوعات دينية مسيحية، وهو أمر كان، ولا شك، يرغّبنا في الذهاب الى المدرسة يوم الأحد.

وكانت الدروس الأولى التي تعطى هناك للصغار - مثلي - تدور حول الكتاب المقدس، بدءاً من العهد القديم، الخليقة والطوفان وهكذا. وقد وُزِّعت علينا يومها كتب هي خلاصة لهذه الموضوعات التي كانت تسمى التاريخ المقدس. وكانت معلمتنا «شاطرة» في رواية القصص. أما الكتب، على ما أذكر، فكانت «مشوّقة» كما كانت مصورة. ولم يكن جميع المعلمات مثل هذه المعلمة. فقد عرفت معلمات من العوانس اللواتي كن يشعرن بالمرارة والضيق.

لا شك ان قصة الخليقة، في الأيام الستة، كانت عظيمة، وقصة الطوفان وفلك نوح كانت جذابة. لكن القصة

التي تركت في نفسي يومها انطباعاً خاصاً كانت قصة لوط وزوجته. كان لوط من سكّان سدوم وعمورة المدينتين الشريرتين، الواقعتين في جنوبي البحر الميت. وقد قام سكّانهما بكلّ أنواع الموبقات والجرائم والشرور، فغضب الله على سكانهما وقرر معاقبتهم بأن يسلّطَ عليهم نيرانَ الارض والسماء (البراكين والصواعق). ولوط كان ابن اخي ابراهيم، ومع انه كان شريراً وارتكب الكثير من الأعمال الشائنة، فأن الله عفا عنه اكراماً لعمه ابراهيم. هذه القصة هي الواردة في العهد القديم (من الكتاب المقدس). ولذلك سُمِحَ للُوط أن يخرج من مدينته مع زوجته وبعض اقاربه. وقد أُنذرَ القومُ بأن لا يتلفّتوا الى الخلف، أي أن لا يعودوا بابصارهم نحو سدوم وعمورة رغبة في أن يروها تحترِق. وقيل لهم إن هم تلفّتوا الى الخلف فأنهم سيصبحون أعمدةً من الملح.

كان من الممكن أن يظلّ هذا الانذار شيئاً عادياً مثل كثير من الانذارات السماوية والأرضية، لكن الاله الذي كان ينقم على تلك المنطقة كان جاداً في انذاره. لذلك لما تلفتت امرأة لوط نحو سدوم وعمورة تجمّدتْ في مكانها عموداً من الملح.

هذه هي القصص التي كثر ورودها في العهد القديم، لأن الذين كتبوه وحرروه مرات، تصرفوا في الأمور على هواهم كي يُظْهِروا أنهم هم القريبون من الله وهم الذين يرضى عنهم، حتى ولو كانوا شريرين مثل لوط.

لست أذكُر فيما إذا كانت المعلمة أضافت مثلاً قولها وهذا العمود لا يزال قائماً أو أنني أنا تخيّلت يومها ذلك؛ فالقصة اعجبتني وتركتْ في نفسي أثراً أكبر حتى من حكاية الطوفان. ومن المؤكد أن هذه القصة، التي ظللت أختزنها مدة، لم تبقَ في ذهني مرتبطة بعمود ملحٍ لما دخلت دار المعلمين. لكن زيارة البحر الميت، الذي كانت جماعة لوط تقيم على شواطئه، والذي تحولت امرأة لوط عمود ملح في جهاته، كانت بالنسبة لي أمراً في غاية الأهمية.

كنت أكتب الى أمي تقريباً مرة في الاسبوع، لكنني لم أكن أتلقى منها رسائل مقابل رسائلي عدداً. كانت أمي تكاد تكون أميّةً ـ تلك كانت ظروف حياتها في بيت أبيها. اخواتها خَرَجْن أو تَزَوّجن وكانت أعمال البيت الكثيرة تقع اعباؤها عليها. فكانت تُحْجَزُ في البيت بدلاً من الذهاب الى المدرسة. وقد ذكرت لي مرة أن أبي أراد أن يأخذ بيدها ويعوّض عليها، لكنها شُغلَت ـ كامٍّ وزوجة ـ ببيتها، فلم تنجح الخُطّة!

لذلك كانت تكتب أختي لي عندما تكون في البيت ـ فقد وَرِثت دورَ أمها في بيت جدي ـ وكانت تحبّ الجد والجدة وكانا يحبانها، وكان لها صديقات ولدات هناك. أما اخواي الصغيران ـ الفرد وجورج ـ فلم يكونا قد أحسنا مسك القلم بعد. وقد تكلّفُ أمي إحدى صديقاتها أو أحد الجيران أن يحبّر لها رسالة لي.

فلما كتبتُ لها عن الرحلة، وأن معنى هذا أنني لن أكون في البيت في عيد الميلاد، كان جوابها مشجعاً على الرحلة، وأن أعياد الميلاد القادمة كثيرة. وسألتني في الرسالة عن النفقات والاقامة هناك. فقلت لها ان المدرسة (دار المعلمين) رتّبَت كل شيء وتكفّلت بالأكل والسفر والنوم، وقد تعمّدت أن أجعلها تفهم أن النوم في الفندق كان على حساب المدرسة، لأنني لم أردْ أن أحمّلها عبئاً مالياً جديداً (ثماني ليال في الفندق كان معناها ١٢٠ قرشاً، وهو مبلغ كبير بالنسبة لنا يومها).

المسافة من القدس الى أريحا كانت حول ٣٥ كيلومتراً. وقد استأجرت ادارة المدرسة لنا عربات تَجُرُّ الواحدة منها أربعة جياد (الكبيرة) أو جوادان (الصغيرة). وقد كنا في مجموعنا نحو ثلاثين شخصاً ـ التلاميذ ومدير دار المعلمين وزوجته والاستاذ جورج خميس. ولست أذكر أن أحداً غيره من الاساتذة رافقنا.

قضينا النهار بكامله ـ والنهار في الشتاء قصير ـ تقريباً في الطريق. وقفنا في الخان الأحمر حيث تغدينا. ولما وصلنا الى الفندق ـ فندق أريحا وكان الوحيد يومها في البلدة ـ كنا مستعدين لعشاء كبير. وقد حصلنا عليه وقدم لنا في قاعة الطعام.

قضينا بعض الليل في الفندق كي نستمع الى بعض المعلومات عن المنطقة، ونغني ونتحدث، ثم ظل المقيمون في الفندق فيه، وخرجنا نحن الى حيث وزعنا للنوم. وقد قضيت بعض الليالي في دير الروم الارثوذكس وبعضها في دير الاقباط. وكان الرهبان يتحدثون إلينا كثيراً، لا لأنهم أرادوا أن يرفّهوا عنّا، ولكن لأنهم أرادوا أن يرفهوا عن أنفسهم (أن يتسلّوا).

قضينا اليوم الأول في أريحا - البلدة - وفي زيارة لعين السلطان، وهي موضع أريحا القديمة. أريحا التي يقول العهد القديم إن العبرانيين لما احتلوها هدموا بيوتها وقتلوا سكانها، أي أنهم قدّموها وأهلها قرباناً ليهوه باكورة لفتحهم فلسطين. ومع ان التنقيب التاريخي الاثري اثبت خطل هذه المعلومات، فان العقلية التي دونت مثل هذا الرأي هي عقلية شريرة مريضة.

لما زرنا أريحا القديمة في تلك الرحلة كان الموقع قد حفر فيه جماعة من صندوق التنقيب الأثري في فلسطين قبل سنة ١٩٠٠، وبعثة نمساوية المانية في سنة ١٩٠٧-١٩٠٨. لذلك فان الذي رأيناه كان ضئيلاً. وبهذه المناسبة فقد قام غارستانغ بأعمال حفر هناك في ١٩٣٠ وما بعدها، ثم قامت كاثلين كنيون بالعمل العظيم ١٩٥٢-١٩٥٨. وهي التي وضعت أريحا على الخارطة الأثرية الزراعية الحضارية مبينة ان ذلك بدأ حوالي ٩٠٠٠ق.م.

وكان من زياراتنا في أريحا - قبل عين السلطان - زيارة المدرسة هناك. غرفة واحدة معلم واحد - كان، كما قال، يقوم بجميع الأعمال المدرسية وما إليها. وبعد الزيارة أعلن أنه إكراماً لزيارتنا يعطي التلاميذ فرصة ذلك اليوم.

وبعد الظهر أفلتنا في بيارات أريحا. كانت أريحا - وظلت لمدة طويلة - تنتجُ أجودَ أنواع البرتقال طعماً ورائحة في المنطقة. لكنه لم يكن معروفاً إلا في أريحا والقدس وعمان، إلى درجة أقل. والسبب ان قشره رقيق جداً، فلم يكن يتحمل النقل مسافات بعيدة، وبوسائل التوضيب البدائية التي كانت معروفة يومها.

اليوم التالي خُصِّصَ للبحر الميت. مَشَيْنا بضعة كيلومترات، أخذنا الزوادة معنا، بما في ذلك بعض الماء للشُرب. وسبحنا في البحر الميت، والذين لم ينتبهوا ودخل ماؤه المالح (٢٧٪ أملاح) في أعينهم تضايقوا. وكانت المشكلة أن نحصل على ماء عذب لنغتسل بعد السباحة. جاء بضعة شباب يحملون تنكات الماء على حميرهم من مصبِّ الأردن في البحر الميت، لكن المبلغ الذي طلبوه كان كبيراً (٥ قروش لوعاء يسع ربع تنكة) بحيث أن أكثرنا لم يبتع ماء للاستحمام، وحملنا ملح البحر الميت على أجسامنا، ونحن عائدون مشياً الى أريحا، حتى وصلنا الفندق، وهناك استحممنا جميعاً.

أما أنا، فمع أنني كنت قد نفضت قصة عمود الملح الممثّل لامرأة لوط جانباً، فأنني كنت أنظر الى الصخور المحيطة بالغور معجباً بألوانها - الحمراء الصفراء السوداء اللامعة القاتمة. ولست أدري فيما إذا كنت فتّشت - من تحت لتحت - على شيء يشبه التمثال لا من الملح، ولكن من الصخر.

تجربة زيارة نهر الأردن كانت مختلفة طبعاً. مشينا نحو ثمانية كيلومترات حتى وصلنا كنيسة صغيرة تقوم في دير يقيم فيه بعض الرهبان. هناك، بحسب رواية العهد الجديد عُمِّدَ المسيح. عمّده يوحنا المعمدان، بعد أن كان قد قال، عن لسان يوحنا ان التعميد الذي يقوم به هو، بالماء، ولكن الذي سيأتي بعده، أي المسيح سيعمّد بالروح القدس. ولما كان يوحنا يصبُّ الماء على المسيح معمداً إياه، نزلت حمامة ممثلة الروح القدس، وجاء صوت من السماء «هذا هو ابني الحبيب، الذي به سررت» (متى ٣: ١٣-١٧). هذه هي الصورة التي كان يتصورها كل مسيحي يؤمن بحرفية الكلمة المقدسة عندما يصل الى ذلك المكان.

وزرنا بعد ذلك جسر اللنبي - وهو قريب من نقطة العمّاد - وكان يومها جسراً بسيطاً يقيم في نهايته الغربية بوليس فلسطيني، وفي نهايته الشرقية شرطي من شرقي الأردن. وكان هذا هو صلة الوصل بين القدس

وعمان.

والدير والجسر يقعان على بعد ثمانية كيلومترات عن مصب الاردن في البحر الميت. وفي طريق العودة، أُفلتنا مرة أخرى على بيارات البرتقال لنبتاع ما نحبُّ أن نأكل من الثمر الطيب.

واعطينا يوماً آخر زرنا فيه البلدة، وكانت أريحا يومها بالكاد تسمى بلدة. ذلك لأن الانتقال من القدس الى عمان، وبالعكس لم يكن يومها شيئاً كبيراً. فضلاً عن ذلك فليس في أريحا ما يحمل الناس العاديين على التوقف فيها. كانت أريحا مشتى لأغنياء القدس، الذين كانوا يملكون بساتين أو قطع أرض أو بيوتاً فيها.

وهؤلاء كانت لهم اجتماعاتهم وحلقاتهم وكان أكثرها من نوع التسلية التي قد تتخذ شكل لعب الورق (الشدة أو الكوتشينة) مساء، ولعب الطاولة نهاراً في المقاهي أو البيوت. وقد تصبح بعض البيوت مكاناً للمقامرة البريئة ليلاً. أقصد بالمقامرة البريئة تلك التي كانت تقوم بين الاصدقاء في البيوت للتسلية لا للربح.

ولم يكن لنا، بطبيعة الحال، مجال للمساهمة في أي من هذه الأشياء، سوى لعب الطاولة في المقاهي لمن يجيد اللعبة من الطلاب.

ثم كانت لنا زيارة لدير قرنطل (كارانتل)، أو جبل الاربعين. جبل الاربعين يبدأ الصعود اليه من عين السلطان. طريق جبلي للمشاة أو على الأصح للماعز. بعد صعود صعب، الى حد أن البعض منا تعب وعاد الى عين السلطان أو الى الفندق، وصلنا ـ حول الساعة العاشرة الى منتصف الجبل. هناك كان يقوم دير للطائفة الارثوذكسية. لكن الرهبان جميعهم كانوا من اليونان. ولهذا سبب. ذلك بأنه اعتباراً من سنة ١٥٣٤ إذ تولى البطريركية الاوروشليمية (المقدسيّة) جرمانوس وهو أول يوناني وصل الى هذه الرتبة، أصبحت المؤسسات على اختلاف انواعها، خاضعة لأخويّة القبر المقدس. والأخوية التي أنشأها، أو على الأقل نظّمها على هذا الشكل هذا البطريرك، أصبحت عضويتها «مقصورة» على اليونان، ولا يجوز للعرب ان ينضموا اليها. ومعنى هذا ان كل راهب، وكل كاهن أعزب، وكل ارشمندريت وكل مطران ومن ثم كل بطريرك، يجب ان يكون يونانياً. وحتى في مكان مثل دير قرنطل، أو دير مار سابا على مقربة من القدس، ما كنت ترى راهباً عربياً قط.

واسترحنا عند الرهبان قليلاً، ثم تابعنا السير الى قمة الجبل حيث عثرنا على كنيسة لم يتم بناؤها.

هناك، كما جاء في الانجيل (متى ٤ : ١ ـ ١١) قضى المسيح اربعين يوماً (ومن هنا جاءت التسمية جبل الاربعين ـ كارانتل ـ قرنطل) في صيام وتعبد، وفي نهايتها جاء الشيطان مجرباً، لكنه فشل.

من قمة جبل الاربعين يمكنك ان ترى الجزء الجنوبي من الغور الذي ينتهي في البحر الميت. واحة أريحا هي الجزء الوحيد الذي كانت تصله المياه يومها بقني طبيعية بسيطة، دون تخطيط. ولعل الذي رأيناه من هذه الناحية لم يكن يختلف عن الذي عرفته أريحا لآلاف من السنين خلت. فاذا مددت بصرك الى المناطق البعيدة عنها لا ترى إلا الجفاف. جانبا غور الاردن في جنوبه كانا، يومها، مجموعة من التلال الترابية الملحة، والماء في النهر لم يكن عميقاً. ذلك ان ثلوج جبل الشيخ وما جاوره لم تكن قد دبّت فيها الحرارة لتذوب وتتجه مياهها نحو ينابيع الأردن الشمالية.

من قمة جبل الاربعين كنت تُطلّ شرقاً على جبال الاردن الممتدة من مؤاب (منطقة مادبا وجبل نبو ـ الصياغة) عبر البلقاء الى جنوب جبال عجلون. ترتفع الجبال أمامك من أقدام الغور الى نحو ثمانمئة متر فوق سطح البحر؛ وقد تتجاوزها أحياناً.

البحر الميت يبدو سطحهُ هادئاً، كما كان الناس يقولون، كأنه الزيت؛ ويومها لم نر البحر الميت غاضباً. لكنني رأيته فيما بعد والموج يتلاطم فيه. والذي يمكن أن أقوله هو أن الماء لا يؤمَن جانبه ـ البحر الميت أو البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي.

نظرة الى الغرب. عندما ترى الجبال التي تقوم عليها مدينة القدس، وخاصة الكنائس التي تقوم على جبل الزيتون لكن المهم ان يكون الجو صحواً والهواء نقياً.

عدنا الى الفندق قبيل غروب الشمس لنستمتع بعشاء طيب لذيذ. وكل شيء كان يبدو - لي على الاقل - لذيذاً. فأنا كنت يومها قد بدأت أتكوّن. فضلاً عن أمور كثيرة - جوّابَ آفاق. وقد صرته، ولا أزال مستعداً للقيام بالأسفار.

عدنا الى القدس بالعربات، ولكننا هذه المرة كنا نصعد ٣٠٠ + ٧٥٠ = ١٠٥٠ متراً من أريحا الى القدس، فيما كنا في رحلة الذهاب نهبط هذه الأمتار بالذات!

زرت البحر الميت وأريحا عدداً كبيراً من المرات فيما بعد، واقمت في فنادقها الحديثة وزرت أماكن الحفريات، وقضيت أمسيّات في مطاعم أقيمت على شواطىء البحر الميت.

لكن زيارتي الأولى ظلت الزيارة الأولى. لما ذهبت الى جنين في عطلة الفصح، وهذه تقع عادة في فصل الربيع، سرت أمي بلقائي وسررت أنا بلقاء الأسرة ولم أذهب الى الناصرة. لكنني أدركت أن أمي تعاني صعوبة مالية. فقد باعت أكثر ما كانت قد ابتاعته قبلاً من الذهب. وكانت تفكر في بيع أشياء بيتية حملناها معنا من دمشق الى الناصرة وجاءت الآن الى جنين. ولم تكن بطبيعة الحال متحمّسة لذلك، لكن الضرورة فرضت عليها أن تعرضَ السجّادة العجميّة الجميلة الوحيدة التي بقيت عندنا. كانت أمي تحب هذه السجادة. ولم تفرط بها بسهولة. وقد تمت الصفقة في صيف سنة ١٩٢٢، أي لما عدتُ في عطلة الصيف. ابتاع السجادة الكابتن بَكِتْ من ضباط الجيش البريطاني التي كانت وحدة منه تقيم في جنين. ودفع ثمنها خمسة عشر جنيهاً مصرياً.

كانت أمي تفتش عن عمل. كانت دون الاربعين من سنّها؛ وليس بيدها صنعة سوى شغل الابرة. لكن شغل الابرة قد يكون عملاً ناجحاً في الناصرة. كانت عشرات العائلات في الناصرة تعيش منه. تعمل الأم أو الأخت الكبرى أو الاثنتان معاً فتحضر الأسرة الأعمال من قطع صغيرة توضع تحت الكأس الى ما هو أكبر فأكبر بحيث يوضع تحت صحن أو جاط أو حتى يصبح شرشفاً يغطي الطاولة، غير ما يصنع لتزيين الفساتين أو الثياب النسائية الداخلية. وهذه القطع كانت تبتاعها سيدات ينقلنها الى تجار العاديات والأشغال الخشبية في القدس. وهؤلاء كانوا يبيعونها للسياح والزوار.

لكنّ شغلَ الابرة في جنين لا ينفع. وأخيراً اقترح احد الاصدقاء على أمي أن تقدّم طلباً لادارة البوليس والسجون لعلها تحصل على عمل سجّانة.

أرسلت الرسائل الى مركزين حيفا ونابلس. نابلس كانت مركز اللواء الذي يقع قضاء جنين فيه، وحيفا كانت عاصمة اللواء الذي يضم قضاء الناصرة. وأذكر أنني كتبت أنا لها إحدى الرسائل قبل عودتي الى القدس لاستئناف الدراسة.

ونجحت أمي في الحصول على العمل. عينت سجّانة في حيفا، وكان ذلك في أوائل ربيع سنة ١٩٢٣. لذلك كانت عطلة الميلاد ١٩٢٢-١٩٢٣ هي آخر فرصة قضيتها في جنين.

بدا لي من رسائلها القليلة أن العمل لم يكن مرهقاً، وكانت تتقاضى راتباً معقولاً هو مرتّب بوليس أي ستة جنيهات في الشهر، يضاف الى ذلك علاوة العمل ليلاً، التي كانت تعادل نصف المرتب.

في نهاية عطلة صيف ١٩٢٢ قضيت، وأنا في الطريق من جنين الى القدس، بضعة أيام في نابلس. كان بعض أفراد أسرة خوري، التي كانت في جنين، قد عادوا الى بلدهم نابلس، وأخذوا يعدّون العدّة لفتح فندق في المدينة. وقد فتح فيما بعد وسمّوه فندق فلسطين الذي ظلّ حتى سنة ١٩٦٥ الفندق الوحيد في المدينة (وما أكثر

ما نزلت فيه بين ١٩٢٥ و١٩٦٥). وكان لي في نابلس أصدقاء من دار المعلمين.

هذه الزيارة عرّفتني بنابلس، المدينة التي كانت، الى سنة ١٩٢٧، تشغل وادياً يقع بين جبلي عيبال وجرزيم، مع قلّة من البيوت منتشرة على سفحي الجبلين أو في اتجاه رافيديا غرباً، واتجاه سلفيت جنوباً في شرق. مياه نابلس كانت غزيرة. وأهل نابلس يقلقلون «القافات»، وهم محافظون الى أقصى درجة المحافظة. كان تعليم الدين في مدارس البنات يقوم به الشيوخ، على أن تحضر الدرس معلمة الى جانب المدرس. وقد ظل هذا التقليد متّبعاً فترة طويلة.

وفي هذه الزيارة تعرّفت مباشرة على صناعة الصابون. ونابلس كانت أكثر مدن فلسطين إنتاجاً للصابون، هذا إذا لم نقل إنها كانت تحتكر هذه الصناعة. وكان صابونها أجود الأصناف. كان يومها الصنّاع (وأصحاب العمل من ورائهم) يستعملون زيت الزيتون الصافي (من الدرجة الثانية طبعاً) في صناعتهم. وكانوا يحرصون على الجودة. وفضلاً عن استهلاك فلسطين لصابون نابلس، فقد كانت له سوق كبيرة في مصر. وهذا أمر معروف منذ القرن السابع عشر.

وأكلتُ الكنافة النابلسيّة المشهورة، والجبنة النابلسية، التي كانت شهوة كل سيّدة للمونة. والكنافة، كما كانت العادة يومها، كانت تقدّمُ قبل وجبة الطعام مباشرة. فإذا أكل الناس الكنافة، قدمت ألوان الطعام المختلفة.

وفي نابلس زرنا حي السَّمَرة (السَّامريين). والسَّمرة هم البقية الباقية من المزيج الذي حدث في القرن الثامن قبل الميلاد وبعد ذلك، لما نقل الاشوريون عدداً من سكان المملكة الشمالية في فلسطين، وأسكنوا مكانهم جماعات حملت من أشور ومناطق سورية. فكان لهؤلاء عندها دين يتفق مع بعض ما آلت اليه اليهودية فيما بعد ويختلف عنها. ومن نقط الخلاف الأساسية ان السَّمرة كانوا يرون أن الجبل المقدس هو جبل جرزيم (جنوبي نابلس) وليس جبل الزيتون (شرقي القدس)؛ وان الهيكل المقدس للاله، يهوه وخلفائه، هو الهيكل المبني على جرزيم، وليس الهيكل المبني - زعماً؟ - في القدس. وللسَّمرة توراتهم الخاصة بهم.

وعرفت يومها - وزادت معرفتي فيما بعد - أن السمرة كانوا يقيمون في مناطق مختلفة من فلسطين. لكن يوم زرت نابلس، كان السمرة في نابلس هم ما تبقى من هذه الجماعة، وكان عددهم قلما يتجاوز المئتين. وقد رأيت يومها بينهم الكثير من المصابين بعاهات جثمانية ناشئة عن التزاوج الداخلي فيما بينهم. وقد زرت رئيسهم الروحي الكاهن صدقة.

كان السمرة يعيشون في نابلس في حيّهم، لكنهم لم يكونوا في غيتو. لقد كان منهم تجار - تجار أقمشة مثلاً، وكانت حوانيتهم في السوق الى جانب التجار الآخرين.

ان نابلس ظلت محشورة في الوادي على النحو الذي ذكرت الى سنة ١٩٢٧. ففي الساعة الثالثة والربع من بعد ظهر يوم الاثنين في ١١ تموز / يوليو سنة ١٩٢٧، ضربت فلسطين زَلزلةٌ عنيفة. وقد اخترق خطُّها مدينة نابلس، فأصيبت بيوتها وتشرّد سكانها يومها. وكانت النتيجة أن خرجت نابلس من الوادي وانتشرت غرباً وعلى سفحي الجبلين، فاتسّعت رئتاها، واشتدّ نبض قلبها، وأحسّت بالحياة من جديد. لكن مركز الحركة التجارية ظل في ساحة البلدة - دار الحكومة، البلدية، الاسواق مصانع الصابون الرئيسية، مركز تجمع السيارات للسفر - الى القدس، الى جنين والناصرة، الى عمان، الى طولكرم ويافا.

كانت مدينة نابلس محافظة الى درجة كبيرة. فالسيدة النابلسية الأصل التي كانت تقيم في القدس مثلاً وكانت تسفر هناك، كان من المألوف أن تفتح الشنطة الصغيرة وهي في السيارة عندما تقترب هذه من نابلس وتخرج المنديل وتضعه على وجهها. هذا الذي أذكره شاهدته مرات كثيرة، وكانت آخر مرة في أواسط

الاربعينات. فقد كنّا أنا وزوجتي ذاهبين الى نابلس ضيفين على الزوجين المرافقين لنا في السيارة. فتناولت السيدة منديلها وربطته بحيث يمكن ارخاؤه على وجهها عندما نصل الى المدينة ونجتاز الشوارع والطرق. ولما ابتسمت أنا قالت «هادي نابلس».

وكم تغيّرت الأمور بعد ذلك ببضع سنوات. كانت الجامعة الاميركية في بيروت قد منحت امتيازات لبعض المدارس كي يدخل متخرجوها الجامعة بدون امتحان. وكانت الجامعة تشترط على هذه المدارس أموراً اكاديمية خاصة من حيث عدد المدرسين الذين يحملون شهادات جامعية، ومن حيث المختبرات والمكتبة وعدد الطلاب في الصفوف. وكانت تختار الجامعة من أعضاء هيئة التدريس فيها لجاناً لزيارة هذه المدارس والاطلاع على أحوالها (هذا الترتيب الغي نهائياً في مطلع الستينات).

كنت كثيراً ما أختار لعضوية هذه اللجان. وفي سنة ١٩٥٥ كنت عضواً في لجنة كان فيها أيضاً الدكتور جان مرهج لعلوم الحياة والفيزياء والدكتور أنيس فريحة للغة العربية وآدابها والاستاذ عزيز صايغ للرياضيات ومدير التسجيل، الأستاذ فريد فليحان. وقد اصطحب الدكتور فريحة زوجته نلي في تلك الرحلة. أنيس فريحة كان، إبان طلبه العلم في الجامعة الاميركية زميلاً للمرحوم الشاعر ابراهيم عبدالفتاح طوقان وقد قامت بينهما صداقة متينة.

وكان بين المعاهد التي يتوجب علينا زيارتها كلية النجاح (جامعة النجاح اليوم) في نابلس، التي كان يرئسها المرحوم الاستاذ قدري طوقان. بعد زيارة المدرسة ذهبنا الى بيت قدري لتناول طعام الغداء الفخم الضخم (دوماً) والمتوّج بالكنافة النابلسية المشهورة. وحضرت الغداء معنا سامية زوجة المرحوم ابراهيم (وسامية ابنة قاسم عبدالهادي، الزعيم الجليل في جنين، وكان أخوها جمال صديقي وزميلي في مدرسة جنين). وبعيد الغداء قال أنيس فريحة لسامية ان زوجته تحب ان ترى ابنتها عريب. وعرفنا ان عريب في المدرسة وارتأت سامية أن نمر بالمدرسة حول الثالثة والنصف فنرى عريب.

التفت أنا الى أنيس وقلت له «نحن في نابلس يا أنيس، لذلك عندما نصل الى المدرسة، وهي مدرسة بنات، نظل نحن في الخارج وتدخل هي للزيارة». فالتفتت الي سامية (وقد كانت في وقت من الأوقات زميلة لزوجتي مرغريت في التعليم، وكانت بينهما صداقة) وقالت: «ان الدنيا تغيرت يا ابو رائد (وهذا هو اسم ابني الأكبر، اما الثاني فاسمه باسم)».

ولم أعلّقْ على الذي قالته كبير أهمية، حتى وصلنا المدرسة، فاذا بالمديرة تخرج الى الباب وتدعونا جميعاً الى الدخول الى المدرسة. ودخلنا قاعة - هي غرفة المعلمات - وإذا بها قد أعِدّت بحيث اقيمت لنا حفلة شاي، حضرتها المعلمات جميعهن (نحو ١٤ مدرسة) باستثناء واحدة اعتذرت.

وبعد الشاي والحديث اخذتنا المديرة لزيارة بعض الصفوف، وكانت بنات الصف الابتدائي النهائي (أي السابع) عندهن صف رياضة، وكن يلبسن شورت الرياضة. كانت سامية معنا فالتفتت اليّ وقالت: «ألم أقل لك ان الدنيا تغيّرت».

عرفت بعد وصولي الى دار المعلمين في القدس بمدة، انه من المحتمل ان تنجح أمي في الحصول على العمل، وقد أبلغت قبيل نهاية السنة عن تعيينها اعتباراً من آذار / مارس (١٩٢٣).

وكان معنى هذا أن تذهب الى حيفا وتفتش عن مسكن للأسرة. ويبدو أن هذا قد تم بشيء من السهولة لأن السجّانة التي أخذت أمي مكانها كانت قد أحيلت على المعاش وتَركَت المدينة، فاستأجرت أمي المنزل موقتاً. ومن هنا كانت عطلة عيد الميلاد ١٩٢٢-١٩٢٣ آخر عطلة قضيتها في جنين. إذ اننا في فرصة عيد الفصح الربيعية كنا

في حيفا، وقضيت بضعة أيام منها في الناصرة عند جدي.

على ان شيئاً جديداً حدث في أسرتنا الصغيرة. اثناء وجودي في دار المعلمين في أول سنة. زرتُ مدرسة شنلّر (دار الايتام السورية) التي كان أبي وعمي رشيد تلميذين فيها. وتعرّفت على مديرها هرمن شنلر وهو ابن مؤسسها. كانت المدرسة قد وضعت بعيد الاحتلال البريطاني تحت ادارة رجل اميركي اسمه مستر آش. ومنع تعليم الالمانية فيها بالمرة (ومثل ذلك حدث لمدرسة شميت للبنات، وهي المدرسة التي تخرجت منها زوجتي مرغريت). وأظن أن آش هذا كان يقوم بعمله بالنيابة عن واحدة من المؤسسات التي جاءت المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى لمساعدة أهل البلاد!

في السنة الثانية لي في دار المعلمين (١٩٢٢-١٩٢٣) انضم الى الطلاب ابراهيم مطر وعيسى عطاالله، وهذان كانا من طلاب شنلّر أصلاً. كانا يزوران مدرستهما وبحكم صداقتي لهما كنت أذهب معهما أحياناً. وفي أحد الأيام ذهبت وطلبت مقابلة الرئيس شنلّر. ذلك أن الادارة البريطانية أعادت المدرسة للمؤسسة التي انشأتها، وجاء هرمن شنلر رئيساً للمدرسة. لكن تعليم الألمانية ظل ممنوعاً.

شرحت له وضعنا بالتفصيل ورجوته أن يقبل أخي الفرد في المدرسة كي يخفف عن أمي العبء الثقيل الجاثم على كتفها. وبعد أيام بعث إليّ أن أذهب لمقابلته، وأخبرني أنه قرر قبول أخي في المدرسة حفظاً على العلاقة التي بدأت مع أبي وعمي. وجاء ألفرد الى القدس، وأخذته أنا الى مدرسة شنلر.

كان الفرد في البيت مدلّعاً فيما يتعلق بالأكل. فقد يرفض الأكل الموجود في البيت ويأخذ قرشاً يبتاع به جبنة من الدكان، مع أن مونة الجبنة موجودة في البيت، ويأكل ذلك متلذّذاً. وقد حسبت ان الفرد سيلقى صعوبة ليس بالنسبة للأكل فقط، ولكن بالنسبة للعمل في الحقل. فقد كانت أحوال المدرسة المالية مضطربة، بعد الاهمال الذي أصاب املاكها المختلفة خلال سني الحرب والسنوات التي تلتها. لذلك كان الطلاب يعملون في الحقل، وكانت التلميذات يقمن بجميع الأعمال المنزلية. هذا فضلاً عن الدروس التي كان على الجميع حضورها.

بعد ان دخل الفرد المدرسة ذهبت لزيارته (في يوم أحد) وبعد الصلاة (إذ أن هذا كان وقت الزيارة) سألته عن حاله فقال الأكل لا يُؤكل لأنه رديء. كنت قد حملت له معي علبة بسكوت صغيرة، فلما رآها انفرجت أساريره عن ابتسامة شكر عميق.

بعد اسبوع أو اثنين ذهبت لزيارته، لكن هذه المرة لم أحمل معي بسكوتاً، بل أخذت نحو أوقيتين من القُطّين (التين الناشف أو اليابس). وقلت له تعرف يا الفرد أن مصروفي الذي تبعث به أمي لي لا يمكّنني من شراء بسكوت ولا الحصول على القطين كل مرة. لذلك يجب ان تعتاد على أكل المدرسة. وكان أخي على ما يبدو قد جاع، لذلك وجد أنه لا بدّ له من أن يأكل الموجود.

في الزيارة الثالثة طمأنني الى أنه يأكل ما يقدّم في المدرسة مهما كان، لكن الكمية كانت قليلة، بالنسبة الى العمل الذي يقومون به. كان الفرد يومها قد دخل السنة العاشرة من عمره. فحاولت أن أطمئنه الى أن الأمور ستسير الى أفضل. والمهم أنني في زيارة لاحقة وجدت الفرد مسروراً جداً. أخبرني أن العريف في فرقته قد اختاره مساعداً له، وأنه لقاء هذه المساعدة يحصَل على «شوية أكل زيادة».

في مطلع السنة الثالثة والأخيرة لي في دار المعلمين طلبت من الرئيس شنلر ان يقبل أختي (ماري) أيضاً في المدرسة. وقد قبل بسبب نشاط ألفرد وحسن سلوكه. لكن أختي لم تَنْسَجِم مع الطالبات في المدرسة وكانت دائمة الاشتياق لأمها والبكاء على غربتها. ولم ينفع وجودُ أخيها الفرد في تخفيف حالتها، فأخرجناها، وذهبت الى حيفا. فكانت أمي تعنى بماري وجورج.

قضينا عطلة الصيف (١٩٢٣) في حيفا. لكن حيفا كانت شديدة الحرارة والرطوبة. فهي من هذه الناحية مثل

بيروت. جبل الكَرمل يمنع الرياح البحرية من الاتجاه شرقاً، كما يفعل جبل لبنان بالنسبة لبيروت. لذلك كانت الرطوبة كثيفة هناك مثلها هنا. ومن ثم صرفنا القسم الأكبر من العطلة - انا واختي - في الناصرة. اصحابي هناك، وصديقات أختي هناك، ولا نعرف أحداً في حيفا.

على كل لم تَطُلْ إقامة أمي في حيفا. فقد نُقِلَت بعد اقلّ من سنة الى نابلس؛ ظلت في المصلحة نفسها، لكنها رقيت وزاد مرتبها.

في نابلس تعرفت أمي الى يوناني شبه عجوز اسمه خرلمبوس كان يعمل خَرَمَنْجياً في شركة للدخان والسجاير هناك. وتزوجته. كان الزواج زواج مصلحة وراحة بالنسبة لهما. أذكر أن أمي جاءت الى القدس بعد انتقالها الى نابلس بنحو شهرين، وزارتني في دارا لمعلمين وقالت لي عن الخطوة الجديدة التي تعتزم اتخاذها. ولم نطلْ الحديث حول الموضوع وكلُّ ما قلته لها بعد أن وصفت لي الرجل وعمله وما الى ذلك. «يا أمي انت بتعرفي شو المناسب، فاعمليه». فكان أن حضنتني وقبلّتني كثيراً.

لم أذهب الى حيفا في عطلة عيد الفصح، فقد اكتفيت بعيد الميلاد، ولذلك قضيت القسم الأكبر من العطلة في القدس لأنني قررت أن أحضر جميع احتفالات عيد الفصح في اسبوع الآلام: غسلُ الأرجل يوم الخميس وصلبُ المسيح يوم الجمعة وخروج النور يوم السبت وقيامة المسيح يوم الأحد. وقد رتّبت أن أقضيَ هذه الأيام في دير الروم الارثوذكس في رعاية الارشمندريت اغناطيوس، ترجمان البطريركية.

تعود معرفتي بأغناطيوس الى تموز / يوليو ١٩٢١ لما ذهبت الى القدس لتقديم امتحان الدخول لدار المعلمين. قيل لي وقتها في جنين وفي الناصرة أن دير الروم يقدم اماكن للنوم لابناء الطائفة الذين يؤمّون القدس لحاجات معينة إذا كانوا لا يستطيعون النزول في الفنادق. ومع أن أمي حسبت في المبلغ الذي أعطتني اياه (١٤٧ قرشاً) احتمال حاجتي الى فندق، فقد ذهبت من محطة القطار الى الدير رأساً. وقيل لي ساعتها، في مكتب الاستعلامات القائم عند البوابة، إنه يجب أن اقابل الارشمندريت اغناطيوس. كان في مكتبه، ولقيني بكثير من البشر، ولما عرف أنني من الناصرة سألني إن كنت قد سمعت باسم المتروبوليت ايليا ديب. وهو خالي. فلما عرف ذلك زاد اهتمامه لأن خالي كان يعلمه في دير المصلبة - غربي القدس - إذ كان الدير يحوي على مدرسة لاهوتية لأخوية القبر المقدس. واعطاني غرفة جيدة.

وكنت أزور أغناطيوس وأتحدث اليه. وفي ربيع ١٩٢٢، لما عدتُ الى القدس، أعطتني أمي صينية «تضييف» فضة كبيرة كي أبيعها، إذ لا يمكن بيعها في جنين. وقد قدّر ثمنها بمبلغ يتراوح بين خمسة جنيهات وسبعة جنيهات. وخشية أن تضيع ذهبت حالَ وصولي الى اغناطيوس ووضعتها عنده أمانة. ولك لما عُدْتُ بعد اسبوعين أو ثلاثة أسابيع لآخذها لم يجدها في غرفته، وقال لا بد أنها سرقت. وهكذا طارت الصينية.

وهذه القصة تذكرني بحادثة كانت قد جرت معي في دمشق بعد وفاة أبي. قلت إن أمي أخذت تبيع بعض الأشياء لنعيش حتى يفرجها الله. وفي أحد الأيام أعطتني أمي طقماً كاملاً من شوك وسكاكين وملاعق فضة (١٢ من كل نوع) لأحملها الى صاحب دكان كي يبيعها لنا. وفي الطريق لقيني رجل (كنت يومها في الثامنة من عمري) وسألني عن الذي أحمله فأخبرته. فعرض أن يشتريها هو وسألني عن الثمن. ولما قلت إنني لا أعرف طلب مني أن أذهب وأسأل أمي، وعرض أن يحمل الأغراض وينتظرني. وذهبت، وسألت أمي، ولما رجعت لم أجد الرجل، ولا وقعت له على أثر.

وهكذا لحقت صينية التضييف على يد أغناطيوس في القدس الطقم الذي ضاع مني في دمشق.

وهنا أودّ أن أذكر قصة جرت مع البطريرك غريغوريوس حداد - بطريرك انطاكية وسائر المشرق لطائفة الروم الارثوذكس (١٩٠٦-١٩٢٨). خالي المطران كان تابعاً لبطريركيته. ولما عرفنا بوفاة والدي، وأخرجت أمي

جميع الثروة التي كانت معها من بيت الفَرْشَة، وهي ليرة عثمانية ذهب واحدة، كان لا بد لهذه الليرة أن ينتهي مفعولها.

كنا ننتظر مجيء خالي من الناصرة، لكنه تأخر بسبب الاجراءات الرسمية للحصول على إذن بوصفه موظفاً في الدولة (سكة حديد الحجاز) وصعوبة السفر لان القطار - وهو سبيل السفر الوحيد من العفولة (محطة الناصرة) الى درعا ودمشق - كان يُشْغَلُ بنقل الجنود والمعدات والأرزاق. لذلك قررت والدتي في أحد الأيام أنه لا بد من اللجوء الى البطريرك. ولما كانت هي مريضة بالتيفوس، الذي أخذته من المستشفيات وهي تفتّش عن أبي المريض، طلبت مني أن أذهب أنا.

لبست ثياب الشتاء - فشتاء دمشق قارس - وفوقها كبوت (بالطو) وذهبت الى البطريركية. لم يكن الطريق اليها غريباً عليّ ولا مداخلها مجهولة. فلما وصلت واقتربت من مكتب البطريرك اعترضني أحدهم فقلت إنني أود مقابلة غبطة البطريرك. وبطبيعة الحال ضحك الموجودون ولعلهم همّوا بطردي، لولا أنني استجمعت كل شجاعتي ونشاطي وقلت لهم قولوا لغبطته (وكنت أعرف هذه الكلمات يومها): «ان ابن أخت المطران ايليا ديب يرغب في مقابلته». وكان لخالي اسم كبير في البطريركية فهو عالم باللغتين العربية واليونانية وخطيب مفوه وأديب وشاعر.

عندها دخل أحدهم وعاد الي واستدعاني للدخول، ولما رآني في مكتبه، ومعه مجموعة من الرجال وقف واحتضنني وقبلني. عرضت له القضية باختصار فقام الى درج في مكتبه وأخرج منه خمس عشرة ليرة عثمانية ورقاً ووضعها في ظرف، ثم اقترب مني وفك أزرار الكبوت (البالطو) ووضع الظرف في جيبي الداخلي وجاء بدبوس «بكله» وغرزه في الجيبة، وبكّل البالطو. وقال لي: «سلم على أمك، وارجع ثانية عندما تحتاجون».

المبلغ الذي أعطاني إياه كان زهيداً. لكن غريغوريوس حداد كان قد فتح جميع مخازن الدير وطبخ بالخلقينات الكبيرة وخبز بقدر ما يمكنه ووزع على من كان يأتي الدير جائعاً الطعام والخبز، ولم يُفَرِّق بين الناس لا حيّاً ولا طائفةً ولا مذهباً ولا عرقاً. هذا كان تصرفه أيام الحرب العالمية الأولى.

لذلك فان هذا المبلغ الزهيد مع الاصرار على العودة ثانية كان مساعدة كبيرة. ولم أرجع الى غبطته لطلب المزيد من المساعدة، فقد جاء خالي، ومع أننا لم نستطع العودة معه الى الناصرة بسبب البرد ومرض أمي، فقد ترك لنا من النقود ما كان كافياً إلى أن حان وقت سفرنا، وكان ذلك برفقة خالتي صوفيا - في ربيع ١٩١٦.

ولنعد الآن الى نابلس حيث استقرت أمي مع زوجها وأختي وأخي جورج. وهكذا فانني لما انتهيت من دار المعلمين (تموز / يوليو ١٩٢٤) ذهبت الى نابلس. لكن اقامتي لم تطل هناك. بضعة أيام كانت كافية لتفرح أمي بي، وان تتأكد، دون أن تسألني، انني لا زلت أحافظ على ما أوصتني به قبل تركي جنين للذهاب الى دار المعلمين في ايلول / سبتمبر ١٩٢١. كنا عائدين مساءً من زيارة أصدقاء لا يبعد بيتهم كثيراً عن بيت أم عمر؛ وفجأة التفتت نحوي وقالت لي: «نقولا عندي لك وصية أحبّ أن تحافظ عليها. سيكون في المدرسة عدد من التلاميذ الذين يشربون سيكارة (هذا هو التعبير عن التدخين الذي كان سائداً يومها). أنت حر في أن تشرب سيكارة. لكن ليس من المبالغ القليلة التي أحصّلها أنا كي نعيش وكي أبعث اليك بمصروف. متى خرجت من المدرسة وحصلت مصاريك (فلوسك) افعل ما تشاء».

هذا الحديث المقتضب كانت نتيجته انني لما بدأت التدخين - وبدأت بالغليون رأساً - كنت قد بلغت الحادية والثلاثين من سني. ولذلك قصة، تأتي في محلها.

لما انتهت حفلة توزيع الشهادات على متخرجي سنة ١٩٢٤ في دار المعلمين، وأنا منهم، قضينا ساعات نبربر

في غرف المدرسة وقاعاتها التي ضمتنا ثلاث سنوات؛ وفي صباح اليوم التالي (٣ تموز / يوليو) خرجنا في وقت مبكر ومعنا جميع أمتعتنا هذه المرة، بما في ذلك عدد من الكتب كنت قد جمعتها خلال هذه المدة، وذهبنا في عربات استأجرناها مشاركة، الى محطة سكة الحديد في القدس. ذلك بأن اولئك الذين يقصدون غزة ويافا واللّد والرملة وحيفا والناصرة كان الانسب لهم أن يذهبوا بالقطار الى اللّد، وعندها يغيّر الغزّيون والحيفاويون والناصريون القُطرَ حسبَ اللزوم، ويبقى اليافيون في القطار المتجه نحوها. ومع ان الأمر المألوف بالنسبة لمن يريد ان يذهب الى نابلس أن يذهب بالسيارة فقد ذهبت أنا بالقطار. فغيّرت في اللّد الى القطار المتجه الى حيفا وفي طولكرم أخذت القطار المتجه الى نابلس. وكانت أمي وأختي وأخي وبعض الأصدقاء والجيران ينتظرونني ليباركوا لي. وقد تم هذا في وقت قصير.

بعد بضعة أيام تركت نابلس لأقضي عطلة الصيف، أو بعضاً منها على الأقل في الناصرة: هناك جدي - الذي كان يعيش وحده لأن زوجته كانت قد توفيت قبل ذلك ببضعة أشهر؛ وهناك أصدقائي. فنابلس لم يكن لي فيها من الاصدقاء ما يغري بالبقاء. وقد جاء في الواقع ثلاثة من الذين تخرّجوا قبلي من دار المعلمين ليباركوا لي على زعمهم، ولما غادروا المنزل تركوا لي على الطاولة ورقة يقولون لي فيها ان ما لم يحققوه معي في دار المعلمين سينجحون في عمله بي في نابلس. لذلك غادرت نابلس صبيحة اليوم التالي.

العطلة الصيفية في سنة ١٩٢٤ كانت محطة هامة في حياتي. حتى ذلك الوقت كان التفكير في تحصيل القوت مشكلة بالنسبة لي. كان هذا، فيما أدري، امراً ماثلاً أمامي. لم اتشكَّ منه أمام أحد من الأقارب أو الأصحاب. كنت دوماً احتفظ بذلك لنفسي. لكن أمي كانت تعرف مدى قلقي من هذا الوضع. وعندما كنت أتذكر تلك الأيام فيما بعد، ولو لمدة قصيرة أو للحظة عابرة، كان يُعاودني دوماً، كما كنت أحس وأنا في الناصرة وجنين وفي دار المعلمين شعور بالحيرة بسبب هذا الوضع.

وعناصر هذه الحيرة كانت متشابكة، ولم أتمكّن من فصل خيوطها يومها ولم أتمكن بعد ذلك، وأحسب أنني، إذا كنت مخلصاً وصادقاً مع نفسي، يجب أن أقول إنني لم أستطع فصل هذه الخيوط حتى اليوم.

والعنصر الأول في حيرتي كان فقد والدي. الموت امر واقع، لا يمكن دفعه، ولكنني كنت أحس بفقد الأب عندما كنت أسمع الأولاد من جيلي ينادون «يابا» ويا «أبي» ويا «بابا». كنت أحس أنني حرمت حقاً طبيعياً كان يجب أن أتمتع به بعض الوقت كما كان أصحابي في المدرسة في جنين يتمتعون بذلك. فنظمي وجمال ورشيد وحلمي والياس ويوسف وخليل وعبدالرحمن وغيرهم وغيرهم ممن أنسيت اسماءهم، كان لهم آباء. صحيح ان نمر الصالح (في الناصرة) ومحمد شلبك (في جنين) كانوا قد فقدوا آباءهم، لكن نمر ومحمد كانا شابين. أنا كنت في الثامنة لما فقدت أبي، وأختي وأخواي كانوا أصغر مني. لماذا، كان يخطر ببالي، بعد أن رأيته في أعلى درج المستشفى الفرنسي (المصادر)، وبعد أن قال لي «سلّم على أمك وقل لها أنا آت الى البيت بعد يومين أو ثلاثة». بعد هذا نفتقده ونبحث عنه لنعلم أنه مات، ودُفِنَ - على ذمة الجندي المسؤول - في مقبرة مارجريس لأنه كان «خريستيان»؟

وكانت الآلام التي تعصرني عندما أفكر بهذا الأمر يرتبط بها اننا بوفاة أبي فقدنا «العائل» لعائلة مكونة من خمسة أشخاص، كبيرهم انا. والقت وفاة أبي على كتف أمي هذا العبء الثقيل - تربية أسرة، وهي امرأة لم تُعَدّ للقيام بمثل هذه المهمة، وحتى لو كانت معدّة فأيام الحرب الأولى والسنوات التي تلتها لم تكن الوقت المناسب لتتحمّلَ امرأة تربية عائلة وتنشئتها. لقد قامت أمي بذلك خير قيام، لكن هذا لا يعني أنها لم تتألم لذلك. أما أنا فقد كنت أتحرّق ألماً.

وكأن فقد أبي لم يكن فيه ما يكفيني من حيث حيرتي في هذا التصرف الذي يُلقى عادة غيبياً على الله، فقد ماتت خالتي صوفيا، وقتل خالي سامي. وقد كانا وعدا أمي بمساعدتها، ونفذ خالي وعده لما أخذني لأقيم معه في طولكرم، وأدخلني المدرسة هناك. فتكت الكوليرا بخالتي كما أودت القنبلة (القديمة) بخالي. فالعبء الذي كان قد خُطِّطَ له ليكون أخف على أمي، عاد الى ثقله بكامله. لماذا يحدث هذا؟ أليس هناك ما يحيّر ولداً مثلي؟ وقد ظلت الحيرة حول هذه النقطة بالذات تلازمني. وكم كنت أودّ لو أن أحداً استطاع ان يخرجني من حيرتي في هذه القضية.

ومع ان رفض تعييني في التلفون أو البريد في جنين كان له أساس منطقي، فقد دخل هذا الرفض ايضاً دائرة الحيرة بالنسبة لي. لماذا لا تتاح لي الفرصة لأساعد أمي في مشكلتها؟ صحيح ان هذه المسألة بالذات لم تكن في بؤرة الحيرة، بل كانت هامشية لكنها كانت تضغط بعض الشيء عند الأطراف. ولكن ضغطها بدأ يخف بعد ان دخلت دار المعلمين، وأصبح أمامي هدف الحصول على الشهادة لأن معناها عمل مضمون وبمعاش مقطوع.

كانت الاسابيع التي قضيتها في الناصرة تساعدني على ذلك. فانا لم أرجع الى نابلس ذلك الصيف. كان بيت جدي مكوناً من طابقين. كان يقيم هو وزوجته في الطابق الارضي، أي الطابق المبني على الصخر. كان في هذا الطابق غرفة كبيرة هي عقد متقاطع، تتصل بغرفة معقودة ايضاً أصغر منها. وهذه كانت تتصل بما يمكن ان يسمى مغارة موسعة وقد صقلت جدرانها وبلطت أرضها (مثل الغرفتين الاخريين). هذه كانت مطبخ ستي الشتوي. لأن المطبخ الصيفي كان في الخارج على الصخرة المصقولة التي كانت جزءاً من الأرض المبني البيت عليها. اتجاه هذه الغرف الثلاث (أو الغرفتين والمغارة) كان من الشمال الى الجنوب. وكانت ثمة غرفة كبيرة مسطّحة السّقف تكون مع البناء السابق زاوية قائمة في الشمال.

كانت حياة جدي وزوجته، بعد أن خرجت البنات الى مساكن الأزواج وانتقل خالي وخالتي الى الدار الأخرى، بسيطة. كان العقد الكبير فيه سريران ودَوْشَك (ديوان) وفراش على الأرض المغطاة بسجادتين وبساط قرب الباب. وكان يقوم على يمين الداخل الى هذه الغرفة الواسعة صندوق ثياب خشبي ضخم مزخرف هو صندوق عرس أمي. وقد حملته معها من دمشق. كانت الثياب (ثياب أمي، ثم ثياب غيرها) تُوضَع فيه. فاذا احتاج المرء - والمرأة هي التي كانت تحتاج عادة - ثوباً معيناً، قد يُضطر الى اخراج قطع مختلفة من الصندوق قبل الوصول الى غايته. وكانت اكثر الثياب الداخلية والقريبة من ذلك توضع فيه. اما الخزانة فكانت، بالنسبة لجدي وجدتي وأمي، لتعليق الفساتين والقنابيز والجاكيتات، وليس معنى هذا أن هذه جميعها كانت متعددة وكثيرة. الأيام التي أتحدث عنها تمت الى سنة ١٩٢٤ أو قبلها، اي أيام الحرب العالمية الأولى وما تلاها.

اما في الجانب الأيسر، بالنسبة للداخل الى الغرفة الكبيرة، فكانت تقوم كوّارات (اكوار) تخزن فيها الحبوب وهي أوعية مبنية بالجدران ترتفع متراً وبعض المتر، مربعة في تخطيطها، ولها فتحة في أسفلها. وفي الأيام التي أذكرها كانت هذه تستعمل لخزن القمح والعدس والفول والحمص. ومن المهم أن يلاحظ أن الحبوب المكسّرة أو المجروشة (مثل البرغل أو العدس المجروش) لم تكن تخزن في هذه الكوّارات، بل كانت توضع في «خوابي» خاصة بها. ومثل ذلك كان للزيت والزيتون واللبنة والجبنة. وهذه كانت تُحفَظُ في الغرفة الصغيرة الملاصقة للغرفة الكبيرة، وكان ثمة باب يصل بين الغرفتين، كما كان المطبخ يتصل بالغرفة الصغيرة عبر باب صغير. وبذلك كان الانتقال من الغرفة الكبيرة الى المطبخ خاصة أيام الشتاء سهلاً ويسيراً. ومع أن الزوار كانوا يستقبلون في الغرفة الكبيرة، فالغرفة الصغيرة كان يجلس فيها جدي مع أصدقائه وأقاربه، وكانوا قلة لأنه عمّر طويلاً، عندما يريدون أن يلعبوا دق شدّة (ورق) أو أن يتناولوا كأساً من العرق مع مازته. والعرق، كان في تلك الأيام، الشراب الوحيد الذي يتعاطاه عامة «الشريبة» في فلسطين ولبنان؛ أما الخمر / النبيذ فكانت زجاجاته

تزيّن موائد المتفرنجين والأغنياء والاديرة.

والغرفة ذاتُ السقّف المسطح كانت واسعة. وكان فيها تخت لمن يريد أن ينام هناك، وهذه كانت غرفتي أيام زياراتي لبيت جدي؛ أما بقيتها فكانت تتسع لمئة صنف وصنف. والصّنف الذي كان يهمني من هذه جميعها هو مكتبة خالتي منيرفا التي تركتها في الناصرة. فقد كانت مصدر زاد فكري لي. كان يعلو البناء الأرضي ثلاث غرف جميعها معقودة. وكان يتبعها، على سطح جزء من الغرفة السفلية المسطحة السقف، غرفة كان الناس يسمونها المطبخ. وكانت تصلح للطبخ والغسيل والاستحمام. هذه الغرف كان جدي يؤجرها عادة فيفيد من ايجارها.

كان لبيت جدي بئران لجمع مياه المطر. الواحدة كانت مرتفعة فتحول اليها مياه المطر التي تأتي من السطح الأعلى، وهذه كانت للشرب والطبخ بالنسبة لجميع المقيمين في الدار - ملاكاً أو مستأجرين. والبئر الثانية كانت تقع الى جانب الغرفة المسطحة السقف، ولعلها كانت أكبر. هذه كانت تحول اليها مياه الأمطار من السطح الأدنى. وماء هذه البئر كان يستعمل للغسيل والحمام. كانت البئر العالية تنظف مرة كل سنة قبيل بدء الامطار بالسقوط، أما البئر الثانية فكانت تغسل مرة كل سنتين أو حتى كل ثلاث سنوات.

في صيفية سنة ١٩٢٤ لم يكن يسكن البيت أحد من المستأجرين، ولأن الطابق الأعلى أشرح وأبرد، نسبياً، من الطابق الأرضي، وكانت جدتي قد توفيت، رأى جدي أن ننعم بالنوم فوق. فاستقل كل منا بغرفة، نصعد اليها مساء؛ أما الطبخ (وكنت أقوم وقتها بقسط منه) والأكل وما الى ذلك فقد كان يتم تحت. الشيء الوحيد الذي كان يستثنى هو جلسة الشدّة أو الكأس التي كانت تتم فوق. فالغرفة أشرح وأنسب.

وكان الناس ينامون مبكرين. إذ ما الذي يحملهم على السهر، لا راديو ولا تلفزيون (الحمد لله)، وكل ما هناك من وسائل الترفيه، أن يكون عند الأسرة فونوغراف من النوع الذي له بوق واسع، وأكثره انتشاراً (على قلّته) كان من نوع هز ماسترز فويس (His Master’s Voice) ولم يكن عندنا شيء من ذلك.

كانت، بالنسبة لي، النزهة الرئيسية هي المشوار على طريق العربات الى جهة النمساوي. طريق العربات كان هو الطريق الوحيد الذي يجتاز الناصرة من جنوبها الى شمالها، لكن دون أن يعبرها في الداخل. وكان الطريق شبه مستقيم من الميدان الى عين العذراء والقسم الواقع شرقيه كان يسمى الحارة الشرقية. عند عين العذراء كان الطريق يتجه شرقاً ليتابع الكونتور (خطّ الارتفاع) المناسب له، وعند إنحنائه ثانية الى الشمال كان يقع الهوسبيس (دار الضيافة) النمساوية. هذا كان مشوارنا، طبعاً أكثر من مرة وكنا نعبر عن ذلك بقولنا: نهندز (نهندس) شوارع، أو نتفندل أو نتمشكح أو نرصّ الطريق، نعود بعدها الى البيت. كنت أنا اقرأ قبل النوم. فأنا اعتدت في المدرسة ان لا أنام قبل العاشرة. وكان جدي يخاف على عيني فيطلب مني ان لا أقرأ طويلاً.

من هنا كان لديّ وقت طويل للتفكير في هذه الأمور المحيرة التي ذكرت بعضها، لكن اللائحة لم تنته بعد. كنت أحس دوماً بالخوف من الفقر. من هنا كان شعوري، لما حصلت على الشهادة، أنها ستدفن الفقر. وأهم من هذا لما قبضت أول معاش في نهاية شهر ايلول / سبتمبر ١٩٢٤ وكان عن نصف شهر وقيمته ٤,٥٧٥ جنيهات مصرية (وهي العملة المستعملة يومها في فلسطين). وكان هذا المبلغ، الذي سيزيد نصف جنيه كل سنة، سأتناوله، وسأنفق منه على نفسي وأخوتي وأمي.

الناس، والصغار خاصة، يخافون من الموت. لكن الموت، مع أنه حيّرني بالنسبة للذين ماتوا من عائلتي (أخي قسطنطين وأبي وخالتي وخالي)، لم يكن يخيفني. ولعل السبب في ذلك ما رايته وأنا صغير من الموتى وأشباه الموتى في المستشفيات في دمشق، وأنا أبحث عن أبي، ثم كان هناك تمريض خالتي ووفاتها بين يدي. وقد ظل

هذا الشعور معي طيلة حياتي - لا أخاف الموت، ولو أن التفكير به يحيّرني من حيث أنه محطة أم نهاية؟

كان يحيّرني لماذا يكذب الناس. جدي (دائماً لأمي) كان يعيش من أربعة موارد وهي: بستانه وصناعة الكلس في الأتون وتطعيم الأشجار المثمرة وخبرته في حدود الأراضي القريبة من الناصرة. المصدر الأخير كان أقلها اثراً في حياته المادية، لكنه كان يحبه لأن فيه حركة خارجية. ومثل ذلك يقال في تطعيم الأشجار المثمرة. لكن هذه كانت تُدخلُ الى نفسه سروراً خاصاً، لأن الذين كانوا يكلّفونه بتطعيم أشجارهم، لقاء ما يطلب، كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا يعتقدون بأن «إيدُه مريّة» (أي أن يده فيها بركة على الشجر). والواقع أنه هو كان يعرف أن القضية بالنسبة له هي قضية دقة في اختيار الطعوم والتقيد بالمواعيد للأشجار المنوعة.

أما صنع الكلس فكان يقوم به حتى وهو في العقد الثامن من عمره، لكنني لا اذكر أنه عمل ذلك بعد تجاوزه الثمانين. كان جدي، عندما يُشرِفُ على أتون لصنع الكلس، يُعنى بحفرة جديدة، أو بتنظيف حفرة سابقة، وهذه يبلغ قطرها نحو أربعة أمتار وعمقها نحو ذلك. ثم يختار الحجر الكلسي الصالح لذلك. ويقطع هذا قطعاً تمكن العمال من صفها على جدران الحفرة الداخلية صفاً أو اثنين. ثم تملأ الحفرة بالنتش، وهو نبات شائك يابس، ويضغط بحيث يكون كثيفاً. ثم تعقد بالحجر الكلسي نفسه قبة على الحفرة. وبعد أن يتأكد من صحة المبنى ودقته توقد النيران، فيحترق النتش، وكلما ابتلعت النيران جزءاً منه عوض عنه من الأكوام التي كانت تجمع الى جانب الأتون - وهذا هو الاسم الفني للحفرة وما فيها - وذلك من فتحة كانت تترك في أحد الجوانب. ويستمر العمل، تركيباً وحرقاً، بضعة أيام. وعندما «يستوي» الحجر الكلسي ويصبح كلساً يكف العمال عن تزويد النار بالنتش. وبعد ان تبرد الحجارة تنقل الى حيث تستعمل كلساً. وكان لا بد من «طفي» الكلس قبل استعماله. وكان هذا يتم إما في حفرة (أو وعاء كبير) يملأ بالحجارة المحروقة ويصب عليها الماء حتى تصبح شبيهة بالعجين الرخو.

لكن جدي ظل يعتمد على بستانه (حاكورته وكانت تسمى خلة شرش) في الدرجة الأولى. وهنا كان، مثل عدد كبير من أصحاب البساتين، يضمِّن التين والصبر (الصُبّير) والعنب لزبائن معروفين لسنوات، قد لا ينهي العلاقة معهم سوى الموت. كانت الأسر تضمن شجرة تين أو أكثر، وبعضها يضمن مع التين الصبر، وقد يضمن البعض الصبر وحده. وكانت ثمة اشجار عنب تصلح للضمان أيضاً. كان جدي يدون في دفتره أسماء الضامنين واسماء (أو مواقع) شجرات التين مثلاً التينة الخضارية التحتا، التينة الخرتمانية، التينة الشتوية الفوقا. أما الصبرات فبالموقع. ولم يكن أحد يستطيع أن يقرأ ما يكتبه جدي، وقد جربت أنا فما نجحت. ولكن المهم في هذا كله أن جدي كان قوي الذاكرة، وكان صادقاً في معاملته. لذلك اذا ذكر للزبون رقماً أو حقاً أو مبلغاً، فالزبون يقبل قوله دون مناقشة.

أمي كانت صادقة في كلامها ومعاملاتها مع الجارات ومع الصديقات وفي أحوال البيع والشراء. خليل طوطح كان صادقاً في كلامه وتصرفه. درويش المقدادي كان صادقاً معنا دوماً. إذا كان هؤلاء يمكن ان يكونوا صادقين، فلماذا يكذب الآخرون؟ أمر الكذب حيّرني. وقد بدأ ذلك يوم طلب من ولد أكبر مني قليلاً كان من أترابنا في شوارع جنين أن يقسم أنه قام بعمل معين. فأقسم بالله العظيم انه فعل ذلك (والفعل لم يكن أمراً يشرف). وأنا أعرف انه كان كاذباً.

يومها بدأت أتحير؛ وكان تصرّف هؤلاء القوم - صغاراً وكباراً - يزعجني ويحيّرني. لماذا يكذبون؟

حضرت يوماً معاملة بيع وشراء كان المستفيد منها واحداً من المعلمين أبطالي في مدرسة جنين. كان ذلك بالمصادفة لأنني دخلت الحانوت لشراء حاجة للبيت. ووجدت معلمي س. يتناقش مع صاحب الحانوت وشخص آخر كان هناك. فانتظرت تأدُّباً. وأخيراً تمت الصفقة فوضع معلمي يده في يد الشخص الثالث، وقال له

بعتك على عهد الله، واشترى الآخر على عهد الله. ولما خرج الاثنان سألت صاحب الدكان عن القضية ففسّرها لي، واحسب لو انني كنت اكبر سناً لما فعل ذلك. ثم لعله ظن أنني لن افهمها. قبل معلمي أن يقرضَ الرجل الآخر مبلغاً من المال ويتقاضى عنه فائدة. لكن الفائدة (الرِّبا) محرم في الشرع. فدار معلمي حول القضية بأن اشترى من المدين غنماً (وهميّا) بمبلغ من المال، وزَعم انه دفع ثمن الغنم؛ ثم باع هذا الغنم (الوهمي) إلى صاحبه الأصلي بمبلغ اكبر، مدّعياً امام نفسه والناس أن الفرق هو ربح تجاري. ولكن الحقيقة إنه لم يكن هناك سلعة. فمعلمي دفع للآخر مبلغاً من المال، وعدَ هذا بأرجاعه وقد اضاف عليه خُمْسَهُ ارباحاً، وهو في الواقع فائدة - ربا.

حيرتني العملية، ثم عرفت ان كثيرين يلجأون الى البَيْع الصوري - الوهمي ليبرروا تصرفهم في قبض الفائدة أي أنهم يقبضون الربا. ولكن يبررون ذلك امام من؟ وعند من؟

لماذا يلجأ الناس الى الحيلة والكذب؟ الا يمكن ان تكون العلاقة بين الناس قائمة على الصدق والاستقامة؟

وقد كان من الأمور التي حيرتني الحسد أو الغيرة التي تحمل الشَّخص على التصرف المشين. في السنة الثانية لوجودي في دار المعلمين (ربيع ١٩٢٣). جمع مدير الدار، خليل طوطح، التلاميذ كلهم في قاعة الطعام، وبعد ان طلب من كل منا ان يحضر قلمه ويأخذ فرخاً من الورق، قال: عندي ثمانون كلمة اريد أن امليها عليكم. واريد ان أرى مقدرتكم الاملائية فرادى وجمعاً في معرفتكم وبدأ العملية، وكان هناك من يختلس النظر لعله يتمكّن من نقل كلمة او اكثر عن جاره. ثم جمع الأوراق وصححها، وفي اليوم التالي كان اسمي في رأس القائمة وقد ضبطت ٧٨ كلمة وقد سررت أنا بذلك. وهناك بضعة من الطلاب الذين كان موقفهم مني طيباً ومشجعاً، وكان هناك واحد قال: لان نقولا يقرأ كثيراً ينطبع رسم الكلمات في ذهنه.

لكن بعد نحو ثلاثة أيام كنت أنا في غرفة الصف لاتناول أحد كتبي فاذا بالطالبين نعيم ج. (وكان في الصف الأعلى مني) ولبيب خ. (وكان في الصف اللاحق بصفي) يدخلان الغرفة، ويقف كل منهما الى جانب مني، ويقولان لي «ولك يعني بدّك تتشاطر علينا حتى جبت ٧٨ كلمة صحيحة؟» هَمَمْتُ بالجواب، الا أنهما لم يأتيا للحصول على جواب. لقد جاءا لضربي عَلْقَة (قَتْلَة) منيحة لانني كنتُ شاطراً. وقد ظلت آثار ضربهما في جسمي بضعة أيام. ولم اشتك عليهما. انتقمت منهما فيما بعد.

في تلك الاثناء قرأت مقالاً لتيودور روزفلت (رئيس الولايات المتحدة الاميركية ١٩٠١-١٩٠٩) وصف فيه نفسه أنه كان ضعيف الجسم نحيفه، لذلك كان يتلقى الضربات من أصدقائه، فاهتم بتربية جسمه وتقويته حتى أصبح مصدر خوف لهؤلاء الأصدقاء. فعملت بنصيحة روزفلت صرت أهتم بالألعاب أكثر - الركض والتنس (فضلاً عن كرة القدم والتمارين التي كانت جزءاً من ثقافتنا الرياضية). وعمدت الى تقوية جسمي أثناء العطلة الصيفية ولما عدت في خريف تلك السنة كنت أقوى. وكان الذي يسبقني صفاً قد تخرّج من دار المعلمين. فاصطنعت يوماً مناسبة حشرت فيها الثاني (ج. خ.) بين مقاعد صفه، وطعميته علقة مليحة. ثم فسرت له السبب واصبحنا بعد ذلك صديقين.

اما الذي كان قد تخرّج فقد زاملته في العمل في الناصرة لوقت قصير. وفي يوم أصرّ عليّ أن أذهب لزيارته. وأنا لم اكن أحبه، فذهبت تأدّباً. فوجدت عنده لاعب عود (وليس لي على ذلك اعتراض) ثم جاء آخرون، وبعد لعب على العود لوقت قصير، وتناول الخمر (وأنا لم اكن أشرب يومها قط) نُصبتَ طاولتان للعب الورق (وعن نقود) أي مقامرة. ورفضت فاستعدى علي آخرين محاولة في اقناعي أو إرغامي. لكنني تصلّبت في موقفي، وبعد قليل تركت الجماعة.

في اليوم التالي قلت له: «أنت تعرف أنه لا يجوز لمعلم يعمل في ادارة المعارف أن يستدين أو يقامر. وإذا اكتشف أمرك فستكون علقتك سوداء. اما أنا فاعفو عنك هذه المرة، مع أن لي عليك ثأراً بسبب قتلة الأملاء. ولن

أُخبرَ احداً أنك حاولت أن تغريني أو تحملني أو تجبرني على اللعب. لكن لا تكررها معي. هذا انذار». ولم يُعِدْها معي، لكنني عرفت فيما بعد انه استمر يقامر ويستدين ليقامر، حتى أخرج من عمله بسبب تصرفه.

وأنا لم أرو الحادثة كلها إلا لأشير الى حيرتي من الغيرة والحسد بهذا الشكل الدّنيء. أذكر ان خليل طوطح - قال لنا مرة، وليس يهمني لمن عزا القول، «خيرُ المنافسة هي المنافسة مع النفس. كن في الغد خيراً منك اليوم». واستشهد بعد ذلك ببيت من الشعر أظنه للامام الشافعي:

إذا مـــــرّ بي يوم ولم أصطنع يداً ولم استفد علماً فما ذاك من عمري

اخذت نفسي بهذا المبدأ. ولا أزال أتنافس في يومي مع أمسي وفي غدي مع يومي. هذا المبدأ حلّ لي مشكلتي مع نفسي ومع غيري، لكنه لم يحل مشكلة الآخرين نحوي. فالمنافسة الغيرية التي يعبّر عنها بالقول العامي «يغار من لحم أسنانه» مرض، وقد كان، بالنسبة لي، عنصراً محيراً في حياتي، وكان كبير الأثر في هذه الحيرة.

فقد أثرت، على ما يبدو غيرة الطلاب في دار المعلمين، وغيرة بعض الزملاء في حياتي التعليمية: في ترشيحا مثلاً، كما آمل أن أروي ذلك في حينه، وفي الكلية العربية والكلية الرشيدية في القدس، وفي الجامعة الاميركية في بيروت، وحتى في الجامعة الاردنية لما عملت فيها (١٩٧٦-١٩٨٨). وأنا لا يضرني أن يغار الناس مني، ولكن الذي يؤذيني في عملي وفي نفسي (عندما أعرف الأمر) هو محاولة النيل مني، بالكذب علي أو التجني أو تجاهل الواقع، ثم الطعن بي. وآمل أن يكون لبعض هذه الأحداث نصيب في هذه الصفحات عندما يحين أوانها.

على أن أموراً أخرى كانت تحيّرني أيضاً. أنا كنت، ولا أذكر تماماً من أين نبتت هذه العادة عندي، في أيام وجودنا في جنين، كثير التعبّد، شخصياً. لم يكن في جنين كنيسة، ولم يكن من يعلمنا شيئاً عن الشؤون الدينية لا أيام الدوران بالشوارع ولا في السنة الأولى من فتح المدرسة. وحتى لما خصِّصَت لنا ساعات للتعليم المسيحي لما انضم الى الهيئة التعليمية (في جنين) جراسيموس خوري، فان ما تعلمناه، فيما يتعلق بالمعاني الدينية كان قليلاً، إذ أنه كان يهتم بالقصص المقدس، كما كان يسميه، أي قصص الكتاب المقدس. والقليل الذي أعطانا اياه لم يرسخ في النفس لانه لم يكن ثمة كتاب تعليم مسيحي بحيث نقرأ فيه مستزيدين للمعرفة. ولم يكن أبي ممن يتعبّد شخصياً وعلى كل فقد مات وأنا صغير. وما كانت أمي تعنى عناية خاصة بالتعبّد. لذلك كان تصرّفي غريباً حتى عند نفسي. ومع ذلك فقد كنت، كما ذكرت، أقرأ صلاة الصبح الكبرى وصلاة المساء يومياً في كتاب السواعي. وكنت أقرأ ذلك بحرارة المؤمن. إيماني كان قوياً، وظل كذلك، لكن قراءة صلاة الصّباح وصلاة المساء انتهت بدخولي دار المعلمين؛ فالجوّ هناك لم يكن يسمح بذلك. وقد استعضت عنها بصلاة مسائية، قبل النوم، هي «شكراً لك يا الله» وصلاة صباحية هي «على بركة الله». ولا أزال أذكر هاتين العبارتين الى الآن ويلاحظ أصدقائي عليّ أنني عندما أنوي رواية قصة فيها نوع من التمدّح أبدأها بقولي «تحدثاً بنعمة الله».

لكن الحيرة التي أشرت اليها هنا لا تتعلق بايماني القوي - الذي تزعزع لفترة قصيرة في حياتي، وستمر حكاية ذلك في مكانها - ولا بالصلاة. ولكن بالناس الذين كانوا يتعبّدون أكثر مني بكثير، ويحبون ان يعرف الناس ذلك عنهم، ولكن تصرفهم الشخصي كان يخالف ذلك تماماً. فجارتنا المغناج في جنين التي كانت تقوم بواجباتها الدينية جمعاء، لم تتورع عن محاولة اغراء ولد وغوايته. ولم يستجب، كما ذكر، لأنه كان دون سن الاغراء والغواية. والذي ظننته فيما بعد هو أن هذه المرأة كانت مستعدة للتصرف على هذا الاسلوب في أي مناسبة قد تتاح لها.

ولكن أهم من ذلك بكثير، فضلاً عن تصرف معلمي س.، هو تصرّف الارشمندريت اغناطيوس مع صينية

التضييف التي وضعتها عنده أمانة فلطشها، وأهداها لاحدى صويحباته. فالذي كان معروفا في القدس هو أن أكثر رجال أخوية القبر المقدس، خاصة المتقدمين منهم في المناصب الكهنوتية، كانوا يمدون أيديهم الى ما في الدير من خيرات (أو ما عندهم من أمانات) كي يهدوا الصاحبات والمحبات من أفراد الجالية اليونانية في القدس خاصة.

وكانت القضية التي حيرتني كثيراً هي قضية الجنس. فالأحاديث الجنسية التي أشرت اليها والتي كنت أسمعها، كانت بعيدة عن الجنس الطبيعي النقي. وقد تذكّرت مؤخراً قصة سمعتها في القدس مرة. وأنا تلميذ في دار المعلمين. ذهبت مع واحد من تلاميذ المدرسة لزيارة قريب له كان يقيم في فندق في سوق خان الزيت، اسمه زهرة فلسطين. وبعد السّلام والكلام عن الأهل والأقارب سأل صاحبي التلميذ قريبه عن آخر أخباره فقال له: حكاية جديدة حدثت لي في يافا مؤخراً. ذهبت الى أحد أمكنة الدعارة لاضاجع مومساً. واخترت واحدة ودخلت معها الغرفة، فلما وصلنا الى دور العمل قلت لها انت تأخذين جنيهاً لقاء هذا، فما رأيك أن أدفع لك خمسة جنيهات على أن أستعمل الثقب الآخر. ولم تقبل وحرمتني تلك اللّذة. وكان هذا الشاب متألماً. وقد تألم صاحبي معه. أما أنا فقد كِدتُ أن أتقيأ؛ لكن من حسن الحظ أننا لم نكن قد أكلنا بعد، فلم يكن ثمة ما يمكن أن يُتَقَيَّأ.

والمعلمات اللّواتي علمنني مبادىء التعليم المسيحي في مدرسة الأحد بالناصرة، وكان أكثره، كما ذكرت قصص الكتاب المقدس مع تعليقات هنا وهناك. هؤلاء المعلمات كنّ متقدمات في السن، أي عوانس. وكن ـ خاصة يومها ـ ينظرن الى الأمور الجنسية نظرة الحرمان والألم، ولذلك فأن أية اشارة اليها كانت تخرج من نفوسهن كل ما تمتلىء به هذه النفوس من احتقار. والرجل الذي علمنا هذه الأمور كان موقفه من أمور الجنس هو موقف المخوِّف للأمر بالنار والخراب والثبور وعظائم الأمور.

ولم يكن اتصالي برجال الدين حتى سنة ١٩٢٤ كبيراً. صحيح أن جدّي اصطحبني معه مرة لزيارة مطران الناصرة الارثوذكسي كليوبا، كما زرت القسّ أسعد منصور، قسيس الطائفة الاسقفية في الناصرة عدة مرات صحبة جدي، لكن لم يكن هناك مجال لأحاديث عميقة أو خاصة. إلا أن الذي أذكره هو أن الجنس، إذا ورد ذكره عند رجال الدين المسيحيين، فهو لتخطئته ووضعه في خانة الاجرام. ومن هنا كان دور بعض رجال الدين سلبياً في هذه الأمور. ومن الطبيعي، فيما أرى، أن الجماعة التي يحرم عليها الزواج بسبب الثوب الكهنوتي ان يكون موقفها من القضايا المتعلقة بالجنس موقفاً سلبياً وضاراً بالمجتمع.

وأود هنا أن أسجل موقفاً خاصاً لرجل دين مسيحي عرفته في القدس، لا في الشؤون الجنسية، بل الفكرية. للأقباط في القدس دير كبير، ودور كبير. والدير ملاصق لكنيسة القيامة. والدير متسع جداً فيه عشرات الغرف المهيأة أصلاً لحجاج بيت المقدس. لكن موسم الحجاج قصير إذ إنه يمتد عبر الاسبوعين حول عيد الفصح المجيد. فتبدأ الزيارة قبيل يوم الفصح بنحو عشرة أيام، وتنتهي بعد أحد الفصح بيومين أو ثلاثة، ثم يفرنقع الحجاج لزيارة بيت لحم والناصرة (لمن قدر على ذلك) أو للعودة الى بلدهم رأساً. وقد يتأخّر نفر بضعة أيام أخرى، لا أكثر ولا أقل.

ورئيس الطائفة القبطية في فلسطين، وهي تقيم في القدس أصلاً، من رجال الكنيسة القبطية بمصر. وقد يرئس الطائفة أحياناً شخص برتبة مطران. ورئيس الطائفة هو أيضاً رئيس الدير، وكان يقيم في جناح خاص به.

وقد ارتؤي، في وقت من الأوقات، أن تؤجر بعض الغرف بايجار معقول لأسر محتاجة أو لأفراد يحبون ان يعيشوا في مكان آمن، لأن أبواب الدير، مثل ابواب غيره من الأديرة، كانت تقفل في وقت معين، وكان عليها حراسة.

وكان لعمتي لطيفة بضعة أعمال في القدس، أيام كنت أنا في دار المعلمين، فاستأجرت غرفة ومنافعها في

دير الأقباط. وكنت أزورها بين الحين والآخر. وفي أحد الأيام قالت لي أنها ستأخذني الى رئيس الدير لأتعرف عليه. وأنا كنت أعاني شيئاً من القرف من ديرنا في القدس وأخويته بعد ان عرفت الكثير عن موقفها وأعضائها من الطائفة، فلم اتشجع. لكنها اقنعتني، بالطريقة التي تلجأ إليها سيِّدة قديرة مثل عمتي مع «ولد» كما كانت تسميني (وهو الواقع) في سن الرابعة عشرة (وبضعة أشهر). ذهبت معها وفي نفسي أن أشاكس حتى لا تعاد الزيارة. ولما دخلنا قالت له أيها القمص المحترم هذا ابن أخي، واسمه نقولا كما أخبرتك. ونظرت إليَّ وقالت حضرته القُمّص يوحنا.

وكان أول ما لفت نظري أن رجل الدين هذا (وأنا لم أعرف يومها معنى القمص، وهو منصب كبير كما عرفت فيما بعد) لم يمدّ لي يده لتقبيلها كما يفعل رجال الدين الارثونكس، اليونان خاصة بل صافحني. ودعاني الى الجلوس. ثم ناولني صحناً فيه حبّات ملبّس ليضيّفني، ولما أبيت إلا أن يأخذ هو قبلي مع أنه المضيف، حلّ المشكلة بأن قدّم الصحن الى عمتي أولاً. ثم عرض عليّ أن نتناول هو وأنا معاً.

ولفتني في قاعة الاستقبال الواسعة المرتبة ان جزءاً كبيراً منها خاص بمكتبة القمص يوحنا. ولما رآني أرنو بنظري نحوها أخذني للاطلاع عليها، فصرفنا هناك بعض الوقت، وعمتي جالسة مسرورة بهذا الاستقبال الذي لقيه هذا التلميذ الشاطر (كما كانت تسميني).

وعدنا وجلسنا وسألني عن دار المعلمين وأساتذتنا ومكتبتنا وما نقرأ. ولم تكن اسئلته تصدر عن صاحب مقام رفيع مشفق على ولد جالس في ضيافته، بل كان فيها نبرة الاستفسار المقرون بالاحترام لمؤسسة تعليمية.

وأحسب أننا بقينا في ضيافته نحو ساعة. ولما هممنا بترك قاعته أعطاني بطاقته، ولا أزال أذكر بقيّة اسمه الى اليوم «القمص يوحنا الانطوني البهجوري»، ودعاني لزيارته ثانية، وقال لي أنه في المرة القادمة سنصرف وقتاً أكثر مع الكتب.

وقد حدث هذا فعلاً. فقد زرت القمص يوحنا مرات خلال ما تبقى من تلك السنة المدرسية، وكان يعيرني بعض الكتب. وأخيراً اقتربت العطلة الصيفية (١٩٢٢) فذهبت زائراً ومودعاً وراغباً (ولكن في تردد خشية الفشل) في استعارة كتاب أو أكثر لأقرأ خلال الصيف في جنين. وفعلاً ترددت في الطلب (وكنت أزوره وحدي من دون عمتي)، إلا أنني تشجعت أخيراً. وعندها أعارني كتاباً اخترته أنا وهو أحد كتب المنفلوطي؛ ثم نظر الى مجلد ضخم مجلد تجليداً مصرياً أنيقاً. وقد كان يومها التجليد فيه مزيج من الصنعة والفن بشكل يعيد الى الأذهان العناية بالكتاب التي عرفتها الحضارة العربية أيام ازدهارها. نعم ناولني مجموع مقالات لشبلي الشميل وقال لي هذا كتاب فيه معرفة وعلم وثقافة. وأعطاني مجلداً آخر للشميل في النشوء والارتقاء وقال لي بعض فصول هذا الكتاب صعبة، لكن جرّب. كم سررت بهذا الموقف الكريم لرجل الدين القبطي.

انني أذكر كتاب المنفلوطي الذي استعرته؛ كان «الفضيلة أو بول وفرجيني». كنت قد تعرفت الى المنفلوطي وأنا في جنين. إنني أذكر أنه لما ذهبت الى القدس لتقديم الامتحان لدخول دار المعلمين (صيف ١٩٢١) كان بين المتقدمين للامتحان موسى حنا (خوري) من الطيّبة بقضاء رام الله. موسى حنا كان مقيماً في دير الروم مثلي. كنا، بهذه المناسبة، نعتبر هذا حقاً لنا لا منة منهم. وفي مساء اليوم الأول من الامتحان (وقد استمر يومين فقط) جاء والده الى الدير ليرانا ويقيم معنا. وهناك تعرفت اليه. سألنا عن امتحان اللغة العربية (أظن أن الوالد (حنا خوري) كان معلماً) فاخبرناه عن نوع الامتحان: تشكيل جمل، إعراب، وكتابة رسالة، مشكولة تماماً، الى مدير دار المعلمين تبيّن فيه السبب الذي يدفعك الى دخول تلك المدرسة. هذا القسم من الامتحان لفت الأب فسألني أنا إن كنت أذكر ما كتبت. فقلت له انني احتفظ بالمسودة، ولما طلب ان يراها أعطيته إياها، وأنا على شيء من الخجل. فلما قرأها اعترض على كلمة المبجل التي وضعتها بعد مدير دار المعلمين، وقال ان المحترم كافية. لكنه لما فرغ من

قراءتها، وهي بطبيعية الحال قصيرة، قال لي هذه رسالة لا يكتبها إلا شابٌّ يقرأ. وعندها كان ثمة حديث عن الكتب التي قرأتها في جنين خاصة (وهي فترة خمس سنوات). وسألني عن آخر كتاب قرأته قبل المجيء للامتحان فقلت له: كان علي أن أسافر من جنين الى حيفا مساء ٤ تموز / يوليو لآخذ قطار حيفا - القدس يوم ٥ تموز / يوليو، وقد فرغت من قراءة «تحت ظلال الزيزفون» (أو ماجدولين) للمنفلوطي قبل ظهر يوم ٤ تموز / يوليو. فابتسم مشجعاً، وقال لابنه، وكان يكبرني ببضع سنوات. يا موسى هذه نتيجة القراءة. دير بالك. ومع ان موسى ظل في دار المعلمين سنوات ثلاثاً فانه لم يأخذ بنصيحة أبيه في القراءة. وقد عرفته فيما بعد وأدركت انه ازداد امعاناً في الامية.

وفي دار المعلمين، في السنة الاولى، قرأ علينا جورج خميس في درس القراءة (والمحفوظات) العربية «سيرانو دي برجيراك» للمنفلوطي. بدأ القراءة وأتمها طلاب يجيدون القراءة كان في طليعتهم الصديق عبدالحميد ياسين.

وكتاب شبلي الشميل «مجموع المقالات» الذي قرأته في تلك الصيفية كان له أثر كبير في نفسي. (فعلاً كان الكتاب الثاني صعباً علي يومها ولو أنني قرأته فيما بعد). فشبلي الشميل كان ينعي على العرب المحدثين إصرارهم على درس الأدب والحقوق واهمالهم العلوم الفيزيائية والكيميائية وعلوم الأحياء والرياضيات. وكانت دعوته حارة. الرجل يريد للعرب أن يفكروا علمانياً وعلمياً، وان يأخذوا بأسباب المدينة الحديثة. وكان داعية لنظرية التطور (وكانت تسمى يومها النشوء والارتقاء) لداروين. وهذه امور مهمة؛ وانطبعت هذه الآراء في ذهني. وقد سألني مرة الدكتور صالح حمارنة (زميلنا في كلية الآداب في الجامعة الاردنية) وقد كنّا نحضر مؤتمراً في الجزائر (١٩٧٨) فيما إذا كتبت شعراً، ولما كان جوابي نفياً، استغرب على اعتبار ان كل مثقف يملك ناصية العربية، حتى ولو دون الدرجة التي أملكها أنا، نظم شيئاً من الشعر في حياته. ولما فتشت في ذاكرتي عن السبب الذي أقصاني عن (محاولة) كتابة الشعر، تذكرت أثر كتاب شبلي الشميل هذا فيّ. ولما كنت «شاطراً» في ما كنّا نسميه الرياضيات، فقد كان همّي متجهاً للتخصص بها إذا أتيح لي أن أحصل على بعثة. ولهذا قصة لها موضعها في هذه الصفحات.

وهذه الآراء التي بذرتها في نفسي قراءة مجموعة المقالات التي كتبها الشميل، فتحت أمامي آفاقاً واسعة (بالنسبة لسني) كما أنها كانت عنصراً من عناصر الحيرة. فالسؤال الذي كان لا بد من ترداده هو هل من الضروري ان تؤدي الدراسات العلمية، خاصة في علوم الأحياء، الى الابتعاد عن الدين؟ وهل التعرف الى العصر الحجري، حتى الحديث، وهو عصر يبدأ حوالى سنة ١٢,٠٠٠ ق.م.، يهدم الكتاب المقدس الذي يعين خلق العالم بكامله قبل أقل من ٥٠٠٠ سنة؟

وأودّ أن أشير هنا الى الفائدة التي جنيتها من الاستمرار في قراءة المقتطف. عرّفني عليه امتحان الدخول الى دار المعلمين مصادفة، ثم تمسّكت بقراءته حتى سنة ١٩٣٥، لما ذهبت الى لندن طالباً للعلم في جامعتها. بل ونشرت فيه أول مقالاتي العلمية سنتي ١٩٣٠ و١٩٣١.

قراءة المقتطف، حتى في ذلك الوقت المبكّر (في دار المعلمين) كانت متعة فكرية استثارية تبعث على طلب المزيد. هذا الطلب الذي لم يتوقف عندي حتى الآن، وآمل أن لا يتوقف.

وعلى ذكر المقتطف فقد كان في جنين شاب يملك بقالة نظيفة مرتبة جيدة البضاعة. وكان يقرأ بعض المجلات. لما عدت في صيف ١٩٢٢ الى جنين سألني عن اسم مدير دار المعلمين فذكرته له (الاستاذ خليل طوطح) قال هذا أخرج خليل السكاكيني المدير السابق وأخذ محله. ولم أكن أنا قد سمعت شيئاً من هذا خلال السنة التي

قضيتها طالباً في تلك المدرسة. ولما سألته عن برهانه قال اقرأ مقال «السارق والمسروق» لخليل السكاكيني المنشور في المقتطف.

على كل لما عدت الى المدرسة في خريف ١٩٢٢ تحريت عن القضية بقطع النظر عن المقال (إذ لم يكن ثمة مقال بهذا العنوان في المقتطف)، فعرفت ان خليل السكاكيني استقال من العمل في ادارة المعارف - أي منصبه كمدير لدار المعلمين - بسبب تعيين هربرت صموئيل السياسي البريطاني اليهودي الصهيوني مندوباً سامياً على فلسطين سنة ١٩٢٠.

لكن حسني سبع العيش أصرّ على وجهة نظره وقال لي أنتم بعد صغار لا تفهمون مثل هذه المسائل، ويمكن أن يكذبوا عليكم. والواقع هو ما رويته. وقد عرفت ذلك فيما بعد من خليل السكاكيني نفسه، لما عاد وقبل وظيفة مفتش للغة العربية في ادارة المعارف سنة ١٩٢٦، بعد أن انتهت مدة هربرت صموئيل (١٩٢٥).

وبهذه المناسبة كان حسني هو المسؤول عن دكّان البقالة، وأخوه علي الأصغر، وكان معي في المدرسة، فتح دكاناً للحلاقة. لكن في خريف ١٩٢٠ انضم الى حسني اخ له أكبر منه. وعمل في الدكان لكنه ظل يعتمر الفيصلية بعض الوقت. وقد عرفت أن فايز، الأخ الأكبر، كان في ادارة الأمن العام في حكومة فيصل بدمشق، وأنه عاد الى بلدة جنين بعد ان احتل الفرنسيون سورية، وأخرجوا الملك فيصل من البلاد.

عندما يدون الواحد منا أخبار ما مرّ به قبل مدة طويلة يتذكر الأشياء ويدوّنها، وتبدو كأنها غير مترابطة. فأنا هنا - في الصفحات الأخيرة مثلاً - أتنقل من مكان الى مكان ومن حادثة الى حادثة، مع اختلاف في الزمن. لكن بالنسبة لي، عندما أفكّر في تلك الأيام، تكون هذه الأمور متجانسة متناسقة. فقد استقرت في حياتي يومها. والآن عندما «تُنْكَزُ» فانها تخرج، وقد تبدو وكأنها خارجة عن الصف أو الوقت أو المكان، لكنها تظل جزءاً من تلك الحقبة.

وقد تذكّرت الساعة شيئاً يتعلق بلباسي وحذائي. أنا كثير المشي - من زمان - لذلك كان جريس الخوري الذي كنّا نصنع عنده أحذيتنا في جنين «ينصحني» بقطعة جلد جيّدة للنعل. وأذكر أنني ذهبت عنده يوماً وطلبت منه أن يفصّل لي حذاء. كان جريس ممتلىء الجسم، لكن لأنه كان قصيراً بعض الشيء كان يبدو كأنه سمين أكثر من اللازم. وكان له شاربان كبيران - يومها كان جميع الرجال لهم شوارب - وكانا يرقصان مع جسمه في حالتي السرور والغضب. فنظر إليّ شزراً وقال، وكأنه يصبّ عليّ جام غضبه، «قل لأمك أنا ما بدي إعمل لكْ صرامي». وأخذت أنا الأمر على محمل الجدّ، وعدت أدراجي حانقاً وفي الوقت ذاته بدأت أفكر بشخص آخر أذهب اليه، مثل الذي كان يصنع أحذية نظمي ابو سخا مثلاً. لكن أمي طيبّت خاطري وقالت إنه يمزح معي. وقد كانت أمي مصيبة، فقد اتفق أن لقيناه يومها أو في اليوم التالي عند أقاربه (في السهرة) فأوضح موقفه بقوله انني أهري الأحذية بسرعة الى حد أن الناس اصبحوا يظنون ان شغل جريس غير جيد. وعمل لي حذاء.

كنت في جنين - خارج أوقات المدرسة - ألبسُ قنبازاً. أما في المدرسة وعند الناس فانني كنت ألبس البنطلون. وفي يوم من الأيام اشتريت كبوتاً (بالطو) من ضابط هندي. كان صغير الجسم قصير القامة، وكان كبوته من لباس الجيش، من الصّوف الجيّد، ولونه زيتي وكان مُوشّى باللون البني. دفعت له ثمنَه خمسة وسبعين قرشاً مصرياً. وذهبت الى خياط وطلبت منه أن يقصِّره قليلاً ويزيل عنه صفةَ الضابط العسكري. فعل الخياط ذلك بخمسة عشر قرشاً فقط. وهكذا استمتعت بكبوت في الشتاء لمدة سنتين بهذا المبلغ الزهيد.

وما دمنا في حديث الثياب فانني أود أن أشير الى أن السيدات المسيحيات في جنين كنّ يلبسن الملاية أو الحبرة مع المنديل (اليَشْمك) الأسود. وكانت أمي تملك حبرة من أيام دمشق - أظن أنها ابتاعتها هناك للزينة فقط - وهي من الحرير الجيد. كانت تستعملها في جنين وكانت الملاية موضع اهتمام السيدات، لأنها كانت ذات لونين،

أسود وأزرق غامق، وتُلْبَسُ على الوجهين. وحتى بعد الاحتلال البريطاني للبلاد ظلّت السيدات ـ لبعض الوقت ـ يستعملن المنديل لكنهن لَبِسْنَ الكبّوت أو البالطو بدل الملاية أو الحَبَرَة.

احتلال الجيش البريطاني لفلسطين لم يدخل تبديلات كبيرة في جنين. أصبح الناس يستطيعون الحصول على الأرز والطحين والسكر. ولكنهم لم يستسيغوا الارز الهندي المكسّر (وطبعاً سمّاه النّاسُ رزّ انكليزي)، والطحين كان، على ما قيل لنا، مستورداً من استراليا، وكان «يُمغّط» عندما يعجن. لكن المهم أن بعض المواد الغذائية أخذت تظهر في السوق. ووصلت الى جنين لأول مرة معلّبات. وكان أولّها اللحم البقري. وأظن أن هذه المعلبات كانت مما تراكم في مخازن الجيش، فأخذت ادارة الجيش تبيعها. لكن الناس لم يهتموا بها. أما علب السردين فكان حظها أحسن. وقد وصلت في هذه الفترة العلكة الأجنبية «رِغليز».

وكان مما حيّرني كثيراً في هذه الفترة، في جنين وفي دار المعلمين، قضية الحروب. لماذا يتحارب هؤلاء القوم، أربع سنوات يُقتلُ فيها الشباب وتُدمَّر البيوت والمصانع والطرق وتنقص مواد الأكل ويتعطّل الرجال عن العمل. وبالنسبة لبلاد الشام كان يساقُ الرجال للجندية وتترك العائلات بلا معيل.

وأذكر أنني قرأت عن البرت شويتسر الذي ذهب الى أواسط افريقية هرباً من ويلات الحرب (العالمية الأولى) واملاً في أن يخدم الناس هناك. وقد فكّرت يومها إذا قامت حرب ثانية ووجدت نفسي «محشوراً» فانني سأفعل مثل شويتسر. لكن اليوم (١٩٨٩) حتى أواسط افريقية لم تعد تصلح ملجأ من شرور الحرب. فقد وصلتْها الحروب العامة والأهلية، والثورات القبلية والمدنية والخلافات العقائدية والمذهبية.

أليس في هذه الأمور التي ذكرت ـ والتي تذكّرتُ وأنا أدون هذه الصفحات ـ ما يحير؟ وهل كان غريباً أن أشعر يومها، وأنا لم أبلغ السابعة عشرة من عمري بالضغط النفسي الذي تعرضت له وبالحيرة التي تملكّتني؟

وقد سألت نفسي، بعد سنوات من هذا، كيف استطعت أن أصمدَ أمام هذه المشكلات، خاصة وان المشكلات زادت واحدة في سنة ١٩٢٥. كنت يومها في عكا، اقوم بعمل موقّت على نحو ما سأذكره في حينه، يوم جاءني خبر وفاة أمي في نابلس. أسرعت الى نابلس، ومررت بالناصرة فأخذت معي خالتي منيرفا التي كانت في زيارة لجدّي عبد الله، وذهبنا معاً. وصلت نابلس والجثّة الهامدةُ في الكنيسة والخوري يصلّي عليها صلاة الجنازة. ودفنت أمي في رفيديا. وهكذا في سنة ١٩٢٥ كان اربعة اقارب أعزّاء عليّ قد انتقلوا من هذه الدار ودفنوا في أربعة مواضع مختلفة ـ والدي في مقبرة مار جريس في دمشق، وخالتي في فرعون، وخالي في العفولة (دفناً جماعياً)، وأمي في نابلس.

لكن المشكلة الجديدة كانت أنني أصبحت مسؤولاً عن أختي واخوي أدبياً لا مالياً فحسب. وكان أول ما فعلته أن أخذت أخي الصغير جورج الى القدس وطلبت من القسّ شنلّر رئيس دار الايتام السورية ان يقبله مع أخيه (الأكبر) الفرد. فأنا لم يكن أمر عملي وإقامتي قد تقرّر بعد، لذلك فقد كان من الضروري أن أدبر أمر هذا الولد الصغير.

واذن فقد دخل عنصر جديد على العناصر التي حيرتني الى الآن. وكان السؤال لماذا تموت أمي وتترك أمر تربية اخوتي على عاتقي، وأنا سني لا تزيد عن سن أختي سوى سنة واحدة (تنقصها ثلاثة أيام)؟ وأنا بعد بحاجة الى الارشاد والتنوير.

نعم تساءلت أكثر من مرة عن الأمور أو الأشياء التي قوتني ومكنّتني من القيام بواجبي على قدر الامكان؟

وفي أكثر الأحيان كان الجواب الذي انتزعه من نفسي له شقان: الأول هو الايمان. ولو أنني لم أكن أعرف تماماً ما هو نوع الايمان الذي كنت أشعر أنه يملأ قلبي. ومع انني مررت بفترة قصيرة فيما بعد تخلّيت فيها عن

ايماني، فانني عدت إلى حظيرة الايمان القوي الواسع الذي لا يقف عند حد الشكليات والصور والتقاليد. اما الشق الثاني فهو قوة الارادة. كوّنت هذه الصفة أو العادة أو الطريقة، ولنسمها ما نشاء، منذ ان كنت تلميذاً في دار المعلمين. وقوة الارادة هذه كانت تمنحني - ولا تزال - العَزْمَ اللازمَ للسير قدماً فيما أخطط له، واعتقد بصحته. وهذه القوة عندي ليست قوة جسدية تظهر في عضلات. لكنها قوة معنوية قد لا يكتشفها الذين يعرفونني إلا بعد جهد. فأنا لم أتحدث عنها، ولا أتحدث عنها الآن. لكنني اتصرف على اساسها.

بعد تركي دار المعلمين أدخلت ادارة معارف فلسطين نظام المتريكيوليشن في البلاد. الامتحان - من حيث تسميته - يعني إعطاء الطالب الذي يجتازه الحقّ في أن يتقدم لطلب الدخول الى جامعة. لم يكن في فلسطين جامعة أستطيع دخولها. فالجامعة العبرية استبعدتها أصلاً. لكن تقديم هذا الامتحان نافع. إذن فأنا اقرر أن أتقدم اليه. وعندئذ أدرس المتطلبات. وجدت أن ما أعرفه في اللغة والتاريخ والرياضيات والجغرافية قد يساوي، في مجموعه ثلث المطلوب. وأضفت موضوعاً آخر كي يستقيم عدد الموضوعات المطلوبة، وكان موضوعاً جديداً عليّ هو علم الآثار.

إذن عليّ أن أضبط حساباتي بحيث لا أتقدم الى الامتحان إلا وانا على أتم الاستعداد لذلك. احتجت الى سنتين من العمل الجادّ وأهم من هذا أنني تعلمت كل ما احتجته وحدي - نعم وحدي. الكتب تيسرت والارادة موجودة وهذه يدعمها الصّبر. وأخيراً تقدمت للامتحان ونجحت (١٩٢٧).

هذا نموذج. وقد كنت أعدّ نفسي للامتحان وأنا أعلّم في المدرسة مواد جديدة عليّ ولا أحبها وعليّ أن اتنبّه الى حاجات أختي وأخويّ اللذين اخرجتهما من شنلر وجئت بهما الى عكا، لما استقر بي المقام هناك «موقتاً الى اشعار آخر» - ودام هذا «الموقت الى اشعار آخر» عشر سنوات!

وقد فتّشت بعد سنوات من التخرج عن زملائي لأرى ماذا تم بأمرهم. فوجدت أن اثنين منهم فقط غيري سارا على درب التحصيل. أما الأول فقد كان له من ثروة أبيه واخوته ما مكّنه من أن يذهب الى فرنسة لدراسة الهندسة الزراعية (المرحوم خليل المقدادي)؛ وأما الثاني فقد عمل جاداً جاهداً في مدرسة الفرندز في رام الله ثم التحق بالجامعة الاميركية في القاهرة وحصل على شهادتها (المرحوم عبدالحميد ياسين). نعم اثنان فقط قطعا الشوط بالجد والاجتهاد (عبدالحميد وأنا). وحتى سنة ١٩٤٦ كان أعلى منصب وصل اليه البعض من زملائنا هو أنهم تولوا ادارة مدرسة ابتدائية (مثل عبدالفتاح الكرمي).

فأنا بالرغم مما كنت أدور فيه من أمور تحيرني، وتحيرني كثيراً، وتقض مضاجعي، كنت أعرف شيئاً واحداً هو أنني لا يجوز لي التوقف أبداً: السير الى الامام هو الشعار الأهم. وكنت أتسلّح بقوة الارادة وصلابة العزم.

واذا عدت الى الأمور التي كانت تحيّرني وجدت أن حيرتي قد ازدادت بعد تركي دار المعلمين. في دار المعلمين كان هناك من يمكنُ أن تسألَه. فنحن - الطلاب - لم نجد ان الاساتذة، الذين يستحقّون العناية على الأقل كانوا بعيدين عنا. وكيف يمكن ان يكون أي منهم بعيداً، وهو يقرع الجرس يوم الجمعة بعد الظهر ثم يقول «مشوار مشي يا شباب»، فينضم الى المشاة من يحبّ. وعندما يكون الوضع على هذا الشكل لا يمكن أن يكون ثمة مسافة بين المعلم والتلميذ.

لكن بعد تركي دار المعلمين عملت السنة الأولى في ترشيحا. وقد وصفت تلك السنة في مكان آخر. كانت سنة بهيجة ممتعة في حياتي، لا ازال احتفظ بذكرياتها الى الآن. لكن لم يكن في البلدة من يمكن ان اتحدث اليه في الأمور التي كانت تحيرني، على العكس بان وكأن الأمر هو انني أنا - الشاب الأصغر سناً من الكثيرين ممن عرفت - كنت استشار بدل أن أستَشير.

لست أشك ان هذا الأمر زاد ثقتي بنفسي، لكنه لم يساعدني في حل المشكلات التي كانت تدور في رأسي.

وقد يخطر في بال أحد القراء أن يسألني متى تخلّصت من عناصر الحيرة هذه؟ وجوابي انني لم اتخلص منها قط. وكيف يمكن المرء ان يتخلّص من هذه التساؤلات المحيرة، وبعضها يظهر أمامك بين الفينة والفينة كأنه يُطلّ من نافذة أو باب مفتوح جزئياً، ويمد لك لسانه!

اليوم (٢٦ ايلول / سبتمبر ١٩٨٨) كنت في زيارة بعض الجيران، فاعتذرت الأم عن الجلوس معنا لأن خبراً سيئاً بلغها، وهي تشعر بحزن عميق. ثم شرَحَتْ الابنة القضية: بان سيِّدة (من جيل الابنة) توفيت في فرنسة. فكان حزن الأم والبنت عليها شديداً لأنها صديقة الابنة. وأهلها، وهم لبنانيون، يقيمون في لندن. ولم تسمح الحكومة الفرنسية للأهل بدخول فرنسة - أي أنها لم تمنحهم التاشيرة لأنهم لبنانيون. وهذا زاد في ألم السيدتين.

وبعد قليل قالت الابنة: تصور أن فلانة العجوز ظلّت في حالة غيبوبة خمس عشرة سنة، والعناية بها قائمة قبل أن يتوفاها الله، فيما يقصفُ عمرَ هذه الصبية! لماذا؟ لماذا؟

أليس في هذه الحوادث ما يحيّر!

لذلك فانني أؤكد أن بعض عناصر الحيرة الأولى لا تزال تشغلني الى الآن. بل ان السنوات التي مرت منذ أن كنت أحار الى الآن، وهي تزيد عن الستين، قد أتت بعناصر أخرى للحيرة، أو انها أظهرت لي أشخاصاً آخرين لا يختلفون في خُلُقِهم عن الحرامي الذي أخذ مني طقم الشوك والملاعق والسكاكين في دمشق والارشمندريت اغناطيوس الذي لطش صينية التضييف في القدس. لكنهم قد يختلفون عن هذين اللصين بالاسلوب والمظهر.

لكن الأمر المهم عندي كان أن ما حدث قد حدث، ولا فائدة من البكاء على ما خُسِر. ارم، يا نقولا، هذه الأمور خلف ظهرك وسرْ الى الأمام.

على كلٍّ لما انتهى بي الأمر الى العمل في مدرسة عكا الثانونية (١٩٢٥-١٩٣٥) وجدت حولي جماعة قد تكون معلوماتهم ثابتة لا تنمو (بالنسبة الى ما كنت أنا أتمُّه) لكن كانت تجاربهم وخبراتهم نافعة لي.

كان بين الكتب التي تعرّفت اليها في دار المعلمين خلاصة التاريخ (Outline of History) تأليف هربرت جورج ولز (H.G. Wells). كنت قد عرفت اسم ولز، وانه كاتب كبير من مقال قرأته في الهلال بعنوان رفيق السفر والمؤتمر من قلم أمين الريحاني (عن ولز هذا). وقد بيّن الريحاني آراء هذا الكاتب باسلوبه الطلي الواضح. فلما رأيت هذا الكتاب التاريخي للرجل أقدمت على تصفّح اجزاء صغيرة منه. ولكنني أغرمتُ به لما رأيت عند مدير دار المعلمين، خليل طوطح، نسخة مصورة (في جزأين). واعتزمت أن ابتاع واحدة مثلها في المستقبل. لكن لما جدّ الجدّ فيما بعد ابتعت الطبعة العادية الأرخص.

المهم في كتاب ولز ان مؤلفه لم يكن مؤرخاً. كان متخصصاً في علوم الأحياء، وأكثر ما كتب كان من نوع القصص العلمي. لكن كتابه هذا كان من نوع آخر - بالنسبة لقصصه وللمؤرخين. وأكثر ما انطبع في ذهني يومها أنه عندما يتحدث عن المسيح مثلاً ويعود الى انجيل متى يقول إن مؤلف هذا الانجيل يجهد نفسه كي يصل نسب المسيح بداود، كأن الانتساب الى داود فيه أي شيء من الشرَف. وفيه نقد وتفسير منطقيان للكثير مما ورد في العهد القديم: وقد رفض قبول أمور كثيرة من روايات تلك الأسفار.

أذكر أن خليل السكاكيني، بعد ان عاد الى ادارة المعارف وعيّن مفتّشاً للغة العربية فيها، زار عكا في احدى زياراته «التفتيشية» وكنت يومها أنا أعلّم في مدرسة عكا الثانوية، وتحدّثنا عن أمور وأمور وشؤون وشؤون وجاء ذكر ولز الكاتب، فقلت له إنني قرأت له حرب العوالم ورجال مارس فقال إذن أنت تصاحب ولز، فيما أصاحب أنا جورج برنارد شو. كان السكاكيني يومها في العقد السادس من عمره، وأنا كنت بعد شاباً، فسألته عما إذا كان ثمة سبب خاص لاهتمامه بشو؟ فكان جوابه باختصار نحن متفقان في نظرتنا شبه التشاؤمية.

وسألني بدوره عن ولز. فكان جوابي انني أميل الى النواحي العلمية وولز يشبع رغبتي في قراءة القصص العلمي.

وعلى ذكر الريحاني فقد تعرّفت اليه كاتباً وانا تلميذ في دار المعلمين عن طريق «الريحانيات» أولاً. وقد صاحبته فيما بعد في كتابه «ملوك العرب» وكتبه الاخرى. وقد أثارت الريحانيات في نفسي انفعالات كثيرة ومتنوعة، لأن الرجل كان ثورة كاملة. أما كتابه ملوك العرب فهو درة الكتابة السياحية العميقة باللغة العربية.

ومن الكتّاب الآخرين الذين قرأت لهم في ذلك الوقت ميخائيل نعيمة في الغربال (١٩٢٣)، وفي «النهر المتجمد» التي نشرت في أوائل العشرينات في كتاب صدر في مصر بعناية محيي الدين رضا باسم «بلاغة العرب في القرن العشرين» وكان جميع ما فيه لأدباء المهجر.

وعثرت بعد ذلك على «مجموعة الرابطة القلمية» لسنة ١٩٢١، وفيها عدد كبير من القطع الشعرية والنثرية لأعضاء الرابطة (في نيويورك). وقد نشرت هناك سنة ١٩٢١. عثرت عليها، وانا في دار المعلمين، عند القمّص يوحنا الأنطوني البهجوري. أعارني إياها فقرأتها، وعرفت كتابها وشعراءها.

وفي سنة ١٩٢٢ اكتشف اللورد كارنارفون والسيد هوارد كارتر قبر توت عنخ أمون. وكان الاكتشاف من الناحية التاريخية والأثرية شيئاً مهماً بالنسبة لتاريخ مصر الفرعونية. لكن كان لي به علاقة خاصة. فقد نشرت المقتطف قصيدة أحمد شوقي حول الموضوع ومطلعها

دَرَجَتْ على الكَنزِ القُرون
وأتت على الدنِّ السنون
خيرُ السيوف مضى
عليه الدهر في خير الجفون

وكنت قد قرأت له في الهلال القصيدة التي خاطب بها اللورد اللنبي

أعدت الراحة الكبرى لمن غلبا
وفاز بالحق من لم يأله غلبا

والتي جاء فيها قوله

يا فاتح القدس خلِّ السيف ناحية
ليس الصليب حديداً كان بل خشبا

لكن قصيدة شوقي في توت عنخ أمون كان لها في نفسي أثر كبير. وأظن انني حفظتها كاملة، وان كنت لا أذكر الآن منها سوى بضعة أبيات فقط.

وفي دار المعلمين قرأت لأول مرة لطه حسين في الهلال سلسلة مقالاته قادة الفكر التي صدرت فيما بعد كتاباً.

وهناك - في المكتبة - وفي المجلات قرأت لسلامة موسى ولاسماعيل مظهر والياس الغضبان وغيرهم.

ولما توفي اسماعيل مظهر (١٩٦٢) كتبت كلمة نشرت في لسان الحال (البيروتية) في ٢٨ شباط / فبراير ١٩٦٢ بعنوان «مات اسماعيل مظهر». وفي هذه الكلمة ذكريات عن قراءاتي في وقت مبكر من حياتي، لذلك فانني انقلها هنا بكاملها، ولو ان فيها أموراً متأخرة أصلاً عن الفترة التي أتحدث عنها الآن.

مات اسماعيل مظهر.

هذا هو الخبر الذي سمعته قبل ايام، وتلقيته بأسى، كما تلقاه يومها الدكتور فؤاد صروف، وقد عرفه معرفة

صداقة لسنوات طويلة. أما أنا فلم اجتمع بالرجل قط، ومع ذلك فقد كان وقع نبأ موته عليّ شديداً. وأكثر من هذا فقد أثار سلسلة من الذكريات تتعلق به وبعدد من أهل الفكر كان لهم اثر في تكويني الفكري.

ففي سنة ١٩٢١، وفي الاسبوع الأول من شهر تموز، كنت في القدس أقدم امتحاناً لدخول دار المعلمين (الكلية العربية فيما بعد). ولما انتهينا من الامتحان الكتابي تقدمنا الى امتحان شفوي باللغة العربية. وكان مدير دار المعلمين يومها المرحوم الدكتور خليل طوطح، فناولني مجلداً وفتح فيه مكاناً وطلب مني أن أقرأ. وكان الموضوع جبل اراراط، أما المجلد فكان أحد مجلدات المقتطف. هذه كانت أول مناسبة تعرفت فيها الى هذه المجلة. فلما دخلت المدرسة في الخريف التالي اقبلت على قراءة الكثير من مجلدات المقتطف، كما حرصت على قراءة المجلة نفسها حتى وقفت عن الصدور.

هذه الصداقة هي التي فتحت امامي الكثير من الآفاق قارئاً؛ ثم فتح محررها الدكتور فؤاد صروف أمامي المجلة كاتباً فيها؛ ثم تفضل فنشر أول كتاب وضعته وأهداه لقراء المقتطف. وهو رواد الشرق العربي (١٩٤٣).

عن طريق المجلدات القديمة يومها تعرفت الى اسم الدكتور شبلي شميل. ولما حان موعد عطلة الصيف سنة ١٩٢٢، وآن لي ان اعود الى بلدتي، استعرت من رئيس دير الاقباط بالقدس (الأب يوحنا الانطوني البهجوري)، وكنت قد تعرفت اليه مصادفة، مجموعة مقالات للشميل، شغلت نفسي بقراءتها ذلك الصيف.

وثمة كتاب آخر، في فلسفة النشوء والارتقاء، للدكتور شميل قرأته في تلك الاثناء وهذا الكتاب هو الذي أعطاني الفكرة الأولى عن نظرية التطور (وكان الغالب على تسميتها بادىء ذي بدء النشوء والارتقاء). فكان ذلك فتحاً كبيراً لطالب في مدرسة ثانوية دخلها في أعقاب الحرب الأولى، وكانت قبل قراءته مقتصرة على الف ليلة وليلة وتغريبة بني هلال والملك سيف بن ذي يزن وقصة عنترة (وهي كتب أنا مدين لها بالكثير الكثير مما نموت معه وتطورت واياه فيما بعد).

وهكذا أصبحت أهتم بهذه الأمور، وأقل ما يقال فيها انها ذات صبغة علمية، وقد كان لها أثر كبير توجيهي من حيث اسلوب التفكير ان لم يكن من حيث مادته.

وفي هذه الاثناء تعرفت الى كاتب اخر تحدث عن هذه الموضوعات لكنه كان حديث أديب. هو المرحوم الاستاذ سلامة موسى. فقد قرأت له في الأدب وفي العلم المبسط. وكانت مقالاته هي الأخرى تفتح أمامي آفاقاً وآفاقاً.

وعلى صفحات المقتطف تعرفت الى اسماعيل مظهر، كما تعرفت الى كثيرين من الكتاب. لكنني، بحكم ان ثقافتي العلمية كانت محدودة، ظللت اتشوق الى مقالات العلم المبسط كثيراً. وهذا ما فعله المقتطف لي. وكنت أكبر هؤلاء الأفراد من كتاب العربية الذين كانوا يقدمون على الكتابة في العلوم. فالأدب والشعر والقصة والتاريخ أروج في أسواقنا دوماً، ويومها خاصة. ذلك ان كتابنا لم يكونوا قد حذقوا بعد فن التبسيط العلمي، والعلوم لم تكن قد ألف الناس تذوقها. فهؤلاء الذين عنوا بالعلوم يبسطونها كصاحب المقتطف وشميل وسلامة موسى واسماعيل مظهر، كانوا طلائع للفكر العلمي في العالم العربي الحديث ـ الفكر العلمي بما كان ينمو فيه ويتطور من علوم طبيعية وبيولوجية وفلكية ورياضية وكيماوية، وما مت منها الى الذرة بصلة وما بعد عنها، وما كان من الطب وما الى ذلك. هؤلاء كانوا روادنا ومرشدينا وقادتنا. وما أكبر فضلهم علينا ودِيننا لهم.

لست أقصد الى التحدث عن هذا الدين اليوم، كما انني لا أنوي حتى الكتابة عن اسماعيل مظهر، وجل ما آمل أن أفعله هو أن أذكر الذين عرفوني اليه، وقد طواه الردى، وان اسجل فضلاً له ولاخوانه عليّ، وقد يكون البعض نسيه.

لاسماعيل مظهر عدد من الكتب: البعض مؤلف والبعض مترجم، شأن الكثيرين من أهل القلم في ديارنا.

ولست أزعم انني أعرف كل الذي كتبه ولكن تحضرني في هذا اليوم الكتب التالية:

فلسفة اللذة والألم، حياة الروح في ضوء العلم، تجديد العربية، نشوء الكون، المرأة في عصر الديمقراطية، قصة الطوفان، وثبة الشرق، الفكر العربي، تاريخ الفكر العربي، تاريخ العلم، نزعة الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر، القانون والحرية في حضارة الغرب، ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء؛ وأصل الأنواع.

ويبدو من هذه اللائحة أن الكتب منوعة؛ وهذا صحيح. وبعد فالرجل لم يكن استاذاً في معهد يفرض عليه ضيق الحقل الذي يتخصص فيه. بل كان يعمل في حقول الفكر على اختلاف انواعها ومجالاتها. ومع ذلك فانت لو اتيح لك ان تقرأ معظم هذه الكتب في حينها، كما قرأها ابناء جيلي، وتتأثر بها تأثرنا، لكنت وجدت فيها، على اختلاف مناحيها، بضعة امور أساسية لم تغب عن نظر اسماعيل مظهر، كما انها لم تغب عن نظر الذين كانوا يخدمون الفكر مثله. ويمكن اجمال هذه الأمور فيما يلي. ١ - ان تفتيح الأذهان وتوسيع الآفاق كان الأصل عند صروف والشميل وموسى ومظهر وصحبهم ومعاصريهم. ٢ - وانهم كانوا يرون في العلم العنصر الأول والرئيسي الذي يؤدي هذه الغاية الأصلية. ٣ - وانهم كانوا يسعون لا الى نشر العلم من حيث انه علم فحسب، ولكن كانوا يعنون بنشر الفكر العلمي. فلم يكن هدفهم ان يتعلم الناس مزيداً من الطب والطبيعة والكيمياء والرياضيات ولكن كانوا يهتمون بان يتأثر تفكير الناس بهذا الذي يتعلمون. فيصبح تفكيرهم ومواقفهم من الأمور مصبوغة بالصبغة العلمية متأثرة أساليب العلماء. لذلك نجد انهم سلطوا طريقة العلم وأساليب العلماء على أمور قد تبدو بعيدة عن العلم. فكم مقال أدبي حياتي كتبه هؤلاء الناس فكانت روحه مستمدة من العلم وطريقته معتمدة أساليب العلماء والأفكار فيه منسقة تنسيق نظريات الطبيعة. ٤ - عالج هؤلاء النفر علوم الحياة - البيولوجية - واهتموا بها. وهذه الناحية كانت أمراً جديداً بالنسبة الى القارىء العربي. وعلم الحياة نفسه كان في مختتم القرن الماضي ومطلع القرن الحالي، قد طفر طفرة كبيرة في الغرب، فكان نقلهم اراءه ومواقفه ووجهة نظره حافزاً على اعادة النظر في أمور كثيرة في حياة هذه الديار الفكرية.

هؤلاء النفر من رجال الفكر سيذكرهم التاريخ لسبب آخر. فهم فضلاً عن كونهم خدموا العلم، فقد خدموه في وقت لم يكن فيه للعلم نصير. لقد حملوا العبء منفردين، وقاموا بالمسؤولية فرادى، وتحملوا المغارم وتمنطقوا بالصبر ولعل بعضهم مني بالحرمان. لقد عاشوا وكتبوا وعلموا في زمن لم تكن فيه الحكومة تؤيد ولم تكن فيه البحوث والدراسات العلمية تنال من خير موازنات الدولة ما تناله اليوم - على قلته، ولم تكن فيه المعاهد الصناعية قد أخذت على القيام بالدروس والتخطيط، ولم تكن الجامعات تنفق على البحث والتنقيب، ولم تكن الهبات قد عرفت طريقها الى ديارنا - لا داخلية ولا خارجية، ولم يكن التبادل العلمي القائم اليوم معروفاً بعد. لذلك فكل خطوة خطوها، وكل كلمة كتبوها، وكل مشروع نظموه، وكل مخطط درسوه انما قاموا به لوحدهم وعلى نفقتهم الخاصة - الا ما ندر - وما بذلوا في سبيل تحقيقه الكثير مما كانوا بحاجة اليه في نواح أخرى. لكن هي الخدمة وهو الاخلاص للفكرة وهي التضحية يبذلها الواحد دون ان يحسب ما قد يجنيه من فوائد أو قد يخسره.

ومن هنا كان فضلهم أكبر وعملهم اعظم. فهم رواد بكل ما في الكلمة من معنى. وهم «معلمون» بقدر ما تختزن كلمة «المعلم» من طاقات وقدرات وقيم. وهم أهل لأن نذكر مواقفهم واعمالهم بكرة وعشيا.

وثمة أمر اخر تمتع به هؤلاء الناس. لقد كانوا يعملون بلا طبل ولا زمر. وما كان واحدهم يزهو على الناس ان كتب لهم ولخص لهم وقرأ لهم. لقد كان الواحد ينطلق في عمله على سجيته: يعمل هادئاً، وينشر نتاج عمله حيث يتاح له ذلك. فالمقتطف كان يستنزف جهد صروف، لكنه كان مفتوحاً للآخرين. وقد نشر للشميل الكثير من مقالاته ودراساته. وكان سلامة موسى يكتب في الهلال كما انشأ المجلة الجديدة. وكان المقتطف مجالاً

لمظهر، ومع ذلك فقد انشأ مجلة العصور. كما ان اسماعيل مظهر تولى تحرير المقتطف فترة من الزمن في أخريات أيام تلك المجلة.

وكان الكتاب يضعه الواحد منهم فيطبع طبعاً غير أنيق. إلا في النادر. لأن المطبعة الأنيقة لم تكن معروفة، والتغليف المزوق لم يكن قد غزا اسواقنا. وقد يضطر الى طبع الكتاب على نفقته فيلجأ الى الورق الرخيص اقتصاداً في نفقة لعله استدان المبلغ لتغطيتها. ومع ذلك فما كان يدل على القارىء، وما كان يأخذه الغرور، ولا ينتفخ ولا يتيه ولا يفخر على جماعته.

هذه صفات تمتع بها اولئك النفر من الكتاب الرواد الذين فتحوا أمامنا هذه الافاق المتسعة من المعرفة والعلم بشكل منظم واسلوب واضح. هذه الصفات التي انتجت مجلدات المقتطف والهلال وغيرهما والمجلدات التي خلفها سلامة موسى واسماعيل مظهر.

ونحن اذا اردنا ان نختار من أعمال مظهر ما يمكن اعتباره القمة لقلنا ان ترجمته لأصل الأنواع (كتاب داروين) هي الأكبر. ولنذكر انه نقل هذه الرائعة الى العربية قبل ان تحتضن اليونسكو مثل هذه الأعمال. وقد نشر في سنة ١٩٢٥ كتابه «ملقى السبيل» الذي قدمه صاحب المقتطف الى قرائه بقوله: سمعنا بمذهب النشوء ونحن نطلب العلم في جامعة بيروت الاميركية حوالى سنة ١٨٦٩. ومرت السنون ولا ما يوجب نظرنا فيه الى ان انشأنا المقتطف. فكتب فيه المرحوم رزق الله البرباري في المجلد الأول من المقتطف ملخصاً مذهب دارون وما يعترض به عليه، ولعل ذلك أول ما نشر في العربية عن هذا المذهب. وتوالت مجلدات المقتطف وفيها كثير مما يقال في تاييده أو نقضه، وكنا دائماً نتحرى الاعتماد على الذين يوثق بهم في هذا البحث لأن النشوء غير خاص بتسلسل الأحياء وتنوعها بل هو شامل لكل شيء تقريباً. وقد اشتغل غيرنا أيضاً بترجمة الكتب التي تؤيد هذا المذهب أو تنقضه ومن المؤيدين أو مترجمي الكتب المؤيدة الدكتور شميل واسماعيل بك مظهر مؤلف هذا الكتاب «ملقى السبيل».

الكتاب علمي فلسفي يحسن بكل واحد من رجال العلم وطلبته ان يطالعه بتمعن ليقف على ما قاله الباحثون في حقيقة هذا الكون - من أقدم عصور التاريخ من عهد فلاسفة اليونان الى الآن. وقلما ورد قول يؤبه له ولو في المشرق الا اشار اليه وبين ما فيه من قوة وضعف حتى أقوال السيد جمال الدين الأفغاني. وقلما تقرأ صفحة من هذا الكتاب الا وتجد فيها غذاء للعقل وشيئاً يستحق التفكير مما يدل على أن المؤلف اطلع على كتب شتى في موضوعه وتناول زبدتها ودمجها في كتابه.

أما آخر أثر تركه لنا اسماعيل مظهر فهو قاموس النهضة (من الانكليزية الى العربية) وفي مقدمة لهذا القاموس تحدث عن قيمة اللغة بالنسبة للفكر والحضارة. ولعل بعض هذا الذي قاله حري أن ينقل هنا، يقول مظهر:

«لقد اتيح لي أن أكون من أول المشتغلين بالمجمع اللغوي منذ انشائه. وكان من الضروري ان اتجه منذ ذلك الحين الى درس الأسباب التي ترد اللغة العربية المأثورة، لغة حديثة تفي بمطالب العلوم والفنون. وكنت منذ بداية اشتغالي بترجمة «أصل الأنواع» أوثر اللفظ الفصيح على المولد، وأوثر المولد على الحديث، وأوثر الحديث على العامي الذي لم آخذ به قط فيما اكتب مهما مست اليه الحاجة. فكان تفكيري في خدمة اللغة العربية يقوم أول شيء على احياء مأثوراتها اللفظية والاسلوبية، ما دامت تؤدي على وجه من الدقة، المعنى المطلوب اداؤه. واعتقدت الى جانب ذلك كله أن مأثورات اللغة هي طبها المقوم لهيكلها، والنبع الذي تستمد منه الالفاظ الجديدة والمعاني الطريفة، التي يحتاج اليها الأديب والعالم والفنان، لتأدية ما يرد عليه من المعاني والمطلوبات التعبيرية والاصلاحية.

«كانت الترجمة في كل العصور، أساس الأخذ باسباب الحضارات الناشئة عند جميع الأمم، ومثلنا على ذلك العرب واللاتين، نقل الأولون عن الاغارقة، ونقل عن هؤلاء أهل اللاتينية في عصر النهضة الأوروبية، ونحن نمضي الآن في أعقاب هؤلاء، ننقل عن أوربا ما بين ايدي أهلها من العلوم والفنون، بعد ان نقل اللاتين عن لغتنا العربية.

«أما وقد ثبت لدينا ان مأثورات اللغة هي صلبها المقوم لكيانها وهيكلها، وثبت أن حاجتنا الى الحضارة الحديثة أصبحت مادة الحياة والفكر. فلا مندوحة اذن عن العمل على احياء هذه المأثورات بحيث تجرى على أقلام الكتاب والسنة المعلمين والمتعلمين. ولكن ما هي السبيل الى ذلك؟ كيف نضع بين ايدي المترجمين والمعلمين مأثورات اللغة لتجري بها اقلامهم والسنتهم؟ اما السبيل فهي ان نضع معجماً أساسه لغة أجنبية؛ باعتبارها المادة التي ننقل عنها، ونضع امام الفاظ تلك اللغة، مأثورات لغتنا العربية، ومن هنا تنساب تلك المأثورات الى المؤلفات الحديثة، ويجري بها الاستعمال، فتصبح مادة غنية تعين الأديب/التعبير، والعالم على الوضع. جرياً على القواعد الكثيرة التي تجيزها اللغة».

«فلنقف اكراماً لأولئك القوم، واحتراماً لما قدموا لنا، ولنذكرهم متأسين طريقهم سائرين على منوالهم، وليكونوا لنا قبساً ومرشداً ونبراساً».

إذا كانت وفاة والدي وخالتي وخالي أثارت في نفسي نوعاً من الحيرة، وإذا كانت الحاجة التي أحاطت بنا نتيجة لذلك خلقتْ في نفسي حيرةً ممزوجة بالمرارة، وإذا كانت أحاديث الجنس التي ذكرت نماذج منها قد عقّدتني، فأن هذه القراءات التي انفتحت صفحاتها أمامي في دار المعلمين نقلتني الى آفاق واسعة بعيدة، وخلقت في نفسي رغبة في السير قدماً. السير قدماً في سبيل تثقيف نفسي. كانت رغباتي تتمحور حول نقطة واحدة هي الاستزادة من المعرفة في اطار العلم - والرياضيات على التخصيص. ولكن لما أيقنت فيما بعد أن هذا النوع من التخصص لن يتاح لي، وانتقلت الى مجال آخر، ظلّ الباعث على الاستزادة من المعرفة يعمل في نفسي، ويتجدد تلقائياً بالرغم من عدد كبير من المثبطات والاغراءات.

والأمر الذي أود أن أقوله الآن - وأنا قد تجاوزت الثمانين (فأنا أكتب في شهر ايلول / سبتمبر سنة ١٩٨٨) - هو أنني على استعداد أن أقوم بالعمل نفسه والسير على الطريق ذاته لو عاد الزمن سيرته التي عرفتها. ولنذكر أنني أدوِّن الآن اخباراً وأحداثاً تعود الى شبابي الأول، وهو كما كانت عمتي لطيفة تقول لي حتى سنة ١٩٢٦ أنت «لست إلا ولداً كبيراً».

ومع ذلك فان هذا «الولد الكبير» وجد نفسه في سنة ١٩٢٤-١٩٢٥، وهو يعلّم في ترشيحا (ويتعلّم أيضاً) موضع احترام شباب أذكياء وأكبر منه سناً لأنهم رأوا فيه «ولداً كبيراً» يؤمن بالنمو الفردي وبالعزيمة. ولعل من الأمور التي أثّرت في هؤلاء القوم - أصدقائي وأصحابي - على سبيل المثال هو إصرار معلم شاب في قرية (وقد يظل معلماً في قرية ما سنوات طويلة) على أن يطور معرفته بالانكليزية. ولماذا؟ لأن إتقان لغة معناه فتح آفاق جديدة فكرية على اختلاف انواعها - علمية - أدبية - فلسفية. ولأن إيمانه بذلك كان قوياً ولأن تصميمه كان ثابتاً، فقد أعجبهم منه مثل هذا الموقف. وهو لا ينسى الزيارات التي كان أصدقاؤه يقومون بها له لما كان يعلّم في عكا. ولكن أكبر من هذا اثراً في نفسه الزيارة التي تفضّل بها عليه في بيروت كاملُ القاضي. كان هذا «الولد الكبير» قد أصبح استاذاً في الجامعة الاميركية في بيروت، وجاء كاملُ القاضي، أحد كبار الوجهاء في منطقة ترشيحا ورئيس بلديتها من قبل، ومعه ثلاثة من أصدقائه. ومن الطبيعي ان يدور الحديث حول أمور كثيرة، ولكن الذي قاله كامل يومها عني ما معناه: كان هذا الشاب يعلّم في ترشيحا ويرسمُ خُطَطه لأمور كبيرة. كنت أنا أظن أنه

يحلم أحلام الشباب أو أحلام النهار. لكن اتّضح لي فيما بعد أنه لم يكن يحلم بل كان يخطط. وقد وصل الى ما أراد. هذه الزيارة كانت قبل أكثر من ربع قرن! ولم أقضِ ربع القرن الذي مر على تلك الزيارة في كسل أو تراخ، رغم ما أصبت به في السنوات الأخيرة من نكبات!

لست أدري إذا كنت نجحت في رسم صورة للأمور التي كانت تعتمل في نفسي لما خطوت الخطوة الأولى نحو الحياة العملية. بدأت الخطوة العملية في ١٥ ايلول / سبتمبر ١٩٢٤، وكنت قد تركت دار المعلمين في ٢ تموز / يوليو من الصيف نفسه. وفي هذه الفترة التي امتدت نحو عشرة أسابيع، وفي الأمسيات التي كنت أقضيها مستيقظاً مفكّراً كنت أراجع «دفاتري العتيقة»، كما يقول التجار، في محاولة لمعرفة لا ما عليّ من الماضي ولكن ما الذي يتوجب عليّ فعله في المستقبل. ولعل الذي حملني على إثارة هذه النقاط والقضايا والمشكلات جميعها هو أن «كابوساً» أساسياً ارتفع عني يوم ٢ تموز / يوليو (١٩٢٤)، إذ اطمأننت الى أنني سأكون قادراً على تحصيل حاجتي من المال للعيش ولمساعدة أمي إذا اقتضى الأمر.

ولم يقتض الأمر ان أساعدها مباشرة، لأنها توفيت في شهر تشرين الأول / اكتوبر ١٩٢٥، أي بعد بدء عملي بسنة وبضع أسابيع.

ووفاة أمي وضعت على عاتقي عبئاً جديداً كما ذكرت. لم يكن العبء المادي هو المهم. فالمعاش الذي كنت اتقاضاه يكفي لعيش معقول بالنسبة لنا (أنا وأختي واخواي). العبء كان معنوياً.

ولست أدري فيما إذا كنت قد أدركت يومها أن وفاة أمي سيكون حجر عثرة في سبيل اتمام تعليمي الجامعي، وهذا كان مطمحي الأول. لكن أدركت هذا فيما بعد إذ أتيحت لي فرصة الحصول على بعثة من ادارة المعارف (١٩٢٧) للدراسة الجامعية، فواجهتني مشكلة. ومن يُشْرِفُ (لا يَصْرِفُ) على اخوتي وأنا بعيد عنهم؟ ولذلك ضاعت الفرصة!

الفصل الخامس

ولكن العمل بدأ - في الناصرة وتلاه النقل الى ترشيحا.

في السنوات الثلاث التي قضيتها تلميذاً في دار المعلمين (١٩٢١ - ١٩٢٤) لم أتعلم كثيراً في المجال العلمي المدرسي. وإذا قلت أنني لم أتعلم كثيراً فالذي أقصده أننا جميعنا لم نتعلم كثيراً. كان اساتذتنا من أصحاب الكفايات - بالنسبة الى ذلك الوقت. وكان المدير يعنى بالمؤسسة عناية خاصة لأنه لم يكن له طموح سياسي فلم يستعملها مطيّة لذلك. وأحسب أن التلاميذ كانوا يمثلون قطاع المواطنين الفلسطينيين، فهم على درجة من الذكاء ليست قليلة. لكن الظروف لم تكن تساعدنا على التعلم، ولم تُعن مدرّسينا على التعليم. كنا، في صفنا، نزيد عن الثلاثين وكانت أعمارنا تتراوح بين ثلاث عشرة سنة ونصف السنة (مثلي) وبين اثنتين وعشرين سنة مثل بدوي العلمي. وقد جئنا من مستويات تعليمية مختلفة. فانا جئت من الصف الرابع الابتدائي في جنين (كان معلمونا يصرون على تسميته الصف الخامس) وكنت، كما أشرت الى ذلك من قبل، قد قضيت على الأقل سنتين تلميذا في شوارع جنين وأزقتها - بدون مدرسة. كما كان هناك من جاء من صف سموه الثاني الثانوي. ومعنى هذا انه كان بيني وبين «كم واحد من التلاميذ» فرق هو أربع سنوات دراسية. ومنا من كان يعرف «دزينة» كلمات انكليزية ومن كان لا يعرف شيئاً من ذلك أبداً. ومن هنا كانت مشكلة المعلمين مع الطلاب: على أي مستوى يسيرون؟ وقد كان خليل طوطح، مدير الدار، يعرف هذا كله ولذلك فانه لم يَضَع برنامجاً للمدرسة ينطبق علينا، انما نُظم البرنامج بحيث يتم وضعه موضع التنفيذ اعتباراً من سنة ١٩٢٥ (وهو الذي طبقه، مع تقوية وتحسين وتطوير خلفه في الادارة المرحوم احمد سامح الخالدي).

ولم تكن مشكلة المعلمين مع الطلاب هي المشكلة الوحيدة. بل كانت ثمة قضية الطلاب أنفسهم مع المعلمين. أحد معلمينا كان كثير التهزئة بالتلميذ الذي يخطىء في الرياضيات. وكان مدرس آخر كثير الاشارة الى «حمرنة» الطلاب و«جهل» الطلاب و«إهمال» الطلاب، ويكثر من المقارنة بين طلاب دار المعلمين وطلاب بلده الشاطرين المواظبين المهتمين (في الاستعدادية في بيروت)، وفوق ذلك، الأذكياء. وفي بعض الحالات (وزاد ذلك معه فيما بعد) كان لا يتورع عن شتم التلاميذ.

في هذا الجو، الذي حاولت أن أصفه، كان من الصعب ان نتعلم كثيراً. بل انني أعجب كيف اننا تعلمنا حتى هذا القدر الضئيل. ولعل خير ما يمكن أن أقوله عن مجموع ما تعلمناه من المواد المختلفة أنه كان لا يزيد، كما آل اليه التعليم فيما بعد، عما يعادل السنة الثانوية الأولى وبعض مواد السنة الثانية، على تفاوت.

إلا أنني، وأنا استعيد ذكريات دار المعلمين، وأنا اعتبر تلك السنوات الثلاث سنوات مهمة جداً في حياتي، أود أن أسارع الى القول بأنني تعلمت أموراً أخرى كثيرة، لعل آثارها في نفسي كانت أكبر بكثير من المادة المدرسية التي لقناها والتي أتيح لنا أن نهضمها. وأنا في حديثي عن هذه الأشياء الأخرى التي تعلمتها - وتعلمها آخرون سواي - لن أذكرها مرتبة حسب أهميتها أو وفقَ أوقات حدوثها. انني الآن أتذكر، وعندما يتذكر المرء أشياء بَعُد عهدُه بها، فانه يدوِّنها على الورق كما تخطر له: وهذه العفوية في الكتابة، على أساس التذكّر العفوي، هي التي

تكسب هذه الصفحات التي اكتبها بعض ما فيها من متعة أو طلاوة (أو طراوة) إذا كان فيها أي شيء حقاً.

لم تكن تنقصني عادة القراءة لما دخلت دار المعلمين. فالوقت الذي مرَّ علي، وخاصة في جنين، بدون مدرسة، كنت أصرف ساعات طويلة منه في قراءة ما تقع عليه يدي. لكنني في دار المعلمين وجدتني - للمرة الأولى في حياتي - وجهاً لوجه أمام مكتبة، وأمام مكتبة هي تحت تصرّفي استعير منها ما أريد، أقرأه حينما أرغب، وأعيد الكتاب في حدود وقت معين (أو أجدد استعارته). هذه التجربة بحد ذاتها كانت مهمة لي. ولا أزال أعتقد أن أحدَ نواحي التقصير المهمة في البلاد العربية هو انعدام المكتبات العامة التي تتيح للناس ان يقرأوا.

التجربة كانت، إذن، أنني وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام مكتبة. ومكتبة دار المعلمين يومها كانت مكتبة ناشئة في مدرسة ناشئة. ولعل عدد الكتب العربية لم يزد عن الاربعمئة، وكان فيها نحو مئة وخمسين كتاباً باللغة الانكليزية. والكتب جميعها، باللغتين، كانت منوعة المواضيع غير منظمة الجمع أو الشراء. إنها عمل «بعد الحرب» العالمية الأولى، في بلد عانى من الحرب الكثير، وكان الذي سيعانيه في أيام السلم أشد ضرراً وأمعن أذى. في بلادنا مَثَلٌ هو «مشفوح ووقع بتين مسطوح». والمشفوح الجائع الى الغذاء، والتين المسطوح هو التين الذي يشقّ من نصفه وينشرُ على السطح ليجفّ. ومعنى المثل هو «الجائع الذي يقع على تين هذا وصفه». والتين في هذه الحالة يكون قد جفَّ بعض مائه، ولكنه لم ينشف تماماً. فهو لذيذ مغذ وما الى ذلك. وهذا ما أصابني - مشفوح (جائع الى القراءة) ووقع على تين مسطوح (كتب جاهزة طلية). وقد زاد عدد الكتب في المكتبة بحيث انه قارب الضعف قبل ان تركنا المدرسة؛ ومع ذلك فانني اكاد أجزمُ أنني لم اترك كتاباً من كتبها لم أقرأه أو استعره (لاستعراضه) أو أمسّه. ولست أزعم أنني كنت أفهم كل الذي اقرأه وخاصة بالانكليزية (مع انني كنت أحد الذين كانوا يعرفون دزينة كلمات من هذه اللغة لما دخلت المدرسة)، ولكنني لا أستطيع أن أصفَ السرور الذي كان يعتريني عندما أدخل الغرفة التي كانت خزائن الكتب موضوعة فيها، في الأوقات التي كان يعينها الاستاذ جورج خميس للاستعارة أو الاعادة. لست أدري تماماً هل كان شعوري شعور الداخل الى محراب أو شعور الداخل الى مطعم؟ على كل حال كنت أنتظر غذاء، ولم يكن مادياً.

ولم يكن عدد الذين يستعيرون الكتب كبيراً. لذلك كان وقت جورج خميس يتّسع للحديث والارشاد، بالنسبة للكتب. وقد استرشدت برأيه كثيراً أول الأمر. ثم قررت ان اقرأ كل شيء. فأنا لست من اتباع كنيسة تحرّم قراءة كتب معينة على الرعية. بل انني من اتباع كنيسة لم تكن تعنى بالرعية قط. فأنا، بوصفي من طائفة الروم الارثوذكس كنت أخضع للكرسي الاوروشليمي (هذه التسمية الرسمية التاريخية، لكن نحن نستعمل دائماً بطريركية القدس)، الذي كان البطريرك فيه يشمل سلطانه فلسطين والأردن (أو شرقي الاردن كما كانت البلاد تسمى يومها). والبطريرك وجميع أساقفة (مطارين) البطريركية من ابناء اليونان - لم يكن يومها بينهم عربي واحد. ولم يكن يُسمح لأي فتى عربي ان ينضم الى الرهبنة (أخوية القبر المقدس) حتى لا يتاح له الوصول الى الرتب الكنسيّة العليا. وكان أي خوري (في مدينة أو في قرية) لا يُرسم إلا بعد أن يتزوج. ذلك بأن زواجه يمنعه من التقدم في المراتب الكنسية. وهذه المؤسسات البطريركية والأخوية والأساقفة، لم يكن للشعب مكان في حسابها (حسابها كان يشمل الأوقاف والأملاك والمدخول المالي والعمل السياسي) أما الرعية فيكفي أن يعين لها - في كثير من الحالات - خوري شبه جاهل، يستطيع أن «يتهجأ» كلمات لأجزاء محدودة من الكتاب المقدس. ولعل من أهم مظاهر الاستهتار بالرعية العربية هو أن القداس في كنيسة نصف الدنيا (في كنيسة القيامة) في القدس كان يقام باللغة اليونانية. وهذا الأمر كان يحملني على تأدية فرض العبادة، إذا أردتها، في أمكنة أخرى، أي في كنائس أخرى.

واذن فما دمت من اتباع كنيسة لا تُحرِّمُ على رعيتها كتباً معينة، فلاقرأ ما أجده. وهكذا فعلت، وهكذا قرأت.

في دار المعلمين تعلّمت النظام ودربت على الترتيب. ولست أقصد بالنظام النهوض مع الجرس المعيّن، واللجوء الى الفراش عند اطفاء الأنوار، وعندما كان عريف الغرفة يقول «يَلاّ، يا شباب.» لا، هذا أبسطُ أنواع النظام والترتيب.

كنا ننام في غرف تختلف مساحاتها، ولكن أصغرها كان يتسع لخمسة طلاّب وأكبرها لاثني عشر طالباً. وفي السنة الأولى كنت في واحدة من الغرف الصغيرة وفي السنة الثانية في غرفة متوسطة (وهكذا كله بطريق المصادفة) لكن في السنة الثالثة والاخيرة أعطيت سريراً في غرفة فيها أثنا عشر طالباً. وهذا لم يكن بالمصادفة. كان لكل غرفة عريف من طلاب السنة النهائية ولذلك لما وصلت الى السنة النهائية أعطيت غرفة كبيرة لأكون عريفاً فيها، وكان ذلك نتيجة لتفهمي معنى النظام، لا مجرد السير عليه، لأن الجو يتطلب ذلك. كان من الضروري أن يظل أحد الشبابيك في الغرفة مفتوحاً طوال الليل للتنفس. وشتاء القدس بارد. فكان كل تلميذ يعترض على ذلك ويرفض فتح شباك قريب منه. الأمر بسيط. اخترت أنا سريراً قريباً من شباك، واحتفظت بالشبّاك مفتوحاً طوال الليل، وأحكمت الغطاء على نفسي، فلم أبرد، ولا نحن تنفّسنا هواء خانقاً طوال الليل. أو كما يقول المثل «لا مات الذيب ولا فنيت الغنم».

وكان مما يدخل في نظام دار المعلمين ايام تلمذتي هو أن يقوم الطلاب بتقديم الطعام والخدمة في غرفة الطعام بالتناوب. ولم يكن هذا مقابل اجر أو مكافأة، بل كان جزءاً من تعويدنا على الخدمة العامة المنظمة. وأنا أعرف كثيرين من الطلاب الذين كانوا يودّون الغاء مثل هذا الترتيب. وقد جاء الالغاء فيما بعد. أما في أيامي أنا كانت هذه الخدمة جزءاً من نظام المدرسة.

ومما يعتبر جزءاً من تدريبنا على النظام عن طريق معلّمينا أن كلّ مدرس كان يطلب منه أن يأكل مع التلاميذ في يوم نوبته - فطوراً وغداءً وعشاءً. ولما كان المديرُ يأخذ يوماً للنوبة (على الأقل في أول سنتين من اقامتي بدار المعلمين) فقد كان يشاركنا طعامنا. وكانت في نظري، هذه من أجمل وأمتع ما كنا نراه ونجربه. وكان المدرسون، بطبيعة الحال، يتنقلون من طاولة إلى أخرى. وكان ثمة غرفة طعام يتناول فيها الاساتذة طعامهم. وقد جلس معلمونا معنا واكلوا معنا، إلا واحد. هذا كان يسير بين الطاولات في غرفة الطعام كانه ناطور يحصي علينا عدد اللقم التي ناكلها. ويبدو، حتى في سيره، وكأنه يعتبر الأكل معنا دون منزلته الاجتماعية. ولم يعجبني سلوكه شخصياً. ولما عرفت فيما بعد خلفيته الاجتماعية احتقرته لتصرفه معنا على هذا الاسلوب.

كان الماء في القدس يومها قليلاً، لذلك كان الحمام الساخن يعطى لنا مرّةً أو مرتين في الاسبوع، حسب توفر المياه (كان هناك مكان لأخذ دوش بارد لمن يشاء وأيضاً حين توفر المياه). وترتيب الحمام الساخن كان أمراً يحتاج الى تنظيم خاصّ. الحمام كان في قاعة تتسع لستة طلاب يستحمّون في وقت واحد معاً. لذلك كانت ساعات الحمام تمتد طويلة. وكان يترتب على المكلّفين بترتيب ذلك ان يراعوا ان يكون ثمة ماء ساخن كاف وماء بارد كاف لخلط الاثنين. وكان الماء يسخن في خلاقين (حلل ضخمة)، ويعطى كل طالب حصته عندما يدخل الغرفة. وبحكم انني أشرفت (كما أشرف غيري) على تنظيم هذه العملية فقد اكتسبت خبرة (محدودة طبعاً) في ترتيب مثل هذه الأمور.

وتعلمت خلال هذه السنوات الثلاث ان آكل ما يقدم لي. أنا أعرف أنني لم اكن، فيما اذكر، من الأولاد الذين يتطلّبون الأشياء المختلفة (أخي الفرد كان من هذا النوع). لكن على الأقل يمكن للواحد في البيت أن يعتذر مرة عن طعام معين، فيجد لبنة أو جبنة أو حبات زيتون (نوع واحد فقط) ياكلها بدل طعام آخر. لكن في المدرسة لم يكن مثل هذا الأمر متيسراً. لذلك تعلّمت ان آكل ما يقدم، مع ادراك قضية هامة جداً وهي انك إن لم تاكل الطعام تظل

جائعاً أو كما يقول القاموس «تبيت على الطوى».

وقد كان ثمة عدد من الطلاب لا يعجبهم أكل المدرسة، فكانوا يمتنعون عن تناول طعام الغداء أو العشاء. ولكن أين يأكلون؟ كان أقرب مطعم يمكن أن يتناول فيه المرء طعاماً، فيما لو تمكّن من دفع الثمن، عند ميدان البوسطة القديمة، الذي كان يبعد نحو ٤٠ دقيقة مشياً على الأقدام. والذهاب اليه متعذّر لبعده ولأن ادارة المدرسة لم تكن تسمح للطلاب بالخروج متى شاءوا. وإذن فما العمل؟ كان على مقربة من المدرسة دكان بقال (سمّان) بسيطة جداً. كان صاحبها يبيع الجبن واللبنة وعلب السردين والأرز والسكر والبن والكبريت. كان هذا الرجل يضيف الخبز الى سلعه اكراماً لخاطر هؤلاء الطلاب. فكان الواحد من هؤلاء «المتعجرفين» يرفضُ الطعام المطبوخ، ويذهب الى الدكان ليأكل خبزاً مع شيء مما ذكرت. وأحياناً كان الحانوتي يضيف الحلاوة الطحينية والدبس الى متاجره.

على أنني أظن أن أحدَ العوامل التي كانت تدفع بالبعض الى الذهاب الى الدكان هو التدخين. كان التدخين ممنوعاً في المدرسة. ولذلك كان الطلاب المدخنون يفعلون ذلك «بالخفية». وذهابهم الى الدكان كانت إحدى غاياته التدخين في الفترة التي كانت تمر بين انتهاء موعد الغداء أو العشاء وبدء الدروس بعد الظهر أو ساعة الاستعداد مساءً.

قد تبدو الأمور المتعلقة بالأكل والخدمة في غرفة الطعام والتسلّل الى الدكان - أظن ان اسم صاحب الدكان كان ابراهيم لذلك كانت الاشارة الى ابراهيم تعني الدكان - أموراً طفيفة عند البعض. وسيقول كثيرون ممن يقرأون هذا الذي أكتبه الآن انني أودّ أن أملأ أوراقاً وصفحات متفلسفاً حول أمور بسيطة هي كالعاصفة في الفنجان. لكن الواقع أن هذه الأمور كانت ذات قيمة كبيرة في حياتنا - أو فلأقلْ في حياتي. إنني أذكر درويش المقدادي - الذي انضم الى الهيئة التعليمية في خريف ١٩٢٢ - وقد دار يوماً على الخزائن الخاصة بالطلاب وجمع منها الكثير من المأكولات (وكان ذلك غير مسموح به) مثل الخبز والجبنة والحلاوة والبسكويت. وجمعنا وتحدث عن هذه الأشياء، فقال هذا الخبز أكل الدهر عليه وشرب، وهذه الجبنة قد عفَّنت وأصبحت ضارة وهذا القُطَّين (التين الناشف) أصبح مقاماً للدود. وهذه الأشياء جميعها فيها ضرر، فضلاً عن أنها تغري بعض الهوام والحشرات وحتى الفئران لتدخل الى الدار. فهل هذا ما تريدونه لمدرستكم ومعهدكم. والمدرسة تقدم الخبز الطازج والجبن الصحيح والطعام المغذي.

درويش المقدادي كان أحد أعلام المدرسة خلقاً ومعرفة واجتهاداً، لذلك ذكرت هذه الحادثة له. ومن الطبيعي ان لا يكون جميع الطلاب ممن يخلّون بالنظام البسيط هذا - نظام الطعام وقاعة الطعام وما الى ذلك - لأسباب كثيرة. لعلّ البعض كانوا لا يملكون من النقود ما يمكّنهم من القيام بمثل هذا العمل. ولعلّ البعض لم يكن يُدَخِّنُ لذلك لم يذهب وأنا كنت جزءاً من الفريقين. المهم بالنسبة لي ان هذه الأمور مع أمور أخرى سأذكرها الآن، كانت مفيدة لي في مستقبل حياتي خاصة لما وجدتني أعلّم في قرية كان عليّ أن أقومَ فيها بكل ما احتاجه. وكل ما وجدته يومها هو أن زوج صاحب المنزل الذي استأجرتُ فيه غرفة كانت تعجن وتخبز لي مرتين في الاسبوع.

اما الأمور الأخرى التي كان يترتب علينا أن نقوم بها بانفسنا فيدخل في عدادها ترتيب الفراش يومياً في الصباح، والعناية بتنظيف أحذيتنا وترتيب خزائننا والمساعدة في المناوبة للأساتذة الذين كانوا يتولّونها.

وكانت المدرسة تعنى بالرياضة البدنية. فكان جورج خميس مسؤولاً عن تدريبنا ثلاث مرات في الاسبوع حول نصف الساعة بين التاسعة والعاشرة صباحاً. وهناك سمعتُ لأول مرة بكلمة الالعاب (أو التمارين) السويدية. وكان معلمنا يحاول ان يتعرّف الى التمارين الضرورية لتنشئة الجسم. وكان هناك لعبة كرة القدم، التي كانت مجال المسابقات الرياضية الأول، بين المدارس. وقد بنينا نحن بأيدينا ملعباً للتنس وتدربنا على اللعبة.

وأود أن أشير بهذه المناسبة الى أن الشيخ محمود أحمد الوصيف من ميت غمر بالدقهلية (خريج مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة) كان يعلمنا اللغة العربية (١٩٢١-١٩٢٢) ورغب في ان يلعب كرة القدم. وقد حلّ مشكلة عورة الرُكبة (يومها) بأن احتفظ بالكلسون القطن الطويل تحت بنطلون كرة القدم (الشورت) والكلسات، وانضم الى اللعبة وسُرّ بها.

لكن في سنة ١٩٢٣-١٩٢٤ المدرسية جاء دار المعلمين روبرت تلحمي (أو كفلكنتي) بعد أن قضى ثلاث سنوات يتخصص في الرياضة البدنية في بريطانية واهتم لا بالرياضة فحسب، ولكن بالكشافة أيضاً، التي كانت موجودة في المدرسة من قبل ولكن دون وجود قائد خاص (إذ كنا نستفيد أحياناً من رؤساء الكشافة في جارتنا المدرسة الرشيدية). وكانت الحفلة السنوية الرياضية لمدارس فلسطين تقام سنوياً على ملعب دار المعلمين وقد ظلّت كذلك بعد ان انتقلت دار المعلمين، وكان اسمها قد أصبح الكلية العربية منذ سنة ١٩٢٧، الى مبناها الخاص على جبل المكبّر، هذا إذا أقيمت الحفلة في القدس، إذ أنها كانت أحياناً تقام في مراكز الألوية الادارية - حيفا ونابلس ويافا وغزة.

هذه النشاطات الرياضية على اختلاف انواعها، والتي اشتركت في كل منها بشكل أو بآخر، كان لها أثر في نفسي - كان اثرها كبيراً لأنها جميعها كانت تنتهي الى نقطة واحدة هي - النظام والترتيب ويسبقهما التخطيط. ويدخل في عداد الأمور التي كانت تحتاج الى تخطيط الرحلات الاسبوعية على الاقدام الى الأماكن المختلفة حول القدس مثل «عيون فارة» في وادي القلط (الكلت) ودير مار سابا وآثار هيروديوم (خريطون) وعين كارم وأماكن أخرى كثيرة. ومما أحب أن أذكره هو أنني لما عدت (سنة ١٩٤٠) الى الكلية العربية (أي دار المعلمين السابقة) مدرساً بعد تغيب استمر ستّ عشرة سنة كنت آخذ الطلاب لزيارة هذه الأماكن. وأحسب اننا زرنا كل مكان يستحق أن تُقضى فيه ساعات في جوار القدس على بعد يتراوح بين خمسة كيلومترات وخمسة عشر كيلومتراً. وكل ذلك كان على الأقدام.

بعض رحلاتنا في دار المعلمين لم تكن مخططة سابقاً. أذكر انه في ربيع ١٩٢٣ أعلن درويش المقدادي أنه (في صباح اليوم التالي قبل طعام الفطور) ينوي الوصول الى مشارف عين كارم. فمن أراد من الطلاب فليلقه على باب المدرسة الساعة السادسة صباحاً. وفي الساعة المعينة التقيناه - ستة من الطلاب منهم أنا - وسرنا ساعة الى المكان ذهاباً وأقل من الساعة عودة. وقضينا نحو ربع الساعة نمتّع ناظرينا بمنظر من أروع ما يمكن. من مشارف عين كارم كان يطل الواحد على واد طويل قليل التعرّج في أجزائه العليا. جنبات الوادي كانت تغطيها أشجار اللوز. وكانت هذه الأشجار في ذلك الصباح مغطّاة بزهر اللوز الأبيض الجميل. هذا منظر لا ينسى. وقد تكرّرت زياراتي للمكان فيما بعد في مثل ذلك الوقت. لكن الحب ظل للمنظر الأول.

وفي دار المعلمين تعلمت آداب السلوك في الاجتماع والتخاطب والتحية. ليس معنى هذا انني لم أكن أعرف شيئاً من ذلك قط. لا. لكن الذي كنت أعرفه كان محدوداً بطبيعة الطفولة التي قضيتها هنا وهناك. لكن في دار المعلمين كان عندنا من يرشدنا، اذا طلبنا الارشاد أو قبلنا النصيحة عندما نُلْفَت الى الأمر. وأنا كان عندي استعداد للتعلم. طبعاً تعلمت نواحي أخرى من آداب السلوك فيما بعد. لكن القواعد الأولى تعلمتها في دار المعلمين. أذكر انني في أحد الأيام كنت أدخل بوابة الدار راكضاً، وكانت زوجة المدير واقفة قرب البوابة، فحييتها، لكنني لم أتوقف، (لا بد انه كان ثمة ما يحملني على الاسراع). فاذا بها تناديني، ولما عدت اليها قالت لي: «في الحالة التي كنت أنت تركض فيها الاعتذار للشخص الواقف هو أهم من التحية!» ليس المهم ان تقبل الرأي وترفضه، وقد يختلف اثنان حول قضية من هذا النوع، ولكن المهم المهم هو ان تجد من يرشدك، وأنت تكون لديك أذنان للسمع!

في الحفلات التي كانت تقام في دار المعلمين، لمناسبة القاء محاضرة لزائر كبير أو لمجرد قدوم زائر كبير الى المدرسة، كنا نكلّف القيام بالاستقبال أو التوديع أو مرافقة الزائر. ومثل هذه الامور كانت، بالنسبة لي، دروساً مهمة في التعامل الاجتماعي.

وما دمنا قد أشرنا الى زوار ومحاضرين، فاود ان أشير الى زائر - محاضر هو العلامة الأب انسطاس ماري الكرملي، الذي ألقى علينا (في أوائل سنة ١٩٢٢) محاضرة في فقه اللغة العربية واشتقاقها وما الى ذلك. وقد قدّمه لنا اسعاف النشاشيبي. وكل ما أذكره مما قاله الكرملي يومها هو أنه اقترح كلمة دُخْنَة للسيكار، ودخينة للسيكارة. وشاع استعمال السيكار وظل الناس يدخنون السيكارة، ولم يستعمل أحد دُخْنَة أو دخينة. وحتى لما كنت أدخّنُ السيكار كنت استعمل دخنة لرواية قصة الكرملي فقط. وقد كنت خطيباً في حفلة تكريم للكرملي في القدس سنة ١٩٤٦، وذكرت له القصة التي كان عمرها ربع قرن!

أما من كبار القوم الذين زاروا دار المعلمين أيام كنت تلميذاً فيها الأمير عبدالله - أمير شرقي الاردن يومها. وبعد مدة زار دار المعلمين الحاج أمين الحسيني.

وأذكر من زوار دار المعلمين السر رونالد ستورز (Sir Ronald Storrs) الذي كان حاكم القدس يومها. وأذكر انه لما وصل الى صفنا (كنت يومها في السنة الثانية في دار المعلمين أي ١٩٢٢-١٩٢٣) حدثنا عن الكتب التي استهوته في حياته (والرجل كان أديباً!) وهي أربعة كتب: الكتاب المقدس والياذة هوميروس وشعر ملتون (وقد انسيت الرابع، وقد يكون احدى روايات شكسبير). وقد ذكّرت السر رونالد ستورز بتلك الزيارة لما التقيته في بيروت بعد ذلك بنحو أربعين سنة، وكان ذلك في بيتي!

انها أيام، أذكرها الآن وأنا بعيد عنها ما يزيد عن ستين سنة. لكنها أيام عشتُها، وأفدت منها، ونعمت بها. وليس هذا آخر حديث لي عنها.

في الفصل المدرسي الأخير لي في دار المعلمين (ربيع - صيف سنة ١٩٢٤) تحدّثنا أنا ودرويش المقدادي (كان اسمه لا يزال درويش الحاج ابراهيم) وبعض الطلاب حول تنظيم رحلة لزيارة جبل الشيخ. ومع ان الحماس كان كبيراً، فلم يتم شيء بشأن ذلك.

لما تخرّجت وذهبت لقضاء ما تبقى من عطلة الصيف في الناصرة، رتّبت مع رفقاء لي فيها (وكلهم كانوا طلاباً في دار المعلمين) القيام برحلة على الأقدام لزيارة طبرية.

في طريقنا الى طبريّة مررنا بقرون حطين حيث جرت المعركة المشهورة بين صلاح الدين والصليبيين سنة ٥٨٣/١١٨٧، والتي انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً ساحقاً. وفي طبرية زرنا المناطق الواقعة على شواطىء البحيرة الغربيّة من مخرج نهر الأردن في الجنوب حتى كفرناحوم في الشمال. وشاركنا صيادي السمك في أعمالهم.

أما رفقاء الرحلة فكانوا فهيم خوري ونمر حبيب (العُلَيمي فيما بعد) ومحمد نمر (الهواري فيما بعد) وحنا ابراهيم. وكان مضيفُنا في طبرية ابراهيم مطر. فقد رتّب لنا أن نقضي ليالينا في منازل اصدقاء لاسرته مدرسين كانوا متغيبين بسبب عطلة الصيف.

وهذا المنقول التالي هو انطباع عما استمتعت به في تلك الرحلة (كتب هذا سنة ١٩٤٣).

في شمال فلسطين مجموعة من المياه تشغل جزءاً من غور الاردن تقل مساحته عن الثلاثمائة من الكيلومترات المربعة، وينخفض سطح الماء فيها نحو مئتين من الأمتار عن سطح البحر. وتحيط بهذه المياه جبال ترتفع في أكثر الأحيان ارتفاعاً فجائياً، وفي أقلها تدريجاً، الى مئات الأمتار. هذه هي بحيرة طبرية. وهي مثل من الأمثلة الكثيرة على أماكن الجمال وبقاعه في بلادنا. والحق انه لا يجوز ان يخرج احد ابناء بلادنا الى الخارج

قبل ان يزور هذه المنطقة. ذلك لانها تضع امامه مقياساً رفيعاً للجمال يسهل عليه الحكم على ما يرى في اجزاء كثيرة من العالم. والمقياس الرفيع هذا يرجع الى تنوع الصور الجميلة التي تنطبع في ذاكرتك للأماكن. فأنت تجلس في صباح يوم من أيام الربيع لتراقب الشمس تجد السير للطلوع علينا. فإذا ما بدت لك تباشيرها رأيت غيمة تعترضها، وينتقل بك الخيال الى مشاهدة خصومة عنيفة بين الشمس والغيمة، فترتفع الواحدة وترتفع الأخرى، وتوشي الشمس أطراف الغيمة بخيوط فضية، ثم بخيوط ذهبية، فتعجب الغيمة بجمالها، وتتيه دلالاً فيغلبها النور الوضاح، وتزهو الشمس في الأفق. فاذا جئت في صباح آخر لترى مثل ذلك الشروق الجميل، ولتستمتع مرة ثانية بهذه الخصومة تشنها جيوش النور على فلول الظلام وأعوانه شهدت عجباً. هذه الغيمة استعانت بأخوات لها، عزيزات عليها، وتقف الغيوم في طريق الشمس، فاذا ظهرت هذه رأت عجباً من القوة والنفوذ، فتلح في حقها، وتجمع قوتها وتهاجم وتشتد الخصومة ويجرد السلاح ويعنف القتال وتسيل الدماء، وكل ذلك صور تتعاقب امامك وتملأك سروراً ومتعة، وتثير في نفسك كوامنها وتهيجك للقتال والجهاد. فإذا انتهت المعركة بتغلب النور أيضاً، رأيت الشمس رفيقة بالغيوم المنهزمة والمضرجة بدمائها، فهي تجمع لها الورود تنثرها عليها، ثم تلفها كلها بنورها، وتنقلها معها الى حيث ينقل الابرار والصالحون من ابناء الآلهة.

وان لم تكن من عشاق الشروق، فأنت واجد في قارب يمخر بك مياه البحيرة، يشق بحيزومه ماءها، في ساعة من ساعات الصباح، أو ساعة من ساعات المساء، ما يذهب عنك التعب، أو ما يعطيك رياضة جسمية إذا أرحت الملاح من عمله وتناولت مجاذيفه وحركتها بدلاً منه. وأنت إذ تنتقل من مكان الى آخر في البحيرة، توجه وجهك نحو جبل الشيخ الملتحف بردائه الأبيض، فترضاه لك قبلة تتولاها، تسترشد برشده، وتهتدي بهديه، وتعجب بعظمته، وتقوى بقوته، وتشعر بمعنى رسوخ العقيدة، وبالاطمئنان الى الايمان.

على أن بحيرة طبرية تحوي في ربوعها غير هذا الذي ذكرت. فقد اختصم فيها النور والظلام غير مرة، وانتصر النور. فشواطىء البحيرة شهدت الكثير من تنقل السيد المسيح ووعظه وإرشاده واعماله، ومن صيادي السمك هناك أخذ السيد المسيح بعض رسله، وبين أهليها عاش. فالمجدل، بلد مريم المجدلية، وجبل البركة وكفرناحوم (تلحوم) وبيت صَيْدا، اماكن تثير في نفس المؤمن ذكريات حية. وتفتح أمامه آفاقاً جديدة في التفكير الروحي، وتقدم له الواناً من الغذاء المعنوي، لا يحصل عليه في أماكن كثيرة في بلادنا.

وعلى مقربة من البحيرة، في وادي اليرموك وضعت الأسس العربية لهذه البلاد لما انتصر ابن الجراح على جيوش هرقل وهزمها سنة ١٥ هجرية (٦٣٦ ميلادية). وعند شعاب حطين، الى الغرب من البحيرة، لقي صلاح الدين جيوش الصليبيين، وانتصر عليهم، واثبت رسالة اليرموك في هذه البلاد. ونحن اذا توسعنا في المنطقة قليلاً تذكرنا معركة عين جالوت التي ردت جموع المغول عن سورية في القرن الثالث عشر. نعم هذه هي النواحي الروحية والقومية التي تنعشها في نفوسنا بحيرة طبرية وما حولها.

على اننا، ونحن نستعرض هذه النواحي من بحيرة طبرية، ورسالتها الروحية، نود ان نذكر النواحي الأخرى لهذه المنطقة. فثمة الناحية الصحية المتجلية في حماماتها المعدنية، وفي الحمة التي يسهل الوصول اليها منها، وفي الينابيع الأخرى الصغيرة المنتشرة في ربوعها، وفي المصح الذي افتتحته ادارة الصحة العامة بفلسطين في الطابغة. وثمة الناحية الأثرية التي يعنى بها المؤرخون والمنقبون والتي يجدونها ممثلة في دراسة انقاض طبرية القديمة وكفرناحوم وما اليهما. وقد ظهر من نتيجة هذه الأبحاث ان بحيرة طبرية كان يحيط بها في ايام المسيح بضع عشرة مدينة قدّر عدد سكانها بنحو ٧٠,٠٠٠ نسمة. وفي المدينة نفسها بقية الأبراج والأسوار التي بناها ولد الظاهر عمر في القرن الثامن عشر للدفاع عنها.

ومن هنا نرى أن التنوع في جهات بحيرة طبرية هو العامل الرئيسي في حسبانها بقعة جميلة جذابة، هذا

على أن يحسن المرء اختيار الوقت لزيارتها، وافضله الشتاء والربيع. على انني عرفت البحيرة وجهاتها في الصيف غير مرة، ونعمت بحرها، وهو شرها، ونعمت بمائها وهو الخير كل الخير. وإن أنس لا انسى يوماً حاراً من أيام الصيف صرفته مع جماعة من الصحب تنقلنا فيه في قارب بين المدينة وتلحوم والطابغة والمجدل. فحرقتنا الشمس ما شاء لها أن تحرق، وغمرنا الماء ما شاء له أن يغمر، وشاركنا البحارة في التجذيف، وساعدنا الصيادين في لم شباكهم، فأعطونا من السمك الذي أفاء الله به عليهم، وأوقدنا النيران وشوينا السمك واستمتعنا به. فكان لنا كل ما يكون لطالب النزهة والراغب في اللهو البريء، والمرح الذي يذهب عن النفس أحزانها، ويورثها ذكريات عذبة.

والوصول الى بحيرة طبرية ميسور على كل من أراد. فهي تقع على طريق العربات الرئيسي الذي يصل دمشق وصفد بحيفا. وهي الى ذلك قريبة من فرع سكة الحديد الحجازية الذي يمتد من درعا الى حيفا. فهي في متناول المقدسي في أقل من خمس ساعات، وفي متناول الشامي في مدة تزيد على ذلك. أما ابناء المدن الأخرى فأمرهم أهون وخطبهم أيسر. ومتى وصل المرء الى طبرية واستقر فيها اتخذها مركزاً لتجواله، ونقطة ابتداء لأسفاره. وكل جزء من شاطىء البحيرة وضفافها حري بالزيارة. فمحب السير على الأقدام يمتع نفسه بتسلق وادي الحمام الى قلعة ابن معن. وهي مجموعة من المآوي المنحوتة في الصخر والكهوف الطبيعية على عدوات الوادي، يتسلق اليها المرء في شيء كثير من الصعوبة، وشيء كثير من المتعة فإذا وصلها أطل منها على البحيرة الهائئة الصافية وخلفها جبال الجولان البركانية، فرأى منظراً ينطبع أثره في النفس ويعجز الانسان عن وصفه. وإذا استمر في سيره ساعة أخرى وصل الى خربة إربل، حيث يعثر على أنقاض قصر هو واحد من القصور الصغيرة التي بناها الأمويون لاعتزال الحياة الصاخبة في دمشق والاستمتاع بحياة خاصة هادئة. وان ساعة أخرى لتنقل السائر الى سهل حطين، حيث جرت الموقعة الحاسمة، والى قرية حطين حيث يوجد مقام النبي شعيب. فإذا تسلق قرون حطين، وألقى بنظرة الى البحيرة والغور الذي تشغل بعضه، تمثلت أمامه حقبات التاريخ منذ ان انتقل الانسان من الهمجية الى الحضارة الى عصرنا الحاضر.

أما الذين يحبون التجذيف فإنهم واجدون في يوم أو أكثر متعة لا أحسب ان اماكن كثيرة في العالم تجود بمثلها. انهم واجدون لذة في الانتقال على شواطىء البحيرة كلها في قارب، يحملون فيه زادهم، وقد يحملون معهم خيمة، إذا شاءوا، ليقضوا ليلة في الجهة الشمالية الشرقية من البحيرة. وهم إذ يصلون الى فيق، في الجهة المقابلة لطبرية تماماً، يرون هناك آثار الطريق الروماني القديم الذي كان يمتد من مرج ابن عامر، ماراً بجنوب البحيرة ومنها الى دمشق بطريق فيق. وكان يتشعب من هذا الطريق فرع يحمل المسافرين الى جدرو أو جدارا التي كانت تقوم حول الحمة الحالية، ذات الحمامات المشهورة. لقد كانت جدرو في العصر اليوناني الروماني مدينة كبيرة ذات مسرح ومسبق وملعب، فتمثلت فيها الحضارة الرومانية بأجلى مظاهرها، ونبغ منها شعراء وأدباء. والطريق الحالية من سمخ الى الحمة تتبع آثار هذه السكة الرومانية، محاذية نهر اليرموك الى درجة كبيرة.

ومن وصل الى بيسان، وهي على مسافة يسيرة جنوبي البحيرة، رأى ما فيها من خصب ورخاء وأشرف على غور أبي عبيدة، حيث يقوم قبر ابي عبيدة ابن الجراح، بطل اليرموك.

وقد كانت الأراضي المحيطة ببحيرة طبرية دائماً مركزاً رئيسياً لانتاج نباتات المنطقة الحارة. ولا غرابة في ذلك، فهي تنخفض نحو مائتي متر عن سطح البحر، والحر فيها موفور والماء كثير. وقد روى جغرافيو العرب، على اختلاف الوانهم، الكثير من أخبار المنطقة. فبانياس ونوى الى الشمال حول الحولة، كانتا هريا لدمشق في الأرز والقطن، وطبرية كانت تكثر فيها، على رواية ناصري خسرو، البيوت المعدة لطلاب السرور واللهو الآتين

اليها من أماكن كثيرة. ويروي الرحالة نفسه أن حصر الصلاة التي كانت تصنع في طبرية كانت جيدة متقنة فتباع واحدتها بخمسة دنانير، أي ما يزيد على دينارين بعملة اليوم.

أما بيسان فيروي المقدسي ان مزارع الأرز فيها كانت تكفي سكان جندي (ولايتي) الأردن وفلسطين. وينقل القلقشندي أنها كثيرة الخصب واسعة الرزق.

هذه هي منطقة طبرية، وهي على ما خبرتها بنفسي، واحدة من البقاع الرئيسية في بلادنا التي تستحق ان يتعرف اليها كل واحد منا. فليقم كل منا بواجبه في التعرف الى البلاد العربية، وليبدأ بطبرية وبحيرتها. فإنها بداية طيبة».

في اليوم الثاني من شهر تموز / يوليو ١٩٢٤ احتلفت دار المعلمين بتوزيع الشهادات على خرّيجي ذلك العام. في صباح ذلك اليوم كان الصديق عبدالحميد ياسين في مكتب المدير (خليل طوطح) لأمرٍ يتعلق بالحفلة، وبمجلّة دار المعلمين (فقد كان محررها) فاذا بالاستاذ جورج خميس يدخل المكتب، وهو غرفةٌ صغيرة لا تكاد تتسع لاثنين، ويدور بين المدير والاستاذ حديث مقتضب، إذ يسأل الاستاذ على أي أساس توزّع الشهادات؟ فقال المدير على هذا الأساس. وناوله ورقة عليها الأسماء. ولمح عبد الحميد أول اسمين وهما نقولا زيادة وعبدالحميد ياسين. وجاء يبشرني بأنني كنتُ الأول في نتيجة الامتحانات، وكان هو الثاني.

والامتحانات كانت تجربةً طريفةً. فقد كان هناك رغبة في طريقة استمرت مدة طويلة في مدارس المشرق العربي في الامتحانات العامة وهي اجراء امتحانات شفوية، في بعض الموضوعات على الأقل. وقد اختيرت اللغة العربية والتاريخ والجغرافية لاجراء امتحانات شفوية فيها. كما كان علينا ان نجتاز امتحاناً في التعليم. فنحن قبل كل شيء معلمون.

كانت لجنة اللغة العربية مؤلفة من ثلاثة ضيوف هم جورج انطونيوس واسعاف النشاشيبي وخليل بيدس ومن استاذنا حبيب خوري. وجورج انطونيوس هو الذي وضعَ فيما بعد كتاب «اليقظة العربية»؛ وكان يومها مساعداً لمدير المعارف. خليل بيدس سألني سؤالاً في القواعد عن المستثنى. وقد كانت لهذا السؤال قصة مرت قبل أيام. كنت أنام - في آخر سنة لي في دار المعلمين - في قاعة كبيرة فيها عشرة طلاب أو أكثر؛ وكنت عريفها. في صباح اليوم الذي كان علينا أن نقدّم فيه امتحان القواعد العربية (الكتابي) أفقت صباحاً فوجدت جاري عيسى عطاالله يقرأ في دفتر فيه خلاصات لدرس القواعد. فقلت له يا عيسى هذا لا يلزمك أنت، أعطني إياه. وأخذته وكان مفتوحاً على فصل المستثنى فقرأته ولم أقرأ سواه.

تركت السرير، وغسّلنا ولبسنا وتناولنا طعام الفطور، وجاء موعد الامتحان. فدخلت القاعة وكان السؤال الأول في الامتحان عن أحكام الاستثناء فوضعتها جميعاً كاملة. وهكذا لما جاء دور الامتحان الشفوي قال الاستاذ خليل بيدس (وقد كان أحد الفاحصين في الكتابيِّ أيضاً) كانت إجابتك عن أحكام الاستثناء كاملة، فهل تستطيع أن تعيد ذلك الآن؟ واستطعتُ إعادتها كاملة. فسرّ خليل بيدس.

وطلب مني اسعاف النشاشيبي أن «أسمّع» أبياتاً من الشعر من محفوظي، فتلوت أبياتاً من قصيدة المتنبي التي وصف فيها مرضه في مصر، والتي مطلعها:

أقـمتُ بأرضِ مـصـرَ فـلا ورائي   تـخبُّ بـي الـرِّكـابُ ولا أمـامـي

وسألني عن معاني بعض كلماتها. ولما سألني فيما إذا كنت أحفظ شيئاً من شعر المعري، أسمعتهم أبياتاً من قصيدة «غير مجد في ملتي واعتقادي». أما جورج انطونيوس فسألني فيما إذا كان بامكاني أن ألخّص في دقائق معدودة رأيي في الذي تعلمناه من الأدب العربي تاريخياً. وكنا نحن نتعلم في كتاب «الوسيط في الأدب العربي

وتاريخه» للشيخ احمد الاسكندري. فقلت نحن وصلنا العصور العباسية الأولى، ثم أجبت على السؤال. وتم الأمر على خير.

ولجنة التاريخ والجغرافية كان فيها درويش المقدادي ومدير الدار وضيف هو الاستاذ عادل جبر.

أما الذين حضروا «تعليمي» وفحصوني فيه فقد كانوا المستر جيروم فرل (Jerome Farrell)نائب مدير المعارف وأحمد سامح الخالدي وخليل بيدس ومدير دار المعلمين خليل طوطح. والموضوع الذي طلب مني أن أعلمه كان «كولمبوس». ولست أدري ماذا كانت مرتبتي في التعليم، ولكن من المؤكد أنني لم اكن الأول؛ فالأول كان فخري الخطيب.

وقبل أن أعود الى الحفلة وما لها وما عليها، أود أن أروي قصتي مع قصيدة المتنبي التي ذكرت مطلعها قبل قليل. هذه القصيدة علمنا إياها جورج خميس وحفظناها «عن ظهر قلب» كما كنا نقول. كنت يومها في السنة الأولى (١٩٢١-١٩٢٢). وكان عندنا جمعية خطابية تجتمع مساء كل يوم خميس، ويُلْقي الطلاب شيئاً إما من كتابتهم أو من محفوظهم. وجاء دوري، ورأيت أن ألقي شيئاً أحفظه بدل أن أحفظ جديداً. ووقفت، وكانت أول وقفة في حياتي، وركضت في تلاوة القصيدة. ويوم السبت جاء جورج خميس الى الصف (وهو لم يحضر الجلسة) وقال لي هات أسمعنا قصيدة المتنبي التي ألقيتَها في الجمعية الخطابية.

ووقفت، وركضت في تلاوة القصيدة.

وقال الاستاذ بعد ان انتهيت من الركض. لقد قتلت قصيدةً من أجمل ما نظم المتنبي. لا يا ابني هذه تُقْرأ هكذا. وقرأها قراءة الخبير. وقال اقرأها بهذه الطريقة، وأودُّ أن أسمعَها منك في الصف في المستقبل. وكان ذلك. لكن الأمر لم يقف بي عند هذه القصيدة بالذات. قررت يومها أن أُحسنَ القراءة وأجيد الحديث وأتقن الخطابة. وقد تمّ لي ذلك وفي وقت قصير نسبياً.

ومن هنا فانني لما ألقيت كلمتي في حفلة التخرج في ١٩٢٣/٧/٢، كان القائي جيداً. أما كلمتي فكان عنوانها «العهد الجديد». وهي نظرة فيما كان ينتظرنا ويُنتظر منّا في حياتنا المقبلة. أما ما كان يومها أفضل من كلمتي بكثير فهو الخطاب الذي ألقاه عبدالحميد ياسين وعنوانه: «ماذا تعلمت». وقد نُشِرَ في عدد الصيف نفسه من مجلة دار المعلمين.

ومما يجدر ذكره هو اننا قدّمنا هدية لمكتبة الدار كتباً (٧٦ عدداً) جمعنا ثمنها منا. وكان خريجو ١٩٢٢ قد قدموا أيضاً كتباً هدية للدار. لكن خريجي سنة ١٩٢٣ لم تُقَم لهم حفلة تخرج. لذلك دعي هؤلاء للاشتراك في حفلتنا، وقد حضر عدد منهم، وتكلّم في الحفلة شريف القُبّج وأهدى الخريجون الدار صورة زيتية لبعلبك.

ماذا كان معنى الشهادة التي حصلت عليها في ذلك اليوم؟

من حيث التعلم والتثقف كان فيما كتبته عن أيامي في دار المعلمين ما يكفي. ومن حيث النظرة الى المستقبل فان الهمة موجودة (ولا تزال الهمة صالحة ولله الحمد في سنة ١٩٨٨)، والرغبة في العمل قائمة، ونوعُ العمل يَطيب لي ويلذُني.

إلا أن الأمر الأهم، في الواقع، هو ان الشهادة والعمل المترتب عليها والملتزم أنا به ضرورة، أمّنا لي سبيلاً للعيش يمكن الاعتماد عليه. فها أنا في سن السادسة عشرة وسبعة شهور، تصلني رسالة التعيين معلماً بمرتب شهري قدره تسعة جنيهات مصرية ومئة وخمسون مليماً.

كنا الذين حصلنا على الشهادة تلك السنة (١٩٢٤) اثني عشر تلميذاً. دخلنا الصف (١٩٢١) ونحن واحد وثلاثون تلميذاً. تسعة منهم لم يُقبَلو في السنة التالية. ومن الباقين عجز عشرة عن النجاح. لكن هؤلاء عيّنوا معلمين اضافيين بمرتّب قدره ستة جنيهات شهرياً.

وكان علي - كما كان على غيري - أن ننتظر بعض الوقت الى ان تصلنا الرسائل التي تعيّن الاماكن التي سنعلّم فيها. وقد عينت في الناصرة، وكم كانت المفاجأة سارةً لي ولأصدقائي واقاربي. لم اكن أتوقع ذلك لانني كنت قد عرفت أن المدرسة الابتدائية في الناصرة (وهي التي يحق لي رسمياً ان اعلم فيها) لم تكن بحاجة الى معلمين. لكن أحد المدرسين كان قد طلب ان ينقل من هذه المدرسة الى مكان أيسر له بالنسبة لأسرته، فأُجيب الى طلبه، وأُحللتُ أنا محله.

لست أذكر تماماً مدى السرور الذي شعرت به لما بلغني النبأ. فأنا ناصريُّ الأصل، ومع انني لم أقم في الناصرة حتى ذلك اليوم اكثر من سنتين، وفي أوقات متفرقة، فانني كنت اعرف أن اقاربي، خاصة من جهة أمي، كثر في البلدة. وكانوا يحبونني. فأم نمر (الصالح) وهي ابنة عم أمي، كانت تعتبرني ابنها الاصغر. وسليم (دنون) شرّش، ابن عم أمي أيضاً، كان يحبُ أن يتحدث إليّ. وسليم كان قصّاباً للحجارة. وقد كان تصرفه خَشناً مثل الحجارة التي يتعامل معها، لكن تصرّفه في حياته كان عاملاً من العوامل التي أوحت إليّ معنى الرجولة. وكان هناك عمي يعقوب سكران وابناه نجيب وفرح، وعمي يعقوب هو الذي قال للقس أسعد منصور لما وضع كتابه «تاريخ الناصرة» (مطبعة الهلال سنة ١٩٢٣) إن من عصبة آل سكران أسرة زيادة. والواقع هو أن الأسرة الأصلية هي أسرة زيادة، لكن لأن والد يعقوب (جريس) كان كثير الشرب سمّي بالسكران وانجرّ الاسم على الأسرة، بسبب كثرة أفرادها، فبيت سكران هم من عصبة آل زيادة. وثمة أسرة أصغر عدداً كانت أصلاً من عصبة زيادة، وهم بيت القَنيش. والقَنيش الجدّ كان أشقر فكان يتضايق من نور الشمس ويُقَنِّشُ أي يُقصِّر في رؤياه. وكان أيوب القنيش يحبني فهو زوج عفيفة ابنة عم والدي. وكانت لطيفة، أخت عفيفة تقيم في الناصرة أيضاً.

والواقع ان الشخص الذي كان يحبوني بعطفه اكثر من أي شخص آخر من اقاربي هو جدّي لأمي. كان يقول سامي (وهو ابنه الذي قُتِلَ بانفجار قنبلة) رحمه الله، ونقولا هو عوض عنه. فضلاً عن ذلك فقد كان هناك عدد من الشباب الذين التقيت بهم في دار المعلمين مثل جورج جرجورة ونعيم سلمان (تخرجا سنة ١٩٢٢) ونعيم يوسف جبور وجميل سمعان (تخرجا سنة ١٩٢٣) ونمر حبيب العُليمي ونصرت قعوار وفهيم خوري وحنا ابراهيم وابراهيم مطر وكانوا لا يزالون طلاباً في دار المعلمين.

وكان من الذين أهتم أنا بهم عودة الحلاّق الذي كان من أوائل من أنشأ مجلة للاطفال في فلسطين، ونقولا الحداد الخياط وابن خالي نصرالله، الذي كنت أحبُ حديثه واستمتع بزيارته.

كل اولئك حبّبوا إليّ هذا التعيين في العمل الجديد. وبدأت أعدّ منزلاً صغيراً لي. استأجرت غرفة عند أسرة على مقربة من بيت جدي، كان إلى جوارها حمّام ومطبخ مشتركان مع بقية أفراد العائلة الصغيرة. وابتعت بريموس (أي طباخ على الكاز، وكان هذا أرقى الموجود في البلاد) وبضعة صحون وطناجر صغيرة. أما الفِراشُ والكراسي فكانت جزءاً من إيجار البيت - الغرفة...

بدأت الدراسة في ١٥ ايلول / سبتمبر (١٩٢٤)، وسررت بزمالة خمسة من المعلمين. أربعة منهم يكبرونني بما يزيد عن الثلاثين سنة، وواحد من خريجي دار المعلمين (١٩٢٣) ولكنه كان يكبرني بنحو سبع سنوات. وهم ناصر دياب ونصري ميخايل ونعيم ورور ونعيم جبور. أما الشيخ قاسم الفاهوم فكان يأتي الى المدرسة ساعات معيّنة في الاسبوع، إذ انه كان أصلاً معلماً في المدرسة الثانوية.

كان يترتب علينا، وخاصة الشباب منا (أي نعيم جبور وأنا) أن نرافق تلاميذ المدرسة الى الكنيسة (يوم الأحد). وهذه كانت قريبة من المدرسة، لكن كان معنى ذلك أن تذهب الى المدرسة صباح الأحد للقيام بهذا

الواجب. ويبدو أن هذا التقليد يعود الى الوقت الذي كانت توجد فيه مدرسة ابتدائية روسية (قبل الحرب العالمية الأولى) في الناصرة. ولا ندري من الذي أعاد هذا الأمر الى حيّز التنفيذ.

لم يكد يمر علينا ستة اسابيع حتى جاء نور الدين العباسي، مساعد مفتش معارف لواء الجليل، للتفتيش على المدرسة. ونور الدين العباسي كان أحد مدرسي الرياضيات في دار المعلمين قبل أن ينقل الى هذا العمل ويعيّن ابراهيم قمر مدرّساً مكانه. فهو من معلمي.

زار نورالدين العباسي المدرسة، وقبل الانصراف بعد الظهر جمعنا في غرفة المدير وقال لنا ان نقولا زيادة سينتقل من الناصرة، لكنه لم يعين المكان. وقد ازعجني الخبر كثيراً. وبعد بضعة ايام جاءني (يوم الجمعة صباحاً) الى البيت من أخبرني ان مساعد مدير المعارف يريد أن يقابلني في مدرسة النبات.

ذهبت الى المدرسة وسالت عن الذي يريدني، فاذا بي وجهاً لوجه أمام جورج انطونيوس. نعم مساعد مدير المعارف، بعد ابتسامة وتحيّة قال لي انني سأُنقَلُ من الناصرة. واضاف «نحن نعرف أنك تحبّ أن تبقى في بلدك. لكن ثمة ظروف خاصة لا يمكن تجاهلها. مدرسة الناصرة الابتدائية ليس فيها معلم مسلم يمكنه ان يساعد الشيخ قاسم الفاهوم في تعليم دروس الدين الاسلامي. وانت بعد حديث عهد بالعمل، ولم تؤسس لنفسك بيتاً. والباقون متقدمون في السن وأصحاب أسر. فضلاً عن ذلك فهناك مدرسة بحاجة الى معلم للغة الانكليزية. لذلك ارتأت إدارة المعارف نقلك الى تلك المدرسة».

ليس في هذا، على ما فيه، وجه للغرابة. ولكن الشيء الذي كان غريباً علي هو اسم المكان الذي سأنقل اليه - إلى ترشيحا في قضاء عكا. الى قرية. وهي قرية لم أسمع قطّ باسمها قبلاً. والحق أن هذا الجزء من الخبر ازعجني كثيراً. فانا أعرف قرى كثيرة في فلسطين، أعرف الجيّد منها وغير الجيّد؛ ولكن جورج انطونيوس لم يكن يستشيرني في قضية نقلي. كان يبلغني الخبر بطريقة غير رسمية كي لا أمعن في تحضير بيتي الصغير.

ولكن أودّ أن أسجل للرجل - رحمه الله - أمراً كان له وقع كبير في نفسي: إنه لم يسمح لي أن أشعر بأنه كان يُصدر إليّ أمراً، بل بدا وكأنه يرغبني في هذه النقلة. وأضاف، في نهاية المقابلة، وقد وقفنا وكان يودعني، قائلاً: «نحن نحب أن نظلّ في بلدتنا لأن العيش فيها أطيب. ولكن التنقل والتغرب فيه فائدة. قد تظل هنا معلماً مدة طويلة، ولكن لعل ترشيحا تفتح أمامك أفقاً جديداً. لو أنني انا بقيت في بلدي هل كنت أصبح مساعداً لمدير معارف قطر مهم كفلسطين؟».

وافترقنا، وجاء الأمر الخطي بعد نحو اسبوعين؛ وكان الطريق الطبيعي لانتقالي من الناصرة الى ترشيحا يومها - سيارة من الناصرة الى حيفا (٣٦ كم) وسيارة من حيفا الى عكا (١٦كم) وبغل من عكا الى ترشيحا. هذا هو السبيل المنطقي. وهكذا انتقل بديلي من ترشيحا الى الناصرة باتجاه معاكس. وقد عرفت فيما بعد أن هذا البديل هو صالح السخن، خريج دار المعلمين (١٩٢٣).

لكن نقولا (زيادة) لا يسافر من الناصرة الى ترشيحا مثل غيره من الناس. هذه فرصة للتعرف على منطقة جديدة مشياً على الأقدام. لذلك فانني استأجرت دابتين - واحدة لي والثانية لأغراضي - من الناصرة الى كفر ياسيف بطريق شفا عمرو. وقد ركب صاحب الدابتين أكثر الطريق لأنني أنا كنت أحب المشي. وفي كفر ياسيف نزلت عند ميخاييل عبدالله الخوري الذي كان زوج خالتي. قضيت ليلتين عندهم. وفي صباح يوم ماطر خرجت من كفر ياسيف الى ترشيحا (مشياً) برفقة بولس جبران الذي كان معلماً في ترشيحا، وكان ينزل الى كفر ياسيف مرتين في الاسبوع. كان خاطباً وعلى وَشك الزواج، وكان يبني بيتاً في بلدته. فكان ينزل الى كفر ياسيف مساء الخميس ويعود الى ترشيحا صباح السبت، ويعود مساء السبت ثم يرجع صباح الاثنين الى ترشيحا. كانت الرحلة الواحدة تحتاج الى ساعتين.

في الساعة الثامنة دخلت المدرسة، وأنا مبلّلُ الثياب، فأعطاني مدير المدرسة محمد بيدس جاكيتة أحضرت من بيته، لأبدّل بها جاكتتي المبللة. ثم دخلت الى الصف وعلّمت أول درس في ترشيحا. كان هذا في الاسبوع الثاني من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٤. وهكذا بدأت العمل في مكان جديد وبين أصدقاء جدد!

كانت ترشيحا يومها قرية يبلغ سكانها حوالي ألفي نسمة. كانت تقتعد سهلاً تحيط به تلال لطيفة. وقد بدت مباهج القرية تتّضح بعد أيام الشتاء القاسية. إذ أخرجت الأرض غلاّتها وثمارها. لكن حتى في بقية أيام الخريف وفي أيام الشتاء كان هناك جمال خاص عندما تشرق الشمس وتلقي بأشعتها على السهل الممتد من ترشيحا الى معليا الى الغرب منها، أو عندما تجمع خيوطها عند الغروب.

كان كل شيء جديداً علي. البلدة وسكانها ومدرستها ومعلماها. وفّقتُ الى استئجار غرفة في بيت ابو ابراهيم. غرفة علّيّة، بمعنى أنها منفردة في الطابق الثاني والى جانبها ما يصحّ أن يسمى دورة مياه بسيطة. كان الدّرج الذي يؤدي الى الغرفة بعيداً عن مدخل الدار المكونة من غرفة كبيرة ومطبخ (وفيه غرفة مؤن). لذلك كان دخولي وخروجي من البيت في معبر مستقبل عن بقية السكان؛ وبقية السكان هما ابو ابراهيم وام ابراهيم فقط فأولادهما كانوا قد انتقلوا الى حيفا للعمل هناك.

إعداد الأكل لم يكن صعباً بالنسبة لي. لكن الذي كان يزعجني هو الخبز. وكان من حسن حظي ان تصدقت علي ام ابراهيم بان تعجن وتخبز لي مرتين في الاسبوع. لم يكن عندي مشكلة في الغسيل والكيّ أيضاً. فذلك أمر كنت أتقنه.

والجديد عندي في ترشيحا كان وضع صفّين في غرفة واحدة. كنت قد قرأت عن مثل هذا الشيء، وكنت أستغرب لماذا تلجأ المؤسسات التربوية أحياناً الى هذه الطريقة. حتى جرّبت ذلك بنفسي. كان في المدرسة ستة صفوف ابتدائية، وكان عندنا ثلاث غرف كل غرفة لصفين. وأصغر الغرف كانت للصفين الخامس والسادس، فعدد هذين الصفين معاً كان لا يتجاوز اثني عشر تلميذاً. وكان كل معلم منا نحن الثلاثة يعلم الحصص الاسبوعية كاملة، سبع حصص في اليوم خمسة أيام في الاسبوع (فيوما الأحد والجمعة يوما عطلة رسمية)، والمدير يعلّم الحصص نفسها من حيث العدد.

وغرفة الصفين الخامس والسادس (وكانت حصتي فيها الأكبر). كان زجاجها مكسوراً. لذلك إذا اشتد البرد أو نزل المطر أو هبّت الرياح، اضطررنا الى اقفال الشبابيك الخشب، وعندها تصبح الرؤية صعبة، إذ لم يكن سوى الباب، الذي كان «مستوراً» بعض الشيء، منفذاً للنور.

غرفة الصفين الثالث والرابع كانت أوسع قليلاً من المساحة التي يتطلبها عدد طلاب الصفين، لذلك أفاد محمد بيدس من ذلك فوضع خزانة في زاوية الغرفة كان يحتفظ فيها بالقيود والسجلات (وهي قليلة) ورسائل المفتش (وهي كثيرة) وأجوبته عليها (وهي نادرة). وهاتان الغرفتان كانتا في الطابق الأول. أما غرفة الصفين الأول والثاني فقد كانت في الطابق الأرضي. وكانت كبيرة نسبياً بحيث ان تلاميذ هذين الصفين كانوا يسرحون فيها قليلاً في الاستراحة بين الحصص إذا كان الطقس ماطراً.

وأخذت أتعرّف على محيطي الجديد. مدير المدرسة محمد بيدس وقد قدرت عمره بالخامسة والاربعين، كان يقول انه خرّيج المدرسة السلطانية في بيروت (أيام الدولة العثمانية طبعاً). ولكن لأنني كنت أعرف بعض خريجي السلطاني البيروتي، وبعد أن تعرفت الى آخرين من الخريجين فيما بعد، شككت في دعوى محمد بيدس. والمهم ان الرجل كان يحمل ريبة وشكاً في الذين حوله، لا في المدرسة فحسب ولكن في ترشيحا كلها. وقد كان كثيراً ما يوصيني بأن لا أتورط مع أهل البلد، فهم متقلبون نماموْن وُشَاة. وقد اكتشفت فيما بعد أن

جميع توصياته كانت غير لازمة. فقد عرفت من أهل ترشيحا الكثيرين، وظلّت تربطني بهم صداقات سنوات طويلة بعد تركي البلدة.

وبولس جبران من كفر ياسيف، كان تلميذاً في دار المعلمين الروسية بالناصرة، لكنه لم يتخرج منها. كان في نهاية السنة الرابعة لما اقفلت المدرسة بسبب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤). كان شاباً في السابعة والعشرين، أو الثامنة والعشرين من عمره. كان يلبس القنباز، وهو ما لم يحبه محمد بيدس، فكان يسخر منه أحياناً كثيرة. وكان أنيقاً «عَيّوقاً» خاصة فيما يتعلق بكيّ شاربه.

محمد بيدس كانت له أسرة كبيرة، فقد تزوّج مرتين، وكان يعيش مع الأسرة في بيت فسيح مريح في ترشيحا. أما بولس فكان يعيش وحده، استعداداً للزواج (الذي تم سنة ١٩٢٥).

أحسب أنه كان من الطبيعي ان تكون صلتي ببولس أقوى. فمحمد بيدس مدير، ويحبُ أن يحافظ على مركزه، وأسرته كبيرة فواجباته وارتباطاته منوعة ومعقدة بالنسبة لنا. بولس وأنا ليس لدينا ارتباطات اجتماعية في البلدة. وأنا على كل بعد جديد، واستطيع أن أرتب علاقاتي على ما يحلو لي.

ولما كنت أنا الأصغر سناً، والأنشط تحركاً كما رأى بعض شباب ترشيحا، كانت ثمة محاولة جادّة وطيبة منهم للاتصال بهذا الشاب، الذي يحمل اليه البريد كل اسبوع رسائل، وتراه بين حين وآخر يجد في بريده كتاباً أو مجلة (كنت مشتركاً بالمقتطف والهلال من حيفا). واذن فهنا شيء جديد علينا - على بعض شباب ترشيحا.

وكان من الطبيعي ان نقترب بعضنا من البعض الآخر. وكان أول ما اضطررت الى تنظيمه هو الوقت. بعد زيارة أو أكثر قلت لهؤلاء الشباب (وهم شباب اكبر مني سناً لكنهم كانوا شباب البلدة الناضج) أنا يتوجب عليّ أن أعد دروساً للتلاميذ، وعليّ أن أستمر بتثقيف نفسي. لذلك لا يمكنني استقبال الشباب إلا ليلتي الخميس والسبت (إذ أن المدرسة مقفلة يومي الجمعة والأحد) وعندها نستطيع أن نقضي ساعات طويلة معاً. وهكذا كان. وقد قيل لي فيما بعد أن بعضهم صَعِدَ الدرج في ليلة غير الليلتين المذكورتين، فلما رأوني مكبّاً على العمل عادوا أدراجهم دون أن يكلموني قط.

أنا محبٌ للاجتماعات محب للحديث قادر على التحدث لكن أهم من ذلك أنني درّبت نفسي على السماع أيضاً. والمهم أنني أحب أن يكون في الاجتماع فائدة - فائدة للجميع. فقد احتمّل جلسة ذات كلام فارغ لبعض الوقت، لكنني لا أستسيغ ذلك إلا نادراً. ولذلك فقد أدرت هذه الاجتماعات في سبيل فائدتي وفائدة هؤلاء الشباب. وقد وجد أحدهم أن أثاث غرفتي لا يكفي للعدد الذي يحب ان يأتي. ففصل من بيتهم الكبير غرفة تعقد فيها اجتماعاتنا. لم أكن ألقي محاضرة، بل كنت ألخّص لهم فصلاً من المجلة التي وصلتني، أو أقرأ لهم قصة قصيرة من كتاب. كان العدد يصل الى العشرة أحياناً، لكن الثلاثة الذين ظلوا زنبرك الجلسات هم رباح شريح وكامل شريح ورشيد شريح، وهم ابناء عم. وكان رباح يقرأ الشعر ويستعذبه ويتحدث عنه أحياناً ويحاول النظم بين الحين والحين.

هكذا بدأت حياتي في ترشيحا. كنت أدرّس الحساب واللغة الانكليزية، وكان مجموع الحصص الاسبوعي هو خمس وثلاثون حصة، مدّة الحصة الواحدة خمس وأربعون دقيقة. صحيح ان الصفّين الأول والثاني كانت الحصة عندهما أربعين دقيقة، لكن ما دام ليس ثمة مكان يخرجون اليه للعب، كنا نفضّل أن نعلّم الخمس دقائق بدلَ أن ينطلق التلاميذ يصرخون في الغرفة على غير جدوى.

المهم بالنسبة لي كان تدريس الحساب. لم يكن ثمة كتاب مدرسي يعتمد عليه التلاميذ. كان علي أن أعد الدرس أولاً، وأن أعد المسائل اللازمة للعمل البيتي. وكان معنى هذا تحضير بين ٣٠ و٤٠ مسألة حسابية في

الاسبوع الواحد. لكنني لم اجد صعوبة في ذلك. المنهاج الذي وضعته ادارة المعارف كان يشير الى الصوى والمعالم فقط، لكنني انا كنت مغرماً بالرياضيات، محباً للعب بالمسائل، قادراً على وضعها.

كان موقف طلاب الصف السادس مني، عند وصولي، موقفاً غريباً. إذ لأول مرة يجد خليل خوري وميخايل دياب نفسيهما يتعلمان على يد معلم أصغر منهما سناً. لكن لم يكن ثمة مجال لأي تصرّف فيه إخلال بالأدب. أولاً عدد التلاميذ كان صغيراً، ثانياً كان في المدرسة شيء كثير من النظام على يد المدير محمد بيدس، ثالثاً كان التلميذان من عائلتين محترمتين، ورابعاً وأخيراً كان هناك شعور عندهما وعند غيرهما ان هذا المعلم الشاب يعمل بجدّ بحيث يكون دوماً سيد درسه. وأحسب أن ما كان يقوله بعض اصدقائي للشباب في البلدة عني، وكلهم أكبر مني سناً، كان يُكْسِبُني في نظر التلاميذ مكانة أكبر من السبع عشرة سنة التي بلغتها في ٢ كانون الأول / ديسمبر ١٩٢٤، أيَ في الأيام الأولى من وصولي الى ترشيحا.

ولم يلبث احترام اصدقائي الشباب أن انتقل الى جماعة من أهل البلدة الأكبر منهم سناً. منهم كامل القاضي، الذي كان رئيس بلدية ترشيحا، والذي كان يقيم في قرية البقيعة عادة، ولكنه إذا جاء ترشيحا كنت أحد زواره المقربين. ومنهم فهد شريح المختار القوي الذي كان يصرّ، عندما أذهب الى ديوانه على أن أجلس الى يمينه. ومنهم ابراهيم العبدالله، الذي كان بيته مضافة مختصرة، لكنها كانت مختارة العضوية. في بيت ابراهيم العبدالله كان بعض الزوار يلعبون الورق (الشدة، الكوتشينه)؛ أما أنا فلم يكن لي في هذه اللعبة رغبة أو مراق؛ لذلك كنت، على سبيل الاحتياط، أحمل معي كتاباً أقرأ فيه إذا شُغِلَ الجميع باللعب.

أما تثقيف نفسي فكنت أتابعه على خطّين. الواحد القراءة في المقتطف والهلال؛ والثاني تعلم الانكليزية. كنت قد هممت بالقول تحسين لغتي الانكليزية. لكن في الواقع ان ما تعلمناه في دار المعلمين من هذه اللغة كان قليلاً جداً. ولولا أنني كنت أقرأ كتباً بالانكليزية تنفعني في مواد الدراسة، لكنت خرجت من دار المعلمين جاهلاً بالمرة. وما قيل لي من أن أحد أسباب نقلي الى ترشيحا انني سأعلّم الانكليزية فهو صحيح لكن مع حفظ النسبة.

سألت إيما طوطح، زوجة مدير دار المعلمين الاميركية، قبل مغادرتي الدار عن كتاب أقرأه بالانكليزية أفيد منه لغة ومادة علمية وآراء. فنصحتني بأن أقرأ كتاب محاضرات للمعلمين (Talks to Teachers) تأليف وليام جايمز (William James). فابتعت الكتاب وحملته معي من القدس وأخذت اقرأه لما استقرّ بي المقام في ترشيحا. وقد ظلّ الكتاب معي الى حوالي سنة ١٩٦٠، لما أهديته الى صديقي المرحوم جميل سعيد. أذكر هذا الكتاب لأن الصفحات الأولى منه كان في كل منها ما بين ٢٠ و٣٠ كلمة مكتوب معناها بالعربية على هوامش الكتاب. وكان القاموس المعتمد يومها القاموس العصري (انكليزي - عربي) تأليف الياس انطون الياس.

خشية أن ينسى القراء - وخاصة الشباب منهم - أود أن أذكّرهم بأننا كنا بعد نعيش في عصر قناديل الكاز أو سراج الزيت. قنديل الكاز الذي كنت أستعمله كان نمرة «أربعة»، أي أن نوره يساوي نور أربع شمعات. لكن الذين كانوا يفتحون القاعات الواسعة في بيوتهم للسَّهرة أو للديوان كانوا يستعملون قناديل كاز نمره «عشرة»، أي ان نور القنديل الواحد يساوي عشر شمعات. وقد يوضع في القاعة الواحدة أكثر من قنديل واحد. وان لم تخني الذاكرة فان فهد شريح جاء بلوكس كان نوره يساوي شمعات كثيرة. لذلك كان النور في ديوانه كافياً. اما ابو ابراهيم، الذي كنت قد استأجرت غرفة عنده، فقد كان يستعمل السراج. وأذكر انه طلب مني أكثر من مرة أن أقرأ له ولأصحابه قصة قصيرة (على نحو ما أقرأ للشباب أو معهم) وقد قبلت حبّاً وكرامة لكنني تعبت بسبب نور السراج الضعيف. هذا مع العلم اننا نحن اضطررنا الى استعمال السراج في جنين وفي بيت جدي بالناصرة لما انقطع الكاز في أيام الحرب العالمية الأولى.

سَرَتْ العدوى من اصدقائي الخلّص الى آخرين في البلدة. فكنت عندما أذهب الى دكان الحلاق عند رباح

شريح وشريكه محمد كيوان. كان هذا الأخير يصر على أن يقُصَّ لي شعري بحجة أن رباح يجتمع بي في منزله وعند عمه فهد، اما كيوان فلا يتحدث معي إلا حين أزور الدكان. والحق يقال انني أخذت تدريجاً أحب المجموعة التي كانت تأتي الى الدكان ليس لقصِّ الشعر أو الحلاقة ولكن للتسلية وسَنِّ اللسان ورواية قصص أحياء البلدة كما يتناقلها الناس، ويزيدون فيها أما قلما كانوا ينقصون منها.

واكتشفت المنطقة المحيطة بترشيحا. أول ما اكتشفته الطريق المؤدي الى كفر ياسيف صحيح انني سرت على هذا الطريق من أول الأمر. لكن يومها كان المطر غزيراً، وأنا أسير في الطريق لأول مرة متبعاً بولس جبران. لكن بعد ذلك كان لا بد لنا من النزول الى عكا مرة كل شهر لقبض المعاش. في تلك الأيام لم يكن ثمة طريق عربات بين ترشيحا وعكا. كان الواحد منا يمكنه أن ينزل على دابّة ـ نحو أربع ساعات ذهاباً ومثلها اياباً. لكن أنا كنت أنزل يوم الخميس بعد الظهر من ترشيحا الى كفر ياسيف، وأنام عند أقاربي وأذهب صباح الجمعة الى عكا مشياً وأعود بعد الظهر مشياً، واقضي الليلة في كفر ياسيف ثم أعود الى ترشيحا صباح السبت. وهذه المشاوير عن طريق كفر ياسيف وقضاء امسيات هناك أدّت الى تعرّفي الى عدد من ابناء هذه البلدة أيضاً.

لكن طريق ترشيحا ـ كفر ياسيف كان السير فيه واجباً رسمياً لقبض المعاش وشراء حاجيات من عكا. اما الاكتشاف الذي أقصده فكان للمتعة. فأنا أحب المشي، لذلك كنت كثيراً ما أمشي من ترشيحا الى جِدّين، وهي قلعة قديمة مهجورة كقلعة، لكن كان يقيم فيها بعض الناس للعناية بزراعة الدخان، إذ أن الأرض المحيطة بها جيدة جداً لهذه النبتة. كان «مشوار» جدين معناه مشي ساعتين، ساعة في كل اتجاه، في طريق وعر.

وكنت أخرج مع أصدقائي عندما كانوا يذهبون للصيد. أما أنا فكان يهمني أن أمشي. لكن إذا وفقوا في صيدهم كان لي من ذلك حصة ـ حصة الرفقة.

ومع الربيع بدأنا بالشطحة الى وادي القرن وقلعة القرين. قلعة القرين أو شتاركنبرغ (Starkenburg) بناها الفرسان التيوتون في مطلع القرن الثالث عشر في موقع حصين جداً، لأنه يتحكم في الطريق الذي يصل بين الساحل (شمالي عكا عند الزيب والكابري) متجهاً مع وادي القرن شرقاً حتى صفد، في أعالي جبال الجليل الأعلى. ولما زرت القلعة لأول مرة ودخلت بعض أجزائها أدركت أهميتها كحصن.

لكن اصدقائي لم يزوروا القلعة كل مرة كنا نذهب الى وادي القرن (في مجراه الأعلى)، ولا كنت أنا أفعل ذلك، ولو أنني زرتها مرات كثيرة فيما بعد، مشياً من عكا اليها ومنها الى ترشيحا. كنا نذهب وحمولتنا زيت وخبز وصاج وكبريتة. وعندما نصل الى الوادي. ولم يكن مسيل الماء فيه كبيراً؛ هناك، كنا نقيم سدّاً من حجارة عرض أحد مجاريه، وندقّ بضع حبات من تمر شجر الدّوم الموجود هناك، ونرمي هذا في الماء وننتظر بعض الوقت. ثم ننزل الى الماء ونجمع السمك الذي يحتجزه السدّ خلفه. ونشعل النار ونقلو السمك ونأكله طازجاً. وكان السمك صغيراً من حجم السردين في الغالب، لذلك لم يكن يحتاج الى تنظيف دقيق، ولم يكن فيه حسك يستحق السحب. كانت السمكة تدور بها قطعة الخبز ـ وأكثر الأحيان يكون الخبز الذي نحمله خبز صاج رقيق ـ ثم تجد اللقمة طريقها الى الفم كاملة، والأسنان لا تقصّر في عملها.

كانت جماعتنا تصل أحياناً الى عشرة أشخاص. والمسافة تستغرق أكثر من الساعة قليلاً. أظن أننا ذهبنا ـ في الربيع ومطلع الصيف ـ ما لا يقلّ عن عشر مرات. وكنا نغيّر الطريق كي اكتشف انا الجهات المختلفة. وقد كان لبولس جبران أصدقاء في معليا، التي تقابل ترشيحا في الغرب وتقتعد تلا هو نهاية السهل. كنا نتمشى مرات لزيارتهم، وهذه مشية متمهلة وقصيرة (نحو نصف ساعة).

ثم أخذت ابتعد وأذهب منفرداً، فذهبت الى إقرِتْ وطَربيخا وفَسُّوطَة، وزرت سحماتا، وذهبت الى البقيعة

مرتين أو ثلاثا. وأبعد مكان وصلت اليه شرقاً من ترشيحا هو الرامة، ثم بيت جن شمالاً في شرق. ولشدّ ما كان الفلاحون الذين كنت ألقاهم على الطريق يستغربون اذ يرون هذا الافندي الشاب يذهب لزيارة القرى مشياً. وكان استغرابهم يزداد عندما يعرفون انني انا «أستاذ» (هيك كان اللقب) في مدرسة ترشيحا. وترشيحا كانت يومها مركز الشرطة بالنسبة لعدد من هذه القرى. وفي أواخر العهد العثماني كانت وحدة ادارية تسمى «ناحية» وكان مدير هذه الناحية يتبع قضاء عكا.

من المجالس التي حضرتها في السنة التي قضيتها في ترشيحا مجالس بيع الدخان. منطقة ترشيحا كانت تنتج أنواعاً جيدة من الدخان. وكان في فلسطين يومها شركتان أو ثلاث لصنع السجائر. كان مندوب الشركة يأتي الى ترشيحا ويجتمع الى مزارعي الدخان وبائعيه. أفضل الأصناف في كل منطقة كان يسمى «الجِدْريّ» أي الذي ينمو في أرض كان يقوم فيها أو على مقربة منها في وقت من الأوقات بناء ثم تهدم، فكلمة «جدري» كانت مرتبطة بالجدار، لكن العامة، كما يعرف العاملون في الكتابة وفي تتبّع اللهجات، يختصرون الكلمات تيسيراً للفظ. فيقولون «جدري» المختصرة بدل «جداري» القاعدة. ثم تأتي الأصناف الأخرى وهي ثلاثة، لكن اثنين كانا يصلحان للمساومة. في الاجتماع الذي كان يعقد في منزل أحد كبار مزارعي الدخان كان يبدأ «البازار»، وأساسه المساومة على السعر لتلك السنة. وقد يتم البازار أو لا يتم، إذ أن المزارع يعرف أن مشترياً آخر سيأتي قريباً.

وأساس الوزن لبيع الدخان كان «الأوقة» (الأقّة) وتساوي نصف رطل (والرطل ١٢ أوقية، وهو الرّطل الشامي الذي كان مستعملاً في شمال فلسطين. وقد ظل هذا الى أن فرضت الحكومة التعامل بالكيلوغرام فيما بعد). وكانت المساومة تدور أصلاً حول الدخان الجدري، إذ أنه متى تم الاتفاق على هذا الصنف، يصبح الاتفاق على أسعار الأصناف الأخرى أمراً بسيطاً. وهذا الذي تحدثت عنه في بضعة سطور كان يستغرق أمسية بكاملها، بل قد يحتاج الى مدة أطول من ذلك.

ومع أنني كنت كثير الاتصال بالقرى اثناء اقامتي في الناصرة وفي جنين، فان سكناي لنحو سنة مدرسية في ترشيحا وضعني أمام تجربة خاصة بالنسبة الى الريف الجبلي. فكان علي أن أعنى بأموري الخاصة. صحيح ان اختي ماري جاءت لتقيم معي، لكنها فضّلت، أو لعل جدي اختار لها أن تتركني وتذهب الى الناصرة لبعض الوقت، فقضت بقية العام الدراسي هناك. وشتاء ترشيحا قارس برده ولم يكن لدينا من وسائل التدفئة سوى كانون (منقل) الفحم. ومنقل الفحم هذا كان، في بيوت الأغنياء والبيوت التي يقيم أصحابها فيها سنوات، يصنع من النحاس الأصفر، ويكون مزوقاً بنقوش شكليّة أو بأقوال حكَميّة. وله ملقط من النحاس أيضاً. أما أنا، وأنا في بدء انشاء مستقر لي، فالمنقل الذي كان عندي كان مصنوعاً من التنك وقضبان الحديد. كان من صنع سنكري (سمكري) أصله من عكا، كان يقيم ويعمل في ترشيحا، اسمه نمر عيسى. وكان نمر هذا يوفّق بين الفينة والفينة في نظم بيتين من الشعر، وقد تصل مقطوعته بضعة أبيات. وكان الناس يقبلون شعره الى حد انه كان يدعى لبعض الولائم أملاً في أن ينظم الشعر مديحاً في صاحب الوليمة. وكنت أنا أشك في دعواه الشعرية عندما تكون الأبيات حسنة السَّبك. إلى أن ألقيت عليه القبض في يوم من الأيام. فقد دعينا الى غداء عند أحد أغنياء البلدة، وفوجئت، لما وصلت هناك، بوجود نمر عيسى بين المدعوين. استغربت ذلك، لكنني لم آبه للأمر. فنمر كان صديقاً لي. ولما انتهى تناول الطعام والحلوى طُلِبَ من نمر أن يقول شيئاً. فتمنّع على طريقة «لا تقول للمغنى غنّي». إلا أنه قبل أخيراً، معتذراً بأنه لم يفتح عليه إلا ببيتين من الشعر. ووقف في طرف القاعة وقرأ البيتين. عندها فغرت فاهي من الدهشة. فالبيتان للشاعر اللبناني المهجري أسعد رستم، قالهما في نهاية دعوة كبيرة في الولايات المتحدة، وكنت قد قرأت ديوان رستم، فتذكرتُ البيتين. دُهشْت لهذه الوقاحة. ولم أرد، بطبيعة الحال، بأن اكسفه. لذلك انتظرت الى اليوم التالي، فمررت بدكانه، وانتظرت حتى سألني عن الذي قاله

في اليوم السابق، فقلت له اسمع يا نمر: البيتان هذان لاسعد رستم، وهما منشوران في ديوانه ولم أشأ أن افضحك أمس. ولكنني احذرك؛ فانا مطّلع على كثير من الشعر، فاذا حدث منك شيء مثل هذا، فانني لن أتوانى عن كشف القضية. ثم اتفقنا على ان «نمر» لن ينظم (أو يستعير) شعراً عندما اكون أنا موجوداً. وهكذا كان. لكن كان يحدث ان يقرأ لي بضعة أبيات من نظمه وكنت أقرّه أنها لا بد أن تكون من عمله بسبب ما فيها من خلط لغوي ووزني.

في أوائل الصيف (كانت السنة المدرسية في فلسطين تنتهي في الاسبوع الأول من تموز / يوليو) أخذت أخرج للمشي في جهات ترشيحا مع الكبار من التلاميذ. وهذه العادة سرتُ عليها فيما بعد اثناء تعليمي في عكا (١٩٢٥-١٩٣٥) وفي القدس في الكلية العربية والكلية الرشيدية (١٩٣٩-١٩٤٧). فقد كانت الرحلة شبه الاسبوعية جزءاً أساسياً من عملي التربوي. هذه المشاوير كانت مفيدة للطلاب كما كانت نافعة لي. أنا أتعرّف على المنطقة وعلى الشباب، وتطلعاتهم للمستقبل. مثلاً خليل سيصبح خوري الطائفة الارثوذكسية في ترشيحا (وقد حدث هذا كما ان أخاه ميخائيل لبس الثوب كراع لطائفة ارثوذكسية صغيرة في قرية مجاورة). وكان ميخائيل دياب يطمع في أن يكون أحد مختاري ترشيحا بعد والده. وكان تلاميذ الصفوف الأدنى يطلبون مني أن يرافقونا في بعض هذه المشاوير فكنت أعدهم بأن دورهم سيأتي في المستقبل. لكن الدور لم يأت، إذ أنني نقلت من ترشيحا في مطلع العام الدراسي التالي (ايلول / سبتمبر ١٩٢٥).

في بلدة صغيرة، لا يتجاوز عدد سكانها الألفي نسمة، والتي كان أكثر السكان ممن يعملون في شؤون زراعية مختلفة، تكون أوقات الفراغ كثيرة عند الناس. ولم يكن هناك مقهى يذهب اليه الرجال للتحدث ولعب الطاولة أو الشدة (الورق). لذلك كانت التجمعات هي الدكاكين. وأولها محلات الحلاقين؛ وكان صالون الحلاقة الذي أشرت اليه قبلاً (شريح وكيوان) أحفل هذا النوع من المحلات بالزوار. وما أكثر القصص التي كانت تروى عن سكان البلدة والبلدان المجاورة. وكانت دكان يوسف الدّوخي مكاناً آخر للتجمع. لكن المكان كان ضيقاً، فلا يتسع للكثيرين. ولما أطلّ الربيع أصبح بالامكان ان يجلس البعض في الخارج. وعندها كانت تصف الكراسي البلدية الواطئة. لكن لا في صالون الحلاقة ولا عند الدوخي ولا عند مجاوريه في السوق كان هناك ضيافة. فهذه أماكن عمل والذي كان يحدث أن الدوخي كان «ينزل» الى عكا لاحضار بضاعته، وقد يحضر معه هريسة (الحلاوة لا الطبيخ)، وعندها تبدأ الضيافة، لكن ليس على حساب يوسف الدوخي وإنما «عزيمة» من أحد الموجودين لآخر أو لآخرين. وكانت دائماً حصتي من العزيمة كبيرة، لكنني أنا لا أحب المأكولات الحلوة (حتى لا يحدث أي سوء تفاهم) من صغري، لذلك كنت أعتذر...

كان للمدرسة جار، كنا نقضي عنده بعض الوقت، بعد ان ينتهي وقت العمل عندنا، أنا وبولس جبران. هذا الجار هو الدكتور ناجي بيضون، من عائلة بيضون الكبيرة في بيروت، وخريج جامعة باريس في الطبّ. كان رجلاً نحيفاً لطيفاً انيقاً في ملبسه وكلامه وتصرفه. وقد وجدت الأمر غريباً أن يترك هذا الرجل الفرص الكبيرة المتاحة له في جميع مدن بلاد الشام، ويأتي ليعيش في ترشيحا. وبعد لأي جمعت كل شجاعتي يوماً، وكنا منفردين وسألته عن السبب. وقد تصورت، إذا أراد أن يقول الحقيقة، قصة حب فاشل مثلاً حملته على هجر المدينة (رومنطيقياً) والالتجاء الى هذا المكان. لكن جوابه خيّب أملي - فلا غرام ولا رومنطيقية، بل واقعية في منتهى البساطة. إذا كنا كلنا - الأطباء - نظل نعمل في المدينة الكبيرة، فمن يعنى بهؤلاء الريفيين المساكين؟ فرومنطيقية ناجي بيضون كانت تقوم على أساس خدمة المحتاجين، لا بسبب الهَرَب من الفشل في حب أو غرام. وقد كبر ناجي بيضون في عيني يومها.

أُصبت في شتاء تلك السنة بتثليج في أصابع قدمي، بحيث لم يكن من اليسير أن البس حذائي، وإذا لبسته كان المشي في الشارع متعباً، إن لم يكن متعذراً، ومع ذلك بذلت الجهد كي أصل الى المدرسة لأقوم بواجبي. وكنت أعرف أن العلاج النافع لهذه المشكلة هو أن تنقع الأرجل في الماء الساخن المضاف اليه شيء من الملح. وكان هذا متيسراً في الصباح وفي المساء - في البيت. وفي أحد الأيام لَحَظَ جار من جيراننا في المدرسة أنني كنت اعتمد على الجدار في سيري، فسأل زميلاً، ولما عرف الامر، رتّب مع أسْرَته أن يُرْسَلَ لي في وقت عطلة الصباح (بين ١٠ و١٠،٣٠) طِشْتٌ فيه ماء ساخن ممزوج بالملح، كي اغطّس رجلي. لست أدري اين عاطف آغا اليوم. كان يكبرني بما لا يقل عن عشر سنين. ومعنى هذا أنه قد يكون في التسعين من سنه على الأقل. فان كان حياً جعل الله حياته نشطة، وان كان قد انتقل الى الفانية فليتغمده الله برحمته.

على أنني اكتشفت بنفسي العلاج الناجع لهذا المرض - إن صحت التسمية. إنه المشي - المشي طويلاً. اكتشفت ذلك بالمصادفة. كان علينا ان نذهب - أن ننزل - الى عكا لنقبض المعاش. ولم يكن بالامكان توكيل أحد إلا باذن من مفتش المعارف، ولم أقم أنا بترتيب من هذا النوع. وعلى عادتي، رفضت أن أركب الحمار من ترشيحا لكفر ياسيف، ومشيت بصعوبة. في تلك الليلة لم أستطع النوم بسبب ما كنت أحس به من رعي وألم في أصابع قدمي. ولم يكن من الممكن أن أنير القنديل. في الواقع لم اكن أعرف مكانه ولم يكن معي كبريتة. وأخيراً غفوت، ولما أفقت صباحاً وجدت أن التثلج قد زال، والورم الذي كان يرافقه اختفى؛ وأصبحت قادراً على المشي العادي. لذلك لما أصابني التثلج ثانية - وقد عاودني بضع مرات - كنت أعالجه بالمشي من ترشيحا الى جِدِّين - ساعة في كل اتجاه.

قيل لي لما وصلت الى ترشيحا أن الشمسية شيء ضروري في ترشيحا. فاشتريت شمسية من النوع الجيّد من عكا كان ثمنها نصف جنيه مصري (كان النقد في فلسطين لا يزال مصرياً). وحملتها في الليالي المدلهمات، وفي الأيام الماطرة في النهار. وفي يوم كان الهواء قوياً والمطر غزيراً، ففتحتها وسرت وأنا أحسب أنها ستقيني من الريح والمطر إلا إنني رأيتها تخضع لقوة الريح وتنكفى على نفسها الى الخارج. ولما حملها صديق لي الى عكا لاصلاحها قيل له إنها تكلّف اكثر من نصف جنيه. كان الصديق نمر عيسى. فوهبته إياها ليصلحها ويستعملها، فهو سنكري (سمكري). ولم ابتع شمسية في حياتي قط. كان هذا في شتاء ١٩٢٤-١٩٢٥. وكم قضيت ساعات مريحة في المطر الغزير لأنني لا أحمل شمسية!

يبدو أن الدعاية عندما تتكرر تعطي ثمرتها، بقطع النظر عن نوع الثمرة. إذ المهم ان يتكرر القول. والقول الذي تكرر في تلك الأيام في ترشيحا هو: «هالمرة جاءنا معلم بيفهم». الواقع ان كلاً من محمد بيدس (المدير) وبولس جبران كان يفهم في موضوعه، وكان معلماً من الدرجة الأولى. لكن القضية، بالنسبة الى «الكَمْ شابّ» الذين اختلطت بهم بل خلطتهم بنفسي، كانت أن كلا من الرجلين الآخرين كان يحس انه يقوم بواجبه لأنه يعلّم. وفي البلدة - حتى ولو كانت كبيرة - ينتظر من المعلم أكثر من ذلك. وقد مرت بي هذه التجربة نفسها في عكا فيما بعد.

محمد بيدس كان ذا أسرة كبيرة في، وكانت مشاغل الأسرة كثيرة بالنسبة له. وكان له بضعة أصدقاء من جيله. وهؤلاء لم يعرف عنهم أنه كانت لهم اهتمامات فكرية، حتى ولا بسيطة، فالرجل لم يكن قد قُدَّ ولا أعد لينفتح على دنيا أبعد من ترشيحا. ولعله كان يرضى بأن يظل ما تبقى من عمره في هذا المنصب وفي هذه البلدة. فقد كان يقطن مع أسرته داراً كبيرة مريحة، وكان يعرف ان سكنى المدينة، حتى مدينة مثل عكا، سيكلفه ايجاراً للبيت أكبر وثياباً أفضل وما إلى ذلك. وما له وللمشكلات؟

بولس جبران كان نشيطاً، وأنا واثق لو أنه كان يقضي أيام العطلة الاسبوعية في ترشيحا، لكن له صداقات

جيدة، ورفقة صيد طيبة. لكن الرجل كان خاطباً وعلى وشك الزواج، وكان يبني بيتاً له ولعروسه. ولم يكن له من يعتمد عليه في شراء حتى حجر واحد، أو قطعة خشب أو ضرفة (درفة) شباك في كفر ياسيف. ومن هنا كان يقضي يومي الجمعة والأحد في بلده متفقّداً أعماله متابعاً البناء، مهتماً بالجهاز للبيت وللعروس. ولم يكن من اليسير على البعض ان يفهم مشكلات محمد بيدس وبولس جبران وأوضاعهما. لقد قرروا ان هذين المعلمين (عفوا المدير والمعلم) يعرفان عن الناس بقدر ما يتعلمه التلاميذ منهما في المدرسة، وكانوا يحسبون أن هذا كان قليلاً.

وأنا واثق انني كنت، على الورق، أقل الثلاثة معرفة. لكن أنا كنت في أول حياتي. كنت في السابعة عشرة من عمري. كنت مملوءاً حيوية ونشاطاً. كنت قد تعلمت في دار المعلمين ان الحياة نُموٌّ. وأنا أريد أن أنمو، أن أتعلم، أن أخدم، أن أعمل. ووجدت أمامي مجالاً طيباً. فكان اعجاب الشباب بي اكبر بكثير مما استحق. ولست أنكر انني ربحت الكثير على حساب الزميلين، بسبب أوضاعهما.

ولم يرتح محمد بيدس للوضع الذي نشأ. أصبح الرجل يخشى أن «أشلحه» مديرية المدرسة. إذا كسبت ثقة الشباب، وإذا عمل هؤلاء من أجل ذلك فأثروا في الكبار - آبائهم وأعمامهم - فقد يوجه هؤلاء عريضة الى ادارة المعارف يطالبون بذلك. أنا واثق من أن الأمر لم يخطر لي ببال، وأنا أعرف أيضاً أن الشباب لم يتحدثوا في الأمر لا فيما بينهم ولا مع أهلهم. لكن من يستطيع أن يتحكم في تصوّر الآخرين؟ ومن يضمن أن لا تصبح التصورات مخاوف إذ تُضخم؟

كان من عادة مدرسة البنات في ترشيحا ان تقيم حفلة سنوية فيها مسابقة القائية. كانت البنت التي تدخل المسابقة تحفظ قطعة من الشعر أو النثر، وتلقيها. وكانت ثمة لجنة تحكيم تتكون عادة من كامل القاضي ومدير المدرسة ومديرة المدرسة. وقد يكون فيها أحد وجوه البلدة ضيفاً. في تلك السنة طلب مني أن اكون عضواً في لجنة التحكيم، وكانت الفكرة أن آخذ محل المدير (محمد بيدس). رفضت هذه الفكرة بالمرة، لكن كان هناك إصرار على أن أشترك في التحكيم، فكان رأيي، حلاً للمشكلة، أن اكون عضواً إضافياً، لا بديلاً عن أحد. ولما عرف المدير أنني سأكون في اللجنة (لا بديلاً عنه ولكن الى جانبه) جاءني ليقول لي يا نقولا افندي لم تجر العادة ان يكون اثنان من المدرسة في اللجنة. هذا الدور خاصّ بالمدير. ولما أكّدت له أنني لم أطلب هذا وانما أُصر علي، جرّب أن «يخربط» الحفلة بالغائها. وكان ثمة شد حبل: المدير لا يريدني، حتى إنه كتب الى مفتش المعارف رسالة شكوى ضدي لأنني أتدخل في أمور لا تخصني، وأرسل المفتش رسالة شفوية مع أحد الزملاء طالباً مني أن أكف عن هذه الأمور؛ والشباب ومن ورائهم بعض أصحاب النفوذ كانوا يريدون أن اكون عضواً. وكانت حجة المدير أنني شاب، وأنني وسيم، والبنات المتسابقات، مع أنهن من تلميذات الصف الخامس الابتدائي، فهن «صبايا» (حسب تعبيره) وليس من المناسب ان يكون شاب هناك. كانت حجة الآخرين أن جميع هؤلاء البنات كنّ دون سن الحجاب بحسب العرف المحلي. لذلك فهن يمكن ان يراهن أي رجل في البلدة في الطريق.

وعلى كل فقد أقيمت الحفلة، وكنت عضواً في لجنة التحكيم، وطلب مني كامل القاضي أن أقول أنا الكلمة عند اعلان نتيجة المسابقة. هذه الحفلة كانت في أواخر شهر حزيران / يونيو ١٩٢٥، أي على مقربة من نهاية السنة المدرسية. وانتهت السنة، وودّعتُ أصدقائي على أمل اللقاء في شهر ايلول / سبتمبر، عند بدء العام الدراسي.

ولكن لما عدت الى ترشيحا وجدت ان التلاميذ كانوا مُضْرِبين، والأهل كانوا الى جانبهم، لأنهم هم الذين رتّبوا الاضراب. لكن لماذا؟ ومن خطط له؟ وماذا كانت الغاية منه؟

عدت الى ترشيحا من الناصرة في ١٣ ايلول / سبتمبر (١٩٢٥) عن طريق حيفا - عكا - كفرياسيف؛ عدت مسروراً جذلاً. كنت أولاً قد قضيت عطلة صيفية جميلة. بدأت في الناصرة بعد زيارة لكفرياسيف لحضور عرس بولس جبران وروز الخوري. ثم تلا ذلك رحلة قلَّ أن يتم لأحد مثلها، وهي التي دوّنت أخبارها فيما بعد. وهذه الرحلة، فضلاً عن فائدتها لي وأثرها فيّ، كنت أعتزم رواية أخبارها لأصدقائي في ترشيحا.

كنت قبيل انتهاء السنة المدرسية قد وُفِّقتُ الى غرفة أفضل من غرفة ابو ابراهيم من حيث موقعها بالنسبة لعملي ولأصدقائي، ومن حيث اشرافها على سهل معليا. وبذلك كان يتاح لي الاستمتاع بأوقات الغروب وما يرافق ذلك من أمسيات جميلة، فضلاً عن أن منافعها كانت أنسب. ووضعت فيها أغراضي ودفعت لصاحبتها أجرة شهرين مقدماً. وفي طريق عودتي الى ترشيحا كنت أخطط لكيفية ترتيب المكان واضافة بعض الأثاث.

لكنّ كل حماسي خَمد لما وصلت ترشيحا وعرفت بالأضراب، ورأيت وجوماً في الوجوه لم آلفه قط. كانت التحيات عادية، إلا من أصدقائي الخلّص الذين ظلّوا، إلى درجة كبيرة، يتصرفون نحوي تصرفاً حاراً لكنهم بَدَوا وكأنهم خشوا مغبّة هذا التصرف بالنسبة لأهل البلدة.

وهمّني، بطبيعة الحال، أن أعرف سبب الاضراب. فنحن الثلاثة، كمعلمين، داوَمْنا على الذهاب الى المدرسة، لكن التلاميذ، أو على الأقل الكثرة الساحقة منهم، لم يأتوا. سألت المدير فقال انه لا يدري. هو كان غائباً مع أسرته، وعاد قبلنا بأيام فوجد البلدة «تغلي». هذا هو التعبير الذي استعمله، لكنه لم يستطع أن يعرف لماذا. أما أصدقائي فقد كانوا أصدق منه (لأنه هو كان يعرف) إذ أخبروني، وبشيء من الأسى، بأن الناس تداعوا الى إعادة النظر في توزيع عدد المعلمين. فالبلدة أكثرية سكانها مسلمون فلا يجوز أن يكون فيها معلمان مسيحيان ومعلم واحد مسلم. وان نقل صبحي السخن والمجيء بنقولا زيادة مكانه أمر تحمله الأهالي سنة لكنهم ليسوا مستعدين لتحمله أكثر من ذلك. وقيل إن وفداً منهم راجع مفتّش المعارف في الصيف لكن الوفد لم يلق - على ما قيل - أذناً صاغية. ولن يعود الأولاد الى المدرسة قبل أن يسوّى هذا الأمر.

يسوّى فليكن، ولكن على حساب من؟ بولس جبران أم نقولا زيادة؟ البعض كان يحبّ أن يتخلّص من بولس جبران لأنه كان كثير الذهاب الى كفرياسيف، لذلك كان يَتْعَبُ ويصعب عليه التعليم. ولما قيل ان هذا الأمر انتهى لأن الرجل تزوّج واستأجر بيتاً في ترشيحا للاقامة الدائمة مع أسرته، كان ثمة من لا يصدق ذلك. لكن على كلٍّ لم يكن بولس المقصود على ما فهمت من أصدقائي ولو بطريقة حييَّة. ولكن لماذا أكون أنا المقصود؟ لم يُتْرَكْ لنا الوقت الكافي لتتبّع القصة تماماً يومها، مع أن بعض الخيوط أخذ يتجمع، وأخذ الاتهام يتجه نحو المدير بأنه وراء العملية. لكن لماذا؟ وكيف؟ لم أدر يومها، لأنه، كما قلت لم نُتْرَكْ في البلدة. جاءنا الأمر بوجوب الذهاب الى عكا لمقابلة مفتّش المعارف - ابراهيم شماس. ولما وصلنا نحن الثلاثة وجدنا أن كلا منا قد أعطيَ عملاً مؤقتاً. محمد بيدس المدير أرسلَ ليعلّم في قرية إجْزم (قضاء حيفا)، حيث كان يدرّس (أو لعله كان مديراً؟) قبل أن يُرقّى الى ترشيحا. وبولس جبران أرسل الى المدرسة الابتدائية في عكا. وأنا طلب مني أن الازمَ مكتب مفتش المعارف مساعداً لكاتب المفتشية (حنا موسى). وحلّلتُ مشكلة السكن في عكا حالاً بأن قبلت عرضاً من حنا أن أسكن معهم إذ أن بيتهم كبير وفيه غرفة لا يحتاجونها، واشترطت أن أشارك في النفقات.

هنا حدثت معي حادثة من حوادث البيروقراطية التي يجرّب فيها الموظف الكبير أن يظهر الموظف الصغير بمظهر المستهتر بالأمر والذي يحتاج الى ارشاد وتعليمات حول كل زاوية يدور بها. والحديث الذي تبادلته مع المفتش أرويه الآن (١٩٨٨) كما لو كان قد حدث أمس الأول.

نقولا - أنا بحاجة الى يوم أو يومين لأذهب الى ترشيحا لاحضار ثيابي وحاجاتي.

المفتش - ولكن لماذا لم تُحضر أغراضك معك لما جئت قبل أيام؟

نقولا - الأمر الذي صدر لنا كان - تعالوا الى عكا لمقابلة المفتش، ولم يُذْكَر فيه أنه يتوجَّب علينا أن نحمل أغراضنا معنا.

المفتش - ولكن البلدة في حالة إضراب ضد المعلمين ودعوتكم للمجيء الى عكا كان محاولةً لحل المشكل، وهذا يحتاج بعض الوقت.

نقولا - هذا واضح الآن. لكنّ أمرَكم لم يكن فيه ما يشير الى ذلك.

المفتش - سأسمحُ لك بذلك هذه المرة. كان يجب أن يكون هذا اجازة بدون راتب، لكنني لن أعاقبك هذه المرة لأنك بعد جديد وصغير.

نقولا - لو أن الامر كان واضحاً لوفّرت عليَّ أجرة الحصان الذي سآخذه من عند أمين عوقل، ذهاباً واياباً، وثمن طعامه في ترشيحا. أظن أن هذه عقوبة كافية على وضع لست أنا مسؤولاً عنه. على كلٍّ تساوينا في مسامحتنا الواحد للآخر.

شعرت كأن ابراهيم الشماس كان على وشك أن يضربني بالنشافة التي كان يحركها إخفاءً لعصبيته. فهو معتاد على أن يسمع جواباً لكل شيء يقوله «أمرك سيدي». وهنا شاب في مقتبل العمر يناقشه ليثبت له أنه هو كان المخطىء.

لم يضربني بالنشافة، لكنه لم يتأخَّر عن العمل على ازعاجي.

ذهبت الى ترشيحا وقضيت ليلة واحدة. ورأى بعض أصدقائي النور في الغرفة فجاءوا لزيارتي. وفي هذه الليلة عرفت منهم أن الذي أثار القضية في ترشيحا هو مدير المدرسة بالذات. فأهل البلدة ما كانوا يهتمون بهذه الامور. وأنا قد فوجئت بأن شيئاً من هذا النوع يحدث: أن يطلب أهل البلدة تبديل أحد المعلمين المسيحيين. لكن المدير خشيَ مزاحمتي له على المنصب، وكان يشعر بأنني أصبحت من أصحاب النفوذ بين الشبان فأثار القضية على هذا الأساس. وكان يذكر اسمي ويقول عني أنني لا أتقيّد بالعادات والأعراف.

عدتُ الى المكتب أُدبّج الرسائل الرسمية، وأكتبها بخطي الواضح، الأنيق أحياناً، وأصبحت الرسائل خالية من الأخطاء اللغوية - نحوياً أو صرفياً. لكن هذا كان عملاً موقتاً. إلا أن الأمور كانت تسير في مصلحتي. كان بين معلمي مدرسة عكا الثانوية الاستاذ حمدي الحسيني. وحمدي الحسيني كان أحد قادة الحركة الوطنية في فلسطين. وهو من الفرع الحسيني الذي موطنُه غزة، وكان يعلم في بلده. لكن ادارة المعارف أرادت أن تعاقبه لاشتغاله - كما كان يُقال يومها - «بالسياسة» لا بالوطنية، فنقلته من غزة الى عكا في بدء العام الدراسي ١٩٢٥ - ١٩٢٦. وكان الرجل ذا عائلة كبيرة. ففي غزة كان يسكن منزلاً يملكه، وكانت حاجيات «كثيرة» تأتيه من أرضه التي تُزرع لحسابه. فلما جاء الى عكا كان عليه أن يقوم بنفقات لم يكن معاشه يغطّيها. لذلك استقال إذ أبت إدارة المعارف اعادته الى غزة.

فرغ مكان معلم في مدرسة عكا الثانوية، ولأن ابراهيم الشماس كان يريد أن تقبلَ استقالة حمدي الحسيني حالاً كي لا تطول القضية، اقترح - لا حباً بي ولكن نكاية بحمدي - قبول الاستقالة وانتدابي للتدريس مكانه - وكان يعلم الجغرافية والتاريخ.

كان مكتب مفتش المعارف بعكا في مبنى المدرسة الثانوية وكان المفتش ومساعده والكاتب يشغلون الغرفتين الأوليين الواقعتين على يمين الداخل الى المبنى، بعد أن يتجاوز البوابة الحديدية. وكنت أنا أجلس في الغرفة الثانية مع حنا (موسى). وبعد ذلك تأتي غرفتان واحدة كانت للمعلمين والثانية، وكانت انارتها الطبيعية سيئة ضعيفة (لكن لم يكن في المدرسة إنارة صناعية من أي نوع كان). هذه الغرفة كانت للتعليم الصناعي - تجليد الكتب والنجارة - باشراف الشيخ صالح الخروبي. اما غرف التدريس فكانت في الدورين (الطابقين) الثاني

والثالث (باعتبار ان الدور الارضي هو الاول)، وكانت ثمة في طابق أعلى غرفة صغيرة قائمة وحدها يجلس فيها طلاب الصف الثاني الثانوي وعددهم أربعة.

هذه البناية كانت تستعمل في أيام العثمانيين مقراً لفرقة عسكرية، ولذلك، بالنسبة لعدد كبير من سكان عكا، كان اسمها «مدرسة الفرقة». والمبنى بمجموعه كان جزءاً من التحصينات القوية المتينة التي بناها أحمد باشا الجزار (١٧٧٤ـ١٨٠٤) اثناء حكمه للمدينة. لذلك فنحن كنا نعيش في أحضان التاريخ الحديث؛ لكنه تاريخ كان أهل عكا لا يزالون يتحدثون عنه نقلاً عن أجدادهم، ويفخرون به. ألم تَرُدَّ عكا الجزار نابليون سنة ١٧٩٩؟ ألم يقلْ القائلُ في عكا، عكا مدينة كبيرة (أو مهمة) ومحصّنة بالبراج (بالابراج) ما سمعت المثل شو قال يا خوف عكا من المواج (الامواج).

أما بالنسبة للحصار الذي ضُرِبَ على عكا في نهاية حملة ابراهيم باشا (١٨٤٠) والنيران التي أطلقت عليها فقد سجّلت الذاكرة الشعبية بشأنه ذلك قولاً نسبَ الى عدد كبير من الأشخاص وهو

لو لم تكن دار الشـــقــاوة عكة   مــا أمطرتهــا بالشــرار جـــهنم

فكان كلُّ ما أصابني من حيث تسلمي العمل الجديد هو أنني انتقلت من الغرفة الثانية الى الغرفة الثالثة مركزاً، وأخذت أعمل في الفرق المختلفة من الصفّ الرابع الابتدائي الى الثاني الثانوي.

بعد نحو ثلاثة أسابيع من بدء العام الدراسي حلت ادارة المعارف مشكلة ترشيحا. فتلقّينا نحن الثلاثة رسائل ما يتوجب علينا عمله. أعيد محمد بيدس الى ادارة المدرسة هناك، وأعيد بولس جبران أيضاً الى ترشيحا. أما أنا فتلقيت رسالة مفادها أن مدير المعارف العام قرر أن أظلَّ أعلم في مدرسة عكا الثانوية الى إشعار آخر..

تلقيت هذه الرسالة فيما أذكر بتاريخ ٦ أو ٧ تشرين الأول / اكتوبر سنة ١٩٢٥. واستمر هذا العمل الموقت، عشر سنين أي الى أواخر ايلول / سبتمبر سنة ١٩٣٥. وأرسل معلم ثالث، كان مسلماً، الى ترشيحا، لكنه أزعج محمد بيدس كثيراً ـ فرجاه نجوم الظهر كما يقولون. أذكر أن محمد بيدس لقيني بعد ذلك بسنوات في عكا، وأبدى أسفه لأنه خسرني كما خسرتني ترشيحا. وأضاف ان أهل البلدة كانوا يريدون أن يتخلّصوا من بولس جبران، لأنه لم يكن معلماً جيداً (وهذا ليس صحيحاً). فشكرته على شعوره نحوي، لكنني لم أستطع السكوت فقلت له: أرأيت جزاء سعيك للتخلص مني، جاءك من أزعجك. أما أنا فقد حصلت على ترقية مدهشة. وآن لي أن أشكرك.

لم أكد اتسلّم عملي في مدرسة عكا الثانوية حتى وصلت برقية الى ابراهيم الشماس تخبره أن أمي توفيت في نابلس، وانه يتوجب علي أن أذهب حالاً. مررت في طريقي بالناصرة وأخذت معي خالتي منيرفا التي كان تقيم في كندا، ولكنها جاءت تزور جدي يومها. أخذتها معي كي تحضر جنازة أختها، ووصلنا والخوري يلفظ الكلمات الأخيرة من القدّاس ـ الجناز. ودفنا أمي في نابلس (في رفيديا). وهكذا تمت الحلقة كما ذكرت قبلاً: أبي في دمشق، خالتي في فرعون قرب طولكرم، خالي في العفولة وأمي في نابلس.

تقرر في الاجتماع الذي عقد مساء ذلك اليوم أن تذهب أختي ماري مع خالتي الى بيت جدي ـ وكانت الجدة قد توفيت ـ وتظل هناك حتى أدبّر أنا أمري في عكا. فقد كنت لا أزال أقيم عند حنا موسى. وفي صبيحة اليوم التالي أخذت جورج، أخي الأصغر، الى القدس الى مدرسة شنلر، ودخلت مكتب الرئيس وطلبت منه أن يتفضل فيقبل الأخ الثاني (كان الفرد لا يزال في المدرسة) إذ أصبح بدون مأوى. ولن أبقيهما مدة طويلة. فأنا الآن معلم في عكا، ووفاة أمي جاءت مفاجأة. لذلك فأنا بحاجة الى بعض الوقت كي ارتب أموري. وقبل الرئيس أخي، ومن هناك عدت الى مركز عملي في عكا.

ووفقت في استئجار غرفة عند داود شومر. كانت الغرفة كبيرة نسبياً، وجاءت أختي ماري وأقامت معي. أما المطبخ فكانت تستعمله مع زوجة داود (منيرة الزّهر من الناصرة) بحيث لم يُسمع تذمّر من اي منهما.

لكن هذا كان موقتا. وقبل نهاية السنة المدرسية استأجرت بيتاً في خان الفرنج فيه ثلاث غرف ومنافع شرعية، وذلك تمهيداً لاحضار أخوي من شنلر.

في الصيف (١٩٢٦) ذهبت الى نابلس مع اختي لزيارة زوج المرحومة أمي ولترتيب بعض الأمور العالقة. وأحضرت أخوي من القدس ثم عدنا نحن الأربعة - أي ما تبقى من الأسرة - الى عكا. وبعد وصولنا الى عكا ببعض الوقت سألت الفرد وجورج فيما إذا كانا يرغبان في العودة الى شنلر. فكان الجواب نفياً حذراً، إذ لم يكونا يعرفان ما اعتزمت. ولما قلت لهما انهما لن يرجعا بكى الاثنان فرحاً. وكانت هذه ساعة أذكرها في حياتي. وعشنا معاً تسع سنوات في عكا أي الى سنة ١٩٣٥.

وهكذا بسبب تصرف مدير مدرسة ترشيحا، نقلت الى مدرسة عكا الثانوية، وفُتحَت أمامي آفاق جديدة. وتذكرت ما قاله لي جورج انطونيوس قبل نحو سنة: من يدري فقد يفتحُ نقلُك الى ترشيحا أمامك سبلاً جديدة.

والسلّم الذي كنت قررت أن أرقى درجاته حتى وانا في دار المعلمين، اتّضحت معالمه بعض الشيء أمامي الآن، ولكن ظلّت أمنية واحدة تعمل في داخلي - البعثة الى جامعة! فما هو السبيل الى تحقيقها؟

الفصل السادس

في صيف ١٩٢٥ قمتُ مع درويش المقدادي برحلةٍ طويلةٍ على الاقدام. بدأت الرحلة في أواسط شهر آب / اغسطس وانتهت في أواسط شهر ايلول / سبتمبر.

كان الحديث عن هذه الرحلة قد بدأ في ربيع ١٩٢٤، في دار المعلمين، وكانت الفكرة تدور حول زيارة لجبل الشيخ. لكن لم يتم شيء من ذلك في صيف تلك السنة. فاكتفينا، أنا ومجموعة من الأصدقاء، على القيام برحلة على الأقدام الى طبرية. وقد دوّنت انطباعاتي عن المنطقة في فصل سابق.

لما زارني درويش المقدادي في ترشيحا، وكنت أنا معلماً في مدرستها، قال لي ان مشروع الرحلة القديم تجدّد الحديث عنه، وأنه أصبح رحلة على الأقدام عبر شمال فلسطين ولبنان وبعض مناطق سورية الساحلية. وقال لي ان عدد الذين أظهروا رغبة في الانضمام كبير. لكن لا بأس فكلّ شيء يمكن ترتيبه.

اتفقنا أخيراً - وهو في زيارتنا - أن نبدأ رحلتنا في أواسط شهر آب، وأنني سأكون في الناصرة، وأنني أنتظر أخباراً منه.

وجاءت الرسالة وفيها يعيّنُ درويش يوم بدء الرحلة، ويطلب مني ان انتظره في الناصرة، صباح يوم معيّن في كاراج الميدان كي نذهب الى صفد؛ فالرحلة ستبدأ من هناك.

وجاء اليوم. وذهبت وانتظرت. أملت أن يكون العدد كبيراً. لكن وصل درويش وحده وقال تقلّص العدد من سبعة عشر الى اثنين. وهكذا بدأنا الرحلة بالسيارة الى صفد. قضينا يومين في صفد فقد كان يودّ أن يتأكد من ضبط أسماء القرى في قضاء صفد لأمر كلّفه به عمر الصالح البرغوثي - المحامي المؤرخ.

وبدأنا الرحلة. وأنا هنا أود أن أضع جدولاً بسير الرحلة، تاركاً التفاصيل عن الأجزاء المختلفة التي قَطَعْناها لمكانها الخاص بها.

طريقنا كان كما يلي:

صفد الى حوض بحيرة الحولة، قرية الخالِصَة - التي يسميها الصهيونيون اليوم «قِريَةِ اشمونا» - ومنها عبر منابع الاردن الى جبّاتا على سفح جبل الشيخ مروراً ببانياس.

من جباتا الى قمة جبل الشيخ، ومنها الى شِبْعا في لبنان. من شبعا الى جديدة مرجعيون بطريق الهبّارية، ومن جديدة الى صيدا عن طريق قلعة الشقيف والنبطية.

بعد يومين في صيدا خرجنا الى روم وجزين وسرنا الى باتر وعماطور. قضينا الليلة هنا عند رجل من آل عبدالصمد. وفي اليوم التالي الى دير القمر. ومنها الى بيروت بالسيّارة لأن أحذيتنا تمزّقت وكان لا بد من تبديلها.

ثلاثة أيام في بيروت. درويش، خريج الجامعة الاميركية، دليلي. أقامتنا كانت في الفندق العربي الحديث الانشاء في الطرف الشمالي الغربي لساحة البرج - الشهداء.

ونحن في بيروت زرنا ضبيّة وجونية وجُبَيْل. ذهبنا الى جبيل بالقطار. كان مونته Monte قد بدأ قبل ذلك

بمدة بأعمال الحفر الأثرية في جبيل. فشرح لنا ما توصل اليه يومها، ولم يكن بعد كثيراً.

انتقلنا من بيروت الى صوفر بالقطار. ومنها سرنا الى بحمدون. وسرنا بعد ذلك عبر قرنايل وبزبدين الى ضهور الشوير. قضينا ليلة في دير مار الياس. ومن ثم سرنا الى صنين. بعد ذلك كانت طريقنا عبر العاقورة الى الأرز.

من الأرز اتجهنا نحو طرابلس. وبعد يومين هناك سافرنا بالقطار الى تلكلخ ثم كان لنا سير (مشياً) الى قلعة الحصن (حصن الأكراد) ثم صافيتا، فجبلة على الساحل (منها خرجنا في صباح مبكّر وزرنا قلعة المرقب).

وصلنا اللاذقية منتصف الليل. قضينا ثلاثة أيام فيها وأربعة في جبال النّصيريّة. ومن اللاذقية سافرنا بحراً الى مرسين فالاسكندرون. ومنها الى انطاكية. وكانت هناك زيارة للسويدية وما اليها (١٩ ساعة في يوم واحد) وهو آخر ما مشيناه، إذ اقترب وقت فتح المدارس بفلسطين (١٤/٩) ونحن الاثنان نشتغل بالتعليم.

لذلك سافرنا بالسيّارة من انطاكية الى حلب، ومنها الى المعرّة وحمص. وركبنا القطار من حمص الى بعلبك وزحلة ثم بالقطار الى دمشق.

وعدنا من دمشق بالسيارة، فودعت درويش في الناصرة، حيث قضيت يوماً ذهبت بعده الى ترشيحا مقر عملي. أما درويش فاستمر من الناصرة الى طولكرم فالقدس!

هذه طريق الرحلة، أما التفاصيل فتلي.

إلى جبل الشيخ

أمنية جاشت في نفسي منذ أن كنت يافعاً - هي أن أصل الى قمة جبل الشيخ. فقد رأيت الجبل الكبير، رابضاً على أطراف السهول الواسعة لأول مرة، إذ كنت مسافراً من دمشق الى حيفا، فألهاني منظره عن الأراضي الفسيحة التي يجتازها المسافر، وشغلتني رؤيته عن كل ما عداه، فملأ نفسي رهبة وأشاع فيها خشية الشيء العظيم الأبي، ورغبت في أن أرقاه. وكنت اينما سرت في مرتفعات هذه البلاد، يبدو لي جبل الشيخ يدعوني لارتقائه، وكأنه يتحداني. وكل مرة كنت أسمع فيها دعوته، كنت ألبي نداءه وأعده بالذهاب، حتى تم لي ذلك مرتين. فتسلقت جبل الشيخ من جهتين مختلفتين، وبشكلين متباينين وعرفت لذة الوصول الى القمة، وأدركت معنى الاستمتاع بالأفق الواسع يشرف منه المرء على الأمور إشرافاً كلياً، فتغيب الجزئيات والصغائر أمام الكليات والعظائم.

كان اليوم أحد أيام النصف الأول من شهر آب / أغسطس وكان الحر شديداً، سيما وأن الليلة السابقة قضيناها أنا ودرويش المقدادي في الخالصة شمالي بحيرة الحولة في غور الأردن. وكانت الشمس قد ملأت الأفق، لما أتخذنا طريقنا - أنا وصديقي - من الخالصة الى جباتا الزيت. كانت طريقنا تمرّ في بقعة من أجمل بقاع بلادنا، إذ كان علينا أن نجتاز المنطقة التي تقطعها روافد الأردن. وكان تل القاضي أجمل هذه الينابيع وأولها في طريقنا. فقد وصلنا اليه قبل الظهر، فأشرفنا على تلة، لعل طولها لا يتجاوز الثلاثين من الامتار، ولا تكاد ترتفع عشرين متراً، تكسوها الاشجار والأنجم البرية، وينبثق من غربها نبع ماء قوي، يشق طريقه من احشاء الأرض ويبري الجنادل في سيره، ويملأ الجو صوتاً موسيقياً، ويملأ النفس لذة وسروراً. ويأبى الرعاة إلا أن يجعلوا لهذا الشجر الجميل هالة من القداسة، فهم يحملونك على أن ترى عشر شجرات منفردة عن غيرها، وإذ تقتنع بذلك يتقدم أحدهم فيروي لك في كثير من الإيمان وكثير من اليقين، أن عشرة من الصحابة الكرام مروا بهذا المكان، فربطوا خيولهم في أوتاد غرسوها خاصة لذلك، فإذا الأوتاد تنبت شجراً كريماً، وإذا الشجرات العشر تبقى الى يوم الناس هذا.

وإن ساعة وبعض الساعة من المشي لتنقلنا الى بانياس، فنجتاز في طريقنا ارضاً خصبة جميلة، مكسوة بالأشجار، ونعبر النهر على بقية صالحة من جسر روماني، فنصل الى غار كبير. بعض اجزائه حمراء. ومن صدر الغار يخرج نهر كامل العدة والصورة. وإذ تقف داخل الغار: فترى هذه الولادة العجيبة، وتمتع نفسك بهذا الجمال الفذ، وتستروح معنى هذا الانبعاث، تفهم السر في أن الأقدمين قدّسوا هذا المكان وباركوه وعزوا اليه قوة خارقة. فعبد الساميون القدماء فيه آلهة الماء الجارية تحت الارض، وكرسه اليونان للاله بان وإلاهات السحر الجميلة. ومن «بان» اشتقت المدينة والمنطقة اسمها، واحتفظت به، رغم ان كل حاكم أقام هناك حاول أن يغير المدينة ويسميها باسمه. لكن الأيام حفظت اسم الإله الجميل، واستغنت عن اسماء الحكام. ولم يكتف «بان» بطبع المكان بطابع الاسم، لكن اثره تعدى ذلك الى النقود التي سكّت هناك، فظهرت صورته عليها، يحمل نايه يغني الأغنية التي تبقى بعد ان تفنى الحياة.

وبانياس اليوم قرية، قد لا يتجاوز عدد سكانها الالف، لكنها كانت في أيام الرومان والعرب مدينة كبيرة، تتركز فيها الحياة التجارية والزراعية والادارية للمنطقة كلها. وقد اعجبت ابن جبير إذ مر بها في طريقه من دمشق الى عكا فقال فيها: «هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين (وهي صغيرة) ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر، ويفضي الى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجائها... ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للافرنج يسمى هونين».

على أن القلعة الرئيسية التي تحمي المنطقة منذ أقدم الأزمنة لم تكن قلعة بانياس نفسها، ولكنها قلعة الصبيبة التي تقع على مسير نحو ساعة الى الشرق من بانياس. هذه القلعة، على ما تظهر مما تبقى منها قائماً الى الآن، أكثرها من نتاج العصر الصليبي، وعليها نقش يرجع الى أيام الملك العادل. وتقع القلعة على مرتفع من الأرض يمكن الواقف في اعلاها من رؤية قلعة الشقيف (ارنون) وهونين غرباً، وسهل الحولة وقراه غرباً في جنوب، وجباتا الزيت شرقاً. وقد اطلقت الاسطورة المحلية، منذ زمن قديم، على القلعة اسم قلعة نمرود. ذلك لأن ضخامة الحجارة، وعظم البناء، وارتفاع الابراج، وحصانة الاسوار - كل أولئك اقنع الناس من أجيال ان هذه القلعة من بناء الجبابرة القدماء لا من عمل الانسان، فنسبوها الى بطل الجبابرة نمرود.

أليس في هذه الأماكن متعة تهيء المرء السائر فيها لقبول ضيافة المساء في جباتا الزيت، إذ يصلها والشمس قد جمعت آخر خيوط لها في الأفق؟ وتقضي بعض المساء في تحدث عن رحلة الغد. نعم الى قمة جبل الشيخ الواقعة جباتا على طرفه الجنوبي. ان حلم الصبي على وشك ان يتحقق. ويتقدم القوم المجتمعون محاولين اقناعنا بالعدول. فالطريق صعب المرتقى والمسافة طويلة، والماء نزر، ولا سبيل الى الحصول على دليل يرافقنا. ويرى مضيفنا اننا نسمع كلامه وكلام رجاله، دون ان نقبل نصحهم، ويتأكد من اننا لا بد صاعدان. فيهيء لنا كل ما نحتاج، فثمة دليلان بدل الواحد، وكل منهما يأتي ببغلته معه، على سبيل الاحتياط. والحيطة هذه ظهرت بعد ساعات إذ امتطى كل من الدليلين دابته وسارا يرشداننا الى الطريق. وهذا مضيفنا الكريم يعد لنا زاداً كثيراً، وماء نحمله في تنكتين، فقد لا نجد عند القمة ثلجاً نذيبه، لأن ذوبان الثلج بدأ مبكراً تلك السنة، ولعله زال كله عن الجبل، وهذا ما لقيناه فعلاً.

كانت الساعة الرابعة صباحاً لما خرجنا من جباتا. وان أنس لا أنس مختار القرية، وقد رآنا نخرج منها، إذ لحق بنا يحاول في آخر لحظة ان يثنينا عن عزمنا. لقد اقسم بوجود الخطر، ولما يئس منا، بعد ان سايرنا مسافة طويلة، اشهد الفلاحين علينا انه براء من دمنا، إذا مسنا ضر، فقد انذرنا ولم نلتفت له، وتركنا صاخباً.

سرنا بين كروم العنب أولاً، لكن هذه لم تلبث ان انقطعت. واستعضنا عن رفقة الكرم بالحمص الأخضر، حتى وصلنا «مرج ابو عبدالله»، وهو آخر الجزء الذي يزرع، ولم نر بعد ذلك الا بقية اعشاب ترعاها الماشية، التي

تصطاف هناك مع رعاتها، وترتوي من نبعة «معنون» الباردة. على أن الأعشاب نفسها أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً وتحل محلها نباتات شائكة ذات رائحة زكية.

بعد عشر ساعات من السير وجدنا أنفسنا على قمة جبل الشيخ، على قصر عنتر أو شيبوب، وعلى أنقاض الهيكل القديم المكرس لبعل حرمون. وان كان الهيكل القديم رمز العبادة الالهية، وقصر شيبوب رمز البطولة الفذة، فعلى قمة جبل الشيخ اثر صغير هو رمز الآمال العربية. فهناك رأينا قطعة رخام منقوش عليها ذكرى زيارة المغفور له فيصل الأول لقمة جبل الشيخ أيام كان ملكاً لسورية.

ولجبل الشيخ ثلاث قمم. قصر عنتر في الجنوب، وأخرى في الشمال، وهما متساويتان في الارتفاع البالغ ٢٧٥٣ متراً، أما الثالثة فتقع في الغرب، وتنخفض عنهما قليلاً. وامتداد جبل الشيخ العام من الشمال الشرقي الى الجنوبي الغربي، وطوله يتجاوز الثلاثين من الكيلومترات.

اما المرة الثانية فقد كان صعودي جبل الشيخ من راشيا، من الغرب. بدأنا السير في العاشرة مساء، وأمامنا الدليل ومعه بغلته تحمل زادنا ودثارنا، فقد أنبئنا أن البرد يكون في الصبح شديداً. كانت الليلة هادئة، وكان القمر بدراً أو يكاد، وكانت النفس مطمئنة، وكانت السفرة مهياة، وأراد الله ان يتم نعمته علينا فكان دليلنا رخيم الصوت. ولم نكد نلتحف الوادي، ونطمئن الى أننا في الطريق الصحيح، حتى أخذت صاحبنا فورة من الطرب، فانطلق يغني غناءه الجبلي القوي العذب، وأخذ الوادي يردد صدى غنائه، فيبعث في نفوسنا رهبة الجبل العظيم، وسرور الطبيعة، وأمل الليل البهيم. (فعتَّب) صاحبنا ما شاء له الهوى، (وميجن) ما شاءت له الذكرى، (ودلعن) ما هاجه غرامه، وهو في كل ذلك جذلان طرب، ونحن معه جذلان طربان.

انها قرابة خمس ساعات، فإذا الدليل يصيح بأننا على وشك أن نصل. وإذا بالطبيعة تقدم لنا كهفاً يأوي اليه صديقي والدليل، فيعطيان جسدهما حقه من الراحة، وآبى أنا على نفسي ذلك. لقد خشيت إن أنا استلقيت أيضاً أن تأخذنا كلنا سنة من النوم، فلا نصحو إلا وقد أضعنا الفرصة. لقد كنت ضنيناً بأن أضيع هذا الجهد دون أن أرى هذا المنظر الجميل الذي تتعاقب عليه السنون، فلا تبلي جدته، ولا تزيل أثره. أبيت على نفسي أن أعطي جسدي حقه، وقمت بدور الحارس. فلما حسبت أنهما اكتفيا، أيقظتهما، وتابعنا السير. ولم نسر إلا نصف ساعة فإذا بنا على قصر عنتر، وإذا بي أقف هناك للمرة الثانية. ولكن هذه المرة في آخر الليل، وكانت المرة الأولى في وضح النهار.

ولست أشك، بعد ان وقفت على قمة أكثر الجبال المرتفعة في لبنان وفلسطين وسورية، ان ما يراه المرء من قمة جبل الشيخ أوسع من كل ما يرى من أي جبل آخر. وتنوع المناظر التي تجتليها العين من قمته لا يتيسر في مكان آخر. فأنت إذ تقف على قمة الجبل - على أنقاض قصر عنتر أو هيكل بعل حرمون - وتمد ببصرك حولك، تستجلي عينك آفاقاً مترامية، وأبعاداً شاسعة: ففي الغرب يخيل اليك ان البحر، بين جبل الكرمل وصور، يرتمي عند موطىء قدميك، وترى وادي نهر القاسمية يمتد امامك كانه يرشد نظرك الى مغاني الجمال الفاتن. وهذا الوادي نفسه يريك حداً فاصلاً بين لبنان الجنوبي وجبال الجليل، التي تحمي الحولة وطبرية وسهليهما من المكروه، فإذا صوبت نظرك في اتجاه الشمال رأيت الجبل الشرقي. أما في الشمال الشرقي فأنت تطل على دمشق وغوطتها التي تضم كل البقاع الخضراء على سيف البادية. وثمة اللجاة ذات الصخور النارية، وحوران وسهوله الخصبة. وفي الجنوب الشرقي الجولان وفوهاته البركانية. أليس في هذا الاتساع والعلو ما يحملك على احترام شيخ الجبال وسيدها، والاطمئنان الى العزيمة التي تخلفها في نفسك الاقامة فوقه ساعات، قلت أو كثرت!

على ان كل هذا الذي ذكرت لا يعدو جزءاً صغيراً من الحقيقة كما تلمس هناك والتي لا سبيل لي إلى وصفها.

بل أن هناك منظراً آخر ينقل ناظره الى جنات من الخيال ويحمله على أجنحة من الإعجاب لا يستطيع ان يدركها إلا من حمل نفسه مؤونة تسلق جبل الشيخ.

كان الليل لا يزال يرخي سدوله الكثيفة على قمة الجبل لما وصلنا في المرة الثانية. وكان القمر رفيقاً بنا في سيرنا، لكنه ازداد بنا رفقاً لما وصلنا، إذ تركنا لما نحن قادمون عليه واختفى في الغرب وعلى فمه ابتسامة من يعرف ما يخبيء القدر لهذه الجماعة الصغيرة من متعة ولذة. واختفى دون انذار أو تحذير، حتى كدنا نتعثر في سيرنا في الجزء الأخير من القمة العنترية. وما استقر بنا المقام حتى تدثرنا بالسميك من أحرمتنا واتجهنا نحو الشرق نرتقب الجمال والضياء.

ولم يطل انتظارنا. بدت تباشير النور في أشعة فضية باهية، تبين لنا فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. ثم أغدقت هذه الأشعة من نورها على الأفق العريض البعيد، فبدا كله مفضضاً، ثم استحالت فضته ذهباً يخالطه مزيج من الألوان الناشئة عن انعكاس الأشعة على السماء الزرقاء والرمال المنتشرة في عرض الأفق. ولم تلبث الشمس نفسها أن تجاوزت الخط الفاصل بين الأرض والسماء، فبدا كل شيء موشى بنورها ملتحفاً بضيائها وشعرت آنئذ أن الحياة انبعثت في كل ما يرى، من جديد، فظباء الفلاة أخذت تتلفت نحو مصدر الحياة السماوي، ورمال الصحراء اخذت ترقص طرباً وحبوراً، وأزاهير غوطة دمشق واشجارها نفضت عنها رداء الليل البهيم، ووجهت وجهها نحو الشمس وحنت رؤوسها إجلالاً لها. ملأ قلبي بعض هذه الحياة التي انتشرت في كل شيء فملأت فراغه، وأشاعت فيه امتلاء روحياً. ووقفت في مكاني مشدوهاً لا أتحرك ولا أتلفت، حتى كأنني أصبحت جزءاً من جبل الشيخ. وعندها سرت في نفسي شرارة من عزيمته وثباته، فرأيتني أحس بقوة ونشاط عجيبين. وطال استمتاعي بالمنظر الخلاب، تتبدل فيه الألوان دقيقة بعد دقيقة، وتتوالى فيه الصور مع تبدل الألوان، حتى صاح صديقي «انظر». فتلفت الى حيث أشار فرأيت ظل جبل الشيخ مبسوطاً على سهل البقاع والجبال الواقعة الى الغرب منه، ثم رأيت هذا الظل المديد يتقلص تباعاً لارتفاع الشمس في الشرق.

وهكذا تمت أمنيتي مرتين، فعرفت جبل الشيخ. وانحدرت منه مرة في الليل وأخرى في النهار. فالمرة الأولى كان نزولنا في وادي جنعم الحجري الملتوي، وطال سيرنا فصرفنا أربع ساعات هبوطاً حتى وصلنا شبعا. وكانت الساعة الأخيرة من سيرنا بين بساتين شبعا، لكن الظلام كان حالكاً فلم نتبين منها شيئاً. وأي لذة شعرنا بها، وأي سرور شملنا، لما أوينا الى فراشنا تلك الليلة بعد صعود استمر عشر ساعات، وهبوط استمر اربع ساعات وكانت غايتنا في السير قمة جبل الشيخ.

اما هبوط النهار فكان عوداً الى راشيا. وأطبق دليلنا فما يحدث ولا يغني. ومن غنى في الليلة المقمرة يصمت في النهار، ومن رأى شروق الشمس من قمة جبل على بادية الشام يطبق جفنيه لتنطبع هذه الصورة في ذهنه. وهذه سنوات تمر على ذلك اليوم، والصورة لا تزال ثابتة في خيالي كأنها وليدة صباحي هذا.

ونحن في انتقالنا من شبعا الى حاصبيا نجتاز وادي التيم من شرقه الى غربه، ونعبر نهر الحاصباني وهو ثالث فروع نهر الأردن الكبيرة، ونمرّ بقرية الهبارية، القرية التي استغرب اهلها زيّنا، وكنا نرتدي السراويل القصيرة، وسألونا إن كنا جنوداً فارّين أو بائعي حكمة (أي عقاقير). وأهل الهبارية فخورون بسبيل الماء الذي أنشيء ببلدهم. فقد نقشوا عليه «وجعلنا من الماء كل شيء حي. وأن ليس للانسان الا ما سعى. حبذا أهالي الهبارية وحبذا سعيهم المأثور وثباتهم المشكور. بذلوا في سبيل بغيتهم النفائس فباءوا بنجاح باه باهر أجرى عليهم ماء سلسبيلاً وشراباً طهوراً فاشرب ايها الوارد وادع بالخير للنزيه الهمام زكي قدري بك الذي بفضل همته الشماء تسنى جر هذا الماء لهذا البلد الطيب فأحيا الزرع والضرع. وهذا من بعض آثاره الكريمة حياه الله وبياه سنة ١٣٣١».

وأنت لو انحدرت الى الشرق من جبل الشيخ لهبطت الى الطريق الموصلة بين دمشق وبيت جن الشامية، وهي الطريق التي اجتازها ابن جبير.

هذا، أيها القارىء الكريم، جبل الشيخ. وإن زيارته لأمر حري بأن يقوم بها كل عربي ليرى كيف يثبت الشيخ على عوادي الدهر، لعلنا نتعلم منه درساً في الحياة.

في صيدا

أما نحن فقد انحدرنا من جبل الشيخ غرباً، فوصلنا شبعا حيث قضينا ليلة في ضيافة «رسمية» للمختار. ثم الى حاصبيا وجديدة مرج عيون. حيث أخذنا في الانحدار التدريجي نحو نهر يسمى في جزئه الممتد من منبعه (في جوار بعلبك) حتى أقدام قلعة الشقيف (شقيف ارنون) نهر الليطاني، فاذا انحرف غرباً فيما يشبه الزاوية القائمة كي يصب في البحر المتوسط أصبح اسمه نهر القاسمية.

فلما وصلنا هذه الزاوية التي يبدل عندها اتجاهه، تطلعنا الى فوق. على قمة الجبل الذي يسير على هذا الوادي في جهتيه، تقوم قلعة الشقيف. هذا مكان لا بد ان يزار. ونحن امام خيارين: اما ان ندور مع الدرب «وان دارت» كما يقول المثل، فنصل الى القلعة من الجهة الجنوبية الغربية، في طريق يرتفع متمهلاً، ثم يقطع سهلاً يمتد بين القلعة والنبطية. (والخيار الثاني) واما ان نحزم امرنا ونتسلق الى القلعة على نحو ما تتسلق الماعز. ولم نطل التفكير، ولا حتى فكرنا فيما أذكر. قبل ان نحزم امرنا تماماً كنا قد بدأنا التسلق. وما كان امتع ذلك. فقد كنا ننظر خلفنا بين الفينة والفينة لنتملى من المناظر الخلابة. الأرض تكسوها نباتات الصيف الزاحفة، الخيار والقثاء (الفقوس) والبطيخ، وكروم العنب الملتهبة نضوجاً وخجلاً، ونهر الليطاني ـ القاسمية يشق طريقه متمهلاً، وموقع القلعة الحصين واشرافها على الطرق أمر يوضح لنا، كما أوضح ذلك لغيرنا من قبل ومن بعد، أهمية الموقع الجغرافي في الاشراف على الطرق اما لتسهيل سير التجار أو لمنع تقدم الجيوش.

واتجهنا نحو صيدا مروراً بالنبطية. كان وصولنا ضواحي صيدا وقد لف الظلام الدنيا. وقبل ان ندخل المدينة لقيتنا دورية من الشرطة قوامها أربعة نفر جميعهم يمتطون الخيول، ولست مستعداً لأن أقول الجياد فانها لم تبد لي كذلك. واذا بآمرها، ولعله كان باشجاويش (أي من صف الضباط) يطلب منا الوقوف ويسألنا لماذا نسير في وقت متأخر من الليل. ولماذا ننتقل مشياً على الأقدام من فلسطين الى لبنان، ولماذا ولماذا. وهو لا ينتظر جواباً على السؤال قبل ان يطرح السؤال التالي. ثم يصدر أمره الى أمين أونباشي (أي آمر العشرة بالتركية، وكانت هذه التسميات التركية لا تزال سائرة في فلسطين ولبنان) ان يرافقنا الى صيدا الى القشلة. وهذا يأمرنا بدوره ان نسير أمامه. وظل هو على حصانه.

وهكذا دخلنا صيدا، يمكن حول الساعة الثامنة مساءً، واجتزنا الشارع الرئيسي (العام) كما يجتازه أي شخص ملقى عليه القبض. كان الشارع الرئيسي في صيدا معجوقاً بالذين جاءوا يروحون عن أنفسهم من حر الصيف بالجلوس في المقاهي. كان القوم يحتسون الأشربة الباردة ـ العرقسوس أو شراب الرمان أو الورد أو الكازورة، إذ لم تكن الكولا ولا السفن اب معروفة يومها ـ أو يتناولون القهوة. والبعض كان يكتفي بالسيكارة فيما كان البعض الآخر يقرقر أركيلته. ولم يكن لدي شك في أن هؤلاء الناس ظنوا أن الدورية ألقت القبض على صيد سمين من الجواسيس أو المجرمين.

وقد اتضح هذا لنا لما زرنا الأمير نسيب الشهابي في اليوم التالي في مكتبه، وكان بين يدينا رسالة توصية من صديق له، فكان ان قال لنا لا تؤاخذوني كان يجب أن نعنى بأمركم لما مررتم أمامنا أمس مساء، وكنا في المقهى. وأضاف: «ولكن انتم تعرفون ان الثورة قائمة في سورية، ولذلك الحذر واجب».

ولما وصلنا الى القشلة، وهي أيضاً الكلمة التركية لمركز الحامية العسكرية، وكانت يومها مركزاً للشرطة والدرك، قرر المسؤول الموقت هناك ان يستضيفنا الى صباح اليوم التالي. فالمسؤول غائب عن المكتب، وهو، أي القائم بالأعمال، لا يستطيع ان يفعل شيئاً. وفي الصباح تحل المشاكل.

لكن درويش أصر على وجوب انتظار عودة المسؤول في المكتب لا في النظارة (كانت الغرفة المقترحة رقم ٣). ومع انه كان هناك شيء من المناقشة بين درويش وبين هذا الرجل، فانه في الواقع لم يعطنا أية فرصة لاحترامه. وقد كان يكفي انه يمارس وظيفته في مكتب رسمي وهو يلبس «قبقاباً» من الخشب!

ولم تطل المناقشة لأن المسؤول دخل، والذي ظنناه هو أن الخبر وصل اليه فجاء لعله يجد صيداً حرياً باهتمامه. فوجد أمامه شابين محترمين، يحملان أوراقاً رسمية صحيحة صالحة للسفر والتنقل، وانها كانت تحمل سمة بالدخول الى لبنان وسورية من القنصل الفرنسي في القدس.

أدرك الموظف المسؤول انه لم يفد من الصيد، فليفد على الأقل من الاعتذار. وهكذا فقد اعتذر بما فيه الكفاية وزيادة. ثم عرض علينا أي خدمة. وكنت أنا قد لاحظت اسم الفندق الذي نصحنا بالنزول فيه ونحن داخلان الى المدينة، فشكرناه وسرنا حرين طليقين الى الفندق - فندق فينيقيا.

زرنا الامير نسيب في صباح اليوم التالي، فأصر على مرافقتنا لزيارة المدينة. صيدا كانت يومها المدينة القديمة بحاراتها التي تعود الى العصور المتوسطة وأزقتها الضيقة وطرقها المبلطة، مع انتشار العتمة في كثير من هذه كلها. إلى هذا كان هناك بدء انتشار خارج المدينة تزينه مدرسة الأميركان في المية ومية وأبنية تخص وجهاء المدينة الاقطاعيين، إذ لم يكن التجار قد اصبحت لهم بعد المكانة التي كانت لتجار بيروت.

لكن صيدا فيها بقية ميناء قديم وفيها قلعة تعود في أكثر ما بقي منها الى العصور الوسطى، ولو أن أجزاء منها تدعي العودة الى الأزمنة القديمة. فصيدا كانت ميناء حوران والشام. ومن آثار صيدا الجميلة التي تعود الى أيام فخر الدين المعني خان الافرنج الذي كان في زمن هذا الامير في أوائل القرن السابع عشر، مركز التجارة الأجنبية، لما كانت صيدا مركز هذا الاتجار الأول مع الغرب.

لكن كل هذا كان من اخبار الماضي. الا ان الماضي الذي كان يشع حبوراً في المدينة فقد كانت النواويس التي تعود الى العصر الهلينستي، ويشار اليها باسم نواويس الاسكندر، لأن صورته منقوشة على أكثرها. هذه النواويس كشف عنها في عهد الدولة العثمانية، وكل ماعمل من أجلها انها ظلت مكانها. ولم تكن الادارة الجديدة قد رتبت امور هذه النواويس يومها. جبيل كانت مركز الاهتمام الأثري الأول. صيدا كان كل ما نالها الى ذلك الوقت زيارة رينان الفيلسوف المؤرخ الفرنسي في أواخر القرن الماضي، ووصفه لما رأى وما نبش (وهو قليل) وذلك في التقرير الذي وضعه عن رحلته الأثرية (الاركيولوجية) في فينيقيا.

في صبيحة اليوم التالي خرجنا من صيدا في اتجاه جزين. مررنا بروم، ووصلنا جزين عند الظهر، ولما سألنا عن مطعم اشير علينا بأن نقصد فندق النعمانية في أعلى البلد. وكان الطريق طويلاً ولكنه جميل. مررنا بالشالوف المشهور، وبالبيوت اللطيفة القائمة على التلال وفي الأودية، ورأينا في دكان أو اثنين نماذج مما تصنع جزين من السكاكين والملاعق والشوك ذات المقابض القرنية المتنوعة. ولكن لما وصلنا الى فندق النعمانية لم يسمح لنا مدير صالة الطعام بالدخول للأكل. ولم يكن السبب انه لا مكان لنا كما قال، ولكن الذي قصده انه لم يكن هناك مكان لاثنين مغبرين على نحو ما كنا. فعدنا ادراجنا الى وسط البلد ونعمنا بغداء شهي بسيط لذيذ على أيدي ندُل لم «يقرفوا» من الغبار الذي كان يكسونا.

اتجاهنا من صيدا الى جزين كان شرقاً في جنوب. والآن، بعد الغداء وشيء من الراحة، اتجهنا شمالاً نحو بعقلين ودير القمر. الطريق ترتفع تدريجاً لتجاري خطوط ارتفاع الجبل هناك، وتكتسي جنبات التلال بالأشجار

المثمرة وان كان بعضها كالمشمش قد انتهى موسمه. لكن الكرم كانت ايامه في عزها. فنحن في النصف الثاني من آب / اغسطس، والمثل يقول «في آب اقطف العنب ولا تهاب». وكانت اشجار التين على اليمين واليسار، ونحن نسير مستمتعين مطمئنين الى اننا سنصل مكاناً نجد فيه فندقاً، إذ اتضح لنا اننا لن نطأ أرض بعقلين قبل المساء. فدرويش المقدادي قضى اربع سنوات في الجامعة الاميركية في بيروت، وقبلها كان تلميذاً في مدرسة ثانوية هناك، وهو يعرف ـ أو يظن انه يعرف كما اتضح لنا ـ ان جميع قرى لبنان الأوسط فيها فنادق لانها مدن اصطياف.

غابت الشمس وهبط الظلام الخفيف اولاً ونحن على مقربة من عماطور. وبيننا وبين بعقلين مشوار ولما وصلنا عماطور سألنا في مكتب الشرطة عن فندق فقيل لنا لا يوجد فنادق في المنطقة. ويبدو ان الذي لم يكن يعرفه درويش، هو ان الاصطياف كان له معنيان بالنسبة للبناني وخاصة المقيم في الساحل. فهناك الاصطياف في الفنادق وهذا يومها (سنة ١٩٢٥) كان مقتصراً على عدد محدود من المدن والبلدان وحتى القرى في لبنان الأوسط وجزين والجنوب وحصرون وبشري في الشمال. هذه الفنادق كان يقصدها الاثرياء. وكانت الفنادق التي يمكن ان تقبل زواراً متوسطي الحال قليلة ان لم تكن نادرة.

ولكن الاصطياف الأعم هو الذي يقوم على أساس تملك بيت في قرية من قرى الجبل تذهب اليه الأسرة لقضاء فصل الصيف. وقد يذهب الرجل يومياً أو أياماً معينة في الاسبوع الى عمله في بيروت أو طرابلس أو صيدا. وثمة بعد الأعم من هذا وهو ان يكون البيت القائم في القرية هو بيت الأسرة الذي تملكه هناك، وتذهب اليه صيفاً لقضاء الوقت فيه.

وقد ظلت هذه خطة الاصطياف العامة، لكن الذي يتبدل هو التفاصيل. فقد زاد عدد الفنادق زيادة كبيرة، وفتحت فنادق يمكن ان يؤمها أهل الطبقة المتوسطة وفرشت شقق وبيوت للتأجير صيفاً.

والمهم أننا لم نجد فندقاً في عماطور لكن الضيافة لا تعدم النصير في ديار العرب. فقد دعانا آمر مركز الشرطة الى قضاء الليلة عندهم في المركز. وذلك بعد ان أصر على وجوب تناول الطعام معهم. كانوا قد جلسوا يتناولون طعام العشاء مع صديق لهم، وقبلنا الدعوة شاكرين، لكننا اعتذرنا عن مشاركتهم في الشراب. فالجماعة كانوا «ياكلون مع كاس». لذلك فقد اعتذروا لنا عن احتمال التأخر في الأكل. وبعد وقت انتهى فيه ما ندبوا انفسهم له. قام الكل الى الطاولة ينظفها، وأخذ رجال الشرطة ينظمون أمر مبيتنا، وإذا بضيف الشرطة يقول: «تفضلوا الى بيتكم؛ كيف بتنامو عند الشرطة في عماطور». وهكذا أخذنا السيد عبدالصمد، كما عرفنا من الحديث، وقضينا عنده ليلة مريحة مسرّة نافعة. استرحنا على الفراش الوثير المفروش على الأرض (فرشتين لكل واحد منا) وسررنا بالضيافة المغلفة بالأنس والطبعية واستفدنا من حيث الحديث معه. الرجل كان درزياً، فالقرية بأجمعها كذلك؛ والثورة السورية كانت أصلاً ثورة درزية بمعنى انها ابتدأت في جبل الدروز. وحدثنا عن الصلات التحتانية ـ الى يومها، بين الجماعة هنا (في لبنان) والجماعة هناك. وقد وجدنا شيئاً مشتركاً بيننا. وجدناه ونحن بعد في مركز الشرطة ـ وهو أن أحد أفراد أسرة عبدالصمد يشغل منصباً مرموقاً في بوليس فلسطين.

في صبيحة اليوم التالي سرنا الى دير القمر. ليس باستطاعتي وصف البقاع الجميلة التي مررنا بها. ولعل اكثر ما لفت نظري الجلول التي شاهدتها في هذه المنطقة. كانت تشبه الجلول الموجودة ي منطقة بتّير (على مقربة من القدس)، لكنها كانت أجمل بسبب وجود المياه في الربوع اللبنانية ومن ثم فان الجلول قلما تكون عريانة. والاشجار المثمرة وغير المثمرة والخضار والزهور اكثر تنوعاً وأشد ايناعاً وأبعث على السرور.

تناولنا غداء في بيت الدين وسرنا الى دير القمر. والأولى كانت مقر الامير بشير الشهابي الكبير (١٧٨٩ ـ

١٨٤٠) وكانت ادارة الآثار قد أخذت بترميم السراي، التي أصبحت فيما بعد المقر الصيفي لرئيس الجمهورية اللبنانية. اما دير القمر ففيها آثار للامير فخر الدين المعني (١٥٧٢-١٦٣٥) وبهذه المناسبة فقد كانت دير القمر في اواسط القرن الماضي مركز تجارة الحرير في لبنان.

كانت أحذيتنا بحاجة الى تبديل (حذائي) أو تصليح (حذاء درويش). فتسلق جبل الشيخ والسير المستمر بدا اثرهما في هذه الأشياء الخارجية. لذلك ركبنا سيارة من دير القمر الى بيروت، فوصلناها مع الغروب والى الفندق العربي.

بيروت

هبطنا بيروت وقد حلّ الظلام. وحللنا في الفندق العربي. هذا هو المكان الذي كان درويش قد اقترحه. فندق جديد نظيف، وفيه مطعم هوجزء منه ومستقل عنه في الوقت عينه، واسمه المطعم العربي. وما الذي كان أكثر اغراء لفتى فيه نزعة من القومية العربية من مثل هذا الاسم.

كان الفندق يقوم في الجزء الشمالي الغربي من ساحة البرج (الشهداء)، في شارع يخرج من الساحة أو يدخل اليها لا فرق. كان المبنى كله حديثاً مرتباً منظماً. وقد نعمنا في اقامتنا في الفندق، كما نعمنا بالأكل في المطعم يوم لم نأكل في مكان آخر.

لما جئت بيروت لأقيم فيها سنة ١٩٤٩ أي بعد نحو ربع قرن من أول زيارة لي للمدينة، ذهبت الى الشارع القصير، الواقع في شمال غربي ساحة البرج (الشهداء)؛ رأيت المبنى وقد تقرّح جسمه وكشط جلده، ووجدت الفندق العربي وقد قدمت «آرمته» التي تحمل اسمه، لأن المكان قدم واتسخ وأصبح المطعم اثراً بعد عين، إذ قامت محله دكانة لبيع كل شيء يمكن ان يتصور، بما في ذلك مكوى للطرابيش. ولست أدري فيما إذا كان اسم الفندق الذي ثبت على عوادي ربع القرن كان يدل على ان المكان كان لا يزال يأوي اليه المسافرون. ولكن في هذه الحالة أي مسافرين؟

لم تكن رؤيتي للترام شيئاً غريباً. فانا قد الفته في دمشق. ولكن بيروت هي التي شغفتني يومها. لست أدري فيما إذا كنت قد قابلت بينها وبين القدس. فهذه كانت المدينة الأولى التي عرفت. لكن بيروت كان فيها شيء آخر. فهي مدينة كبيرة على بحر، والقدس مدينة كبيرة على جبل. فالقدس ترتفع بك وتحطك معها، أما بيروت فتسير معها الهوينا.

وبيروت كان لها مركز حركة هو ساحة البرج. فمن هناك تخرج طرق الترام الى الجميزة والبسطة وفرن الشباك وراس بيروت. ومن هناك تتفرع الطرق الى أطراف بيروت وانحاء لبنان. وهناك كانت المقاهي الكبرى مثل كوكب الشرق وقهوة القزاز. ولم يكن للقدس مركز مثل هذا. القدس كانت قد أصبحت، أو قد أوشكت أن تصبح، مدينتين عربية، هي القديمة والمصرارة والشيخ جراح والطالبية، ويهودية وهي ميشوريم (القديمة) والاحياء الجديدة. وكان بينها فواصل؛ لكن بيروت كانت مدينة عربية، لها قلب واحد. هذا هو الانطباع الذي احتفظ به من تلك الزيارة.

أخذني درويش الى الجامعة الاميركية، فهي المعهد الذي تخرّج منه. كانت الجامعة في العطلة الصيفية. ولم تكن قد أخذت بعد بالتدريس في فصل الصيف (هذا بدأ سنة ١٩٥١). ولذلك لم يكن درويش ينتظر ان يجد أياً من اساتذته هناك. وجل من يمكن ان يراه هو بعض الموظفين. لكن حظه كان طيباً. فعلى درجات وست هول العريضة كان يجلس نيكولي وكروفرد وواحد ثالث لا أذكر اسمه. نيكولي كان طويلاً ضخم الجثة، وكان أحد أعمدة تدريس الاقتصاد وادارة الاعمال، وكان، فيما اعتقد، عميد كلية الآداب والعلوم يومها. وقد سمعنا عنه فيما

بعد قصصاً جعلت منه «بعبع» الجامعة. اما كروفورد فقد كان يدرس موضوعات فلسفية وأخلاقية. كان طويل القامة نحيلها، وله لحية مرتبة. وقد سر الثلاثة لرؤية درويش. فنهضوا وسلموا عليه عبطاً دون قبلات، وتقبلوني كواحد من اصدقائه، وأضفت انا ومن تلاميذه.

وكانت جلسة على الدرجات، لا أكثر ولا أقل. فهم، مثل غيرهم من اساتذة الجامعة، الوطنيين والأجانب على السواء، كانوا يقضون الصيف في الجبل، وكانت مصايف الاميركان منهم في عاليه وسوق الغرب وعيناب. كان كل واحد من هؤلاء الذين لقينا قد قضى سنوات في البلاد. وكان كل يملك بيتاً في المصايف. وكان الثلاثة قد هبطوا بيروت يومها لقضاء بعض الأعمال، فكان حظي ان أتعرف اليهم.

ويومها وقعت في غرام الجامعة الاميركية، من حيث طبيعة المكان. فمبانيها القليلة (يومها) القرميدية التي تحيط بها الأشجار، وانحدار التل الذي تقوم عليه نحو البحر كان شيئاً أدهشني. ومن يومها كنت آمل أن اتيها تلميذاً. ومع ان ذلك لم يتم لي، فقد تم لي ان اتيها استاذاً سنة ١٩٤٩ وان اظل أعمل فيها في حقل التعليم اربعاً وعشرين سنة الى سنة ١٩٧٣.

وذهبنا يومها الى الضبية، المكان الذي ترسل منه المياه الى بيروت. وجونية، وكانت ضيعة صغيرة لكنها آية في الجمال. يكاد يكون كل بيت فيها مغطى بالقرميد، والأبنية تنحدر فيها نحو البحر انحداراً فيه تؤدة وجمال وهدوء. وفي جزء من الجبال - أو هكذا بدا لي - كان يقوم الصرح البطريركي (الماروني) في بكركي.

ويومها شممت رائحة التاريخ القديم عملياً. ذهبنا لزيارة جبيل، المدينة القديمة جداً، والتي تحمل على اكتافها الوفاً من سني التاريخ أو تاريخ السنين. فيها بقايا قلعة صليبية بارزة تزار. لكن فيها بقايا السكان الأوائل وهياكل المصريين والفينيقيين واليونان والرومان، وفيها مسارح هذين الشعبين. كل هذا كان معروفا أمره. لكن حظنا كان ممتازاً. كان العالم الأثري الفرنسي مونته (Monté) قد بدأ أعمال الحفر الأثري المنتظم في انقاض جبيل. وكان منشرح الصدر للذي بدا له، ولو انه قليل. وقد أصر على أن يرافقنا بنفسه ليشرح لنا هذا القليل الذي اظهره الرفش والمعول. وبين القليل الذي يعرفه من الانكليزية والأقل جداً جداً مما كان درويش يعرفه من الفرنسية، استطعنا ان نتعرف الى بعض ما كان يريد ان يقول. لكنه شعر بانه لم يستطع ان يوصل الينا ما يريد فاستدعى أحد الشباب الذين كانوا يعملون معه، وكان يجيد الفرنسية، فنصبه مترجماً بيننا. وهذا يسر الأمر له ولنا. وقضينا نحو ساعتين والرجل يفسر ما تم، ويتحدث عما يأمل ان يتم.

كانت هذه أول زيارة الى مكان قديم يعمل فيه الرفش والمعول على كشف ما ضم عليه قلبه قروناً طويلة. لذلك قلت انني شممت رائحة التاريخ القديم في واحدة من أقدم متاحفه ومقابره.

وآن لنا ان نترك بيروت. فتسلقنا جبل لبنان الى صوفر في القطار. أقول تسلقنا لانني لأول مرة أركب في قطار كان يتوسط الخطين الحديديين اللذين يسير عليهما القطار، خط مسنن، وفي وسط القاطرة من الأسفل يتدلى «ضابط» حديدي ينطبق على هذا التسنين، بحيث اذا توقفت القاطرة لأي سبب، كان هذا الضابط يشبك في الخط المسنن، فلا ترجع القاطرة القهقري وينقلب القطار بمن فيه وما فيه.

كان القصد من الذهاب الى صوفر مزدوجاً بالنسبة لي. الأول أن أرى المكان، واستمتع بهذه النقلة السريعة (طبعاً أبطأ من السيارة) من الشاطىء الى ارتفاع يبلغ نحو ١٢٠٠ متر. والثاني - وهنا كنت اشترك فيه مع درويش - وهو انه اراد ان يقابل اصدقاء له عراقيين كانوا معه في الجامعة، وكانوا - كما كان وظل عدد كبير من العراقيين - يصطافون في لبنان. وكانت شركة نيرن (Nairn) قد أخذت تسيّر باصاتها المريحة بين بغداد وبيروت فازداد اقبال العراقيين على الاصطياف في ربوع لبنان. وأحسب أن مما شجع العراقيين على ذلك ان عدداً لا يستهان به من اللبنانيين كان قد ذهب الى العراق ليعمل في التعليم، وكانت الصداقة التي قامت بين

الفريقين مما شجع الاصطياف أيضاً.

بعد الزيارة سرنا من صوفر (عودا) الى بحمدون ثم الى قرنايل وبزبدين وضهور الشوير.

وهنا جابهتنا مشكلة. وصلنا يوم سبت مساء، وفتشنا عبثاً عن مكان نقضي فيه ليلتنا. وكنا على وشك ان نتم المشوار الى بيروت. فاذا بأحد الأشخاص يتبرع وينصحنا بان نجرب قضاء الليلة في دير مارالياس في الشوير. فالدير فيه غرف يؤجرها الرئيس بأجر معقول. وذهبنا الى الدير. وعرفت قبل الوصول ان الخوري الياس، رئيس الدير، أصله من الناصرة بلدي. فاستبشرت خيراً. وقال لي درويش «يلا يا نقولا فرجينا شطارتك».

جاء الرئيس بعد وصولنا بقليل. سلمنا عليه وطلبنا منه ان نقضي الليلة في ضيافته وحراسته مقابل ما يريد. لم يمانع لكنه قال انه ترك الناصرة وهو ولد صغير ولا يتذكراسم زيادة. واضاف عندي ثلاث سيدات متقدمات بالسن من الناصرة وهن ضيوف هنا، ومتى عدن سنرى ماذا نصنع. لكنني لمحت انه استدعى أحد المساعدين وهمس في اذنه شيئاً (تبينت فيما بعد انه طلب منه اعداد غرفة. فالرجل ما كان ليرمي بنا الى الظلمة الخارجية).

وجاءت النسوة. وقام الخوري الياس باجراء الفحص. قال لهن هذا الشاب يقول انه من الناصرة وانه ابن عبده زيادة. فهل تعرفنه؟

ولم يكن غريباً ان لا يعرفنني. فانا شخصياً لم اقم في الناصرة كثيراً، وحتى لو أقمت فقد لا أتعرف الى هؤلاء السيدات. وأبي وعمي تركا الناصرة صغيرين. وكان جد آل سكران، وهم من عصبة بيت زيادة، قد شهر بالسكران وادعى فيما بعد ان عائلة زيادة من عصبتهم. ولم يكن يومها في الناصرة ممن يحمل اسم زيادة سوى عمتي (هما في الواقع ابنتا عم أبي) لطيفة وعفيفة. ولم تتنبه النسوة الثلاث الى هذا الأمر.

وكانت النتيجة ان قالت الثلاث لا نعرف عبده زيادة في الناصرة. وعندها لجأت الى الاسم المعروف كثيراً لأن الأسرة كبيرة. سألتهن فيما اذا كن يعرفن عبدالله شرّش. وأجبن بصوت ابو سامي معلوم. اخبرتهن انه جدي لأمي. والنسوة الثلاث من حارة الروم (الارثوذكس) يعني حارتنا. وعندها سألتني احداهن (لتدلّل على معرفتها للتّثبّت من نسبي) أي واحدة من بنات عبدالله شرش أمك، ولما أجبتها ليا أخذت تسألني عنها لأنها تعرفها، إذ كانت، على ما قالت، صديقة لستي وردة.

اجتزت الامتحان وضحك الخوري الياس وقال أهلاًوسهلاً الغرفة جاهزة. «وتفضلوا كلو معنا لقمة». وبعد العشاء اعطانا مفتاحاً كي ندخل متى شئنا إذ عرف اننا ننوي الصعود الى الضهور.

وقد كانت اقامتنا في الدير ضيافة اكراماً للمواطنة الناصرية.

وفي صباح اليوم الثاني شكرنا الرئيس الياس بعد الفطور وودعناه مع النسوة الثلاث واتجهنا نحو صنين.

من صنين الى الأرز

نحن على قمة جبل صنين.

كنا قد وصلنا نبع صنين بعيد الظهر، وكنا قد سرنا اليه من ضهور الشوير، في طريق وعر لكنه جميل، بين أشجار تتكاثف حيناً وتتباعد حيناً آخر، وبين ينابيع متعددة، وينابيع لبنان كثيرة كريمة. وكان الجوع قد نال منا، وكان الجمال قد نلنا منه، فجئنا النبع القوي العذب، نستمتع بخرير مائه، ونستجلي محاسن وادي بسكنتا (وادي الجماجم) ونلتهم طيبات ما رزقنا الله عند صاحب المنزل القائم فوق العين. وما أن نلنا هذا كله حتى كان النشاط قد عاد الينا، فرنت أعيننا الى صنين، وعقدنا النية على التسلق. فقال قائل: الوقت متأخر، فلن تصلا الا

والشمس قد آذنت بالمغيب. وأعجبتنا الفكرة التي قصد منها تحذيرنا، فزادتنا شوقاً الى الصعود. فأشار صاحب المنزل الى الطريق. لكننا كنا قد اعتزمنا ان لا نسير في طريق ملتوية طويلة سهلة يسيرة، ورأينا ان نجابه الجبل رأساً فنصعد فيه باستقامة. وبلغ الجبل ان اثنين من البشر تحدياه، فضحك في نفسه وتذكر انه قد قيل في اشباهه:

رسا أصله تحت الثرى وسما به | الى النجم فرع لا ينال طويل

وقد فات الجبل ان الارض التي تحمل مثله قد أنبتت جيلاً من البشر فيه «شباب تسامى للعلى وكهول».

وأخذنا نصعد فيه، فتبطنا الوادي، وأدرك الجبل الأشم ان عزمنا قد صح فأخذ يقذفنا بأسلحته الواحد تلو الآخر. فحجارته تتدحرج تحت اقدامنا فنتعثر، وصخوره تغرينا بالدوس عليها ثم تروغ فتزلق اقدامنا وأشواكه تلتف على أرجلنا فتدميها. وقضينا ساعة ونصف الساعة ونحن في هذه المشادة، وكلما حسبنا اننا على وشك الوصول الى القمة رأينا الجبل يتسامى كأنه يسابقنا. ولكن الجبل أدرك أخيراً أن زائريه لن يتراجعا فكفَّ عن تحديه وهدأت ثائرته واستعاض عن لذع اشواكه برائحتها الزكية، وهش لنا. ووصلنا الى القمة.

وكان صنين شريفاً في خصومته. فما ان رآنا قد بلغنا غايتنا حتى انبسطت اساريره، وضمنا الى صدره وحنا علينا وغمرنا بهدوئه وجلاله، وملأ نفسينا شعوراً بأننا جزء منه فشعرنا بالشمم والإباء يجري في عروقنا. ثم طفق الجبل يحدثنا حديث الند للند، فقص علينا قصته في عذوبة ورقة لكنها عذوبة فيها قوة ورقة فيها عزم، وهو يهيب بنا ان ندرك سر عظمته. ثم أخذ صوته يخفت حتى صار همساً نكاد لا نتبينه، وأصخنا السمع فإذا بالجبل يشير الينا أن نصمت ونفتح اعيننا، لأن وقت العبادة قد حان.

وخشعنا، واتجهنا الى حيث اشار، فرأينا الشمس تنحدر بتؤدة ورفق نحو البحر، ورأينا نورها يضعف شيئاً فشيئاً، فيبهت لونها، ويستحيل احمرارها شحوباً واصفراراً، وانها لتمس الماء، فتشعر ان ساعة هلاكها قد دنت، فتعود اليها رغبتها في الحياة وتحاول للمرة الأخيرة أن ترتفع، ولكن الجهد الذي تبذله كبير لا تستطيع ان تتحمله فتخر صريعة وقد تضرجت بدمائها. وتنتشر هذه في الأفق، وترأف غيوم المغرب بالدماء المراقة فتلمها وتنصبغ بها، فيحمر الأفق الغربي كله إذ آلمه ان يؤول امر ربة النور الى مثل هذا. ويسود الكون صمت تحلو معه العبادة، فيردد صنين صلاته، وتنقلها الأودية منه، وتحمل الينابيع صداها الى البحر. ويقف الزائران مشدوهين. فالجمال اكثر من ان يحيط به وصف، والالم اكبر من أن يحد، والهدوء لا يشوبه شيء، فيفزعان الى الصلاة، وهما على مقربة من السماء. واذ هما ينظران حولهما، بعد ان ثابا الى رشدهما، لا يريان شيئاً، فقد ألقى الظلام سدوله الكثيفة على كل شيء، فاستوى الجبل والوادي. ويبدآن النزول في هذا السكون الشامل، ودليلهما عصا انطوت عليها اليد تتلمس لهما الطريق. ولكن صنين كان رفيقاً بهما في هذا الدور، فما خاصم ولا رمى بحجارته، بل انه جنبهما الكثير من العثرات. ويقضيان ساعة وبعض الساعة، وإذا بنور النزل يبدو، وإذا بالكلب يعوي فيتمثل صديقي «عوى الكلب فاستأنست بالكلب إذ عوى»، وإنها لدقائق قليلة فاذا نحن عند الجماعة الطيبة، التي اقلقها تأخرنا فأخذت تعد العدة للخروج الى الجبل تسأله عنا وتحاسبه عما فعل بنا. وتخرج من القوم تحية بالسلامة ممزوجة بالعتب الرقيق.

وهكذا أتيح لي أن أرى ولادة الشمس من قمة جبل الشيخ وهلاكها من قمة صنين.

وكان جسمنا بحاجة الى الراحة، ولكن من يستطيع أن يترك صوت الماء المتدفق من الصفا وأحاديث أهل لبنان العذبة، ويأوي الى فراشه. لقد اكسبتنا هذه نشاطاً من جديد فجلسنا اليهم نتحدث حتى مر من الليل شطر كبير، وتفرق السمار فتفرقنا معهم، وأوينا الى الفراش، لننعم بالراحة، ونحلم.

دعانا الفجر اليه فهرعنا الى الماء نحاول ان نغسل منه ايدينا ووجهنا فما استطعنا الى ذلك سبيلاً، لقد كان

بارداً. فاكتفينا بما نلنا. وحملنا زاداً كان قد أعد لنا، وسرنا. وذكاء بعد لم تجمع كل قوتها. نهبط وادياً ونصعد جبلاً، فمررنا بنبع اللبن ونبع العسل. واجتزنا جسر الحجر وهو جسر طبيعي نحتت منه المياه على توالي الأيام اجزاءه السفلى وتركته معلقاً كما لو ان مهندساً وضع تصميمه ويداً صناعاً بنته، وهو أحد عجائب الطبيعة الكبرى في لبنان.

ومررنا بقوم يحصدون ويزرعون ويعملون في الأرض، ولكن الأرض هناك ضنينة، ذلك لأننا كنا نساير أعلى اجزاء السلسلة الكلسية حيث تسقط المياه وتتسرب الى طبقات التربة السفلى، فلا ينتفع بها ولا يستفاد منها، الا حيث تتجمع فتنبع في صدر واد، دان أو قصي.

واشرفنا بعد خمس ساعات على المكان الذي استأثر بمياه الجهة كلها، ذلك اننا انتهينا بعد اجتياز جبل معتدل الارتفاع الى منابع نهر ابراهيم. فرأينا عجباً من الأمر. ماء يتفجر من صدر كهف اعتلى كتف الوادي، ويعجز الكهف عن حمله فينحدر في شلال صغير الى بركة يتجمع فيها حيناً الى أن تجمع قوته ويعود الى السير، لكن كتف الجبل التالي يعجز عن حمله فيهبط ثانية. ويتوالى هذا التجمع والهبوط في سلسلة من الشلالات، وتغذيها ينابيع أخرى على جانبي النهر، وتغذي المياه بدورها عدوات الوادي وجنباته، فتكتسي بثوب من الخميلة أخضر، وتقع العين على هذا الجمال المتناسق المتسق من مياه تتعثر في سيرها، وأشجار الجوز الوارفة الظل وشجيرات منوعات مزهرة كالدفلة وغيرها، وكلها تتحدث بنعم الخالق.

وأوينا الى ظل شجرة نستريح ونمتع أنفسنا بهذا الذي نرى، وقال صاحبي «هذا النهر هو نهر ابراهيم، وهو شديد الانحدار الى الساحل، وقوته المائية كبيرة وقد كان ولا يزال يدير الطواحين في طريقه. ولو ان الكهرباء ولدت منه لكانت قوتها كافية لإنارة الجهة كلها وإدارة عدد كبير من الآلات. اما ابراهيم فاسم أحد الأمراء الذين حكموا هذه البلاد قبل مدة.

وقبلت ما قال صاحبي، فقد كان أعرف مني بجغرافية البلاد وتاريخها، لكن شيئاً من الريبة خالجني حول الاسم، فالنهر أقدم من أمير كان يحكم تلك الجهة، فما هي قصة هذا النهر؟.

ولم يطل تساؤلي. فلم نكد ندخل الكهف الأول لنرى انبثاق الماء من الصخرة حتى سمعت صوتاً يسر في أذني «أن أصغ الى قصتي ففيها متعة لك.» وحاولت أن أتبين مصدر هذا الهمس فلم أتمكن، لكن الصوت استمر قائلاً «أنا قديمة العهد في هذه البقعة... وقد اعجبت بي الآلهة القديمة عشتاروت فأوت الى صدري احنو عليها وأرضعها. وتفيأت ظلال هذا الوادي، تنعم بخيراته خالية البال، حتى بدا لها يوماً شاب وسيم الطلعة جميل الخلقة، فاسر لبها، وملك عليها قلبها، فاغرمت به، وأغرم هو بها، وملأ الحب نفسيهما من كؤوسه، وعاشا في غبطة وهناءة. وكان اسم هذا الحبيب تموز، ولم يعرف أحد من أين جاء، ولكنه كان يتحلى بصفات أقنعت عشتاروت انه من الآلهة. وكان تموز يغيب عن حبيبته اياماً بلياليها يجوب فيها الآفاق فيوزع على البشر من بذور حبه ما شاء، فتنبت هذه في قلوبهم حباً قوياً، يعصف بهم حيناً، ويملأهم اطمئناناً حيناً آخر. واذا عاد تموز الى عشتاروت أحست هذه بانفاسه تعطر الجو فاستقبلته وفي قلبها أغنية وفي نفسها سرور.

«وطوف مرة بالآفاق كعادته، وعاد، لكنه لم يكد يطل على الوادي، حيث تقيم حبيبته، حتى استشعر في وجهها وجلاً وفي نفسها اضطراباً. فاقبل عليها يسائلها، فحدثته ان وحشاً قوياً اعتدى على الحي، وأخذ يعيث في الوادي فساداً، وانه طاردها مرة وكاد ينال منها لولا أن عصمتها الأشجار منه. فطار صواب تموز، وتقلد سلاحه واخذ يطوف في الوادي صاخباً منذراً، حتى وجد الوحش وقد اسند ظهره الى صخرة قوية، وتدرع للقتال. واقترب تموز منه، ونشبت بين الاثنين معركة صال فيها كل وجال، ونال من صاحبه ما شاء له القدر ان ينال. وثار ثائر الوحش فنبت له قرنان من شدة غضبه، فضرب تموز بأحدهما بقر بطنه، وخلاه صريعاً

يتضرج بدمه، وفرّ هو كمن أصيب بالصرع، ولم يقف له أحد على أثر. بلغت أنات تموز مسامع عشتاروت فأقبلت على الحبيب تضمد جراحه، وحملته الى الماء تغسله فيه، لكن الدم الذي نزف كان كثيراً، فلم يقوَ تموز على مغالبة الموت الذي حمله اليه.

وندبت عشتاروت حبيبها، واتخذت موعد وفاته يوماً تحيي فيه ذكراه. وسمعت النساء بما أصاب عشتاروت فحزنَّ على تموز وشاركنها أساها، وندبنه معها، وأقمن يوماً في السنة يحيين فيه ذكراه، حتى بلغ ذلك مسامع أحد الانبياء فنهى فتيات بيت المقدس عن البكاء على تموز.

وسالت دماؤه في النهر، فصبغته ولا يزال الماء الى يوم الناس هذا تجري فيه بقية من دماء تموز.

وتبدل السكان القدماء بسكان جديدين، وعاشت بينهم ذكرى عشتاروت وتموز. لكنهم غيروا الاسم بحيث تتناسب مع لغتهم فقالوا عنهما أفروديت وأدونيس.

وانت يا صاح إن سرت مع هذه المياه التي تنبع من هذا المكان ساعة وبعض الساعة وصلت الى انقاض هيكل ادونيس حيث كان القوم يحيون ذكرى الصراع بين الخير والشر، بين الحياة والموت، بين المودة والهلاك. وصمت الصوت.

وعاودتني ذكرى مكان آخر تنبثق فيه المياه من الصخر الأصم، وقد أقام الناس فيه هيكلاً لإله آخر. نعم في بانياس، حيث عبد «بان». وقلت في نفسي، ما أقدم الحياة في بلادنا هذه، وما أبعد مدى الفكر فيها. ان هذا يرجع الى الوقت الذي كان فيه الناس يوزعون الآلهة على كل مكان ويفرقون بين خالق وخالق. نعم لقد كان هذا قبل ان يأتيهم من قال «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك»، وقد كان هذا قبل من جاءهم برسالة ربه اذ قال «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين».

فلما جاءهم الرسل بالبينات عزف الناس عن تموز وعشتاروت وأفروديت وأدونيس، وبقيت أخبارهم أساطير يتندر بها الناس، وتهمس بها الأصوات الخفية في الكهوف النائية.

وانتهى بنا التطواف ذلك اليوم بالعاقورة، فقضينا فيها ليلة ماتعة حقاً، وسرنا مع شروق الشمس في اليوم التالي، فمررنا بعرب اللقلوق، وأقسمت نوخة بنت حسين الآمنة ان لا نبارح طنبها قبل ان نأكل: نذوق العيش والملح. وأبى علينا جورج سلهوب الطرابلسي الا ان نتناول القهوة مع البسكوت وراحة الحلقوم في خيامه التي يصطاف فيها مع أسرته. وجورج كان من خريجي الجامعة الاميركية.

وظل اسم ابراهيم المضاف الى النهر يشغل بالي، الى أن أتيح لي أن أعرف انه اسم راهب مسيحي جاء المنطقة في القرن الرابع للميلاد للتبشير بالمسيحية. وترك بين الناس المسيحية واسمه للنهر.

وتنقلنا من مكان الى آخر حتى مررنا بوادي الدوير، وكان القوم يحصدون والشمس تلفح وجوههم. وقد انتهى أحدهم من عمله مبكراً، فانتبذ من دون الناس مكاناً قصياً، وأوى الى ظل شجرة تقيه حر الشمس اللافح، وكأن الجو أطربه فأخذ يغني:

لأطلع لراس الجبل	واشرف على الوادي
وأقول يا أهل الجبل	نسم هوا بلادي
أيمتى يسيل النهر	تيجر الوادي
لحط صدري جسر	لتعبر البنيه

وردد الوادي غناءه، وحمله الى آذان البنية.

وتسلقنا جبل بريصات، وأشرفنا على الوادي، وشعرنا بنسيم المساء يحمل الينا عبيراً كان جديداً علينا.

انهما يومان قضيناهما بين صنين والأرز. يومان مليئان بكل ما يؤمله المرء، وما تطمع فيه النفس وما ترتاح

اليه العين من معاني الجمال ولطف الاسطورة، ومعنى العبادة، وقيمة الخشوع. انه جهد حقاً، ولكن الله لا يضيع أجر من يبذل مثل هذا الجهد.

من الارز الى طرابلس

أطلَلْنَا على الأرز من فوق الجبل الذي يحتضن حصرون وبزعون الى الجنوب منهما. كانت ساعة الغروب تقترب، لكن الضباب كان يكسو المنطقة بحيث ان الذي تراءى لنا، حيث تقوم غابة الأرز، بدا كأنه مجموعة من الأشجار متداخلة في بعضها البعض؛ كادت تبدو دكناء بسبب انحجاب أشعة الشمس عنها وراء الضباب. لكن، مع ذلك، تركت المنطقة، لما أطللت عليها، في نفسي نوعاً من الرهبة ممزوج بالشمم والحنو. غريب مثل هذا الشعور. هل كان، يا ترى، نتيجة قراءة بعض ما كتبه جبران وغيره من أدباء لبنان عن الأرز؛ أم هل كان هذا رد فعل لما توقعته؛ كنت أحسب انني سأرى غابة من الأرز تغطي الجبل والمنطقة. فرأيت «حفنة» من الأشجار. فهل أقنعتني هذه الأشجار، وبدون مقدمة، أنها قوية متينة عنيفة ولذلك تمكنت من التغلب على عناصر الأتلاف وَصَمَدَتْ؟

وكان علينا أن ننتقل من حصرون الى بشري لنقضي الليلة هناك. وفي هذه الدورة من الطريق، أدركت تماماً أن وادي قاديشا يرتكز رأسه عند اقدام الأرز. وقد علا الأرز الى السماء طمعاً في عطفها، فانحنت عليه تقبله، وانهمرت دموع الفرح من عينيها، فاشفق الأرز وجبله على هذه الدموع أن تهدر فجمعها حبة حبة وأودعها قلبه، فلما ضاق صدره عنها، انبثقت ينبوع ماء صاف مقدس، كان له في يوم من الأيام إلهه، الذي زال مع غيره من الآلهة القديمة، واستبدله الناس اليوم بآلات تولد الكهرباء.

كنا استفسرنا فيما اذا كان من الممكن قضاء ليلة أو ليلتين في الأرز، فقيل لنا إن الناس لمْ يبنوا بعد الفنادق في الأرز. على كل فنحن في بشري، بلدة جبران خليل جبران، صاحب الكتب التي استمتعنا بها، مثل العواصف والأجنحة المتكسرة. ولما سمعت في ذلك المساء أن بشري بها سبعة وثلاثون من رجال الدين - ولعل هذا الرقم كان مبالغاً فيه - أدركت لماذا كتب جبران قصة «خليل الكافر». وبهذه المناسبة فاننا، أنا وعدد من أصحابي في الناصرة، كنا عزمنا على كتابة القصة في نص مسرحي لنمثلها في الناصرة. لكننا لم نلق تشجيعاً من أحد فصرفنا النظر عنها.

صرفنا اليوم التالي في الأرز، وفي ما حول هذه الشجرات. كم يبلغ عمرها؟ من يدري. ولكن الذي يدريه الناس، رواية وحكاية وقصة وتاريخاً، هو ان هذا الجبل الذي نحن واقفان عليه كان مغطى بالغابات من أقدم عصوره، ويبدو أن الأرزة كانت الشجرة الغالبة عليه. لكن منذ الألف الثالث قبل الميلاد أخذ السكان يقطعون هذه الأشجار: البعض قطعها ليصطلي بنارها ويطهو طعامه؛ والبعض الآخر قطعها ليصنع منها باباً أو شبّاكاً أو طبلية. وهناك بعد الأهم، وهو قطع الأشجار للمتاجرة بالأخشاب التي كانت مطمح انظار المصريين، كما كانت أخشاب الأمانوس محطّ أنظار أهل أرض الرافدين - كانت هذه الأخشاب تصلح جوائز للهياكل ولأجزاء من السفن التي تمخر عباب اليم. لذلك تعرّت الجبال، ولم يبق في المنطقة بأجمعها، سوى هذه المجموعة الصغيرة نسبياً.

عرفت يومها لأول مرة أن سكان المنطقة يسمون أرزهم «أرز الرب». ولكن لماذا؟ الجواب الذي جاءني كان أن التجلّي حدث هنا، والمسيحيون يحتفلون بعيد التجلي في اليوم السادس من آب / اغسطس من كل عام.

إلا أن الأمر الذي أعرفه انا هو أن التجلي تمَّ على جبل طابور في شمال فلسطين. وأن الاحتفال يتم هناك. فكيف نقل الاحتفال بعيد التجلي الى ارز الرب؟

كان الاسم السامي القديم الأكثر شيوعاً على ألسنة الناس للاله هو «بَعْل»، ومعناه الرب أو السيد، ويليه اسم آخر هو «إيل». وقد توزّع هذان الاسمان فيما بينهما الكثير من اسماء المدن والقرى مثل بعلبك وبعل شمي (بعلشمس) وبيت إيل. على أن الأماكن المرتفعة، التي كانت تعتبر في نظر القوم الاوائل أماكن عبادة، اعتبرت تابعة لهذا الاله أو ذاك ولو لم تكن حولها قرية أو بلدة. فكان الأرز هذا يقال له «أرز بعل».

ويبدو أن السكان كانوا يقيمون احتفالاً خاصاً بالمنطقة. وبهذه المناسبة فأن أي احتفال في الأرز يرجح ان يرتب في الصيف. ولما اعتنق سكان المنطقة المسيحية وسموا أرزهم أرز الرب، لم يتخلوا عن الاحتفالات المرتبطة بالأرز، ولكنهم، ربطوها بالأشياء المسيحية، ووقع اختيارهم على عيد التجلي لأنه عيد صيفي. والذي نعرفه هو أن الاحتفال بعيد التجلي في أرز الرب يعود الى القرن الثالث عشر. وقد تكون ثمة أخبار عن فترات أقدم لكننا لم نعثر عليها بعد.

لم يتح لنا يومها ان نصل الى ظهر القضيب (أو قرنة السودا) أعلى قمة في لبنان. هذه الزيارة، بالنسبة لي، انتظرت عشر سنوات حتى حققتها في سنة ١٩٣٥. لما زرنا الأرز سنة ١٩٢٥ كان فندق الأرز يبنى، ولما ذهبت بعد عشر سنوات كان ثمة الى جانبه فندق «مون ربو»، الذي يشرف على وادي قاديشا الى مسافة بعيدة. وفي هذا الفندق أقمت بضعة أيام في زيارتي الثانية (١٩٣٥)، ومنه تسلقت الى قرية السودا أو ظهر القضيب.

وانحدرنا، طبعاً على الاقدام، نحو طرابلس. وكانت أول مدينة مررنا بها إهدن، التي تتكىء على وادي قاديشا. واسم هذه البلدة قديم منذ أن كانت قرية صغيرة، والكلمة أرامية الأصل ومعناها المكان المنيع القوي الهادىء. واسمها، وأنا أتحدث عن سنة ١٩٢٥، ينطبق عليها تماماً. وكان سيرنا مع طريق العربات غالباً، إلا أننا كنا «نقودم» أحياناً اختصاراً للوقت. وأخيراً أشرفنا على طرابلس.

كان هذا الاشراف الأول من مرتفع يمكنك ان ترى وحدتين من التجمعات السكانية، بين الواحدة والأخرى قرابة الكيلومترين من المسافة. هاتان يتحدث عنهما البعيدون عن طرابلس بهذا الاسم فقط. اما محلياً فالأولى تقع الى الشرق وعلى جزء من تل وفيها القلعة، وهي طرابلس. أما الجزء القريب من البحر فهو الميناء. والميناء هي التي انطمرت تحت أنقاضها وفي جنباتها المدينة الفينيقية واليونانية ومدينة العصور الوسطى. ذلك أن المماليك، لما استعادوها من الصليبيين، دمروها تماماً كي لا تقع ثانية في أيدي الاعداء الذين نقلوا مملكتهم من فلسطين الى قبرص. ثم ادرك هؤلاء الحكام انه لا يجوز أن تظل المنطقة بدون حصن أو قلعة للدفاع عنها، فكان أن بنوا القلعة، وهي التي شاهدناها وان كانت فيها زيادات عثمانية. وكان من الطبيعي ان تنشأ حول القلعة مدينة جديدة.

ويدرك الواحد، كما أدركت يومها، أهمية طرابلس بالنسبة للمنطقة. هي أولاً مرتكز دفاع هام عن المنطقة الساحلية هناك، باعتبارها مدخلاً الى المناطق الواقعة شرقي طرابلس. وهي ثانياً، وهذا ما أدركته بعد يومين لما خرجنا من طرابلس نقصد تل كلخ. هذا الطريق الذي سرنا فيه هو جزء من الطريق الذي يصل بين طرابلس وحمص ويسمى، في جزئه الغربي، سهل البقيعة. وعندما يتذكر الواحد منا أن الساحل الشامي كله تقع الى شرقه سلاسل جبال صعبة المرتقى، بدءاً من امانوس في الشمال وحتى جبال القدس والخليل في الجنوب، عبوراً بجبال النصيرية ولبنان والجليل ونابلس، وعندما يتذكر هذه الجبال، يدرك معنى وجود ممر جبلي يصل الساحل بالداخل وأهميته. وهذه الممرات هي، من الشمال الى الجنوب، مدخل انطاكية الى حلب، وممر اللاذقية الى حماة، وسهل البقيعة الذي يربط الساحل بحمص، وطريق صيدا شرقاً الى دمشق، ومرج ابن عامر من سهل عكا الى شمال غور الاردن.

نعم هذه الأطلالة على طرابلس تمكنك، كما مكنتني، من تصور هذه الأمور، إذا كنت تعرف الحد الأدنى من

التاريخ وعندك تصور للجغرافية. ومررنا بالقلعة التي تحمل آثار ستة قرون من البناء والتخريب. ذلك بأنها لما بناها المماليك واستعملوها ظلت العناية بها قائمة. لكن بعد مجيء العثمانيين كانت تمر بها فترات اهمال فيسطو الناس على حجارتها فاذا عاد أحد الحكام العثمانيين لاستعمالها حال حجمها دون اصلاحها باكملها، فيكتفي باصلاح جزء منها، بل وقد يضيف اليها أجزاء أخرى. وبذلك يظل بعضها خرباً. ولما زرناها لم يكن فيها سوى فريق صغير من الجنود والدرك.

ومما أدخل السرور الى نفسي رؤية البساتين المحيطة بطرابلس. فقد كانت المناطق المأهولة صغيرة، بحيث كانت المدينة تبدو كأنها قد ألقيت وسط خميلة خضراء.

واتجهنا نحو المدينة نستجلي معالمها وما اكثرها واغناها. وكان أول ما بحثنا عنه مكاناً للأكل. ولم نلبث ان عثرنا على مطعم صغير لكنه مرتب فدخلناه. وكانت الآرمة المعلّقة فوق الباب مكتوب عليها بالعربية «المطعم الوطني»، وبالفرنسية Restaurant Francaise. وقد كان هذا المطعم موجوداً في مكانه لما زرت طرابلس للمرة الثانية سنة ١٩٣٥.

وسِرْنا بعد الظهر في شارع عزمي، وكان آنقَ شوارع المدينة، ثم زرنا الميناء. وكان الخط الحديدي للتراموايِ الذي بني لوصل طرابلس بالميناء لا يزال مكانه. ولهذا الترامواي قصة. فقد كان من الطبيعي، بعد أن دخل الترامواي بيروت، ان يفكر فيه بالنسبة لطرابلس رغبة في وصل الميناء بالمدينة. والحركة بين القسمين كانت نشيطة بسبب النشاط التجاري الذي كانت طرابلس تتمتع به. فطرابلس، كما أشرنا قبلاً، كانت ميناء المناطق الوسطى من سورية الداخلية. ورتبت الأمور لانشاء الترامواي، وبني الخط وجاءت عربات الترامواي، ولكن القاطرة لم تصل بسبب الحروب المتعاقبة التي اشتبكت بها الدولة العثمانية منذ سنة ١٩١١ من الحرب الايطالية بسبب اعتداء ايطالية على ليبيا، إلى حربي البلقان ثم لم تلبث أن تلتها الحرب العالمية الأولى. ولكن ذلك لم يفت في عضد القائمين على الأمر؛ فقد احضروا خيولاً قوية، فاستخدمت في جرّ الترامواي بين المدينة والميناء.

في الصيف يكون النهار طويلاً، وهذا ما يسّر لنا زيارة معالم طرابلس وقضاء ساعة أو أكثر في احدى مقاهيها نستمتع بالراحة التي أصبحت حقاً، لنا، بعد السير الطويل والتي يجب ان نختزن بعضها للغد.

في يوم واحد تركنا نبع قاديشا، وسرنا مع وادي قاديشا، ولما وصلنا الى طرابلس اكتشفت ان اسم هذا النهر هنا هو ابو علي.

في حصن الأكراد (قلعة الحصن)

نحن في القطار، وقد غادرنا طرابلس في الساعة السادسة من صباح يوم تبينا فيه حره اللافح من ساعاته الأولى. ولكن المسافر الذي استمتع بما كنا قد استمتعنا به، والذي يأمل فيما كنا نؤمل، لا يذكر حراً لافحاً، ولا يعنى بوهج الشمس، وإنما ينصرف الى ما حوله، فتلتهم عينه الصور التهاماً، وتحاول ان تحتفظ بها ذخيرة للمستقبل وعدة لوقت لا يتاح لها فيه ان ترى مثل هذا الذي يمتد أمامنا مسافات طويلة.

وكانت طريقنا تجتاز سهل البقيعة، وهو الوادي العريض الذي يفصل جبال لبنان الشمالية عن جبال النصيرية. يفصل الجبال بعضها عن بعض ليربط السهل الساحلي بالسهل الداخلي، وليربط موانىء البحر المتوسط بموانىء البحر الرملي الممتد الى الشرق.

كان القطار يخترق السهل ويداور ما فيه من تلال ويروغ من وجه المرتفعات شأنه في ذلك شأن جيوش القدماء التي كان الملوك يبعثون بها من طرابلس لتحتل حمص. وكنا، ونحن نراقب البلاد التي نمر بها، نسمع في

وقت واحد اصواتاً متباينة الأصل مختلفة القوة متشعبة القصد. فصوت القاطرة تخنقه حيناً ضجة تتصاعد من الأرض، فيها وقع أقدام الخيول وجرس أعنتها وصليل السيوف وأصوات المركبات، وتمتزج بهذه اصوات الباعة وقوافل التجار تنقل البضائع على جانبي الطريق. وكأن هذه كلها تحدثنا عن الناس الذين اجتازوا الطريق قبلنا جماعات ووحداناً، وكلهم له في سيره غرض يخفيه حيناً ويظهره حيناً، وكأنما هم عند قول الشاعر:

كل من في الوجود يطلب صيدا غير ان الشباك مختلفات

وفجأة وقف القطار، وكانت المفاجأة لي، انا الذي كنت آنئذ فريسة هذه الأصوات والصور، التي أخذت تنقلني من عالم الى عالم نقلاً سريعاً لم يتح لي ان اتابعه. ونزلنا، وكانت قرية تل كلخ نقطة انتقالنا في ذلك اليوم. فتركنا الركوب وعدنا الى السير، ونحمد الله على أن لنا أقداماً تمكننا من السير الى هذه البقاع النائية.

وانحرفنا شمالاً، وأخذنا نجوس خلال الأماكن في طرق «قادوميَّة» تنقلنا من الباروحة الى السنديانة الغربية، وحر النهار يشتد بنا، وسيرنا يتجه في صعود، حتى وقفنا امام حصن الاكراد. وقفنا نتأمل هذه القلعة الضخمة الفخمة التي مرت عليها ستمائة من السنين أو يزيد منذ أن تخلى عنها آخر فارس كلف بحراستها، ولا تزال مع ذلك تملي على الناظر اليها ارادتها، وتفرض عليه سلطانها، وتحتم عليه أن يقف وقفة إعجاب وخشوع. وكأنها تشفق عليه ان يؤخذ بالضخامة والعظم فتذكره انها جميلة مع ذلك، فيتلفت الى ذلك ويرى هذين السورين المتداخلين، الخارجي منهما أقل ارتفاعاً من الداخلي تخرج منهما نتوءات ترتفع الى الجو فتكون ابراجاً وحصوناً تسهل على أهلها الدفاع عنها. وتتناوب هذه الأبراج الاستدارة والتربيع فتجعل منها منظراً تقف العين عليه فتعجب بالمهندس الذي اقام قلعة يأوي اليها المحارب ولم يغفل مع ذلك عن ادخال عنصر التناسب فيها فيجعلها جميلة. وهذه الرنوك في أعلاها، والستائر التي تقف سداً في وجه من يحاول ان يخترق الجدران ليستطلع خفايا هذه القلعة.

وندخل القلعة ونطوف في ارجائها، فننتقل من سرداب الى سرداب، ونقاد من قاعة الى قاعة وتطالعنا في انحاء البناء المختلفة روائح هي مزيج من قذارة بعض سكانها الحاليين ومن أريج تاريخها المجيد العاطر. فبعض سكانها ابقار واغنام وماعز، ذلك لأن القلعة يقطنها نحو ثلثمائة من البشر، ويحتفظون فيها بمواشيهم التي هي مصدر قوتهم ورزقهم (لقد أخرج السكان من القلعة، وأصبحت الآن من الآثار التي يحافظ عليها).

واننا لننتقل من جزء الى آخر، نستجلي ما خلفه بناتها وسكانها الأقدمون، فاذا بنا في قاعة فخمة واسعة عالية الجدران قاتمة اللون مما علق بها من الهباء والدخان. وبينا نحن على هذه الحال اذ بي أرى الجدار ينشق برفق وهدوء، ويخرج منه رجل مجلل بالسواد من قمة رأسه الى أخمص قدميه، وعلى جانبه سيفه. وأكاد أصرخ فزعاً ولكن اشارة منه تطمئنني، فيزول من نفسي الروع الذي كاد يهزمها، ويشير إليَّ الرجل الأسود، أو الفارس الأسود فقد تبينت الساعة انه فارس، ان اتبعني، فأتبعه وانا مسيَّر لا مخيَّر. ويسير بي من دهليز الى دهليز حتى يصل الى ساحة واسعة، تنتهي بأحد هذه الابراج التي كنت قد رأيتها من الخارج. وإذ يطمئن إليَّ يبدأ بالكلام. ولم أفهم كلامه، فانه كان رطانة لا عهد لي بها، لكنه يعينني على فهمه بالاشارات الكثيرة. وأدرك انه يروي لي قصة، فاجهد نفسي وأحاول تتبع حركاته وسكناته، واستخلص منه الكثير من الذي قال. لقد كان أحد فرسان هذه القلعة، وكان من فرقة رجال الاسبتارية الصليبية، وهذا الصليب الذي يكسو جزءاً من ردائه الاسود علامة على ما يقول. كان أصل فرقته، على ما حدثني، جماعة دينية انشئت في هذه البلاد ومركزها القدس وغايتها مساعدة الحجاج الأوروبيين، والمرضى والفقراء منهم على الخصوص، ليقوموا بفريضة الحج الى الأرض المقدسة. وكانوا مطمئنين الى حياتهم في البلاد في حماية أهلها العرب الكرماء، لا يكدر عليهم صفو عيشهم مكدر، ولا يطمعون هم بغير خدمة المحتاجين والمعوزين من ابناء بلادهم. ثم قال: «ودار في خلد أهل

بلادي الاوروبيين أن يأتوا الى هذه البلاد جماعات كبيرة محاربة، فجاءوا واحتلوا الارض المقدسة وما جاورها، وبنو القلاع للدفاع عن انفسهم ضد أهل البلاد واحتاجوا الى من يعمر هذه القلاع والحصون، فوكلوا أمرها لنا، فانتقلنا من رجال دين نعني بالبائس الى رجال دين وسيف نقاتل ونحارب ونجالد ونحمل السيوف ونثخن في خصومنا الجراح دون ان نضمدها. وها نحن يا سيدي نجمع بين النقيضين. فلا يطلع الفجر حتى نكون قد صلينا مرتين، ولا تشرق الشمس حتى نكون قد أخذنا اجسامنا بالتمارين الشاقة، ولا ينتصف النهار حتى نكون قد بحثنا شؤوننا وفصلنا قضايانا وعاقبنا المذنب منا بالحرمان أو الجلد، فاذا جلسنا لنأكل صمتنا كلنا وانفرد منا واحد يقرأ لنا آيات من الانجيل. فاذا كان العصر امتطينا خيولنا ولعبنا على ظهورها بسلاحنا خشية ان يصدأ وتصدأ معه الأيدي التي تحمله، ودرنا خلال المنطقة نستطلع خبر الخصوم. فان كان ثمة منهم احد التقينا واقتتلنا ودارت الدائرة على أحد الفريقين فكان نهب وسبي للفريق المنتصر. ومتى هلكت الشمس صلينا وأوينا الى مخادعنا بعد ان أقمنا العسس على الابراج يحرسها ويتسقط الأخبار فيوقظنا ان ألم بنا طارق».

وهممت بسؤال الفارس الأسود عما آل اليه أمره وأمر أصحابه فلم أجده، وخلت انني كنت أحلم. ولكنني لمحت غباراً يعلو فجأة أمامي فيغبر منه الأفق، وسمعت جلجلة وصليلاً، ثم انقشع الغبار وظهرت أمامي صورة لم أعهدها في تلك الجهة لما وصلتها. لقد كانت الارض جبالاً ووهاداً وأودية وسهولاً، لكنها الآن تتحرك وتنتقل. لقد غطت الأرض جيوش قادمة تقصد القلعة، فأحاطت بها من كل جانب، ولم تلبث ان خرجت منها صيحة زعزعت كل ما حولي، لقد كانت الضجة في لغة فهمتها. فزعت الى صديقي افتش عنه لأحمل اليه الصورة التي شاهدت، ولاحمله على القدوم الى حيث أنا، فلم استطع الى الاهتداء اليه سبيلاً.

وتلفت حولي، فاذا بي أمام فارس يحمل قوساً ويتزين بسيف جميل ويرتدي جبة واسعة وتعلو رأسه عمامة، وإذا به يحدثني بلغتي، فأفهم كلماته واشاراته دون عناء أو جهد. فينبئني أن هذا الجيش الذي رأيته يغطي السهل والجبل كان جيش الملك الظاهر، وقد اعتزم الملك ان يحتل به القلعة، وكان قد ضرب عليها حصاراً قبل أيام، فقطع السبل على قاصديها، فاضطر اهلها أي سكانها من فرسان الأفرنج، الى التسليم. وقد أخلوها، فعادت البلاد إلى أهلها وأصحابها.

وصمت الفارس برهة ثم أشار إليّ ان اتبعه لأرى ماذا حدث في هذه الفترة. فتبعت، وأنا لا ألوي على شيء، وسرت مفتح العين والأذن، آملاً أن أدرك هذا الذي أرى، فاذا القاعة الكبيرة قد غصت بالفرسان الذين كانوا على شاكلة رفيقي هذا، واذا بهم يتناشدون الاشعار العربية، ويروون الاحاديث، واذا بهم يخشعون فجأة لأن قارئاً بدأ يرتل القرآن، ويدعوهم الى الصلاة فيلبون. فاذا فرغوا من صلاتهم، وقد امتلأت قلوبهم خشية لذكر الله، انصرفوا الى طعامهم ينالون منه، ثم عمدوا الى خيولهم يمتطونها وقد تقلدوا اسلحتهم وشدوا ازر بعضهم بعضاً. وما ان وصلوا السهل حتى تفرقوا جماعات في انحائه الواسعة.

قال الفارس وقد علت وجهه ابتسامة الظفر والسرور: «ان القوم بعد ان نالوا حظهم من العبادة، خرجوا الى الصيد، والصيد يا أخي، رياضة الفارس وسلوته ومجال تمرينه. وهذه الأرض التي تمتد أميالاً الى الغرب، غنية بالصيد على اختلاف أنواعه، ففيها الغزلان والثعالب والأرانب والحجل والدراج وطير الماء، تحتمي كلها في الأزوار فيتابعها الفرسان بسهمهم ونشابهم وبزاتهم وصقورهم وكلابهم فينالون منها وتنال منهم، فيصطادونها وتنهكهم. ولكن هذا الجهد الذي يلقونه هو الذي يصون لهم مقدرتهم على حمل السلاح والضرب به متى جد الجد. فنحن في حرب، ونحن امام خصم اعتدى علينا واستقر في دورنا ونعتزم استعادة ارضنا منه، واسترداد بلادنا. ولن نتمكن من ذلك إلا إذا كنا في كل ساعة على أتم الأهبة والاستعداد. فإذا عاد هؤلاء الفرسان من رياضتهم أو حربهم أو لعب الصوالج والأكر، عنوا بخيولهم وهي لهم كالإخوان، ثم اجتمع بعضهم

الى بعض فتذكروا الشعر ورووه وتطارحوا الحديث وقلّبوا أفانينه وسمعوا القرآن واتعظوا به واهتدوا بهديه، فكان لهم غذاء روحياً، فيتم الله نعمته عليهم».

وشعرت بصديقي يلكزني ويهمس في اذني أن افق: فلا يجوز أن تنام والناس يكرموننا. فأفقت مذعوراً، ولكنني تذكرت الحلم.

وكان الجماعة قد هيأوا لنا خبزاً مصنوعاً من الذرة البيضاء وبيضاً مقلياً فأكلنا منه ما شاء لنا الجوع ان نأكل. وأراد القوم إكرامنا فقدموا لنا شيئاً مصنوعاً من اللبن الرائب المجفف المكسو بطبقة من السعتر وكأنه قد مرت عليه سنون وهو مخزون، فكرهنا رائحته، ولم نذقه، وحز في نفوسهم ان نرفض إكرامهم ايانا «بالقريش» أو «الشنكليش»، ولكننا لم نستطع الى ارضائهم سبيلاً.

وخرجنا من القلعة - قلعة الحصن - وسرنا الى برج صافيتا. خرجت وأنا أتلفت ما استطعت الى التلفت سبيلاً، آملاً أن تنطبع صورة القلعة في ذاكرتي كما انطبعت قصة هذين الفارسين. الفارس الذي انكسر وانهزم، والفارس الذي انتصر وأقام، وخلفه في حصنه وبرجه أحفاده وأحفادهم من بعدهم، ولكنهم ليسوا منه إلا في الاسم. واستغربت ذلك، ولكنني أدركت بعد حين - بعد زمن طويل - أن ذلك الفارس كان يؤمن بحقه فدفعه ايمانه الى السير الى الامام، وأن أحفاده فقدوا ايمانهم بحقهم، فضاع حقهم، ووصلوا الى ما هم عليه. وقلعة الحصن تمثل الأريج الذي يخرج من بطون التاريخ فيعطر الجو، والرائحة التي تنبعث من سراديب القلعة اليوم فيضيق بها الصدر وتضيق بها النفس.

وسرنا الى برج صافيتا، ومررنا بدير القديس جريس. دير بناه البزنطيون ولا يزال قائماً الى الآن، لكنه مثل القلعة عربي الهوى والفؤاد، ففيه مدرسة لتخريج رجال الدين لكنها مدرسة عربية أنشأها الدكتور ايوب تحت رعاية المغفور له البطريرك غريغوريوس حداد. (١٩٠٦-١٩٢٨).

ووصلنا الى برج صافيتا. انه برج آخر من هذه القلاع العديدة، المختلفة ضخامة وقوة، المنتشرة في هذه المنطقة من البلاد. بناها الحكام للدفاع عن البلاد ضد خصومهم من جيرانهم، فلما زال الخصم الخارجي اتخذها أصحاب النفوذ مراكز للضرب على أيدي من تحدثه نفسه بالثورة أو العصيان ضد رغباتهم.

وكان مساء صافيتا حافلاً بمجموعة من الاختبارات، الحسن منها والسيء، ولكنها اختبارات توحي الى المرء الكثير من الخير، وتبعث في نفسه رغبة في ان يفتش عن سبيل للاصلاح.

وأويت الى فراشي، وأمامي صورة قلعة الحصن وما رأيت فيها وما سمعت ولا تزال الصورة أمامي، ولا أزال كلما أذكرها أردد قول الشاعر:

والحق والايمان ان صـبـا على   برد فـفـيـه كـتـيـبـة خـرسـاء

وآمل ان يأتي اليوم الذي أرى فيه ابناء قومي يؤمنون بحقهم ليكون منهم خير لأنفسهم ولبلادهم وقومهم.

في اللاذقية ورباها

ودعنا قلعة الحصن واتجهنا نحو صافيتا. تقع صافيتا على تلال تشرف على السهل الساحلي لكنها تكتسب جمالها من توزعها الجغرافي وطقسها الجميل وعناية أهلها أصلاً بالأرض. كان دخولنا اليها منعشاً، بعد سير دام بضع ساعات، وبعضه كان في سهل منحدر أقرب الى الجفاف الصيفي في السهول منه الى ما قابلنا لما وصلنا ربوع صافيتا.

لم تكن صافيتا قد عرفت معنى الفندق، لكننا عثرنا على غرفة عند سيدة تؤجرها لمن تتوسم فيهم الخير كما قالت. وكان من حسن حظنا ان قدمت لنا عشاء مكوناً من بيض مقلو والى جانبه سلطة وجبن وخبز شهي.

والواقع، كما يعرف الذين جربوا ذلك، كل اكل شهي عندما يكون المرء جائعاً وخاصة بعد مشي طويل.

ونعمنا بالنوم. ولكن فوجئنا، لما استيقظنا، بما فوجئنا به من قبل في جديدة مرجعيون. لا يوجد مكان لقضاء الحاجة. فالحاكورة واسعة. وكان لا بد لنا من ذلك.

وأخذنا ننحدر ثانية نحو الساحل. والانحدار نحو الساحل في الصيف في بلاد الشام معناه الاتجاه نحو الحرارة والرطوبة. فأكثر مدن الساحل الشامي لا تقل رطوبتها في الصيف عن ٧٠٪ وقد تصل ٩٠٪. لكن كيف يتعرف الواحد الى بلاده ان لم يقبل من الأمور حلوها ومرها. ليلة ناعمة هادئة لطيفة في صافيتا يتبعها سير نحو الساحل. وكانت طرطوس هدفنا. زرت طرطوس بعد تلك الزيارة بنحو ثلث قرن، فوجدتها قد نمت واصبحت مدينة. أما في سنة ١٩٢٥ فلم يكن فيها سوى ثلاثة اشياء. الكنيسة الصليبية الجميلة التي حافظ حكام طرطوس عليها (وهي الآن متحف، على طريقة كنيسة آيا صوفيا في استانبول) وصيادو السمك، فقد كان الصيد المهنة الرئيسية لسكان البلدة يومها، وانها الميناء التي يزور منها الناس جزيرة ارواد. وقد فعلنا نحن كما يفعل بقية الناس. زرنا الكنيسة واستمتعنا بما فيها من بناء وزخرف جميلين، وقضينا بعض الوقت في مقهى على الشاطىء مع الصيادين، نتحدث عن كل شيء، وأخذنا قارباً الى جزيرة ارواد.

وكانت لارواد أهمية تجارية فيما سلف من العصور، وكان الاسفنج يوجد في مائها. ومن الطريف الذي ذكره لي درويش يومها ان العرب فتحوا بلاد الشام كلها واستعصت عليهم هذه الجزيرة التي لا تبعد أكثر من بضعة كيلومترات عن الشاطىء. كان السبب في ذلك ان العرب لم يكن لديهم يومها سفن حربية. وكانت طرطوس تحصل على ما تحتاجه من زاد ومؤن وعتاد عن طريق الاسطول البيزنطي. فلما نجح معاوية في اقناع الخليفة عثمان بان يسمح له بركوب البحر الى قبرص، وكانت حملته الموفقة عليها سنة ٢٥ / ٦٤٥، وأصبح للعرب سفن حربية، احتلوا ارواد في السنة التالية.

لكن الفرنسيين أعطوا - اثناء انتدابهم على سورية - ارواد شهرة من نوع جديد. جعلوها منفى لرجال السياسة السوريين (ولست أذكر فيما إذا كان اللبنانيون يرسلون اليها أيضاً). فقد كان الفرنسيون المغرمون بالاقتصاد أمهر من البريطانيين في اختيار المنفى القريب من الساحل والذي لا يكلف الانتقال اليه نفقات باهظة. اما الانكليز فقد اختاروا مالطة أولاً (لسعد زغلول وغيره وبعض زعماء فلسطين) ثم اختاروا جزر سيشل لذلك. والمكانان يحتاجان نفقات للسفر والنقل. ومع ذلك فمما يروى عن اللورد بلومر المندوب السامي في فلسطين ١٩٢٥-١٩٢٨ انه انذر الزعماء الفلسطينيين يوماً بقوله: مالطة قريبة.

زرنا الجزيرة. جلسنا في مقهى. تحدثنا الى الموجودين هناك. صيادون، اصحاب دكاكين فيها لوازم الصيد والمعاش. وهذه الدكاكين تقوم جميعها في الساحة الوحيدة في الجزيرة. ولان السكان قليلون فهم يعرفون بعضهم البعض. ولكنهم لا يعرفون جيرانهم المنفيين، ولا يعرفون شيئاً عنهم. كل ما يصل اليهم ان منفياً جديداً قدم، وان أحد المنفيين أخرج. لكن من هو الذي جاء، ومن ذا الذي أخرج، فأمر لا يعرفه الا أولو العلم، وهم من الضباط الفرنسيين.

ولنذكر دوماً انني أنا اتحدث هنا عن سنة ١٩٢٥. الصحف لا تصل مكاناً مثل ارواد بالسهولة واليسر كما هو اليوم، وان وصلت فلا يقرأها الا القلة، فالأمية كانت الصفة الغالبة على مثل هذه الأمكنة. ولم تكن الادارات المحلية قد انشأت محطات للاذاعة. وكل ما كان يسمعه الناس في البيوت والمقاهي اسطوانات مسجلة عليها اغان للمشهورين من مغني العرب في فونوغرافات ذات ابواق واسعة. الاسطوانات كان يغلب عليها انها تسجيل شركة بيضا والفونوغرافات من نوع صوت سيده، التي كانت تحمل صورة كلب يصغي عبر البوق الكبير ويتعرف على صوت سيده. كان هذا معناه ان الفونوغراف جيد ثم ان التسجيل دقيق.

بعد الزيارة التي استغرقت جزءاً لا بأس به من النصف الثاني من النهار، قضينا الليلة في طرطوس، وفي اليوم التالي اتجهنا الى بانياس. وحري بالذكر انه باستثناء اللاذقية، التي كانت تعتبر مدينة حتى يومها، فان الأماكن الأخرى التي مررنا بها ـ طرطوس وبانياس وجبلة ـ لم تكن سوى بلدات على الساحل. والفرق الرئيسي بين الواحدة والأخرى هو اتساع الجيب (السهل) الساحلي الذي يحيط بها. فاذا اتسع فلحت الأرض واثمرت حبوباً وخضاراً وفواكه صيفية أو شتوية حسب الموسم. واذا ضاق الجيب افاد الناس بعض الشيء من التلال المجاورة، لكنهم استعاضوا عن فلاحة الأرض بملاحة البحر، ينعمون بالصيد فيه هادئاً، ويخشون عواصفه وزوابعه الكثيرة، وكل ذلك في سبيل العيش. هكذا عاش سكان الساحل السوري الذي كنا فيه سنة ١٩٢٥، وعلى مثل ذلك عاش الناس فيه سنة ١٩٢٥ ق.م. ولعلّ الفرق الاساسي بين السنتين هو من كان يحكم هذا الساحل، والى أي حد جرب ان يستغل السكان لمصلحته. وهل تغير الأمر اليوم؟

قضينا الليلة في بانياس في ضيافة القاضي، وقد انسيت اسمه، لست أذكر تماماً كيف وصلنا الى بيته. لست أذكر اننا كنا نحمل رسالة اليه. واكبر الظن انه ألقى القبض (أدبياً) علينا. وكان لا بد لنا من ان نقبل ضيافته. والا فأين ينام الغريب في بانياس؟

وقد أكرمنا مضيفنا بأن دعا فريقاً من أهل البلدة سهرنا معه. وقد دار الحديث يومها عن الثورة السورية، لكن بكثير من الحذر. فالناس ـ في بلادي ـ يكررون دوماً «الحيطان لها آذان». لذلك فانهم يفضلون عدم الخوض في شؤون سياسية الا عند الاطمئنان التام. وأحسب ان هذا الموقف الذي يتخذه الناس فيه حكمة القرون. فان أطول فترات التاريخ التي عرفتها هذه الأقوام وهذه البلاد كانت فترات فيها ارهاق للشعب. ولذلك فان الحديث في «السياسة» يعني انتقاداً للذين «فوق»، وهذا أمر لا يجوز لأنه يكون انتقاداً للأعمال أو انتقاصاً للحكمة. وهل يعقل ان لا يكون الحاكم حكيماً أو أن أعماله يمكن ان تكون موضع انتقاد؟

واذن فالحديث عن الثورة السورية يجب ان يكون محاطاً بالعناية وليس المقصود بذلك السرية. السرية تلزم عند تنظيم الثورة. المقصود بالعناية ان لا يسمح المتحدثون لانفسهم بان يجدوها في اليوم التالي في مكتب الشرطة أو في نظارة البوليس او أمام الحاكم العسكري. والله أعلم ما الذي يحدث بعد ذلك.

أوينا الى المخدع. ولكن درويش بيت امراً أسربه اليَّ طبعاً. يجب ان نزور قلعة المرقب القريبة من بانياس. ويجب ان نزورها بهدوء وبدون ضجة ورفقة. فان القاضي لو عرف برغبتنا لطلب لنا الاذن من السلطات ولكثر حول ذلك اللغط والسؤال والجواب.

تركت الأمر لدرويش. وحول الساعة الخامسة والنصف صباحاً استيقظنا والناس نيام (أغلب الظن ان القاضي أدى صلاة الفجر وأوى الى مخدعه، أو انه ذهب الى المسجد لادائها). المهم لم يشعر بنا أحد. خرجنا من البيت وذهبنا لزيارة القلعة التي كانت، في العصور الوسطى المتأخرة، تحرس المنطقة الممتدة من طرطوس الى اللاذقية، كما تحمي الطريق الممتد منها الى القدموس ومصياف ومن ثم الى سهل حمص وحماة. وقد بنى هذه القلعة الصليبيون، وكانت من آخر القلاع التي استولى عليها المماليك (٦٨٥ / ١٢٨٥) أيام الناصر قلاوون، أي قبل اخراج الصليبيين نهائياً من بلاد الشام بست سنوات.

عدنا الى البيت حول الثامنة والنصف. فوجدنا قلقاً وغضباً لطيفاً يلفان الجو. القلق ـ اين ذهبنا؟ والغضب لماذا نذهب بدون معرفة القاضي الذي كان يمكن ان يؤمن لنا سيارة وموظفاً يدلنا ويرشدنا. اما اللطف في الغضب فقد جاء من كوننا عدنا سالمين ولم نخرج من البيت نهائياً دون ان يودعنا أهله وداع الصداقة والمودة.

والأمر الذي لم يخطر ببال أحد ان نكون قد تسلقنا الجبل لزيارة قلعة المرقب. ان زيارتنا كلها، التي كانت على الاقدام، كانت في أحيان كثيرة موضع تندر. لماذا التعب؟ ولست الوم أولئك القوم، لكنني الوم الذين لا

يفعلون فعلنا الآن!

على كل تناولنا طعام فطور شهي وأكلنا ما يعوض عما صرفناه قبل الفطور وكان علينا ان نختزن للطريق. وطريقنا كانت على السهل الساحلي الآن. من بانياس الى جبلة. وقد ارشدنا قاضي بانياس الى مضيف في جبلة، لكننا كنا اعتزمنا الوصول الى اللاذقية ذلك اليوم.

وهكذا بدأنا رحلتنا. أغراض قليلة. الطريق واضح لا سبيل الى الخطأ فيه كما يحدث في الجبل حيث لا طرق ألبتة. ولم يكن في جبلة شيء يختلف عن بانياس. لذلك بعد غداء متأخر، وجلسة في المقهى، التي أصبحت لنا أمراً ضرورياً للتعرف الى الناس. سرنا الى اللاذقية.

وصلناها في منتصف الليل وذهبنا الى فندق جبلة - هكذا نصحنا.

في الساعة السادسة صباحاً قرع خادم الفندق باب الغرفة وقال الشرطة بانتظاركم تحت. نزلنا فاذا بالشخص يطلب منا ان نرافقه الى مكتب الأمن العام حالا. اظن انه سمح لنا ان نحلق ونغسل وجوهنا، واقتادنا الى المكتب. وهناك بدأ السؤال والجواب.

لماذا نتجول في سورية مشياً على الاقدام. السواح ينتقلون بالسيارة أو بالعربة أو على الخيل. الذين يمشون هم أشخاص مشتبه فيهم. ثم لماذا تصلون الى اللاذقية في منتصف الليل. لا شك انكم تقومون بمهمة خاصة. ومن الذي أرسلكم. نحسب انكم مكلفون من الحكومة الانكليزية، ما دمتم من فلسطين، باثارة الشغب في المناطق الواقعة تحت الانتداب الفرنسي.

كان من الممكن ان نسأل مثل هذه الاسئلة في صيدا لو اننا وقعنا في يد ضابط امن عام فرنسي. لكن هذا لم يحدث. على كل الآن الضابط فرنسي. والمسافة التي قطعناها مشياً طويلة، ومررنا بطرق ملتوية. فالسواح لا يعرجون طريقهم - جبل الشيخ، جبل صنين، الارز، قلعة حصن الأكراد صافيتا، طرطوس مع زيارة لارواد أيضاً - خاصة ارواد. ثم قلعة المرقب. طبعاً هذا عمل جماعة يشتغلون بالجاسوسية.

ولم ير في اجابتنا الصحيحة والدقيقة ما يقنعه. ولما عرف اننا سنكون ضيوفاً على أسرة زريق، زاد احمرار وجهه. أولاً لماذا لم تذهبوا اليهم رأساً. لا بأس بالذهاب في منتصف الليل ما داموا اصدقاءكم. ثم ما هي علاقتكم بأسرة زريق. ستكونون ضيوفاً عند أمين زريق. يجب ان نراقبكم لعل هذه الضيافة ستاراً فقط.

أمين زريق هو والد جلال زريق الذي كان زميلاً لدرويش المقدادي في دار المعلمين في القدس. وكان بين الرجلين صداقة. لذلك كان من المتفق عليه ان ننزل ضيوفاً عليهم متى جئنا اللاذقية. ولكن لم نر من الأدب ان نطرق الباب في منتصف الليل.

لكن المهم ان سجل امين زريق، والد جلال، لم يكن «نظيفاً» عند الامن العام. والنظافة هنا لا علاقة لها بأي نوع من أنواع الاجرام، بل كان لها دلالة واحدة «انه كان يعمل بالسياسة» ولو عن بعد، ولو كان الأمر ابتساماً. ومن هنا فان ذكر أسرة زريق، وأمين زريق بالذات، لم يكن مما ييسّر الأمر لنا.

لكن من الجهة الأخرى كان أمين زريق وابناؤه الثمانية يتمتعون بمركز مرموق لا في اللاذقية فحسب ولكن بين أهل الجبل. ولم يكن باستطاعة ضابط الشرطة، ولو انه افرنسي، ان يتجاهل هذا الوضع. فقد يكون لأمين زريق - رغم ان سجله لم يكن نظيفاً عند هذا الضابط - منزلة عند ضابط افرنسي ارفع مقاماً واكثر اهمية. اذن يجب ان يحتاط الضابط للأمر. وكان احتياطه ان ارسل رسولاً خاصاً الى أسرة زريق يسأل فيما إذا كان أحد افرادها يعرف درويش المقدادي أو نقولا زيادة أو كلا المذنبين معاً؟

وجاء الجواب: جلال زريق وأخوه يوسف وصلا معاً ليعتبا علينا أولا لاننا لم نذهب الى البيت رأساً. نصف الليل؟ وما له؟ ثم ليؤكدا للضابط اننا ضيوف الأسرة. وانتهى الأمر ساعتها بان خرجنا الى بيت المضيفين. لكن

تبدى لي فيما بعد ان القضية ابتدأت هنا وانها لم تنته.

يبدو ان الضابط في مركز الشرطة اقتنع اننا جاسوسان نعمل لمصلحة بريطانية في اثارة السكان في سورية ولبنان لمقاومة فرنسة. ويبدو ان شكل درويش كان سبباً اساسياً في هذا الاقتناع. درويش كان طويل القامة أشقر الشعر، وان كان شعره خفيفاً، ازرق العينين. يعني انكليزي متخف خلف جواز السفر الفلسطيني الذي يقول انه مولود في طولكرم بفلسطين. وانا الشخص المساعد. وقد ظن الضابط اننا نعرف الافرنسية ولكننا نخفي هذه المعرفة، فقد تنبهت انا، بعد ذلك، الى انه كان يأخذنا على حين غرة ويسألنا سؤالاً بالافرنسية، أو يقول شيئاً بتلك اللغة يقتضي منا، لو اننا عرفناه، ابداء الدهشة أو الاستغراب.

والمهم ان اسمينا وضعا في سجل المشبوهين، ومع ان امين زريق وأولاده كانوا الضمانة (قد لا تكون ضمانة خطية مصدق عليها من كاتب العدل) فان مراقبة شديدة فرضت علينا. لم يطلب منا ان نزور مكتب الشرطة مثلاً، لكننا لاحظنا ان افراداً من الشرطة كانوا يوجدون حيث نكون. طبعاً في الأماكن العامة أو الحساسة.

وكانت الأيام الثلاثة التي قضيناها في مدينة اللاذقية والأيام الأربعة التي جلنا خلالها في الجبال المصاقبة للمدينة فيها الكثير من الأماكن العامة والحساسة. فأسرة زريق يسرت لنا الاجتماع بعدد كبير من أدباء المدينة وصحافييها. وزيارة الصحف بحد ذاتها كانت يومها جريمة لا تغتفر. وأذكر ان الاسرة الكريمة أقامت حفلة عشاء مختصرة كي نجتمع ببعض الشخصيات ذات الأثر في حياة المدينة العامة، فكان بين المدعوين أحد ضباط الشرطة. وقد عرفنا فيما بعد ان دعوته كانت ضرورية لدفع أي أذى يمكن ان ينتج عن تفسير حركاتنا أو تحركنا.

وكنا عندما نجلس في قهوة نلاحظ ان هناك أشخاصاً يجلسون لمراقبتنا أو يقال لنا ذلك فيما بعد.

وعلى كل فالقضية في اللاذقية نفسها اقتصرت على المراقبة لكن لما انتقلنا الى الجبل اتخذت المراقبة شكلاً آخر. انتقلنا من اللاذقية الى قرية القرداحة بالسيارة. وقد رافقنا جلال وأخوه يوسف. من القرداحة كانت ستبدأ رحلتنا في جبال النصيرية أو العلويين. وقد أعد من الخيل ما يكفي للجميع، لكننا أنا ودرويش قررنا المشي. ليس هذا المهم. في تلك الليلة، بعد العشاء، جاء الشيخ علي وهو مدير الناحية، للسلام علينا. وليس في الأمر غرابة. لكن قبل ان يذهب، طلب منا، بواسطة المضيف، ان نسلمه جوازات السفر. رفضنا ذلك واكتفينا بان أريناها له. وخرج خجلاً.

وفي الصباح، قبل ان نبدأ الرحلة، قيل لنا ان الشيخ علي سيرافقنا في الطريق. وجاء، وسرنا كلنا نتحدث. وأصر ان يعرف لماذا ننوي ان نزور جبل الشعرا، وهو أعلى جبل في المنطقة، وكان جوابنا محيّراً بالنسبة له. اننا ننوي زيارة النبي يونس هناك. ولكن ما شأننا نحن بالنبي يونس ودرويش وآل زريق مسلمون سنة وأنا مسيحي ارثوذكسي. وقد حيره هذا الأمر. ولما عدنا الى اللاذقية سئلنا ثانية في مركز المحافظ (ترقينا قليلاً) عن سبب هذه الزيارة. ذلك بان الشيخ علي بعث بتقرير مفصل عن تصرفاتنا.

قضينا اليوم في الطريق. نزور الجبال والقرى ونتحدث والشيخ على رفقينا. لقد اتضح ان الشيخ علي لم يكن مجرد مرافق في الطريق، بل كان مراقباً لحركاتنا.

في ذلك المساء نزل الشيخ علي ضيفاً معنا. فهذه القرى لا مكان فيها لقضاء الليلة الا ضيفاً عند أسرة ما. وفي صباح اليوم التالي أحسسنا بوجود نوع من التوتر. ثم حلت المشكلة. ولم ندر ساعتها اي مشكلة. وانتهى الامر بأن ودعنا الشيخ علي وعاد الى مركز عمله. ولما بدأنا السير أصر ابن مختار القرية التي قضينا ليلتنا فيها، والمختار وجيه القرية، على مرافقتنا. واجب الضيافة وحقوق الضيف. ولم نستطع اقناعه بتركنا وحدنا. ووصلنا القرية التالية حيث سنقضي الليلة الأخيرة (الثالثة) وبات ابن المختار معنا. ولكن الغريب انه أصر على

مرافقتنا في اليوم التالي الى بابنا وهي مركز محافظة صهيون. وقد سميت صهيون بسبب القلعة الضخمة التي كانت تقوم في وسط المحافظة، والتي كانت ولا شك تسيطر على شبكة الطرق التي تصل الساحل بالداخل. وكانت مهمة لا بالنسبة للصليبيين فحسب، بل بالنسبة للحشاشين الذين كان لهم فيها وفي مصياف وغيرهما دولة ورجال. (وبدلت الحكومة السورية مؤخراً اسم القلعة فاصبحت قلعة صلاح الدين).

ولم نحاول منع ابن المختار؛ فقد كان اصراره نهائياً. وصلنا بابنا بعيد العصر. واذا بنا نؤخذ الى منزل المحافظ. وقد استقبلنا الرجل - وهو عربي من سورية - بمنتهى البشاشة واللطف والاحترام. وحتى شعرنا كأنه كان يعتذر عن تصرف الشيخ علي والذين اصدروا اليه الأوامر من اللاذقية رأساً.

غادرنا منزل المحافظ وركبنا سيارة الى اللاذقية، بعد ان ودعنا ابن المختار. وفي الطريق عرفنا سر مرافقة هذا الشاب لنا. كان المفروض ان يرافقنا الشيخ علي بنفسه وان يقوم هو بتسليمنا الى المحافظ. لكن المختار اقنعه بوجوب احترامنا، ووعده بأن يشرف هو على تسليمنا للمحافظ. وقبل أولو الأمر الطلب من الشيخ علي. ولكن قبل مغادرة مدير الناحية أخذ من ابن المختار وصلا علينا.

كانت نسخة الوصل بين أوراقي التي نهبت سنة ١٩٤٨ في القدس، لكنني اذكر محتوى الوصل:

بتاريخه أدناه وصلني انا مختار... الشخصين من فلسطين درويش المقدادي ونقولا زيادة على ان اسلمهما لمحافظ صهيون في مركز بابنا.

ولما دخلنا منزل المحافظ (أي لما تسلمنا المحافظ) أخذ ابن المختار منه وصلا بذلك، أوصله فيما بعد الى الشيخ علي.

وكان علينا ان نزور محافظ اللاذقية، ثم حاكم دولة العلويين (كما كانت الولاية تسمى يومها)، كي يطمئن الجميع ان تصرفنا في الأيام التي قضيناها في الجبل كانت بعيدة عن الفتن والتجسس واثارة الاحقاد والاضطراب.

المنطقة التي زرناها في اللاذقية وجوارها كانت جميلة جداً. كانت لا تزال على طبيعتها. أرضها صالحة لجميع انواع الاشجار، المثمرة وغير المثمرة، التي كانت تغطي الجبال والسفوح. والسهول تنتج الحبوب والخضار. ولكن كانت الطرق يومها قليلة. أذكر اننا مررنا بصلنفة، التي كان فيها بضعة بيوت. لكن كان فيها مطعم متواضع تناولنا فيه اما بعض الطعام أو بعض الشراب. وكم تمنيت لو ان المكان يتخذ مصيفاً.

في سنة ١٩٥٣ زرت المكان للمرة الثانية. القرية ازداد عدد البيوت فيها. وكان هناك فندق كبير للاصطياف مع فنادق صغيرة متعددة وبيوت أعدت للمصطافين. وكانت الطرق التي تصلها باللاذقية وبالاماكن المجاورة جيدة.

وفي اللاذقية زرنا مكاناً لتصنيع الدخان تمهيداً لارساله الى بريطانية لتصنع منه السجاير وأنواع الطباق الصالح للغليون. كانت أوراق الدخان وهي كبيرة تجفف بعض الشيء في الشمس. لكن قبل ان تصل درجة التقصف كانت تؤخذ الى داخل بايكات (مثل قاعات الخان) كبيرة، وتعلق على الحبال، ويوقد تحتها نبات قريب من الغار بشكله ورائحته، وهو بعد أخضر. لذلك فانه لا يلتهب بل يحترق ويطلق الدخان. هذا الدخان هو الذي تتعشقه أوراق التبغ وتكسبه نكهة يُعجب بها المدخنون.

لم أكن يومها ادخن، ولكن لما قررت البدء في التدخين، وبتدخين الغليون (صيف ١٩٣٩) كنت الاحظ على بعض أصناف الطباق الغليوني عبارة «مصنوع من أجود الانواع اللاذقية».

انطاكية ودفنة

كنّا، أنا وصديقي درويش، قد قضينا قرابة الأسبوع في اللاذقية وجبال النصيرية، وآن لنا أن نتجه نحو انطاكية. نحن كنا ننتقل سيراً على الأقدام. هذه كانت خطتنا، منذ ان بدأنا من صفد في شمال فلسطين قبل ذلك بنحو ثلاثة أسابيع. لكن لا مضيفنا جلال زريق ولا أي شخص سمع برغبتنا في الانتقال نحو انطاكية سيراً وافق على الخطة. المنطقة كانت خطرة، بسبب الثورة السورية التي كانت يومها تشغل البلاد. وقد اغتنم بعض اللصوص والأشقياء الفرصة فعاثوا في الأرض فساداً؛ وهذا هو مصدر الخطر على المسافرين. والحلُّ؟ ننتقل من اللاذقية الى الاسكندرونة بحراً، وعندها نتدبر أمرنا.

اذا لم يكن من الامر بد، فلنفعل. والباخرة الوحيدة التي يمكن أن نسافر عليها هي الخديوية وطريقها يمر بمرسين، قبل الاسكندرونة. هذا معناه مئة وثمانون قرشاً مصرياً لكل منا اذ ان الباخرة كان فيها درجة واحدة سمّوها أولى، وهي دون ذلك، على ما عرفت فيما بعد. ودفعنا المبلغ الكبير، بالنسبة لنا، وقضينا ليلة بين اللاذقية ومرسين. وأصبحنا فيها، وأملنا ان يتاح لنا النزول الى البر. وكانت غايتنا من ذلك مقابلة الامير شكيب ارسلان، الذي كان يقيم في مرسين يومها على ما بلغنا.

لكن السلطات التركية أبت علينا ذلك لأنه لم يكن لدينا تأشيرة بالدخول الى البلاد التركية. فقضينا يوماً كاملاً على ظهر السفينة. وأصبحنا، بعد ليلة ثانية في الطريق، في الاسكندرونة. ولم يكن في هذه البلدة ما يلفت النظر سوى موقعها في هذا الخليج الطبيعي الصالح لدرء خطر الرياح على السفن التي تقصده.

وكان منظر جبال امانوس المرتفعة، التي كأنها تكاد تسقط على الميناء والمدينة، شيئاً جميلاً. وسأل راكب الشخص الذي يسوق السيارة، كيف يصل المرء الى قمة هذا الجبل. فكان الجواب بهذه السيارة فورد. هذه مثل العنزة تصل الى كل الجهات.

وقد ابلغنا، حين نزولنا من الباخرة الخديوية، بوجوب التوجه الى مكتب حاكم سنجق اسكندرون. وكان الحاكم يومها كاربيه الذي كان في جبل الدروز، والذي أثار هناك المشكلات التي انتهت بقيام الثورة التي بدأت في الجبل ثم عمت سورية (١٩٢٥-١٩٢٧).

وذهبنا. وأدخلنا الى مكتبه. وجاء الترجمان. والأسئلة، توجه إلينا وهو يقرأ رسالة، لماذا جئتما الى سورية؟ لماذا دخلتما الى لبنان عن غير الطريق الشرعي؟ لماذا تنتقلان سيراً على الأقدام؟ لماذا قضيتما كل هذه المدة في اللاذقية وجبالها؟

كل هذه الأسئلة تبدو بريئة، كأنها شيء يقوم به رجل أمن عام في منطقته. لكن هذه الأسئلة جميعها كانت مرتبطة، على ما اتضح لنا، بهذه الرسالة التي كان يقرأها. كانت تقريراً وصله من الادارة في اللاذقية عن تصرفاتنا. نحن لا بد اننا جواسيس لبريطانية لاثارة الناس في سورية ضد الحكم الفرنسي.

ولا شك في ان طول قامة درويش وزرقة لون عينيه وشعره الأشقر حملت المسيو كاربيه على الظن بانه أمام لورنس جديد.

وبعد أخذ وردّ سمح لنا باتمام السير على أن لا نبعد عن أعين الرقباء.

ولم تطل اقامتنا في الاسكندرونة، تفقدنا أسواقها القليلة الحوانيت والفقيرة في سلعها وبضائعها، وزرنا مركز الأمن العام كي يتأكد «قوميسير البوليس» من صحة أوراقنا وهويتنا. كانت زيارتنا لقوميسير البوليس بناء على تعليمات تلقيناها قبل ان نغادر السفينة. ان المراقبة التي فرضت علينا في اللاذقية سبقتنا الى الاسكندرون. فقد نقل الخبر الى الامن العام هناك ان جاسوسين - أو هكذا شبه للقوم - هما في طريقهما الى الاسكندرون على ظهر الباخرة الخديوية. هذان الرجلان زارا مناطق العلويين وتحدثا الى رجال الصحافة في

اللاذقية وكانا في ضيافة أسرة زريق هناك، وأسرة زريق لها ضلع، ولو أنه غير ظاهر، في الحركات التي قام بها مرشد العلي ضد فرنسة.

ثم ركبنا فورداً آخر الى انطاكية. وقد لطف الله بنا فلم يجد السائق سوى ستة ركاب للطريق، وكان يأمل أن «يلم» راكباً أو اكثر في طريقه، ولكن آماله لم تتحقق.

لما وصلنا انطاكية وضعنا أغراضنا في غرفة بفندق. وأغراضنا كانت قليلة جداً: على ظهر كل منا شنتة تنقل فيها غياران من الثياب، وكنا نلبس السروال او البنطلون القصير يعنى، بلغة اليوم، الشورت. وفيها عدة الحلاقة وفرشاة الأسنان وما الى ذلك. وكان كل منا يحمل دليلاً يختلف عن دليل الآخر. وكان درويش يحمل آلة تصوير. وقد ضاعت جميع الصور المتعلقة بهذه الرحلة لما نهب بيتي في القدس، سنة ١٩٤٨. وكنت أنا أحمل مطرة للماء وكان كل منا يحمل عصا. وعندما نَحْملُ او نُحمَّلُ «زوادة» كنا نحشرها في الشنتتين. لذلك كانت أحمالنا خفيفة. وكنا نغسل ثيابنا في الفندق مساء ونعلقها لتنشف ليلاً.

وضعنا أغراضنا في الفندق، وخرجنا نبحث عن مطعم يمكن ان نتحدث فيه الى الناس. وهذا أمر كنا نفعله دوماً. وعثرنا على ذلك في حي عربي. في تلك السنة، أي سنة ١٩٢٥، كانت انطاكية بعد جزءاً من لواء الاسكندرون، الذي كانت تديره فرنسة، كما كانت تدير سورية باجمعها، ولذلك كان لا يزال يعتبر جزءاً من سورية. واللواء لم ينقل الى تركية الا في سنة ١٩٣٩.

تناولنا طعام الغداء، وكنا خطّطنا لزيارة ضاحية على مقربة من انطاكية اسمها الحربية واسمها القديم دَفْنَة. انطاكية بنيت سنة ٣٠٠ ق.م. على أيدي الملك السلوقي انطيوخس الكبير الذي اتخذها عاصمة لدولته. اختار المكان لسهولة الدفاع عنه، ولتيسر الأخشاب في الغابات المجاورة لها، ولخصب المنطقة التي يمكن ان تزوِّد السكان والجنود بحاجاتهم من المؤن لهم ومن العلف لدوابهم. وكان نهر العاصي يدور بجزء من المدينة ويربطها بمينائها سلوقية التي سماها السكان مؤخراً السويدية.

وعني الرومان بانطاكية في أيام اغسطوس قيصر، إذ كانت تابعة للامبراطور مباشرة. وقد يُوَلّى حاكمها أمرة الجيوش الرومانية في المشرق. وأراد الامبراطور أغسطوس وخليفته طيباريوس ان يكون لأنطاكية هياكلها الجميلة ومسابقها الفسيحة وتماثيلها الأنيقة وحدائقها الواسعة. فاختار ضاحية بني فيها هيكل لجوبتر وآخر لديونسوس، واقيمت تماثيل ضخمة في الميادين وبني المسبق والملعب. وقد كانت هذه جميعها موطن السرور والمرح للانطاكيين وضيوفهم. هذه هي دفنة (أو الحربية حديثاً).

لكن الزلازل المتعددة والحرائق الكبيرة والحصارات التي تعرّضت لها انطاكية ومنطقتها قضت على اكثر هذه الأشياء الفنية. لذلك لما ذهبنا الى المكان لم نجد فيه سوى مجاري الماء وأقنيته وقطع من التماثيل وبعض من اثار الهياكل، إلا انها كانت جميعها تقوم وسط حدائق غناء تضيف الطيور المنتشرة في افنائها جمالاً الى جمالها بتغريدها المتواصل.

اتفقنا في المساء، بواسطة صاحب الفندق، مع شخص يدلنا على الطريق الى السويدية، ميناء انطاكية القديم / الحديث. جاء الرجل وأيقظنا، وبعد أن لبسنا ثيابنا أدركنا ان الرجل أخذ بضوء القمر فظن ان الفجر قد لاح. فهو لم يكن لديه ساعة يسترشد بها. وان الساعة كانت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. على كل قررنا السير. وسرنا ذلك اليوم الى الساعة الثامنة والنصف مساء، لما عدنا الى الفندق. وكان يوماً عظيماً.

انا لم أصدق يومها. كما انني لم أصدق أموراً كثيرة. ان هذه البلدة الصغيرة التي يمتاز سكانها بالفقر والجد. فالذي يعمل في البحر ويعتمد عليه في معيشته، لا يمكن الا ان يكون جدياً في تصرفه. كانت في يوم من الايام معبر سورية الشمالية بالنسبة للامبراطورية الرومانية مثلاً؛ وان سفراء من الهند مروا بانطاكية وسلوقية /

السويدية وهم في طريقهم الى رومة لزيارة الامبراطور اغسطوس، على رواية نيقولاوس الدمشقي من أهل القرن الأول الميلادي، وقد شاهد ذلك بنفسه.

ولكن هذه هي الدنيا. وقد وفقت انطاكية بعالم آثار ومؤرخ كبير هو غلانفيل داوني، الذي صرف ثلاثين سنة يتعامل مع المدينة منقباً اثرياً ودارساً وثائقياً ومحاضراً تاريخياً للمدينة قبل ان يضع تاريخاً لها عبر القرون العشرة الممتدة من تأسيسها على يد انطيوخس الى الفتح العربي الاسلامي. وقد نشر الكتاب سنة ١٩٦١، ولم يكتب ما يماثله، بله يتجاوزه، بعد!

الا ان الذي عرفته يومها، وقد مررنا بقرى متعددة وجلسنا لتناول طعام الفطور، ثم لتناول طعام الغداء ثم لأكل بطيخة وشرب فنجان قهوة، انني كنت في جزء من اجزاء بلد عربي. في المنطقة عدد من الأتراك، لكن هذا لم يكن يبرر المطالبة بضم سنجق أو لواء الاسكندرون الى تركية.

ومع ذلك فقد ضم. ضم نتيجة لاستفتاء أجرته عصبة الأمم، التي قامت في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وخرجت بنتيجة أن أكثرية السكان صوتوا الى جانب الانضمام الى تركية، لأنهم اتراك. والواقع، كما أخبرني الكولونيل نيوكمب بعد ذلك بسنوات وكانت له يد في العملية، هو أن السكان لم يوزعوا بحسب عنصريتهم - أي العرب معا، والاتراك معاً. إذ في هذه الحالة سيكون العرب هم الأكثرية المطلقة، لكنهم وزعوا سُنَّة - عرباً واتراكاً - وعلويين وشيعة ومسيحيين. واعتبروا السنة جميعهم تابعين للمذهب الذي يقبله الأتراك. وعند الاستفتاء ظهر ان الاتراك - أي السنة - هم الأكثرية.

وباختصار لُفَّ الطابق لمصلحة تركية، وضم اليها، وأصبح اسمه ولاية هيتاي!

الى حلب

أصبح وجودنا في سورية سباقاً مع الوقت الذي يبدأ فيه عملنا. فنحن نعمل في التعليم - هو في دار المعلمين وانا في ترشيحا. وكان من الضروري ان يصل كل منا الى مركز عمله بحيث يبدأ الشغل في ١٥ ايلول / سبتمبر. لذلك أصبح التنقل على الأقدام غير ممكن. ومن هنا عدنا من انطاكية الى فلسطين راكبين.

خرجنا من انطاكية في صباح يوم حار رطب، لكننا لما اجتزنا بعض المسافة خفت الرطوبة واكتفت الحرارة بازعاجنا. اجزنا سهل انطاكية - حلب، الذي كان قد تخلص من موسم الحبوب لكنه كان كريما في قثائه وبطيخه وخياره وبندورته. ولم تكن السيارة مزدحمة؛ كان فيها ستة ركاب فقط. والحديث، مثل حديث اية مجموعة من الركاب، يدور حول الطقس والموسم وابراهيم هنانو. فالزعماء الذين انتقلوا الى رحمة ربهم يمكن ذكرهم للترحم عليهم، لا للتحدث عن أعمالهم. فهم لم يكونوا ثواراً وطنيين - كانوا عصاة على الدولة (الفرنسية). ألم تقرّ عصبة الأمم صك الانتداب (لفرنسة) على سورية ولبنان، كما أقرت صكاً مماثلاً (لانكلترا) على فلسطين. وإذن فقد أصبح الوجود الفرنسي في سورية ولبنان والوجود البريطاني في فلسطين امراً مشروعاً. والسياسة التي تنفذها كل من الدولتين في منطقة انتدابها هي السياسة الصحيحة الصائبة، بقطع النظر عن مخالفتها للمادة الثانية والعشرين من شرعة عصبة الأمم. وأي شخص يمكن ان يفكر في قضايا بلده خارج هذا النطاق فهو، في نظر الدولة المنتدبة، عاص ويعامل كالعصاة. اما ان يعتبر وطنياً - زعيماً كان أو رجلاً عادياً - فأمر لا مكان له في قاموس الدولة المنتدبة.

وكان ابراهيم هنانو، كما كان صالح العلي زعيمين وطنيين ثارا على فرنسة وقاوماها بالقدر الذي أمكنهما.

ذلك بأن فرنسة، لقيت منذ بدء وجودها في البلاد مقاومة، بحيث كانت البلاد في حالة غليان يكاد يكون مستمراً. ففي سنة ١٩١٩ قاد الشيخ صالح العلي، زعيم العلويين الروحي، ثورة في جبال النصيرية (العلويين)

وقد استمرت هذه الثورة حتى سنة ١٩٢١.

وفي صيف سنة ١٩٢٠، بعيد احتلال فرنسة للبلاد واخراجها فيصل منها، قامت ثورة بقيادة ابراهيم هنانو. وقد انتشرت الحركة في منطقة واسعة تشمل الأجزاء الواقعة غربي حلب وشمالها الغربي، وكانت قيادتها متمركزة في جبل الزاوية، لكن قواتها لم تلبث ان احتلت عدداً من البلدات الصغيرة مثل أدلب والمعرة، وحملت الفرنسيين على الفرار في معارك صغيرة متعددة حفاظاً على حياتهم.

وقد أعدت السلطات الفرنسية العسكرية جيشاً لمهاجمة قوات صالح العلي وابراهيم هنانو، إذ أنهما كانا يعملان متعاونين. وقد هزم صالح في معركة القدموس. ولما حُشرَ هنانو بعد ان سقطت البلدات التي كان يحتلها، نجح في الانتقال (صيف ١٩٢١) الى شرق الاردن. ولما كانَ يقوم بزيارة للقدس، ألقى البريطانيون القبض عليه وسلموه الى الفرنسيين في بيروت بالرغم من احتجاج العرب في أماكن كثيرة.

ويقول جورج حداد: «وقد حاكمته محكمة عرفية لكنها بدل أن توقع به عقوبة مجرم، اعتبرته زعيماً وطنياً يدافع عن بلاده فبرأته».

واذن فالحديث عنهما، في مكان عام، كالسيارة أو المقهى أو المطعم، يجب ان لا يتعدى الاشارة اليهما كزعيمين لعصابات مزعجة. والا فليصمت الناس. وكان الناس يومها أشد حرصاً من ذي قبل لأن البلاد كانت قد قامت فيها ثورة قبل نحو شهرين. وهذه بطبيعة الحال كان يجب ان يشار اليها على أنها عصيان مسلّح. بقطع النظر عن سبب هذا العصيان.

واذن فلنستمع نحن الى حديث الطقس والموسم والغبارات والسيارات التي سهلت على الناس السفر والتنقل. وحتى عندما يصيب السيارة عطل، كأن ينفس دولاب أو تنسد انبوبة البنزين، فالناس لا يتذمرون كثيراً. فالقضية لا تعدو ان يخرج الركاب من السيارة ويأتي السائق «بالعفريتة» أي الرافعة، ويرفع السيارة ثم يفك الدولاب ويخرج عدة اصلاحه: وهي قطع من المطاط من نوع مطاط الدولاب والصمغ اللازم للالصاق. ويخرج السائق الدولاب الداخلي، ويفتش عن الثقب الذي تسرب منه الهواء بأساليب بدائية اكثرها «تقنية» هي ان يكون في متناول يديه كمية من الماء في لَكَنٍ (لَجَنٍ) بحيث يغطّس الدولاب في الماء ويضغطه، فيخرج الهواء من الثقب. وبعد ذلك ينظف منطقة الثقب بورق الزجاج، ثم يرقعه. ويأتي بعد ذلك نفخه بالمنفاخ. هذه العملية تحتاج الى وقت طويل. وبهذه المناسبة فقد ركبت في سيارة من جنين الى الناصرة (والمسافة بينهما واحد وعشرون كيلومتراً) وكان ذلك في صيف ١٩٢٠ وحدثت ثقوب في دواليب السيارة بلغ عددها عشرة.

ولم يصب السيارة أي عطب بين انطاكية وحلب والمسافة نحو مئة وخمسين كيلومتراً. والطريق تجتاز سهل العمق في شماله، وتكون أكتاف التلال على الجهة اليسرى من الطريق. والخضار والفواكه هي الخضار والفواكه التي شاهدناها في طريقنا عندما كنا نجتاز سهلاً. إلا أن الشجيرة التي كانت جديدة علي هي شجرة الفستق الحلبي. ولما وصلنا حلب رأيت جذور العرقسوس.

حللنا في حلب في فندق بارون. الفندق الوحيد الذي سمعنا عنه في حلب. وكان فندقاً فخماً، يعود بناؤه الى أواخر القرن الماضي أو مطلع القرن الحالي. وقد خطط البناء ليكون فندقاً من الأصل.

وقد عرفت يومها من صاحب الفندق بارون (وهو رجل ارمني اسمه بارون) بان جمال باشا كان ينزل في هذا الفندق عندما كان يزور حلب. وقد حدث فيما بعد - في الخمسينات - ان أحد زملائنا في الجامعة الاميركية، وكان مهتما بالتاريخ العثماني، زار حلب وطلب من بارون الابن، فالأب كان قد توفي، ان يعطيه الغرفة نفسها التي كان جمال باشا ينام فيها. وقد لبى الشاب رغبة الزميل فانزله غرفة جمال باشا، والله أعلم.

حلب في سنة ١٩٢٥ وفي كل وقت فيها أمران يجب ان ينالا اهتمام الزائر: القلعة والأسواق. القلعة تتوسط

المدينة وهي قلعة ضخمة ايوبية الاصل بناها الملك الظاهر (٥٨٢ـ٦١٣ هـ / ١١٨٦ـ١٢١٦م). وفضلاً عن ضخامتها فان الزائر يمكن ان يتأكد من انها كانت منيعة. في سنة ١٩٢٥ كانت أكثر من بقايا قلعة ـ كانت بقايا جيدة واضحة لقلعة ضخمة حصينة. وقد عني بالكشف عن بعض محاسنها فيما بعد. فتبدت آيات حسن في معمارها وتخطيطها.

اما الأسواق فهي مسقوفة، وأنت تدخلها تشعر كانك تهبط عن سطح المدينة درجات. كانت الاسواق لا تزال في تلك السنة تحافظ على شخصيتها وكيانها. فالسوق يدل اسمها على تجارتها ـ العطارين، النجارين، الصاغة وما الى ذلك. في زياراتي التالية لحلب، وهي كثيرة، كنت أرى هذه الأسواق تعرى من سلعها الاصلية لتحل محلها ما يحتاجه الناس ـ أدوات الطبيخ من طناجر ومقال والالعاب للاولاد والثياب الشعبية. فان البروكاد مثلاً، وهو من الأقمشة الحلبية المشهورة، انتقل بيعه الى الأماكن الجديدة، الى منطقة السبيل وغيرها.

نعمنا ـ انا للمرة الأولى ودرويش للمرة الثانية ـ باللحم الطيب الشهي في حلب، وأيسره وأسهله المشوي، لكن الكباب والكفتة والكفتة الحلبية خاصة، تشتهى بعد ان يأكلها الواحد هناك. وليس السبب الاتقان في تهيئة اللحوم، ولكن السبب يعود الى جودة المراعي في تلك المناطق ومن ثم اللحم الطري الذي يطاوع الشوّاء.

في بلاد المعري

خلفنا حلب وراءنا. وكان اليوم حاراً، والأرض جافة والطريق صيفية، والسيارة مضطربة عصبية. ولم تكن تنهب الأرض نهباً، بل كانت تسير سيراً عادياً. فإن السيارات، في تلك الأيام، وقد بعد بسفرتنا تلك العهد، لم تكن تستطيع اكثر من طي تلك السهول طياً عادياً. وماكان أكثر تعريجها على أحياء الناس. فثمة حاجة الى الماء، وثمة حاجة الى اراحتها فقد اشتدت الحرارة فيها، وثمة حاجة الى اصلاح مجرى الزيت. وكل أولئك أمور تثير الاعصاب وتجعل السفر أمراً صعباً. لكن لماذا تثور اعصابنا ولماذا نكره السفر؟ ألم تكن المدة التي قضيناها في حلب، على قصرها، كافية لتزويدنا بما نفكر به فننسى غبار الطريق وشتائم السائق وصخب بقية المسافرين؟ أليست قلعة حلب بضخامتها واستيلائها على مركز البلد وإشرافها على شؤونه امراً يذكره المرء مدة طويلة؟ أليس في هذه المدينة ما يذكر المرء بأيامها الماضية لما كانت مركزاً رئيسياً للاتجار الداخلي؟ ألم يقل عنها ابن جبير ان اسواقها كانت مليئة بالتجارات والصناعات، بحيث تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة أخرى، وكل ذلك مرتب منظم؟ بل أليست حلب مقر سيف الدولة وعاصمة إمارته؟ وسيف الدولة هذا صاحب المتنبي، ومن يتذكر حلب ولا يربط اسمها بهذين الرجلين الفذين ـ صاحب السيف ومالك عنان الشعر؟

وتنقلت بي افكاري ونحن نجتاز هذه البقاع، فحامت حول هذه الطرق ومن اجتازها قبلي من الأمم والأفراد، وتذكرت الجيوش التي جاءت وحاربت وهدمت ودمرت، والناس الذين عمروا وزرعوا وأحيوا الأرض. وقارنت التدمير بالتعمير والقتل بالإحياء. ومرت برأسي أخبار الأمم التي سكنت هذه الجهات منذ أن عمر الناس الأرض التي أورثهم الله، وترددت في نفسي الأساطير التي خلقها الناس ليفسروا أسماء البلاد والمدن. قالوا حلب، من حلب ابراهيم لنعاجه فيها، وقالوا غير ذلك. وانفتحت امام ناظري هذه الآفاق الواسعة من التاريخ الذي أوجدني وأوجد البلاد التي اجتازها. فرأيتني أقع في ذاكرتي التاريخية على أمم وشعوب ذات لغات مختلفة، تعمر هذه الرقعة من العالم، فتنشر لغتها، وتنشر ثقافتها، وتنشر علمها، وتنشر شرعها، وتنشىء المدن لتجعل منها مراكز لنشر كل هذا. ولكن علمها وحضارتها ولغتها تقتصر على المدينة، ولا تنفذ الى أعماق القلوب خارجها. حتى يأتي جماعة أخرى، لها من ايمانها دافع، ولها من يقينها باعث، ولها من اقتناعها وازع ولها من خلقها رادع، فتنشر عنصرها العربي، وتنشر لغتها العربية وينتشر ايمانها في الربوع كلها، وتلحق به اللغة وتجاريه.

فتصبح لغة كل الناس، أميرهم وغنيهم وفقيرهم وتاجرهم وصانعهم وراعيهم وزارعهم. وتصبح في جميع المنازل: المدينة والقرية والقصر والكوخ والقلعة - تصبح لهذه كلها لغة واحدة، يتاجر بها الناس ويتعلمون ويصلون ويخشعون ويحبون. وعندها تتوحد الحياة التي كانت متشعبة التفكير، ويصقل الفكر الذي كان متباين الغايات مشعث الأهداف. ويخرج من هذا كله هذا الرجل الذي يسميه الناس المتنبي، والذي ينشد بيتاً من الشعر في مصر فتردده دجلة ويتغرب لا مستعظماً غير نفسه، ولا قابلاً إلا لخالقه حكماً، فيؤمن على قوله أولئك الذين يرون نفوسهم لا تطيق اللحم والعظما، فيحقرون الدنيا ويزيدون في كرائهها قدماً.

وانا في هذه الافكار اذا بالسيارة تقف امام بيوت عدة، لا هي بالقليلة فتكون قرية ولا هي بالكثيرة فتكون مدينة، ولكنها امر بين الأمرين. وحسبت ان السيارة أوقفت لتعالج. لكنني لم ألبث ان أدركت خطأي، لما ذكر الركب انها المعرة - معرة النعمان. فعدت الى دنيا الناس، وعجبت لهذه الحياة التي تنقلك من عالم الفكر مع المتنبي، فتجد نفسك في عالم الناس ولكن في بلدة المعري.

وكدنا لا نعرف أنفسنا. فقد كان الغبار قد تراكم على وجوهنا فصبغها بلون التربة الحمراء. ولم يكن من المتيسر ازالتها البتة، فاكتفينا بازالةالقليل منها على النحو الذي تيسر لنا، وسرنا نحاول التعرف على الجو الذي عاش فيه ابو العلاء. فكان اول ما طالعنا منه قبر نور الدين الشهيد، في مكان يعرف باسم مدرسة ابي العلاء. والمدرسة هذه كتاب في مكان قديم متهدم. ونور الدين الذي احيا من دنيا الاسلام يوم ان تصدعت ما احيا، ينظر الناس الى قبره فلا يعرفون أقبر شخص عادي هو أم قبر هذا الذي هيأ لصلاح الدين ان يضرب الصليبيين.

وكان بي شوق الى قبر المعري. فقد اعجبني من قبل ذلك الذي تساوى عنده صوت النعي وصوت البشير، فذهبنا لزيارة «مولانا ابو العلا». مولانا؟ نعم لقد اصبح المعري في بلده ولياً من اولياء الله، يعلو مثواه خشب بقماش أخضر، وتعلو مكان الرأس منه عمة، ويتقرب الناس الى الله بقراءة الفاتحة في مقامه، ويربط قطع من القماش البالي على باب المكان الصغير وطاقاته. وكأن رهين المحبسين في حياته أبى الا ان يكون له بعد وفاته محبس ثالث، فاقتصر قبره على هذه الغرفة الصغيرة المظلمة. وقد تلطف أحد الناس فكتب على ورقة علقت على جدار الغرفة بيتين من الشعر هما:

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة ... نقية صاغها المولى من النطف
عزت فلم تعرف الأيام قيمتها ... فارجعها رحمة منه الى الصدف

هذه حالة قبر ابي العلاء (زائر المعرة اليوم يشاهد قبراً لابي العلاء فيه فخامة). وان الأمر لمؤسف حقاً. وقد تذكرت هذه الحالة مرات لما زرت قبور عظماء الأمم الأخرى. فرأيتهم قد جعلوا قبر الواحد منهم ومثواه مكاناً يعبر عن حياته. فثمة متحف صغير يحوي آثاره أو مكتبة تحوي نسخاً مختلفة من الكتب التي ألفها أو غير ذلك من آثاره في حياته.

خرجت من قبر أبي العلاء ناقماً ساخطاً، وقضيت ساعات في المعرة بعد ذلك وأنا ناقم ساخط، وتناولنا بعض الطعام في شبه مطعم أبى الا أن يبذ قبر المعري في نوره ونظافته، حتى انه لولا جوع شديد لما جلس المرء فيه ولا اكل.

وكنت أفكر بالمعري، لما عدنا الى السيارة لنستأنف السير الى حماة. وجلسنا فيها، وعادت الى شنشنتها، تسير حيناً وتقف حيناً وتصرخ مرة وتعوي مرة. وكان الجهد والسخط قد نالا مني، فلم ألبث أن أخذتني سنة من النوم، نقلتني من عالم القيود الى عالم الحرية، ومن دنيا الواقع الى دنيا الاحلام؛ فرأيت رجلاً شيخاً صغير الجسم قاعداً على سجادة لبد، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم. وانه ليتحدث الى الناس فيعلمهم اللغة وآدابها. فاذا انصرفوا من عنده، وانفضوا من حوله، انصرف هو الى عدسه وتينه، يأكل منهما ما تيسر له، وعاد الى كتبه

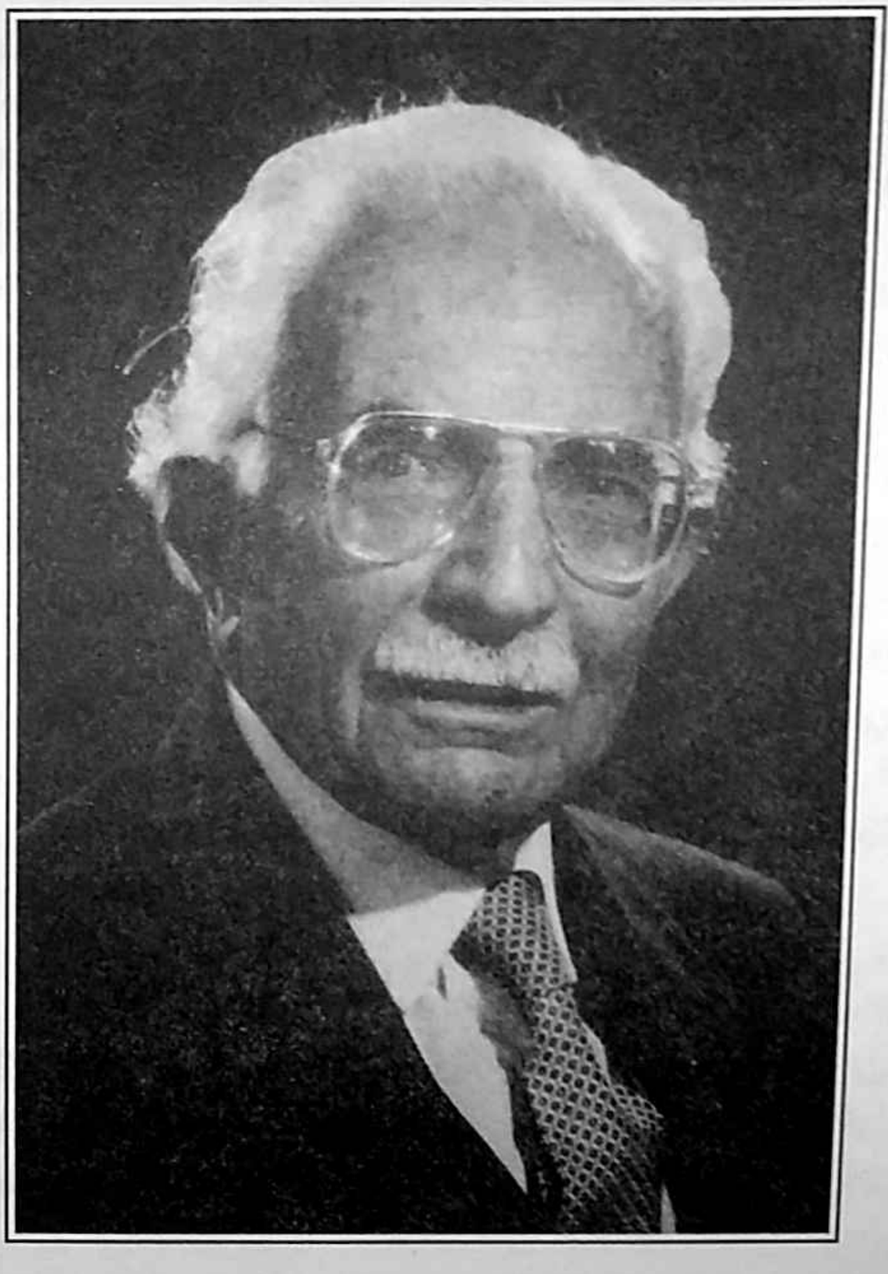

بيروت

نيسان / ابريل ١٩٩١

مرغريت

بيروت

سنة ١٩٧٠

ضابط بريطاني مع اثنين من وجهاء عكا ١٩١٨
(المرجح انهما عبد الفتاح السعدي والشيخ عبدالله الجزار)

لذكرى اعلان الدستور (ثانية)
٢٤ تموز / يوليو ١٩٠٨
(١١ تموز شرقي)

الجنرال اللنبي يحيي الفيلد مارشال بلومر في القدس

فئة من فرقة بلاك ووتش (الحرس الأسود) الانكليزية
بيروت ١٩١٨

مرغريت شهوان
(زيادة)
سنة ١٩٣٧

مرغريت مع افراد أسرتها
عيد الميلاد ١٩٢٤
الصف الاول من اليمين الوالدة، الوالد، الأخ أوجين
الصف الثاني مرغريت، اميل، جوزيف

مدرسة شميت (الالمانية) في القدس ١٩٣٥-١٩٣٦
الأخت مارينا (الرئيسة) في الوسط والأخت ايليا المسؤولة عن الدروس العربية
السهم يشير الى مرغريت (في آخر سنة لها في المدرسة)

في رحلة نهرية في ضواحي كمبردج (انكلترا) في ٩ أيار / مايو ١٩٤٨
من اليمين: وصفي حجاب، محمد الشوا، مرغريت، (؟)، سمير الشهابي (رئيس الأمم المتحدة ١٩٩١ـ ١٩٩٢)، (؟)، نقولا زيادة يحمل ابنه رائد، الأميرة دينا عبد الحميد، ميخائيل حداد. الجالس أسعد نصر.

مرغريت تحمل رائد في مدخل منزلنا في القدس
تموز / يوليو ١٩٤٦

الكلية العربية في القدس سنة ١٩٤٣ الاساتذة من اليمين جورج خميس، جمال بدران، محمد عبدالسلام البرغوثي، عبدالرحمن بشناق، أحمد سامح الخالدي (المدير)، اسحق موسى الحسيني، محمد هادي الحاج مير، (؟)، جميل علي، نقولا زيادة، فخري الخطيب (ضابط الكلية).

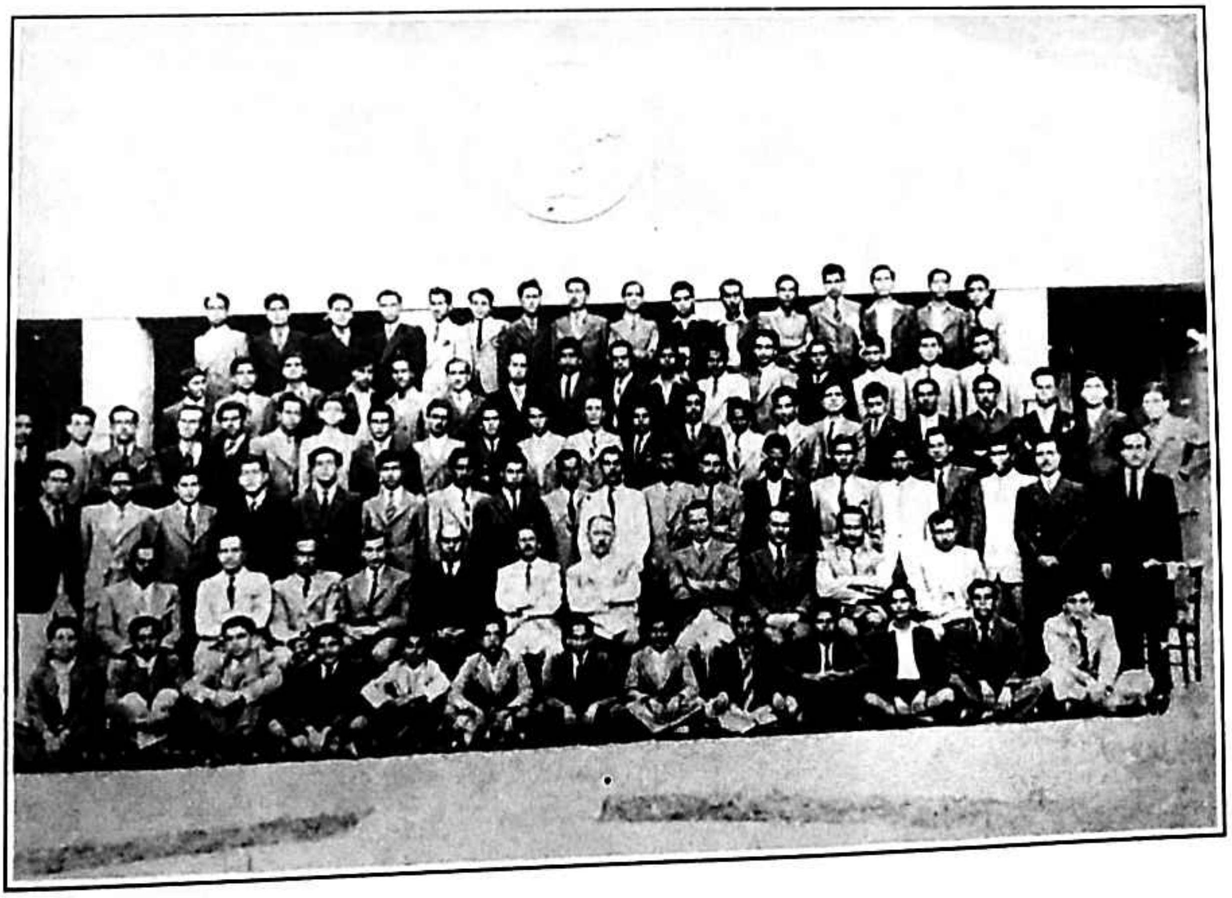

مؤتمر رابطة الطلاب العرب في لفربول نيسان / ابريل ١٩٤٨

الصف الأول: من اليمين: ؟، وصفي حجاب، نقولا زيادة، مرغريت، سالم خميس، ؟. الصف الثاني: أسعد نصر، اسماعيل الناظر، موسى بشوتي، جورج حنانيا، ؟، ؟. الصف الثالث: ؟، ؟، ؟، محمد خليل، ؟.

ليلة رأس السنة ١٩٤٨ـ١٩٤٩ في كمبردج (انكلترا)

الصف الأول جلوس ـ أقصى اليسار أسعد نصر، الصف الثاني نقولا ومرغريت، الصف الثالث من اليسار ـ رحمة الله، سمير الشهابي، ؟، ؟، ؟، سيمون سكسك، ؟، ؟.

أول مؤتمر للدراسات العربية (الجامعة الاميركية في بيروت) ١٩٥١
من اليمين زيادة، ؟، الشيخ محمد بهجة الاثري، وزير التربية ادوار نون، أحمد زكي (بك)، نبيه امين فارس

MENU

DINER

Potage creme · Tapioca

Brochettes de poisson sauce Naturelle

Phinekian l' Espagnole

Poulet rôti.

Pommes deterre frites.

Charlotte savoyarde

Fruits

19 Avril 1949 S.S. Ionia ١٩٤٩/٤/١٩

Ἑλληνικαὶ Μεσογειακαὶ Γραμμαὶ A.E.
The Hellenic Mediterranean Lines Co.Ltd.

على ظهر الباخرة «أيونيا»، تظهر على الورقة تواقيع مرغريت زيادة وكامل حمارنة ونقولا زيادة

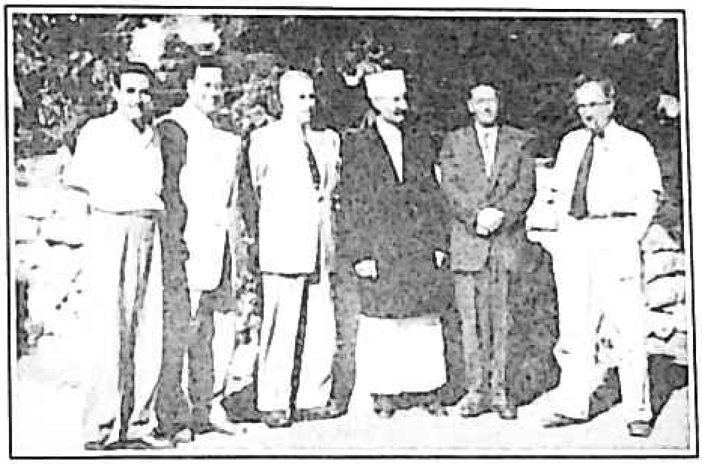

في منزل الشيخ نسيب مكارم في عيتات ١٩٥٠
من اليمين زيادة، اسحق موسى الحسيني، الشيخ نسيب مكارم، جبرائيل جبور، ؟، سامي نسيب مكارم.

جلالة الملك حسين عاهل الأردن يستمع الى كلمة ترحيب يلقيها نقولا زيادة
فندق السان جورج / بيروت ١٩٥٢

في تدمر ١٩٥٣
من اليمين: مرغريت، نقولا، محمد توفيق حسين، عبدالكريم غرايبه.

مرغريت تتوسط مارون عبود ونقولا (الى يمينها)
وابراهيم العريض ومحمد توفيق حسين (الى يسارها) ١٩٥٤

مؤتمر الدراسات العربية (الجامعة الاميركية في بيروت) ١٩٥٤
من اليمين: جبرائيل جبور، ميخائيل نعيمة، نقولا زيادة، محمود تيمور، ابراهيم العريض

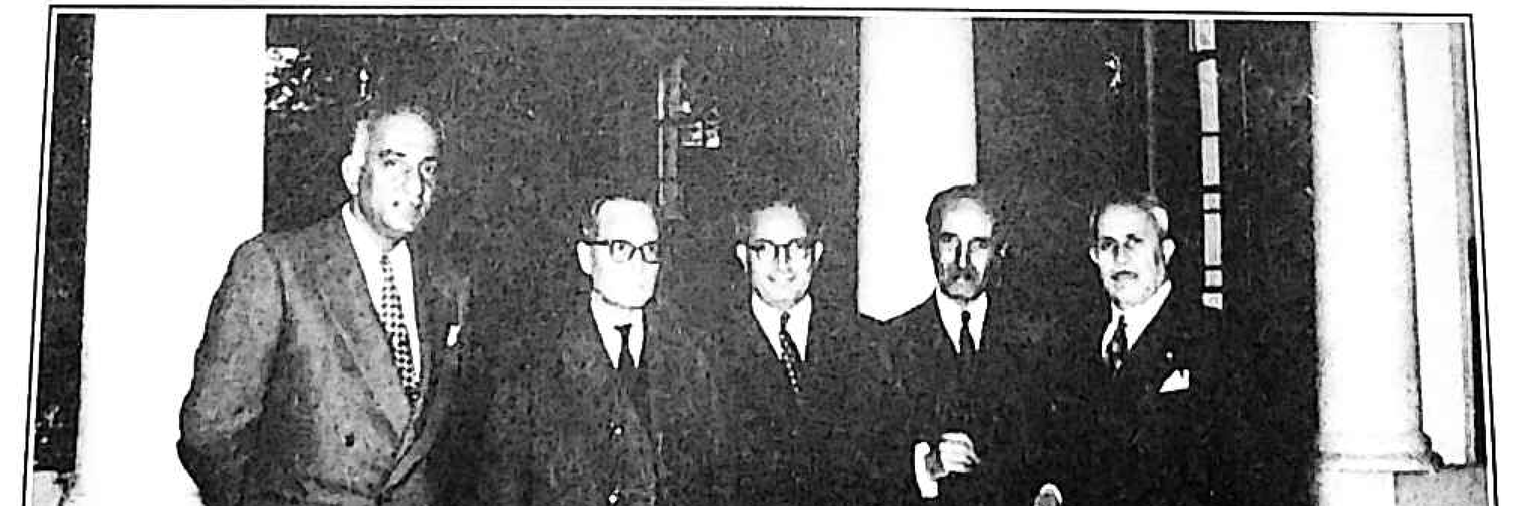

١٩٥٨

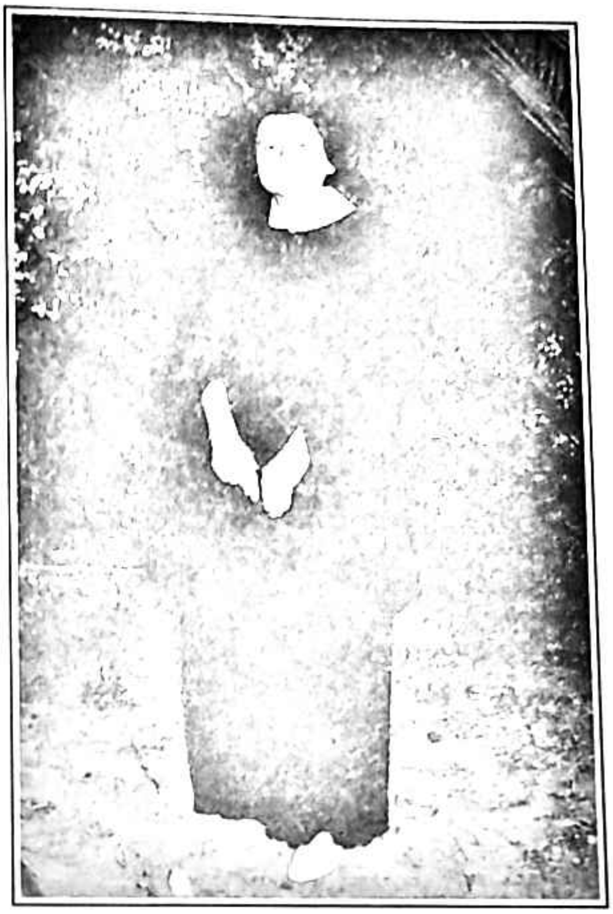

في الروب الجامعي اثر تخرجها من كلية بيروت للبنات ١٩٥٦

الأسرة بكاملها
بيروت ١٩٥٧

بيروت ١٩٥٧

حديث مع صاحب الجلالة الملك حسين في عمان
١٩٥٤

مؤتمر الدراسات العربية (الجامعة الاميركية في بيروت) ١٩٥٥
المتكلمون فيه: كامل عياد، فؤاد افرام البستاني، نقولا زيادة، طه حسين.
الصف الأول من اليمين: نبيه امين فارس، نقولا زيادة، قسطنطين زريق، فؤاد افرام البستاني، طه حسين، فؤاد صروف، فريد حنانيا، جبرائيل جبور، كامل عياد.

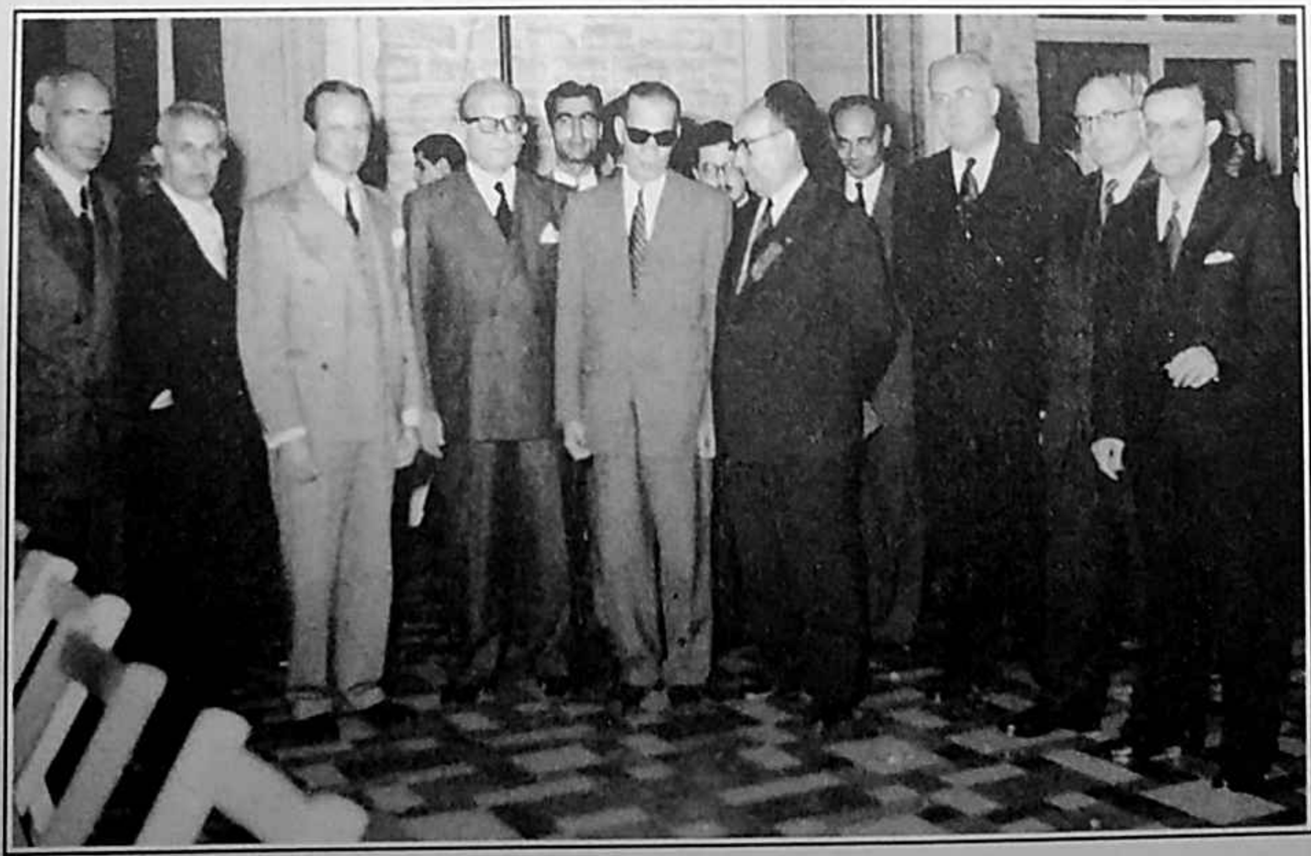

مؤتمر: أمم قديمة ودول حديثة رودس تشرين الأول / اكتوبر ١٩٥٨
من اليمين: البرت حوراني، بشارة غريب، ؟، زيادة، جمال محمد أحمد (سفير السودان في لبنان والعراق والأردن وتركية) سيسل حوراني، ؟.

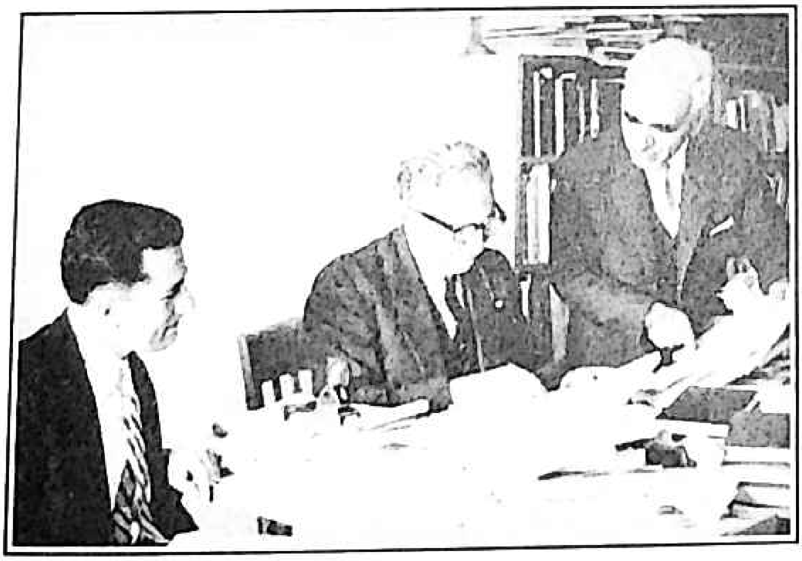

في مكتبه في الكولدج هول (الجامعة الاميركية في بيروت)
مع زين زين الى اليسار وكمال صليبي الى اليمين
١٩٥٨

مع الدكتور حليم ابو عز الدين سفير لبنان في الهند الى يمينه والاستاذ رحمة الله سفير السودان في الهند
نيودلهي كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٨

من اليسار مرغريت، علوية الحسيني، املي نصرالله، ادفيك شيبوب في مؤتمر الدراسات العربية في الجامعة الاميركية (١٩٥٤)

من اليسار: مرغريت، نقولا، هدى درهلي في الاحمدي (الكويت) ١٩٦٢

مع مجموعة من طلاب ومدرسي جامعة عليكره الاسلامية (١٩٥٨)

يقرأ له فيها، والى تفكيره وبحثه. فاذا وقع على المعنى الجيد في نفسه وصاغه شعراً أو نثراً أملاه على من كان عنده، ليكون من بعده ذخراً لنا، نحن الذين نقرأ شعر أبي العلاء فنجد فيه غذاء روحياً ومتعة فكرية ولذة نفسية.

وسمعت هذا الشيخ يردد هذين البيتين من الشعر:

أراني في الثلاثة من سجوني — فلا تسأل على الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي — وكون النفس في الجسم الخبيث

وسمعت المعري يقص على من كان حوله اخبار تنقله في طلب العلم. فما كانت المعرة على ثراها وجاهها، وعلى ما كان في بيت الرجل وآله من علم وفضل، لتكفي أبا العلاء أو تشبع ما فيه من ميل للعلم. فذهب الى طرابلس، وسافر الى اللاذقية وانتقل الى بغداد، وهذه كانت عواصم الفكر في أيام صاحبنا في القرن الثالث للهجرة والقرن التاسع للميلاد. واقام المعري في بغداد سنة وبعض السنة ثم رحل عنها إذ أنه لقي بعض الشر من أصحاب النفوذ فيها. وكان سبب الخصومة بينهم وبينه تعصبه للمتنبي ونقمتهم عليه. واشتد شوقه الى أمه وهو ببغداد، وشعر بفقره، فودع بغداد وأهلها ورحل رغم ان أهل بغداد حاولوا ان يثنوه عن عزمه، وحاولوا ان يغروه بالبقاء لما عرفوا من علمه وأدبه.

وكأني سمعت المعري يذكر شوقه الى بلده فيقول:

وكم هم نضو أن يطير مع الصبا — الى الشام، لولا حبسه بعقال
فيا برق ليس الكرخ داري وانما — رماني الدهر منذ ليالي
فهل فيك من ماء المعرة قطرة — تغيث بها ظمآن ليس بسال

هذا وماء المعرة ماء آبار، وماء بغداد ماء دجلة العذب.

وصان المعري في بغداد ماء وجهه، فأشار الى ذلك في تشوّقه الى الشام فقال:

أنبئكم اني على العهد سالم — ووجهي لما يبتذل بسؤال
وأني تيممت العراق لغير ما — تيممه غيلان عند بلال
فأصبحت محسوداً بفضلي وحده — على بعد أنصاري وقلة مالي

ثم يروي هذا الشيخ الصغير الجالس على اللبد أبياتاً أخرى يخاطب فيها أهل وطنه:

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة — تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أني بالعراق على شفا — رزي الأماني لا أنيس ولا مال
وماء بلادي كان أنجع مشرباً — ولو ان ماء الكرخ صهباء جريال
فيا وطني إن فاتني بك سابق — من الدهر فلينعم لساكنك البال

لكن موجة من الأسى تمر بذلك الوجه الحزين، إذ يروي لي، وقد خلت انه يروي لي وحدي، ان الشوق الى بغداد عاوده فقال:

يا لهف نفسي على أني رجعت الى — هذي البلاد ولم أهلك ببغدادا
اذا رأيت اموراً لا توافقني — قلت الإياب الى الأوطان أدّى ذا

ولما ودّع أهل بغداد قال لمودعيه:

أودّعكم يا أهل بغـداد، والحشـا ... على زفـرات مـا ينين من اللذع
وداع ضني لم يسـتـقل وإنما ... تحامل من بعد العثار على ضلع
الا زودوني شـربة ولو انني ... قدرت، إذا أفنيت دجلة بالجرع
أظن الليالي وهي خـون غـوادر ... بردي الى بغـداد، ضيقة الذرع
وكـان اختياري أن أموت لديكم ... حميداً، فما ألفيت ذلك في الوسع

سمعت هذا كله من ابي العلاء، فقلت في نفسي هذا: هو المعري يرى في كل بلد وطناً له، فاذا أوذي في نفسه ونقم مرة، فانما النقمة هذه امر يسير لا يلبث ان يذهب ويبقى هذا الشعور العام لوطنه، وهذا الوعي القومي نحو جماعته.

وتلفت حولي فرأيت في زاوية الغرفة التي كنت فيها رجلاً كله آذان، يسمع ما يقال ويلتهمه، فاقتربت منه وسألته اذا كان هذا الرجل الذي يسمي نفسه رهين المحبسين، قد نجح في اعتزال الناس وانصرافه عنهم. فقال الرجل، وهو يهمس همساً خفيفاً كأنه يخشى أن يسمعه المعري فيغضب: «لا يا أخي. وكيف يستطيع من له شعره ونثره، ومن له درايته وخبرته، ان يعتزل الناس، وهل يتركه الناس لو تركهم؟ وكيف يجوز لهم ان يتركوه؟ أليس من حقهم ان يفيدوا من علمه، وأن يرووا شعره وان يتعلموا نثره؟ أليس من واجبه ان يعلم أولادهم وشبابهم؟ ان أبا العلاء حملته على العزلة رقة في حسه، ولكن هذه الرقة والشعور بواجبه حملاه على أن يفعل هذا الذي ترى. فنحن في كل يوم لنا منه مدرسة لطلاب العلم ومدرسة لطلاب اللذة العقلية. فهو ينبوع فياض نغترف منه ولكننا لا نستطيع ان نفنيه. انه لنا دجلتنا، كما ان لبغداد دجلة».

وصمت محدثي قليلاً، لكنه عاد يقص عليّ قصة جرت للمعرة وكان ابو العلاء مشاركاً فيها. قال جاءت امرأة اسمها جامع يوم الجمعة الى مسجد المعرة فشكت الى الناس أن أناساً تعرّضوا لها وأرادوها بمكروه، فانتصر الناس لها، وهدموا البيت، وأتلفوا ما فيه، فقال ابو العلاء في ذلك من قصيدة طويلة:

أتت جامع يوم العروبة جامعاً ... تقص على الشهاد بالمصر أمرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها ... لخلت سماء الله تمطر جمرها
فهدّوا بناء كان يؤوي فناؤه ... فواجر ألقت للفواحش خمرها

لكن صالح بن مرداس صاحب حلب سخط على أهل المعرة ونقم عليهم. فجاء المعرة وخيم بظاهرها سنة ٤١٧ هـ، واعتقل من اعيانها سبعين رجلاً. ففزع أهل المعرة الى أبي العلاء وسألوه تلافي الأمر. فخرج هذا الشيخ القصير الذي ترى الى صالح، فلما مثل بين يديه سلم عليه وقال: «الامير أطال الله بقاءه كالنهار المائع، قاظ وسطه وطاب إبراده، أو كالسيف القاطع لأن متنه وخشن حداه (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)». فقال صالح «لا تثريب عليكم اليوم. قد وهبت لك المعرة وأهلها». وقوض خيامه ورحل. فقال ابو العلاء:

نجى المعـرة من براثن صالح ... رب يفـرج كل امـر معضل
ما كـان لي فيها جناح بعوضة ... الله ألحـفـهم جناح تفضل

وصمت محدثي لحظة ثم قال: هذا المعري الذي يكره السياسة العامة، والذي رفض دعوات الحكام والأمراء،

لم يتخلف عن ان يكون شفيعاً الى صالح لما دعاه قومه وأهله. وقد اشار فيما بعد الى هذه الشفاعة في شعره فقال:

فلما مضى العمر الا الأقل	وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح	وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام	واسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفاق	فكم نفقت محنة ما كسد

واحسست كان الأرض قد زلزلت بي، ورأيتني كانني رفعت من مكاني وقذف بي من حالق، فصحوت وأخذت أتحسس نفسي، فإذا بالسيارة قد وقفت احدى وقفاتها بعد ان صدمت حجارة اعترضتها بالطريق، واذا بالسائق يصخب ويلعن. فالتفت اليّ صاحبي، صاحب الرحلة، وقال أين كنت يا هذا، فقد عودتني أن تفتح عينيك لترى ما حولك، فاخبرته انني كنت مع ابي العلاء فقال ومن أجل ذلك كنت تردد:

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب	فأين القبور من عهد عاد
سر إن استطعت في الهواء رويداً	لا اختيالا على رفات العباد

فابتسمت وسألت أين نحن فقال: انظر الى يمينك وأمامك تعرف أين أنت، فنظرت حيث أشار فرأيت شيزر على يميني، وحماة تنبسط أمامي. فقلت لصاحبي، هناك ولد أسامة بن منقذ، وهنا يرقد ياقوت وابو الفداء.

وهكذا في يوم واحد مررنا بلاداً غنية بالذكرى، غنية بالعظمة الخالدة وانما تحتاج الى من يتذكر فيعيد بعض هذه العظمة. وأي شيء أحق بالذكرى من سيف الدولة والمتنبي والمعري وابن منقذ وابي الفداء؟

حماة الى زحلة

لما وصلت بنا السيارة الى حماة، وهبطنا منها، وصرنا في البلد، استأثر بي شيئان اثنان فيها: العاصي والنواعير. الى ذلك الوقت لم اكن قد رأيت نهراً حقيقياً. رأيت الأردن في الشتاء وكان شبه ملآن، لأن الأردن كان يمتلىء في الربيع. ورأيت مجاري مياه نسمي واحدها نهراً وهي لا تزيد عن ساقية. مثل النعامين (جنوبي عكا) والعوجا قرب يافا. لكن العاصي كان نهراً. عرفت فيما بعد (أو فيما قبل) انه ينبع من لبنان، وانه يعصي أصول سير الانهار فيتجه من الجنوب الى الشمال ولذلك سموه العاصي (كان هذا على ما يبدو قبل ان يعرفوا ان النيل، وهو نهر كبير، يتجه من الجنوب الى الشمال). ويبلغ النهر عند حماة أشده لذلك فانه يبهر شخصاً أمياً في الانهار مثلي.

أما النواعير، وهي هذه الدواليب الخشبية الضخمة التي تلصق بها اكواب ضخمة، فتدور الدواليب فاذا حطت بالماء امتلأت الاكواب، وعندما يصل الدولاب الى أعلى نقطة تنقلب الأكواب وتفرغ ماءها في قناة تحمله الى الأرض العطشى.

هذه وظيفة الناعورة. لكن الناعورة تغني: الغناء هو الصوت الذي يخرج من دوران الناعورة حول الجسر الخشبي، وعندها يصك الخشب بالخشب، فيئن ويتألم ويتحسر، وقلما يتاح له من البطء في الدوران ما يمكنه من اطلاق صوت فرح أو سرور أو انتصار على اللصوص.

نعم العاصي ونواعير حماة. العاصي يمثل تجمع الماء الكثير وتدفقه البطيء نحو الشمال ـ نحو البحر، والناعورة تنوح على العاصي. وأي عاص تنوح عليه؟

ليلة نقضيها كما قضينا ليالي أخرى. فندق، كيف ما كان!

في حماة تعرفت، عن طريق درويش، بعبدالله المشنوق. كان لا يزال يقيم في بلده وكان يشتغل بالتعليم، شأن عدد كبير ممن تخرج من الجامعة الاميركية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. أخذت المدارس تزداد عدداً في فلسطين والعراق وسورية ولبنان والسودان. وكانت هذه المدارس بحاجة الى مدرسين. وكانت الجامعة الاميركية الوحيدة التي يمكن ان تزود هذه المناطق بالمدرسين. فالجامعة اليسوعية، بحكم ان لغة التعليم فيها كانت الفرنسية، لم تتح لها الفرص المساوية لفرص خريجي الجامعة الاميركية.

درويش وعبدالله كانا طويلين، وكانا يومها شابين، فليس ثمة كرش وجاهة ولا ترهل عضلات. ووقفت أنا بينهما اتسقط الأخبار التي كانت «تسقط علي من فوق». ودعانا المشنوق الى الغداء. ومما أذكر من الحديث ان عبدالله المشنوق قال يوجد في المدرسة طالب نبيه سيكون له شأن، واسمه أديب الشيشكلي.

كان لتعرفي على عبد الله المشنوق في حماة اثر على صداقتنا في بيروت بعد ان جاء هو اليها وتبعته انا بعد سنوات طويلة اليها. التقينا وكان يرئس تحرير مجلة أهل النفط التي كانت تصدرها شركة نفط العراق. وفيها كتبت، بتكليف من عبد الله، عدداً كبيراً من المقالات.

زرنا شوارع المدينة في صبيحة اليوم التالي وجدت كتاباً عن تاريخ حماة حملته معي وحافظت عليه الى سنة ١٩٤٨، لما كان حظه السلب كما أصاب أوراقي وكتبي وأثاث بيتنا في القدس.

وانتقلنا من حماة الى حمص بالقطار. تغيير وتبديل وتنويع. الخط بين حماة وحمص هو جزء من خط دمشق حماة وتمديداتها. وقد بدأت اصلاً لما مدت سكة الحديد من بيروت الى دمشق. ثم مدت وصلات من رياق الى حمص وحماة وحلب أخيراً.

الطريق من حماة الى حمص اجتاز سهلاً تتخلله هضاب. الصيف في هذه المناطق حار، وقد تكون الأرض فيه خالية من الخضار أو الأشجار. ولكن الذي أذكره هو ان المنطقة كانت تسيطر عليها روح الأسى، كأنها قد خابت أملاً في ما رجته من موسم صيفي جيد. وهذه المنطقة كانت تصل الى أجزاء منها مياه العاصي أو مياه ينابيع عبر قنوات كان طولها يبلغ الخمسة عشرة كيلومتراً. لكن هذه القنوات أهمل أمرها.

في حمص زرنا جامع خالد بن الوليد. خالد بن الوليد بطل الردة واليرموك وبطل أمّر الرجل نفسه. وحكاية هذه ان عمر بن الخطاب عزل خالد بن الوليد عن القيادة، فقال خالد قولته التي ذهبت حكمة ومثلاً «لا أحارب من أجل عمر». وسار الرجل يحارب جندياً من الجنود. وكانت فرقة تقاتل في جهات حلب وعليها أمير، فان هلك فآخر، وتعقدت الأمور، وهلك الاثنان. فتقدم عندها خالد ونظم أمر الانسحاب دون ان يفقد جندياً واحداً. ولما بلغ عمر بن الخطاب هذا الخبر قال «لقد أمر الرجل نفسه».

وهذا الرجل البطل الصنديد مات، كما وصف هو نفسه وهو على فراش الموت، موت الجبناء. لا، مات موتاً طبيعياً، لانه لم يمت في المعركة. لكنه انتصر في معارك كثيرة.

وتحدثنا يومها عن خالد. أين مات؟ هل أنجب ذكوراً؟ ومثل هذه الأسئلة كثير. وقد سألها المؤرخون القدامى فأجابوا عنها كما يريدون، متأثرين بالرواية المغرضة ايجاباً أو سلباً. ولكن الباحثين المحدثين لم يكونوا أفضل حظاً. فهم قد يكونون قديرين على رفض بعض الروايات والأخبار، لكن هذا لا يعني اقامة بناء صحيح للموضوع. اذ انه يحدث عندما ترفض الروايات والأخبار على أسس منطقية، فقد لا يبقى شيء آخر تبني عليه شيئاً أو تفسر به أمراً. وعندها قد يندم الباحث الحديث على هذا الذي اقترفه، وقد يفكر بالعودة الى ما هدم ليبنيه ثانية. لكن ضميره العلمي واسلوب بحثه اللذين أوصلاه الى هذه النتيجة لا يسمحان له باغفالها أو اهمالها. وهكذا بين الرواية اللطيفة والاسلوب الصارم، نفقد المتعة واللذة. انا لا ادعو الى اهمال البحث والاكتفاء بالرواية. لكنني أخشى على الناس ان فقدوا رومانسية القصة، ولم يقيموا بناء على أساس البحث والمنطق، ان يخسروا

عنصراً من عناصر حياتهم السيكولوجية، دون ان يعرفوا ما الذي فقدوه.

وما دمنا نتحدث عن هذه الأمور حديثاً لا يسمن ولا يغني من جوع، الا انه يثير الشكوك، فانني أود أن أذكر ان الوقفة التالية (وكانت السفرة بالقطار) كانت في بعلبك. وكانت اقامتنا في فندق صغير على مقربة من فندق بلميرا.

والحديث عن بعلبك يختلف عن الحديث عن حمص. فهنا روايات واخبار، وفي بعلبك ابنية وآثار. صحيح ان هذه الآثار كانت مغطاة بالكثير من الأتربة، كما ان الأعمدة المتبقية كانت قد وقعت وغطيت ببقايا الأبنية المتداعية. الا ان بعثة المانية ارسلت الى بعلبك حوالي سنة ١٩٠٠ للعمل على كشف كنوز المكان. ذلك ان غليوم، امبراطور المانية، زار بلاد الشام سنة ١٨٩٨، ومر ببعلبك، وأسف لانها مطمورة فارسل هذه البعثة، طبعاً بإذن من السلطان عبدالحميد الثاني، وهي التي عملت على ازالة الكثير مما كان يغطي الآثار المهمة، وهي التي رفعت الأعمدة القائمة الآن في هيكل جوبتر.

هذا هو الذي شاهدناه في بعلبك يومها. أما ما يراه الزائر اليوم فهو نتيجة عمل مستمر هادىء تم خلال العقود الماضية.

لما زرنا بعلبك كانت تقوم بلاطة رخام بيضاء في هيكل باخوس فيها اشارة الى زيارة غليوم للمكان والى عمل البعثة الالمانية. الا انها كانت قد كسّرت، ولكن بعض أجزائها كان لا يزال قائماً. وذكرني هذا التكسير الذي تم على أيدي الفرنسيين بعد استقرارهم بلبنان بتكسير البلاطة الرخامية التي وضعت على قمة جبل الشيخ، بقرب «قصر عنتر»، لذكرى زيارة فيصل للمكان سنة ١٩٢٠. وهكذا بلغ الأمر بالفرنسيين ان يحطموا اثرين لا لسبب الا لأنهما يذكران بخصوم لهم واعداء.

سكان بعلبك يسمون هذا المكان الاثري المعقد «قلعة بعلبك»؛ والمكان في حقيقته وأصله هيكل للعبادة، وقد اضيف الى الهيكل الكنعاني (الفينيقي) الأول هياكل كثيرة كان اكبرها وأجملها هيكلي جوبيتر وباخوس. وباخوس لا يمكن ان يكرم في بقعة ألطف من هذه، فالمنطقة التي تحيط ببعلبك، والتي تمتد الى زحلة وشتورا جنوباً، كما تمتد شرقاً وشمالاً وغرباً، هي منطقة الكرم الكبيرة. ولا يمكن ان يكرم باخوس بافضل من ذلك.

لكن لما احتل العرب لبنان، ولما كانت بعلبك في أيام بني ايوب مركزاً مهماً للدفاع عن الطريق الأوسط في المنطقة، وهو الطريق الشمالي الجنوبي، أقيمت في تلك البقعة قلعة أفيد في بنائها من الموقع المرتفع الحصين، القريب من الماء الغزير، ومن بعض الحجارة الضخمة. ومن ذلك الوقت غلبت على بعلبك صفة القلعة.

ومما أعجبني في بعلبك يومها شجر الجوز الكبير الضخم الكثير. وقد أذكرني ذلك باليوم الذي سرنا فيه من صنين الى العاقورة. ان اصحاب الفندق عند نبع صنين زودونا بالكمية الوافية من الزوادة. لكن هذه استهلكت قبل الوصول الى المنيترة (قرب خربة أفقة). وكان رجل لقيناه مصادفة بالقطار بين بيروت وصوفر اعطانا اسمين لرجلين يمكن ان يستضيفانا عند الحاجة. الشيخ ج. ج. في المنيترة والشيخ فريد العماد في العاقورة. لذلك اطمأننا الى اننا سندعى الى لقمة غداء في المنيترة. لكن، مع اننا وصلنا الظهر، فان كوبا من الماء لم يعرض علينا الا بعد ان طلبناه وجاء ليموناده؛ واستأذنا دون ان تصدر من الشيخ كلمة واحدة تتعلق بالأكل. لذلك لما أجزنا قريته ووصلنا الى وادي الجوز، أخذنا نرمي بالحجارة لعلنا نحصل على حبات جوز تسد بعض الجوع. ثم ادركنا ان الجهد اكبر من الفائدة، فتركنا.

ولما وصلنا العاقورة، وكانت الشمس قد اختفت خلف الجبال، خشينا ان يصيبنا هنا ما أصابنا هناك؛ وترددنا في الذهاب الى بيت الشيخ العمادي. لكن الضيافة التي لقيناها في بيت الشيخ فريد انستنا ما مر بنا في ذلك النهار. من هنا كان من حقي ان اتذكر في بعلبك جوزات وادي الجوز بين المنيترة والعاقورة.

وفي بعلبك تشم رائحة النقاء، في الهواء وفي الماء، وفي اللحم الذي تأكله وفي الخبز الذي تغمس به طعامك. وفي الصفيحة البعلبكية. وبعد ان تملأ عينيك ونفسك وتستريح تتم الانتقال من بعلبك بالقطار الى زحلة، عروس البقاع. هذا صحيح من حيث انها العروس الكبرى، لكن البقاع فيه كثير من العرائس الصغيرة.

في زحلة تغدينا في وادي العرايش أو وادي البردوني. وهذه التسمية هي الأصلية لاسم النبع والنهر؛ لكن وادي العرايش كان تسمية الواقع. فالمقاهي التي كانت تقوم على جوانب الوادي كانت مسقوفة بالقصب وما يشبهه من الأغصان والأوراق. والناس يجلسون على الموائد ليأكلوا الكبة الزحلاوية المدقوقة بالجرن، والفروج المشوي على الفحم. وقبل ان يصلوا الى هذين فهناك كاس العرق الزحلاوي وما يتبعه من مازة وكان من تمام السرور الاركيلة. نحن اكتفينا بالأكل لاننا لم نكن نشرب يومها. هذا ما كان يقدمه وادي العرائش لزواره، وهذا هو الوادي الذي اشار اليه شوقي لما قال مخاطباً زحلة.

يا جــارة الوادي طربت وعـــادني ــــا يشـبـــه الاحـــلام من ذكـــراك

جزنا البقاع في الثلث الأول من شهر ايلول / سبتمبر، وأنا لأول مرة أرى، وأنا واقف على تلة قرب زحلة، منظراً طبيعياً فيه هذا الجمال الأخاذ. أذكر انني دونت ليلتها (لما وصلنا دمشق) بضعة سطور أصف بها شعوري، لكن الكلمات التي كتبتها وقتها لا أذكرها، والدفتر ضاع في القدس سنة ١٩٤٨. الا انني لا أنسى الانطباع. سهل ينبسط امامي وفيه قطع من الأرض تمثل الوان الطبيعة كلها. من اخضرها حيث الخضار والاشجار تنمو الى أحمرها حيث أعدت الأرض للزرع الى مزيج من الأخضر والأحمر حيث توجد الكروم. وهناك الأرض الصفراء التي يغطيها التبن الذي تبقى في الأرض بعد الحصاد. وبين هذه الألوان الأصلية الوان تختلط على الرائي لأنها بين بين.

وركبنا القطار الى دمشق. وصلناها مساءً، وذهبنا الى فندق متواضع، القينا اليه باغراضنا القليلة وهمنا الكبير. فقد نفذ المال. وأملنا الوحيد، الذي جاء من جهة درويش، هو ان نجد أحمد شاكر الكرمي، الأديب الشاب، في دمشق. فهو يحل مشكلتنا.

وقد وجدناه في صبيحة اليوم التالي. فحل مشكلتنا، وكان سبيلنا الى دمشق الأدبية العالمة. فأحمد شاكر الكرمي هو ابن الشيخ سعيد الكرمي العالم المعروف والذي تولى منصب قاضي قضاة شرقي الأردن. ولأحمد شاكر اخوة هم محمود وعبد الكريم (ابو سلمى) وحسن، وكل منهم له في مجال الفكر جولات. فاحمد شاكر ومحمود كانا أديبين وعبدالكريم (ابو سلمى) شاعر كبير وحسن عالم في اللغة العربية وقاموسي معروف. وله من القواميس ـ المنار والمغني (الاثنان انكليزي عربي).

ذكريات شامية

وأخيراً عدت الى زيارة دمشق.

عدت لأستعيد ذكرى طفولة عذبة قضيتها في ربوع هذه المدينة، ثم انقطعت عنها سنوات طويلة. تركتها وقد لعبت مع صبيتها وتسكعت في أزقتها وركضت في متنزهاتها؛ وعدت اليها لأستعيد تلك الذكرى فأستمتع منها بساعات عذاب؛ وعدت اليها كذلك شاباً ملء بردي رغبة في استطلاع معالمها واستنطاق آثارها واستقصاء انبائها. عدت وكلي شوق الى ذلك، فبلت دمشق شوقي وأطفأت حر ظمأي وأشبعت بعض نهمي. فهذه الحارات التي لعبت فيها وهذه الأزقة التي قضيت فيها ساعات بدون قصد أو غاية وهذه، الى جانب تلك، معالم التاريخ تنادي بأعلى صوتها مشيرة الى الدور الذي مثلته دمشق على مسرح التاريخ الانساني، فرددت قول شوقي:

وذكـــــرى عن خــــــواطرها لقلبي الـيـك تـلـفـت أبـداً وخــــــــــــفـق

وكيف لا يخفق القلب عند ذكر دمشق!

هذه دمشق تعود الى العصور المتوغلة في القدم، مدلة بأنها أعتق مدينة على وجه البسيطة، استمرت فيها الحياة منذ انشائها حتى اليوم! هذه دمشق تنظر الى سورية الوسطى والجنوبية مدلة بفضلها، ذاكرة دورها في الدفاع عن اخواتها من مدن تلك الجهات وقراها، فان انكر عليها منكر ذلك ذكرته بأنها منذ القرن الحادي عشر الى القرن الثامن قبل الميلاد كانت دمشق تصد عن بلادنا عادية الأشوريين، يوم ان كانت أرامية سامية تنقل المتاجر شرقاً وغرباً، بين البحر الرملي الصحراوي والبحر المتوسط. فاذا عدا عليها أو على جوارها عاد تركت الميزان وحملت السيف، ورمت الحمل وتنكبت القوس، وأغلقت السوق وفتحت الحصن. فلا تلبث ان ترد العادية وتبعد المصيبة وتقصي النكبة، فإذا الناس في سلام وأمن وأطمئنان، فيعود السيف الى غمده والقوس الى مأواها والحصن الى اغلاق ابوابه، ويعود الميزان والسوق والحمل الى العمل. لكن دمشق هذه لما تألب عليها خصومها الأقوياء واستعانوا عليها بالسذج من اعوانها، واستمالوا اليهم الخائنين من انصارها، عجزت عن المقاومة وقتاً، فاحتلت ودكت اسوارها وهدمت حصونها وعطلت اسواقها. وكان سقوطها سقوط الجوار كله، مدناً وقرى، اسواقاً ومزارع، مصانع وبساتين. ولما انتبه السذج والخونة الى ما حاق بهم ندموا ولات ساعة مندم.

وجاء الاسكندر الكبير، ثم توالى على البلاد خلفاؤه وبعدهم الرومان. وكل من كان له شأن في هذه الجهات أدرك الأثر الذي يمكن دمشق ان تؤثره في الناس والبلاد. فليس من السهل على بلد يشرف على طريق الداخل الى الساحل، وتجتمع فيه تجارة العرب من الحجاز الى نجد الى العراق، ويتوسط مركز الاتصال بحمص وحماة وفلسطين وبيروت - ليس من السهل على بلد هذا شأنه ان يهمل. وإمّا اهمل فانه قائم وفارض ارادته على أصحاب الأمر. وهذا ما حدث مراراً في تاريخ دمشق. تحطم وترغم على الاخلاد الى السكينة، ولكن لا يطول بها الزمن. فنشاط أهلها، ونشاط البلدة الموقع ونشاط الزمن، كل اولئك يحفزها الى القيام فتقوم وتفوز بما تريد.

وهكذا فازت دمشق بما تريد أيام كان الرومان يعنون بهذه البلاد.

ثم جاء دمشق من عرف قيمتها قبل ان تفرض هي ارادتها عليه. جاءها معاوية بن ابي سفيان.

فقد اتخذها معاوية عاصمة للدولة الأموية، وعرفت بذلك دمشق عزا لا مثيل له. فقد كانت عاصمة لملك يمتد من الهند الى اسبانية، فكانت مقر الخليفة وامراء الدولة ورجال الحل والعقد. منها كانت تدار الولايات، وفيها كانت تعقد المشاورات، واليها كانت ترفع الشكايات، وفيها كانت تنظر الظلامات.

وبنى فيها معاوية القبة الخضراء وانشأ فيها الوليد جامع بني أمية وعقد فيها عبدالملك مجالسه. وتعربت دمشق في عهدهم فصارت العربية لغة شعرها وأدبها ولغة مجلسها وديوانها ولغة سوقها وحاراتها. ذكرت هذا كله وأنا اتنقل بين معالم المدينة الأموية فتذكرت قول شوقي:

لولا دمـــشق لما كـــانت طليطلة ... ولا زَهت ببني العـــبـــاس بغـــدان

في هذه الفترة كانت دمشق تتقدم وتنمو وتزدحم بالسكان، فتمتد شمالاً، ويعنى بتوزيع الماء على اجزائها البعيدة. ولذلك نجد نهر يزيد يشق فيها ليوصل الماء الى اجزائها ونواحيها الجديدة. وفي هذه الفترة تعود الأسواق الرومانية الى الظهور، وهي بعد أوسع نطاقاً وأحفل بالخيرات وأعمر بالمتاجر، فقيسارياتها كثيرة وأسواقها مليئة. وتستمر هذه الحركة فيها ولو انها تأخرت قليلاً، فتصل دمشق الى عزها التجاري في ايام الايوبيين والمماليك، هذا مع انها ترى سلطانها السياسي ينحسر فيقتصر على سورية الوسطى والجنوبية بعد ان كان يشمل العالم العربي من أقصاه الى أقصاه. وكأنها عوضت بتجارتها وثروتها بعض ما خسرته من عز وسلطان، فتراها تفرض صناعاتها على أهل الشرق ومتاجرها على أهل الغرب، فسيوفها ورماحها وجلودها

وحريرها يبتاعه أهل البلاد، وما فيها من الافاوية والتوابل والمنتوجات الهندية ينقل منها غرباً. كما انها استكثرت المدارس والرباطات والزوايا والمستشفيات. فكان لها في ذلك كله فضل أي فضل وشرف أي شرف! ونحن واجدون ذلك كله واضحاً فيما رواه الرحالون الذين زاروها في تلك العصور. فهذا بنيامين الاسباني، (القرن الثاني عشر) يقول «يخترق دمشق نهر أبانا الذي تحمل مياهه الى دور كبار الناس فيها، في انابيب كما تنقلها القني الى الشوارع والأسواق. وتجارتها واسعة ويقيم بها تجار من جميع الاقطار، وجامعها قلما يساويه بناء آخر في فخامته». وهذا ابن جبير يحدثنا عن المدارس والمستشفيات، فمدارسها عشرون وبها مستشفيان جرايتهما في اليوم ثلاثون ديناراً (أي نحو خمسة عشر ديناراً حديثاً). والأطباء يبكرون كل يوم فيتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلح من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل منهم. والمدرسة التي لفتت نظر ابن جبير هي المدرسة النورية التي أنشأها نور الدين.

اما تجارة دمشق وقيمتها الاقتصادية في تلك العصور، فقد رسم لها الرحالون صوراً كثيرة لعل من أوضحها تلك الصورة التي خلفها لنا فون سوخم (في القرن الرابع عشر)، فقد قال عنها «دمشق عظيمة فخمة جميلة وغنية بكل انواع المتاجر، وفي كل ناحية منها شيء مبهج. فالطعام فيها كثير وكذلك التوابل والحجارة الكريمة والحرير واللآليء والأقمشة المقصبة والطيوب من الهند وبلاد التتار ومصر وسورية وأوروبة، وكل ما يشتهيه المرء يجده فيها. وهي كثيرة السكان الى حد لا يصدق.

«وتقوم صناعاتها المختلفة كل في حي خاص بها. وكل صانع يتخذ أمام بيته مكاناً يعرض فيه مصنوعاته عرضاً يلفت النظر ويغري بالشراء. وكذلك يصنع التجار بسلعهم. وكل ما يصنع بدمشق متقن، والتجار الأغنياء يحتفظون بالطيور في اقفاص امام بيوتهم. مع ان المدينة مزدحمة بالسكان، ومع ان البضائع تترك في الشوارع دون حراسة، فليس ثمة من يذكرا ن احداً قتل في دمشق. وقلما تسرق فيها السلع المعروضة للبيع».

ولعل من أروع الأبنية التي ترجع الى هذا العهد في دمشق قلعتها. فهي على شكل مستطيل فسيح طوله ٢٢٠ متراً وعرضه ١٦٠ متراً، لها مدخلان كبيران ويدور بها ثلاثة عشر برجاً. والقلعة على شكلها الحالي ترجع الى سنة ١٢٠٦ ميلادية، وإن كانت قد بنيت قبل ذلك بمدة يسيرة. وكانت القلعة في ذلك الوقت تشغلها حصون الدفاع ودار صاحب السلطان الخاصة، وفيها الإيوان الرسمي الكبير والأدارات العسكرية والمدنية وبرج الحمام يأوي اليه الحمام الزاجل وثكنات الحرس ومخازن السلاح وبيت المال ودار سك النقود والسجن. فهذه القلعة كانت مدينة داخل مدينة.

وفي أيام المماليك صارت دمشق مركزاً لسورية وفيها مقام نائب السلطنة. وعناية المماليك العسكرية بها كبيرة. وتظهر آثارهم في المنشآت العسكرية الكثيرة وفي انشاء الميادين التي تتطلبها الكثرة المطلقة من الفرسان: فميدان للسباق وميدان للعب بالكرة. وهناك سوق للخيل وللسروجيين وهكذا.

على أن دمشق شقيت بعد هذا الثراء. فقد تناوبتها احداث اقضت مضاجع أهلها حتى خيف عليها وعلى جاراتها. ففي السنة ١٤٠٠ ميلادية هاجمها تيمور التتاري وفرض عليها غرامة كبيرة ثم انتزع الفين من صناعها ومهندسيها وحملهم الى سمرقند ليبنوا له عاصمته. وفي أواخر القرن الخامس عشر بدأ تحول التجارة عن سورية ومصر الى طريق جنوب افريقية، فقلت البضائع الواردة الى دمشق وتناقص عدد البائعين والمشترين. وفي أوائل القرن السادس عشر احتل العثمانيون سورية. فكان ذلك الانتقال مؤذناً بتغير في حالها.

لكن دمشق قويت على أحداث الدهر ومصائبه. فهي لا تكاد تقع حتى تنهض. وعلى هذا فنحن نجدها في القرن السابع عشر ثم في القرن الثامن عشر تعود الى ما كانت عليه. فتمتلىء أسواقها وتعمر حوانيتها وتعمل مصانعها ويعود البائعون والمشترون من الشرق ومن الغرب فيتنافسون في سبيل بضائعها.

عدت الى دمشق، وقضيت فيها أياماً استعيد ذكريات الطفولة واستنطق معالم التاريخ، فأنبأتني المعالم بالكثير، ونطقت الآثار بالكثير.

وخرجت من دمشق وأنا أردد أبيات شوقي:

ألست دمشق للاسلام ظئرا	ومرضعة الابوة لا تعق
صلاح الدين تاجك لم يجمل	ولم يوسم بأزين منه فرق
سماؤك من حلى الماضي كتاب	وأرضك من حلى التاريخ رق
بنيت الدولة الكبرى وملكا	غبار حضارتيه لا يشق
له بالشام اعلام وعرس	بشائره بأندلس تدق

أقيم مهرجان لأبي الفداء الملك المؤرخ الجغرافي الحموي. أقيم جزء من المهرجان في دمشق، والثاني في حماة. وقد رتبت للمشاركين في المؤتمر زيارة لمدينة القنيطرة التي كان الجيش السوري قد استعادها في حرب اكتوبر / تشرين الأول سنة ١٩٧٣.

كانت المدينة قد نسفت جميع بيوتها باستثناء مكتب المحافظ وعدد آخر صغير من المنازل. ولما جاء دفتر تسجيل الخاطرات وتقدمني الزملاء (قسطنطين زريق وحسن الساعاتي وعبدالعزيز الدوزي وعمر فروخ) وكتب كل ما كتب، بدت الحيرة تراودني ما عساي ان أضيف انا؟

ولما جاء دوري كنت قد حللت المشكلة في ساعتها. كتبت أنشدنا مع شوقي من قبل

سلام من صبا بردى أرق	ودمع لا يكفكف يا دمشق

أما اليوم فاننا نقول

«سلام من صبا بردى أرق»	وعزم لا يحطَّمُ يا دمشق

القسم الثاني

في عكا

الفصل السابع

كان للأيام التي قضيتها في عكا أثر كبير في حياتي. هي سنوات الشباب من السابعة عشرة الى السابعة والعشرين. في هذه السنوات جرّبت بعض ما يجربه الشباب من حبٍّ ناجح أو خائب، من عمل منتج أو فاشل، من صداقات ثابتة أو زائلة، من آمال تتحقق وأخرى تتحطم، من أحلام تعبر حياة المرء لتترك في نفسه فرحاً أو حزناً، وسروراً أو ألماً. وقد يعرف أنها أحلام فيبتسم لها، وقد لا يدرك ذلك فيلحق بها جاهلاً أنه يحاول الوصول الى الغيوم.

عشر سنوات بدأت بالتعليم في المدرسة الثانوية، وانتهت بالمدرسة نفسها التي ظلت في المبنى ذاته. تغيّر عليّ بعض الزملاء، وتبدّل عليّ مئات من الطلاب، لكن غرف الصفوف ظلّت هي هي باستثناء شيء واحد اختلف. في تموز / يوليو سنة ١٩٢٧ أصاب فلسطين زلزال شديد. وبسببه تضررت أجزاء من مبنى المدرسة الثانوية. وبُدِىءَ بالاصلاح حالاً، لكن لما بدأت السنة المدرسية التالية لم يكن البناء قد جُهِّزَ. فأُعِرْنا مبنى المدرسة الابتدائية لبضعة شهور، ولما عدنا الى المبنى الأصلي أصبحت جدران من الآجر والاسمنت تفصل الواحدة عن الأخرى بدل جدران الخشب السابقة.

قررت ادارة الأشغال العامة ان تزيد عدد غرف دورة المياه في المدرسة. وكان من الطبيعي ان يُخرَقَ الجدار الثخين وتبنى هذه فيه. لكن الجدار لم يلن أمام مطارق العمّال. كان الجدار من بناء أحمد باشا الجزّار (١٧٧٦-١٨٠٤) وكان قد استعمل المونة بين الحجارة مزيجاً من الكلس والقنب والزيت. ومع الزمن أصبح هذا المزيج أقسى من الحجر الرملي الذي استعمل في بناء الأسوار. فعدل المهندس وبُنِيَت هذه المستراحات في مكان آخر.

كانت فترة هربرت صموئيل المندوب السامي الصهيوني قد انتهت (١٩٢٠-١٩٢٥) لما بدأت العمل في عكا. كان قد انشأ أو قوى ثلاث مؤسسات للصهيونيين في فلسطين وهي: المجلس الوطني اليهودي والصندوق القومي اليهودي وجعل اللغة العبرية لغة رسمية في فلسطين. كما أنه قوى شوكة الوكالة اليهودية التي أصبحت، في الواقع شريكة لحكومة فلسطين في التخطيط السياسي والاداري والاقتصادي، ولم يكن ينقصها سوى أن يجلس موظفوها في دوائر رجال الانتداب ويصدروا أوامرهم مباشرة الى الموظفين، السكان.

كانت الادارة الفلسطينية في يد البريطانيين. فكل دائرة لها مدير بريطاني ونائب بريطاني أيضاً. وبعد ذلك قد يكون هناك مساعد عربي أو يهودي أو مساعدان واحد عربي وآخر يهودي. هذا لا يمنع ان يكون مساعد ثالث أو أكثر وان يكون هؤلاء بريطانيين. وكانت هناك دائرتان يتولاهما بريطانيان يهوديان - هايمسون Hayamson مدير دائرة المهاجرة وابرامسون Abramson مدير دائرة الأراضي والتسوية. وكان بنتوتش، وهو يهودي، سيّد الادارة التشريعية. لست أنوي أن أصف الادارة العامة وترتيبها، ولكن الملاحظات التي ذكرت تكفي لتوضيح النهج العام.

على أنني أود أن أتحدث عن ادارة المعارف بشكل خاص لانها الادارة التي عملت فيها من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٤٨، والتي كانت تشرف على التعليم والتربية في البلاد.

كان على رأس ادارة المعارف مدير بريطاني، وقد تعاقب على هذا المنصب تدمان Tedman وبومان Bowman وفرل Farrel وديبنصون de Bunson. والاولان جاءا من الادارة السودانية وفرل عمل في العراق قبل ان يأتي الى فلسطين. اما ديبنصون، وهو آخر مدير لمعارف فلسطين، فقد كان مسؤولاً عن شؤون التعليم في واحدة من ولايات انكلترا. والواقع انه، باستثناء هذا الأخير، لم يكن أي منهم قد هُيِّء لهذا النوع من العمل.

كان يلي المدير في الرتبة والمسؤولية نائب له بريطاني أيضاً. ويأتي بعد ذلك المساعدون، وقد زاد عدد المساعدين في ادارة المعارف، بحيث أصبحوا ستة في أواخر عهد الانتداب: كان اثنان من العرب وكان واحداً انكليزياً وهو الذي كان مسؤولاً عن التعليم المهني، وواحد يهودي يشرف على الناحية اليهودية في ادارة المعارف، وسيدتان واحدة مساعدة لشؤون تعليم البنات والثانية كانت مديرة لدار المعلمات ودورات التعليم، وهاتان كانتا بريطانيتين.

وكان في الادارة المركزية عدد من المفتشين الفنيين كل يعنى بموضوع من مواضيع الدراسة والتعليم. الدين الاسلامي واللغة العربية الشيخ حسام الدين جار الله واسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني، واللغة الانكليزية وتنغ والرياضيات والعلوم (الطبيعة والكيمياء) أحمد طوقان، والتاريخ والجغرافية وصفي عنتباوي. اما مفتشو معارف الألوية فقد أصبح عملهم إدارياً بعد تنظيم التفتيش المركزي، ولكنهم ظلّوا يمارسون تفتيشاً مدرسياً خاصة فيما يتعلق بمدارس القرى.

كان عدد المفتشين في الالوية يتوقف على عدد الألوية، إذ كان هذا يتبدل بين حين وآخر. على كل لما عُيِّنتُ للعمل في الناصرة (ونقلت بعدها الى ترشيحا) كان مفتش معارف الجليل هو ابراهيم شماس. وكانت تتبع ادارته فضلاً عن قضاء عكا، اقضية حيفا والناصرة وطبرية وصفد. وكان مركزه في عكا. وعلى ما مر (أو سيمر) بنا كان مكتبه في بناية مدرسة عكا الثانوية.

ابراهيم شماس من أسرة مقدسية عريقة، وقد تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت، وعمل في التعليم ثم في ادارة المعارف المركزية في القدس قبل تعيينه مفتشاً للجليل. ولما عينت ادارة المعارف مساعدين لمفتش الالوية، كان نور الدين العباسي المساعد ثم خلفه قبل مجيئي لعكا، أحمد خليفة مساعداً للمفتش. أحمد خليفة كان من صفد، وكان من خريجي المدرسة السلطانية (أو المكتب السلطاني) في بيروت. والمكاتب السلطانية هذ هي مدارس ثانوية عليا انشأتها الدولة العثمانية على غرار الليسيه الفرنسية، وكان في مركز كل ولاية واحد منها. ولما كانت الأجزاء الشمالية من فلسطين تتبع متصرفتين (سنجقين) هما متصرفيتا نابلس (نابلس، جنين، بني صعب أي طولكرم وسلفيت) وعكا (عكا، الناصرة، طبرية، صفد)، وكانت هاتان جزءاً من ولاية بيروت، كان الطلاب النبهاء في متصرفتي عكا ونابلس يرسلون الى سلطاني بيروت.

أحمد خليفة كان رجلاً ذكياً، وكان مولعاً بالقراءة، ومن هنا نشأت بيننا صداقة أساسها القراءة والتحدث عن الكتب والكتاب. ابراهيم شماس لم يكن يعير القراءة أي اهتمام. كان حريصاً على وظيفته، معنياً بعمله. لكنه كان يلجأ الى وسائل غير مستحبة للتعرف على تصرف مديري المدارس ومعلميها. فقد حدث، بعد ان طُلِبَ مني أن أساعد كاتب المعارف في عكا، وقبل أن أنقل الى التعليم في مدرسة عكا الثانوية، ان استدعاني ابراهيم شماس الى مكتبه، وسلمني بضع رسائل جاءته من مدير احدى المدارس. كل رسالة كانت تقريراً سرياً شخصياً عن واحد من المعلمين في قرى القضاء. فلان شوهد في طبرية صباح الاربعاء مثلاً (وهو يوم عمل). فلان قضى ليلة الاثنين - الثلاثاء في طبرية (لم يتأخر عن عمله، لكن ماذا كان يفعل في طبرية). فلان قام بزيارة للأسرة الفلانية في طبرية. الزيارة عادية، لكن المفتش يجب ان يعرف لماذا تمّت الزيارة. ليس المهم المعرفة، ولكن المعلم يجب ان يعرف ويحسّ أن المفتش مطلع على تحركاته. سلّمني المفتش الرسائل وأصدر اليّ تعليماته بوجوب الكتابة الى

كل من الأشخاص الواردة اسماؤهم على هذا النحو: تذكير أحدهم بأن عمله في مدرسة القرية وانه لا يجوز له ان يكون في طبرية صباح الاربعاء مثلاً؛ وتذكير الآخر بأن مكان إقامته هو قريته وليس طبرية ليلة الاثنين. الثلاثاء؛ اما الثالث فيجب أن يقال له ان الزيارات يجب ان لا تتكرر. اذ ان الناس يتحدثون عن مثل هذه الزيارات. وبهذه المناسبة فان أحد المفتشين فيما بعد لفت نظري الى وجوب تجنب الرحلات مع زميلة لنا بعكا.

كان علي ان أكتب الرسائل. كتبتها. يومها لم تكن عندنا لا مطبعة ولا طابعة. وسلمتها له. فَعْنوَنَها هو بيده، ووضعها في الظروف، وطلب من الكاتب ارسالها. وبطبيعة الحال لم يترك نسخاً منها في الملفات الرسمية، بل في ملف خاص كان يحتفظ به.

في يوم من الأيام جاء بولس جبران (بولس)، زميلي في ترشيحا، وصديقي الى حين وفاته رحمه الله، إلى عكا. كان يوم جمعة، وقال لي إنه يريد أن يذهب الى الخياط أديب البَهْو «ليقصَّ بدلتين». بولس كان يلبس القنباز، وتحته السروال، وفوق القنباز جاكتة كحلية، وفي جيبها الصغير ساعته الذهبية التي كان يعتز بها. ولم يخطر في بالي قط ان بولس يمكنه ان يلبس بدلة افرنجية أو أنه يمكن ان يستريح فيها. ولما استفسرت منه لماذا يريد ان يخيط بدلتين، قال ان المفتش في زيارته الأخيرة للمدرسة ذكر ان مدير المعارف (كان يومها بومان) يحب ان يرى المعلمين يتخلصون من القنباز ويلبسون البدلة الافرنجية. فهذا دليل على تقدمهم وقبولهم للحضارة الحديثة.

حاولت أن اثني بولس عن عزمه، لكنه أصر. أذكر انه قال لي يومها: «أنت خريج دار المعلمين (الحكومية) ومركزك قوي، لذلك يمكنك أحياناً أن لا ترد على (يعني ان تعصى) قول المفتش. لكن انا لا أحمل شهادة من اي مؤسسة. مركزي في ادارة المعارف ضعيف. لذلك لا يجوز إلا أن أقبل بما يقترحه المفتش». ذهبنا الى أديب البهو، واشترى بولس قطعتي قماش وأخذ الخياط له قياسه، وخاطهما له. لكن بولس جبران لم يلبسهما. فقد اتضح ان المفتش «رمى» هذه الملاحظة من عنده، وقبلها كثيرون غير بولس. منهم حبيب غطاس المعلم في مدرسة عكا الابتدائية. واشتروا البدلات.

ولكن لماذا؟ في سنة ١٩٢٨ توفي ابراهيم شماس اثر اصابته بالتيفوس في فندق بيروت. وبعد ذلك سمعت من أديب البهو ان القول الذي اذاعه المفتش عاد عليه بشيء من الربح، لأن المفتش قال لأديب انه سيبعث اليه بعدد من المعلمين ليخيط لهم بدلات، وان فهم أديب البهو كفاية. وقد كان فيه كفاية.

وكان هناك شيء آخر انتشر انتشاراً كبيراً بين المعلمين. هو شراء بوليصات التأمين على الحياة. كانت يومها شركة غريشام للتأمين على الحياة هي سيدة الميدان. وكان مكتبها في بيروت، بادارة اميل نصار، وكانت فلسطين تتبعه. لذلك كان اميل، وهو رجل ممتاز للقيام بمثل هذه الأمور، يأتي الى فلسطين في زيارات معينة لتوقيع بوليصات التأمين. وكثرت زياراته لعكا في سنتي ١٩٢٦ و١٩٢٧. وفي يوم من الأيام تعرفت الى اميل نصار عن طريق قريبه صديقي كارل. فاذا باميل يحاول اقناعي بشراء بوليصة تأمين على حياتي: قلت له «اسمع يا مستر نصار. انا أعرف ما فيه الكفاية عن بوليصات التأمين على الحياة، وانا مؤمن بالفكرة. لكن أنا الذي سأقرر متى ابتاع البوليصة. وعندما أصل الى قرار بهذا الشأن، فانني سأكتب اليك وعندها نوقع بوليصة التأمين». وأضفت: «وبهذه المناسبة فأنني عندها أريد أن أحصل انا على الحسم الذي استحقه، ولن اتنازل عنه لأحد. فانا لن ابتاع بوليصة تأمين بناء على توصية موظف كبير في ادارة المعارف حتى يحصل هو على الكوميسيون». لم يقل اميل نصار شيئاً، ولكنه ابتسم ابتسامته الصفراء، وشدّ على يدي وافترقنا. ولما قررت شراء بوليصة تأمين على حياتي (سنة ١٩٣٢) كتبت له وجاء الى عكا وجلسنا في المقهى القريب من مكتب البريد، ووقعنا العقد وحسب لي الحسم. كان ابراهيم شماس قد توفي. لذلك احس اميل بحرية الكلام وقال: «هو استفاد وانا استفدت والمعلمون الذين أمّنوا على حياتهم استفادوا». وهذا صحيح لكن القضية كانت، كما أفهمها،

قضية أخلاقية وكانت تسمو على جميع أنواع الاستفادة والافادة.

في السنة المدرسية الأولى لوجودي في عكا (١٩٢٥ـ١٩٢٦) كان يوسف حنا مديراً للمدرسة بالوكالة. فقد انهيت خدمة محمد علي كعكور، الذي كان مديراً للمدرسة لبعض الوقت قبل وصولي. وقد رأيته فيما بعد في عكا. كان رجلاً عليه الكثير من المهابة: أنيق في ثيابه، وفي العناية بلحيته وببسطونه. يسير وئيداً، ويتلفّت حريصاً، ويحيي الناس محترماً لهم وطالباً منهم ان يولوه من الاحترام ما يستحقه.

كانت ادارة المعارف تفتح المدارس في فلسطين وكانت ـ فيما اعتقد ـ تجد صعوبة في الحصول على مديرين. لذلك وجد الكثيرون من المتعلمين وأصحاب الخبرة في لبنان وسورية فرصة للعمل في فلسطين مديرين ومعلمين. والمدير السابق لعكا الثانوية كانت خبرته الادارية كتابية في وزارة المعارف أو مفتشية للتعليم في سورية. فعين مديراً للمدرسة لكنه لم يكن ابن بجدتها. فكانت المدرسة في أيامه فيها الكثير من التهاون والفوضى. فالرجل لم يكن رجل نظام.

ولم يكن يوسف حنا خيراً منه. كان يوسف حنا يعرف ان عمله هناك مؤقت. لذلك لم يهتم بالأمر اهتماماً جدياً. هذا ما كان يقوله عنه الزملاء. لكن رأيي أنا كان غير ذلك. لم يكن باستطاعته ان يفعل أكثر من ذلك. يوسف حنا كان يهمه ـ كما قال لي مرة ـ «أن يظهر لهؤلاء الناس (أي الزملاء في العمل والذين يفكّون الحرف في الخارج) أنهم لا يفهمون شيئاً. وأنه هو الذي يعرف ويفهم ويدرك». ورجل هذا موقفه لا يمكنه ان يدخل في صميم الأمور الادارية ولا في غيرها دخولا صحيحاً منتظماً.

وقد تعبت انا في تلك السنة. تعبت لأنني لم أكن أريد هذه الفوضى. كنت أنشدُ نظاماً، فلم أجد شيئاً من ذلك. وزاد الطين بلة وجود مكتب مفتش المعارف في مبنى المدرسة. فكان من اليسير على أي أب إذا شعر بأن ابنه وقع تحت طائلة عقاب أو قصاص أن يشتكي الى المفتش رأساً. وهذا ما كان يحبه ابراهيم شماس. ولكي يظهر للآباء نفوذه كان يتخذ الاجراءات للتحقيق حالاً!

في الأسابيع الأولى من وجودي في المدرسة أعددت خلاصة لدرس التاريخ للصف الثاني الثانوي. لم يكن لدينا كتب مدرسية. كنا نعد الخلاصات ونعطيها للطلاب لنسخها. كان الزملاء يملونها على الطلاب. أما أنا فقد قررت أن الوقت في الدرس لن ينفق في الاملاء الذي من هذا النوع. لذلك لما انتهى الدرس ـ وكان الدرس الأخير في يومنا المدرسي ـ أعطيت الخلاصة للطلاب وطلبت منهم ان يظلوا في الغرفة حتى ينسخوها. وتركتهم ونزلت. ولم أكد أخرج من غرفة المعلمين حتى رأيتهم ـ وكانوا أربعة طلاب فقط ـ واقفين على مقربة من الغرفة. ولما سألتهم لماذا لم يبقوا في الغرفة للقيام بما طلب منهم، أراد أحدهم ـ وكان أمضاهم لساناً وقد تعمّدَ أن ينوب عنهم ـ أن يقول شيئاً. فبدأ يا أستاذ.. فكان جوابي له صفعة على خده بكل ما أوتيت من قوة، مع الأمر لهم بوجوب العودة لانهاء العمل. وتركت المدرسة.

هذا الرجل لا يزال حياً ويقيم في عمان، ويقول لي مازحاً، بين الحين والآخر: «لسَّا لدعة الكف على خدي».

قبيل نهاية شهر تموز / يوليو (١٩٢٦) تلقى يوسف حنا رسالة رسمية أنه عُيِّنَ مديراً لمدرسة طبرية. الواقع انني شخصياً داخلني شيء من الأسى لابتعاد يوسف حنا. كان ـ في بيته ـ رجلاً طيباً. وام جورج ـ زوجته ـ كانت سيدة لطيفة. وكان ابنه جورج من جيلي، فكنت أسر بعشرته عندما يأتي الى عكا اثناء العطل المدرسية، إذ أنه كان طالباً في القدس.

لكن الأمر سرني بالنسبة للمدرسة. وكل ما أملته هو ان يخلفه مدير حازم، ولم يلبث يوسف حنا، بعد ان ذهب الى طبرية واستأجر بيتاً هناك، أن ترك بيته في عكا. وكان هذا من حسن حظي. فقد استأجرت البيت الذي

كان يسكنه في خان الفرنج.

يعود بناء هذا الخان، في طابقه الأرضي والطابق الذي يعلوه، الى العصور الوسطى. والمرجح انه أُنشىء في ايام الصليبيين. الطابق الأرضي كان أصلاً يستعمل للمحافظة على دواب التجار ولخزن متاجرهم، فيما كان الطابق الأعلى الذي يليه يحوي غرفاً يقيم فيها التجار ويحتفظون بالثمين من سلعهم. وقد ظل خان الافرنج يستعمل لهذه الأغراض حتى أواخر القرن التاسع عشر (ولم يكن الخان الوحيد في عكا). فلما تخلى الناس عن استعماله على هذه الطريقة، أخذ القائمون على أمره يؤجرون الغرف الأرضية لتجار عكا الكبار، يستعملونها مخازن عادية لبضائعهم. اما الطابق الأعلى فقد أضيفت اليه بعض المرافق اللازمة للسكن وأجر لأسر مختلفة.

وفي وقت لاحق (وأظن أن ذلك تم بعد الحرب العالمية الأولى) بني على السطح ثلاثة منازل. هذه كان فيها من المنافع الصحية مطبخ وحمام ودورة مياه. وكان يقطن يوسف حنا أحد هذه المنازل، فلما ذهب الى طبرية استأجرت مكانه من كامل حوا الذي كان المسؤول عن تأجير خان الافرنج. (أما ملكية الخان فكانت لدير اللاتين).

كان في البيت ثلاث غرف نوم، واحدة استعملتها أختي ماري وواحدة كانت للاخوين ألفرد وجورج، اما أنا فكانت لي غرفة هي للنوم وللدرس. وكان لنا غرفة جلوس أو استقبال، سمها ما شئت. إذا لم تخني الذاكرة فقد كان ايجار هذا المنزل ثمانية عشر جنيهاً مصرياً في السنة (كنا لا نزال نستعمل النقد المصري في فلسطين).

والمنزلان الآخران على السطح كان يشغلهما أسرتان الواحدة أسرة توما خمار الذي كانت تقيم معه أخته زكية، (وكانت قد فقدت زوجها) مع أولادها الثلاثة - حبيب وميشيل وقسطنطين (قسطة). كان توما موظفاً في دائرة تسجيل الأراضي في عكا. وأظن أن حبيب كان يومها طالباً في السنة النهائية في مدرسة عالية الوطنية. اما ميشيل فكان قد دخل دار المعلمين (الكلية العربية فيما بعد) في تلك السنة، وكان قسطنطين تلميذاً في المدرسة الثانوية التي كان قد انضم اليها، بدءاً من سنة ١٩٢٦، اخواي ألفرد وجورج.

وكان المنزل الثالث يقطنه يوسف خليل وأسرته. يوسف خليل كان زميلاً لنا في المدرسة الثانوية، وكانت زوجته روجينا وابنته سلوى وابنه جميل كل عائلته الى ان انضمت الى الاسرة البنت الحمراء الشعر سميرة.

وقد نشأت فيما بيننا جميعنا صداقة قوية. فزكية، أخت توما، وروجينا، اهتمتا بأختي ماري وساعدتاها في التعرّف الى شؤون البيت والطبخ وما الى ذلك. فقد كانت المسكينة مسؤولة عن ذلك وهي في سن الثامنة عشرة.

خان الافرنج كان في وسط البلد. وكانت أختي تستطيع أن تنظر من شباك أي من الغرف الغربية الى سوق الخضار واللحم الذي كان يمتد تحت ناظريها. وكان «صبي» اللحام يأتي الى بيوتنا فيأخذ «الطلبية» من اللحم والخضار، ويحمل ذلك الى البيوت.

كنت أنا، وأخواي طبعاً، نترك قضية الأكل لأختي. وكان من اليسير عليها أن تختار من خضار ذلك اليوم ما تريد. كانت كثيراً ما تسألني عما أريد، فكنت أجيبها: «شوفي الموجود واطبخي ما تريدين». لكن يبدو انها كانت أحياناً تتحير. لذلك لما جاءت مرة عمتي لطيفة (من الناصرة) لزيارتنا اشتكت لها أختي من أنني لا أتعاون معها في قضية الأكل. فكان اقتراح عمتي أن تمتنع أختي عن الطبخ يوماً؛ فاذا جئت أنا ولم أجد ما يعجبني أحتّج، وعندها «أتعلّم» الدرس، واقترح على أختي ما تطبخ. وهذا ما حدث. فقد جئت ظهراً، وقالت لي أختي انها لم تطبخ لأنني لم أقترح عليها شيئاً. فطلبت قطعة جبنة وحبات زيتون وتغديت، إذ كان علي أن أعود لشغلي؛ ولم يكن لدي وقت للمناقشة في أمور تافهة.

تعلّمت أختي درساً. وتعلمت عمتي درساً. وعادت الأمور الى مجاريها. أختي تطبخ ونحن نأكل.

في ٢٧ ايلول / سبتمبر (المقابل ١٤ ايلول شرقي) سنة ١٩٢٦، كنت عائداً من المدرسة ظهراً الى البيت لتناول طعام الغداء، فاذا أبو بشارة، الذي كان يسكن الطابق الثاني في خان الافرنج، يستوقفني ويطلب مني أن

أذهب الى بيت أخيه للغداء؛ فاعتذرت وهممتُ أن أسير الى الطابق الأعلى، فاذا بيوسف خليل، الذي كان ورائي، يقول لي: «اليوم الغدا هنا!»، ولما لاحظ استغرابي أضاف قائلاً: «لعلك لا تعرف ان كامل حوا هو ماسك عيد الصليب. فالغداء عنده». سرت مع الباقين، إذ أن جميع الرجال ألقي القبض عليهم، وكان الغداء مجدرة، وأنا أحب المجدَّرة (التي تسمى في لبنان المدردرة).

وهذا - أي قضية ماسك العيد - تذكرني بالاحتفال بعيد «العذراء» في الناصرة. يقع هذا العيد في ١٥ آب / اغسطس (شرقي يعني ٢٨ غربي). وشهر آب شهر حار. بعد تأدية فروض الصلاة، على اسم السيدة العذراء، كان الشباب - شباب الطائفة الارثوذكسية - يقومون بثلاث دورات حول الكنيسة، وداخل أسوار ساحتها. وكان هناك شخص هو الضامن لهذا العيد. وكان الذي يقدّمه العرق. كان العرق يحمل الى المكان بالتنك الكبير؛ وكان يصب كما هو في كاسات ويُعطى للشباب، ويُشرَب لا ماء ولا ثلج (فالثلج لم يكن معروفاً يوم رأيت الموسم لأول مرة سنة ١٩٢٠) ولا من يحزنون. كان الشاب يكرع الكأس ويتم سيرته في سحجة أو دبكة بسيطة.

في ايلول / سبتمبر ١٩٢٦ بدأنا عملنا المدرسي في عكا. كان المدير الجديد قد وصل قبل ذلك واستأجر بيتاً خارج السور. المدير الجديد كان عارف البديري، وقد كان، قبل تعيينه مديراً لمدرسة عكا الثانوية، مديراً لدار الأيتام الاسلامية في القدس. عارف البديري مقدسي، من أسرة مقدسية معروفة بمن ظهر فيها من محامين وأطباء. عارف كان متخرجاً من دار الفنون في استانبول، وهي ما يقابل كلية آداب وتربية مجتمعتين، أو دار معلمين عليا (وقد أصبحت فيما بعد احدى كليات جامعة استانبول). ذلك بأن الدولة العثمانية أخذت على عاتقها، في السنوات الأخيرة من القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، اختيار عدد من الطلاب النابهين لارسالهم الى معاهد الدراسات العليا في استانبول. وقد كان اكثر هؤلاء يبعث بهم الى المكتب الملكي (يعادل كلية القانون والادارة) أو الى دار الفنون، أو الى الكلية الطبية أو الكلية الحربية فيما بعد. وقد عرفت شخصياً ممن ارسلوا الى مثل هذه المعاهد (وكلهم قد انتقل الى رحمته تعالى) مع حفظ الالقاب روحي عبد الهادي، وابراهيم هاشم (المكتب السلطاني) وحسين الخالدي (الكلية الطبية) ونور الدين العباسي (أحد اساتذتي في دار المعلمين) وعارف البديري (دار الفنون). وهناك عدد كبير لم يتح لي التعرف اليهم شخصياً. وقد تولى عدد من خريجي تلك المعاهد مناصب ادارية وقضائية عالية في فلسطين والأردن في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى.

المهم اننا بدأنا السنة المدرسية (١٩٢٦) وعندنا مدير جديد. كان مديرنا في أوائل العقد الخامس من سنه. كان بديناً نسبياً، مع كرش وجاهة معتدل؛ الا انه كان نشيطاً، كما بدا لي من أول يوم. لكن الذي كان يهمني أنا - وأنا أصغر المعلمين لا بسنوات ولكن بعقود - هو أن يسود المدرسة نظام، مهما كان نوعه.

اكتشفت، في الاسبوع الأول من بدء السنة الدراسية، انني وقعت في عارف البديري على بغيتي. وعندها ذهبت اليه وقلت له: «عارف افندي قرِّر نوع النظام وطريقته وأنا تحت تصرفك لتنفيذه. هذه المدرسة فيها معلمون قديرون ومخلصون. لكن النظام فيها مفقود».

قضى عارف البديري ثلاث سنوات (١٩٢٦ - ١٩٢٩) مديراً للمدرسة. ولم نختلف حول النظام. لعلنا اختلفنا حول أمور أخرى. لذلك بعد نحو اسبوعين من بدء العام الدراسي كانت المدرسة تسير كالساعة! وظلت على ذلك أيامه وأيام خلفه أنيس صيداوي (١٩٢٩ - ١٩٣٥) لأن هذا ترك لي قضية النظام. ولست أدري ماذا حدث بعد ١٩٣٥. فقد تركت المدرسة في أوائل تشرين الأول / اكتوبر من تلك السنة لأحقق حلم العمر - الدراسة الجامعية. وكان أنيس صيداوي قد نُقلَ الى حيفا، وحل محله شريف النشاشيبي. وقد عملت مع شريف اسبوعين، كان في واحد منهما غائباً بالاجازة المرضية. وكان نائبه جبرائيل خوري. وهو الذي أبلغني خبر منحي بعثة دراسية

لجامعة لندن في ايلول / سبتمبر ١٩٣٥.

لم تكن بين أيدي الطلاب كتب مدرسيّة إلا للغة العربية واللغة الانكليزية والجبر والهندسة والحساب. فقد كان كتاب مبادىء العربية لرشيد الشرتوني يستعمل في الصفوف المختلفة. وهو كتاب عملي فيه القواعد الصرفية والنحوية الأصلية مطبوعة بحرف كبير، أما الاضافات والفوائد، وهي التي تكثر في كتب الصفوف العليا كانت مطبوعة بحرف صغير. والكتاب، في شكله الأصلي، كان أسئلة وأجوبة. وهذه الطريقة سيئة من حيث انها تحدّ المجال بالنسبة للمعلم والتلميذ. وقد بدل هذا مؤخراً، فأصبحت طريقة الكتاب الطريقة المألوفة من حيث التقرير واعطاء الأمثلة ووضع الأسئلة والتمارين اللازمة. وكانت «القراءة الرشيدة»، وهو الكتاب الذي استعملته انا في مدرسة جنين، كتاب القراءة المستعمل. وقد أضيف اليه منذ سنة ١٩٢٨ كتاب البستان لاسعاف النشاشيبي. وهو كتاب «فيه مختارات» نثرية وشعرية جمعت ورتبت وشرحت للحفظ. وكتب القراءة للغة الانكليزية تبدلت كثيراً. كانت أول الأمر السلسلة التي سماها المعلمون والطلاب كتب وست؛ ذلك بأن مؤلفها كان اسمه الدكتور ميكل وست (Michael West). وقد وضعها أصلاً للاستعمال في الهند، ثم هُيِّئت منها طبعة عربية شاع استعمالها في فلسطين والأردن والعراق ومصر بعض الشيء وفي لبنان وسورية بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت من منشورات شركة لونغمان (Longman). أما بالنسبة لقواعد اللغة الانكليزية فقد استقر رأي المستر وتنغ، لما جاءنا كبيرا لمفتشي اللغة الانكليزية، على كتاب اسمه English Grammar for Beginners واسم مؤلفه Tipping.

كان يقوم بتدريس اللغة العربية في المدرسة جبرائيل خوري والشيخ موسى الطبري. وقد أعطيت أنا في احدى السنوات صفاً في درس الانشاء لتخفيف الضغط عن معلمي العربية. ولما جاء ناصر عيسى (الرامي) شارك في تدريس العربية. فالشيخ موسى كان عليه ان يعلم دروس الدين الاسلامي، وكان الشيخ صالح الخروبي، وهو أصلاً معلم في المدرسة الابتدائية، يساعده في بعض الصفوف. وبهذه المناسبة فقد عهد اليّ في سنة من السنوات تعليم الدين المسيحي لطلاب الصفين الأول والثاني الثانوي. فقبلت وأحضرت لكل تلميذ كتاب «الهداية الى الصراط المستقيم» فكان التلاميذ يقرأون ما فيه، وخاصة الآيات الكريمة، إلى جانب إنجيل مرقس، وهو الذي اخترته أساساً للناحية المسيحية. ولست أحسب أن مثل هذا النوع من التدريس تم في غير ذينك الصفين وفي عكا لسنتين. ثم أُعفيت من ذلك لأن تدريس اللغة الانكليزية اقتضى ان أساعد مدرسها.

كان أول مدرس جاء مدرسة عكا الثانوية من خريجي الجامعة الاميركية هو حنا نمر الخازن من البعنة. حنا كان متخصصاً في الرياضيات، فكان يعلمها ويعلم الفيزياء والكيمياء. وكان عارف البديري يتعاون معه في تدريس الرياضيات لبعض الصفوف. والصفوف الابتدائية كان يعنى بها يوسف خليل. ولما نقل حنا الخازن الى الناصرة حلّ محله علي شعت، وهو من خريجي الجامعة الاميركية أيضاً، لكنه كان متخصصاً في الكيمياء. فكان يعنى بها وبالفيزياء وبعض الدروس الرياضية. وهنا جاء دوري فأعطيت دروساً في الحساب. وكان علي هو مدرس اللغة الانكليزية الرئيسي. وقد علم المدير أنيس صيداوي (وهو من قدماء خريجي الجامعة الاميركية) اللغة الانكليزية أيضاً.

وطلب مني أنا أن أعلّمَ اللغة الانكليزية أيام جاءنا بوزانت نجاريان، وهو أيضاً من خريجي الجامعة الاميركية. نجاريان كان قد علمني اللغة الانكليزية في دار المعلمين، والآن تزاملنا. وأعطيت الصف الرابع الابتدائي، وهو السنة الأولى للغة الانكليزية، لكنني أعطيت أيضاً قواعد اللغة الانكليزية في الصفين الخامس والسادس الابتدائيين.

يوسف حنا (المدير بالوكالة ١٩٢٥-١٩٢٦) وجبرائيل خوري وناصر عيسى كانوا من خريجي دار المعلمين

الروسية التي فتحتها الجمعية الامبراطورية (الروسية) في الناصرة سنة ١٨٩٦، بقصد اعداد المعلمين للمدارس الروسيّة التي انشئت في الناصرة وبيت جالا والرامة (فلسطين) وعكّار والكورة (لبنان) وفي يبرود (شمالي دمشق). اما يوسف خليل فقد كان تلميذاً فيها لكنها اغلقت بسبب الحرب العالمية الأولى، فلم يتم دراسته. (ومثله كان صديقي بولس جبران زميلي في ترشيحا).

كان بين يدي الطلاب كتابان للرياضيات واحد للهندسة والثاني للجبر. وهما كتابان مؤلفان أصلاً باللغة الانكليزية. كان هول (Hall) شريكاً في التأليف في الكتابين. واسهم معه نايت (Knight) في كتاب الجبر وستيفنز (Stevens) في الآخر. وقد ترجم الكتابان في مصر واستعملا في المدارس الثانوية ودور المعلمين. ولما احتل البريطانيون فلسطين وبدأوا بفتح المدارس جاءوا بكتب كثيرة مما كان يستعمل في المدارس المصرية، وقد تعلمت انا في مدرسة جنين الابتدائية في عدد من هذه الكتب التي ورد ذكرها هناك. ولما دخلت دار المعلمين كان كتابا الجبر والهندسة المذكوران هنا مما قرانا فيهما، أولا على يد نور الدين العباسي ثم على ابراهيم قمر. هذان الكتابان كانا مقررين لطلاب الثانوي، فوجدتهما امامي في عكا.

وكان ثمة كتاب في الحساب جاءنا من مصر أيضاً. لا أذكر اسم الكتاب تماماً لكنني أذكر أن مؤلفه اسمه محمد زكي. هذا الكتاب كان مما استعمل في مدرسة عكا الثانوية.

اما في التاريخ والجغرافية، وهما الموضوعان اللذان عُلِّقتُ بهما مرغماً، ثم أحببتهما وعشتُهما معاً مدة طويلة، الى ان اقتصر الاهتمام المباشر عندي على التاريخ، وظلت الموضوعات والنظريات الجغرافية تومىء إليّ مذكرة بما كان بيننا من ود قديم. لكن أهم من ذلك انني كنت من أوائل الذين ربطوا بين العامل الجغرافي والتطور التاريخي ربطا عضوياً في فهمي التاريخ وتدريسه والكتابة فيه.

المهم انه لم يكن لدينا كتب مدرسية للتاريخ والجغرافية. فكان علي أن أهيء خلاصات للدروس التي أعطيها، ويتولى الطلاب نسخها. والصفان الثانويان كانا يستغرقان من وقتي الكثير. فالصف الأول الثانوي كان المقرر له التاريخ القديم. ولم يكن، فيما عرفت يومها، ثمة كتاب بالعربية يمكن ان أعود اليه، فاتعلّم المادة ثم ألخصُها. لذلك كان علي ان أقرأ كتاب جيمز هـ. برستد «الأزمنة القديمة» (Ancient Times) باللغة الانكليزية فأفيد من المادة وأرتّبها للتعليم ثم أعد خلاصة لكل درس أو لكل أسبوع وأعطيها للطلاب لنقلها. وقد ترجم داود قربان، من اساتذة اللغة العربية بالجامعة الاميركية في بيروت، كتاب برستد الى اللغة العربية. لكن هذا جاء بعد ان تركت أنا عكا، فلم أفِدْ منه. وبعد سنة أو أكثر أخذت اقرأ كتباً أخرى في التاريخ القديم وجميعها باللغة الانكليزية، فاتسعت معرفتي وزادت خلاصاتي حجماً. ولم يعد بالامكان نسخها من قبل الطلاب. فلجأنا الى «البالوظة». ذلك بانني كنت أكتب هذه الخلاصات المطولة، التي أصبحت مع الوقت طويلة جداً، بخطي بحبر أزرق على ورق خاص. وكنا نضع هذه على لوح من سائل مجمد نسميه البالوظة ولم أكن أعرف كيف يصنع. ونمر الورق على البالوظة فتخترج الخلاصة واضحة. ولما زادت هذه الخلاصات وأصبح من العسير عليّ أن أنسخها جميعها كان الطلاب من أصحاب الخط الواضح يعينونني في الكتابة.

وفضلاً عن حاجة الصف الأول الثانوي في التاريخ كان هناك مقرر الصف الثاني الثانوي وهو تاريخ العرب من الجاهلية الى نهاية العصر العباسي. وهنا اعتمدت أول الأمر على كتاب «تاريخ الأمم الاسلامية» للشيخ محمد الخضري. وهي المحاضرات التي كان قد القاها على طلاب الجامعة (المصرية) الأهلية التي انشئت سنة ١٩٠٨ في القاهرة. وقد اكتشفت فيما بعد ان الخضري اخذ الطبري فحذف منه عنعناته ولخص ما تبقى. ثم تعرفت الى كتب جرجي زيدان وغيرها. وأخيراً جربت حظي مع ميور «في تاريخ الخلافة».

وأودُ أن أذكر هنا حادثة مرّت بي في اثناء تدريسي تاريخ العرب في عكا. كان كتاب فريد الرفاعي، المسمى

عصر المأمون، قد صدر (١٩٢٩). والكتاب أصله رسالة للدكتوراة تقدم بها فريد الرفاعي الى الجامعة المصرية. وقد نجح في رسالته ومنح اللقب. لكن الذي لفت نظرنا - أو لأقل نظري - أمران: الأول هذه الضجة التي ثارت حول رسالة دكتوراة في مصر. اما الأمر الثاني فهو الطبعة الأنيقة جداً التي ظهرت من المطبعة الاميرية للكتاب في أجزائه الثلاثة: جزء هو الرسالة / البحث وجزءان مختارات منثورة ومنظومة لكتاب العصر وشعرائه. وكانت ادارة المعارف قد أرسلت لنا نسخة من الكتاب (كان مثل هذا الأمر يحدث بين الفينة والفينة)، فوضعها (المدير) عارف البديري في احدى الخزانتين اللتين كانتا تحويان كتب مكتبة المدرسة. وكان المدير يحتفظ بالمفتاح.

وجاء الوقت الذي يجب ان أعد فيه الدرس عن الترجمة في العصر العباسي الأول. وتذكرت الكتاب. كان الدرس سيعطى يوم السبت؛ ويوم الجمعة عطلة عندنا. ولكن لا بد من الاطلاع على «عصر المأمون». وذهبت الى المدرسة. كان عارف البديري يذهب أحياناً أيام الجمعة للقيام بأعمال ادارية. وقد أمّلت أن أجده في المدرسة. لكن فألي خاب، فقد اختار عارف البديري يومها أن يذهب الى حيفا لقضاء بعض الشؤون الخاصة.

دخلت غرفة المعلمين حيث توجد خزانة الكتب، فقد كان معي مفتاح للغرفة مثل جميع الزملاء، ونظرت الى الخزانة، وكانت لها ضرفتان من الزجاج. هناك كان يقف «عصر المأمون» بأجزائه الثلاثة - يتحدّاني. ولم أضع الوقت؛ تناولت اداة حديدية كانت في الغرفة وكسرت زجاج باب الخزانة. ثم تناولت الجزء الأول من الكتاب. وفتحته عند الفصل الذي تناول فيه الباحث الكبير قضية الترجمة. وقرأت ما دلالته: ننقل هذا الفصل عن جرجي زيدان معترفين له بالفضل. وأنا كنت أحتفظ بكتاب زيدان عن تاريخ التمدن الاسلامي، وكنت قد قرأته ولخصته.

غضبت وتناولت الكتاب فضربت به عرض الحائط وخرجت من الغرفة لا ألوي على شيء. هذا الكتاب الذي امتدحته الصحف، ورفعت صاحبه الى عليين، ينقل مؤلفه الفصل عن زيدان الذي كتب حول الموضوع قبل الرفاعي بنحو عشرين سنة.

في اليوم التالي أخبرت عارف البديري بما حدث معي. فضحك ملء شدقيه - وكان اذا ضحك ملأت ضحكته الغرفة لأنها كانت تخرج من قلبه. وقال لي: «لقيت عقابك لكسرك باب الخزانة، لذلك لن أغرمك باصلاحه. ليكن الاصلاح على حساب ادارة المعارف».

ومع ذلك فقد ظلت الرغبة تعتمل في نفسي لأعرف: لماذا لقي كتاب الرفاعي هذا الثناء، ولماذا طبع هذا الطبع الأنيق. وجاءني الجواب بعد مدة. كان فريد الرفاعي السكرتير الخاص لعبدالخالق ثروت باشا، رئيس الوزارة المصرية. وبسبب هذا المنصب الذي شغله قُدّرَ عمله تقديراً خاصاً، ومنح درجة الدكتوراة بشرف وطبع كتابه على هذا الشكل. والذي أعرفه أنه الى الآن (١٩٨٩) لم يطبع كتاب الرافعي طبعة ثانية، لأنه لم يكن يستحق لا الدرجة العلمية التي نالها صاحبه ولا الحلة الأنيقة لطبعته.

وكان عليّ أن أعد المادة الجغرافية للصفين الثانويين أيضاً. وهنا اعتمدت بعض الكتب الانكليزية. وكان ثمة كتب أفدت منها لا مادة للتعليم فحسب، ولكن فكرة تتعلق بالجغرافية الاقليمية معنى ومبنى وتطبيقاً. وفي مقدمة هذه الكتب كتاب الجغرافية الاقليمية تأليف فيرغريف ويونغ (Regional Geography by Fairgrieve & Young). والكتاب اجزاء ومستويات. فهناك الكتب الصغرى للطلاب في الصفوف الابتدائية. وهناك الكتاب الضخم للثانوي. والذي أذكره على سبيل المثال في تقسيم المؤلفين للمناطق الجغرافية (في كتاب الثانوي) هو انهما اعتبرا المحيط الاطلسي وحدة جغرافية وبحثاً في المناطق المجاورة له شرقاً وغرباً بحثاً واحداً جغرافية ورياحاً ومناخاً ومواصلات.

وفي وقت لاحق اكتشفت كتاباً مصرياً اسمه الجغرافية الاقليمية تأليف علي فهمي الرشيدي. تناول مؤلفه فيه جغرافية العالم بشكل منطقي. فابتعته وحملت الطلاب على ابتياعه فوفّر علينا الكثير من الجهد والوقت.

أما فيما يتعلق بالصفوف الابتدائية، فقد كان علي أن أعد المادة اللازمة لتنسخ على الطريقة المذكورة. لكن لم يلبث زملاؤنا في الكلية العربية وفي ادارة التفتيش ان زوّدونا بكتب في الجغرافية والتاريخ للصفوف المختلفة. كان بين المؤلفين في المجالين ـ وصفي عنبتاوي وسعيد الصباغ وحسين غنيم ممن أذكر وأعرف شخصياً.

وكان لا بد من ان يكون بين يدي الطلاب أطلس للدروس الجغرافية. والأطلس الذي حصلنا عليه هو الذي أعدته مؤسسة جورج فيلبس وقد صدر سنة ١٩٢١.

في ربيع سنة ١٩٢٥، وكنت لا ازال أعلم في ترشيحا، بلغني خبر صدور قرار بتنظيم امتحانات التعليم العالي في فلسطين، بما في ذلك امتحان المترك وهو امتحان للاجتياز الى التعليم العالي. هذا هو الاسم الرسمي الذي أعطي له، ولو ان الناس ظلوا يستعملون اسم المترك تخفيفاً وهي اختصار لكلمة متريكيولشن الانكليزية. والخبر الذي قرأته في الجريدة لم يكن فيه أي تفصيل. فكتبت الى خليل طوطح، مدير دار المعلمين، استفسر عنه وأسأله فيما إذا كان باستطاعتي ان أجتازه. وصلني الجواب منه يوم جمعة، وكان هذا يوم السوق، وكثيراً ما كنت اذهب الى السوق الاسبوعية هذه للفرجة. واذا الرسالة تنبئني بان التسجيل لتلك السنة قد فات موعده، وعلى كل فان ما تعلمناه في دار المعلمين هو دون ما يتطلبه برنامج المترك. لذلك يترتب علي ان استعد وان آخذ الأمر بالجد كي أنجح. ونصحني ان افعل ذلك.

قررت السير في هذا الطريق. ولكن ليس لدي من المعلومات ما يكفي. طلبت النشرة المشتملة على التفاصيل فجاءتني. وجدت فعلاً ان الفرق بين ما أعرف والمطلوب كبير.

جاءت عطلة الصيف التي قضيت قسماً كبيراً منها في رحلة على الأقدام في شمال فلسطين ولبنان وبعض سورية، على ما مر ذكره. وحدث ان نقلت الى عكا فأصبح الأمر أيسر بالنسبة لي. لذلك لما انتظم عملي في المدرسة بدأت بجرد المطلوب مني للامتحان. قررت بادىء بدء أن أعيّنَ المواضيع التي سأتقدم فيها. كان هناك موضوعات مطلوبة أي اجبارية وهي اللغة العربية واللغة الانكليزية والتاريخ وعلم (اخترت الرياضيات). وانتقيت من المجموعات الباقية، في حدود القواعد المرعية، الجغرافية وعلم الآثار وعلم النبات. وبعد ذلك وضعت لنفسي نظاماً دقيقاً للعمل. فانا لا زلت أتعلم التاريخ لأعلمه وأدرس الجغرافية لأدرسها. وإذن فلأفد من هذين الأمرين في اعداد نفسي لموضوعي التاريخ والجغرافية. ولم أكن أرى صعوبة في الرياضيات. فهذا موضوع أحبه وأقدر عليه، وما عليّ إلا أن أتعلم القسم اللازم من الجبر والهندسة. وفي اللغة العربية كان هناك أشياء مقررة في تاريخ الأدب والمعرفة اللغوية والمقدرة على الكتابة وحفظ مقطوعات شعرية معينة بحيث يستطيع الطالب، عندما يطلب منه ذلك، ان يروي بضعة أبيات ويعلّق عليها شارحاً مفسّراً وما الى ذلك. وهذه قضية يسيرة بالنسبة لي. فحفظ الشعر كان سهلاً، وثمة ذوق يمكّنني من التعليق على ما يطلب مني. لكن كان هناك ثلاثة موضوعات تحتاج الى اكتشاف ودرس دقيق: علم الآثار والنبات واللغة الانكليزية.

كنت أعرف ان المستر همند، رئيس كلية الشباب في القدس، قد درّس موضوع الآثار في كليته، وأنه قد أعد مساقاً مكتوباً للموضوع. فكتبت اليه وطلبت منه إعارتي هذا المساق مع تبيان السبب. كان جوابه أن أهداني نسخة من الذي عنده، وشجعني اذ كتب لي ان اسأله عن الأمور التي تعرض لي والتي احتاج فيها الى معونة. وقد زرته في صيف ١٩٢٦ وزودني ببعض المقالات عن الحفريات الأثرية الفلسطينية.

كان جبرائيل كاتول مساعداً لمدير المعارف، وقد جاء الى فلسطين من العراق، وذلك في مطلع سنة ١٩٢٣. كان مدرس علمي الحيوان والنبات في دار المعلمين، يوسف قدورة، قد ترك العمل فجأة، فجاء جبرائيل كاتول

ودرسنا علم النبات لنحو شهرين. كانت عندي المذكرات التي هيأها لنا. فكتبت اليه استشيره في كتاب أو أكثر ينفعني في هذا الموضوع. فكتب لي وأرشدني الى كتابين ونصحني أن أحمل معي موسى حادة ومكبرة وانا أعد نفسي للامتحان.

أما اللغة الانكليزية فقد رتبت برنامجها بنفسي. قررت أن أختار «قسم ب» في اللغة الانكليزية لا قسم أ. لكنني أخذت نفسي بدراسة روايات لشكسبير وهي المطلوبة للقسم أ. درست وحدي، ولكن كما لو كنت أعد الدرس «لتسميعه» امام معلم. والروايات الشكسبيرية التي درستها بأمعان مع جميع الشروح هي يوليوس قيصر ومكبث وحلم ليلة نصف صيف. وقد تعمّدت التنويع. فالأولى تاريخية والثانية مأساة والثالثة ملهاة. لذلك لما ذهبت لتقديم الامتحان (قسم ب) كانت معرفتي اللغوية غنية. وأذكر انه بعيد الامتحان وكنا سائرين على مقربة من مقبرة باب الزاهرة (الساهرة) سألني (الأستاذ) جورج خميس: كان في الترجمة (من العربية الى الانكليزية) كلمة رأس صخري فكيف ترجمتها يا نقولا؟ قلت promontery rock فقال لي «ولك منين جبتها. عدد كبير من طلابنا لم يعثروا على الكلمة». فذكرت معلمي السابق بانني انا اقرأ باللغة الانكليزية أكثر من طلابه في دار المعلمين. فابتسم مشجعاً.

وجدت انني لن أتمكن من تقديم الامتحان في صيف ١٩٢٦، فتركته الى صيف العام التالي. كان استعدادي أفضل وكنت واثقاً من نفسي ومن معرفتي. فقدمته ونجحت.

وهنا موضع قصة لعب البردج في عكا. كان في ذلك الوقت (١٩٢٦-١٩٢٧) أربعة من اصدقائي يحبّون لعب الورق أصلاً، وأُغرموا بالبردج لما تعلمها ثلاثة منهم (موريس خباز وموسى حنا وحبيب غطاس) من كارل نصار. وتعلمت أنا اللعبة أيضاً. وبدأت ألعبها بعض الشيء. لكن هؤلاء الأربعة كانوا يلعبون ليلياً تقريباً. وأدركت أنا أن الأمر، بالنسبة لي، إما لعب البردج أو الامتحان. فأعلنت لهم أنني متوقّف عن اللعب حتى أعد نفسي للامتحان ومتى انتهيت منه قد أعود اليهم. فكانوا يجتمعون ويلعبون دون نقود طبعاً. اما انا فكنت أعرف أين سيجتمعون في الليلة المعينة، فاذا رغبت في الراحة من عملي حول الساعة التاسعة مساء كنت أذهب الى حيث هم مجتمعون لشرب القهوة والراحة. ثم أعود الى عملي. وقلما كنت اتوقف عن الشغل قبل منتصف الليل. وكانت القاعدة التي وضعتها نصب عيني: المساء لي، لذلك يجب ان أعد كل ما احتاجه اثناءه. اما الصباح فهو لعملي في المدرسة، لذلك يجب ان لا أترك شيئاً الى الصباح. وبهذه المناسبة لم أعد الى لعب البردج.

بالنسبة للعمل المدرسي كان أهم ما تم في عهد عارف البديري ادخال النظام. ولعله يمكن القول انه كان فيه شيء من القسوة. لكن كان ذلك ضرورياً كي ينجح العمل. عارف البديري فرض على التلاميذ زياً موحداً. كان أساسه البنطلون القصير. الشورت من الصوف الكحلي والجرزة (الكنزة) الكحلية المصنوعة من الصوف أيضاً للشتاء ومثلها من قماش عادي للصيف. وبذلك كان الطلاب متساوين في النظرة الاجتماعية. كان بين التلاميذ شباب جرّبوا ان يحصلوا على استثناء بسبب السن أو الطول. ولكن عارف البديري أصرّ على موقفه. ولما فاتحه ابراهيم شماس مفتش المعارف افهمه بشيء من الحزم مع قليل من اللباقة أن القضية تخصّ المدرسة لا مكتب المفتش. والطلاب الشبان كانوا يأتون الى المدرسة وهم يلبسون البنطال الطويل فوق الشورت، فاذا دخلوا السور خلعوه الى ان يحين موعد العودة الى البيت. ولكن لما وصل الذين كانوا أصغر سناً الى ذلك الدور كانوا قد اعتادوا الشورت. ولم يغير أنيس صيداوي الزي، بل التزم به. لكن لما جاء شريف النشاشيبي أخبرني، في الاسبوع الوحيد الذي تزاملنا فيه، انه سيلغي الزي لأنه أمر سخيف! هكذا حكم شريف النشاشيبي علينا. معلمي المدرسة الثانوية. بالسخف لأننا كنا قد عوّدنا الطلاب على زي لطيف يسمح لهم بالحركة، وقد دام هذا الأمر نحو ثماني سنوات.

كان لكل صف درس واحد في الاسبوع للرياضة البدنية. كنت انا اقوم بهذا العمل. لكن ما هي اهمية ثلاثة أرباع الساعة مرة في الاسبوع؟ لا هي «تريض» الجسم، ولا تعود الطلاب النظام. لذلك جئت يوماً واقترحت على عارف البديري أن أعطي طلاب المدرسة كلهم مجتمعين نصف ساعة ثلاث مرات في الاسبوع. ويكون هذا قبل بدء الدروس. عندها يفيد الطلاب من الحركة ومن النظام. قبل؛ ونفذنا الفكرة. لم تؤثر على حضور بقية الزملاء. لكن بعد مدة صار البعض ياتي مبكراً ليرى ما يزيد عن مئتي تلميذ، اعمارهم تتراوح بين العاشرة والثامنة عشرة، منتظمين صفوفاً، وانا اقف على نشز من الارض بحيث ارى الجميع. أعطي النموذج ونجربه ما فيه الكفاية. وعندها اذا كان ثمة خطأ في الحركة ناشيء عن جهل يصحح. اما إذا كان الخطأ نتيجة إهمال كان التلميذ يراني أنزل الى الملعب وبيدي قضيب طويل من شجرة رمان، ثم لا يحسّ الا وقد التف القضيب على رجله. ومن هنا كانت الاخطاء المتعمدة قليلة، ان لم تكن نادرة. وقد احتفظنا بهذه الخطة أيام أنيس صيداوي.

وانا الذي كان كل رأس ماله، الى سنة ١٩٣٠، ما درّبنا عليه جورج خميس من التمارين السويدية في دار المعلمين، تمكنت من تدريب الطلاب بسبب الدقة في النظام والأشراف العام في دروس الرياضة، حتى انني نلت شكر منظمي الحفلات الرياضية السنوية على ما قدمه تلاميذي من العاب رياضية وأهرامات مدهشة. فقد كنت أقرأ شيئاً عن الرياضة. أقول الى سنة ١٩٣٠، لانه بعد ذلك طلب مني ان أحضر مرتين دورة صيفية للرياضة البدنية. كان يرتبها روبرت كفلكانتي (تلحمي). كما حضرت دورتين تدريبيتين لتدريس اللغة الانكليزية، وكانت الدورات يرتبها وتنغ لما جاء رئيساً للتفتيش على اللغة الانكليزية في مدارس ادارة المعارف. (جاءنا من نيجيريا، لكنه لم يعجب بمناخ فلسطين فعاد الى نيجيريا).

كان من عادتنا ان يصطف الطلاب صفوفاً متراصة في الصباح قبل الدخول الى قاعات الدرس، وان ينشدوا واحدة من الأناشيد الوطنية. كانت ثمة انشودة علمتهم إياها أنا وقد انتزعتها من كتاب الاناشيد المدرسية التي نظم كلماتها معروف الرصافي لماكان استاذاً للعربية في دار المعلمين (١٩٢٠) ورتب الحانها خليل طوطح مدير دار المعلمين. اما الانشودة فمطلعها

أوطاننا وهي الغوالي	أرواحنا لها ثمن
وإنما أحيا المعالي	من مات في حب الوطن

وأما لحن هذه الانشودة فهو لحن المارسيليز، نشيد الثورة الفرنسية.

جاء وقت كان فيه بعض المساجين ياتون من سجن عكا المركزي (قلعة أحمد باشا الجزّار) برفقة حرّاس عرب وإنكليز ليقوموا بأعمال تنظيف لجزء من سور عكا حيث نُقرَت فيه بوابة، والمكان قريب من ملعبنا. وفي أحد الأيام كان الحراس الانكليز هناك فسمعوا الطلاب ينشدون هذه الانشودة. هم لم يفهموا معنى الكلمات، لكنهم استغربوا اللحن الفرنسي. وفي اليوم التالي استدعى مدير بوليس عكا البريطاني مدير المدرسة ليسأله كيف ينشد الطلاب مثل هذا النشيد الوطني الغريب في عكا. ولكن مدير البوليس - المستر بريانت - ضحك ملءَ شدقيه لما عرف القصة.

ولما كنت انا الأصغر سناً والاكثر نشاطاً بين معلمي المدرسة، والمسؤول عن الرياضة البدنية، فقد لصقت بي مهمتان رياضيتان اخريان هما تدريب الطلاب على لعب كرة القدم، والاهتمام بالكشافة، بحجة انني كنت كشافاً في دار المعلمين. وهذه لم يطل أمرُها فقد جاء الى مدرستنا جميل عبد الهادي أحد خريجي دار المعلمين (١٩٢٢)، وهو كشاف قديم. فاهتم بها. اما انا فقد كانت لي هوايتان شخصيتان في الرياضة الاولي المشي، ولا ازال

أمارس هذه الرياضة، في حدود ضيّقة طبعاً. والثانية لعب التنس. وقد بنينا نحن ملعباً للتنس كان على مقربة من مقر القائمقام، لأنه كان هناك قطعة أرض تملكها الدولة، فسمح لنا القائمقام برصف الأرض ودحلها في حدود المقاييس المعروفة. ومع أن القائمقام لم يكن يلعب التنس، فقد جلعناه رئيس شرف للنادي الذي كان عدد اعضائه، في أوسع حالاته، لا يتجاوز الخمسة عشر عضواً. كان فيه من المدرسة الثانوية عارف البديري وأنا، ومن المدرسة الابتدائية محمد الأمين الذي لم يلعب التنس قط. وانضمت الى النادي أربع من معلمات مدرسة البنات الابتدائية هن غرترود نصار (المديرة) وأديبة يوسف جبور وكوكب عاقل وجوليا سمعان. وكانت روز سركيس تأتي أحياناً مشاهدة أو ضيفة دون أن تلعب. أما من خارج نطاق المدرسة فقد كان كارل نصار ونقولا منسى وهلدا نصار أخت كارل، (مديرة مدرسة بنات طبريا) وذلك أيام العطلة المدرسية. وانضم الى النادي فرانك بايك مساعد مدير السجن المركزي.

كان مكتب مفتش المعارف في مبنى المدرسة. لكن الأمر الذي كان أعقد من ذلك هو حصان المفتش الذي كان يستعمله في زياراته لمدارس القرى. وكان الحصان يربط في ملعب المدرسة، وفي مكان مزعج بالنسبة للتلاميذ. كانت ثمة بوابة، دون باب، تصل الملعب بمدخل المدرسة. وكانت هناك شجرة تقوم على مقربة من المدخل. فكان الحصان يربط فيها. وكان أبو درويش يعتني بالحصان. المهم أن الحصان كان في طريق التلاميذ، وقد يهيجه تحركهم فيصهل ويلبط وما الى ذلك. وقد يتعرض الطلاب للخطر. لما انضممت الى الهيئة التعليمية في المدرسة كان الحصان يربط هناك. وما كان يوسف حنا المدير بالوكالة (١٩٢٥-١٩٢٦) ليهتم بازالة الضرر. وعلى كل فالمفتش أصبح له حق مكتسب في ربط حصانه هناك.

لما جاء عارف البديري مديراً لم يعجبه الأمر. وتحدث الى ابراهيم شماس بأمر نقل الحصان الى مكان آخر، لكن المفتش لم يقبل. كان الحصان ينام في الخان لكنه كان يتفسّح مع التلاميذ في ملعبهم.

في أحد أيام العطلة المدرسية - وكانت عطلتنا يومي الجمعة والأحد - وقد اختار عارف البديري يوم أحد، وأظن أن المفتش كان غائباً عن البلدة في دورة تفتيشية، بعث اليّ مع بواب المدرسة (أبو بشارة) بأن أوافيه الى المدرسة لأمر هام. ذهبت، فاذا به قد أحضر رجلين ومع كل فروعة (فراعة) ماضية وقد أخذا بقطع الشجرة على مساواة التراب. وقال لي أريدك أن تشهد، عند الحاجة، أن هذا تم بأمري. لست أكتم قرائي (ان أتيح لهذه الصفحات أن تنشر) أنني كدت «أنشق» من السرور.

جاء ابو درويش يوم الاثنين صباحاً ومعه الحصان ليربطه، فلم يجد الشجرة. ووصل المفتش بعد قليل فما وجد لا الشجرة ولا الحصان. دخل مكتبه مغتماً، وأخذ ابو درويش الحصان الى الخان ليربط هناك مع غيره بدون أن «يتفسّح» في ملعب المدرسة.

اتضح انه لا يمكن أن يكون رأسان أو رئيسان في مكان واحد. ولما كان المبنى هو للمدرسة أصلاً، فان رأس المدرسة مكانه هناك. أما رأس التفتيش فله أن «يفتش» عن مكان آخر. وقد تم ذلك. وانتقل المفتش ومكتبه الى مبنى دار الحكومة المحلية. وكسبنا نحن غرفتين. والمهم أننا استرحنا من نظرات المفتش التحتانية التي كان يرمق بعضنا بها يومياً كأنها «نهارك سعيد، لكن بدبرك».

كنت قد اعتدت، وأنا في دار المعلمين، على الجمعية الخطابية الاسبوعية. لذلك اقترحت على عارف البديري أن نعمل شيئاً من ذلك. قبل. وكنت أحب أن تكون «مؤسسة» صغيرة لتدريب الطلاب على العمل والتنظيم وحتى القيادة. ولكن الذي حدث هو أن عارف البديري اتخذ لنفسه رئاسة الجمعية كل اسبوع، وكان يتحدث اكثر من الطلاب. لذلك لما عدنا في السنة التالية (وكانت الثالثة له ١٩٢٨-١٩٢٩)، لم أُثِرْ قضيّة إحياء الجمعية، لأنني لم أحقق ما كنت أريده منها. فماتت الفكرة ودفنت.

جاء الى المدرسة الثانوية في عكا في وقتين مختلفين مدرّسان موقّتان الواحد جورج جرجورة والآخر راضي عبد الهادي. جورج جرجورة ناصري مثلي، وخريج دار المعلمين (١٩٢٢). وقد قضى عندنا بضعة شهور في سنة ١٩٢٨. ومما عمله انه علّم اللغة الانكليزية لبضعة أسابيع بدل حنا الخازن، إذ كان هذا مريضاً.

كان حنا الخازن يعلّم الانكليزية من القاموس. وقد اكتشف جورج جرجورة ذلك بعد مجيئه بمدة قصيرة. روى لي هذه القصة في بيتنا بعكا: فيما كنا ننتظر أن تدعونا أختي ماري للغداء. قال لي جورج إسمع يا نقولا. أنت تعرف أن من المقرر على طلاب الثاني الثانوي مقطوعات شعرية من كتاب (ليرا هيرويكا) Lyra Heroica، وأن هذه المقطوعات لها شرحٌ صالحٌ للمعلم والتلميذ أعدّه فارل (كان يومها نائباً لمدير المعارف) وأرسل الى المدارس. لكن يبدو أن حنا الخازن لم يقرأه. ولعله لم يسمع به. ولذلك فانه لما قرأ خبر قائد سفينة يودّع سفينته بقوله

and shall deck thee with bays

نظر في القاموس فوجد ان معنى deck هو ظهر السفينة وbays خلجان. فاعطى معنى الكلمتين للتلاميذ ليفهموا بيت الشعر على هواهم.

وهكذا بدل ان يكون معنى البيت

وأزينك بأكليل الغار

صار شيئاً لا معنى له. إذ فهم منه التلاميذ ونحن على ظهر السفينة قريبون من الخلجان. (كلمة deck معناها يزين وكلمة bays معناها الغار والأكليل ضمناً).

جورج كان رقيقاً أنيقاً، وقد أرسل الى مصر بعد اقامته في عكا لدراسة الفنون الجميلة. ولما زرت أنا القاهرة لأول مرة (شتاء ١٩٣٣-١٩٣٤) كان جورج هناك وقد لقيته واحتفى بي وبصاحبيّ كثيراً. لكن جورج لم يكن يحبّ التعليم. وقد انتهى به الأمر، وأنا بعد في عكا (أي قبل ١٩٣٥) الى أن اشترك مع مفلح عدس في عمل تجاري وفتحا في حيفا حانوتاً لبيع الثياب الرجالية من القمصان والشعارات وغير ذلك. كان سعيداً جداً بعمله هذا. سعادته جاءت من العمل ومن الربح.

وراضي عبد الهادي، وهو أيضاً خريج دار المعلمين (١٩٢٦)، جاءنا لفترة قصيرة. وراضي كان أنيقاً مثل جورج، لكنه لم يكن رقيقاً مثله. وراضي كان أخا جميل الذي قضى عندنا وقتاً قبل أن يُرَقّى فينقل مديراً لمدرسة ترشيحا خلفاً لمحمد بيدس لما أصبحت المدرسة كبيرة.

وكان ممن زاملنا في مدرسة عكا الثانوية أكرم زعيتر. انضم الينا لتعليم اللغة الانكليزية. لكن أكرم كان في طبيعته وتكوينه، منذ ذلك الوقت (١٩٢٨-١٩٣٠)، مؤهلاً للعمل السياسي، وفي المجال الوطني الفلسطيني. (أما ما حدث فيما بعد إذ أصبح أحدَ أعلام العمل السياسي العربي فأمر آخر، وهو، بطبيعة الحال يخرج عن نطاق هذه الرواية). ومن ثم فقد كان من العسير عليه ان يستمر في اسار الوظيفة الحكومية. وبعد حديث طويل مع (المدير) أنيس صيداوي، كنت مشاركاً فيه الى درجة ما، تقدّم أكرم باستقالته، وخرج الى عالم السياسة والصحافة الرحب. ومن هناك انطلق.

اما خلف أكرم في تعليم اللغة الانكليزية في مدرسة عكا الثانوية فقد كان أحمد هارلو (Harlow). وهو أميركي كان مع الجيش الاميركي في الحرب العالمية الأولى، ولعله لم يكن مع القوى المقاتلة بل مع عمليات الاسعاف. وقد أصيب بالغاز الذي دخل رئتيه فاضعفه. وجيء به مع الجيش البريطاني الى فلسطين للاستشفاء. واعجبه البلد فظل فيه. والتحق بكلية النجاح الوطنية (نابلس) معلماً للغة الانكليزية. وهناك اعتنق الاسلام وبدل اسمه من آرثر الى أحمد. جاءنا خلفاً لأكرم. وقد قامت بيننا صداقة متينة. وبعد قضاء فترة

قصيرة (نسبياً) في عكا غادر البلاد الى الولايات المتحدة (١٩٣٢). ولم أتلقّ منه أية رسالة بعد ذلك، ولم أسمع عنه خبراً من أحد.

وكان آخر من انضمّ الى المدرسة الثانوية بعكا قبل تركي إياها بسنة الشيخ سامي العيد من بعقلين. وهو أيضاً من خريجي الجامعة الاميركية، تزاملنا سنة واحدة، وفي صيف ١٩٣٥ جئت لبنان للمرة الثانية وكان من فضل الشيخ سامي عليّ أن رافقني الى جبل الشيخ. وفي هذه الزيارة الثانية رأيت شروق الشمس من قمة جبل الشيخ. ولما زرت عكا بعد عودتي من انكلترا (سنة ١٩٣٩) كان الشيخ سامي قد أصبح مديراً لمدرسة عكا الثانوية.

لما ذهبت الى القدس لتقديم امتحان المترك قصدت فندق ماجستيك لأقيم هناك على عادتنا. لكن لما زرت المرحوم أحمد سامح الخالدي، وكان قد أصبح مديراً أصيلاً لدار المعلمين، وكانت تربطني به صحبة قديمة من أيام تلمذتي بالدار، أصر على وجوب اقامتي في منزله، وهو جزء من مبنى المعهد. ولما اقترحت عليه أن أقيم مع التلاميذ أبى وأصرّ على رأيه. وأرسل أحد خدم المعهد فأحضر شنتتي. ولكن الذي حدث أنه بعد ثلاثة أو أربعة أيام، ولم يكن الامتحان قد بدأ بعد، قال لي، ونحن نتناول طعام الغداء: «يتوجّب عليك أن تترك منزلي، وقد حجزت لك غرفة على مقربة من غرف الاساتذة. اما السبب في إخراجك فهو أن عمتي تعتزم زيارتي وقضاء بضعة أيام هنا، وعمتي محجبة كما تعرف». وانتقلت راضياً؛ كان ذلك في مصلحتي إذ أنني كنت أراجع بعض المواد مع التلاميذ الذين أعرفهم في المدرسة من قبل، وكان منهم المرحوم رضا ايراني.

وجاءت ايام الامتحان، وبدأ في ٤ تموز / يوليو (١٩٢٧) وكنا نقدّمه في مبنى كلية تراسانطة في شارع الملك جورج. ويوم الاثنين في ١١ تموز / يوليو، دخلنا قبيل الساعة الثالثة (بعد الظهر) بقليل قاعة الامتحان. كان موضوع الامتحان الجغرافية. ولم نكد نقرأ ورقة الاسئلة، حتى أحسسنا أن الدنيا قامت وقعدت. الجدران تتأرجح، والمقاعد تتحرك تحتنا، والثريا تهتز، والطلاب يهرعون الى الخارج. وبعد بضع دقائق دعينا للدخول الى القاعة لاتمام عملنا، واظن ان اثنين أو ثلاثة لم يتمكنوا من العودة للعمل لأن ايديهم جرحت بالزجاج وهم يندفعون الى الخارج.

عدنا وأتممنا الامتحان، وخرجنا. كانت هذه زلزلة كبيرة أصابت فلسطين وكانت نابلس أكثر مدن فلسطين تأثراً بها. فقد ضربت هزّاتها الخط المبنية عليه المدينة. الا أن نابلس، التي كانت الى ذلك الوقت محصورة في الداخل، انتشرت بعد ذلك على سفحي جبل عيبال وجرزيم وغرباً في اتجاه رفيديا. فتنفس السكان الصعداء بعد انحشار دام عهداً طويلاً.

في تلك الليلة لم ننم في الغرف. لم نعرف تفاصيل الأخبار إلا في اليوم التالي لما جاءت الصحف. يومها لم تكن هناك محطات اذاعة ولا راديات ولا من يحزنون. لكن المدير ارتأى أن ننام خارج الغرف. وكان عدد الموجودين قليلاً. فدار المعلمين في عطلة الصيف. والطلاب الذين كانوا يقيمون فيها يومها هم الذين يتقدمون للامتحان، وكان هناك اثنان من المدرسين وثلاثة أو أربعة ضيوف، كنت أنا أحدهم.

نُصِبت الخيام الموجودة في الملعب، وأنزلت بعض السّرر لكن الأكثرية اكتفوا بفرشة فوق حصيرة وغطاء خفيف، حتى دون خيمة.

كان من اساتذة دار المعلمين الموجودين فيها يومها سليم كاتول. كان قد أجريت له جراحة الزائدة، وكان في دور النقاهة. سليم كاتول قضى أيام مرضه في المستشفى الالماني، وكان جراحه غميلن من كبار الجراحين. لكن قبل نحو ستين سنة كانت جراحة الزائدة تعتبر عملية كبيرة. لذلك كانت العناية ضرورية لبعض الوقت. ومن

حسن الحظ أن العناية كانت متوفرة، فلم يُصَبْ مريضُنا (ومعلمنا) يومها بأي اختلاطات.

لكن كان هناك شيء آخر في الجو بالنسبة لسليم كاتول. قيل يومها ان سليم كاتول اللبناني ابن الشوير وضهورها أحب إحدى الممرضات الألمانيات، وأنها بادلته الحب، وأنهما يعتزمان الزواج. وقد تحدث بعض الموجودين يومها بذلك وتندّروا بالقصة. ولكن سليم كاتول تزوج الممرضة الالمانية التي أنجبت له ثلاث بنات وصبيا (هو وديع بيتر).

ومن طرائف المصادفات انني مررت قبل أيام (السبت ١١ اذار / مارس ١٩٨٩) بدكّان لبيع الدجاج أعرف أصحابه. فوجدت فيه سيدة فسألتها عن الأمر فقالت إنها هي أصبحت صاحبة المحل، وأن الدجاج سيرد بعد نحو أسبوع. وكان تبادل كلام بيننا فقالت لي أنا ابنة... وقبل ان تكمّل كلامها قلت «أنت ابنة سليم كاتول». وسألتني فيما إذا كنت قد عرفته (كان سليم كاتول قد توفي قبل مدة قصيرة)، ولما ذكرت لها أنه كان معلمي في دار المعلمين في السنة المدرسية ١٩٢١ـ١٩٢٢، نظرت الى شعري الأشيب وقالت ولكن؟ قلت يا ماغدا (Magda) مع هذا كله كان ابوك أكبر مني سناً، وكان معلمي.

وجاءني الخبر وأنا بعد في القدس من عكا أن البيوت الثلاثة السطحية في خان الفرنج أصبحت خطرة ولا يمكن السكن فيها. لذلك فأن أختي واخوي نقلوا الأغراض من البيت ووضعوها عند أصدقاء وأقاموا هم عند أصدقاء آخرين، وان أختي أخذت تفتش عن بيت. فأسرعت في العودة بعد الامتحان بيومين. وفي الليلة السابقة لسفري قال لي أحمد سامح الخالدي انه يتوجب علي أن أقضي السهرة معه. وكان لا بد من الامتثال. مررت به في منزله، فقال سنذهب الى مقهى البرستول.

كان مقهى البرستول يقع خلف سور القدس مباشرة، ويبعد مدخله الذي هو ثغرة في السور نحو مئتي متر عن باب الخليل (الذي يسميه الافرنج باب يافا Jaffa Gate)، وكانت تقوم الى الشمال من مدخله دكانة كبيرة عزيزة على نفسي هي مكتبة فلسطين العلمية. وكان المشرف عليه قد رتبه على شكل حانة انكليزية في جزء منه، ومطعم أنيق في الجزء الآخر. أما القهوة والشاي فكان لهما الوقت المناسب بعد الظهر. لم تكن المرة الأولى التي أخذني فيها أحمد سامح الخالدي الى البرستول. وهناك تعرّفت، عن طريقه، على أفراد شلّته، وكان البارزون منهم الأمير عادل أرسلان وإسعاف النشاشيبي والدكتور حسين الخالدي (اخا أحمد). دار الحديث ليلتها حول أمور كثيرة، وسألني أحمد سامح (وليلتها لم يكن اسعاف موجوداً) بهذه المناسبة يا نقولا عن أي موضوع كتبت في الامتحان (الانشاء في اللغة العربية). أجبته عن التجديد والمحافظة، وقد أخذت جانب التجديد. قال سيقطع إسعاف النشاشيبي رأسك.

كان المتحنان في اللغة العربية اسعاف النشاشيبي زعيم المحافظة على اللغة العربية في فلسطين، وخليل السكاكيني طليعة المجددين فكراً ولغة. قلت: «لا يا ابو الوليد، احتطت للأمر. فختمت الموضوع بقولي «وحَبّذا اليوم الذي نرى فيه عقلاً أوروبياً وقلباً عربياً يعملان معاً، ويعبّران عما يجول في النفس بلغة أبْدَعَها الابداع وأتقنها الاتقان». (و«قلب عربي وعقل أوروبي» مثل «كلمة في اللغة العربية»، مقالان لاسعاف النشاشيبي كانا قد نشرا قبل ذلك). فسرّ أحمد سامح من هذا وقال الامير عادل «هذا الشاب لازم يشتغل بالسياسة». وقال الدكتور حسين يعني مثل أخي أحمد سامح. أنا المعروف هنا في البرستول، أما هو من يعرفه؟ معلّم أو مدير مدرسة. لذلك عندما يريد ان يحجز طاولة هنا فانه يحجزها باسمي. هذا أيضاً اشتغال بالسياسة. كان يومها الدكتور حسين كبير أطباء لواء القدس ولم يكن قد انغمس في السياسة تماماً، فان هذا جاء بعد بضع سنوات.

كانت سنة ١٩٢٧ مفصلاً زمنياً مهماً في حياتي. كان حلمي هو أن أحصل على بعثة للدراسة الجامعية، وكان أملي، المرتبط بالحلم، هو أن ادرس الرياضيات. وفي شتاء تلك السنة كنت في القدس وزرت أحمد سامح

الخالدي وتحدثت اليه عن حلمي وأملي. فوعدني، إن أنا نجحت في المترك تلك السنة ان يبذل جهده في مساعدتي للحصول على البعثة (وكان يستطيع ذلك بسبب نفوذه في ادارة المعارف). يومها رأيت أن حلمي بدأ يتّخذ شكلاً له أبعاد، بدل أن يظلّ طيفاً يلاحقني.

وكانت هناك مشكلة أختي وأخوي. إنهم صغار، ويجب أن يكون هناك من يُشرف عليهم أولاً، وينفق عليهم أيضاً. الانفاق اعتبرته، من أي جهة جاء، ديناً عليّ أوفيه بعد تخرّجي من الجامعة. أما الاشراف فشيء آخر. جاءت عمتي لطيفة لزيارتنا فتحدثت اليها حول الموضوع باعتبار الخبر المفرح. فاذا بها تحلّ مشكلتي الاشراف والانفاق. أعلنت استعدادها لأخذ الثلاثة ليعيشوا معها في الناصرة، مدة دراستي الجامعية. وتعهدت بالانفاق عليهم على أن يكون هذا ديناً عليّ أردّه إليها متى بدأت العمل بعد تخرجي. وأخذت أخي الفرد معها في الثلث الثالث من السنة المدرسية وأدخلته المدرسة في الناصرة كي يتعوّد على المدرسة هناك وعلى الأقارب ويكوّن «شوية أصحاب».

الحلم الذي اتخذ شكلاً ذا أبعاد بوعد أحمد سامح الخالدي، أصبح الآن تمثالاً يكاد ينطق بعد ما أظهرته العمّة. وأخذت أنا أخطط على هذا الأساس.

لكن قبل أن أذهب الى القدس لتقديم الامتحان ببعض الوقت تلقيت رسالة من عمتي تخبرني فيها أنها عدلت عن الفكرة، وأنها لما درستها درساً صحيحاً وجدت أنها قد لا تنجح في العناية بثلاثة صغار. فهي كانت يومها قد تجاوزت الستين من العمر.

تحطّم التمثال، واختفت أبعاد الشكل، وفتّشت عن الحلم فوجدت أنه قد ضاع.

لكن ذلك لم يحل دوني واتمام الاستعداد للمترك. فذهبت وقدمت الامتحان، ولما أعلنت النتائج بعد نحو شهر ونصف الشهر كنت بين الناجحين.

وهنا أود أن أشير الى أن صديقي بولس جبران كان متشوقاً لمعرفة النتيجة، ولم يسمح لنفسه أن يخطر بباله أنني قد لا أنجح. وقد زاد اهتمامه لما قال له أحد زملائه في بلده كفر ياسيف، ان صاحبه (أي أنا) لا يمكن أن ينجح، فهذا امتحان له اربابه. فلما جاءت النتيجة في إعلان رسمي وجاء عكا ليبارك لي حمل الورقة الى بلده كي يريها لهذا المكابر. الاسماء كتبت أصلاً باللغة الانكليزية، لأن هذه هي اللغة الرسمية لمجلس التعليم العالي الذي كان ينظم الامتحان. ورتبت الاسماء على حروف الهجاء (على اسم العائلة) واسمي، بطبيعة الحرف الأول من اسم عائلتي، يأتي في آخر اللائحة. ولم يكن بين الناجحين اسم آخر يبدأ بمثل حرفي. فلما نقلت اللائحة الى اللغة العربية، وهي التي أرسلت لي، لم يغير ترتيب الاسماء. فلما رأى الصديق المكابر الورقة قال «شو يعني ما هوّ آخر واحد». وكان غيظ بولس من هذا الرجل كبيراً الى حد انه (كما قال لي) كاد أن يضربه (وبولس يمكنه أن يفعل ذلك) لولا أن حل الاشكال زميل لنا في كفر ياسيف كان يعرف قضية الترتيب فشرحها، وحلّ المشكل (أظن انه لا يجوز لي ان اقول «الاشكال» هنا، فهذه الكلمة لها عند اخواننا، في سنة ١٩٨٩، معنى خاص فني دقيق - ولو انه ليس علمياً).

عدت من القدس بعد الامتحان وكانت أختي ماري قد عثرت على بيت يطل على الفاخورة. انتقلنا اليه ونقلنا اغراضنا.

في مطلع السنة الدراسية ١٩٢٧-١٩٢٨، وفي شهر تشرين الأول (١٩٢٧) قرر أحمد سامح الخالدي ان يوزع الشهادات على خريجي دار المعلمين لسنتي ١٩٢٦ و١٩٢٧. ولما كنت انا قد نجحت في المترك، فقد أرسل لي خبراً كي أحضر الحفلة (فانا أصلاً من خريجي دار المعلمين). وفعلت. ذهبت من عكا الى القدس. وكانت الحفلة كبيرة، وكان يحضرها المندوب السامي عادة. وكان احمد سامح الخالدي حريصاً، في مثل هذه الأحوال،

على أن يلبس الثياب المناسبة. البنطلون الأسود المقلّم والجاكيتة السوداء والقبة (الياقة) اليابسة، والربطة الرمادية والحذاء الأسمر اللماع. وكان الرجل في عز شبابه، فهو مولود سنة ١٨٩٦.

كانت دار المعلمين قد تغير اسمها في سنة ١٩٢٦ فاصبح دار المعلمين والمدرسة الثانوية المركزية، وأظن أن الاسم نُقلَ عن بغداد، فقد كان فيها معهد بهذا الاسم.

لكن في حفلة توزيع الشهادات سنة ١٩٢٧، لما ألقى أحمد سامح الخالدي خطاب الرئاسة وصل الى عبارة طلب فيها من المندوب السامي ان يسمح للمعهد ان يعرف في المستقبل باسم الكلية العربية. وهكذا كان (فقد كان الامر متفقاً عليه مسبقاً بطبيعة الحال).

فيما تبقى من صيف ١٩٢٧ بدأت تخطيطاً جديداً لمستقبلي. لا بعثة جامعية، ولا دراسة رياضيات، إذ أن هذا بالذات لم يكن متيسّراً في عكا. صحيح انني درست ما نقصني للامتحان منفرداً، وكان نجاحي في الموضوع جيداً. لكن المسار سيكون عسيراً بدون استاذ. وحنا الخازن وأنا كنا أشطر الناس في الرياضيات في عكا.

كنت قد بدأت أميل الى التاريخ بعد تدريسه سنتين وقراءتي بعض الكتب التفصيلية. وملت الى العصور القديمة. أظن ان السبب في ذلك يعود الى طبيعة التاريخ القديم، وموقفي أنا من الأشياء التي أعالجها. لست أدري من أين جاءتني هذه الرغبة، وهي البحث عن الأصول والجذور. ومن هنا، ما دمت أحببت التاريخ، إذن فليكن موضوع اهتمامي التاريخ القديم. هناك يتعرف المرء على الأصل الأول، بقدر الامكان. وأدركت شيئاً آخر يومها وهو أنني يجب أن أتعرَّفَ الى علم الآثار بقدر الامكان. فبدأت بالتخطيط لزيارة الأماكن الأثرية والأماكن التي قام علماء الآثار بالتنقيب فيها. وكنت قد ربطت الجغرافية، من القراءة والرحلة، بما يحدث من أحداث. فتم لي من بدء الطريق الاعتياد على النظر الى قضايا التاريخ من حيث البيئة الطبيعية (الجغرافية) والعمق الأثري والحدث الزمني. وقد أفادتني هذه النظرة كثيراً في تفهمي لتطور البشرية لا أحداثاً فحسب ولكن حضارياً، وهو الأهم.

وهكذا وضعت لنفسي برنامجاً فيه ثلاثة مسارات: وكان المهم أن تتساوق هذه في تنفيذها. أما المسار الأول فهو الدراسة للتاريخ القديم دراسة منظمة، وأما الثاني فيشمل محاولة ملء الفراغ الثقافي العام - وما كان أكثره - في حياتي. ويظل المسار الثالث وهو تقوية لغتي الانكليزية.

ولنبدأ بالأخير. كان صديقي كارل نصار يدرس عن طريق مؤسسة في لندن اسمها المدارس الدولية بالمراسلة International Correspondence School. كان يتابع مع المؤسسة دراسة الهندسة. ولما حدّثني عنها أعجبتني الفكرة، فكتبت لهذه المؤسسة ولما أرسلت لي كتيّباً فيه مناهجها وبرامجها اخترت أحد المناهج للغة الانكليزية. وقد أفَدْتُ منها كثيراً فيما يتعلق بكتابة تلك اللغة. فقد كانت معرفتي محدودة. كان لكل برنامج يختاره الطالب عدد من الكتب تتدرّج في الصعوبة. وكان على الطالب ان يقرأ الكتاب أو على الأصح الكتيب. فاذا فرغ منه كان هناك أسئلة تتناول المادة، يتوجب عليه ان يجيب عنها. والاجابة كانت تتم على ورق يبتاع من المؤسسة. وترسل الأجوبة الى لندن وتعود مصححة. وإذا كانت الاجابة ضعيفة يطلب من صاحب المصلحة أن يجيب عنها ثانية بعد ان تعطى له ارشادات معينة ويرسل الأجوبة ثانية الى لندن لتصحّح هناك. وقد أعدت عدداً من الاجابات في أول الأمر. اظن أنني دفعت نحو عشرين جنيهاً لهذا البرنامج الذي استغرق العمل فيه نحو ستة أشهر. والمبلغ كان ثمن الكتب والورق وأجرة التصحيح.

ومن طريف ما حدث معي هو أنني عثرت يوماً مع الأسئلة على قطعة كان عليّ أن أرقمها، أي أن أضع الفواصل والنقاط الخ في أماكنها. ففعلت ذلك بحسب ما أرشدتني اليه قواعد المدرسة. ثم تذكّرت أنني قرأت هذه القطعة في كتاب للمؤرخ اللورد ماكولي. ففتحت الكتاب ووجدت فرقاً بين طريقة ترقيمه وطريقتي في الترقيم.

فخطر لي تبديل الورقة واقتباس طريقته. ولما عادت الورقة الي مصححة، وجدت ان طريقة ماكولي صححت، وكاد التصحيح يتّفق مع ما صنعته أنا أولاً. وفي أسفل القطعة جاءت ملاحظة من المصحح فيها «إن قواعد الترقيم تبدّلت بعض الشيء من أيام اللورد ماكولي». (بهذه المناسبة عاش ماكولي بين ١٨٠٠ و١٨٥٩).

مسار التاريخ كانت متابعته ممكنة أولاً لأن الكتب كانت ترشد، في الببلوغرافيات التي تحتوي عليها، الى ما يجب أن يقرأ تالياً. فضلاً عن ذلك فقد كنت أكتب الى المستر فارل، نائب مدير المعارف، وقد كان معيناً بالتاريخ الكلاسيكي، فكان يُرشدني الى اسماء كتب نافعة. وكنت، عندما أزور القدس أقصد مكتبة فلسطين العلمية واختار منها ما ينفعني. وقد جرّبت مرة أن أفيد من بعض اساتذة الكلية العربية (كما أصبحت دار المعلمين تسمى منذ خريف ١٩٢٧) فلم أوفّق.

لكن المسار الذي لقيت بعض الصعوبة في التخطيط له كان ذلك المتعلق بالثقافة العامة. كنت اقرأ المقتطف والهلال بانتظام. وفي السنوات التي كانت السياسة الاسبوعية تصدر في مصر أصبحت مدرسة ثالثة بالنسبة لي بعد المقتطف والهلال. ومثل ذلك يقال بالنسبة للرسالة والثقافة فيما بعد، لكن هذا النوع من التثقيف العام غير مخطط له من وجهة نظري. في هذه وفي غيرها من الدوريات كنت أقبل من الطعام ما يوضع أمامي مختاراً منه ما يلذ لي. لكنني كنت أريد شيئاً فيه تنظيم وتخطيط. تعرّفت الى سلسلة من الكتب اسمها مكتبة المفكرين (Thinkers' Library) وابتعت منها مجموعة من الكتب. لكن هذه كانت ذات اتجاه معين، لعلنا كنا نقول عنها، لو وجدت اليوم، ان لها ايديولوجية خاصة. وأنا لم أمتنع عن قراءة كتب تثير فيك أموراً تمس حتى العقيدة المسيحية. لكن الذي كنت أود أن أحصل عليه هو كتب فيها من كل فاكهة زوجان، بحيث تمكّنني من سدّ النقص الذي كنت أشعر به وأعرف نواحيه.

وأخيراً عثرت على ضالتي. وجدت أن مطبعة جامعة اكسفورد كانت تنشر يومها كتباً باسم مكتبة البيت الجامعية Home University Library. كانت هذه الكتب تتناول كل موضوع يمكن ان يتصور؛ وكانت أحجامها متناسبة (بين ٢٢٠ و٣٠٠ صفحة)؛ وكتابها، وهذا هو المهم، كانوا من كبار الاختصاصيين في موضوعاتهم. أظن أن مجموع ما صدر منها كان حول ثلاثمئة كتاب، وقد اقتنيت انها منها نحو مئتين، وصنعت لها رفاً خاصاً بها. هذه السلسلة من الكتب مكّنتني من قراءة ما أحب في العلوم والاقتصاد والسياسة والفلسفة والفن، ويسّرت لي أن أسدّ هذا الفراغ، ومع شيء كثير من التخطيط.

وظللت على اهتمامي بقراءة معمّقة في الأدب العربي القديم، كنت أقرأ دواوين الشعر وكتب النثر، فمن ديوان المتنبي الى العقد الفريد والكامل للمبرد. على ان قراءتي للأدب القديم لم تمنعني من الاستمتاع بشعر شوقي والبارودي وما كانت تدبّجه أقلام طه حسين ومصطفى صادق الرافعي وميخائيل نعيمة وجبران وغيرهم. كما أنني أطللت بعض الشيء على الفكر الأوروبي الذي كان يصلنا من عالم الأدب لا من عالم العلم فحسب، مثل هـ. ج. ولز، وكان بعضه مترجماً.

أيام كان عارف البديري مديراً للمدرسة كان لي رفيق للقراءة. لم يكن وقته يتّسع لما يتّسعُ له وقتي، فهو ربّ أسرة تتكون من زوجة وابنة وابنين. لكنه كان يقرأ. وكنا أحياناً نتناقش في بعض ما يرد في «السياسة الاسبوعية». لكن في الفترة التي تلت ذلك لم يكن لي في المدرسة لا رفيق ولا مزاحم في القراءة. فعلي شعت، الذي كان يجب ان يقرأ، كان مضطراً أن يراعي عينيه. والباقون حسبوا انهم ختموا العلم - قراءة وحفظاً ودرساً ومناقشة قبل مدة طويلة. والمهم أن عكا ظلّت طيلة المدة التي قضيتها فيها وليس فيها دكان واحد يبيع كتاباً أو حتى صحفاً. والذي كان يريد ان يحصل على جريدة بشكل منتظم كان عليه أن يوصي «بياع» الجرائد المتجول. وصاحبي «بياع» الجرائد كان أمياً، وقد اكتشفت ذلك مصادفة في سنة ١٩٢٩. كانت جماعة من الشّباب

الارثوذكس تنوي إنشاء ناد لها، على غرار نادي يافا. وأردنا ان ندعو الناس الى اجتماع. وكان من الضروري أن توزع الدعوات شخصياً، فالبريد لا يصلح لذلك في عكا. لذلك اقترحت انا تكليف «بياع» الجرائد، واستدعيته. فلما عرضت عليه العمل واطمعته بمكافأة جيدة، قال لي «لكن يا استاذ انا لا اقرأ، فكيف أعرف هذه العناوين!» وأُسقط في يدي. واخيراً اقنع احدهم موزّع البريد ان يفعل ذلك، ويحمل الدعوات كما لو كانت رسائل جاءت بالبريد. وهكذا كان. فاستفاد هو واستفدنا نحن.

مخطّطي كان جيداً. وقد اخذت بتنفيذه بشكل دقيق. وانا مولع بالقراءة فليس ثمة صعوبة؛ وانا مغرم بزيادة معرفتي (ولا ازال)، وإذن فالقراءة تزداد التصاقاً بي وازداد انا التصاقاً بها؛ وانا حريص على النظام. أخضع نفسي كما أحب أن أخضع من هم تحت نفوذي له. فالقضية إذن بوجوهها الثلاثة. أم تريدون مني أن أكتب كالمحدثين تماماً فاقول بأبعادها الثلاثة. امر محبب إلى نفسي. وقد وجدت في عام ١٩٤٥ داخل كتاب كان عندي ورقة مؤرّخة سنة ١٩٢٧ وفيها أمور اعتبرت يومها أنها لازمة لي داخل إطار المخطط. ووجدت انني حققت الكثير منها. وهذه الورقة التي حفظها الكتاب ثماني عشرة سنة، ظلت فيه. وأغلب الظن انها ذهبت معه لما نهب الصهاينة بيتي في القدس سنة ١٩٤٨.

لكن هناك أمر مهم! أنا فضلاً عن اهتمامي بالناحية التثقيفية لنفسي، فأنني بحاجة الى شيء يزداد فيه مرتبي أكثر من الزيادة السنوية التي كانت قيمتها نصف جنيه (في الشهر).

خطرت لي فكرة العمل للحصول على درجة بكالوريوس من جامعة لندن كطالب خارجي. وهو نظام كان يمكن اتباعه فيحصل الطالب على الشهادة الجامعية الأولى وحتى على الدكتوراة كطالب خارجي. استعداده يكون حرافية يقوم به حيث يكون. وقد يسترشد بأحد الخبراء عن طريق إدارة الجامعة، لكن ليس ثمة ما يضمن انه يحصل على ما يريد أو ينتظر باستمرار. ثم يتقدم الى الامتحان، بدرجاته المختلفة في المواضيع المعروفة والمعينة. وبطبيعة الحال عندما يتجاوز البكالوريوس الى الماجستير أو الدكتوراة فهناك الرسالة الجامعية. هنا يعين له مشرف يسترشد به وبآرائه كلما دعت الحاجة الى ذلك.

إلا أنني استصعبت الخطوة. ووجه الصعوبة عندي كان ذا شقين: الأول وجودي في عكا، وليس في المدينة مكتبة عامة يمكن ان يلجأ اليها. اما الثاني، وقد تقوى بالشق الأول، فهو انني كنت سأقوم بذلك كله باللغة الانكليزية. وأنا أعرف ان مقدرتي في استعمالها للكتابة، مع التحسن الذي طرأ عليّ في القراءة بالانكليزية، كانت موضع شك في نفسي. ولم أرض بأن أُلقي نفسي في بحر خضم قبل أن أتعلم السباحة، ولو على الشاطىء.

كان العمل لهذه الشهادة الجامعية، في رأيي، يستغرق أربع سنوات (وقد تمتد الى خمس). والمكافأة المالية كبيرة، إذ أن الزيادة الشهرية ستكون نحو عشرة جنيهات دفعة واحدة. لكن نفسي لم تطاوعني بالمجازفة.

إذن فلننتقل الى امر أضمن ولو أن المكافأة المالية عنه هي نصف المبلغ المذكور.

كانت ادارة المعارف قد انشأت نظام امتحان سمته امتحان الشهادة العليا للمعلمين (للتعليم الثانوي). كان يحق لأي معلم يحمل شهادة ثانوية أو شهادة المترك، ويعمل في ادارة المعارف، ان يتقدم له. وقد أعلنت ادارة المعارف أنها تعتبر الذين ينجحون فيه مساوين لخريجي الجامعة الاميركية في بيروت، بمعنى انهم ينقلون رأساً الى المربوط الادنى لدرجة هؤلاء المدرسين. ثم يسمح لهم بالوصول الى مربوط الدرجة العليا كأولئك، مع فرق بسيط وهو أن زيادة خريجي الجامعة كانت جنيهاً شهرياً (كل سنة) أما زيادة الآخرين فهي ثمانون قرشاً (وبعبارة أدق ٨٠٠ مل) في الشهر. لذلك فالوصول الى المربوط الأعلى للدرجة يستغرق مدة أطول. الا ان امراً آخر كان يعدّل الخطة. خريجو الجامعة الاميركية كانوا يظلون واقفين عند المربوط الأدنى للدرجة الى أن يجتازوا

امتحاناً في التربية والتعليم، وقد يطول ذلك عند البعض الى سنتين أو اكثر. أما حملة شهادة الامتحان الأعلى، فقد كانوا لا يتأخرون لأن التربية والتعليم كان لهما جزء خاص من الامتحان. فتكون العقبة قد أزيلت من الطريق أصلاً.

أخذت إدارة المعارف، الى درجة ما، بما كانت تفعله الجامعة الاميركية في بيروت يومها؛ ذلك بأنها ألزمت المتقدمين للامتحان بموضوعين الواحد أساسي (major) والآخر ثانوي (minor). وكان هناك مجموعات معينة لا يجوز التغاضي عنها في اختيار المواضيع. والأصل في هذا التحديد هو أن لا يكون هناك امتحان في اللغة العربية وآخر في الكيمياء مثلاً. وليس في ذكر المجموعات كلها أية فائدة، فأنا لا أؤرخ لهذا الامتحان وشهادته. أنا أتحدَّث عن تجربتي الشخصية والدور الذي قمت به لتخفيف العبء عن المتقدمين له.

آثرت انا مجموعة التاريخ (أساسي) والجغرافية (ثانوي)، وكان هناك التربية والتعليم. كان للتاريخ خمسة امتحانات: منها لعصور التاريخ ثلاثة، وموضوع اختصاص (واحد) وكان يتبدل كل سنتين، وعلم الآثار (واحد)؛ وكان للجغرافية ثلاثة امتحانات (جغرافية طبيعية وجغرافية اقتصادية وجغرافية اقليمية مع الاهتمام بالمشرق العربي). اما التربية فقد كان لها ثلاثة امتحانات (تاريخ التربية والأساليب التعليمية وعلم النفس) فضلاً عن امتحان عملي يقوم فيه الممتحن بتدريس موضوع معدٍ سابقاً لصف معين، ويتم ذلك امام خبراء- ثلاثة أو أربعة.

وكان النظام يقضي بان يقدّم المعلم الامتحان، باقسامه الثلاثة، في دفعة واحدة وان ينجح في الاقسام الثلاثة معاً، وإلا فانه مقصّر. وقد جرب واحد أو اثنان الأمر فلم ينجح أحد. ولعلهم استهانوا بالأمر. انا لم أستهن بالأمر، ولانني لم استهن أدركت مدى الصعوبة في الأعداد لهذا كله بحيث يمكن تقديم الامتحان في دفعة واحدة. وزاد ادراكي للصعوبة لما اطلعت على لائحة الكتب المقترحة في التاريخ والجغرافية، بله علم النفس وتاريخ التربية. على كل أردت أن تكون جميع الكتب في متناول يدي عندما أبدأ بالعمل. لذلك ذهبت في صيف ١٩٢٩ الى مكتبة فلسطين العلمية بالقدس، ومعي لائحة بكتب التاريخ والجغرافية باللغة الانكليزية. عرضت على المسؤول عن البيع، وديع جلّوق، وكانت لي به صلة معرفة بسبب ترددي على المكتبة وشراء الكتب منها، ان تطلب المكتبة لي الكتب جميعها حالاً، وأنا أدفع كل شهر جنيهين حتى ينتهي المطلوب مني. كان وديع مرات يعطيني كتاباً بالدين على أن أبعث بثمنه في أول فرصة ممكنة. لكن هذه مناسبة خاصة. فمجموع ثمن الكتب تجاوز السبعين جنيهاً، ومعنى هذا ان الدفع سيمتد نحو ثلاث سنوات. لذلك كان لا بد من مراجعة بولس سعيد، أحد صاحبي المكتبة والمقيم في القدس. راجعه وديع، واستدعاني بولس، ولما دخلت مكتبه ودعاني للجلوس سألني عن المناسبة (يبدو أن وديع لم يفهم القضية تماماً فلم يستطع تفسيرها له). أخبرته أن هذه الكتب تلزمني للاستعداد لامتحان المعلمين الأعلى، وأنني أنا أقطن عكا وليس في البلد مكتبة، لا عامة ولا خاصة، ولا حتى حانوت لبيع الكتب. لذلك يجب أن تكون الكتب تحت يدي. ومعاشي لا يسمح لي بشرائها دفعة واحدة، ومن هنا جاء عرضي. تأمّل وديع في كلامي هنيهة، ثم التفت الى وديع، دون ان يسألني سؤالاً واحداً وقال له: اطلب الكتب حالاً وابعث بها اليه بالبريد حين وصول أي منها». والتفت الي وقال: «موفق ان شاء الله، مع السلامة». وقد اعتبرت يومها هذا التصرف من بولس سعيد، وهو صاحب أعمال، منتهى ما يمكن من الثقة بي. وقد دام الأمر بيننا حتى بعد ان وصلتني الكتب اللازمة للامتحان، أو على الأقل ما عثر عليه منها في انكلترا. فقد ظللت أطلب كتباً وأدفع جنيهين في الشهر حتى تركت عكا سنة ١٩٣٥. ولما عدت الى القدس (١٩٣٩) وعملت في الكلية العربية والكلية الرشيدية كنت أتعامل مع مكتبة فلسطين العلمية، وكان يوسف (بن بولس) قد تولى أمرها عندئذ. وكان تعاملي مع المكتبة أساساً لصداقة قوية مع يوسف، استمرت لما التقينا في بيروت. وقد هاجر يوسف الى

كندا، وكنت دوماً أتمنى له الخير.

نعود الى قضية الامتحان. أنا اعتزمت على تقديمه. لكنني كنت أرى الصعوبة في الاستعداد للاقسام الثلاثة في سنة واحدة. وأحسب ان سبب ادراكي الصعوبة يعود الى أنني لم استهن بالأمر، ولم أعتبر القضية متوقفة على حفظ كتاب أو أكثر فقط.

هممت بالكتابة رسمياً الى ادارة المعارف مقترحاً على المسؤولين السماح للمعلمين للتقدم الى الامتحان في سنتين متواليتين مثلاً. لكنني كنت أعرف أكثر الموظفين في الادارة المركزية، وكان يهمني بكل خاص الموظفين العرب. تصورت رسالتي يبعث بها مدير المدرسة (في عكا) الى مفتش معارف الجليل. وقد يعلّق عليها الاثنان وقد لا يعلقان. مع انني كنت أرجح ان يعلق عليها المفتش يومها جميل الخالدي لأنه كان ممن عمل في التعليم سابقاً (وفي الحركة الوطنية أيام الدستور العثماني الثاني ١٩٠٨). ليس المهم هنا فقط. المهم في الادارة المركزية. هذه القضية يجب ان يصدر القرار فيها عن فارل، نائب مدير المعارف، فأنه هو صاحب المشروع أصلاً. (مدير المعارف بومان كان يعني بالسياسة المحلية أكثر من عنايته بالشؤون التعليمية). ولكن ماذا يمكن أن يقول منسّى حنوش؟ وماذا كان يمكن ان يعلّق غيره؟ أليس من المعقول ان يرى الجميع في رسالتي تجنّياً وتحاملاً على العبقرية التي نظمت هذا الامتحان؟ أليس من المكن، وليس في هؤلاء الموظفين يومها بعد من له بشؤون التعليم خبرة، أن يقولوا لا، لا، لا الواحد بعد الآخر؟ هؤلاء القوم الذين لم يقرأوا حتى الصحف، منذ سنوات، كيف يمكنهم ان ينظروا الى مثل هذه القضية، وهي أصلاً اعتراضي على «تشريع» فارل؟ ويظل هناك شخص واحد لرأيه قيمة هو جبرائيل كاتول. لكن جبرائيل كاتول قد لا تصل اليه الرسالة لأنه مرهق بشؤون الادارة والمالية وحتى التفتيش على تعليم الرياضيات والعلوم في المدارس الثانوية. وحتى لو عرضت عليه لعله كان يعتبر الأمر تحدياً لادارة المعارف، وكان قال لا. فهناك فرق كبير بين جبرائيل كاتول عدما يكتب له نقولا زيادة مسترشداً برأيه في تقديم علم النبات في المترك وجبرائيل كاتول - مساعد مدير المعارف - عندما يكتب نقولا زيادة رسالة رسمية يطلب فيها تبديل قاعدة أو أسس إدارية. في الحالة الأولى يجيب برسالة بخط يده. أما في الثانية فالمرجّح أن يقول لا هو الآخر.

وجاءت المصادفة الطيبة. جاء فارل لزيارة المدرسة في عكا. وحضر عندي درساً في اللغة الانكليزية. وفارل كنت أعرفه وأكاتبه في شؤون علمية تاريخية، على نحو ما ذكرت قبلاً. وفيما كان يمر أمام غرفة المدرّسين، في بهو المبنى الطويل، استأذنته في أن يمنحني بضع دقائق. فأجاب مبتسماً وقال مشكلة تاريخية؟ ودار بيني وبينه الحديث التالي:

ن - لا يا مستر فارل، ولكنها علمية على كل حال!

ف - وما هي، زيادة؟

ن - انتم تنتظرون من الذين يجتازون امتحان المعلمين الأعلى أن يكونوا في مستوى خريجي الجامعة الاميركية في بيروت،

ف - لا، أكثر من هذا.

ن - في الجامعة الاميركية يدرس الطلاب ثلاث سنين بعد المترك، وكلما فرغوا من دراسة موضوع يتركونه، وتقيّد لهم العلامة كأنها حساب في بنك. وفي نهاية السنوات الثلاث يحصلون على درجة البكلوريوس.

ف - وماهي العلاقة بين هذا وبين امتحان المعلمين الأعلى؟

ن - الأمر المهم هو أنه يطلب منا أن نتقدم للامتحان في أقسام ثلاثة في سنة واحدة وهي تساوي جماع ما يتعلمه طلاب الجامعة الاميركية في ثلاث سنوات. أليس من الممكن ان يقدم الامتحان في سنتين متواليتين مثلاً؟

سمح فارل لنفسه ان يهضم ما قلته. ثم التفت اليّ وقال:

ف - أنت محقّ في ملاحظتك. سأكون في القدس بعد اسبوعين. أكتب رسالة معنونة لي شخصياً، وأوضح ما أشرت اليه.

شكرته على اهتمامه. وضعت الرسالة معلّلة موضحاً فيها رأيي بالتفصيل، وأودعتها البريد بحيث تكون أمامه يوم وصوله. بعد ثلاثة أسابيع جاء التعديل لنظام الامتحان. يمكن ان يقدم الامتحان في سنتين (أي على دفعتين) وليس من الضروري أن تكونا متوالتين.

لذلك تقدمت للامتحان في سنتين، لكن كانتا متوالتين. تقدمت للتاريخ سنة ١٩٣٠ وللجغرافية والتربية سنة ١٩٣١. وفي السنة التي تقدّمت فيها لامتحان التاريخ كنت الوحيد الذي نجح. وقد روى لي صديقي (المرحوم) محمود العابدي، وقد تقدم سنتها ولم يوفق، أنه ذهب الى (المرحوم) وصفي عنبتاوي، الذي كان يومها استاذاً في الكلية العربية، وكان أحد الفاحصين في التاريخ، وسأله عن الامتحان وصارحه وصفي بأن الاجابات كانت بسيطة. ولما اشار محمود الى نجاحي قائلاً وكيف نجح نقولا، كان جواب وصفي: «مشكلتكم كانت في وجود نقولا، الذي استعد استعداداً كافياً وكبيراً لذلك كشفكم».

في تلك السنة تقدم أحد الزملاء للامتحان، ولم يوفق. وفي سنة ١٩٣٥ ذهبت أنا الى لندن تلميذاً، وعدت (١٩٣٩) مدرّساً في الرشيدية والكلية العربية، وأصبحت أحد الفاحصين في هذا الامتحان، وكان لا يزال يجرّب حظَّه، الى أن اتفقنا أنا وإياه أن القضية ليست قضية حظ، وأنما المهم الاستعداد للامتحان، ونصحت له بضرورة القراءة المنظمة. ففعل ونجح، بعد نحو ست محاولات.

لما نجحت في الامتحان زيد راتبي أربعة جنيهات ونصف الجنية شهرياً دفعة واحدة، أي ٥٢ جنيهاً في السنة. وبذلك كوفئت على جهدي. وأصبح بامكاني أن أذهب الى مصر مرتين متوالتين (١٩٣٣ و١٩٣٤) وان أزور لبنان (١٩٣٥). وكان اجتيازي لهذا الامتحان بالنسبة للاصدقاء في عكا وغيرهم وللأقارب في الناصرة مدعاة للسرور والفرح الكبيرين. وصار القول السائد «يلا يا نقولا، الحكاية بدها عروس».

كان قد مرّ علي ست سنوات وأنا أعلم في مدرسة عكا الثانوية. علّمت، كما ذكرت، تقريباً جميع الدروس، بما في ذلك الجبر والهندسة إذ غاب حنا الخازن في اجازة مرضية. وأشرفت على الرياضة والكشافة. ولكن ما نوع النشاط الذي مارسته خارج المدرسة؟

كان من الطبيعي، في مدينة صغيرة مثل عكا، أن تبدأ الصداقة بالزملاء. لكن كان ثمة صعوبة بالنسبة لي. كان زملائي يكبرونني سناً بسنوات عدة. فقد كان أصغرهم يسبقني عمراً بنحو عشرين سنة. اما الباقون فكانوا أكبر من ذلك. ثم كانوا جميعهم متزوجين وعندهم أولاد. لذلك فقد اقتصرت الصحبة مع أكثرهم على أوقات المدرسة، يضاف اليها يوم أو أكثر في الاسبوع نقضي فيه ساعة أو ما الى ذلك في حديقة البلدية. لكن ظروفاً خاصة خلقت صلة أمتن بيني وبين يوسف خليل، ذلك بأن زوجته روجينا أصبحت صديقة لأختي ماري، منذ أن تجاورنا في خان الافرنج. فكانت الزيارات كثيرة. وكان ثمة قلب وبيت مفتوحين لي من أول الأمر هما قلب جبرائيل خوري وبيته. كان جبرائيل خوري ضئيل الجسم يبدو وكأن أي ريح يمكن أن تطرحه أرضاً لا أن تحنيه فقط. ولم يكن يُظْهرُ من العنفوان الذي لا معنى له مثل الذي كان يبدو على يوسف حنا. كان رقيق الحاشية أنيس المحضر بارعاً في الاستشهاد بالأمثال. وقد تعلمت منه الكثير منها. أذكر يوما جاءه جميل عبدالهادي وقال له يا أبو يعقوب بدنا نتجوّز كبرنا، دبّر لنا عروساً من عكا. فكان جواب جبرائيل له «يا جميل كل شي تنصيب (أي بترتيب) الا الزواج قسمة ونصيب». ولما سأله جميل فيما إذا كان هو قد تزوّج أم يعقوب عن

حبٍّ قال له ان الحب نشأ فيما بعد وكان مصحوباً بالاحترام المتبادل. وروى لنا أنه لما تزوج بديعة مطر وتم الأكليل في الناصرة (بلد العروس) وكان العروسان على وشك مغادرة البلدة قالت أمها لهما «إن شاء الله بتقلع عينها بالمال وبتقلع عينك بالأولاد».

ابو يعقوب وأم يعقوب فتحا لي قلبهما وبيتهما. كنت كثيراً ما أخرج صباح الجمعة وصباح الأحد (خاصة في الربيع والخريف) للمشي، على طريق بيروت، في الصباح المبكر. وكنت أمر ببيتهما، لأنه كان في طريقي، وأنا عائد. وكان ثمة دوماً استقبال حار كأنني لم أر جبرائيل خوري منذ مدة، مع اننا كنا نعمل معاً في اليوم السابق. وكان لأم يعقوب قريب اسمه ابراهيم مطر، كان من الأصدقاء العزيزين عليَّ جداً منذ أن التقينا في القطار في أوائل شهر تموز / يوليو ١٩٢١، ونحن ذاهبان الى القدس لتقديم امتحان الدخول لدار المعلمين؛ ثم تزاملنا في دار المعلمين. وكان إذا جاء ابراهيم عكا نزل عند ابو يعقوب. فكانت أم يعقوب تسرّ بزيارتي لقريبها المتخرج من الجامعة الاميركية في بيروت. وكانت مثل تلك الزيارات شيئاً ممتعاً إذ لم يكن فيها أي تصنُّع.

وجاءنا زميلاً ناصر عيسى (الرامي). وهو مثل يوسف حنا وجبرائيل خوري من خريجي دار المعلمين الروسية، وأظن أنهم كانوا زملاء فترة لا دفعة.

كان ناصر عيسى يختلف عن الآخرين في أمرين. كان شاعراً وكان شرِّيب كاس. وكان في شعره الكثير من رقة الاحساس ودقة الوصف وتأجّج العاطفة. وكنت أنا أثير فيه الحماسة كي يقول الشعر. أذكر مرةً زار فيها خليل السكاكيني النادي الارثوذكسي وقبل ان يحدثنا. وقد قدمت أنا الخطيب، وقد وفقت في التقديم، وقد أروي حديثه في مناسبة أخرى. وكان من المألوف أن يقول ناصر عيسى أبياتاً من الشعر تكريماً للمتحدث. يومها لم يكن عند ناصر «مراق» لقول أي شيء. وقال لي قبل البدء بالمحاضرة، أرجوك أن لا تطلب مني الكلام. ومع أنني احترمت رغبته ظاهراً فكنت، وخليل السكاكيني يتكلم، انظر اليه متحدياً غامزاً من قناته، وكان هو يعرف لغتي هذه ويفهمها. ولم يكد السكاكيني ينتهي من كلامه، وقبل ان ينتهي التصفيق كان ناصر عيسى واقفاً وبيده ورقة فيها بضعة أبيات كان مطلعها

تخذت مصدر إلهامي ملائكةً (وأشار اليّ) لما دعا القوم وحي الشعر شيطانا

فكانت تصفيقة كبيرة للاثنين

كان لنا صديق يعزّ علينا هو الأب يواكيم قرداحي رئيس المدرسة الاسقفية للروم الكاثوليك بحيفا. وقد تعرفت عليه عن طريق يوسف نصر (ابو أسعد) وكنت مرات أزور المدرسة وأتحدث للطلاب في التاريخ والجغرافية. وقد تمتنت الصداقة بيننا بحيث انني كنت أدعى للطعام في بيت أخيه (لأن الطبخ في الأنطُش لا يصلح للضيافة كما كان يقول) وقد دعوت بعض الزملاء من مدرسة عكا الثانوية لالقاء كلمات على الطلاب في حيفا، وكان ناصر عيسى ممن لبَّى الدعوة أكثر من مرة.

كان الأب يواكيم لبنانياً. وكان يقضي عطلة الصيف في لبنان. فاذا عاد في نهاية الصيف اصطحب معه كم قنينة عرق لبناني. في نهاية عطلته الصيفية عاد الأب يواكيم الى حيفا وأرسل لنا الخبر، واتعدنا يوم أحد تال. في ذلك اليوم لم يلب الدعوة من عكا سوى ناصر وأنا. وذهبنا بالقطار. في الطريق قلت لناصر لن تنال نقطة عرق واحدة ان لم تنظم شيئاً خاصاً بهذا اليوم. طلب مني أن أتركه، فأعدت الانذار وسكت. وقبل ان يصل القطار محطة حيفا (والمسافة نحو أربعين دقيقة) كان ناصر يخطّ على ظهر علبة السجائر بقلم الرصاص شيئاً. فاطمأن قلبي. ولما وصلنا ومدّت المائدة، ودرنا حولها مع ضيوف الأب يواكيم الحيفاويين، وكانت تتصدرها زجاجة العرق المثلث (من أيام زمان) ومازات بيت القرداحي، أخذ ناصر عيسى علبة السجائر من جيبه، وبعد ان روى

قصة القطار، قرأ البيتين اللذين أعدهما. وأنا لا أزال أذكر البيت الثاني (فهو المهم) وفيه يقول ناصر

قـــدَّسَتْهـــا يدُ المسـيح قـديمـاً	وحـديثـاً أناملُ القـرداحي

ولأن ناصر عيسى ألقى بعلبة السجائر بعد أن فرغت لا تذكر هو ولا تذكرت أنا البيت الأول.

وكان ثمة تحدٍّ لناصر عيسى في القطار أيضاً، ولكن في سفرة أطول. كنا قد ذهبنا الى بيسان مع فريق من تلامذة مدرستنا للعب كرة القدم، ولقضاء ليلة في ضيافة طلاب من مدرسة بيسان ومعلميها. ذهبنا من عكا بالقطار الى حيفا، وبدلنا القطار هناك الى العفولة ثم بيسان. قضينا يوما لطيفاً وليلة لا أحسب أنه أتيح لفريق آخر من تلامذة مدرسة عكا أن يقضي ليلة مثلها. سفرة طويلة، العدد نحو خمسة وعشرين، مع المعلمين ولكن دون جرس الدروس، وقد تحلل حتى المتزمتون من المعلمين فقصوا على التلاميذ قصصاً من أيام طلبهم العلم وما الى ذلك.

في اليوم التالي عدنا. ومررنا بمشروع روتنبرغ، وهو مقر الامتياز الذي منحته حكومة فلسطين لروتنبرغ بحيث احتكر انتاج وتوزيع الكهرباء (من مساقط في نهر اليرموك) في فلسطين كلها (باستثناء القدس وجوارها) للانارة والصناعة. ورأينا هذه التقنية الفنية العلمية التي ستبتلعنا مع الزمن. وبعد هذه الزيارة ركبنا القطار الى العفولة وحيفا. أذكر أنني التفت الى ناصر عيسى وقلت له أنيس (الخوري) المقدسي له قصيدة مطلعها

على اليرموك قف واقرأ السلاما	وكلمه إذا فهم الكلاما

وكان ناصر يعرف القصيدة، كما كان يحفظ ابياتاً منها كما كنت أنا أحفظ. فهل لك ان تعارضها يا أبو جورج!

كان ناصر عيسى إذا اعتزم قول الشعر في أمر مرتبط بالعاطفة يبدو ذلك عليه. فهناك تجهم الوجه، واحمرار أطراف الاذنين، وتنقل العينين. يظل هذا حاله - في غليان ان جاز التعبير - حتى «تنضج الطبخة» فيهدأ ويتناول القلم والورق - أي ورق كان يومها. وقد قال ناصر عيسى يومها قصيدة جيدة جاء في مطلعها قوله

على اليرموك لا تقرا السلاما	ولا تطلْ التحدّث والكلاما
فليس الماء بعد اليوم عذباً	فلا يشفي ولا يروي أُواما

كانت قصيدة طويلة وقد وفق ناصر عيسى في التعبير عن عواطفه الجيّاشة وألمه العميق لما نحن (كنا) فيه. وختمها بالبيت التالي

إذا اتحدت رجال العرب يوماً	سيصبح كل مشروع حطاماً

هذه هي الأبيات الثلاثة التي أذكرها من قصيدة اليرموك. وهنا يصح إيراد خبر نكبة أشعار ناصر عيسى. كان الرجل يدوّن قصائده في دفاتر تمهيداً لترتيبها ونشرها (اذا سمحت الظروف كما كان يقول دوماً). وكان لناصر عيسى بنتان تطلبان العلم في دار المعلمات بالقدس. وفي يوم من الأيام حملت إحداهما الدفاتر الأربعة معها لما عادت إلى دار المعلمات بعد العطلة. أرادت أن تقرأ أشعار أبيها على صديقاتها. وفي دار المعلمات اختفت الدفاتر الأربعة. كيف؟ لم أعرف تماماً. ولم تكن ثمة مجموعة أخرى كاملة. كانت بعض القصائد والمقطوعات مدونة على وريقات، ولكن الكثير من القصائد لم يكن له أصل عند ناصر عيسى. أعرف ان ابنه جورج عمل جاهداً في حياة والده وبعد وفاته لجمع شمل هذا الشعر. وقد أثمرت جهوده؛ لكن ثمة قصائد ضاعت بالمرّة. على كل فالذي جُمِعَ لا يزال ينتظر ان تسمح الظروف بنشره.

هذه ناحية من الناحيتين اللتين كان ناصر عيسى يختلف فيهما عن بقية الزملاء. والثانية هي أنه كان «شريب كاس». أظن أن كثيرين من الزملاء كانوا لا يمانعون بأن تكون في بيتهم زجاجة فيها شيء من الكحول. وكان المقصود العرق بطبيعة الحال. وقد يشرب هو وحده كأساً وقد يقدم لبعض أصدقائه كأساً في كثير من الحالات. لكن ناصر عيسى كان يحب ان يجلس مساء، وخاصة مع صديق، أمام مائدة يغلب عليها التواضع، ويحتسي كأساً أو أكثر من العرق، وإذا اتّسع المجال وكانت ثمة منادمة كان ناصر عيسى يطرب لذلك ويطرب في هذا الميدان. وقد تنتهي الجلسة بأبيات من الشعر الجيّد أو غير الجيّد. وتغلب واحدة من هاتين الصفتين على الأخرى كان يتوقف على الحضور. فجلسة خنفشارية لا يمكن أن تنتج من الشعر، إن أنتجت، إلا النوع الخنفشاري.

كنت أنا قد بدأت أتعاطى المشروبات الكحولية، وكنت، وما زلت، أشرب باعتدال. لكن المهم أنني كنت أسَرُّ بجلسات ناصر عيسى. والأمر الذي أذكره هو انني لم أكن أجالسه يومياً. فذلك أمر يقتضي من الوقت ما لا أملك أن أنفقه في مثل ذلك.

وحكايتي مع تعاطي المشروب قد تستحق أن تروى. كان جارُنا ابو وديع (على ما ذكرت قبلاً)، لما كنّا نسكن في جنين، لا بد من أن يضرب زوجته كل ليلة. وكنا نسمع صراخها. ولم يهب أحد لنصرتها. وبعد الحاح مني لأمي عن سبب هذا الضرب، قالت ان «ابو وديع» يشرب كل ليلة خارج البيت، ويعود سكراناً، لذلك يجد في تصرف أم وديع - على رأيه - ما يؤذيه فيضربها لتأديبها.

ربطت قضية الضرب بالشرب، فلما بدأت العمل، وكنت لم أتم السابعة عشرة من عمري، وكان باستطاعتي الانفاق على شراء العرق أو النبيذ مثلاً، لم أفعل ذلك لأن تقزّزي من أخبار ابو وديع كان مستقراً في دخيلتي. والذي أذكره هو انني عندما كنت أزور جدي لأمي، وكنت أجالسه وأصحابه إذ ينصرفون الى كأسهم، كنت اكتفي بأكل «المازة». وعندما يتنبّه جدّي لفعلتي كان يطلب مني أن اغادر الجماعة أو أحضر «مازة» جديدة من البيت. وكان ذلك متيسراً. فاللبنة والجبنة والمخلل والزيتون هذا من المونة، والبندورة والخيار والفجل مزروعة أمام البيت، فاذا كان موسم أي منها قطفت طازجة وقدمت. وكل ما كان علي أن أفعله هو حمل هذه الأشياء لما كانت جدتي حيّة. فلما توفيت كان علي أن أخرج الأشياء من مرطباناتها وأحملها الى جماعة جدي.

لما عُيّنتُ للتعليم في الناصرة (ايلول / سبتمبر ١٩٢٤) واثناء الأسابيع القليلة التي قضيتها هناك، تزوجت ريما بنت عمي يعقوب سكران. وكانت هناك السهرات في بيت عمي يعقوب، ثلاث ليال أو أكثر لا أذكر. وجاء أخ للعروس تقرب سنه من سني ليدعوني لحضور سهرات العرس. فأنا من العائلة ولا يجوز أن أتغيّب، وكنت قد ذكرت أنني قد أضطر الى التغيب. وكان الجميع يعرفون السبب. سيشرب الجميع. وهناك أنخاب، وقد يكون ثمة نخبي بينها. وإذن يجب أن أشرب. وكنت قد أنذرتهم بأنني لن أشرب، وإلا فأنني أتغيّب. وحصلت المشادة لما جاء الشاب ليأخذني. دارت المشادة حول (١) لا يجوز أن أتغيّب عن السهرة (٢) لا يجوز أن أحضر دون أن أشرب. فالأمران قد يعطلان السهرة بكاملها. وقد حلّت المشكلة بأن ذهبت، وجلست الى الطاولة وأمامي كأس عرق (على طريقة الشريبة)، وكنت أرفع الكأس الى شفتي ثم أعيدها الى الطاولة دون تذوق ما فيها. وهكذا أمام الناس شربت وحضرت السهرة وانقضت على خير، لأنني تغيّبت بعدها عن الناصرة، في طبرية، يومين أو ثلاثة، إلى أن حان موعد الاكليل.

في عكا تعرفت في صيف ١٩٢٦ على كارل نصار، الذي كان يعمل في طبرية، وترك العمل وجاء ليشتغل في حيفا في ادارة السكة الحديدية. كانت غرترود، اخته الكبرى، مديرة مدرسة البنات في عكا، وكانت تعيش هناك مع أمها. فجاء كارل ليعيش معهما.

الفصل الثامن

كان كارل يذهب صبيحة كل يوم بالقطار الى حيفا، ويعود بعيد الظهر الى عكا الى منزله. ولم يكن كارل وحيداً في هذا. فقد كان هناك حوالي ستمئة موظف، يعمل أكثرهم في سكة الحديد، فضلاً عن عشرات من الذين كانوا يعملون في القطاع الخاص، وجميع هؤلاء كانوا يسكنون في عكا. البيوت في عكا أرخص والمواد الغذائية متوفّرة وطازجة ـ الحليب واللبن واللبنة والخضار والفواكه. والمصروف الآخر في عكا قليل. فهناك دار سينما واحدة كانت تغيّر الافلام مرة أو مرتين في الاسبوع. كان اسمها سينما الزهرة قرب قهوة البحر. كانت القاعة أصلاً اصطبلاً، لأن حلقات ربط الخيول كانت لا تزال ظاهرة في الجدران.

والأماكن الأخرى للنزهة هي للرجال: قهوة البحر وقهوة الجرينة وقهوة الساحة (أو البوسطة بمعنى البريد). وقد قام أحد الشباب بعمل مغامرة لما فتح مقهى على البحر عند طرف عكا الشمالي. نصب بضع عوارض خشب قوية وغطّاها بحصر وأحضر بضع طاولات وكراسي. كان يقدم القهوة والشاي والكازوزة. لم تكن البيبسي والسفن آب والألف صنف وصنف من المشروبات المعلّبة أو المقززة قد وصلت بلادنا. في الواقع كانت بعض المصانع اليهودية تنتج عصائر عسيس، وفيها عصير البرتقال، لكن عكا لم تكن قد اعتادت مثل هذه الأمور.

الرجال يلتقون في هذه المقاهي. اما النساء فليس لديهن إلا الزيارات ـ الصبحيّة للنساء، وزيارات المساء مشتركة، إما على الطريق فقط، أو حتى داخل البيوت. القضية كان يقررها مدى التزمت أو المحافظة في البيت المزار أو عند جماعة الزائرين، أو عند الفريقين.

وما دمنا قد تحدثنا عن أماكن النزهة أو التسلية فلنذكر هنا عملاً لمدير سجن عكا المركزي، قام به في أوائل الثلاثينات. كان المدير الميجر (اللورد فيما بعد) فرو Frew، وهو رجل قصير نسبياً ضئيل الجسم رقيق الحاشية، اسكتلاندي الأصل. كان على المساجين ان يشتغلوا داخل السجن أو خارجه. وكان في السجن صناعة النجارة ناجحة الى درجة كبيرة بحيث أن السجن كان يحصل على تعهدات لتأثيث المكاتب الرسمية في المنطقة. خطر لفرو أن يضع في متناول المتنزهين على «الشطّ» وهو الطريق الممتد من بوابة عكا الشمالية (وهي احدى البوابات القديمة للمدينة) في اتجاه شمالي حتى آخر بيت عليه (والبيوت كانت قليلة) وهو بيت عبدالله مخلص والى جانبه بيت عارف الصوفي، الذي كان مكتوبجي المتصرفية (متصرفية عكا) في أيام الدولة العثمانية، وذلك لما كانت متصرفية عكا ومتصرفية نابلس (وكانتا تشغلان النصف الشمالي من فلسطين) جزءاً من ولاية بيروت.

خطر لفرو أن يسهل على المتنزهين الاستمتاع بمنظر البحر، فصنع عشرة مقاعد كبيرة، يتسع الواحد منها لثلاثة أشخاص بالراحة، ووضعها هناك بين الطريق والبحر. وربط كلاً منها بسلسلة قوية متصلة بوتد حديدي قوي مغروز في الأرض. أدار وجهها نحو البحر، على اعتبار ان المتنزهين، إذ يجلسون عليها يمتعون انظارهم بالبحر وأمواجه واللوحات الطبيعية التي كانت ترسمها الشمس إذ تميل نحو الغروب.

استعمل الكثيرون هذه المقاعد لكنهم، إلا في حالات نادرة، كانوا يغيّرون اتجاه المقاعد بحيث توجه نحو

الطريق. وكان المساجين يعيدونها سيرتها الأولى في الصباح، فيغيّر الزوار والمتنزهون وجهتها بعد العصر. كنت أعرف فرو؛ كنا جيراناً في المسكن، وكان يدعوني الى بعض الحفلات التي يقيمها. وفي أحد الأيام لقيني في الطريق فاستوقفني وسألني فيما إذا كنت قد تنبهت الى التغيير المستمر في وجهة المقاعد، ولما عرف انني تنبهت الى ذلك، سألني ولكن لماذا يقوم المتنزهون بهذا العمل. وقد ضحك ملء شدقيه (الصغيرين) لما أجبته بان الناس يريدون ان يروا المارّة هناك لا البحر.

ثم تنبه فرو الى أن المقاعد أخذت تختفي، ولكن على مهل. اختفى الأول ـ قطعت السلسلة التي كانت تربطه بالأرض، وحمل بعيداً. وبعد مدة اختفى آخر واختفت السلسلة معه. وحار فرو وغيره في الأمر. وسألني فيما إذا كنت سمعت شيئاً من أحد. ولكنني لم أسمع سوى تذمّر البعض، من الذين كانوا يستعملون هذه المقاعد، بسبب اختفائها تدريجاً. وأصبحت المقاعد العشرة سبعة، ثم ستة، ثم ، ثم حتى اختفت جميعها. وهي ليست مقاعد صغيرة، ولا تصلح إلا لحديقة. لكن الصمت خيّم على كل شيء.

بعد مدة كان لي غرض مع أحمد العاقل، الذي كان يملك بيتاً يسكنه صديق لي، وقد كلفني الصديق أن أدفع عنه أجرة المنزل في غيابه. كان أحمد العاقل ثرياً، ولم يُرزَقْ أبناء، فبنى مسجداً لأهل الحي الجديد (خارج السور في عكا). ولما سألت عنه في البيت (وكان قريباً من المسجد ومن بيتنا) قيل لي إنه في الجامع مع أصحابه (بعد صلاة العصر). فذهبت الى الجامع فوجدته هناك مع صحبه. ورأيت المقاعد العشرة منتشرة في ساحة الجامع. وهذه أول مرة أروي فيها الحادثة.

تعرّفت الى كارل نصار. واتصلت بيننا صداقة استمرت، على تباعد الأمكنة أحياناً، حتى وفاته في بيروت سنة ١٩٧٣. وكان كارل يحب ان يشرب كأساً في المساء، ومع الوقت أخذت أجاريه في ذلك. هو كان يحب الوسكي. لذلك، سواء كنا في بيته أو في بيتي، كنا نشرب الوسكي (أو البيرة في الصيف). أما الجلسات التي كانت تضمني وناصر عيسى وأديب عتقي وشفيق درويش وأحياناً آخرين، فقد كان العرق يسلطن فيها.

والعرق هو المشروب المحلي الوطني الذي كان يفضّله أكثر الشاربين، لأنهم ألفوه. ولم يكن الاهتمام بالعرق مقصوراً على منطقة دون منطقة، ففي بلاد الشام كلها، عندما تسمح الأوضاع الاجتماعية المرعية بالشرب، كان العرق هو المشروب المفضّل من جبال طوروس الى صحراء سيناء ومن شواطىء المتوسط الى سواحل البادية السورية. والعرق المقصود هنا هو المقطّر من العنب.

كان النبيذ، المستخرج من العنب، قد وجد طريقه الى بعض مناطق بلاد الشام منذ عقود طويلة من السنين. وكان أفضله ما تنتجه الأديرة (في فلسطين مثلاً اللطرون على طريق القدس يافا، وكريمزان، جنوبي القدس على مقربة من بيت لحم). لكن النبيذ كان يُشْرَب لماما، وكثيراً ما كان الناس يشربونه في الشتاء وحده أو مع طعام من اللحم، للتدفئة، ولأنه نافع للصحة!

أما العرق فهو الشراب الذي يتصدر مائدة الغداء أو العشاء في أيام العطل والأعياد. ويبدأ الناس بالشرب وأكل المازة (التي كانت حصتي من جلسات جدي) على مهل. اليوم طويل أو النهار طويل أو الليل طويل. والمهم مع جلسة العرق يأتي الانبساط التام. وتدريجاً يقدّم الأكل أي الطعام المهيّأ لتلك المناسبة، نيئاً كان، مثل الكبة، أو مشوياً، أو مطبوخاً. وكان المألوف في هذه المناسبات أن يستمر الشرب مع تقديم الطعام. ولذلك فان المهم في مثل هذه الحالات ان يرتب كل مقدار ما يريد ان يشربه أو ما يمكن تحمله من المشروب، على مدى الوقت الذي قد يمتد نحو ثلاث ساعات.

وأود ان أشير هنا الى انني أتحدث عن فترة لم تكن البلاد قد عرفت فيها البرادات. لذلك لم يكن في البيوت ثلج ولا من يحزنون. ومن ثم فكلُّ ما كان يُشْرَبُ كان يُشْرَبُ بالحرارة العادية، والمحظوظ هو الذي يكون عنده

بئر لجمع ماء الشتاء موجودة في مكان عميق، إذ يكون الماء المنتشلُ منها بارداً نسبياً. هذا كان ينطبق على الماء المضاف الى العرق وعلى الصودا المضافة الى الوسكي والبيرة الصافية فيما بعد. ومن هنا كان كاس العرق في مصايف لبنان له قيمة خاصة لأن ماء الينابيع المرتفعة بارد بطبيعته. فضلاً عن ذلك فقد كان بعض المشتغلين بالشؤون التجارية في جبل لبنان وفي دمشق، يخزنون الثلج من فصل الشتاء (من جبال لبنان وجبل الشيخ) ويبيعونه في الصيف. وكان استعماله الرئيسي في الصيف في دمشق لتبريد (عصير) العِرْقسوس (عرق السوس). وكثيراً ما كنّا نخرج وعاء، عندما يمر العرقسوسي وهو يخشخش بطاساته، نعبئه منه ببعض النقود.

وجلسات العرق التي ذكرت كانت الناصرة مشهورة بها، وفي البيوت طبعاً. فلم يكن يومها مقهى أو مطعم يقدم مثل هذه الأشياء لا في الناصرة ولا في حيفا ولا في الرامة ولا رام الله ولا بيت لحم أو بيت جالا. ولا في القدس (إلا قهوة المختار في القدس، لكنها كانت لكأس العرق مع المازة لا مع الأكل)، وكان في طبرية مطعم صغير نظيف في شمال المدينة يقدم العرق مع السمك المشوي أو المقلو المستخرج من البحيرة. والمطاعم الكثيرة التي كانت في القدس وحيفا ويافا وطبرية والناصرة وبيت لحم، كانت مهيأة للسياح والزوار، ومن ثم فقد كانت أوروبية النسق والطريقة والخدمة. وهذه كانت تقدم النبيذ مع الطعام.

في الأعراس، في المدن الصغيرة وفي القرى، وفي الأحياء الوطنية في المدن الكبيرة، كان العرق سيد الموقف. والعرق وحده. ومثل ذلك يقال في بعض المواسم الدينية المسيحية. مثل احتفال شباب الروم الارثوذكس بالناصرة بعيد السيدة العذراء - الذي يقع في ١٥ آب / أغسطس، أي في عز الصيف. وكان كثيرون من أهل الناصرة، (ومن أهل لبنان كما عرفت فيما بعد) يشربون العرق على المائدة بدون الماء (ولا تزال أختي تشرب العرق الى اليوم بدون ماء، وتلومُنا لاننا نتلف طعمه بالماء والثّلج). وبهذه المناسبة فانني أعرف كثيرين حتى اليوم لا يضيفون الثلج الى العرق، ولو أنهم «يكسرونه» بشيء من الماء.

ذكرت هذا هنا لأروي قصة تعود الى سنة ١٩٢٩، إذ دُعيتُ الى عرس في قرية من قرى عكا. فلما حان وقت الابتداء بالشراب سُئلتُ عن الشيء الذي أرغب في شربه. استغربت السؤال لأنني كنت واثقاً أن العرق هو الشيء الوحيد. ولما استفسرت عن سبب السؤال قيل لي موجود عرق ونبيذ وبيرا. وهكذا وصل التنوع في الشراب الى قرية لم تكن قد وصلت اليها طريق للعربات حتى يومها.

وكان لنا صديق كنا نزوره الفينة بعد الفينة في قريته فنقضي عنده يوماً نستمتع بحديث والده وكرم الأسرة وعناية أم شفيق واهتمامها باكلاتنا. وكنا نشرب العرق عنده. ذهبنا مرة - أنا وأديب عتقي - وبعد ان أخذنا قسطاً من الراحة، اذا به يفتح خزانة الشراب فنرى فيها وسكي وبيرة ونبيذ وعرق. استغربنا هذا التطور فقال ماذا نفعل بالموضة. هناك أصحاب يشترطون شراباً غير العرق لأنهم، على ما يدّعون، اعتادوا عليه. ونحن يتحتم علينا أن نيسّر لأصدقائنا سبل سرورهم.

ولست أكتمك، أيها القارىء، أنني لم أندم، بعد كل هذه السنين، على تعاملي مع المشروب. بعد ان تجاوزت المرات الأولى في شرب الوسكي ولم تعد أذناي تحمرّان من ثاني جرعة، كما كان كارل يقول. وجدت في الشراب، على اختلاف انواعه، متعة. نعم أصبحت أتمتّع، وأنا لا أزال إلى الآن (١٩٨٩) اتمتع بمحتويات كأس أو اثنين في اليوم. واكتشفت، مع الوقت، ان في تعاطي الشراب مع الأصحاب، تمام العشرة والانفتاح. أنا لا أدعي أن الذين لا يشربون يكونون منغلقين. لا. لكن الذي أعرفه من نفسي هو أن أحد العوامل التي يمكن ان تؤدي الى التزمت - وهو التمنّع أو الامتناع عن الشراب - زال من طريقي نفسياً واجتماعياً. فضلاً عن ذلك فقد وجدت، في أوقات كثيرة، في الشراب بحد ذاته سلوى. لا أقصد بذلك انه يسلي في أوقات الجزع والخوف والألم لأنه يميت

فيك بعض الاحساس. بل اقصد سلوى الصداقة والتحاب، وهي صداقة تنمو بينك وبين الكأس بحد ذاتها. وهو تحاب ينشأ بينك وبين ما في الكأس. أنا أعرف أن هذا الأمر لا يمكن أن يقبله المتمنعون عن الشراب، وقد لا يقبل به بعض «الشرِّيبة»، لكنني أنا لا أحاول التفلسف نيابة عن غيري، بل كل ما هناك أنني أدون، بعد هذه العقود الكثيرة من السنين، ما أشعر به نحو الكأس المترعة عندما أتناولها بادىء الأمر، وعندما أراقب ما فيها يتناقص في داخلها، في الوقت الذي يثير كثيراً من المتعة والسرور في نفسي اذ ينتقل الى جوفي.

رحم الله ناصر عيسى بدأنا بالحديث عن شعره ورغبته في الكأس، فتابعنا الكأس طويلاً. فلنعد الى المدرسة، الى الزملاء. كان من ألطف الزملاء حديثاً ومعاشرة الشيخ موسى الطبري. كان يدرِّس الدين الاسلامي مع الشيخ صالح الخروبي، وكان له قسط كبير من دروس العربية. والشيخ موسى يعرف اللغة ويحسن تعليم القواعد. لكن الذي كان يزعجه هو الانشاء. أولاً لأن عدد الطلاب كان كبيراً، لذلك كانت الدفاتر (الكراسات) المطلوب تصحيحها كثيرة ومزعجة. وقد حللنا أنيس صيداوي وأنا نصف المشكلة بأن اخذت عنه في سنتين متواليتين أحد الصفوف الابتدائية في درس الانشاء. اما النصف الثاني من المشكلة، أو ثانياً بحسب الترتيب، فهو ان الشيخ موسى كان يجد صعوبة في اختيار موضوعات للانشاء تتناسب مع عقول الصغار ورغباتهم. وكأنه كان يتذكر ما قرأه في كتب الأدب عن مناظرات بين السيف والقلم وشجرة النخيل وشجرة التين، فكان يعطي مثل هذه الموضوعات للتلاميذ. لكن الشيخ موسى نسي أنه قرأ شيئاً حول الموضوع، اما هؤلاء التلاميذ لم يكن بين أيديهم سوى كتاب القراءة وفيه بعض من مناظرات، وليس في ذلك كله ما ينفع. ثم ينتج عن ذلك ان التلاميذ تكاد كتاباتهم ان تكون الشيء نفسه عند الجميع. وكنت أقترح عليه التنويع. وأذكر أنني حثثته مرة على أن يكلف التلاميذ بكتابة موضوع بعنوان «كيف قضيت عطلتي» مثلاً. كان رده «طيب شو يعني، لعب ونط وتقاتل مع أولاد الحارة». وكانت وجهة نظري أن نعوِّد التلميذ على التعبير عن هذه الأشياء البسيطة بلغة صحيحة مرتبة. لكن الشيخ موسى أصرَّ على موضوعاته التقليدية، ولست أدري أين تعلمها، فقد كان يقول انه كان طالباً في الأزهر لكن معلمه الأساسي هو الشيخ عبدالله الجزار في مدرسة جامع أحمد باشا الجزار في عكا.

كان المفتش للغة العربية في ادارة المعارف الرسمية، أي التابعة لحكومة فلسطين، اسعاف النشاشيبي. واسعاف النشاشيبي كان ضليعاً بمعرفته بالعربية لغة وأدباً. وكان الراوية الأول في أيامه غير منازع. وكان عندما يتحدث عن العربية أو تمسُّ العربية في حضوره يحتد ويرتجف ويقيم الدنيا ويقعدها. كان اسعاف، في رأيي، وقد عرفت الرجل أيام طلبي العلم تلميذاً في دار المعلمين وعرفته مفتشاً للغة العربية، وأنا معلم في عكا، يرى نفسه مكلفاً بالدفاع عن هذه اللغة التي وصفها بقوله «العربية لغة أبدعها الابداع وأتقنها الأتقان». ولكن هذا المحافظ الدقيق الى حدود التزمت في شأن اللغة، كان منفتحاً أكثر مما يظن الكثيرون. وفي واحدة من زياراته للمدرسة «مفتشاً» تناول دفاتر الانشاء ولما رأى الموضوعات نظر الى الشيخ موسى وقال، «لا يا شيخ موسى. نريد للتلاميذ مواضيع جديدة. مثلاً كيف قضيت عطلتي، ووصف غرفة الصف الخ.» أما كيف سمعت أنا هذا الحديث فالأمر بسيط. كان هناك غرفة واحدة يجلس فيها المعلمون كل في وقت فراغه. وكانت عندي حصة فراغ فكنت في الغرفة. واستدعى إسعاف النشاشيبي الشيخ موسى ليتحدث اليه. فكنا الثلاثة في الغرفة. وقال الشيخ موسى حاضر. وبعد ان خرج اسعاف لزيارة صف آخر، نظر اليَّ الشيخ موسى وسألني كيف عرفت أنا عن موضوع العطلة كتدريب للانشاء كما يرى اسعاف. ابتسمت للشيخ وقلت لم أعرف لكن اسعاف النشاشيبي وأنا من مدرسة واحدة. وضحك الشيخ الطيب ضحكته المعهودة، إذ فتح فمه الى أقصى حد وبانت لثته وانطلق

مقهقهاً.

وكان للشيخ موسى معي موقف صديق صادق. كنت أعلم التاريخ والجغرافية في مدرسة عكا الثانوية. وكان الصف الثاني الثانوي يدرس تاريخ العرب. وكنت قد وصلت الى حد مكنني من كتابة مذكرات وافية بدل الخلاصات المقتضبة، وكنا قد اكتشفنا طريقة لطبعها على البالوظة وتوزيعها على الطلاب. وكانت هذه المذكرات في متناول كل من يريد ان يقرأها. كنت فخوراً بها، فليس ثمة ما يدعو الى التعتيم. لكن كان لي صديق عكاوي تخرج سنة ١٩٣٤ من دار العلوم، وعين مدرساً في يافا. وكان بطبيعة الحال يود أن يكون في بلدته. لذلك سعى الى نشر رسالة في جريدة الجامعة العربية ظاهرها الخبر الصحيح الصريح. كاتب الخبر - مراسل الجريدة في عكا - زار المدرسة وتحدّث الى الزملاء، وأعجب باهتمامهم. وسُرَّ من عمل الزميل نقولا زيادة الذي يعلّم التاريخ. لكن الحق يقضي أن يقول (أي المراسل) أن الاعتراض الوحيد على نقولا زيادة هو المتعلق بتعليمه للتاريخ العربي الاسلامي. فنحن ليس لدينا ما نقوله سوى أن هذا الاستاذ مسيحي متعصب لمسيحيته. (وبهذه المناسبة لم يكن للجريدة مراسل في عكا). قرأت أنا الخبر / الرسالة فتأذيت وناولت الجريدة للشيخ موسى. فقرأه، والتفت إليّ وقال بمنتهى العفوية والطيبة، إذا كنت أنت متعصباً فأين غير المتعصبين إذن؟

وعرفت، بعد مدة، أن الشيخ موسى الطبري ظلّ ينبش عن الخبر، وتأكد من رأيي فيما يتعلق بمنشيء الخبر ومرسله. والتقى به وقال له بالمشبرح. أنت ونقولا زيادة من أعزّ الأصدقاء، أما تتقي الله فيما قلت عنه وأنت تعرف أنه غير صحيح. هلا رعيت حقوق الصحبة والصداقة».

لم يرو لي الشيخ موسى هذا الجزء من القصة، ولكنني عرفته من شخص كان موجوداً عند مقابلة الشيخ موسى للصديق / لصديقي. وقد رويت القصة لي بعد نحو سنة. ولم يطل الأمر بي بعد سماع هذا الجزء من القصة، فقد حصلت في ايلول / سبتمبر ١٩٣٥ على بعثة علمية لدراسة التاريخ في جامعة لندن. وذهبت أنا، ولكن صديقي لم ينقل الى عكا. وبالمصادفة فان الذي عين مكاني ليعلم تاريخ العرب وهو خليل ابو رية كان مسيحياً. ولم يتأذَّ تاريخ العرب لأن مسيحياً علمه في عكا - أو في غير عكا.

أما صداقتي للأخ ر. ل. فلم تتبدل، ولم أذكر له كلمة واحدة عن الحادث. فنحن لا نستطيع ان نحاسب كلاً من الأصدقاء على ما قد يبدو منه من نزوات!

وكان الشيخ صالح الخروبي يختلف اختلافاً تاماً عن الشيخ موسى الطبري. فقد كان هذا يحب النكتة ويطرب لها ويضحك من أعماق قلبه. وكانت أحواله المادية (وقد قيل يومها انها كانت أحوال زوجه) تعينه على العيش الهنيء، الذي كان يحبه كثيراً. وكان منزله مؤثثاً كما يليق برجل ميسور الحال ومحافظ ولم يكن في البيت أولاد. أما الشيخ صالح الخروبي فلم يكن له مورد سوى معاشه من ادارة المعارف، ومن جامع الجزار لقاء القيام بجزء من امامة الناس في الصلاة. كانت له عائلة كبيرة نسبياً، أربعة أولاد - وبنت. ومن ثم فقد كان عليه ان يتدبر أمر المرتب والمصروف بكثير من العناية. فضلاً عن ذلك فالشيخ صالح كان جدياً، ولكنه أنيس المعشر. كان يصل المدرسة فيحيي ثم يدخل غرفة المشغل. فالشيخ صالح كان يعلّم طلاب الصفين الثانويين النجارة وتجليد الكتب، بحيث يختار الطالب واحدة من الصناعتين للمدة الموجود فيها في المدرسة، وهي سنتان. وعندما يخلع جبته وعمامته ويظل في سرواله الرمادي (أو البني) فقط وصدريته وتحتها القميص كنت تحسب أنك أمام عامل في مصنع. وهكذا كان تصرفه. أنا راقبته قليلاً من الخارج. لكن أخي الفرد تعلم تجليد الكتب على يديه، وكان يثني على معرفته ودقته وصبره في التعليم والعمل.

كان حنا (نمر) الخازن أول متخرج من الجامعة الاميركية يأتي للعمل في مدرسة عكا الثانوية. وحنا ابن

أسرة من أسر الزعامة في البعنة من قضاء عكا. ولذلك فهو معروف في عكا بسبب مكانة أسرته. كان حنا حريصاً على لبس البابيون دائماً، وكان على ما يقول تلاميذه ماهراً في تدريس الرياضيات (وهو موضوعه الأساسي) لكنه كان دون ذلك في تدريس الطبيعة والفيزياء.

حافظ حنا على صداقاته التي كانت له في عكا قبل أن يأتي معلماً في المدرسة. من هذه الصداقات التي كانت تعزّ عليه صحبته لأمين عوقل، وأصله من شفا عمرو (قضاء حيفا). كان محل عمل أمين على بعد لا يتجاوز المئة والخمسين من الأمتار عن باب المدرسة. فكان كثيراً ما يخرج حنا من المدرسة ويجلس مع أمين على مقربة من مدخل إصطبله. فقد كان أمين يدير إصطبلاً هناك للدواب العادية.

كان مدير المدرسة وقتها عارف البديري. وأسرة البديري أسرة مقدسية عريقة معروفة، وقد برز منها عدد من العلماء والقضاة والأطباء ورجال الادارة. وكان عارف البديري يشعر بمنزلة أسرته، ويعتزّ بها. لذلك لم يعجبه ان يجلس زميل له على مقربة من باب إصطبل مع صاحبه. واغتنم الفرصة يوماً وتحدث الى حنا حول الموضوع. كان ذلك، على ما اذكر، في يوم بعد انتهاء الدروس (الساعة ٣,٣٠). وكان الاجتماع في غرفة المدير الصغيرة. كنت أنا أجمع أوراقي تمهيداً لمغادرة المدرسة، فاذا بي أسمع حنا يتكلم بصوت مرتفع وبحدة، لا بل كان يصرخ محتداً. احتجّ على تدخل المدير في أموره الشخصية، وكل ما سمعته واضحاً - عارف افندي ما إلَكْ حقّ، ما بسمح لك، أنا حرّ أن أجلس حيث أشاء. ثم بعد ان تكلم عارف بصوت غير مرتفع فلم اسمعه جاء صوت حنا يصرخ «يعني لعب التنس أنظف من الجلوس عند الخان!» ثم خرج حنا غاضباً صاخباً مزمجراً لاعناً - كل ذلك مجموع بشكل غريب وأسلوب أغرب.

ولعل الرجلين لم يتحدثا بعد ذلك إلا في الأمور الرسمية، ولكن حنا بطبيعة الحال، لم يتخلّ عن جلسته. أما أنا فلم اكن أهتم بالمقابلة بين التنس والجلوس قرب باب الخان. فأنا، مثل عارف من حيث المبدأ، ألعب التنس، لكن عارف ظل مبتدئاً، أما أنا فقد اتقنت اللعبة.

لما نقل عارف الى يافا مديراً لمدرستها الثانوية جاءنا أنيس صيداوي البيروتي، خريج الجامعة الاميركية. أظن أنه روى لي مرة أنه تخرّج سنة ١٩٠٨، وإذا كانت الذاكرة خانتني فهي سنة إلى الخلف أكثر منها سنة الى الأمام. جاءنا أنيس من العراق. كان أنيس قد عمل في الحقل الوطني في لبنان، ولما اشتد الفرنسيون في التضييق على مثل أنيس وألقي القبض على البعض من أصحابه وزملائه يمّم وجهه شطر العراق، والتحق بالعمل الحكومي هناك. وقد كان في بغداد - أظن بعد أن عمل في الموصل بعض الوقت - يوم تتويج فيصل الأول ملكاً على العراق (٢٣ آب / اغسطس ١٩٢١).

وقد روى لي يوماً القصة التالية عن يوم التتويج، قال: كان المسؤولون جميعهم، وعلى رأسهم السير برسي كوكس، حريصين على الفراغ من حفلة التتويج بأسرع ما يمكن (بعد أن أعلنت نتيجة الاستفتاء). لذلك عمل كل شيء بسرعة. من ذلك أن كرسي الجلوس الملكي أي العرش صنع من أخشاب صناديق الكاز، التي كانت شائعة يومها. والصندوق الواحد كان يتّسع لتنكتين توضعان داخله ويسمّر الصندوق (كنا نسميه سَحّارة الكاز). بهذه الطريقة كان ينقل الكاز ويودع في الحوانيت للبيع. وقد لا يستطيع الرجل شراء صندوق أو حتى تنكة، فكان البائع يبيعه ما يحتاج. وكان اسم الشركة التي تهيء الكاز للبيع، منقى ومصفى طبعاً، يظهر على الصندوق الخشبي. والذي أذكره ان صناديق الكاز التي رأيتها في صغري في دمشق كان مطبوعاً عليها اسم الشركة الروسية التي كانت تورد الكاز الينا وهي شركة «منتشوف».

أما في العراق فقد كانت الشركة الانكلو - فارسيّة (Anglo - Persian) هي التي تزود العراق بالكاز المنقول من عبادان. لما تمت مراسم التتويج في حديقة قصر الزهور، كان لا بد من حمل كرسي الجلوس أي العرش الى

القاعة العليا الكبرى حيث سيجلس الملك فيصل لتلقّي التبريك الرسمي. (ذلك لأن الوقت لم يسمح بصنع كرسيين واحد للحديقة وآخر للقاعة). ولما حمل الكرسي الكبير على جانبيه، ظهرت الألواح وعليها اسم الشركة. وعندها أرسل صحفي اميركي وصفاً لحفلة التتويج نشر في صحيفته (؟) بعنوان «عرش فيصل يرتكز على شركة الكاز الانكلو ـ فارسية». فكانت نكتة سياسية تخفي وراءها حقائق أساسية!

جاء أنيس صيداوي الى فلسطين من العراق بعد أن عمل هناك بضع سنوات. وقد انتقل الى فلسطين عن طريق البصرة فبومباي فبورسعيد. وزار في بومباي غاندي مع عدد من الزوار السياسيين. ولست أذكر فيما إذا كان قد ذهب الى عمان أولاً، على عادة الذين كانوا ينفون من بلادهم يومها من الساسة العرب والمشتغلين بالسياسة.

كل ما نعرفه انه دخل المدرسة يوماً، وكنا نحن ننتظره، وكان ان لقيني انا وابو يعقوب (جبرائيل خوري). فألقى علينا السلام وتم التعارف بيننا. كان أنيس صيداوي أسمر البشرة أسود الشعر في رجله عرج خفيف وكان يحمل عصا (بسطوناً) له يد فضيّة (وقد تخلى عنه فيما بعد). كان يومها يلبس الياقة المنشّاة القاسية، وظل على ذلك مدة طويلة (فقد قضى في عكا ست سنوات ١٩٢٩ ـ ١٩٣٥). وقد بدا عليه يومها الهدوء، وظلت هذه صفته، بينما كان عارف البديري يتصّف بالديناميكية وسرعة الغضب وانتفاخ الأوداج.

كان عارف متزوجاً له بنت وابنان، وكان كبير العناية بأسرته. أما أنيس فقد كان عزباً، وكانت عنده امرأة تعتني ببيته، لكنها كانت «ولا بد». لذلك كان أنيس يستجيب للدعوة بشيء كثير من السرعة، كما انه كان يقبل الزوار برفع الكلفة. لكن أنيس تزوج فيما بعد لما نقل مديراً لمدرسة حيفا. وأذكر أنني لقيته في سنة ١٩٤٣ في مقهى إدوار (الياس)، وكان ذلك بعد غياب طال أمده. (فقد قضيت اربع سنوات منه في بلاد الانكليز، وعدت وبدأت الحرب ولم يكن التنقل متيسراً في سنوات الحرب الأولى في فلسطين). تحدثنا طويلاً فقد كانت بيني وبينه صداقة متينة تعود الى أيام عكا. ولما حان موعد عودته الى البيت قال: «ألم يكن خطأ مني أن أتزوج بعد هذه السن؟ لو كنت بعد عزبا لبقيت معك وأكلنا لقمة عند إدوار، أو كنا ذهبنا الى مطعم آخر، أو حتى الى البيت ونأكل هناك ما يكون. أما الآن فلا أنا أستطيع أن أظلَّ معك لأن زوجتي تنتظرني، ولا أستطيع أن آخذك معي لأنه قد لا يكون في البيت ـ حسب رأيي زوجتي ـ ما يبيّض الوجه. وليس هناك تلفون بحيث اتصل بها لاستأذنها. يا نقولا بلاش تتزوج». لم أسمع نصيحته فقد تزوجت قبل ان ينقضي عام على هذا اللقاء.

ولنعد الى عكا. قامت بيني وبين أنيس صداقة خاصة كان اساسها اننا كنا نحن الاثنين (مع فارق السن الكبير) من المؤمنين بالقومية العربية. على أنني سأترك هذا الموضوع الآن الى حينه.

كان أنيس عند اسمه: أنيساً في ملقاه وفي حديثه، في مكتبه وفي بيته. كان مكتب مدير المدرسة غرفة صغيرة لعل طولها لم يتجاوز أربعة أمتار ونصف المتر وعرضها لم يعد الأمتار الثلاثة. وكانت تشغل جزءاً كبيراً منها طاولة. وفي زاوية منها كانت تقوم خزانة فيها بضعة ملفات. ومدير المدرسة كان هو الكاتب أيضاً. فجميع الرسائل كان يكتبها المدير بخطه، ويعنونها؛ وكل ما يظل هو أن يحملها أبو بشارة الى دائرة البريد لتنقل الى من يهمه الأمر، أو قد لا يهمه أصلاً، ولكنها ترسل اليه!

فضلاً عن الكرسي الذي كان يجلس عليه المدير، وهو كرسي عادي من الخشب، كان هناك كرسي آخر يقيم في الغرفة باستمرار، وقد يضاف اليه كرسي ثالث إذا اقتضى الأمر. وهذا يستعار من غرفة المعلمين.

كان ثمة زائر يستعمل الكرسي الثاني يومياً، هو حسني خليفة، مدير المدرسة الابتدائية. كان حسني خليفة طويل القامة نحيل البنيان له سن من ذهب، يبتسم ابتسامة صفراء دائماً، وإذا ضحك، وقد يضحك، كانت ضحكته صفراء أيضاً.

يبدو أن عادة الزيارة اليومية للمدرسة الثانوية قديمة، ولو أنني لم أتحقق من الامر. كانت تحدث أيام كان يوسف حنا مديراً بالوكالة، لكنها لم تكن يومية تماماً. لعل حسني خليفة كان يخفف من زياراته لأن مكتب المفتش كان بعد في مبنى المدرسة. وكانت عين ابراهيم الشماس تتفحص من يدخل المدرسة ومن يخرج منها.

ولما جاء عارف البديري مديراً، وتخلص من المفتش وحصانه ومكتبه، انعدم الرقيب والعزول، لكن عارف البديري لم يشجع الزيارة اليومية. وقد سمعت حسني خليفة يشكو من جفاف عارف البديري و«نشافة وجهه» بعد ان انتقل هذا من عكا. أما وهو في عكا فقد كان عارف البديري الرجل والمربي والعالم والاداري.

حسني خليفة كان يزور انيس صيداوي يومياً. كانت المدرسة الابتدائية تشغل بناية مستأجرة في طرف البلدة الغربي (نحن كنا عند بوابة المحطة في الشرق). لكن المسافة بين المدرستين كان تقطع في نحو عشر دقائق. كان حسني خليفة يصل يومياً في وقت معين، وكانه يتحدى الناس بقوامه الممشوق، وبسطونه الأسود الأنيق، وابتسامته الصفراء الدائمة. كان يقضي أقل من الساعة عند أنيس صيداوي. لم يكن عندنا في المدرسة «عدة» لصنع القهوة، لكن «قهوة» الساحة (البوسطة) كانت قريبة منا؛ فكان ابو بشارة يهرول لاحضار فنجان القهوة للضيف.

كان أنيس مدمناً على التدخين، وعلى التدخين بكثرة، وكان حسني خليفة معتدلاً في تدخينه (ثم أقلع عنه فيما بعد). ولست أدري، لأنني لا أستطيع أن أتصور، نوع الحديث الذي كان يمكن ان يدور بين الرجلين. أنيس صيداوي كان يقرأ ويتذوّق ما يقرأ؛ عارف البديري كان يقرأ، لكن حسني خليفة لم يكن يقرأ أبداً. وإذن فالحديث سياسي. وسياسي حول عكا. أنا أعرف نوع الحديث الذي كان يدور في سنة ١٩٣٣ و١٩٣٤ وبعض سنة ١٩٣٥. القضية يومها كانت رئاسة بلدية عكا. كان عبد الفتاح السعدي رئيساً لبلدية عكا، واليه يرجع الفضل في انشاء حديقة البلدية وكان يُذكر بذلك دوماً. فهناك نقش أقيم فوق مدخلها. وكانت هذه الحديقة متنفس الناس - رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً. وقد استمرت العناية بها بعد تركه الرئاسة. ثم جاء رئيساً للبلدية توفيق حقي (العبدالله). وكان من المتعارف عليه أن توفيق لن يتقدم لفترة جديدة. فالرجل كبير في السن. حسني خليفة كان يطمع في رئاسة البلدية. صحيح انه من أسرة صغيرة، لكنها محترمة. وهو متعلم. أليس هو مدير المدرسة الابتدائية؟ وهو وسيم (وهكذا كان توفيق حقي مع انه كان قد تقدم به العمر)، لماذا لا يطمح في ذلك؟ ولكن حسني خليفة كان يطمع مع رئاسة البلدية في الاصهار الى توفيق حقي.

لما وصلت انا الى عكا، وبدأت العمل وأخذت أتعرف الى الأسماء والوجوه، كان مما لفت نظري ثلاث فتيات جميلات. وعرفت أنهن بنات توفيق حقي العبدالله رئيس البلدية. كن جميلات، أنيقات، «مْزْوقات» في اختيار ثيابهن (وأنا عندي ذوق في ذلك منذ الصغر) وكن سافرات. كان الوالد قد بنى بيتاً لأسرته خارج السور، واعتنى به. وعرفت فيما بعد، بعد مدة طويلة، أن حسني خليفة كان يطمع في البنت الكبرى رقيّة. وعن طريق الاصهار يمكنه أن يضمن «القربى» ورئاسة البلدية. لكن الرياح تجري، في أحيان كثيرة، بما لا تشتهي السفن أبداً. لا ندري ماذا كان موقف رقية من حسني، لكننا كنا نشعر انه سلبي. وحدث أن زار الشاعر أبو سلمى (عبدالكريم الكرمي) عكا (ولست أذكر تماماً متى) ووقعت عينه الشاعرة على رقية، فوقع في غرامها (ومَن لم يقع في غرام رقيّة، حتى ولو أنها كانت أكبر منه سناً). وكماتقول الحكاية «في ليلة ما فيها ضو قمر» كُتب كتابُ رقيّة على عبدالكريم الكرمي.

لست أذكر الآن فيما إذا كان توفيق حقي العبدالله توفي قبل زواج رقية أم بعده. ولكنني اتصور حسني خليفة الآن - بعد اكثر من نصف قرن - وهو يقف امام عمل من أعمال توفيق حقي في البلدة ويقول «الله يرحم ترابك يا توفيق بك. كنت أباً لهذه المدينة». نعم اذكر هذا لانني سمعت حسني خليفة يردده مرات.

ولعل حسني خليفة كان، في زياراته لأنيس صيداوي في تلك الفترة، يريد منه أن يؤثر علينا، معلمي المدرسة الثانوية، لنؤيده في حملته الانتخابية. أعرف هذا مؤكداً، لأنني كنت أحد الذين فاتحهم أنيس صيداوي بالأمر. لم يكن بأمكان أنيس صيداوي أن يتحدث الى العكاويين أصلاً، فهؤلاء لهم ارتباطاتهم المحلية. لذلك تحدث اليّ وأعرف انه تحدث الى ناصر عيسى. ناصر عيسى قال إنه لا يمكن ان يؤيد ابتسامة صفراء. بل إنه ذهب الى أكثر من ذلك. أنه سيهجوه شعراً. لكنه لم يفعل.

أما الحديث معي فله سبب خاص. انا كنت، وسأتحدث عن هذا فيما بعد، استمتع بصداقة توفيق حقي العبدالله، والشيخ أسعد الشقيري وعبدالله مخلص. وهؤلاء الثلاثة كانوا من المعارضين (للحاج أمين الحسيني). لذلك كان حسني خليفة يعتبرني معارضاً. وهو يتقدّم للانتخابات على لائحة المجلسيين (أي جماعة الحاج أمين الحسيني). لذلك طلب حسني خليفة من أنيس صيداوي أن يتأكد انني أعطي صوتي لحسني خليفة، ولو أنني من المعارضين.

وهنا يأتي الشيء المضحك فعلاً. أنا كنت طبعاً ساعطي صوتي لحسني خليفة، لأن خصمه أو منافسه لم يكن في رأيي يستحق أن يكون رئيساً لبلدية عكا. وكنت أعتقد ان ابتسامة صفراء أفضل من الضحكة الأخرى.

لكن الذي حدث انني لما دخلت مكتب قائمقام قضاء عكا، لأدلي بصوتي في الدلاء، سألني رئيس اللجنة المستر إيفانس عن المبلغ الذي أدفعه ايجاراً لبيتي، وقلت له انه عشرون جنيهاً، قال أظن أنه لا حق لك في الانتخاب.

وأخذ المستر إيفانس يفتّش أوراقه، فقلت له، أنا مضطر الى الذهاب الى حيفا، وقد يفوتني القطار؛ أرجوك إذا وجدت أنه يحق لي الانتخاب أن تعطيني فرصة أخرى. وتركت المكتب.

وعرفت فيما بعد ان الحد الأدنى للايجار الذي يجيز للشخص ان ينتخب هو أربعة وعشرون جنيهاً. واذن فانا لا حق لي في الانتخاب.

ولما عدت من حيفا، وقصصت على أنيس صيداوي الحادثة ضحك. فقلت له جهد ضائع في شخص لا يحق له حتى الانتخاب. ابتسم أنيس صيداوي وقال «الله سلمك من عواقبها»، وضحكنا ولم يكن لها عواقب، إلا بالنسبة الى حسني خليفة.

في الوقت الذي كان فيه حسني خليفة يسمح لنفسه بأن يحب رقية أو يتحبب اليها، يبدو انه كان ثمة من يعرف ان هذا ضرب من المستحيل. ومن هؤلاء ع. ب. هذه، صديقتنا عن طريق أبيها، قررت أنها هي التي ستتزوج حسني خليفة، وأن حسني خليفة لا ينفعه إلا هي. حسني خليفة انتخب رئيساً لبلدية عكا، وظل في منصبه الى سنة ١٩٤٨، لما هاجر مع من هاجر من عكا. ولم تكن ع. قد نجحت في تزوجه. لكن هي هاجرت أيضاً.

سنة ١٩٥٢ كنت في زيارة لدرعا مع زوجتي مرغريت وليامز وزوجته. ولما دخلنا حديقة البلدية للاستراحة وجدتني وجهاً لوجه أمام حسني خليفة. أخذني بالأحضان وتحدّثنا قليلاً وتعرف الى الذين كانوا معي وخاصة زوجتي. أصرّ على الذهاب الى بيته، ولكننا لم نستطع، فقد كان علينا أن نصل دمشق قبل الغروب. عندها قال لي حسني خليفة: «ع. ستزعل لأنك لن تزورنا، فانت طبعاً تعرفها، فقد كانت لك بأبيها صداقة». لم أتمكن من زيارة حسني خليفة وزوجته ع. فأنا لم أكن وحدي.

لكنني أدركت يومها تصميم ع. على مخططها. وتذكرت أنني كنت أقول، وأنا بعد في عكا، ع. ستتزوج حسني خليفة. وكان الكثيرون يسخرون من قولي. لكنني كنت أعرف ع.

رحم الله الاثنين. فقد انتقلا الى رحمته تعالى. لكن هذه ليست آخر قصصي عن عكا. عشر سنوات من أيام

الشباب غنية بالايجابيات، كما هي غنية بالسلبيات.

كان علي شعث، خليفة حنا الخازن في تدريس العلوم في مدرسة عكا الثانوية، يختلف عن حنا اختلافاً بيّناً. فقبل كل شيء لم تكن له ارتباطات مباشرة بعكا أو بالمنطقة، فهو غزي الأصل والنشأة. تخرج من الجامعة الاميركية وموضوعه الرئيسي الكيمياء، ولكنه كان يعلم الرياضيات والفيزياء أيضاً. كان وجهه الاسمر وشعره الأسود القليل، فقد أدركه بعض الصلع مبكراً، مما يطمئنك الى طيبة أصيلة؛ فيما كان وجه حنا الخازن القمحي وشعره الأشقر يغشانك فتظن انه شرس. والواقع انه لم يكن هناك ممن عرفت من كان أنقى من حنا سريرة، أو أصفى منه طوية. يطالعك وجه حنا فتظن انه مغرور وأنه يمشي في الأرض تيهاً؛ مع ان شيئاً من ذلك لم يخالج نفسه، ويبعدك النظر الى وجه علي عن الظن بأنه مغرور، مع انه كان يتمتع بشيء من ذلك، إلى حد أنه كان يثير حفيظتنا، أو حفيظة بعضنا على الأقل، بسبب تصرفه وأشارته المستمرة الى معرفته وعلمه، مباشرة أو بالواسطة.

وعلى كل فقد انقطعت صلتي بحنا الخازن بعد ان نقل من عكا وبعد ان ذهبت انا الى لندن، ولم أعد أسمع عنه إلا لماماً، ولست أحسب أنني لقيته أكثر من مرتين أو ثلاث مرات. أما علي فقد ظل الاتصال به بعد ان نقل من عكا الى صفد، وبعد ان عدت الى القدس من لندن، وكان في يافا، كان كثيراً ما يزورني في القدس. وقد تعاونا انا وعلي شعث في الاشراف على سلسلة كتب باسم سلسلة الثقافة العامة كانت تنشرها المكتبة العصرية بيافا لصاحبيها حنا صليب وسابا ملك. لكن اسمينا لم يظهرا عليها كمشرفين أو محررين، لاننا كنا موظفين في ادارة المعارف، ولم يكن يحق لنا ان نقوم بذلك دون اذن من الادارة، وكان هذا قلما يعطى. وقد نشرت في السلسلة (سنة ١٩٤٥-١٩٤٦) شخصيات عربية (نقولا زيادة) من طرائف العلماء (علي شعث) رحلات في بلاد الشام (أحمد سامح الخالدي) اخي ابراهيم (فدوى طوقان) قصص (عبد الحميد ياسين) سدنة التراث القومي (روكس بن زائد العزيزي). وتوقف العمل بها بسبب الاضطرابات التي شملت فلسطين في ١٩٤٧.

كانت آخر مرة زرته فيها في الاسكندرية مع مرغريت ورائد في ربيع ١٩٤٩، ونحن في طريقنا من لندن الى بيروت. جئنا بالباخرة ومرت الباخرة (ايونيا) بالاسكندرية. كان علي شعث قد ترك العمل في ادارة معارف فلسطين وانضم الى البنك العربي وعين مديرا لفرع الاسكندرية. وقد جاء الى الباخرة وأخذنا في سيارته الفخمة في رحلة الى الكورنيش وقصر المنتزه ثم حملنا الى داره المريحة. وقضينا وقتاً ممتعاً في زيارة الاسرة والاستمتاع بكرمها، حتى حان موعد اقلاع الباخرة فأعادنا اليها سالمين. ولكن الذي آلمني يومها هو أن علي كان بصره قد ضعف وتراكمت في جسمه النحيل علل كثيرة. وترك العمل في البنك العربي بعد مدة، وتوفي ودفن في الاسكندرية.

لما نقل علي شعث من عكا ارسلت ادارة المعارف الينا الشيخ سامي أمين العيد من بعقلين. كان سامي العيد يمثل الشابّ ذا الجسم الرياضي الكرع. كانت له قامة معتدلة في الطول، وجسم مكتنز بالعضل القوي. وجه لا يطالعك الا بالابتسامة العريضة (ولا يزال وقد زرته في بعقلين سنة ١٩٨٨)، وإذا ضحك أحسست أن سروره ينتقل اليك حالاً. عينان كعيني النسر يعلوهما حاجبان كثيفان. كان سامي العيد يمثل، في نفسي ورأيي وبناء على تجربتي، ابن الجبل الصادق الصحيح الأصيل. (توفي سنة ١٩٩١).

تصادقنا. وفي صيف ١٩٣٥ زرت لبنان، واستضافني في بيته في بعقلين وصعدنا الى قمة جبل الشيخ (كانت هذه المرة الثانية بالنسبة لي: الأولى ١٩٢٥).

أدخلت ادارة المعارف حوالي سنة ١٩٣٠ تعليم الصناعة والفنون التطبيقية ومبادىء الزراعة في المدارس. وكان ذلك تدريجياً، إذ ان الامر توقف على وجود معلمين يقومون بذلك. نحن في عكا كان عندنا الشيخ صالح الخروبي لذلك كنا في مقدمة المدارس التي علمت النجارة وتجليد الكتب. وكان للمدرسة قطعة أرض متسعة مصاقبة للملعب ومرتفعة عنه قليلاً. كانت الارض خصبة ولم يكن ثمة صعوبة في الحصول على الماء في عكا. ان القنوات التي كانت تعود الى أيام الضاهر عمر واحمد الجزار (النصف الثاني من القرن الثامن عشر) حوفظ عليها باستمرار. وكان على كل مواطن عكي أن يدفع جنيهين في السنة فقط، بعد ادخال قساطل الماء الى بيته، وعندها ينفق من الماء ما يريد. فضلاً عن ذلك فأن المدرسة تحصل على الماء على أساس أنها منفعة عامة، ولذلك تتكفل البلدية أو ادارة المعارف (لست متاكداً من ذلك) بأمر النفقة.

لذلك كل ما كنا نحتاجه المعلم. وقد جاء المعلم في شخص أمين ابوغزالة. كان أمين يعرف الأمور المتعلقة بالزراعة وتعليمها، وقد أصبح لدينا، بعد وقت قصير، حديقة لطيفة بفضل تعليمه وإدخال شيء كثير من الحماسة لمثل هذه المشاريع في نفوس التلاميذ.

لكن القصة التي كان أمين ابو غزالة يتحدث عنها بشيء من الزهو هي أنه كان جندياً في المدينة المنورة اثناء الحرب العالمية الأولى وبالضبط لما أعلن الشريف حسين ثورته على الدولة العثمانية (حزيران / يونيو ١٩١٦). كان أمين جندياً حتى أيام جاءنا معلماً، جندياً في مشيته، وفي نظرته، وفي عنايته بشاربه الذي كان، مثل شعره القليل، لا يزال يحافظ على اللون الأشقر، وفي وضع طربوشه على رأسه مستقيماً جداً لأنه حل محل القلبق. فأمين أبو غزالة لم يكن جندياً عادياً؛ كان «بلوك اميني». والبلوك، في التنظيم العسكري العثماني، جزء من القطعة العسكرية. وبلوك اميني هو الذي يكون مسؤولاً عن اللوازم الخاصة بالبلوك. ويبدو انه، في بعض الحالات، كانت اللوازم تشمل الثياب والخيام والأسلحة الصغيرة والمؤن؛ وكان بلوك أميني واحد يكون مسؤولاً عن جماع هذه كلها. كما أنه قد يكون البلوك اميني مسؤولاً عن المؤن فقط، وتكون الأشياء الأخرى في مخازن رئيسية. ومثل ذلك يقال في رتبة البلوك أميني العسكرية. فأمين ابو غزالة كان يصر على انه كان ملازما (واظن أنه كان ملازماً أول!)، وهذا معناه انه وصل الى درجة الضباط. لكن كنت أنا أعرف أحد الأشخاص في جنين الذي كان بلوك أميني وكانت رتبته العسكرية باش شاويش أي أرقى من الشاويش بدرجة واحدة (وكان يضع على كم سترته الأيسر ثلاث شرائط على شكل الرقم ٧ وكانت تتوسط العليا منها نجمة). بل كان هناك أغنية شائعة في أيام الحرب العالمية الأولى تقول

يا ريتني (ليتني) شاويش بلوك أميني
ووَدّي (وأبعث) العسكر على المدينة.

وعندها يكون البلوك اميني «صف ضابط» فقط.

كان أمين ابوغزالة يحبني. فهو من حيث السن كان يكبرني بنحو خمس وعشرين سنة على الأقل، وكان بيته وبيتي متقاربين. وكان يحب أن يزورنا، لاننا كنا نعنى بحديقتين. أختي ماري تعهدت قطعة من الأرض أمام البيت وجعلت منها حديقة أزهار. أما أنا فاهتممت بقطعة خلف البيت جعلت منها حديقة خضار، وحتى اقتطعت جزءاً منها وجعلت فيه ما يشبه القفص، فكان قِنّاً فسيحاً للدجاج. كان أمين ابو غزالة يجلس بين الزهور يحتسي القهوة ويدخِّن سيجارته ويتحدث مع أختي عن زهورها ويرشدها الى ما يحسِّن نوعها.

حديقتي أنا لم يعن بها أمين. كان عنده في بيته حديقة للخضار أكبر وأوفى. لكن من الأمور التي كنت أنا مهتماً بها هو التخلص من البيض والدجاج الذي يوجد عندنا، والذي لم نكن نحن نستطيع استهلاكه. كنا نهدي اصدقاءنا. وفي أول الأمر تمنع أمين ابو غزالة عن قبول الهدية، لكن لما توسّم فينا الصدق قبل.

قضية أمين انه كان ذا أسرة كبيرة بالنسبة لمرتبه، وكان قليل التدبير على كل حال. وهذه القضية كان يتحدث لي عنها كثيراً. انه، مثل الكثيرين الذين في مثل وضعه، يحب ان يتذمّر، ويحب أن يصغي له الصديق، لكنه لا يطلب من هذا الصديق شفقة ولا رحمة. المسألة عنده «فشّة خلق». لذلك فقد ظن، بادىء الأمر، اننا نحن نودّ أن نقدم له بعض البيض، والدجاج أحياناً، حسنة، فتمنّع. ولما أدرك انها هدية كما كنا نهدي اصدقاءنا الآخرين قبلها، وقبلها بسرور.

كان أمين ابو غزالة يتحدث عن أيام «جنديته» في المدينة المنورة. اللواء فخري باشا كان قائد الحامية. كان من رجال الجيش النادرين في معرفته بالشؤون العسكرية؛ كان مخططاً بارعاً؛ كان من نوابغ الضباط الاتراك. ولما عاد فيصل الى الحجاز من دمشق، قبيل إعلان الثورة، أراد فخري باشا أن يأسره لما وصل المدينة المنورة، لكن جمال باشا لم يقبل. وحامية المدينة صمدت مدة طويلة وكبّدت الثورة خسائر كبيرة.

هذه الأشياء سمعتها أنا من أمين ابو غزالة عشرات المرات. وكنت أصغي متأملاً، لكن في بعض الأحيان كنت أثير قضية رتبته العسكرية بالنسبة لعمله «بلوك أميني». وعندها قد يثور وقد يشتمني شتيمة مودّة إن كنا وحدنا. أما إذا كان ناصر عيسى حاضرا، فانني اترك له إثارة هذه القضية الشائكة. خصوصاً إذا كان هناك ما قد يثير أكثر من فنجان قهوة أو شاي!

في يوم من الأيام جاء أمين عندي وهو مهموم. قال انه وجد انه مدين بنحو تسعين جنيهاً، وان مدينيه كثر. وهذا يربكه كثيراً. لذلك فقد قرر أن يوحِّد ديونه بأن يستدين المبلغ من شخص واحد، ثم يقتطع من معاشه مبلغاً معقولاً شهرياً يدفعه لهذا المدين، الى أن ينتهي الأمر. وقد استحسنت الفكرة. فقال لي، وفي كلامه نبرة الاستحياء، هل لي أن أكفله عند هذاالمدين! ولما قلت له إنني لا أملك المبلغ فيما إذا لزم قال إن المدين، ولم تكن لي به معرفة وثيقة، أصرّ على أن اكون أنا الكفيل. قبلت. وكفلته ودفع من الدين مبلغاً. وفي يوم لم يأت أمين الى المدرسة كعادته في الصباح المبكّر. وبعد نحو ساعة ارسلت زوجته من أخبرنا أنه توفي مع الفجر؛ ويبدو انه أصيب بسكتة قلبية.

جاء بعض أقاربه من نابلس، وأجريت المراسم اللازمة، ونقل الى مسقطه ليدفن هناك. بعد نحو اسبوعين ارسلت لي زوجته خبراً أن أمين كان مؤمناً على حياته (وهذا أمر كنت أعرفه أنا، لأنني أنا الذي حملته على ذلك)، وأنها ستقبض مبلغ التأمين على الحياة (وانا أعرف المبلغ)، وأنها تعرف أنني كفيل على دين، لذلك فانها تريد ان تعرف ما يترتب عليها.

أمين ابو غزالة كان عنده خمسة أولاد (بينهم بنتان) وكلهم صغار نسبياً، فقد تزوج متأخراً. والمبلغ المؤمن عليه زهيد. قلت للذي حمل اليّ الرسالة هذا جوابي للسيدة الفاضلة: «أمين كان أخي الكبير، وليس بين الأخوين اي حساب. أنا أنقل كفالة الدين إليّ، فاصبح أصيلاً بدل الكفيل؛ وأرجو من السيدة ان لا تذكر هذه القضية أبداً». وأسرعت الى المدين وأكّدت له انني أنا ساتكفّل بدفع ما تبقى على الأساس المنصوص عليه في العقد، ورجوته ان لا يقبل شيئاً من زوجة أمين ابو غزالة. قبلت الزوجة شاكرة.

لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد. إن المدين نفسه تنازل عن الفائدة، ثم تنازل عن جزء من الدين ذاته. أما بالنسبة لي فقد تعلمت أن لا اكفل أحداً. وقد حدث في وقت لاحق أن صديقاً لي طلب مني أن أكفله، فاعتذرت عن ذلك، ولكنني أدنته بعض ما كان يحتاجه مما كان معي. وقد أعاده اليّ بكامله.

في صيف ١٩٢٨ كلمني شفيق درويش في ان اعطيه دروساً خصوصية في تاريخ أوروبة الحديث. كان شفيق طالباً في كلية الحقوق بالجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم)، وكان عليه ان يجتاز امتحاناً في هذا

الموضوع. في الواقع كانت معرفتي بالتاريخ الحديث لا تزال مقلقلة. فهذا موضوع لم أصل حد تعليمه في مدرسة عكا الثانوية، ولم يكن بين ما أعددت للمترك. ولكن عشرة قروش عن كل ساعة، والدرس ساعتان في الاسبوع، كان أمراً مغرياً. معنى هذا ثمانون قرشاً في الشهر. وإذا عرفنا أنه يومها كنا نبتاع في عكا خمساً وعشرين بيضة بخمسة قروش وأربعة أواق لحم مجروم (أي بدون عظم) بخمسة قروش؛ وأن مطانس، الذي كان عنده دكانة سمانة، كان يمر بالبيت ويأخذ الصينية والبصل ويضيف البقدونس من عنده ثم يبتاع اللحمة ويجعلها كفتة بالصينية، وكان يضيف قرشاً ونصف القرش على كل أربع أواق من اللحم مقابل عمله؛ وأن حمل الجمل من البطيخ كان يصل الى البيت بخمسة وعشرين قرشاً. إذا تذكرنا هذا كله، أدركنا أن ثمانين قرشاً في الشهر، والدروس لمدة ثلاثة أشهر، كانت شيئاً يستحق الذكر. وبهذه المناسبة فانه لما طلب مني السيد ملّر، الذي جاء موظفاً في بوليس عكا، أن أعلمه العربية لقاء ١٢,٥٠ قرشاً للساعة الواحدة، اعتبرت أنني وقعت على كنز. لكن ملّر أثبت أنه لا يمكن أن يتعلم العربية، وأراد أن يعتذر بكثرة أشغاله، قلت له إن هذا في مصلحتي فأن اشغالي أنا أيضاً كثيرة.

وأخذت اقرأ في كتاب انكليزي من تأليف Haynes تاريخ أوروبية الحديثة، وأعطي الدرس لشفيق. وأذكر أنه في يوم من الأيام جاءني ابو بشارة بواب المدرسة، وكانت العطلة الصيفية على وشك الانتهاء، وقال لي إن عارف أفندي (البديري) يريدني أن أذهب اليه في منزله حالاً. ذهبت، وأنا لم أستعدَّ لدرس شفيق. وجدت أن عارف البديري قد أعدَّ جدول الدروس الاسبوعي للسنة التالية لكنه وقف عند عقدة لم يستطع حلّها. فلما وصلت، دلني على المشكلة وقال لي: «حلّها إلى أن أُعدَّ القهوة لنا نحن الاثنين». وكانت أسرته لا تزال غائبة عن عكا (زوجته وابناه يوسف وجميل وابنته وداد). وفيما هو يعد القهوة أخذت الجدول بنظرة إجمالية. فلما عاد يحمل الصينية وجدني ابتسم فقال لي (وكان أحياناً يتبسّط معي) انشاالله حليتها يا ملعون؟ اجبته انني فعلت ذلك لأنني جابهتها من الخارج، وانه هو لم يستطع الاهتداء اليها، على بساطتها، لارتباطها في ذهنه بالصورة العامة التي لا تقبل تبديلاً ولا تغييراً.

كان النهار قد انتصف. وأصرّ عليَّ عارف البديري على أن أتناول طعام الغداء (وكان من اعداده) معه. حاولت الاعتذار بالدرس الذي عليَّ وما الى ذلك، فلم أنجح. تغديت عنده، وعدت الى البيت وانا بحاجة الى أمرين الراحة بعد الغداء قليلاً (مع غفوة) وإعداد الدرس لشفيق. واعددت الدرس وأنا أطبُّ على الكتاب؛ وجاء شفيق وأعطيته الدرس وأنا نصف نائم ونصف يقظ. وأذكر أنه لما جاء ليحاسبني آخر ذلك الشهر رفضت أن أحسب تلك الساعة، ورفض هو حذف أجرتها وحجّتي كانت انني لم استعد، وحجته كانت انها من الساعات التي سرّ بها كثيراً.

المهم ان شفيق نجح في الموضوع، وكتب اليَّ من دمشق ينبئني بذلك. وفي سنة ١٩٢٩ حصل على شهادة القانون من جامعة دمشق. وبعد عودته بوقت قصير عين في القضاء في حيفا، لكنه سكن عكا. وقد رويت هذه القصة لأنها كانت فاتحة صداقة دامت سنوات طويلة.

وأظن انه في سنة ١٩٢٩ أو ١٩٣٠ ظهر في عكا شاب وسيم أنيق يلبس قبعة بشكل يلفت الأنظار. وتعرفت الى الشاب أديب عتقي في دكان حنا سويد، الذي كنا نبتاع من عنده الأوراق والأقلام والدفاتر وكان غيرنا، بما في ذلك أختي وأخواي، يبتاعون من دكانه الصغير، الشوكولاتة والملبس وغيرهما. وعرفت أن أديب كان قد رحل الى البرازيل حيث كان يقيم أخوه حبيب، لكن الحياة لم ترق له هناك. وأعجبنا - أنا وأديب - واحدنا بالآخر. وكان شفيق موضع إعجاب أديب أيضاً. لذلك أصبحنا نحن الثلاثة اصدقاء بحق وحقيق.

كانت أعمارنا متقاربة. وكان شفيق ابن أحمد الدرويش، زعيم قرية البروة، وكان أحمد يريد أن يصبح ابنه

الاكبر زعيماً بعده. ولم يختلف شفيق مع أبيه، لذلك كان يقضي بعض أيام عطلته في القرية. ولما ذكر شفيق لأبيه صديقيه نقولا وأديب، وأنه يحب ان يجتمع بهما في بعض أيام عطلته، كان جواب الأب بسيطاً: تعالوا معاً. لذلك كثيراً ما كنا ننتقل أيام العطل الاسبوعية الى البروة لنقضي اليوم في ضيافة أحمد الدرويش. والمهم ان الأب كان يتغيب بعض الوقت ويعود الى البيت وقت الغداء. ولكن عندما كنا نجتمع نحن الأربعة كنا ننقسم فريقين الأب وأنا في جهة وأديب وشفيق في جهة ثانية.

كان شفيق يكتفي بعمله، وبالحديث الينا، وبالعمل في قضاء مصالح أهل القرية. هذا عمل ابن الزعيم الذي يريد ان يكون زعيماً. فضلاً عن ذلك فان اباه كان يريده ان يتزوّج. صحيح ان الأب كان بعد في سن الكهولة، ولكنه كان يقول دوماً إن الاعمار بيد الله. لذلك فانه كان من الضروري ان يتزوج شفيق في حياة أبيه. وقد تم له ذلك، فتزوج شفيق. أما الأب فقد توفي بعد ذلك بمدة قصيرة وفي سن مبكرة، إذ لم يبلغ الستين من العمر.

شفيق لم يكن يحبّ القراءة. لكن أديب كان مغرماً بالقراءة. كان أديب يعمل في متجر كبير لبيع الثياب بحيفا. وأديب تاجر بطبعه، لكن لم يكن عنده من رأس المال ما يكفيه للبدء بمشروع لحسابه. وقد تحقق له هذا فيما بعد في القدس، وكنت انا قد عينت فيها بعد عودتي من لندن، فاستمرت بيننا الصداقة، ولو اننا تفرّقنا سنة ١٩٤٧، الى ان توفاه الله.

كان أديب مغرماً بالقراءة. وكان كتاب النبي لجبران (باللغة الانكليزية) من الكتب التي قرأناها أنا وأديب وتحدثنا عنه. لكن اديب كان يقرأ كتباً باللغة الاسبانية، وكان يحدثنا عنها. اما شفيق فكان كثيراً ما يطلب منا ان نترك الكتب جانباً ونتحدث عن الناس. وكانت سفرة اديب الى البرازيل والتحدث عنها أحياناً مصدر متعة كبيرة لي. وكان شفيق يغيظ أديب بقوله لو كان فيها (أي البرازيل) خير ما رماها الطير، أي انه ما كان عاد.

لكن الواقع هو أن أديب عاد لأسباب عائلية. كان والد اديب قد توفي قبل مدة. وكان أخوه الأكبر حبيب مهاجراً في البرازيل وكان ناجحاً جداً في أعماله التجارية. وكانت أم أديب تعيش في عكا مع اختيه سلوى وماري. فكان من الضروري أن يكون معهما أحد الابنين. وكان أديب يحب عكا، ولم يكن قد أسس لنفسه في البرازيل عملاً يوثقه بالبلاد، فعاد ليكون الى جانب هؤلاء الثلاث.

وقد حدث لسلوى حادث مؤسف كان فيه القضاء على شبابها، ولو انها ظلت حية، وظلت قضيتها غصة في قلب أمها وأختها وأديب، الى أن تزوجت الأخت ماري (أسعد حبيب) ولكنها توفيت صبية.

اما الحادث الذي أصاب سلوى فهو نتيجة استعمال الأسهم النارية في مناسبات الأعياد. كانت كنيسة الروم الارثوذكس في عكا تقع في وسط المدينة، وكانت تلتقي عندها ثلاثة طرق (ضيقة) رئيسية بالنسبة لتلك المنطقة. وكان الطريق أو المدخل الرئيسي هو الذي ينتهي بالساحة حيث كانت تقوم، أيام سكناي بعكا، بضع دكاكين منها دكان متري حبايب ونجيب عوض لبيع الأقمشة النسائية. من هنا ابتاع بولس جبران - زميل ترشيحا - جهاز عروسه روز (الخوري)، ومن هنا كان أكثر نساء عكا يبتعن الأقمشة الى أن أعتاد البعض منهن على الذهاب إلى حيفا. وكان هناك دكان حبيب عوض؛ دكان سمانة متواضعة لكنها كان تبلّ الرّيق. إذ أن الذي كان يحتاج أصنافاً اكثر أو كميات أكبر في عكا كان عليه ان يذهب الى دكان عبده (ابو جورج) حوّا (أو شوربا) أو غيره في وسط البلد. وكان هناك مخيطة أديب بهو الذي كاد ان يحتكر خياطة البدلات لمعلمي المدارس في القرى لما أشيع ان مدير المعارف يحب ان يرى هؤلاء المعلمين يتخلون عن القنباز، ويعمدون الى ارتداء البدلة الافرنجية. والى جانب دكان متري حبايب ونجيب عوض كان أسعد حبيب حوا وأخوه توفيق قد فتحا دكاناً فيه أقمشة ثم أحضرا خيّاطاً كان أمهر من أديب وقد خيّطت عنده فكانت أجرة البدلة جنيهاً فلسطينياً (وكان ثمن القماشة جنيهاً وربع الجنيه من عند إدلبي بحيفا).

المهم انه لمناسبة عيد الفصح كان الشباب يطلقون الاسهم النارية والكرات المعبأة بالمتفجرات احتفالاً بقيامة المسيح. وفي واحد من هذه الأعياد (لا أذكر السنة تماماً) كانت سلوى (عتقي) تحضر العيد في الكنيسة، وخرجت ووقفت «تتفرج» على مطلقي الكرات التي كانت ترمي على جدار الكنيسة لتفقع هناك؛ ورمى أحدهم كرة، صدمت السقف ولم تفقع، ونزلت فأصابت رأس سلوى وفقعت هناك. وكانت تلك القاضية على هذه الزهرة اليانعة. فقد أصيبت بارتجاج في الدماغ، لم تشف منه، وقضت بقية حياتها في مستشفى للأمراض العقلية. سلوى لم تكن جميلة، لكنها كانت أنيقة، جذابة في حديثها، وكانت شخصيتها تحببها اليك؛ لم تحاول فرض نفسها قط، لكن جاذبيتها كانت كافية.

كنا نحن الثلاثة، انا وأديب وشفيق نلتقي كثيراً عند أحدنا في عكا. وقد كان من المألوف أن نذهب (ثلاثتنا أو اثنان إذا كان شفيق عليه واجبات في القرية) إلى حيفا بعد ظهر يوم الأحد، فنحضر فلماً في واحد من دور السينما هناك، فعكا لم يكن فيها دار للسينما تغري. ثم نذهب الى المطعم الالماني في حيفا (بروست) حيث نتناول بعض الجعة ونأكل طعاماً خفيفاً يتفق مع الشراب؛ وهو، في غالب الأحيان، من الجبن والمرتدلا وشريحة لحم مقدد. ونعود بعدها الى عكا. وكثيراً ما كنا نضطر الى استئجار سيارة لنا الثلاثة وبأجرة مضاعفة. (على كل كانت اجرة الراكب في السيارة تتراوح ـ مع الوقت ـ بين ٣ و٥ قروش، وكانت السيارة تحمل أربعة ركاب. فاذا دفعنا الضعف فقد كان الحد الأقصى لذلك ٤٠ قرشاً. وهو يومها، مبلغ كبير).

وأخيراً تعرف شفيق الى دلال. كانت دلال طويلة القامة ممشوقة القدّ شقراء الشعر زرقاء العينين. وقد جاءتها هذه الألوان، أو بعضها، عن طريق أمها التي كان فيها دم تركي. وقد تصادف ان تعرف شفيق عليها عن طريق أختي ماري. لم تكن دلال من سنّ ماري، لكن أخا دلال كان تلميذاً عندنا في المدرسة، وهو الصبي الوحيد الى جانب بنتين. لذلك كان الأب، وقد اكتشفنا فيما بعد أنه كان يتمتع بقدر ضئيل من الحماقة، يهمه ان يكون ابنه ناجحاً في المدرسة، دون ان يكون قد يسر له بيولوجياً ما يؤهله لذلك. وكان ان جاءت الأم لزيارتنا لتترجاني في مساعدة الولد، وجاءت دلال مع الأم. وكان الرجاء بالواسطة أي أن الحديث كان مع أختي، لامعي، وكان على أختي أن تنقل الحديث إلي. وجاءتا بعد مدة لأخذ جوابي من أختي. أعجبت دلال اختي كزوجة المستقبل لشفيق. وكان الحديث حول القضية، ثم تدبير اجتماع سري عندنا بين دلال وشفيق. واخيراً تزوج شفيق. وبزواجه نقص الثلاثي واحداً بالنسبة الى اجتماعات كثيرة، ولو أن معنى هذا أنه أصبح لنا ثلاثة بيوت نجتمع فيها بعكا ـ بيت شفيق وبيت أديب وبيتي، إلا أن بيت المتزوج حديثاً كان يناله من الاجتماعات أقل من البيتين الآخرين.

صداقتي مع كارل كان لها اتجاه آخر. كارل كان يجيد الانكليزية، وكذلك أخته غرترود. كان كارل يكبرني بنحو سبع سنوات (مولود ١٩٠٠)، أخته غرترود كانت أكبر سناً بكثير (مولودة ١٨٨٢). وكانت هناك أمه وهي المانية. وأبو كارل كان أحد أخوة نجيب نصّار صاحب الكرمل (ابراهيم ورشيد ونقولا ـ هذا ابو كارل). وكانت الأم يوم تعرّفت على غرترود وأخيها كارل قد تجاوزت السبعين، وكانت ممتلئة حجماً وصحة ونشاطاً كما كانت تحتفظ بملامح من الجمال، وهذا أعطته للابنين لا للبنات. كانت الأسرة ـ حتى قبل أن يترك كارل طبرية ويأتي ليسكن في عكا ـ تسكن في شقة هي الطابق الثالث من مبنى كانت تقوم في الطابق الثاني منه كنيسة الطائفة الاسقفية (الانغلكانية). والطائفة هذه لم يكن عددها في عكا يكفي لأن يكون لها قسٌ مقيم في المدينة، لذلك كان يأتيها قس من كفر ياسيف (جريس إتيم) أو من حيفا (مثل يوسف فليحان) أو من غيرهما، أو قد يقوم بالخدمة الالهية القسّ الالماني ركرز، الذي لم يكن من الطائفة بالذات، وكان هو أصلاً مبشّراً. لكنه كان يعرف العربية، ويستطيع أن يقدّم وعظة مختصرة بها.

أنا لما كنت تلميذاً في دار المعلمين أخذت أتردد على كنيسة القديس بولس للطائفة الأسقفية لأنني تضايقت من حضور القدّاس في كنيسة نصف الدنيا في القدس حيث كان كل شيء باللغة اليونانية. وكان بين القسس والوعاظ الذين يقومون بالعمل في كنيسة القديس بولس فئة تستحق أن تسمع وأن يستفاد منها مثل القس صالح سابا وحبيب الخوري وخليل طوطح. وبحكم هذا الاعتياد أخذت أتردد في عكا على الخدمة الالهية في الكنيسة الأسقفية في أيام الآحاد. والواقع انني لم أكن الارثوذكسي الوحيد الذي كان يحضر ذلك بشكل يكاد يكون منتظماً فقد كانت كوكب عاقل تأتي مرات مع جوليا سمعان وهذه بروتستانتية، وكان المألوف أن يصعد الجميع أو أكثرهم الى بيت نصّار لشرب القهوة. وكان ثمة مجال لأحاديث متنوعة. وكنت أنا أزور غرترود وأمها بين الفينة والفينة. ولما جاء كارل وأقام مع أهله كان ينضم الى الزوار لتناول القهوة، لكنه لم يكن يحضر الخدمة لأنه لم يكن يعرف العربية. والواقع هو أنه من مجموعة الأخوات والأخوة. غرترود وماري وهلدا وجورج وكارل - لم يكن هناك سوى الأولى التي كانت تستطيع أن تتحدث بالعربية بسهولة، وتقرأها بعض الشيء. لكنهم، جميعهم، كانوا يعرفون الانكليزية والالمانية. وكثيراً ما كنت أتأخر بعد أن ينصرف الآخرون عند كارل لنضيف الى مشروب الصباح - صباح الأحد - شيئاً غير القهوة.

وانضم الى نادي التنس (١٩٢٨ فيما أذكر) نقولا منسى، الذي كان قد تخرج من الجامعة الاميركية بشهادة بكالوريوس في الهندسة، لما كانت الهندسة في تلك الجامعة فرعاً من دائرة الرياضيات. (كلية الهندسة أسست في الخمسينات). وعين نقولا في دائرة المساحة - مساحة الأراضي. فأصبحنا الآن ثلاثياً جديداً قاعدته الأساسية التنس (كارل ونقولا (منسى) وأنا). وكان نقولا منسى يتوسّطنا أنا وكارل سناً. منسى، كان، ولا يزال، هادئاً، حتى زواجه من إيفون لم يحركه كثيراً. لكنه كان في منتهى الطيبة. وكان من المألوف أن نذهب، بعد دقّ التنس، الى بيت واحد منا لنشرب الشاي أو الجعة (في الصيف). أما لاعبا التنس الحقيقيان في نادي عكا فقد كانا كارل نصار ونقولا زيادة. (توفي نقولا منسى في لندن في حادثة اصطدم بسيارة سنة ١٩٨٩).

لم يكن الاتصال بين الثُّلاثيَّين كبيراً. كنت أدعو الجماعة الى بيتي أو كنا ندعى الى بيت نقولا منسى، لكنها لم تكن سوى دعوات بسيطة. والمهم انه لم يكن ثمة الكثير الذي يمكن أن يربط بين الستة في مجموعهم.

وكان بيني وبين كارل شيء كثير من الشبه في الأهداف والغايات. كارل لم يحصل على تعليم منتظم، لكنه كان طموحاً. ولما تعرفت عليه كان قد بدأ يدرس الهندسة الميكانيكية مع مدارس المراسلة الدولية International Correspondance Schools (وهي المدارس التي انضممت اليها بسببه وأخذت معها دروساً قيّمة باللغة الانكليزية). لذلك فقد كان كارل يسير في خط مواز لسيري - الدراسة المستمرة. ومن هنا كنا مثلاً في بعض أيام الربيع أو الصيف التي لا ننوي لعب التنس فيها، نذهب الى حديقة البلدية وكل كتابه بيمينه. نجلس هناك نقرأ، ونقطّع القراءة بالحديث وشرب القهوة.

وكان كارل، كما كانت أخته غرترود، كثير القراءة في غير موضوع دراسته، لذلك كان يرشدني الى بعض الكتب الأدبية - من الروايات والقصص - التي كنت اقرأ الكثير منها وأنا في عكا رغبة في تقوية لغتي الانكليزية.

وطرأ شيء جديد علينا في عكا. جاءت هلدا، أخت كارل التي كانت مديرة مدرسة البنات في طبرية لقضاء عطلة الصيف في عكا عند أمها وأختها. وانضمت الينا تلعب التنس وكان قد انضم الى نادي التنس، فرانك بايك (Frank Pike)، مساعد مدير السجن المركزي في عكا. ونشأت صداقة بين هلدا وفرانك انتهت بزواجهما (١٩٢٨). وحدث ان اسرة نصار انتقلت من داخل البلدة الى خارجها، وكان فرانك وهلدا يسكنان خارج المدينة، وتزوج كارل (جين ناصيف قعوار) وسكن مع أهله، وانتقلنا نحن الى خارج المدينة أيضاً. وكانت منازلنا متقاربة. وكان مدير السجن المركزي في عكا (فرو) يقطن في دار تجاور دار فرانك بايك.

وهنا بدءاً من التنس هلدا، فرانك، كارل، نقولا (زيادة) شاي بعد ذلك، غالباً عند هلدا وفرانك، وقد تطول الجلسة ويدعى للانضمام الينا فرو، ونتناول كاساً من الجعة، أو غيرها، وكان فرانك قد أصبح مغرماً بشرب العرق. وفي مرة تالية قد يكون الاجتماع عند فرو، وينضم الينا، بالمصادفة الدكتور فريد حداد، رئيس أطباء قضاء عكا، ولو أنه لا يلعب التنس، كما ان فرو لا يلعب التنس. ومن هذه الاجتماعات البسيطة أصلاً تنشأ، على مدى بضع سنوات، حفلات قد تكون بسيطة وقد تكون معقدة. والتعقيد كان في المآكل المتنوعة، وقد تقتصر على هؤلاء الأفراد وقد تشمل آخرين. وممن انضم الى الحلقة بولس بولس الذي كان يدير صيدلية مستشفى الحكومة في عكا. وفي أحوال كثيرة كان الداعي يوسع الحلقة، على أن يتأكد من ان المدعوين الآخرين يتناغمون مع الأصليين. والواقع ان التناغم كان يحدث غالباً. لم يكن بين هؤلاء منافسة أو تحاسد أو تباغض. ففريد حداد الطبيب وزوجته حنه كانا محبوبين من الجميع، وكان الطبيب يرعى المرضى الآتين من كل مكان. وكذلك كان بولس بولس.

مرة كنت في زيارة فرانك بايك لما دخل فريد حداد، وقال انه وجد نفسه قرب بيت فرانك فقصد تحية أهله. ولم يكد يستقر به المقام حتى نظر اليَّ وقال اسمع يا نقولا هذه القصة. اليوم حول الساعة التاسعة صباحاً دخل العيادة مريض مصاب بالنيمونية. جاء من فَسّوطة الى عكا على حماره، ونحن في شهر كانون الثاني / يناير. فحصته فوجدته بحاجة لدخول المستشفى. رفض وقال: «الله يخلّيك يا حكيم أعطيني شويّة دوا وخليني أرجع لعيالي». أنت تعرف يا نقولا أن فسّوطة تبعد نحو خمس ساعات سيراً أو على دابة عن عكا. وأصرّ الرجل بحيث انني لم أقدر أن أفعل شيئاً. أعطيته العلاج، وركب حماره وقصد فسّوطة. وأضاف فريد حداد: «انا واثق من انه مات على الطريق. إن شاء الله يكون معه حدا في الطريق من الضيعة حتى يخبّر عنه». واستغربت أنا هذا التصرف من الرجل كما استغربه الطبيب، وترحمنا على المريض.

وهنا لا بد من رواية تتمة القصة، بعد نحو ثلاثة أسابيع كنت أنا في عيادة فريد حداد، زيارة لا فحصاً، وإذا به ينظر إليَّ فجأة والدهشة ظاهرة على وجهه. نقولا هل تذكر المريض بالنيمونية الذي ترحّمنا عليه قبل نحو ثلاثة أسابيع؟ لقد كان عندي اليوم. جاء ليشكرني لأن العلاج الذي أعطيته اياه قد شفاه في مدى ثلاثة أيام!

وفريد حداد أصله من جهات مرجعيون في جنوب لبنان. وكان أخوه أديب أيضاً طبيباً. وقد تخرج الاثنان من الجامعة الاميركية، وذهبا الى السودان، وعملا هناك، ثم جاء الاثنان فلسطين وعملا في ادارة الصحة العامة. وقد توفي الاثنان في وقتين متقاربين.

كان لفريد حداد أربع بنات. وقد دارت الدنيا دورتها، وسنة ١٩٤٩ التحقت أنا بالجامعة الاميركية في دائرة التاريخ. وفي يوم من الأيام، بعد ذلك ببضع سنوات، دخل عليَّ نبيه أمين فارس رئيس الدائرة والى جانبه صبية وقال نقولا هذه الصبية ستساعدنا. فكان جوابي هذه سهام حداد بنت المرحوم الدكتور فريد حداد. أدار نبيه وجهه وانصرف تاركاً سهام لتحدثني لا عن العمل ولكن عن أسرتها.

الى جانب هاتين الجماعتين الاساسيتين، والأولى الأقوى والأوثق، كان هناك أفراد هم الى المعارف والأصحاب أقرب منهم الى الأصدقاء. لا لأنَّ اجتماعي بهم لم يكن مستمراً، بل لأن الرابطة بيننا كانت آنية. فأنا مثلاً لا أستطيع القول أنني كنت اجتمع ببولس بولس كثيراً، لكنني كنت أطمئن اليه. رجل متقدم بالسن، جليل القدر، واثق من نفسه. لم أشعر أبداً أنه اكبر مني بنحو ربع قرن أو اكثر. لكنني مع أنني قريب السن من رفيق اللبابيدي، ومع انه كان يظهر الود القوي، فأنني لم أكن أشعر أن الاتصال بيننا وثيق متين. كان رفيق قد تخرج من دار العلوم، لما كانت كلية مستقلة، وقبل ان تضم الى جامعة القاهرة (في الاربعينات). وأنا كنت قد اجتزت

امتحان المعلمين الأعلى. وكان رفيق يمتدح معرفتي وعلمي وجدّيتي، لكنه كان يفعل هذا مقابل أن أفعل أنا الشيء نفسه. وأنا كنت مستعداً أن أفعل ذلك، عند الضرورة أو الحاجة، لكن لم يكن في طبعي، ولا تبدّل هذا فيّ، أن أكرر المديح للعالم دون «مقتضى الأمر» كما يقول اللغويون.

وكنت أنا أحبّ في رفيق معرفته، وكنت، ولا أزال، أحب أن أفيد وأن أتعلم. لكن رفيق اللبابيدي كان يبدو لي كأنه تعب في السنوات التي قضاها في دار العلوم من الدرس والحفظ، فأراد الآن أن يستريح. وقد فعل ذلك لمدة طويلة. فقد لقيته في الخمسينات والستينات في القاهرة، وكان يعمل في الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، فوجدته، كما كنت أعرفه في عكا، كسولاً فكرياً، قليل القراءة، كثير التذمر والشكوى ممعناً في النيل من الآخرين. هل تريد يا أخي القارىء الوصف الصحيح؟ كان رفيق اللبابيدي يتمتّع بعقلية موظف.

وكان لنا صاحب اسمه انطون حبايب. أظن أن انطون كان أول عكاوي يحصل على درجة بكلوريوس آداب من الجامعة الاميركية في بيروت، وقد كان موضوع تخصصه (كم أكره هذه الكلمة!) إدارة الأعمال. لما جئت عكا (١٩٢٥) كان انطون بعد طالباً في الجامعة الاميركية، وقد تخرّج بعد ذلك بسنتين فيما أذكر. أنطون درس ادارة الأعمال، وكانت يومها تسمى تجارة، لأن أباه كان تاجراً في عكا. كان ابوه متخصصاً في الأقمشة النسائية على اختلاف أنواعها. وكان شريكه نجيب عوض. متري حبايب (أبو انطون) كان ناراً، ونجيب عوض كان الماء الهادئة. ونجيب كان زنبرك العمل، لكن متري كان صوت المحل. وكان انطون النجل الوحيد لمتري. فقد أصيبت أمه بالشلل وظلت نحو ثماني عشرة سنة طريحة الفراش. زرتها مرات كثيرة مع بعض اصدقاء انطون. كانت جميلة الصورة، أنيقة اللباس، ومع أنها كانت لا تستطيع أن تعنى بنفسها فقد كانت تتأكّد أن التي تهتم بهندامها تقوم بعملها بدقة. وكانت عذبة الحديث، صوتاً ومعنى.

نشأ انطون في بيت فيه شيء لا بأس به من الثراء، وحيداً، وأملاً للأب النشيط والأم المقعدة، فأعطي ما يحب، بحيث انه كان يتأكد دوماً من أن ازرار القميص الذهبية يجب ان تظهر تماماً. ولما حصل على الشهادة كان ابوه يريد منه إما أن ينشيء له محلاً مثل محل الأب لكن في حيفا، المدينة الآخذة بالنمو، أو إذا لم يكن هذا مما يجب فليتوظّف في مكان قريب من بلده. لكن انطون لم يرض بذلك. كان قد اعتاد حياة بيروت، فلم يعد يقبل بعكا أو حتى بحيفا. وكان ان حصل على مركز معلم في مدرسة الجامعة الوطنية بعالية (لبنان) في الوقت الذي كان يمكنه ان يعمل في التعليم في ادارة المعارف بفلسطين وبمرتب أكبر. لكن انطون كان يصرّ على أنه أستاذ. ومن الطف ما حدث هو ان مدرسة عالية كان فيها صفان لتعليم الطباعة على الآلة الكاتبة ومبادىء التجارة والمراسلات التجارية. ولأن انطون يحب «الفخفخة» فقد طبع بطاقات له بالانكليزية على الشكل التالي:

A. Habayib
Dean of the Faculty of Commerce
at the National University of Aley.

فجعل من مدرسة الجامعة الوطنية جامعة وطنية، ومن صفي الحسابات التجارية كلية التجارة.

كان، اثناء طلبه العلم يقضي عطلة الصيف في عكا، فكنا نجتمع ونتحدث. لكن لما بدأ يعلّم في عاليه كان يأتي الى عكا لماماً. كان أبوه يتذمّر من ذلك. لكن أمه المسكينة كانت تشكوه لنا.

على العكس من انطون حبايب كان حسن حبيب حوّا. حسن لم يستطع أن يتم دراسته في الجامعة الاميركية في بيروت، لأن أحوال أبيه المالية تأخّرت. فتركها والتحق بمدرسة الحقوق بالقدس، وتخرّج منها وأصبح محامياً لامعاً. وبعد نكبة فلسطين استوطن عمان.

حسن لم يكن وحيد أبويه، ولكن حسن كان درة بين شباب عكا يومها. لم يكن يشعرك، لأنه لم يهتم هو بذلك، بأنه من أسرة كبيرة في عكا. وأظن أن اثنين من هذه الأسرة هما الوحيدان اللذان لم تؤثر فيهما «النعرة

العائلية». حسن وابن عمه أسعد. أسعد كانت معرفتي به عادية، وهو الذي تزوج ماري اخت أديب عتقي. أما حسن فقد كان قريباً الى قلبي. وحسن كان يقرأ وكان يفكّر. وقد عمل في السياسة فيما بعد، لكنه لم ينغمس بها الى الحد الذي انغمس فيه صديقاه أكرم زعيتر وأحمد الشقيري، ولو أنه عمل معهما في الصحافة مدة قصيرة في جريدة اليرموك التي كان يحررها في وقت من الأوقات هاني ابي مصلح، أحد وجوه العرب الطيبة.

كان حسن يعمل في حيفا. وهو شاب، يكاد يكون من سنّي. وتعرف هناك الى نجلا زيدان. وأعجبته. وكان يحبها، ويفكّر بالزواج منها. ولكن حسن طفران. لذلك لم يفاتحها بشيء من التخطيط للمستقبل الذي كان معلقاً بخيط رفيع. إنما كان يجد متنفساً له عندي. وكان ذلك لسبب اكتشفه هو واكتشفه آخرون عني. وهو أن القصة أو الخبر لا يخرج عني. وها أنا أكتب هذه السطور الآن وقد مر على هذه الأمور نحو خمس وخمسين سنة ولم أرو القصة لأحد قبلاً. وكان ان تزوجت نجلا جورج معمر (الناصري) الذي كان قد تخرّج من الجامعة الاميركية سنة ١٩٢٤، والتحق بدار المعلمين مدرّساً فيها، لكن اقامته هناك لم تطل، وانضم الى مدرسة القانون المقدسية واشتغل بالمحاماة في حيفا. ومثل عدد كبير من رجال المحاماة كان يعمل في المجال السياسي أيضاً.

وكان مما وصل الينا عن طريق حسن حبيب حوا، عن أوقاته في الجامعة الاميركية، أخبار عن طلاب أربعة كانوا فيها وكان للشعر في حياتهم نصيب وهم وجيه البارودي من حماة وحافظ جميل من بغداد وعمر فروخ من بيروت وابراهيم طوقان من نابلس. وقد كان حسن يحفظ في جيبه قصيدة ابراهيم طوقان عن ملائكة الرحمة ومطلعها.

بيض الحمائم حسبهنّه — أنّى أردِّدُ رجعهنّه

وقد أعجبتني يومها. ولا تزال تعجبني بعد هذا الزمن الطويل (فأنا أكتب هذه الكلمات في ربيع ١٩٨٩).

وكان من أصحابنا في عكا محمد الأمين، المعلم في المدرسة الابتدائية الرسمية. محمد الأمين كان مثال الانبساط والانشراح. كان يحب النكتة ويمثلها ولم يكن يحمل همّاً. ولو ان محمد الأمين أتيح له المجال لكان من رجال المسرح الكبار. لكن مجال عكا كان ضيّقاً. وأنى له أن يترك عمله كي ينصرف الى هوايته.

كانت أكثر اجتماعاتنا بمحمد الأمين يوم كنا نذهب الى حمام الباشا (العام) لنتحمّم هناك. كنا نختار يوم الأحد؛ كنّا فئة يتراوح عددها بين أربعة وستة أشخاص؛ كنا نختار يوم الأحد صباحاً. فالمتحممون قلة في مثل هذا اليوم، ونحن إما موظفون أو معلمون، وكلنا نعطل يوم الأحد (المدرسة كانت تعطل يوم الجمعة أيضاً).

في حمّام الباشا نتعرّض لما يتعرض له كل من دخل مثل هذه الحمامات. خلع الثياب في الأول وإراحة قليلة كي يتعود الواحد على المكان الحار. ثم الى الغرفة الساخنة ليبدأ بالعرق ثم يأتي دور الحمّام الصحيح وهو فرك وتغسيل ودلك وصَوْبَنَة. فاذا أصبح الواحد منا نظيفاً خرج الى غرفة للاستراحة كي يعتاد على حرارة الجو خارجاً. لكن هذه الاستراحة لم تكن تنفق في الحديث فقط.

كان من المألوف أن نرتب مع القائم بأمر الحمّام ان يطلب من الفوّال القريب من الحمام، وكان فوّالاً ممتازاً، ان يعدَّ لنا صحناً من الفول يكفي للجماعة وكان يترتب أن يكون الى جانبه صحن من البصل. وإذا كان الفصل شتاء فلتكن بضع برتقالات من بيارات عكا رفيقة لجاط الفول؛ أما في الصيف فالبطيخة هي الرفيقة. وكانت ركوة (دولة، غلاية) القهوة تتبع ذلك. عندها كنا نستريح من أمرين ـ الحمام والأكل.

هذه كانت متعة من متع أيام عكا. تركت عكا سنة ١٩٣٥، أي قبل ٥٤ سنة (فأنا أكتب هذه السطور في صيف سنة ١٩٨٩) ولا تزال لذّة تلك الزيارات ومتعتها من أطيب ما أذكره عن عكا. بهذه المناسبة لم يكن من الضروري أن يأكل كل زوّار الحمام الفول (أو الحمص أو غيرهما) ولكن هذه كانت من متعنا في تلك المدينة. وعكا واحدة من

المدن الشامية التي تجيد صنع الفول. في ذلك الوقت كانت الطنجرة (الحلة) وبابور الكاز (البريموس) هما وسيلتا الطبخ الوحيدة. حتى في المدارس مثلاً كان هذا المستعمل، وانما على درجة كبيرة، فالحلّة الكبيرة بدل الطنجرة العاديّة والبريموس الهدّار بدل الصغير. لم نكن نعرف البرستو ولا الغاز ولا الكهرباء (الكهرباء لم تصل عكا الا في سنة ١٩٣٣). لكن الفول في عكا (وفي غيرها من المدن ذات الحمّامات) كان يوضع في وعاء نحاسي يشبه الجرة في الشكل، ويضاف اليه الماء، وتقفل الجرة النحاسية وتوضع في القميم. والقميم هو المكان الذي توقَدُ فيه النيران لتسخين ماء الحمّام، كانت الجِرارُ توضع في الرماد الساخن، وتظل هناك الليل بطوله. وعند الفجر، أو بعده بقليل، يحضر الفوّال جرته ويضعها في دكانه على نار خفيفة، حتى تظل ساخنة. فالفول أساسه أن يؤكل وهو ساخن. وكان الفوّال يدق الثوم مع القدر اللازم من الملح، ويضيف اليه عصير الحامض ويخلطه بالفول. أما الزيت فأمره متروك للزبون. إذ إن البعض يفضّل الزيت الموجود عنده من زيت المونة (المؤونة) في البيت. وقد كنا نحن نأخذ معنا من البيت الزيت اللازم للفول في الحمام. وهناك من يضيف الى الفول شيئاً من الطحينة. وفي هذه الحالة تمزج الطحينة مع الثوم والحامض ثم يضاف المزيج الى الفول.

ولا يختلف اعداد الفول اليوم عنه قبلا إلا من حيث الوسائل. فالفوال يسلق فوله في برستو كبيرة، بدل القميم؛ اما الأشياء الأخرى فانها هي هي. الثوم ثوم والحامض حامض والزيت زيت والطحينة طحينة. لكن الناس الذين من سنّي يصرون على أن الفول المسلوق في القميم، على مهله طول الليل، هو الذّ بكثير من فول البرستو. يمكن، لكنني أنا أحب الفول كثيراً.

وما دمنا تحدثنا عن القميم واستعماله للفول، فلنذكر أن أهل القدس كان عندهم استعمال آخر للقميم. إنهم كانوا يضعون البيض في الأجزاء الأقلّ حرارة من رماد القميم، ويخرجونه عند الصبح. ومن لم يذقْ البيضَ المشويَّ في القميم مع العكعكة التي كانت تهيأ له في الصباح المبكّر، فد خسر شيئاً لذيذاً جداً.

أذكر أنني كنت مرّة استعد للسفر الى القدس (لما كانت لا تزال جزءاً من المملكة الاردنية الهاشمية، أي قبل سنة ١٩٦٧) لعمل يتعلّق بالجامعة الاميركية، وسألت المرحومة زوجتي - وهي مقدسيّة الولادة والنشأة والولاء - عما إذا كانت تريدُ شيئاً من القدس، فقالت آه، على بيض (قميم طبعاً) وكعكة. وفي أثناء العودة، وكانت الطائرة تقلع من مطار قلندية (مطار القدس يومها) في وقت مبكّر في الصباح، طلبت من المسؤول في الفندق ان يؤمِّن لي ذلك، وهيأت له قماشاً للفّ البيض والكعك وعلبة وضعت فيها هذا كله. وقد وصلت بيروت، وكان البيض والكعك لا يزال يستمتع ببعض الدفء. كم كان سرورها بذلك كبيراً!!

سكان الشواطىء معروفون بعنايتهم بالسمك - نوعاً وإعداداً وطبخاً. وكان أهل عكا من هذا النوع. وحري بالذكر أن اكثر البيوت لم يكن فيها خادمات، حتى بيوت الطبقة المتوسطة كانت خالية من الخادمة المقيمة. وذلك لأن أصحاب البيوت لم يكونوا يستطيعون الانفاق على الخادمة. كانت تأتي غسّالة مرة أو مرّتين في الاسبوع، وعندها تساعد ربّة البيت في أعمالها. لذلك كان الطبخ من شأن ربّة البيت. (وحتى وجود الخادمة لم يكن يعفي ربّة البيت من الاشراف على الطبخ بنفسها). واذكر أنني بعد انتقالي لعكا ببعض الوقت، دعيتُ الى غداء، وعدنا صديقنا (حسين الشامي) اننا لن ناكل سوى السمك. فمن لا يحب السمك سيكون حظه جبنة ولبنة وزيتون. وأنا أحب السمك، بل أحب كل ما يخرج من البحر؛ لذلك كنت انتظر موعد الغداء بفارغ الصبر. وكنت أحسب أننا سنجد سمكاً مقلواً ومشوياً وطرطوراً (وهو مزيج من الطحينة والثوم والحامض يُرافق السمك عادة). ولكنني فوجئت، لما دخلت غرفة الطعام، بانه كان على الطاولة عشرة أصناف من السمك معدّة بأشكال مختلفة. وقد تلطّفت سيّدة البيت فشرحت لنا، باقتضاب وبناء على طلبي، ما الذي دخل في صنع كل صنف. وأضافت السيدة قائلة لم يسمح لي ابو حسين أن أصنع أصنافاً أخرى. قال يا بنت الناس بتقتليهم للجماعة. فاعذروني.

يُذكرني هذا بدعوة في بيروت كان الطبق الوحيد المفروض تقديمه فيها هو الكبّة. وأنا ناصري الأصل وأهل الناصرة يحبّون الكبة ويجيدون صنعها (وأنا أتحدث الآن عن أيام جرن الكبة الذي كان يوجد في كل بيت). وانتظرت في بيروت، كما انتظرت في عكا، صنفين أو ثلاثة. لكنّ المائدة طالعتنا باثني عشر صنفاً من الكبة الخفيفة نسبياً، أي أن الكبة الأرنبية لم تكن هناك. فهذه أكلة وحدها!

كان في عكا مطعم وحيد لصاحبه إلياس عوض. كان موجوداً قبل انتقالي الى عكا، وظل موجوداً بعد تركي عكا. كان في وسط البلدة تقريباً بعد ساحة الجرينة. كان المعروف عنه أنه نظيف وأن طعامه جيّد، ولو أنه لم يكن يعد أصنافاً عديدة. فالزبائن لم يكونوا كثيرين؛ وهم في الغالب موظفون في عكا، ولم يكونوا قد كوّنوا بيوتهم بعد. وقد يقصده البعض من أهل البلدة بين الحين والآخر إذ لم تكن عكا مقصودة كمركز سياحي. وكان الياس عوض يقدم ثلاثة أصناف من المشروبات الروحية: العرق والبيرة والنبيذ. لكن الذي أذكره انه لم يكن يقدّمها منفردة، بمعنى أن تذهب الى مطعم عوض لشرب كاس. هذه كانت تقدم، لمن يطلبها، مع الطعام.

وفي يوم من الأيام جاء شخص من بيت الصيقلي، وفتح مطعماً آخر. ابتدأ العمل فيه في اوائل الربيع، لذلك استفاد من فسحة كانت أمام المحل ووضع فيها موائد صغيرة وكراسي. كانت الموائد والكراسي أكثر مما تحمل عكا عدداً، وكان الخدم أكبر عدداً مما يلزم لزبائن عكا. والذي أذكره، هوان الرجل كان قد عاش في الولايات المتحدة (أو كان له شريك كان في الولايات المتحدة) لذلك أراد ان يدخل «الأكلة» السريعة. لكن أظن أن الرجل جمع موائده وكراسيه - ولعلّه باعها - بعد مدة قصيرة ولم نعد نرى له أثراً. وظل مطعم الياس عوض المطعم الوحيد غير المنازع في عكا.

اما من كان يحب ان يشرب كأساً، وبطريقة بسيطة رخيصة فكان يذهب الى الحانة الوحيدة - عند نقولا عوض، حيث يمكن ان يطلب كأس عرق - أصلاً - ومعه حبات طرمس (ترمس)، ويشربه على الواقف، أو يجلس وعندها يطلب معه شوية مازة - مازة بسيطة: جبنة، حبّات زيتون، زر (راس) بندورة، شويّة قضامة.

كنت أذهب، لماماً، الى مطعم عوض مع بعض الأصحاب، خصوصاً عندما يزورنا صديق على غفلة. لكنني لم أدخل الحانة إلا للتفتيش عن أحد الزملاء، الذي كان يمرّ بها أحياناً، وقد يشرب كأسين بدل الكأس الواحدة، وقد يحتاج الى من يرافقه الى البيت. كنت أحبّ هذا الزميل، وكم مرة طلبت منه ان يأتي الى بيتي بدل الذهاب الى الحانة. فكان يقول دائماً، أجد هنا جوّاً يختلف عن جوّ البيت والعمل فأسرّ به. ولم أكن ألومه، فهو أكبر مني سناً، وإذن فهو أعلم مني دهوراً (على أساس المثل أكبر منك بشهر أعلم منك بدهر). ولكنني كنت أشفقُ عليه، ولم يكن يهون عليّ أن يراه بعض التلاميذ وهو يسير في الشارع متعتعتاً. الا ان الناس أذواق ومشارب.

وقد كانت لنا زيارات عائلية في عكا. كان هناك أسرٌ يمكن ان نزورها وتزورَنا؛ ولعل الصلة الأولى كانت العمل. كان بين معلمات مدرسة البنات بعكا أديبة (يوسف) جبور. أديبة كانت من خريجات دار المعلمات بالقدس، وكان أخوها نعيم من خريجي دار المعلمين بالقدس (تخرج سنة ١٩٢٣)، وكنا زميلين لسنتين (١٩٢١-١٩٢٣) في المدرسة. وتزاملنا في الناصرة لبضعة أسابيع. لم أكن معجباً بنعيم، لكنني كنت أحترم أديبة كثيراً. أديبة ونعيم من كفرياسيف، وأنا كانت لي بكفرياسيف علاقة متينة من ناحيتين. الأولى، قديمة، هي أن خالتي كاملة كانت زوجة ميخائيل عبد الله الخوري من كفرياسيف. وقد ولد لهما ابنان هما جورج وعبدالله وابنة هي صوفي (وقد سميت هذه على اسم خالتها وخالتي صوفيا). وقد عرفت الثلاثة لما كنت في عكا. أما الناحية الثانية جاءت لما تعرّفت الى كفرياسيف، وتوثّقت صداقة بيني وبين بعض طلاب دار المعلمين (جميل لبيب الخوري وحليم شحادة) ثم مع بولس جبران زميلي في ترشيحا، وترددتُ على زيارة البلدة، كانت خالتي قد فصلت عن زوجها،

وكان هو قد تزوج ثانية (ورزق فيما بعد بأربع بنات) ثم لم تلبث خالتي ان انتقلت الى رحمته تعالى.

وقد تعرفت الى كثيرين من أهل كفرياسيف في البلدة نفسها وفي عكا. منهم يني يني وفريديني وخريستويني. وكانت ليايني، المعلمة في مدرسة البنات وزميلة أديبة جبور، جارة لنا في عكا. ثم كان بين المعلمات في مدرسة عكا اثنتان ناصريتان هما روز سركيس وجوليا سمعان، وأظن أنهما كانتا من خريجات دار المعلمات أيضاً. وكان هناك زهرة معلمات عكا كوكب عاقل وهي عكاوية. أديبة وجوليا وكوكب كن يلعبن التنس، لذلك كان بيننا تقارب أكثر مما كان مع الأخريات.

كانت زياراتنا متباعدة، لكنها مستمرة. وقد أخذنا نقيم حفلات أعياد ميلاد الأشخاص. عيد ميلادي أنا يوم ٢ كانون الأول / ديسمبر، وعيد ميلاد كارل في الرابع من الشهر نفسه وعيد ميلاد أختي ماري في ٣٠ تشرين الثاني / نوفمبر.. لذلك كنا نقيم حفلة واحدة للثلاثة، سنة عند كارل وسنة عندي. وعيد ميلاد كوكب كان في ٢ حزيران / يونيو. هذا عيد صيفي. وأدخلنا غرترود في الطابق وعيد ميلادها كان في تشرين الأول / اكتوبر. فضلاً عن أعياد الميلاد الشخصية، كان هناك عيد الميلاد وعيد رأس السنة ولعبة الشدّة (الورق، الكوتشينة). في مثل هذه المناسبة. كان أخواي، الفرد وجورج، يشتركان في الأعياد الكبرى، لكن لم يحسب لهما حساب خاص في أعياد الميلاد الشخصية لأنهما كانا بعد صغيرين.

لما جئت عكا لأول مرة وسألت عن حلاّق أقصّ عنده شعري أرشدت الى عبدالرحمن المياسي. أعجبني وكان يبيع قمصاناً وقد كان أول قميصين اشتريتهما في عكا من عنده (ايلول / سبتمبر ١٩٢٥). واكتشفت ان عبدالرحمن ممثّلٌ هاوٍ، وكنا نتحدث أنا واياه في الأدب والمسرح.

لكن المياسي غاب عن الميدان فانتقلت الى جبرا العسلي، الذي كان في ساحة الجرينة، على مقربة من دكان حنا سويد. لكن جبرا لم يكن حلاّقاً جيداً، فانتقلت الى واحد ثالث أنسيت اسمه. وقد زعل جبرا لأنني تركته، حتى أنني جئت مرة لأشتري صابون حلاقة من عنده فقال لي: الصابون هذا مش للبيع.

كنت أمرّ في طريقي من بيتي (سنة ١٩٢٩ - ١٩٣١) الى المدرسة بدكان هو مصنع للأحذية لالياس صوّان؛ وكان للحانوت بابان. فاذا لم يرني الياس وأنا ذاهب الى المدرسة، رآني وأنا عائد. كان الياس ماهراً في الصناعة وأميناً جداً في عمله. وأنا قد مرّت عليّ سنوات جرّبت فيها عدداً من صانعي الأحذية فلم أسترح إلا على يده ويد عاشور في القدس فيما بعد.

كان الياس يعرف انني بحاجة الى حذاءين أو ثلاثة في السنة. فانا كثير المشي في البلدة وخارجها، وشديد الدَعْسَة (أو الدُوسَة). لذلك كان يراني ويشير اليّ أن أذهب اليه. وبعد السلام كان يقول لي عندي شقفة نعل مدهشة، هل يلزمك حذاء؟ وهذا كان معناه أنك بحاجة الى ذلك. والمهم أن أختار اللون الأسود أو البني. وكان أخواي يصنعان أحذيتهما عنده. لكن الياس صوان لم يكن يتقاضى سعراً واحداً منا نحن الثلاثة. كلٌّ منّا كان لحذائه سعر خاص. مني كان يأخذ خمسة وسبعين قرشاً وكان يحسب الحذاء لألفرد بسبعين قرشاً ولجورج بخمسة وستين. ولما قلت له مرة لماذا لا تحسب كل حذاء بسبعين قرشاً، وهو معدل الثلاثة، قال لا. أنت تحتاج الى قماش (جلد) أقوى. فسكت، وابتسم هو. والواقع أنني كنت أنا احتاج أحذية أكثر. لذلك كانت الصفقة التي اقترحها ابو نقولا في مصلحته ومصلحتي (هكذا كان يقول هو).

الفصل التاسع

لست أدري لماذا كانت عكا تنعم في ذلك الوقت بالأمان والاطمئنان. فاللحّامون، مثلاً، لم يكونوا يخبئون اللحمَ الذي لا يباع لا في خزائن ولا في نمليّات. كانوا يلفون اللحم بالشاش، ويرفعون الذبيحة أو النصف، بحيث لا يمكن للكلب أن يصل اليها، وتترك معلّقة في الهواء الطلق. وليس هناك من يمدّ يده. كان أصحاب الخضار يتركونها على البسطات أمام الدكاكين، ويلقون عليها الشاش أو القماش.

وكانت الأبنية، حتى في الطوابق الأرضية، لها أبواب أو شبابيك كبيرة من الزجاج دون أن تكون محدّدة. وقد استغربت انا لما بنى توفيق حقي العبدالله، رئيس البلدية، بيتَه وجعل ابواب الطابق الارضي وشبابيكه الكبيرة من الزجاج. ثم قلت لنفسي هذا رئيس البلدية وليس من يجرؤ عليه. لكن المعلمة هيلانة حوّا بَنَتْ بيتاً وجعلته على غرار بيت حقي.

وقد زاد استغرابي لما ذهبت لزيارة الخليل لأول مرة، وكان فرانك بايك قد نقل مديراً للبوليس هناك، ودخلت منزله فاذا به، وهو في الطابق (الدور) الثاني، محدد في الشبابيك ومقوّى بالحديد في الأبواب.

وكان من اصدقائي في عكا ميشيل خمار. ميشيل دخل الكلية العربية سنة ١٩٢٥، أي في السنة التي جئت فيها أنا عكا. ولما عاد، بعد ان حصل على شهادة الكلية، عيّن معلماً في مدرسة عكا الابتدائية. وكان يعلم الانكليزية للصف الوحيد هناك الذي يبدأ تعلم هذه اللغة. وقد كلفت، في وقت من الأوقات، بأن أتعاون معه لتقديم أية نصيحة أو أي إرشاد. لكن صداقتنا لم يكن هذا سببها. كنا جيراناً في خان الافرنج. كان ميشيل، وأخوه الأكبر حبيب، وأخوه الأصغر قسطنطين، يعيشون مع أمهم زكية في كنف خالهم توما. وهذا الجوار، الذي استمر سنة واحدة، أقام بيننا صداقة وطيدة. لذلك بعد ان تركنا جميعنا خان الافرنج، ظلت بيننا هذه الصلة. واستمرت حتى بعد تشتت الفلسطينيين.

ثم ان ميشيل، بالمقابلة مع بعض الباقين ممن عرفت في عكا، كان جدّيّاً، فكان أقرب الى نفسي. ولما أخذت بالاعداد لامتحان الشهادة العليا (للمعلمين) وكان بين الكتب التي قررت علينا كتاب في علم النفس تأليف وودزورث (Woodsworth). كان أحمد سامح الخالدي، مدير الكلية العربية، قد نقله الى العربية، وراجع محمود الكرمي الترجمة. لذلك قررت أن أقرأ النسخة العربية (فالامتحان بتلك اللغة). ولما عرف ميشيل بالامر عرض علي أن نقرأ الكتاب سوية. وكنّا ننفق نحو ست ساعات في الاسبوع في القراءة (ومرات كنا نلجأ للنسخة الانكليزية الاصلية). وكانت هذه القراءة المشتركة مفيدة لنا نحن الاثنين إذ كنا نتناقش حول ما نقرأ. كما ان هذا العمل متّن الصلة بيننا.

لكن ميل كان يتعب من التعليم، لذلك سُرَّ لما نُقِلَ من هذا العمل الى عمل اداري هو الاشراف على مخازن الكتب واللوازم المدرسية لمدارس اللواء، وكان مركزه عكا.

وتغيبت انا عن عكا - بل عن فلسطين - اربع سنوات كاملة (١٩٣٥ - ١٩٣٩)، ولما عدت عينت في الكلية الرشيدية والكلية العربية في القدس، فكانت زياراتي لعكا قليلة؛ لكن كل مرة كنت أزورها كان لا بدّ لي من

الالتقاء بشفيق درويش (كان لا يزال هناك، وكان قد ترقى في القضاء) وبميشيل خمار.

ثم حدثت نكبة فلسطين (١٩٤٨) وخرج ميشيل مع من خرج، وعدت أنا من إقامتي الثانية في جامعة لندن (١٩٤٧-١٩٤٩، هذه المرّة للعمل في رسالة الدكتوارة) والتحقت بالجامعة الاميركية في بيروت. واستفسرت من الطلاب ابناء عكا الذين كانوا في الجامعة عن اصدقائي، وعرفت أن ميشيل يعلم في حمص.

وفي ربيع سنة ١٩٥٢ كنت ذاهباً الى تدمر برفقة عدد من اساتذة الجامعة وطلابها، فتوقفنا في الصباح في حمص للاستراحة قليلاً ولاعطاء المجال للذين لا يعرفون حمص لزيارة معالمها، وخاصة جامع خالد بن الوليد، كان اليوم جمعة؛ وكنت أحبُّ لو أنه كان يوم عمل لكنت سعيت الى المدرسة لرؤية ميشيل. لكن اليوم يوم عطلة وقلت في نفسي يا ليت ميشيل يقابلنا مصادفة. وتلفت يمنة ويسرة، فلم ار احداً. لكنني لم ألبث أن رأيت صلعة ميشيل (وميشيل كان أصلع وهو شاب بعد) تلمع في الشمس. فركضت اليه. وكان الأمر لي كأنني لقيت أخاً من أخويَ.

بعد ذلك بمدة جاء ميشيل الى لبنان، وعمل في تعليم اللغة العربية في مدرسة شملان (وهذه لها معي قصّة ستروى في مكانها)؛ وكنت أنا مهدت الأمر من حيث اجراء المقابلة، لكن الذي مكّنه من الحصول على العمل معرفته وأخلاقه واخلاصه.

كان ميشيل، بالنسبة لي، صديقاً من نوع خاصّ. كانت نظرته للحياة، منذ شبابه، فيها شيء من التشاؤم. وقد ظلّ هذا يسيطر عليه، فيما أعرف. لقد ارتاح نفسياً لما تزوج، لكن هذه الفترة لم تكن طويلة في حياته.

فقد انتقل ميشيل الى رحمة الله في بيروت.

شخصان انتقلا من حيفا الى عكا للاقامة فيها استحكمت بيني وبينهما صداقة متينة. يوسف نصر الناصريَ الأصل والذي كان من كبار المحاسبين في حيفا، وكان يعمل في المطاحن الكبرى. يوسف نصر كان متزوجاً من بيت سبتي، وعن طريقه تعرفت الى أخي زوجته خليل وأختها نجمة، اللذين ظلاّ يقيمان في حيفا. يوسف كان له بنتان - أديل وليلي وولد هو أسعد (رئيس مجلس الادارة والمدير العام لشركة طيران الشرق الأوسط - الخطوط الجوية اللبنانية فيما بعد).

كنت قد تعرفت على يوسف نصر قبل أن ينتقل للاقامة في عكا. أظن أن التعارف فيما بيننا كان عن طريق الأب يواكيم قرداحي مدير المدرسة الأسقفية (للروم الكاثوليك) في حيفا. وقد ذكرت من قبل انني كنت أدعى للتحدّث الى طلابها. وكان يوسف نصر يهتم بمدرسة النجاح الوطنية في حيفا، لصاحبتها ومديرتها أمينة شوفاني. فعرفني يوسف اليها. وطلب مني أن أساعدها فكنت أزور المدرسة وأتحدّث الى طلابها وطالباتها. هناك تعرفت الى جمال كرم التي كانت تعمل معلمة في المدرسة مع أختها سامية. كانت جمال كرم تصر على أنها لا بد من ان تعود الى الدراسة لتتخصّص في الطب. وأنا، لأنني كنت آمل أن أصل يوماً من الأيام الى الدراسة الجامعية كنت شديد التحمّس لحماسة جمال كرم، وكنت دائماً أشجعها. وقد عادت جمال بعد عمل بضع سنوات ودرست الطب في الجامعة الاميركية. وأذكر انها لما تزوجت الصحافي الياس حرفوش بعثت اليهما ببرقية (على غير معرفة من زوجها) وكنت يومها قد عدت من لندن وأصبحت أعمل في التدريس في الكلية العربية، وهي بيت الشعر المشهور

ضِدّان لما استجمعا حُسنا والضدُّ لظهرُ حسنَه الضدّ

ولما جئت بيروت، استاذاً في الجامعة الاميركية، اتصلنا جمال وأنا بحكم الصداقة السابقة وكان بيننا (أنا وزوجتي) وبينها زيارات قليلة لكنّ الصلّة ظلّت حميمة. وقد تعرفت في بيروت أثناء العمل بالجامعة، الى أخويها

المرحومين عاطف الشاعر المجيد وأنطوان الكاتب الفذ واستاذ الأدب المقارن في الجامعة الاميركية. (كنت في الواقع قد تعرفت اليهما في زيارتي للبنان سنة ١٩٣٥، لما قضيت نحو أسبوع في جزين، بلدهم).

وكان بين معلمات مدرسة النجاح وداد غبريل، من كرم الحنش (قضاء صيدا). ووداد أوحت الي بمقال عن جبران خليل جبران كتبته في سنة ١٩٣٣، لكنه فقد مع ما فقد من اغراض بيتي في القدس لما نهبه اليهود سنة ١٩٤٨. وكان من المعلمات هناك إفلين حنازنيا، التي تزوّجت فيما بعد نبيه ناصر وهو أول عربي تولى ادارة البوليس في عكا. (وقد اجتمعت بافلين في بيروت سنة ١٩٨٨ مع ابنتها عايدة زوجة الدكتور فؤاد حداد). اما نبيه، وقد كان من أعزّ أصدقائي لما تولى العمل في عكا، فقد توفي قبل بضع سنوات، ولم ألقه منذ أن تركت عكا سنة ١٩٣٥.

وفي سنة ١٩٣٣ انضمت الى معلمات مدرسة البنات في عكا اليزابث خضر: الفتاة السمراء ذات الشعر الأسود والقوام اللطيف. اليزابت مقدسيّة، ولذلك كانت أكثر انفتاحاً اجتماعياً. فهي، مثلاً، الوحيدة من معلمات المدرسة التي قبلت دعوة لحفلة أقامها فرو، مدير السجن في عكا، في بيته.

وكان بين معلّمات مدرسة عكا سلمى قنازع. التي كانت تسكن حيفا، وتأتي يومياً الى عكا. لكنها فيما بعد قررت ان تستأجر غرفة تقيم فيها، ولكنها كانت تذهب الى حيفا يومي الخميس والسبت، وتقضي نهايتي الاسبوع في البيت مع أخواتها الثلاث نجلا وفيروز وروز وأخيها رجا، وكان الجميع ينعمون بحماية الأم - أم رجا - وعنايتها التي كانت مدهشة. لكن الذي كان أدهش من عناية الأم هو جمال سلمى الذي كان يعجبني كثيراً. فهي سمراء وشعرها أسود كالليل وعيناها سوداوان. وكان جسمها آية في التناسب. كانت سلمى معتدلة الطول، مليئة الجسم المكتنز الذي يثير فيك الرغبة دون أن يكون أي جزء منه حائلاً دون هذه الاثارة. ولعل أجمل ما كان فيها، إذا كان لا بد من التركيز على نقطة، هو صدرُها المليء دون امتداد أو نتوء، والمترجرج فرحاً وطرباً لا استرخاء. كانت خطواتها قصيرة، لذلك كان زميلنا يوسف خليل يسميها الكركزة (وهي عصفورة صغيرة لطيفة) وكان صدرها ينهد مع هذه المشية، في موسيقية هادئة.

ولنعد الى يوسف نصر. اقامة هذه الأسرة في عكا كانت فيها تلسية لأختي؛ وظلت العلاقة بيننا وبين خليل ونجمة مستمرة. وخليل كان بصره قد ضعف، فلم يعد يستطيع القراءة، لكنه كان ذا مخزون أدبي كبير، فكان الحديث معه طليّاً. ونجمة كانت تقرأ، وقد تقرأ له، لكن الواقع ان واجبات البيت الكبير لم تمكنها من اشباع رغبة أخيها في القراءة. والقراءة للآخرين فنّ خاص. فقد تستطيع كل طاهية أو قد يمكن لكل رجل، أن يقوم بعمله أينما وُضِعَ، متى تمّت له المادة والآلة. لكن القراءة فيها فن. فانت تقرأ لنفسك بالطريقة التي تألفها، لكن القراءة للآخرين، فنٌ يحتاج الى تمرّسٍ وإتقان. وقد جرّب خليل أن يأتي بمن يقرأ له، فلم يوفّق.

وانا أتحدث عن وقت لم يكن فيه محطة إذاعة في بلدنا، ومحطات الاذاعة التي كانت في المنطقة لم تكن قوية بحيث تصل الى حيفا أو عكا - لا من راديو أوريان (في بيروت) ولا من راديو القاهرة. اما الاذاعات الأجنبية التي كانت تصل فلسطين، فلم تكن قد بدأت الاذاعة باللغة العربية بعد - هذه جاءت قبيل الحرب العالمية الثانية بمدة قصيرة بالنسبة لهيئة الاذاعة البريطانية (١٩٣٨) واثناء الحرب بالنسبة للاذاعة الالمانية. ومعنى هذا ان مجال التسلية كان محدوداً. ولم يكن غريباً أن يضجر المرء، خصوصاً الشخص الذي اعتاد القراءة ثم منعته الظروف عنها.

أما الرجل الثاني الذي جاء يقيم في عكا، وأنا فيها، فهو عبدالله مخلص. كنت قد تعرفت الى عبدالله مخلص قبل ان يترك حيفا. كانت المناسبة أن الدكتور أسد رستم، الاستاذ بالجامعة الاميركية يومها دعي لالقاء

محاضرة في حيفا، عن حملة ابراهيم باشا (بن محمد علي باشا) على بلاد الشام وحصاره لعكا. وبلغنا الخبر، فذهبنا لحضور المحاضرة في حيفا. لست أدري أكان ذهابنا بدعوة أم اننا ـ أنا عن الأقل ـ قررت أن استفيد بدعوة أو بدون دعوة. كان ذلك سنة ١٩٢٧. وكان ثمة حضور كبير، عدداً واهمية؛ وكان عبدالله مخلص هناك. فتعرفت من يومها على الاثنين مخلص ورستم. وقد زرت عبدالله مخلص مرات وهو بعد في حيفا؛ أما لما سكن عكا فقد كانت زياراتي كثيرة. أولاً لأن عبد الله مخلص كان مؤرخاً مرموقاً على طريقة السلف الصالح مع نظرة حديثة. وثانياً لأن عبدالله مخلص كان يملك مكتبة ثمينة وكانت تحتوي الطبعات الأوروبية لعدد كبير من الكتب التاريخية والأدبية التي حققها المستشرقون (وفي حالات كثيرة لم تكن قد ظهرت لها طبعات أخرى عربية بعد). ثالثاً كان عبد الله مخلص عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق (وهو الذي انشأه فيصل لما أقام الحكم العربي في سورية ١٩١٨ـ١٩٢٠). وبسبب كتاباته في مجلة المجمع كان معروفاً لعدد كبير من المستشرقين، الذين كان يكاتبهم. ورابعاً، وهو الأهم، ان عبدالله مخلص كان يتمتع بصفات العالم الأنيس الكريم المعطاء. فلست أذكر انه منع عني شيئاً ـ معرفة أو كتباً؛ ولست أحسب أنه كان يمنع عن غيري. لكنه كان قد تعلّم شيئاً مهماً وهو أن لا يعير كتبه. فكنت، إذا احتجت أياً من المصادر الأمهات، أذهب الى مكتبته واستعمل الكتب هناك. وكان لعبدالله مخلص ولد وحيد، بين ثلاث اخوات، اسمه صلاح الدين، كان تلميذاً في المدرسة عندنا.

لكن عبد الله مخلص كان، الى هذا كله، يعمل في السياسة الفلسطينية. كان الرجل موظفاً كبيراً في المجلس الاسلامي الأعلى. ثم قام خلاف بينه وبين رئيس المجلس الحاج أمين الحسيني. لست واثقاً من انني عرفت طبيعة الخلاف ولا ماهيته، وفي الواقع فان هذه الناحية من حياة عبدالله مخلص لم أعن بها من جهة، ولم يكن من اليسير الحصول على وجهة النظر الأخرى. وحقيقة الأمر هو أنني لم أنصب نفسي حكماً في هذه القضية (أو في غيرها). ولكن المهم هو أن الخلاف انتهى بان فُصلَ عبدالله مخلص من عمله في المجلس. فضلاً عن ذلك فقد تعرض لحملة شديدة من الحملات الشخصية؛ وهذا كنت أقرأه في جريدة الجامعة العربية (لصاحبها منيف الحسيني).

سواء أكان عبدالله مخلص صادقاً في كلامه، أم ان ادارة المجلس الاسلامي الأعلى مخلصة في توجيه التهم اليه، فان القضية لم تُبْنَ على أسس صحيحة. وقد كان من حقه، عندما تهاجمه جريدة الجامعة العربية، وهي التي كانت تعيش على أموال بعضها من مصادر المجلس الاسلامي الأعلى (أي الأوقاف الاسلامية)، أن يرد هو، ولو دفاعاً عن النفس، بتوجيه الاتهامات نفسها أو ما يشبهها الى المصادر المتهمة.

وكان من المعارضين لرئيس المجلس الاسلامي الأعلى ـ في عكا الشيخ اسعد الشقيري وعبدالفتاح السعدي، رئيس البلدية السابق، وتوفيق حقي العبدالله رئيس البلدية يومها. وأحسب أن عبدالله مخلص كان من المعارضين، وهم نسبياً كثر في شمال فلسطين، قبل ان ينتقل لسكن عكا. ولكن المهم ان الرجل كان عشراؤه في عكا هؤلاء الثلاثة. (وكان لعبدالله مخلص ابنة معلمة في عكا هي مقبولة، ثم انضمت اليها اقبال فيما بعد).

وبسبب من صداقتي المتينة لعبدالله مخلص وجدتني اتردد كثيراً على ديوان الشيخ أسعد الشقيري، واقل من ذلك أقوم بزيارة لتوفيق حقي العبدالله. اما عبد الفتاح السعدي فكنت ألقاه عند الواحد أو الآخر من هؤلاء السادة، لأن الرجل لم يكن له اقامة مستقرة في عكا، فقد كان يقيم في قصره في الزيب.

ومن هنا فقد اعتبرت، من حيث لا أدري، من المعارضين.

وقد سئلت فيما بعد اكثر من مرة فيما إذا كان الشيخ اسعد الشقيري تحدّث عن الأيام التي كان فيها مفتياً للجيش (العثماني) الرابع، الذي كان جمال باشا قائده العام. وقد كان جوابي انني لم أسمع منه شيئاً عن ذلك. إلا أن ذلك لا يعني أنه لم يتحدث أمام غيري.

لكن ما هو معنى مثل هذا السؤال؟

كان جمال باشا قد قدّم، أيام حكمه لبلاد الشام والياً وقائداً للجيش الرابع (والأحكام عسكرية) جماعة من قادة الحركة الوطنية في بلاد الشام للمحاكمة أمام المجلس الحربي في عاليه (لبنان). وقد حكم المجلس الحربي، بوصفه محكمة أمن للدولة، على هؤلاء بالاعدام. لكن حكم الشرع كان يقضي بالحصول على موافقة من مرجع ديني كبير (هو شيخ الاسلام في العاصمة، استانبول، أو المفتي خارجها). ولذلك فحكم الاعدام في هؤلاء لا ينفَّذ ما لم يصادق عليه مفتي الجيش الرابع، أي الشيخ أسعد الشقيري. ويبدو أن المفتي صادق (وإلا فما كان الحكم ينفذ). وقد اعتبر كثيرون عمل الشيخ أسعد الشقيري خطأ. وقد كانت القضية قضية رأس برؤوس. فالذي كنا نعرفه في عكا - ولم أسمع هذا من الشيخ اسعد نفسه، ولا حتى من الاصدقاء الذين ذكرت، بل من آخرين - هو أن الشيخ أسعد أُنْذِرَ - أنذره جمال باشا - بأنّ رأسه يسقط ان لم يوافق على الاعدام. وقضية سقوط الرأس ليست من الأمور التي يستطيع أن يتقبلها الناس بسهولة. ومن اللطيف والمشوّق أن يعيد الواحد منا قصة السم الذي تناوله سقراط دفاعاً عن مواقفه - ولكن كم سقراط عرف العالم.

وكان ممن اعتبرني صديقاً له (في عكا) بديع الله البهائي. وهو أخو عبّاس أفندي زعيم البهائيين يومها. والذي كان شائعاً في ذلك الوقت هو أن عباس أرغم اخاه بديع الله على أن يقطن عكا، ولعله حتى مُنِعَ من زيارة حيفا؛ بمعنى آخر أقصاه عن مركز البهائية الرئيسي العالمي في حيفا. وكان مما سمعته، وخجلتُ أن أسأل بديع الله عنه، هو أن وريث عباس في الزعامة هو أخوه بديع الله، لأن عباس لم يعقب ذكراً. ولكن عباس كان يرى أن شوقي رباني، ابن ابنته، أصلح(!) لتولي الزعامة البهائية، وكان يعده لذلك؛ فأقصى أخاه تمهيداً لوصول السبط. وقد تولى شوقي الزعامة في الواقع بعد جدّه عباس.

على كل عبد البديع كان يزوره عبدالله مخلص أحياناً، وكان هو قليل الزيارات، كثير استقبال الزوار.

كنا نقضي معاً وقتاً طيباً. ومنذ ان سكنت خارج السور كانت لي زيارة اسبوعية له في الغالب، يوم الجمعة صباحاً. كنت أخرج من بيتي متأخراً - إذ لا عمل عندنا - فأمرّ به ونشرب الشاهي في الاستكان. وحصّتي ثلاثة استكانات. وبعد ذلك أذهب الى الساحة (ساحة البوسطة / البريد) وأجلس في القهوة أشرب القهوة الرّائقة. والقهوة الرّائقة ليست من اختراع صاحب المقهى، بل من تطويره. فهي القهوة السادة (أي بدون سكر) يعدّها في الصباح المبكّر على الطريقة الصحيحة أي المغليّة ثلاث مرات كل مرة بدلّة (نحاسية) تختلف عن الأولى. ثم كان صاحب المقهى يتركها، فإذا جاء زبائنها وضع شيئاً منها في غلاية (ركوة، دولة) ووضعها على طرف الموقد. حيث تكون نار الفحم الحطبي خفيفة. فتسخن على مهلها. وكان الزبائن يختلفون في شربها فالبعض يتناولها كما هي مرّة، والبعض الآخر يطلب إضافة قليل من السكر، وهناك من يريد سكّراً كثيراً. وكان صاحب المقهى يسرّ بالفريق الأول لأن هذا هو الأصل في شرب القهوة السّادة، ويتحمّل الفريق الثاني - وكنت منهم - وعلى وجهه ابتسامة صفراوية؛ أما الفريق الثالث فكان يقدّم القهوة لأفراده وعلى وجهه تكشيرة ملعونة. وكنا جميعاً نعرف هذا عنه. لكن شرب القهوة، مثل شرب أي شيء آخر، أساسه أذواق مختلفة.

واودُّ أن اذكر هنا قصة تتعلق بصنع القهوة عند البدو ولو أنها حدثت سنة ١٩٤٧. كان درويش المقدادي يومها مديراً للمكتب العربي في القدس. وكانت تربطني بدرويش صداقة متينة جداً. وكثيراً ما كان يزورنا لأن المكتب كان قريباً من بيتنا.

جاءنا يوماً وقال لنا: إن كرمت روزفلت (Kermit Roosvelt) وهو صحافي أميركي كبير موجود في فلسطين ويريد أن يزور جماعة من البدو في منطقة بئر السبع، ويحب ان يقضي هو وزوجته ليلة في مضاربهم. وطلب مني ومن مرغريت أن نرافق الزائرين لأننا نستطيع ان نتحدث اليهما عن المنطقة وعن قضية فلسطين.

قبلنا الدعوة وذهبنا. وسأتحدث عن تلك الليلة في مضارب عرب أبو ستّة فيما بعد. وفي اليوم التالي ونحن عائدون الى القدس مررنا بالشّرطة الصحراوية وهي فرقة هجّانة (أي أنهم يتنقلون على الابل) في عسلوج. سلمنا عليهم فدعونا لشرب القهوة. كان لدينا متّسع من الوقت، لكنني أردت أن أفسّر للثلاثة الآخرين اننا سنضطر لقضاء ساعة على الأقل قبل أن تحضر القهوة. قبل الأجنبيان قولي لكن زوجتي اتهمتني بالمبالغة. طلبت منها أن تعين الساعة. وقبلنا الضيافة. وهنا بدأت عملية تحضير القهوة.

ذهب أولاً اثنان من أفراد الشرطة لجمع ما يمكن جمعه من أعواد وشوك جاف؛ ولما تم لهما ما يحتاجانه أشعلا هذا الذي كُوِّم في الموقد. وجاء شخص بالمحمص النحاسي، وهو مثل المقلاة، لكنه أكبر وله يد طويلة، ووضع فيه حبات البن الأخضر وحمّصها. وبعد أن تركها قليلاً من الوقت كي تبرد، جاء بالمهباج (المهباش) وهو المدقّ الذي تكسّر فيه حباتُ البن المحمّصة، إذ لم يكونوا يطحنون البن لصنع مثل هذه القهوة. وبعد ان تُجْرَشَ هذه الحبّات توضع في دلّة من النحاس وتغلى على النار. ثم تترك هذه ليستقر المغلي ويفرغ بعدها في دلة أصغر مع العناية بأن لا ينتقل من التفل إلا أقله. ويغلي السائل ثانية، ويترك ليستقرّ ويفرّغ في الدلة الثالثة، وهي الأصغر. وهنا يُغْلى غلوة خفيفة ثم يصب في فناجين خاصة بالقهوة العربية. طلبت من زوجتي أن ترى الساعة والوقت. كانت العملية قد استغرقت ٥٦ دقيقة.

وقبل أن يصبَّ الرجل ذكرت ضيوفي - بالانكليزية - بان لا يطلبوا السكر (بلا فضيحة). ولكن الذي تضايقت منه السيدة روزفلت هو أن الكمية كانت قليلة (بعد كل هذا الانتظار كما قالت). لكنني أفهمتها أنها ما لم تهزّ فنجان القهوة، إيذاناً بأنها اكتفت، فحامل الدلّة يصب لها الفنجان بعد الآخر. (ولو أن العادة أن لا يتجاوز الشارب الفناجين الثلاثة. إذ ان تقديم القهوة يعاود في الجلسة الواحدة أكثر من مرة).

هكذا وجدتني في عكا خلال السنوات العشر التي قضيتها هناك وأنا - وليس دوماً ولكن على توالي من الزمن - أعاشر أصدقاء من جيلي، وزملاء أكبر مني سناً، وآخرين حتى أكبر من ذلك. والذي أذكره عن تلك الأيام هو أنني كنت مسروراً من ذلك كله. فقد اتيحت لي تجربة ما أحسب انه كان م اليسير أن يلقاها شاب مثلي وفي ظروفي. فأنا غريب عن البلدة - بل وكما قال عني الياس خمار، أحد وجهاء الطائفة الارثوذكسية في مناسبة سأذكرها لاحقاً، مَنْ هو هذا «المقطّع الموصّل نقولا زيادة».. ومع ذلك فقد كنت اتمتّع بمركز أكبر بكثير من سني، ولكنه كان يتساوى مع نشاطي وطموحي. بل مع هذا الذي كنت أقوم به جميعه - التعليم والاستعداد للامتحانات والرياضة والرحلات المدرسية والزيارات - كنت أقول ليوسف خليل أنا بعد بحاجة للقيام بأعمال أخرى، إذ لا يزال لدي نشاط لم يستغل.

لذلك لما فكر البعض من سكان عكا. بإنشاء ناد أرثوذكسي في البلدة اتجهت الانظار نحوي، واتجهت أنا نحو الفكرة بكل ما كان عندي من نشاط. كان هناك ناد ارثوذكسي قديم ونشيط جداً في يافا. وكنت قد تعرفت على أمين سره (سكرتيره) اسحق فانوس. وكانت هناك مؤسسات ارثوذكسية أقل نشاطاً. فضلاً عن ذلك فقد كانت أواخر العشرينات أيام ظهور جمعيات الشبّان المسلمين - في مقابل جمعيات الشبان المسيحية - التي حمل لواءَها في مصر أولاً (اللواء) صالح حرب باشا. وانتشرت هذه في فلسطين، وأنشئت جمعية في عكا. فكان هذا سبباً في تشجّع الشبيبة الارثوذكسية للقيام بانشاء النادي الارثوذكسي في عكا. تحدّثنا في الموضوع طويلاً، وتباحثنا مع الكبار والصغار. وأخيراً دعونا المتحمسين والراغبين وأنصاف المتحمسين الى اجتماع ننتخب فيه لجنة تأسيسية تضع القانون، وتعرضه على الأعضاء المؤسسين. وفي يوم الانتخاب - في ١٩٢٩ - اجتمع تسعون شخصاً هم الذين لبّوا الدعوة من أصل مئة وشوي. وعرضت المسألة مفصّلة، ووافق الموجودون على

اعتبار أنفسهم الهيئة المؤسسة للنادي الارثوذكسي. وتقدّمنا للانتخاب. وفاز بالاقتراع الأشخاص التالية اسماؤهم جبرائيل خوري، وناصر عيسى ويوسف خليل وحنا خازن ونقولا زيادة وميشيل خمار وهم من معلمي المدرستين ثم توما خمار ومنسى صيقلي وجميل حبيب. وأود أن أدوّن هنا أنه عند فرز الأصوات كانت حصتي ٨٩ (من أصل ٩٠). وأذكر أن أحدهم قال. وهو يقصد التهكم والاتهام. لماذا لم ينل نقولا زيادة ٩٠ صوتاً. فكان جواب أنيس عوض: لأن نقولا زيادة لم يصوّت لنفسه. وهذا هو الواقع.

كم كنت أحب لو ان محضر جلسة انتخاب الهيئة التأسيسية كان موجوداً، لكنت ذكرت اسماء جميع الذين حضروا. لكن المهم ان الذين حضروا كانوا المهتمين. الا انني سمعت، فيما بعد، من أحدهم قوله، «نحن كنا نظن القضية مزحة، وأنه لن يكون لعكا ناد أرثوذكسي، وإلا ما كنا تخلينا». واثنان ممن قالوا هذا أصبحا فيما بعد من المؤيدين للنادي بشكل عملي.

شغلنا النادي كثيراً. وسررت انا بالعمل. انتخبنا في أول اجتماع عقدته الهيئة المكتب. اخترنا جبرائيل خوري رئيساً وانتخبت أنا أميناً عاماً (سكرتيراً) وكان توما خمار أمين الصندوق. ولست أذكر فيما إذا كنا قد اخترنا آخرين لأعمال اخرى معينة، أم أننا اعتبرنا انفسنا جميعاً مجندين للعمل المشترك. توالت الجلسات وتعددت الاجتماعات. فقد كان علينا ان نعد القانون الأساسي وأن نجمع التبرعات ونستأجر المكان ونحضر كل شيء للافتتاح. كنا نجتمع أيام الآحاد، وكان الغالب على هذه الاجتماعات أن تبدأ في العاشرة صباحاً وتستمر ساعات يتخللها الغداء عند الداعين للاجتماع. وكان العقدة الوحيدة في هذه الحالات توما خمار الذي لا يمكن أن يأكل إلا في بيته من طبيخ أمه وأخته. لذلك اتجهنا الى عقد الاجتماعات مساء، بدءاً من حوالي الساعة الخامسة لمدة ثلاث ساعات مثلاً.

لم نختلف حول مواد القانون الأساسية، ولم نختلف حول بدل العضوية، ولم نختلف على المكان الذي أردنا استئجاره. لكننا اختلفنا لما وصلنا الى جمع التبرعات حول الشخص الذي نبدأ به لهذه الغاية. كان في عكا، بين الارثوذكس، عائلتان تتنازعان الزعامة أو الوجاهة على الأصح. هما أسرة قطران يمثلها سليم قطران وأسرة خمار، وكان وجيهاهما يومها سليم قطران والياس خمار. فبأي من الرجلين نبدأ؟ والمهم ان الرجلين كانا يسكنان في مبنى واحد. كان من الطبيعي ان يعمد توما خمار وميشيل خمار الى تأييد الفكرة المطالبة بالبدء بالياس خمار. وكان بعض الأعضاء يرى وجوب البدء بسليم قطران وكان منسى صيقلي منهم. كانت الفكرة التي توخيناها هي ان المبلغ الذي سيدفعه المتبرع الأول هو الذي يعيّن مستوى التبرعات بالنسبة للأغنياء من أبناء الطائفة، وإذن فالذي يجب ان يقرر البدء هو: أي الرجلين أكرم؟ وأكّد مؤيدو البدء بالياس خمار بأن هذا سيتبرع بخمسة جنيهات (فلسطينية طبعاً) ولذلك فسيجد الكثيرون أنفسهم مضطرين الى الاحتفاظ بهذا المستوى. وانتصر مؤيدو الياس خمار أخيراً، وذهب وفد (لم أكن أنا في عداد وفد جامعي التبرعات من الوجهاء) الى منزل الياس خمار، وعرض عليه المشروع واستحث اريحيته وطلب منه التبرع لانشاء النادي. وتبرّع الياس خمار بجنيه واحد فقط.

وبطبيعة الحال لم يرد أحد، حتى ولا سليم قطران، أن يخجل الياس خمار فتوالت التبرعات (العالية) جنيها (ودونها) نصف أو ربع جنيه. والواقع انه لم ينقذنا من الورطة التي أوقعتنا فيها الوجاهة إلا كرم الشباب عند الحاجة. جميع الشباب بدون استثناء، فقد تبرعوا بما يفوق مقدرتهم المالية، لكنه لم يكن أكبر من همتهم وشهامتهم.

واستأجرنا للنادي بيتاً هو في الطابق الثاني من مبنى كانت احدى واجهاته تقابل الفاخورة، والواجهة الأخرى تشرف على الميناء الجنوبي لعكا. اما الوجهتان الباقيتان فكانتا جزءاً من البناء المجاور.

وأقمنا حفلة افتتاح ولقينا من الشباب التشجيع اللازم، والذي كنت أنا واثقاً أنه آت. فالشباب كانوا يعتبرونني ممثلهم في اللجنة، لانني لست من أهل البلد، ولذلك فانني لا أرتباط لي بالأسر والوجاهة والنفوذ في المدينة. همّي - مثل جبرائيل خوري ويوسف خليل وغيرهما مثلاً - الخدمة لا اكثر ولا اقل. وكان يُنظر اليَّ بشكل خاص لأنني شاب (كنت قد انهيت الثانية والعشرين من سني فقط).

وأردنا أن نهيء أوراقاً للمراسلة وظروفاً عليها اسم النادي. ونوينا ان يكون هذا مكتوباً بخط انيق جميل، لا أن يكون مطبوعاً عادياً. فاتصلنا بنور الدين زين الدين (والد الاستاذ زين زين زميلنا في الجامعة الاميركية وفي دائرة التاريخ فيها بالذات). وهو الذي كان أحد كتّاب عبدالبهاء، والد عباس افندي، زعيم البهائيين. فأعد لنا كليشيه جميلة بخطه الفارسي الأنيق النادي الارثوذكسي بعكا (على شكل هلال معتدل الميل) وتحتها سنة ١٩٢٩.

جاء عكا، بعيد افتتاح النادي (صيف ١٩٣٠)، جاد عيد، الذي كان مغترباً في مصر. وتفضّل علينا بزيارة للنادي بصحبة قريبه الياس خمار. أعجب بالعمل فوعدنا انه حين عودته الى مصر، سيبعث الينا بعدد من المجلات هدية للنادي (ولم يتبرع للنادي بنقدٍ أبداً). وعاد الى مصر، وقبل ان يصلنا منه أي شيء، ولا مجلة واحدة، قضى نحبه. وهنا أثار الياس خمار، بواسطة محبيه من اعضاء اللجنة، قضية لم يكن لها محل ولا ضرورة، ولكن هذا ما كانت تتطلبه الوجاهة الواهية. أما القضية فهي انه يجب على النادي ان يقيم حفلة تأبينية لجاد عيد، إذ أنه وعد بالتبرع للنادي، ولكن الظروف لم تسمح له بان يفي بوعده.

وشغلنا عن العمل للنادي ولمصلحته بهذه القضية، لأن البعض أثارها علانية أمام الأعضاء. ورأى الشباب في هذه المسألة محاولة لتسخير النادي للوجاهة. وكنت أنا وناصر عيسى من المعارضين لذلك معارضة تامة. وكان بعض الشباب (مثل الياس الحلاق) ينادي في النادي أنا بدي حفلة تأبين لجدّي (مثلاً). وعقدنا جلستين للهيئة، واتفقنا في نهاية الجلسة الثانية، على أن لا نقيم الحفلة. لكن كان هناك اتفاق على أن يترك الى توما خمار ومنسى صيقلي أمر تبليغ القرار الى الياس خمار. الوجاهة تقضي بأن يزار الرجل في بيته للاعتذار اليه عن عدم اقامة الحفلة في النادي، لا لتبليغه القرار.

وحدث عصر اليوم التالي، وقبل ان يتمكن العضوان من تبليغ القرار / الاعتذار الى الياس خمار، أن جاء الرجل الى النادي، وجلس على مكتبي في غرفة الادارة وطلب أركيلة.

دخلت أنا مكتبي فوجدته هناك بكل مظاهر العظمة التي كان يتخذها. وتأدّبت أنا فلم أطلب منه ان يترك لي مكتبي، وسألني، وبطرف شفتيه اللتين كانتا تقبضان على «بز» الأركيلة، عما تمّ بموعد الحفلة. فقلت له انه لن تكون هناك حفلة، فقد قررنا عدم اقامتها لانه ليس هناك ما يبرر مثل هذا العمل، والتبرّع الشفوي لم يتم منه شيء، وحتى لم يكن هناك تبرع مالي لما كان الرجل في عكا.

لم يعجب الأمر الياس خمار واحتج على اللجنة وقرارها، ولكن بشيء من حدة الوجاهة. وأخذت أنا أعنى ببريد النادي - على طرف مكتبي. وأخيراً خرج الرجل بعد ان امتص من الأركيلة ما سمح له غضب الوجاهة أن يمتص.

في تلك الليلة، وفي السهرة في بيته، قال الياس خمار عني «منين هالمقطّع الموصّل اللي عملتوه سكرتير؟ قلة ناس في عكا؟». ومن الطبيعي ان تنتشر هذه المقولة عني، حتى قبل ان تصلني العبارة. ومن الطبيعي ان يغضب الشباب لموقف الياس خمار مني. وكان من اكثر المدافعين عني حماسة جميل حبيب، وهو أيضاً من عائلة محترمة في عكا، الذي قال، كما بلغني، «هذا المقطّع الموصّل هو اللّي حامل النادي على كتافه».

ولم يؤلمني موقف الياس خمار مني، بقدر ما آلمني موقف بعض أعضاء الهيئة، من أسر الوجاهة. فقد وجهوا

لي اللوم لانني اخبرت الياس خمار. وذكّرني البعض بان القرار الذي اتخذ بوجوب ترك التبليغ للعضوين. أنا كان موقفي أن السكرتير هو المسؤول رسمياً عن تبليغ أي قرار، وان كان اتخذ قرار خاص لقضية خاصة، فالأمر لا يعدو أنه أمر ظرفي. ولكن الياس خمار لم يسمح لنفسه بأن ينتظر حتى يتم للوجاهة ان يصلها الرأي بما يتناسب مع أهميتها؛ فاعتدت علي وعلى مكتبي وسالتني عن الذي تم، فلم أجد نفسي مقيداً باي قرار أو صيغة إلا بأن الحفلة لن تقام، والسلام عليكم.

وكان من الممكن ان تسير الأمور بسلام لو ان أعضاء الوجاهة توقفوا عند اللوم مرة واحدة. أصبح همهم أن لا يسمحوا للسكرتير بأن ينفذَّ أي قرار (بعد اتخاذه في الهيئة) إلا وإلى جانبه من يمكنه ان يمنع السكرتير من الخطأ والاساءة الى الناس - طبعاً ناس من نوع معين.

عندها كتبت رسالة استقالة الى رئيس النادي - جبرائيل خوري. وتركت العمل - مع رجاء جبرائيل لي أن لا أتخلى عنهم - واختير ميشيل خمار سكرتيراً بالوكالة الى أن تمت انتخابات جديدة، وعندها رفضت ان اكون في الهيئة الادارية رفضاً باتاً.

لكن النادي كان لي أخاً أعنى به كما أعنى بالفرد وجورج. لذلك لم أتخلَّ عن العمل في سبيله. فبرامج المحاضرات والندوات وتقديم المحاضرات والاهتمام بالمكتبة (على صغرها) كانت جميعها تحت عنايتي واشرافي غير الرسميين. وظل الحال على ذلك الى ان حدث انقسام في النادي وأصبح له هيئتان، لكل هيئة رئيس وسكرتر وختم. على كل فانني بعد هذا بمدة قصيرة غادرت عكا الى لندن (خريف ١٩٣٥)، ولما عدت الى فلسطين، عيّنت في القدس، ولم أعُدْ أتابع تفاصيل ما كان يحدث في عكا.

كان محمد الأمين، المعلم بالمدرسة الابتدائية، يحب التمثيل. وأحسب، كما ذكرت قبلاً، لو أنه أتيح له أن يجرّب موهبته لبرز في عالم المسرح. وكان يريد دائماً أن يقوم معلمو المدرستين بتمثيل رواية مشتركين معاً. فلما وصلت انا الى عكا في خريف ١٩٢٥ اهتم محمد الأمين بكسبي الى صفه كي نمثّل رواية. وكانت المسرحية موضوع البحث «لولا المحامي» لسعيد تقي الدين. وكانت هذه أول مرة أسمع باسم هذا الكاتب العبقري، الذي أتيح لي ان أتعرف اليه شخصياً لما سكنت بيروت والتحقت بالجامعة الاميركية استاذاً فيها فيما بعد.

لم تكن «لولا المحامي» منشورة، ولست أدري كيف وصلت نسخة مخطوطة منها الى عكا. المهم أنني قرأت المسرحية فاعجبتني، وقرأها أحمد خليفة، الذي كان قد نقل الى عكا مساعداً لمفتش المعارف، واعجبته وقبل يوسف حنا مدير المدرسة بالوكالة ان تمثل الرواية. وجاءت الصعوبة. فالرواية فيها فتاة، ولم يكن بالامكان الحصول على فتاة للقيام بهذا الدور، لذلك اتجهت الانظار نحوي. فقد كنت جميل الصورة، مشرق الوجه نحيف القوام. لكنني رفضت رفضاً باتاً. وظلت القضية معلّقة حتى جاءت أيام البربارة، وجاء حلمي عطاالله الى بيتنا بلباس فتاة. فكان فتاة سمراء ممتلئة الجسم خفيفة الدّم. عرضت عليه فكرة الاشتراك معنا. قبل.

وزعنا الأدوار. كان دوري هو خالد الذي سيتّهم بقتل رجل قتله شاب من شباب الضيعة المستهترين ليستولي على أمواله. وأخذ محمد الأمين دور القاتل وحنا موسى (من مكتب مفتش المعارف) دور تابع لأهل القاتل اصحاب النفوذ وأعطي دور المحامي لأحمد خليفة. وقد أجاد محمد الأمين في تمثيل دوره إجادة تامة، نالت إعجاب الحاضرين، حتى أننا اضطررنا الى تمثيل الرواية ليلة ثانية (وفي السنة التالية مثّلناها في حيفا).

كانت هذه هي المناسبة الوحيدة التي ظهرت فيها على المسرح، وقد قال لي كارل نصار لما حضر التمثيلية في حيفا، أنني اتقنت دوري، وانني كنت بعد محمد الأمين خير الممثلين. ومع ذلك فلست أدري ماذا كان يظهر مني لو أن عكا كانت تتيح لنا مجال العمل المسرحي. على كل انا كنت أحب مهنة التدريس، ولانني دربت نفسي، من أول

الأمر، على أن أنمو شخصياً مع مهنتي، فانني لم أصل الى درجة حفظ الدرس والقائه كما هو سنةً بعد سنة.

وأحمد خليفة، الذي قدمته للقراء قبلاً، لم يكتف بانه تعلم في السلطاني البيروتي وتعلم الانكليزية. كان الرجل يقرأ كثيراً. وما أكثر ما كنا نتبادل واياه الكتب الأدبية والفكرية. وبعد قراءتها كثيراً ما كنا نتناقش في محتواها، بل كثيراً ما كنا نتكاتب - اذا غبت انا في الصيف عن عكا - عن بعض ما نقرأ. وأذكر ان أول كتاب تراسلنا حوله كان كتاب فجر التاريخ تأليف ل. م. ماير من سلسلة Home University.

وقد رقي أحمد خليفة فيما بعد الى رتبة مفتش للمعارف. ولما عدت من لندن (١٩٣٩) وجدته مفتشاً لمعارف لواء القدس. وعادت الصلة بيننا، ولو أنها كانت أقل مما كانت عليه في عكا، بسبب تباعد المنازل في القدس وتشعّب الأعمال ووجود الأندية حيث تلقى المحاضرات، وهي أمور لم نكن نعرف منها في عكا إلا القليل. وبعد مدة اختير أحمد خليفة ليكون مديراً لدار المعلمين في سيدي المصري في طرابلس (ليبيا) فأقام هناك سنتين أو ثلاثاً. وانتهى به الأمر، بعد عودته من ليبيا، الى التخلي عن العمل التعليمي، فانضم الى العمل المصرفي فكان مساعداً لمدير (أو لعله كان مديراً) للبنك السعودي في القاهرة. وقد زرته في مكتبه مرة أظن في أواخر الخمسينات. وكان يشكو ضعفاً في صحته ولو انه لم يسم مرضاً معيناً. وقد توفي في القاهرة بنوبة قلبية.

لما بدأت العمل في عكا كنت، مثل أكثر الناس في بلادي، اعتمر الطربوش. لبست القبعة من قبل لما كنت طالباً في دار المعلمين، وقد اختفت القبعة في مظاهرة في موسم النبي موسى ونحن على وشك دخول الحرم الشريف.

ولم يكن لبسي الطربوش شيئاً غير عادي. لكنني كنت أدرك ان القبعة احفظ للرأس بكامله شتاء وأمنع له صيفاً، إذ تحميه من أشعة الشمس. وكانت تدور في مصر يومها مناقشة حول القبعة ولبسها. دارت على صفحات الجرائد بعض الوقت. وأذكر أن يوسف حمدي يكن كتب ست مقالات في المقطم يدافع فيها عن لبس القبعة وينفي الكفر أو الانحراف عمن يفعل ذلك، وكانت مقالته الأخيرة بعنوان «لبست القبعة». أظن أن هذه المقالات كتبت في سنة ١٩٢٦.

وجاء كارل نصار يسكن عكا، وكان يلبس القبعة، فأخذ يشجعني على لبسها. ثم عاد أديب عتقي من البرازيل وكان يلبس القبعة. فاجتمعت لدي، فضلاً عن قناعتي الأصلية المبنية على تجربة سابقة، مشجعات أخرى. لذلك اشتريت قبعة وأخذت البسها بانتظام.

كان يحدث ان اكون سائراً في عكا فالتقي عبد الله مخلص برفقة الشيخ أسعد الشقيري، فيقترح عليّ الانضمام اليهما للقيام بزيارة. وقلما كنت أرفض، لأن مثل هذه الرفقة أو تلك الزيارة كان فيها ثقافة لي، وهي ثقافة من نوع خاص لا يحصل عليها المرء في الكتب. ولم يكن للشيخ اسعد أي اعتراض على مثل هذه الرفقة، إذ لم يكن له أصلاً أي اعتراض لزيارتي أياه في ديوانه الواسع في دارته اللطيفة خارج سور عكا.

حدث، بعد ان لبست القبعة، ان جاءت مناسبة من تلك المناسبات. دعاني عبدالله مخلص للانضمام الى الرفقة. وبحكم العادة قبلت الدعوة. وسرنا نحن الثلاثة. ويبدو انه لم يرق للشيخ اسعد أن يرى ومعه شاب يلبس قبعة وفي عكا. لكنه لم يقل شيئاً قط. إلا أنه بعد أيام، وقد كنت في زيارة لعبدالله مخلص (وكنت ازوره كثيراً للافادة من مكتبته العامرة) فاذا به يقول، في سياق الحديث، وبلباقته الأصيلة، الشيخ اسعد يا زيادة أعجبته قبعتك لكنه يقول ان اطارها عريض.

أدركت الاشارة. وكانت القبعة عزيزة علي، لكن رفقة الشيخ اسعد، ولو انها كانت تحدث لماماً، كانت أعزّ عليّ من القبعة. يومها تركت القبعة، ولم أضع بعدها أي غطاء على رأسي الا في الاماكن الباردة جداً، والا القلبق الذي البسه شتاء حتى في بيروت منذ أن اشتريته في موسكو سنة ١٩٧٥. فشعري الآن أقلّ كثافة ولذلك فهو لا يحمي رأسي كما كان يحميه من قبل.

لما بدأت العمل في المدرسة الثانوية بعكا في تشرين الأول / اكتوبر ١٩٢٥، كان هربرت صموئيل، المندوب السامي الأول لفلسطين (١٩٢٠-١٩٢٥) قد انتهت مدته، وخلفه الفيلد مارشال اللورد بلومر. وقد كان صموئيل -اليهودي، صديق حاييم وايزمان وزميل لويد جورج والمشارك في الهوى لبولدوين وتشمبرلين وسمطس- مؤيدي الصهيونية دون هوادة - كان صموئيل آية في النشاط لوضع الأسس القوية لتنفيذ وعد بلفور وصك الانتداب. وحري بالذكر ان صك الانتداب لم توافق عليه عصبة الأمم الا في ١٩٢٢/٧/٢٤ (ولم يدخل حيّز التنفيذ الا في ٢٩ ايلول / سبتمبر ١٩٢٣)، ولكن ذلك لم يمنع المندوب السامي (صموئيل) الذي تسلم عمله في ١ تموز / يوليو ١٩٢٠، (وبذلك انتهت الادارة العسكرية وبدأت الادارة المدنية في فلسطين) من التصرف ادارياً كما لو ان الصك كان جاهزاً. وبهذه المناسبة فانه يوجد في مكان ما من الاضبارات والملفات الرسمية المتعلقة بفلسطين ورقة هي إيصال كتبه هربرت صموئيل وسلمه الى الجنرال بولز الحاكم العسكري لفلسطين، بتاريخ ١٩٢٠/٧/١ وفيه يقرّ ويعترف «بانه تسلّم فلسطين واحدة كاملة».

في ايام صموئيل انشىء المجلس الوطني اليهودي في ١٠/ ١٠/ ١٩٢٠، (واسمه العبريّ (Vaad Leumi) واعترف به المندوب السامي ممثلاًرسمياً لجمعية المستوطنين (المجلس لم يحصل على مركز قانوني رسمي إلا في ١/ ١/ ١٩٢٨ لما أسس «كنيست اسرائيل»). وقوى صموئيل دور الصندوق القومي اليهودي وجعل اللغة العبرية لغة رسمية في البلاد. وهو الذي أعطى للمدرسة اليهودية في فلسطين استقلالها التام. فكان على ادارة المعارف ان تسلّم حصة اليهود من موازنتها الى ادارة التربية في الوكالة اليهودية، وهذه تدير مدارسها ادارة حرة. وكل ما هناك انه كان ثمة موظف كبير (أصبح مساعداً لمدير المعارف فيما بعد) هو ضابط ارتباط بين هذه الادارة والوكالة. وكان عمل مكتبه هو الحصول على الاحصاءات التعليمية اليهودية لادراجها في التقارير السنوية. والوكالة اليهودية، التي كان المفروض فيها أن تقدم النصح والارشاد، وأن تبدي الرأي في شؤون الادارة الفلسطينية، أصبحت ادارة موازية للادارة الفلسطينية تماماً. وكانت تقدم الرأي وتصرّ على اتخاذ قرارات تنفّذ رسمياً. صحيح ان الوكالة كان لا بد لها من الوصول الى هذه الدرجة من النفوذ، لكن وجود هربرت صموئيل مندوباً سامياً، ولمدة طويلة، عجل في الوصول الى الغاية المنشودة.

وفي أيام هذا المندوب السامي وضعت الأسس الأصلية للتشريع الذي يفتح ابواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية (ومنح اليهود الجنسية الفلسطينية بسهولة) كما وُضِعَتْ جميع التّشريعات وصدرت الأوامر التي من شأنها أن تسهل انتقال الأرض في فلسطين الى اليهود. وأهم ما تم في ذلك هو اعتبار الأراضي العامة التي كانت ملكاً للدولة العثمانية أو للسلطان العثماني (هذه كانت تسمى جِفْتْلك) أنها أصبحت ملكاً لحكومة فلسطين، وأصبح التصرف فيها خاضعاً لقرار حكومي. فكان القرار يصدر بأن مشروعاً معيّناً (يهودياً / صهيونياً في طبيعته) هو مشروع عام لذلك تنقل قطعة أو أكثر من الأرض من أملاك الحكومة الى القائمين على المشروع.

وفي أيام صموئيل بدأت الدراسات حول الطاقة الكهربائية في فلسطين واملاح البحر الميت. وقد تم منح امتياز لروتنبرغ لتوليد الكهرباء من مساقط الأردن جنوبي بحيرة طبرية بحيث يزود المشروع فلسطين باكملها (باستثناء القدس) بالنّور والطاقة للصناعة. وقد تمت الأسس للحصول على هذا الامتياز قبل نهاية عمل صموئيل ومنح الامتياز سنة ١٩٢٦. اما فيما يتعلق بالبحر الميت فقد تأخّر منح الامتياز الى شركة بوتاس فلسطين حتى سنة ١٩٢٩، وبدىء العمل بالمشروع سنة ١٩٣٠.

كان اللورد بلومر هو المندوب السامي الثاني (١٩٢٥-١٩٢٨). وهذا كان عسكرياً في تصرفه. وقد زارنا في المدرسة. ويروى عنه أنه قال لبعض الزعماء العرب الذين قابلوه لتقديم احتجاج على سياسة الحكومة البريطانية

في فلسطين ان مالطة ليست بعيدة عن فلسطين. (ومالطة كانت المنفى الذي أرسل اليه سعد زغلول وصحبه من قبل).

والمندوب السامي الثالث كان جون روبرت تشانسلور (١٩٢٨- ١٩٣١). وهذا هو الذي اتهم عرب فلسطين بانهم سفاكون للدماء حتى قبل ان يحقق في القضية. قضية البراق سنة ١٩٢٩.

وكان ارثر واكهوب، وهو المندوب السامي الرابع (١٩٣١-١٩٣٨). قد عين أيضاً بنفوذ حاييم وايزمان.

ليس القصد من هذه الكلمات التأريخ لفلسطين الى سنة ١٩٣٥ (السنة التي تركت فيها عكا وذهبت الى لندن لطلب العلم)، لكنني أود أن أشير الى بعض من التصرفات البريطانية التي كانت تؤدي، بسبب الظلم الذي توقعه على العرب، الى انتفاضات أولاً ثم الى ثورات متتالية ثانياً. ويمكن القول إجمالاً إن السياسة البريطانية في فلسطين مرت بالأدوار التالية.

١٩١٧-١٩٢٠: وعد بلفور، الذي يعطي وطناً قومياً لليهود في فلسطين؛ وصك الانتداب (مسودته جاهزة منذ ١٩٢٠) الذي يعترف بوعد بلفور أساساً ويعدُ بوضع البلاد في أحوال سياسية واقتصادية ملائمة لتحقيق الوطن القومي في فلسطين.

١٩٢٠- ١٩٣١: أصبح الاتجاه الآن اعتبار فلسطين **كلّها** وطناً قومياً لليهود؛ وهذا بطبيعة الحال معناه تحويل المشروع عند الحاجة الى دولة يهودية.

١٩٣١ وما بعدها: فلسطين كلها لليهود على أساس أن تضم ملايين من يهود العالم. انما الخطوات هي أن تقوم دولة (في جزء من فلسطين). تقرير لجنة بيل (١٩٣٦) تقسيم فلسطين. ثم، بعد جميع الثورات، تقسيم فلسطين بقرار من الأمم المتحدة (٢٩/ ١١/١٩٤٧) وقيام دولة اسرائيل (١٩٤٨) وأخيراً احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة (١٩٦٧) واعتبار جميع هذه جزءاً من الدولة الاسرائيلية (ولو أن الحكومة الاسرائيلية لم تضم الجزأين المحتلين سنة ١٩٦٧ رسمياً الى الدولة).

وكان من الطبيعي ان يكون العنصر الأساسي الذي يقيم أودَ الدولة اليهودية (اسرائيل فيما بعد) هو زيادة العنصر البشري اليهودي في البلاد. ولعل الأرقام التالية توضح المسار الصهيوني نحو هذا الهدف.

١٩١٨	عدد اليهود كان		٥٥,٠٠٠	
١٩٢٠-١٩٢٤	دخل فلسطين		(نحو) ٤٣,٠٠٠	مهاجر
١٩٢٥-١٩٢٩	=	=	(نحو) ٥٧,٠٠٠	مهاجر
١٩٣٠-١٩٣٤	=	=	(نحو) ٩١,٠٠٠	مهاجر
١٩٣٥	=	=	(نحو) ٦٢,٠٠٠	مهاجر
١٩٣٦	=	=	(نحو) ٣٠,٠٠٠	مهاجر
١٩٣٧	=	=	(نحو) ١١,٠٠٠	مهاجر
١٩٣٨	=	=	(نحو) ١٣,٠٠٠	مهاجر
١٩٣٩-١٩٤٨	=	=	(نحو) ١٢٠,٠٠٠	مهاجر

فأصبح عدد السكان اليهود في فلسطين ٦٢٥,٠٠٠ سنة ١٩٤٨ (بعد ان كان ٥٥,٠٠٠ في سنة ١٩١٨).

والهجرة الى فلسطين تمثّل الناحية البشرية من العمل الصهيوني الذي تم باشراف بريطانية وتشجيعها، ان لم يكن بدفعها الكلي. وفي مقابل ذلك كانت الزعامة الفلسطينية، بين سنتي ١٩٢٢ و١٩٢٩، تكتفي بالاحتجاجات والمؤتمرات والعرائض والاضرابات. وقد دخل في أعمال هذه الزعامة ارسال وفود الى لندن (في

سنتي ١٩٢١ الى لندن وجنيف و١٩٢٣) لكن الموقف البريطاني لم يتبدّل أبداً.

صحيح ان ثورة قامت في القدس ١٩٢١ وتبعتها أخرى في يافا في السنة نفسها، وقد عيّنت حكومة فلسطين لجنة للبحث في أسباب الاضطرابات، كما كانت تصرّ حكومة فلسين على تسمية أي عمل يقوم به العرب، كان رئيسها السير توماس هايكرافت قاضي قضاة فلسطين. اللجنة أدانت الحكومة، و«سوّدت وجهها»، لكن الحكومة كانت تقبل تسوُّد الوجه دون ان تُغيّر موقفها من مساعدة الصهيونية على حساب العرب. وقد استقال هايكرافت فيما بعد من عمله بسبب استمرار تحيّز الحكومة نحو اليهود.

في سنة ١٩٢٩ حدثت ثورة البراق. والبراق هو جزء من الحائط الغربي للهيكل القديم الذي بناه هيرودس لما كان حاكماً للقدس (تو ٤ ق.م.). وحائط البراق والبراق كما يسمى اختصاراً هو ملكٌ اسلامي. إلا أنه كان يحقّ لليهود أن يَصِلُوا اليه أفراداً أو ثنى أو جماعات صغيرة للبكاء عليه ومن هنا سمي حائط المبكى. وقد زرت أنا هذا المكان مرات سنة ١٩٢١ و١٩٢٢ لما كنت طالباً بدار المعلمين، ولست أذكر أنني رأيت أكثر من بضعة أشخاص هناك يعولون ويتلون صلواتٍ خاصة بهم.

في سنة ١٩٢٩ أخذ الصهيونيون يستعدّون للسّير في اتجاه البراق (حائط المبكى) بأعداد كبيرة لم يكن يجوز لها فعل ذلك بموجب ما مُنِحَتْهُ من قبل. وكانت الفكرة التي تولدت عند اليهود هي احتلال حائط المبكى كي يثبتوا ملكيتهم له.

قامت في مساء ١٤ آب / أغسطس ١٩٢٩ مظاهرة كبيرة في تل أبيب لمناسبة الاحتفال بيوم تدمير الهيكل. وفي اليوم التالي (١٥ آب) قامت مظاهرة يهودية كبيرة في القدس، واتجهت نحو حائط البراق ونَصَبَت هناك علماً صهيونياً وكانت تنشد أناشيدها وتقذع في شتم العرب والمسلمين. وكان اليوم التالي يوم جمعة وصادف انه كان يوم ذكرى المولد النبوي. لذلك جاء عدد كبير من أهل القرى المجاورة للقدس لصلاة الجمعة في المسجد الأقصى، وبعد الصلاة توجهوا نحو حائط البراق وحطّموا طاولة كانت هناك لليهود (١٦ آب / أغسطس).

وشاع أن اليهود يعدّون لعمل عدواني كبير، فجاء عدد كبير جداً من المصلين يوم الجمعة التالي (٢٣ آب / اغسطس). ووقعت بين الفريقين حوادث متعددة. وقد تدخلت قوى الأمن البريطانية وفرّقت المتظاهرين من الفريقين، إلا أنها كانت أقسى وأشدّ على العرب بما لا يصدق.

وفي الأيام التالية قامت اضطرابات في بقية المدن الفلسطينية من الخليل الى صفد (هذه كانت أشد ايامها يوم ٢٩ آب / اغسطس). ثم اتجهت الأمور نحو الهدوء.

أذكر ان المندوب السامي تشانسلور الذي كان يقضي اجازته في انكلترا، قطعها وعاد. وقد أصدر بياناً ـ قبل أن يصل الى فلسطين ـ وصفَ فيه العربَ بالجماعة المتعطّشة للدماء. أذكر تماماً انني قرأت نص هذا البيان في عكا وأنا في طريقي الى البيت، وكنتُ قد وصلت أمام الصيدلية الوحيدة التي كانت بعكا وكان يملكها ليون (وهو زوج أخت زميلنا بنجاريان)، فلم أستطع الاستمرار، فدخلت الصيدلية وجلست عنده لالتقط انفاسي.

نتيجة المظاهرات وأعمال العنف (التي سميت شغباً بالنسبة للعرب) قُدِّمَ نحو ألف شخص من العرب للمحاكمة بتهم مختلفة، ولكنها جميعها تدور حول الشغب والنهب واحراق الأماكن والحوانيت والقتل والتعذيب. وقد ثبت فيما بعد على يد لجنة طبية بريطانية انه لم يكن ثمة تعذيب. وكانت نتيجة المحاكمات جميعها أن حكم على عدد كبير من العرب بأحكام مختلفة، لكن ثلاثة منهم صدر عليهم الحكم بالاعدام، وهم: عطا الزير ومحمد جمجوم وفؤاد حجازي. والأولان من الخليل والثالث من صفد.

وهنا يأتي دور عكا. إن القلعة التي بناها أحمد باشا الجزّار (١٧٧٦ ـ ١٨٠٤) في عكا والتي كانت دار سكناه

ودار حكومته أصبحت، حتى في أواخر العهد العثماني، سجناً كان يعرف باسم سجن اللومان. والأغنية التي كانت تقول

والله ما فوت عشرتك - ولو بالحبس حطُّوني

صارت في جهات عكا تغنّى: والله ما فوت عشرتك - ولو باللومان رموني.

وفي أيام الانتداب أصبح الجزء الأدنى من القلعة، ومدخله من داخل البلد على مقربة من جامع الجزّار، متحفاً وضعت فيه بعض الأشياء الأثرية التي عثر عليها في تلك الجهات، وكان نعيم مخولي (من كفرياسيف) مراقباً للآثار في اللواء، وقد أخذ يعنى بترتيب هذا المتحف، وأعانه على ترتيب الحديقة مدير السجن المركزي إذ كان يرسل له المساجين ليعملوا فيها. أما الجزء الأعلى، المحصّن، من القلعة، والذي كان له مدخل من خارج السور، فقد أصبح السّجنَ المركزيَّ الثاني، إذ كان الأول في القدس (وفيما بعد انشىء سجن مركزيٌّ ثالث في نور شمس على مقربة من طولكرم).

هذا السجن المركزي في عكا استضاف بين مساجينه الشباب الثلاثة الذين حكم عليهم بالاعدام. وقد فشلت جميع المساعي لتخفيف الحكم عليهم. ذلك بأن موقف حكومة الانتداب من هذه الأمور بأجمعها كان يتلخّص في أن كل عربي قام بعمل ضد حكومة الانتداب، يعتبر مجرماً عادياً، ولم تقبل الحكومة الفلسطينية قط، بالنسبة للعرب، فكرة المجرم السياسي، أي الذي يقوم بمثل هذه الأعمال دفاعاً عن أرضه وأهله، أي عن بلاده، إطاراً ومحتوى. لذلك ثُبِّتَ حكم الاعدام استئنافاً، من الناحية القضائية، ورُفضَت المحاولات الأخرى.

ونحن الذين كنا نسكن عكا، بقطع النظر عن أعمالنا وأعمارنا وتعلّمنا أو جهلنا، كنا نعرف أمراً واحداً: أنه يوجد بين ظهرانينا، ولو أن جدراناً قوية كانت تفصل بيننا، ثلاثة شهداء، كانت جريمتهم الدفاع عن الوطن، وكان الحكم عليهم لا يمثّل القضاء الحق بقدر ما كان يمثّل القضاء السياسي. وكنا، جميعنا، نأمل، حتى قبيل تنفيذ الاعدام ببعض الوقت، في أن يُخَفَّفَ الحكم الى سجن مؤبّد مثلاً. ولكن الحكومة كانت مصرّة على إعطاء درسٍ قاس، كما ذكر أحدهم مرة.

وتقرر أن يتم تنفيذ الاعدام يوم الثلاثاء في ١٧ حزيران / يونيو ١٩٣٠. وهو اليوم الذي سماه ابراهيم طوقان «الثلاثاء الحمراء».

فلسطين أضربت: إحتراماً للشهداء، واحتجاجاً على موقف الحكومة. وكان الاضراب في عكا يرافقه غليان، لكن قوى الحكومة الأمنية وقوى الجيش كانت منتشرة في كل مكان منذ مساء اليوم السابق. فالغليان لم يكن يتجاوز الهتافات والصراخ والعويل وصبَّ اللعنات. وكانت مدرسة عكا الثانوية، تلامذة ومعلمين، قد أضربت بطبيعة الحال، لكن المدرسة كانت الوحيدة التي أعدت صراخاً منظماً. كانت ثمة انشودةٌ قد شاعت على الألسن في فلسطين قبل بضع سنوات مطلعها (يبدو انها من نظم نجيب الريّس)

يا ظلامَ السّجنِ خيّمْ — إننا نهوى الظّلاما
ليسَ بعدَ السّجنِ إلاّ — فجرُ مجدٍ يتسامى

فبدّل ناصر عيسى كلمة واحدة: وضع القبر مكان السجن

يا ظلامَ القبرِ خيّمْ — إننا نهوى الظّلاما
ليسَ بعدَ القبرِ إلاّ — فجرُ مجدٍ يتسامى

وكان من الضروري أن يحمل كل تلميذ، وكل من أراد أن ينشد مع التلاميذ، نسخة من الانشودة. فجئت أنا

وكتبت الأصل بخطّ يدي لانه -كان- خطاً واضحاً وجميلاً. ثم طبعنا منها، على «البلوظة» التي كنا نستعملها لطبع المذكّرات للتلاميذ، عدداً كبيراً من النسخ.

في اليوم المخصّص للاعدام، كان بين تقديم الواحد من الشهداء والآخر، ساعة. وقبل ان تحل الساعة الأولى بدأ التلاميذ والمعلمون ومن انضم اليهم بالنشيد وبصوت هو مزيج من الأسى والحماسة، ولست أستطيع أن أصف هذا. لكن هذا هو الشعور الذي كان سائداً بين الآلاف الذين جاءوا البلدة وكانوا منتشرين حول المقبرة - مقبرة النبي صالح ليكونو شهوداً على «الاستشهاد»، وليودّعوا هؤلاء الشباب وداعَ الأبطال. ووداع الأبطال فيه دوماً مزيج من الأسى - لفقد الحياة - والحماسة بسبب الدفاع الذي انتهى بفقد الحياة. وقد عبّر المنشدون عن ذلك في كل مرة أعادوا النشيد.

يوم لا أدري ماذا أسميه الآن، ولكن لعل الخير كل الخير هو الاحتفاظ بالاسم الذي أطلقه عليه ابراهيم طوقان في قصيدة عنه القاها في حفلة مدرسة النجاح في نابلس ذلك الصيف، وهو «الثلاثاء الحمراء». فالتسميات التي تنطلق عفواً هي الأكثر إعراباً عن الشعور والأوضح في الدّلالة على المعنى المقصود يومها.

وعلى كل فقد كان يومها في كل بيت عربي في فلسطين ماتم. واذكر انه روي يومها ان اثنين من سكان عكا، وأصلهما من احدى القرى، سارا على المألوف عند المتقدمين بالسنّ خصوصاً، فاطلقا لحيتيهما لمدة أربعين يوماً حداداً على الشهداء الثلاثة.

الثلاثاء الحمراء

لابراهيم طوقان

مقدّمة

لمّا تعرّضَ نَجمُكَ المنحوسُ ... وترنّحت بِعُرى الحبال رؤوسُ
ناح الأذانُ وأعولَ الناقوسُ ... فالليل أكدرُ، والنّهارُ عَبوسُ
طفقَتْ تثورُ عواصفٌ ... وعواطفُ
والموتُ حيناً طائفٌ ... أو خاطفُ
والمِعْولُ الأبديُّ يُمْعِنُ في الثرى ... ليردّهم في قلبِها المتحجّرِ

*

يومٌ أطلّ على العصور الخاليةْ ... ودعا: «أمرَّ على الورى أمثاليَهْ؟
فأجابَهُ يومٌ: «أجلْ أنا راويَةْ ... لمحاكم التّفتيش، تلكَ الباغيَهْ
ولقد شهدتُ عجائبا ... وغرائبا
لكنَّ فيك مصائبا ... ونوائبا
لم ألْقَ أشباهاً لها في جوْرِها ... فاسألْ سوايَ وكم بها مِنْ منكَرِ

*

واذا بيومٍ راسف بقيوده ... فأجابَ، والتاريخُ بعض شُهوده،:
«أنظرْ الى بيضِ الرقيق وسوده ... مَنْ شاءَ كانوا مُلْكَهُ بنقودِهِ
بشرٌ يُباعُ ويُشترى ... فتحرّرا
ومشى الزّمانُ القهقرى ... فيما أرى ...
فسمعتُ مَنْ منعَ الرقيقَ وبيعَهُ ... نادى على الأحرار يا مَنْ يشتري!»

*

واذا بيــوم حـــالك الجلبــابِ   مُتَرنّحٍ مـن نَشْوةِ الأوصـــابِ
فـأجاب: «كـلا، دون مـا بكَ مـا بي   أنا في ربى (عـاليه) ضـاع شبابي
وشـــهـــدتُ للســـفّاح مـــا   أبكي دما
ويـلٌ لـه مـــــا أظـلـمـــا   لكنما...
لم ألْقَ مِثلكَ طالعـــاً في روعـــةٍ   فـاذهبْ لعلّكَ أنتَ يومُ المحـشـرِ»

*

(اليـومُ) تُنكرهُ الليـالي الغـابرهْ   وتظلُّ تـرمـــقُه بـعين حـــائرهْ
عـجبـاً لأحكام القـضـاء الجـائرهْ   فـأخـفُّهـا أمـــثـال ظُلْم سـائرهْ
وطنٌ يســـيـــرُ الى الفنـاءْ   بلا رجاءْ
والـــداءُ لـــيـــس لـــه دواءْ   إلاّ الاباءْ
إنَّ الاباءَ مـنـاعـــةٌ، إن تشـــتَملْ   نفسٌ عليــه تَمُتْ ولَمَّا تُقـــهـــرِ

*

الكلُّ يرجـو أن يُبكرَ عــفـوهُ(١)   نَدْعـــو له ألاّ يُكَدَّرَ صــفـــوُهُ..!
إنْ كــــان هذا عطفُهُ وحُنُوُّهُ...   عـاشتْ جـلالَتُهُ وعـاشَ سُمـوُّهُ..!
حَمَلَ البــــريدُ مُفــــصَّلا   ما أُجملا
هـلاَّ اكـــتـــفـــيتَ تـوسُّلا   وتسوُّلا
والموتُ في أخـــذِ الكلام وردِّهِ   فـخذِ الحـياةَ عن الطريق الأقصـر

*

ضـاق البـريدُ ومـا تَغيَّرَ حـالُ   والـذُّلُّ بـين سـطـورنـا أشـكـالُ
خُسْرانُنا الأرواح، والأمـــوالُ   وكـرامـةٌ - يا حـسـرتا - أسـمـالُ
أوَ تُبـــصـــرونَ وتســـألونْ   ماذا يكونْ!؟
إنَّ الخــــــداعَ لـه فـنـونْ   مِثْلُ الجنونْ
هيـهاتَ، فـالنفسُ الذليلةُ لو غَدَتْ   مـخلوقـةً من أعينٍ لم تُبْصــرِ!

*

أنّى لشـاك صـوتُه أنْ يُسْمَعـا   أنّى لبــاك دمـعُه أنْ يَنفــعـا
صـخرٌ أحسَّ رجاءَنا فـتـصدَّعا   وأتى الرجـاءُ قلوبَهم فـتـقطّعـا..
لا تعـجـبـوا، فـمن الصـخـورْ   نبعٌ يفورْ
ولهم قلوبٌ كـــالقـــبـــورْ   بلا شعورْ
لا تلتـمسْ يومـاً رجـاءً عندَ مَنْ   جـــرَّبْتَهُ فـــوجـــدتَهُ لم يَشْعُرِ

الساعات الثلاث

الساعة الأولى

أنا ساعةُ النفسِ الأبيّهْ الفضلُ لي بالأسبقيّهْ
أنا بِكْرُ ساعاتٍ ثلاثٍ كلها رمزُ الحميّهْ
بنْتُ القضيّةِ إنَّ لي أثراً جليلاً في القضيهْ
أثرُ السيُوفَ المشْرَفيّةِ والرماحِ الزاغبيّهْ
أودعتُ في مُهجِ الشبيبة نفْحةَ الرُّوح الوفيّهْ
لا بدَّ من يوم لهم يَسْقي العدى كأسَ المنيّهْ
قسماً بروح (فؤاد) تصعدُ من جوانحِهِ زكيّهْ
تأتي السماءَ حفيّةً فتحلُّ جنّتَها العليّهْ
ما نال مرتبةَ الخلود بغيْرِ تضحيةٍ رضيّهْ
عاشتْ نفوسٌ في سبيلِ بلادِها ذهبتْ ضحيّهْ

الساعة الثانية

أنا ساعةُ الرجل العتيد أنا ساعةُ البأسِ الشديدِ
أنا ساعةُ الموت المشرِّفِ كلَّ ذي فعلٍ مجيدِ
بطلي يُحَطِّمُ قيدَهُ - رمزاً لتحطيم القيودْ[٢]
زاحمتُ مَنْ قَبْلي لأسبْقَها الى شرَف الخلود
وقدَحْتُ في مُهَجِ الشبابِ شرارةَ العزمِ الوطيدِ
هيهاتَ يُخدعُ بالوعودِ، وأن يُخدَّرَ بالعهود
قسماً بروح (محمد) : تَلْقى الردى حُلْوَ الورودِ
قسماً بأمكَ عند موتِكَ وهي تهتفُ بالنَّشيدِ
وترى العزاءَ عَنْ ابنها في صيته الحسن البعيدِ
ما نال مَنْ خدمَ البلادَ أجَلَّ من أجْرِ الشهيدِ

الساعة الثالثة

أنا ساعةُ الرجل الصبورِ أنا ساعةُ القلبِ الكبيرِ
رمزُ الثباتِ الى النِّهايةِ في الخطيرِ من الأمورِ
بَطلي أشدُّ على لقاءِ الموتِ من صمِّ الصُّخورِ
جذلان يرتقبُ الرَّدى فاعجبْ لموتٍ في سرورِ

يَلْقى الالـه (مُخـضَّبَ الكفَّيْن) فـي يـومِ الـنُّشـورِ
صَبْرُ الشـبـابِ على المصـابِ وديعـتي ملءُ الصُّدورِ
أنْذرتُ أعـداءَ البـلادِ بشـرٍّ يوم مُسـتطيـرِ
قـسـماً بروحك يا (عطاء) وجنَّةِ الملك القـديرِ
وصـغـاركَ الأشـبـالِ تبكي الليثَ بالدَّمعِ الغـزيرِ
مـا أنقـذَ الوطنَ المفـدَّى غـيـرُ صـبَّارٍ جَسـورِ

الخاتمة

الابطال الثلاثة

أجـسـادهـمْ في تربة الأوطانِ   أرواحُهـم فـي جـنَّة الـرَّضْوانِ
وهناكَ لا شكوى من الطغـيـان   وهناك فَيْضُ العـفْوِ والغـفـران
لا ترجُ عـفـواً من سـواهْ   هو الالهْ
وَهْوَ الـذي مـلـكـت يـداهْ   كلَّ جاه
جَبَرُوتُه فـوقَ الذين يغـرَهـمْ   جَبَرُوتُهـمْ في برِّهـمْ والأبحـرِ

(١) الضمير يعود الى المندوب السامي البريطاني في فلسطين وقد ألحت الهيئات السياسية العربية عليه ليصدر العفو فلم يفعل.

(٢) نفذ حكم الاعدام بالأبطال الثلاثة في ثلاث ساعات متوالية. فكان أولهم فؤاد حجازي وثانيهم محمد جمجوم وثالثهم عطا الزير. وكان المقرر رسمياً أن يكون الشهيد عطا ثانيهم ولكن جمجوماً حطم قيده وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته!

ولما عدنا لى العمل في المدرسة لم يكن لأيّ منا - تلاميذ ومعلمين - أيّةُ رغبة في العمل. فكنّا ندخل الصفّ ونتحدّث قليلاً عن حائط البراق ومعناه، ودلالةِ العمل الذي تَمْ على أيدي خصومنا والمحاكمة والاعدام. ونتوقّف عند ذكر الشهداء ونقف ذكرى لبطولتهم.

ولكن بعد وقت عاد دولاب العمل سيرته الأولى، في المدرسة وفي السوق وفي المقاهي.

وهنا لا بد من كلمة عن معنى المقاهي في تلك الأيام - وحتى بعدها.

لا شكّ أن العاطلين عن العمل كانوا يقضون الكثير من وقتهم في المقاهي. وقد كان عدد العاطلين عن العمل بين العرب في فلسطين يتزايد، سنة بعد سنة، بسبب الهجرة اليهودية التي كان أكثر المهاجرين فيها من الشباب. وكان هؤلاء يُفضّلون للعمل في المشاريع الحكومية على الشباب العرب، إذ أن هذا كان جزءاً أساسياً من السياسة الرسمية للحكومة. وكان الفلاحون يُضايَقون كثيراً كي يُحملوا على التخلي عن عملهم الزراعي مباشرة، كما أن القوانين التي كانت توضع لمصلحة اليهود كانت تؤدي الى نقل مساحات واسعة من الأراضي التي كان يمتلكها السلطان العثماني (وكانت تسمى جِفْتْلِك) الى ملكية الحكومة فلسطين. وهذه كانت تنقلها، بوسائلها المختلفة، الى اليهود. لذلك فأن العرب الفلاحين الذين كانوا يعملون فيها كانوا يخسرون اعمالهم ويصبحون «عاطلين عن العمل».

فضلاً عن ذلك فأن مساحات واسعة من الأراضي كان يملكها «ملاك غائبون» عن البلاد باعوها للمؤسسات اليهودية، فأرغمت الحكومة الفلاحين الذين كانت قد أصبحت لهم، بحكم مرور الزمن، حقوق مكتسبة في استغلال الأرض، على الخروج من هذه الأراضي. وكانت المؤسسات العمالية اليهودية، وفي مقدمتها الهستدروت، لا تسمح للعمّال العرب في العمل في مصانعها ومؤسساتها.

كان من الطبيعي، إذن، أن يكثر العاطلون عن العمل بين العرب، وأن يلجأ هؤلاء الى المقاهي لقضاء الوقت وانتظار الحصول على عمل. ولكن كثيرين من أصحاب الأعمال الحرّة ـ باستثناء الأطباء والمحامين ـ كانوا يتخذون من المقاهي مراكز عمل (لا أستطيع تسميتها مكاتب تماماً). فالسمسار ـ للبيوت (إيجاراً) وللأراضي (استثماراً) وللحوانيت (استغلالاً)؛ والرجل الذي يبيع بضعة أشياء في بيته لأنه لا يكسب ما يكفي لاستئجار حانوت؛ والمطهّر الذي لا يحتاج الى عيادة كالطبيب؛ والرجل الذي يتاجر بالسّمن والزيت واللبنة للمونة ـ كل أولئك كانوا يجلسون في المقهى حيث يطلبهم الناس. وهذا النوع من التجار يجب أن يُوضَحَ عمله لأنه اختفى من حياتنا منذ أن اختفت فكرة التموين السنوي. فقد كان المألوف عند العائلات ـ كبيرها وصغيرها، غنيها وفقيرها ـ ان تبتاع في الموسم الأشياء الضرورية «لمونة» العائلة للسنة. والأشياء التي تدخل في هذا ويمكن أن تبتاع من السوق أصلاً هي السمن والزيت واللبنة والقمح والحبوب الأصلية كالعدس والحمص والفول. وهناك، بطبيعة الحال، الأرز والسكر. لكن هذين الصنفين الأخيرين يبتاعان من السوق من عند السمان. وقد ينجر هذا على العدس والحمّص والفول. لكنّ القمح له تجاره الذين كانوا يحملونه، الى عكا مثلاً، في مواسمه. وهناك أشخاص معينون كانوا يتولون أمر شراء كميات صغيرة، نيابة عن أصحاب الحاجة، من صغار التجار الذين يأتون بحمل جمل أو جملين. اما السمن والزيت واللبنة فهذا كان يجب ان يتعرف الواحد إما على الذين يعدون كميات صغيرة من هذه الأشياء فيأتون بها رأساً الى الزبائن، أو على الذين يمكنهم أن ينصحوك في المونة. كنا نحن من الفئة الأولى. فقد كنّا نعرف عرباً يقيمون في جهات جدِين في الجبل القريب من عكا. وكانت بدوية تأتي «بالضّرف» وفيه الكمية التي نحتاجها للمونة. فكانت أختي تجرِّب سمنتها، بان تقلي بيضة فيه، فاذا اطمأنت الى النوع زانته وهو مليء عند أقرب سمان لنا (وكان مطانس هو الأقرب والأنصح لما سكنّا خارج السور)، ثم تزن الضرف فارغاً وتدفع لها ثمن الفرق. وقد سرنا على هذا الى أن جاء يوم جاءت فيه البدوية بالضرف، وجربته اختي ماري بأن قلت البيضة، فلما ذاقتها، رفضت أن تقبل السمن لأنه مغشوش. عندها أدركنا أن الغشّ تسرب إلى عرب جدِين عند اعداد السمن. فقد أخذوا يضيفون اليه شيئاً من الدهن أو المرغرين.

أما اللبنة فان الرجل الذي كنا نعتمده، والذي كان يحضّر لنا حاجتنا كلّ سنة، وهو من قرية بيت جن، فقد ظل على أمانته. وكنا نتموّن اللبنة في شهر تشرين الثاني / نوفمبر. ففي هذا الشهر تبدأ الحرارة بالهبوط، ويقلُّ شربُ الأغنام والماعز للماء، ولذلك يكون اللبن فيه مادة غذائية أكثر، ويكون، من ثم، ألذَّ طعماً.

يرى البعض من الناس في هذه الأيام لبنة مكبوسة بالزيت، وذلك بعد أنْ تصنعَ «كُلَلاً» صغيرة بحجم حبة الجوز المعتدلة. هذه هي الطريقة التي كنا نحفظ بها اللبنة للموسم ـ كان هذا يصنع في كل بيت. في تلك الأيام لم يكن من الممكن ـ خاصة في مكان مثل عكا ـ أن يبتاع المرء سمنة أو جبنة أو لبنة أو غير ذلك عندما يريد. لم يكن ثمة وسائل لحفظ الأطعمة، ولذلك كان لا بد من اللجوء الى التموين.

وكان التموين، بطبيعة الحال، يشمل الجبنة والزيت والزيتون. اما الزيت والزيتون فقد كفانا صديقي بولس جبران (من كفرياسيف) أمر الاهتمام بهما، إذ كانت حاجتنا تصلنا في الوقت المناسب. ولم يكن يترتب على أختي سوى كبس الزيتون الأخضر (إما صحيحاً أو مفقّشاً) والأسود صحيحاً. والجبنة التي كنا نفضلّها، وكان غيرُنا يفضلّها، هي الجبنة النابلسية. وكنا نعرف في عكا تاجراً لهذا النوع من الجبنة. كان أميناً، يخاف الله، فكنّا

نعتمد عليه.

المهم في كل هذا الذي ذكرت انه كان هناك أشخاص عملهم أن يقوموا بالوساطة بين المحتاج الصغير، أي ربّ العائلة، والتاجر الصغير، أي الذي يأتي الى عكا بحمل جمل أو اثنين. هؤلاء السماسرة الصغار، إذا جازت التسمية، كانوا يجلسون في المقهى؛ وهناك كنا نعثر عليهم عندما نحتاجهم. فالمقهى كان مركزاً للعمل بالنسبة لهؤلاء. وهو كان أفضل من البيت لأن هذا قد لا يتّسع للأشغال، فضلاً عن أنه قد يصعب الوصول اليه. (أشرت من قبل الى تحضير البرغل للتموين، فليرجع اليه).

وبهذه المناسبة اذكر أنني لما جئت الى بيروت سنة ١٩٤٩، اهتممت بالتفتيش عن بيت أو شقة لسكننا (أنا وزوجتي مرغريت وابني رائد). ولما سألت زملاء لي في الجامعة عن سبيل التفتيش قال لي أحدهم: إيليا بخعازي هو سمسار البيوت في هذه المنطقة. ولما استفسرت عن مكان العثور عليه قيل لي انك تجده في المقهى الواقع في أول شارع جاندارك (من جهة الجامعة الاميركية) الذي كان حيث تقوم اليوم مكتبة سام وبائع الساعات وتريكو ربيز.

وهكذا ذهبت الى المقهى، فكان ايليا بخعازي هناك. كان المقهى مركز عمله، أو إذا شئت مكتبه!

عاد دولاب العمل في عكا وما تبقى من فلسطين الى المدرسة والسّوق والمقاهي.

وعاد دولاب السياسة البريطانية في فلسطين الى عمله، لكنه كان أشد عصراً لابناء البلاد، وأدقّ عقاباً لهم، وأمعنَ في تطبيق سياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، بل وفي تجاوز حتى ما جاء في صك الانتداب (ومعه وعد بلفور). فقد كانت الغاية الآن تسريع العجلة بحيث ينتقل الأمر من وطن قومي لليهود **في** فلسطين، الى **تهويد** فلسطين تمهيداً لانشاء الدولة اليهودية.

«حدثت تغييرات هامة في الحركة الوطنية الفلسطينية خلال سنوات الثلاثينات الأولى، ولم تكن التغييرات في الأهداف السياسية لهذه الحركة، بل كانت في أساليب الحركة ووسائلها. فمع تدفّق أعداد المهاجرين الصهيونيين الى فلسطين في تلك السنوات، وزيادة امتلاك الصهيونية للأراضي في فلسطين، ومع ازدياد نضج عرب فلسطين سياسياً، وإدراكهم حقيقة الاستعمار ومناوراته وأساليبه، وحقيقة ارتباط الصهيونية به ارتباطاً عضوياً، انبعثت دعوة بين بعض عرب فلسطين الى اتباع نوع آخر من أنواع النضال غير سياسة الاحتجاج والتظاهر والتمرد السلبي والوسائل السلمية. وكانت حركة الشيخ عز الدين القسّام النموذج الأول لهذا النوع الجديد من النضال، إذ دعت الى الكفاح المسلح طريقة لمكافحة الاستعمار والصهيونية. وشكل القسام جماعات سرية نضالية مدربة؛ وبذلك كان القسّام رائد الكفاح المسلح في الحركة الوطنية الفلسطينية، ومجسّد عروبة تلك الحركة، إذ كان من ابناء شمال سورية». (الموسوعة الفلسطينية القسم العام م ١/٦١٧).

هذه الكلمات التي كُتِبَت في أواخر السبعينات، أي بعد مرور قرابة نصف قرن على قيام الشيخ عز الدين بحركته، تشير الى الأساليب السابقة التي كانت تعتمد في مقارعة أكبر مصيبتين وقعتا على رأس أي جزء من أجزاء العالم العربي: الاستعمار البريطاني والاستيطان الصهيوني. لكن الذي أود أن أقوله أنني أنا، وكثيرين مثلي، كنا كثيراً ما نتحدّث عن مواقف الزعامة السياسية من الأحداث؛ فنرى ما فيها من ضعف ووهن. المنظمات الصهيونية كانت تذرع العالم دعاية واستجداء (للتبرعات) وتنظيماً للهجرة واستجلاباً للرأي العالمي، فيما كنا نحن نكتفي بالقول، والقول فقط، وبالظن أيضاً بأن قيادة الحركة الوطنية عملت على حشد الرأي العام في العالمين العربي والاسلامي لدعم أهل فلسطين» (الموسوعة، عام، ١/٦٢٤).

وقد يكون هذا صحيحاً لفترة معينة، لكن المهم أننا كنا نشعر بأن العمل السياسي عند العرب كان ينقصه الاستمرار، وأنه كان، في غالب الأحيان، رد فعل لحادثة معينة أو موقف خاص أو تصريح خطير.

وفي هذه السنوات، خاصة في أواخر العشرينات وأول الثلاثينات، اشتدت الخصومة في الزعامة السياسية. والأصل في المنازعات السياسية كان انقسام هذه الزعامة الى مجلسيّين (هكذا سُمُّوا لأنهم كانوا يؤيدون الحاج أمين الحسيني، رئيس المجلس الاسلامي الأعلى) ومعارضين (وهم الذين كانوا يؤيدوون راغب النشاشيبي، رئيس بلدية القدس، منافس الحاج أمين على الزعامة). لكن هذه السنوات شاهدت تكتلات حزبية منوعة سمّت نفسها أحزاباً سياسية هي: حزب الاستقلال (١٩٣٢) وحزب الاصلاح (١٩٣٤) وحزب الدفاع الوطني (١٩٣٤) ومؤتمر الشباب العربي الفلسطيني (١٩٣٤). والحزب العربي / الفلسطيني (١٩٣٥).

ولكن هذه الأحزاب كانت، في الغالب، تكتلات تدور حول واحد أو أكثر من المتزعمين، فلم تخدم القضية خدمة صحيحة قوية. ومن أكثر ما حزّ في نفسي أنا أن أياً من هذه الأحزاب لم يكن له برنامج اجتماعي اقتصادي تربوي، ولو على الورق. بل ان الأمر تعدّى اللغط السياسي، الذي كانت الزعامات والقيادات والأحزاب تجيده، الى محاولات، ولو أنها كانت قليلة، الى إسكات الخصوم، الأمر الذي تطوّر فيما بعد الى إزاحة بعض الخصوم من الطريق.

وجدت في الرسائل التي كتبتها لعيسى عطاالله من عكا ما دونته يومها بسبب تشاؤمي من العمل السياسي العربي المضطرب والمصلحي. وقد رأيت أن أنقل هذا هنا بنصه من رسالتين: الأولى كتبت من عكا بتاريخ ٣٠ كانون الثاني / يناير ١٩٣٣ والثانية كتبت من ميونخ بتاريخ ١٥ آب / أغسطس ١٩٣٦.

فقد جاء في الأولى قولي: «... ومع ذلك يا عيسى فأنا أشد الآن نفوراً من الزواج مني قبل الآن. وليس من علاقة قط بين هذا (الموقف) وبين حادثة الغرام الأخيرة. ذلك لأنني مستعد لأن أقع في شرك الغرام في كل ساعة... ولكن السبب يعود الى شيء آخر، لا هو بالعاطفي، ولا هو بالنفسي، ولا هو بالقلبي، ولكنه عقلي. فان المرء ليفكر بعض التفكير فيما قد يؤول اليه مستقبل ابنائه في الثلاثين سنة القادمة، فيحجم كل الأحجام عن تعريض أولاد لحياة يصعب تصورها. أتدري يا عيسى أن حالة ابنائنا ستكون غاية في الصعوبة؟ سيكونون بلا مأوى ولا أرض ولا عمل على الراجح. اننا نفقد ارضنا جزءاً جزءاً، ونفقد بلادنا، ونفقد كل شيء. وأين يعيشون إذن؟».

وقد جاء في الرسالة الثانية - من ميونخ - قولي: «كنت اليوم في المحطة أودع صديقي فرح رفيدي المسافر الى لندن، فابتعت صحيفة انكليزية قرأت فيها آخر الاخبار عن فلسطين (أخبار الثورة الكبرى)؛ فلما عدت الى البيت وقت الغداء كنت حانقاً كظيماً. فسألتني ربة البيت (السيدة شريفر) عما بي فقلت لها. ان هؤلاء القوم يعطفون علينا وانهم ليأبون ان يصاب قوم في عقر دارهم بما أصبنا. ولكن اينفعنا كثيراً أن يعطف علينا الغير؟ وكم نفع الحبشة عطف الناس عليها (لما هاجمتها ايطالية سنة ١٩٣٥).

«انها حياة قاسية تحياها فلسطين - يحياها العرب في فلسطين. وان الحياة التي لا يذاد عن حياضها تفنى؛ ونحن امام أمرين لا ثالث لهما - اما فناء وعفاء، واما تحسن في الحالة. والحق اننا في فلسطين نقاتل دون ان ندري أإلى الأول أم الثاني «تنتهي حالتنا».

على كل اتخذ التململ من «القاعدين فوق» ومجيدي برقيّات الاحتجاج والداعين الى المظاهرات والاضرابات شكلاً عملياً على يد الشيخ عز الدين القسام. والشيخ عز الدين سوريّ من جَبْلَة (القريبة من اللاذقية). وصل حيفا، متجنباً السلطات الفرنسية سنة ١٩٢١ وهو في تمام العقد الرابع من سنه، وقد تجمعت له ثقافة اسلامية متينة لعل أقوى ما فيها ما جاءه من الأزهر، إذ قضى فيه سنوات، كان بين أساتذته فيه الشيخ محمد عبده. فضلاً عن ان السنوات التي قضاها في القاهرة جاءت في أثناء الغليان الوطني الذي عقب الاحتلال البريطاني (١٨٨٢) وبدء الحركة الوطنية.

وكان الشيخ عز الدين محدّثاً لبقاً منظماً في تفكيره وتخطيطه، وقد تمرّس بهذه الأمور جميعها أثناء قيامه بالتعليم وبامامة الجامع المنصوري في جبلة، ثم في اشتراكه بالعمل في الثورة ضد الافرنسيين التي قامت في منطقة صهيون (١٩١٩ـ١٩٢٠).

بعد وصول الشيخ عز الدين الى حيفا بنحو العام كان قد أصبح مدرساً في المدرسة الاسلامية في المدينة وخطيباً وإماماً في جامع الاستقلال وعضواً ثم رئيساً) في جمعية الشبان المسلمين، ومأذوناً شرعياً. وهذه الأعمال جميعها كانت تزيد اتصاله بالجمهور. والعمل الأخير يسّر له القيام بجولات في قرى حيفا. والذي ميّز القسام من غيره من العاملين في الحقل السياسي يومها هو «ادراكه بوضوح وجلاء أن هذا (الاستعمار البريطاني) هو العدوّ الرئيسي الذي تجب محاربته ومقاومته». وهذا الأمر هو الذي «أعطى حركته وثورته صفة خاصة». (الاقتباسان من الموسوعة قسم عام ٣ / ٢٣٠).

لما كنت لا أزال في عكا كنا نسمع همساً عن القسّام وجماعته وحركته وتنظيمه تمهيداً للقيام بعمل ما. لكن كل هذا كان في عالم بعيد عن الناس. فالرجل كان دقيق التنظيم «مؤمناً بالتأني وإلى استكمال التهيئة والاعداد». عند هذا الحدّ وقفت معرفتي ـ التي كانت تتسرب الينا عبر حسن حبيب حوا وآخرين ممن كانوا يعملون في جريدة اليرموك الحيفاوية وغيرها، إذ أنني غادرت عكا الى لندن لطلب العلم في مطلع تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٥. ولكن الذي أذكره أن الصحف البريطانية نشرت خبر مهاجمة جماعة من «العصاة» بقيادة القسّام والقضاء عليه والقاء القبض على جماعته. وكان نشر الخبر، فيما أذكر يومها، في ما تبقى من خريف تلك السنة.

وقد مرّ علينا وقت الى أن عرفنا بعض الحقائق، ثم لما عدت الى فلسطين عرفت بعضاً آخر منها. لكن الصورة لم تتضح الا بعد ان ظهرت كتابات مختلفة عنه. وأرى لزاماً عليّ أن ألخِّصَ هنا بقية قصة الشيخ عز الدين القسام، المجاهد الثائر الأول في سبيل فلسطين. وأنا أنقل هنا المعلومات التي وردت في الموسوعة الفلسطينية (القسم العام، المجلد الثالث ص ٢٣٠ / ٢٣١)، فقد جاء هناك ما يلي:

«لما ازداد الوضع في فلسطين سوءاً، وشدّدت السلطات البريطانية الرقابة على تحركات القسّام في مدينة حيفا، خشي من انكشاف أمر جماعته، فعقد آخر اجتماع في المدينة ليلة ١٢/ ١١/ ١٩٣٥، وقرر الابتداء بالثورة في الجبال. وقد انتقل مع عشرات من جماعته الى قضاء جنين الذي كان على معرفة بالقرويين من سكانه خلال عمله مأذوناً شرعياً. وكانت القرية الأولى التي نزل فيها كفردان، ومنها أرسل رسله الى القرى الأخرى لشرح أهداف الثورة فاستجاب كثيرون لدعوته، وانضموا الى جماعته لثقتهم به.

«كشفت السلطات البريطانية أمر القسام، وعرفت مكانه، فأرسلت في ١٥/ ١١/ ١٩٣٥ قوات كبيرة اشتبكت مع جماعته قرب قرية البارد. ثم تطورت الأمور بسرعة بعد ان فقد القسّام وجماعته عنصر المفاجأة، وانكشف أمرهم. وكان الشيخ مع أحد عشر شخصاً من اخوانه، في قرية الشيخ زايد، داخل أحراج يَعْبَد، عندما طوقتهم القوات البريطانية صباح ١٩/ ١١/ ١٩٣٥ وقطعت الاتصال بينهم وبين القرى المجاورة. وقد ثبت القسّام وجماعته في معركة غير متكافئة دامت ست ساعات، وقتل فيها من الانكليز أكثر من خمسة عشر، الى أن استشهد مع نفر من اخوانه الابطال، في حين جرح وأسر آخرون» وتعتبر الحركة الثورية التي ارتبطت باسمه أول مواجهة مسلحة جريئة بين الحركة الوطنية وسلطة الانتداب البريطاني.

الفصل العاشر

في النصف الأول من عشرينات هذا القرن، وأنا إما في عكا أو على وشك الاستقرار فيها، نُشِرَتْ كتب ثلاثة أثارت في العالم العربي ضجّة أي ضجة.

كنا في بيروت، في أواخر آب / أغسطس ١٩٢٥، انا ودرويش المقدادي، وكنا قد انتهينا من تناول العشاء في المطعم العربي (التابع للفندق العربي) لما وصلت جريدة الأهرام الى بيروت. كان فيها، لما تناولناها، خبر لم يكن له في نفسي يومها أثر كبير. الخبر هو أن كتاب الشيخ علي عبد الرازق (من هيئة كبار العلماء في الأزهر) المسمى «الاسلام وأصول الحكم» قد أحدث دوياً كبيراً في مصر، وأن القضية الآن أمام الهيئة، وقد يكون لها أثر أكبر من ذلك.

القضية كان لها وجهان - كما تفهمتها فيما بعد - الأول ان عالماً أزهرياً من هيئة كبار العلماء ينشر كتاباً يقول فيه إن الخلافة ليست أصلاً من أصول الاسلام الدينية، ولكنها شيء نشأ مع الزمن والتقاليد. والثاني ان نشر هذا الكتاب جاء في أعقاب الغاء مصطفى كمال للخلافة.

نشر الكتاب في ربيع سنة ١٩٢٥، وطبع ثلاث مرات خلال بضعة أشهر، فان الطبعة الثالثة منه مؤرخة في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥. وقد قدم الشيخ علي لكتابه بقوله: «وليتُ القضاء بمحاكم مصر الشرعية منذ سنة ثلاث وثلاثين وثلمائة وألف هجرية (١٩١٥م) فحفزني ذلك الى البحث عن تاريخ القضاء الشرعي. والقضاء بجميع أنواعه فرع من فروع الحكومة، وتاريخه يتّصل بتاريخها اتصالاً كبيراً، وكذلك القضاء الشرعي ركن من أركان الحكومة الاسلامية، وشعبة من شعبها. فلا بدَّ حينئذ لمن يدرس تاريخ ذلك القضاء أن يبدأ بدراسة ركنه الأول، أعني الحكومة في الاسلام.

«وأساس كل حكم في الاسلام هو الخلافة والامامة العظمى - على ما يقولون - فكان لا بد من بحثها».

وبعد استعراض ما وقف عليه، جعل خلاصة بحثه في ص ٩٥-١٠٣ من كتابه. وليس لنا أن نلخّص هنا حتى التلخيص، فمثل هذا الأمر حري بالبحوث لا بالمذكرات. لكن لا بد من اقتباس الفقرة قبل الأخيرة التي تحوي أساس نظريته، وهي الفكرة التي أثارت عليه النقمة العارمة. قال الشيخ علي:

«(١٢) والحقُّ أن الدين الاسلامي بريء من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون، وبريء من كل ما هيّأوا حولها من رغبة ورهبة، ومن عزّ وقوة. والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية، كلا ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة. وانما تلك كلها خطط سياسية صرفة، لا شأن للدين بها ولا نهى عنها، وإنما تركها لنا، لنرجع فيها الى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة».

الكتاب ظهر في أعقاب العمل الذي قام به مصطفى كمال من حيث الغاء الخلافة في تركية (١٩٢٤). وقد كان ردّ الفعل في الدوائر الاسلامية، على اختلاف اتجاهاتها عدائياً للرجل. فضلاً عن ذلك فان هذا الأمر أدى الى تطلّع عدد من أصحاب الحل والعقد من المسلمين الى جذب الخلافة الى جهتهم. فالملك حسين، شريف مكة وملك العرب، بويع بالخلافة (سنة ١٩٢٤) والملك فؤاد كان يطمع بها، على نحو ما عرفت فيما بعد من الشيخ أسعد

الشقيري الذي حضر المؤتمر الاسلامي الذي دعا اليه الملك فؤاد (سنة ١٩٢٦). وقد اتهم السلطان عبد العزيز بن سعود بالرغبة في الأمر، لكن المرجح انه استبعد حتى البحث في الموضوع في المؤتمر الاسلامي الذي دعا اليه سنة ١٩٢٦.

اما الموقف العدائي للمؤلف فقد جاء من إنكار الشيخ علي عبد الرزاق للأصول التي اعتمدها الفقهاء لدعم الخلافة.

وقد تفاعلت القضية فعزل الشيخ علي من هيئة كبار العلماء.

أما الكتاب الثاني الذي أثار ضجة كبيرة فهو «في الشعر الجاهلي» لطه حسين (١٩٢٦).

كان طه حسين يومها يشار اليه باسم عميد الأدب العربي، والكاتب الذي لا يشق له غبار. أزهريّ أولاً ثم من خريجي الجامعة المصرية الأهلية (في ذكرى أبي العلاء) ثم خريج السوربون. وصاحب القلم الذي لا يُجارَى.

في كتابه «في الشعر الجاهلي»، تعرّض طه حسين لأمور كان مداها أبعد مما تعرض له الشيخ علي عبد الرزاق. فقد مسّ القرآن الكريم والقصص الواردة فيه. الشيخ علي عبد الرزاق كان من أسرة عبد الرزاق سند حزب الدستور الكبير وابن عم محمد محمود باشا زعيم الحزب. واذن فهناك حزب الدستوريين الأحرار الذي يدفع عنه بعض الأذى. ثم هو مسّ أموراً دنيوية أصلاً. طه حسين لم يكن له يومها حزب يحتضنه - مثل ذاك - ثم هو تعرّض لأمور هي جوهرية ومقدسّة. لذلك كان لا بد من محاكمته.

كان الأزهر صاحب أول انتفاضة ضد طه حسين. وذلك من حقّه. فهو الحارس الأول للقيم والمقاييس المقدسّة. لكن النيابة المصرية (أي المدعي العام ومكتبه) لم تستجب للطلب، فتدخّل الأزهر بشكل رسمي وطلب من النائب العمومي أن يقوم بواجبه. هذا ما كان يجري في الناحية الرسمية.

أما في المراجع العلمية فأن كتاب «في الشعر الجاهلي» أدى الى ظهور عدد من الكتب تفنّده. والذي أذكره انني قرأت يومها من هذه الكتب التي ألّفها: محمد لطفي جمعة المحامي، ومحمد أحمد الغمراوي (استاذ الكيمياء) ومحمد الخضر حسين (التونسي) ومقالات محبّ الدين الخطيب في «الزهراء»، كما أن غيره كتب فيها. وممن كتب أيضاً ضد طه حسين ابراهيم عبد القادر المازني ومحمود شاكر ويمكن القول بأن عشرات من المقالات كتبت ضد طه حسين. ولعل أطرف ما قرأته في تلك الأيام حول هذا الموضوع رسالة وردت في المقطم قال فيها كاتبها إنه قرأ كتاب «في الشعر الجاهلي» فلم يجد فيه ما يسيء الى القرآن الكريم أو النبي. فهل لحضرات القراء أن يرشدوه الى هذه الأمور التي اثارت هذه الضجة؟

حوكم طه حسين. حُقِّقَ معه، وأدلى بوجهات نظره. وكان رئيس نيابة مصر، محمد نور، رجلاً كبيراً في نفسه قديراً في علمه القانوني، عَدْلاً في تفكيره، نزيهاً في تقصّيه للحقائق. والذي أذكره يومها (١٩٢٦ و١٩٢٧) أن الكثيرين ممن تتبعوا تفاصيل القضية في مصر أثنوا على موقف محمد نور ثناءً كبيراً. فالرجل لم ينحرف مع التيار القوي الذي كادَ أن يطالب برأس طه حسين، كما طالب برأس الشيخ علي عبدالرازق. إن الرجل وضع علمه ونزاهته في سبيل المصلحة العامة. فقد لخص مواضع التهمة يومها، ونظر في كل منها على حدة. وكانت مناقشته لطه حسين، وتلخيصه للقضية يقومان على أساس من العلم والتعقل بحيث أن المرء كان لا بد أن يحترمه من أجل ذلك.

وقد اقتنع رئيس نيابة مصر، محمد نور، بأن عمل طه حسين في كتابه لا يوفر قصداً جنائياً. وإذن فلتحفظ الأوراق إدارياً. اذكر أننا سررنا كثيراً لهذا القرار.

أما طه حسين فقد أعاد نشر الكتاب في السنة التالية بعنوان «في الأدب الجاهلي»، وقد حذف منه فصلاً

وبضع مقاطع كانت موضع النقمة عليه.

اما الكتاب الثالث الذي أثار ضجة، ولو أنها محلية، فهو كتاب وضعه انيس زكريا النصولي عن «الدولة الأموية في الشام». كان أنيس النصولي، الوجيه العالم البيروتي، يدرّس التاريخ العربي في دار المعلمين العالية في بغداد، وكانت يومها أعلى معهد لدراسة الآداب في عاصمة الرشيد، إذ لم تكن كلية الآداب قد انشئت بعد (وبهذه المناسبة فأن هذه لما أنشئت كانت كلية الآداب والعلوم وكان أول عميد لها صديقي الدكتور عبد العزيز الدوري وكان قد عاد قبل ذلك بقليل سنة ١٩٤٢ يحمل شهادة الدكتوراة في التاريخ الاسلامي من جامعة لندن).

دار المعلمين العالية في بغداد التي كانت أدبية علمية أيضاً، عمل فيها من الناس الذين عرفتهم في تلك الأيام: أنيس النصولي وعبدالله المشنوق وجلال زريق واميل ضومط ودرويش المقدادي. أنيس كان يدرس التاريخ العربي. وقد ألقى محاضرات في تاريخ الدولة الأموية في الشام، ونشر هذه المحاضرات في كتاب بعنوان «الدولة الأموية في الشام» وطبع في بغداد سنة ١٩٢٧ (في مطبعة دار السلام).

عرض أنيس النصولي في كتابه للزعماء الذين كانوا في الميدان العربي الاسلامي في نهاية عصر الراشدين وبدء الدولة الأموية. وقد كان حديثه عن معاوية فيه تقدير للرجل، ثم أخذ نفسه بالمقارنة بينه وبين علي بن أبي طالب (ر). ثم روى قصة كربلاء. ويبدو ان الكتاب لم يعجب البعض يومها في العراق، فكان ان أخرجَ أنيس النصولي من بغداد على جناح السرعة.

هذه الأمور التي ذكرت لم تكن معارك أدبيّة بالمعنى الدقيق. هي مواقف لأشخاص كانوا أصحاب رأي يختلف مع ما ألفَ الناس واعتقدوه وتواضعوا عليه، ونشروا هذه الآراء في كتب قرأها الكثيرون، وتحدّث عنها عدد أكبر من ذلك، وشعر الكثيرون، ممن قرأ أو سمع، بأن هذه الكتب كانت طعنة موجهة الى أمور لها في نفوسهم مكانة واحترام يكادان ان يكونا مقدسين. وإذن فمن الواجب على الجهات المسؤولة أن تعاقب هؤلاء المسيئين. وكان الأزهر في مصر يعتبر نفسه ـ ولا يزال حتى يوم الناس هذا ـ الموكل بالتصرف في مثل هذه الأحوال. فاخرج علي عبدالرازق من هيئة كبار العلماء.

ولم يكن طه حسين يومها في الأزهر ليعاقب أولاً بفصل. كان طه حسين ازهرياً أصلاً، لكن يومها كان في الجامعة المصرية (الرسمية التي نُظِّمت سنة ١٩٢٥). وإذن فالأزهر لا يمكنه ان يفصله من عضوية جمعية أو من عمل. لكن يستطيع التحرك في سبيل آخر. فقد رفع علماء الجامع الأزهر، الى فضيلة شيخ الأزهر، تقريراً عن كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي». في هذا التقرير اشار العلماء الى أن المؤلف طعن في كتابه بالنبي (ص) وكذّب القرآن الكريم صراحة.

وهذا التقرير هو الذي أرسله فضيلة شيخ جامع الأزهر الى النيابة العامة كي تتحرك لتقديم المؤلف للمحاكمة على ما مرّ بنا.

اما في بغداد فلم تصل المسألة الى القضاء أصلاً. والقضية التي هزّت الرقعة العربية يومها، كانت قضية الحرية ومدى ما يمكن أن يتمتع به المفكر العربي منها والدرجة التي يسمح بها. والقضية ما زالت قائمة الى اليوم (١٩٨٩).

وأودّ أن أذكرَ هنا أن كل هذا الذي تم من نقد أو تحريض قد تم عن طريق الكلمة المكتوبة. إذ لم تكن يومها البلاد قد عرفت الاذاعة. ولست أدري ماذا كان من الممكن ان يحدث فيما لو تسلمت الاذاعات مثل هذه المواقف. فقد جاء في التهمة الموجهة الى طه حسين أن كتابه أثار المتدينين وكان هذا نتيجة خطب الجمعة ضد الكتاب. فكيف لو أن مذيعاً (أو اكثر) سيطر على المذياع يومها!

لكن المعركة الأدبية التي حدثت في مصر وتتبعناها بكثير من اللّذة والتحسّر أو الشماتة، فتلك التي قامت بين

عباس محمود العقاد ومصطفى صادق الرافعي. كان بيننا من لا يرى أدباً وعلماً ومعرفة إلا فيما يكتبه العقّاد. وكان بيننا من يستثقل ظل العقاد لانه يصرّ على أنه شاعر (ووحي الاربعين بعيد، في رأيي من يومها، عن الشعر)، ولأنه كان يترفع في نظرته الى الأدباء الآخرين، ولأنه كان يسلُق الكثيرين بالسنة حداد في «الديوان». وكنا نعتقد أن الكثير مما جاء في الديوان (وكان له فيه زميلان هما ابراهيم عبد القادر المازني وعبدالرحمن شكري. وهذا كان شاعراً حقاً) كان فيه تحامل ثقيل على الأدباء والشعراء المعاصرين (وفي مقدمتهم احمد شوقي).

لذلك لما أخذ مصطفى صادق الرافعي يكتب مقالاته بعنوان «على السفّود» في البلاغ الاسبوعي ضد عباس محمود العقاد، سررنا بذلك. وكنا، كلما زاد الرافعي في ضرب العقّاد، يزداد بذلك سرورنا. وأذكر أنه حدث خلاف عنيف بيني وبين عيسى عطاالله حول هذا الموضوع. فعيسى كان معجباً بالعقّاد الشاعر، فضلاً عن العقاد الكاتب، وكان يعتبر ديوانه «وحي الاربعين» من عيون الشعر العربي في جميع عصوره. لذلك انتصر هو للعقاد، فيما شددت أنا أحزمتي للدفاع عن الرافعي. ولست أذكر اليوم تماماً فيما إذا وقع هذا الخلاف بيننا في صيفية قضيتها في ضيافة عيسى عطاالله وزوجته ميليا (مطر) في بيت جالا، وإذن فتكون مناقشاتنا قد ذهبت مع الريح، أو أننا تبادلنا عنها الكتابة، وعندها يكون بعضها عند عيسى، فهو لم يغيّر مكان اقامته كثيراً منذ تلك الايام، وكل ماحافظ عليه موجود عنده (الرسائل، التعريف الخ....). أما أنا فقد ضاع كل ما كان عندي من رسائل الاصدقاء لما نهب بيتي في القدس سنة ١٩٤٨.

هذه كانت معركة أدبية، ولو أن البعض من ألفاظها وتعابيرها كان نابياً.

في الفترة التي قضيتها في عكا كنت نشيطاً في الكتابة الى الاخوان وفي مقدمة هؤلاء عيسى عطاالله (في بيت جالا) وعبدالحميد ياسين (في القاهرة ثم في مدرسة الفرندز برام الله) ومحمود (سليمان) العابدي (في صفد وبيت لحم). أقول في المقدمة لا من حيث عدد الرسائل ولكن من حيث محتواها. فهؤلاء الأصدقاء الخلّص الذين خلطتهم بنفسي من أيام التلمذة في دار المعلمين؛ فتآلفت نفوسنا وتصافينا. أما الاصدقاء الآخرون القريبون، فلم يكن بيننا مجال للمراسلة، الا حين ابتعد عن عكا، فلا بد من رسالة الى أديب عتقي أو شفيق درويش أو أحمد خليفة أو كارل نصار.

وكم كنت آمل أن أحصل على بعض هذه الرسائل: لكن تنقل هؤلاء الاصدقاء وتركهم منهازلهم ومساكنهم وبلادهم قسراً، لا بد أنه أدى الى ضياع اشياء كثيرة وفقدان أمور أهم بكثير من رسائل الاصدقاء. وها أنا نفسي لا أملك مما كان عندي قبل سنة ١٩٤٨ شيئاً. لا الأغراض الشخصية ولا الصور العائلية ولا المقالات ولا الأوراق الرسمية. وقد كان من غريب المصادفات انني لما ذهبت سنة ١٩٤٧ الى لندن للعمل في رسالة الدكتوراه حملت معي بضع كتب حسبت انها قد تلزمني. هذه وحدها انقذت.

ولست أنا الوحيد الذي اصابه مثل هذا. فكم منا من ترك منزله وحمل المفتاح وخرج على اعتبار ان الأمر لن يستغرق أكثر من اسبوعين ويعود الفلسطينيون الى بيوتهم منتصرين! وبعض الأسر لا يزال يحتفظ بالمفاتيح.

وقد أعادت الي، على سبيل المثال، أ. غ. الرسائل التي بعثت بها اليها (١٩٣٢). ولكن هذه الرسائل، مثل غيرها، فقدت سنة ١٩٤٨.

لكنني كنت أحسب دوماً ان عيسى عطاالله، الذي لم يضطر الى التنقل البعيد (من بيت جالا الى بيت ساحور) والذي كان حريصاً على ان يحتفظ بالرسائل التي يتلقاها. وقد صدق حدسي، أو على الأصح تأكد ما كنت افكر به. وبعث عيسى عطاالله اليّ بما عنده من الرسائل. وقد جاء في رسالته اليّ المؤرخة في ٩ آذار ١٩٨٩ ما يلي:

«والآن جاء دور الحديث عن مجموع رسائلك اليّ. لقد أعدت قراءتها بعد ان تقاعدت، وكان لي في قراءتها متعة أي متعة، وفكرت في أول الأمر أن أقراها ثانية ثم اتلفها لأنها أصبحت غير ذات موضوع. وبالفعل فانني اذكر الآن انني أقدمت على اتلاف بعض تلك الرسائل والقائها في سلة المهملات. ولا ادري هل ما أتلفته كان من أولها أو من آخرها أو من كليهما. ولكنني ما لبثت أن توقفت عن ذلك إذ أحسست أنني بتمزيقها كانما أمزق بعض احشائي أو أقدم على اهلاك بعض أحبائي الذين طالما سعدت بقربهم وبالاستئناس باحاديثهم. وهكذا فقد بقيت سليمة. وأنت الآن تطلبها مني أو تطلب نسخة أو صورة عنها؛ وتصويرها الآن يتعذر عليَّ، لذلك قررت أن أعيدها إليك لأنها تتضمن مشاعرك وبنات افكارك. وإذا حدث في أي يوم أنك أصبحت في غنى عنها، فان اعادتها اليّ ستكون من دواعي اسعادي، ولا سيما لأنني احتفظ بقسم غير قليل من ردودي عليها».

وأظن أن عيسى أتلف القليل منها، البعض من الأول والبعض من الآخر. لكن أول رسالة موجودة مؤرخة (من عكا) ٢٢ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٠، وآخر رسالة عثرت عليها من ضاحية من ضواحي باريس اسمها بور ـ لا ـ رين وتاريخها ٢٨ آذار / مارس ١٩٣٩.

وصلتني الرسائل بعد ان كنت قد فرغت من كتابة مذكراتي، أو على الأصح، ما أتذكره عن أيامي في عكا. ولما قرأتها وجدت أنني سأفيد منها، بالنسبة لما تم وضعه، في اضافة أمور كنت قد تركتها (أو نسيتها) وقد رأيت الآن أهميتها، وفي نقل بضع منها كاملة (أو شبه كاملة) لأن فيها، في رأيي، ما هو حري بالقراءة.

وصلتْ السينما الناطقة الى فلسطين. أرجّح، وإن كنت لا أستطيع الجزم، أن هذا كان في سنة ١٩٣٠ أو ١٩٣١. وهنا جابَهَتْنا مشكلة كبيرة. لم يكن في أي من المدن الفلسطينية الكبيرة ـ القدس وحيفا ويافا ـ دار سينما عربية تستطيع ان ترينا فلماً ناطقاً. جميع الدور المعدة لذلك كانت ملكاً لليهود. وحدث أن تلك الفترة كانت واحدة من «الأوقات» التي كان الحماس للمقاطعة ـ مقاطعة البضائع اليهودية ـ مشتداً. وعلى كل فقد قررت أنا أن استغني عن السينما الناطقة، (وأنا على كل لم اكن من عشاق السينما)، ولو أن الأمر كان معناه الاستغناء عن السينما، إذ أن الافلام الصامتة التي ظلّت تاتي كانت قليلة وكانت بضاعة التصفية.

جرّب أصدقائي الذين ذهبوا لمشاهدة الافلام الناطقة أن يثنوني عن عزمي. لكن الأمر كان بالنسبة لي، ولنفر من الأصدقاء، لا يقبل المساومة أو الجدل.

كان كارل نصار يقطن حيفا في تلك الأيام، لأنه خطب، وأراد أن يكون قريباً من خطيبته (جين ناصيف قعوار). وقد كان في طليعة الذين جربوا ان يضغطوا عليّ. لكنّه أدرك عبثية المحاولة، فترك الأمور تجري على طبيعتها.

في صيف سنة من السنوات، واظن أنها سنة ١٩٣١، ذهبت الى القدس، وقضيت بعض الوقت أيضاً في ضيافة عيسى عطاالله في بيت جالا.

في الأيام التي قضيتها في القدس عرفت أن دور السينما (الناطقة) تكتظ بالحضور من العرب. ولما استفسرت اكثر، وجدت أن الكثيرين من الذين يتوجب عليهم ان يقاطعوا يذهبون؛ وكان البعض يذهب متخفياً. وكانوا يلجأون الى دور السينما المنعزلة مثل أديسون، بدل أن يذهبوا إلى الدور القائمة في شارع الملك جورج أو شارع يافا.

أصابني شيء من الاشمئزاز من مثل هذا التصرف. ولذلك قبلت في إحدى الأمسيّات أن اذهب لمشاهدة فلم ناطق ـ وكان اسمه هوليوود ريفيو Holywood Revue (أي استعراض هوليوود). لم يكن قصةً، بل كان استعراضاً بارعاً. وقد طربت له.

ليلتها قررتُ ـ وأنا لست من عشاق السينما أبداً ـ أن لا أحرمَ نفسي من هذا النوع من التسلية النافعة.

لما عدت الى حيفا بعد بضعة أيام، كان كارل ينتظرني على محطّة سكة الحديد. وكنت سأقضي ليلة أو ليلتين في حيفا (في ضيافته وضيافة صموئيل جريديني، صديق الاثنين). اتجهنا نحو الشقة معاً - كارل وأنا - فاذا به يتوقّف ويقول، وجوارحه كلها تتحدث مجتمعة: «نقولا، هذه المرة فقط اسمح لنفسك أن تذهب الى السينما الناطقة. في أحد دور السينما فلم اسمه «الملاك الازرق» لمارلين ديتريتش. لقد شاهدته مرتين وأود أن أراه مرة ثالثة. بعد مشاهدة هذا الفلم، عد الى المقاطعة. لكن لا تضيّع هذه الفرصة».

ابتسمت وقلت له انني قررت إنهاء مقاطعتي للسينما الناطقة. سأذهب معك. وشرحت له السبب.

وهنا شيء أريد أن أذكره بخصوص المقاطعة، وأنا بعد أتحدث عن الفترة العكّيّة من حياتي (أي الى سنة ١٩٣٥). قاطعت، وتمنّعتُ عن شراء اشياء كثيرة من صنع اليهود أو من عند تجار يهود. لكن شيئاً واحداً لم أستطع أن أقاطعه وأنا في عكا؛ وهو شراء بعض الكتب الالمانية (العدد كان قليلاً، لكن الكتب كانت لازمة لي). لم يكن في حيفا مكتبة عربية يمكن أن تؤمن لي كتاباً المانياً - أي تطلبه لي. واكتشفت فيما بعد ان القدس أيضاً خالية من مكتبة عربية تتعامل مع المانية.

أما بالنسبة للافلام الناطقة؛ فقد تحدثت فيما بعد الى أنيس صيداوي، لأنني أردت أن يشاهد بعض الطلاب هذه الافلام. وكان يجب ان يذهبوا الى حيفا. وبعد حديث معه ومع حسني خليفة وغيرهما، اتفقنا على أن نتيح الفرصة للتلاميذ. والسبيل الوحيد هو أن يرافقهم أحد المعلمين. وقد رتبت ذلك بضع مرات، فأخذت مجموعة منهم. كان أول فلم ذهبنا لمشاهدته هو التاجر هورن (Trader Horn) وهو فلم ثقافي عن إفريقية وطبيعة أحراجها وتصرّف حيواناتها واستغلال التجار للثروة الحيوانية فيها - وخاصة العاج.

وكنت عندما أريد أن آخذ التلاميذ الى مثل هذه الزيارة، أو عندما كنا نرتّب رحلة على الأقدام ليوم كامل، أطلب من كل منهم أن يأتيني بورقة موقعة من أبيه يسمح له بالرحلة. كنت أعدُّ الأوراق في المدرسة، وأبعث بها مع التلميذ الى وليّ أمره. ولا مشاركة في الرحلة بدون إذن من ولي الأمر.

زيارة القاهرة

قررنا، نحن أصدقاء ثلاثة، ميشيل خمار واميل عصفور وانا، أن نقضي عطلة الشتاء، أي عطلة الميلاد، للسنة ١٩٣٣ - ١٩٣٤ في مصر. أعدَدْنا كل ما نحتاج وأهمه أمران: جواز السفر مع تأشيرة دخول الى مصر والنقود. اما الثياب فأمر ثانوي. فنحن ذاهبون للنزهة وليس أمامنا لا استقبالات ولا حفلات. فضلاً عن ذلك فاننا كنا نعرف - على الأقل أنا كنت أعرف - أنك تستطيع أن تبتاع في مصر قمصاناً أنيقة الصنع وأحذية جيدة بأسعار معقولة جداً. وكنت أنا أنوي أن أفعل ذلك.

ركبنا القطار من حيفا، وهو القطار الذي يحملنا رأساً الى القنطرة على قناة السويس. كان أمامنا سبيل آخر للسّفر، وهو السّفر البحري من حيفا الى الاسكندرية. لكن نحن، كموظفين في الحكومة، كنا نحصل على تذكرة سفر مجانية من حيفا الى القنطرة، ويتبقى علينا أن ندفع اما سبعة وثلاثين قرشاً ونصف القرش ثمن تذكرة درجة ثانية أو ثلاثة وخمسين قرشاً ثمن تذكرة درجة أولى. وقد نصحنا الذين جربوا ذلك قبلنا أن ندفع المبلغ الأكبر. وتم ذلك بناء على إصراري.

حوالي الساعة الثانية بعد الظهر كان القطار قد اجتاز المناطق التي يمكن أن تقع العينُ فيها على بساتين أو بقع خضراء هنا وهناك، وأخذنا نمتّعُ انفسنا بالأرض الرملية المتحركة سطحاً مع هبوب الريح، أو حتى مع حركة الهواء أحياناً، إلا أن تباغتنا مجموعات من شجر النخيل، تكبر أو تصغر على نحو ما تسمح لها التربة والمياه.

وكانت أكبرها عند العريش. ولا غرابة في هذا الذي نراه، فنحن نقطع الجزء الشمالي من صحراء سيناء من الشرق الى الغرب.

ركّابُ القطار مختلفون في تصرفهم. فئات استطاعت أن تُقَطِّعَ الوقت في حديث، أنا واثق أنه كان خالياً إلا من اللفظ والصوت. وفئات أخرى احتالت على الوقت فقطّعَتْه بالنوم. وجماعات تثاءَبت عن وقت فاتها لم تتثاءب فيه. وفريق أو أكثر لعب الورق. وكان هناك أفراد يقرأون. وصاحباي شاركا الركاب الآخرين في كل ما فعلوا. تحدّثا (وأنا أحياناً معهم) ما شاء لهما ذلك. وأغفلا بعض الوقت، وتثاءبا كثيراً، وقرأا قليلاً. ولكن الشيء الذي غلب عليهما، في هذا الجزء الصحراوي من الطريق، هو التذمّر. القطار بطيء، الطريق طويل، متى نصل. وأنا شاركتهما الحديث، وأحسب أنني غفوت اغفاءتي التي الفتها منذ سنوات طويلة بعد الغداء. ولكنني كنت عودت نفسي، منذ مدة طويلة أيضاً، أن استعيض عن التذمر بالتفكير. وما أكثر ما يمكن ان يقوم به الواحد إذا استطاع ان يوجه نفسه نحو التفكير بدل التذمر. لكن الغالب على الناس ان يتبعوا الطريق الأسهل، والتذمر هو الأسهل من الطريقين.

وأخيراً وصلنا القنطرة الشرقية. القنطرة الشرقية في مصر. ونكون قد أجزنا ساعات ونحن في الأراضي المصرية قبل ان نبلغها. لكن جوازات السفر تفحصُ في القنطرة الشرقية، وفيها يتم التفتيش الجمركي أيضاً. والمهم هو أن الموظفين الذين كانوا يقومون بالتفتيش الجمركي كانوا هم موظفي الجمرك المصري. فكانوا يقومون بالعمل نيابةً عن مصر للقطار الآتي من حيفا، ويقومون بالعمل نيابة عن الجمرك الفلسطيني بالنسبة للقطار العائد الى حيفا.

أنزلنا من القطار لاجراء الفحصين في الجمرك وعن جواز السفر ثم نُقلنا على معدية عبر قناة السويس الى القنطرة الغربية حيث ركبنا القطار الذي أقلّنا الى القاهرة، فوصلناها حوالي الحادية عشرة مساء، أي بعد نحو خمس عشرة ساعة في القطار.

ولقينا في محطة القاهرة محمد رفيق اللبابيدي واكرم الخالدي ومحمد علي الخياط، وهم تلاميذ من عكا كانوا يدرسون في مختلف المعاهد المصرية، لكن أكرم الخالدي كان يعمل في الصحافة أيضاً. وكانوا قد أعدّوا لنا فندقاً، انتقلنا منه الى آخر في اليوم التالي.

نزلنا في فندق استقلال هاوس أو إيدن روك (لا علاقة للتسمية بايدن السياسي البريطاني) في رقم ٥ شارع فؤاد الأول، الذي أصبح اسمه شارع ٢٦ آب / أغسطس فيما بعد. كنا ندفع خمسة عشر قرشاً عن الشخص الواحد لليلة الواحدة، وأعفانا المدير من اضافة الخدمة المئوية لأننا كنا ثلاثة.

في القاهرة رأيت مدينة لأول مرة. القدس ودمشق وحلب وبيروت بدت لي قرى كبيرة جداً بالنسبة الى هذه المدينة. ففيها عرفت لأول مرة المخازن ذات الطوابق المتعددة، صيدناوي، شيكوريل، عدس، عمر أفندي مثلاً. فيها رأيت لأول مرة المخزن الكبير الذي يمكنك ان تدخل اليه ومعك الفلوس اللازمة، فتخرج منه وقد ابتعت كل ما يلزم لعروسك من جهاز. هناك دخلت المخزن الكبير الواحد الذي يمكّنك من تأثيث منزلك بأفخر الرياش وأجمل الأثاث مع ما قد تشتهيه من لوحات وما الى ذلك.

في القاهرة عرفت، لأول مرة، شارعاً واحداً اسمه عماد الدين فية دور للتمثيل وصالات للغناء وقاعات للسينما، وبارات وحانات ومطاعم بحيث يمكنك، إذ أردت، أن تشاهد أكبر المثلين ليلة بعد أخرى دون أن تبتعد عن الشارع.

في القاهرة عرفت معنى المتحف - المتحف المصري ودار الآثار الاسلامية والمتحف القبطي. وفي القاهرة رأيت إحدى المحاولات الأولى للافادة من فن العمارة العربية لبناء مؤسسة كبيرة حديثة في محطة سكة الحديد

الرئيسية في باب الحديد.

وهذا الذي ذكرته شيء قليل. أنا باختصار بهرتني القاهرة المدينة، وبهرتني القاهرة الجميلة بشوارعها العريضة، بقصورها الفخمة، بدار الأوبرا التي بُنيَت كي تمثَّلَ فيها أوبرا عايدة سنة ١٨٦٩ لمناسبة افتتاح قناة السويس. ولم تمثَّل هذه الأوبرا بالذات لأن فيردي، صاحب الأوبرا، فَقَدَ أعصابه في آخر لحظة وأبى ركوب البحر الى مصر، وأعطى النوتة والنصّ لمن يريد ان يقوم بالعمل، ولكن من يستطيع أن يقوم بذلك مكان فردي. وقد مثلت أوبرا عايدة لأول مرة في مصر سنة ١٩٨٨ وفي الأقصر-طيبة القديمة.

ذهبنا لزيارة الاهرام. ورغبت في الصعود الى قمة الهرم الأكبر، وحاول صاحباي أن يثنياني عن عزمي بحجّة أنه ليس ثمة طريق معروف، وأن القضية لا تعدو التعلّقَ من حجر الى حجر. لكنني كنت مصراً، فانتظراني تحت فيما أذكر. وقد كتبت فيما بعد ذلك بسنوات ما يلي:

«وقفت على قمة هرم الجيزة الأكبر، والقيتُ بنظرة الى ما انبسطَ أمامي، فرأيت دنيا تآمرت الطبيعة والانسان على اقامتها وتزويقها وزخرفتها. فقد حباها الله بماء النيل الذي يحيي الأرض ويبعثُ فيها الروح والرَيحان، ومكّنَ للانسان أن ينقل هذا الماء الى أمكنة متعددة. لكن حيث يقف الماء تبدأ الصحراء. وهكذا فقد رأيت خطّاً يفصل اللون الأصفر عن اللون الأخضر، دون ان يكون بين اللونين خلافٌ أو بين الأرضين شقاق.

«وخلف هذه الأرض الصفراء والحقول الخضراء انساب نهر لَمَعتْ مياهه في شمس الأصيل، فكانت كأنها عصى موسى جاءت تأكل السحرَ والساحر. فتلوّت لاحقة بهم، وتعوّجَ سيرُها تبعاً لذلك، فغُشَّ بها الناس فظنُّوها حيّةً تسعى، وماهي إلا الخيرُ والبركة.

«ورأيت يومها أمامي، علي شيء من البعد، جبل المقطم، الذي تسلقته الى القمة أيضاً بعد بضعة أيام، وكانت تعلوه قلعة للحراسة ومسجد للعبادة. وبين «المقطم» و«الأهرام» نشر التاريخ أمجاده، التليدَ منها والطريف: فثمة ممفيس وأبوهولها وأهرامها؛ وهناك مصر العتيقة التي وجدها العرب يوم فتحوا مصر وكنيستها الكبرى ماري جرجس، وعلى مقربة منها جامع عمرو بن العاص حيث قامت الفسطاط؛ وهناك القطائع والعسكر ثم القاهرة المعزية، والمنائر تزين الأفق، والأزهر يؤوي العلم، وجامع السلطان حسن يقف امامك كأنه قلعة للفن. وقد رأيت هذا المنظر بعد ذلك مرات من الطائرة، لكن قمة الهرم ورأس المقطم أثبت للرائي، وأكثر عونا للمتأمل، وأرحب فسحة لصاحب الأمل».

أحسب أن اهتمامي بالمدينة العربية الاسلامية وتتبعي لتطورها وتخطيطها ومعاهدها ومؤسساتها وارتباطها بنمط الدولة والمركز التجاري والطريق الدولي-كل هذه أمور تعود في نفسي في جذورها الى الأثر الذي تركته القاهرة في نفسي، من حيث أنها مدينة، ومن حيث أنك، حتى في سنة ١٩٣٣، كنت تستطيع ان تتابع تطورها من الفسطاط الى قاهرة محمد علي: المناطق المتميزة، والعمارة الواضحة خطوطها. يومها، لما عدت الى عكا وسئلت أجبت كثيراً وقلت كثيراً عن انطباعاتي، لكن الشيء الذي اعتبرته تعبيراً صحيحاً عن شعوري هو أن القاهرة، والقاهرة المملوكية خاصة، هي متحف ممتاز للفن العربي الاسلامي. قلت هذا اذ أني، بعد ان عاد صاحباي قبلي الى عكا، انصرفت الى زيارة مساجد القاهرة، فزرت في تلك الرحلة نحو خمسين منها، وفي الرحلة الثانية، وقد جاءت في السنة التالية، زرت ما يزيد عن ثلاثين مسجداً غيرها.

لا يحسبن أحد أنني عندما أزور بلداً اقضي وقتي بين حجارته وآثاره! لا. أنا القي بالي للناس والقيه بوسائل مختلفة. وفي القاهرة كان هناك فئة من الناس هم قادة الحركة الفكرية والأدبية في مصر والعالم العربي. ومصر، الى ذلك، مركز الحركة السياسية. فكان لا بد من العمل على لقائهم.

كان أول من تعرفت اليه شخصياً المرحوم الدكتور فؤاد صرّوف، رئيس تحرير المقتطف. أقول شخصياً

لانني كنت قد راسلته وكان قد نشر لي مقالات في المقتطف (سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣١). وقد كان نشر هذه المقالات انطلاقة هامة بالنسبة لي. وكانت من المؤسسات النشيطة في المجال الفكري في القاهرة لجنة التاليف والترجمة والنشر. والمجلة التي كانت تصدرها عنها وهي «الرسالة» كانت واحدة من الصحف التي أخذنا عنها الكثير من أفكارنا.

كان بين هذه الجماعة أسماء لامعة. وعرفنا أن اللجنة، بمن حضر من أعضائها وضيوفهم أو ضيوفها، يجتمعون مساء كل خميس في دار اللجنة رقم ١٩ شارع الكرداسة، للتحدث في شؤون العلم والأدب والفكر. «فَطَبَّبْنا» على الجماعة. وكانت مكافأتنا استقبالاً حاراً، ولقاءً أحرَّ، وحديثاً ممتعاً مفيداً. وقد أعدت الكرة ثانية قبل عودتي الى عكا. وفي السنة التالية زرت الجماعة أيضاً. في هذه الاجتماعات توطّدت صداقة بيني وبين عدد من أعضاء اللجنة الذين انتقل اكثرهم الى رحمة الله. منهم الاساتذة أحمد أمين ومحمد عوض محمد وأحمد حسن الزيّات وعبدالحميد العبادي وأحمد زكي ومصطفى زيادة.

ورافقنا اكرم الخالدي في زيارة لمكرم عبيد، سكرتير حزب الوفد المصري يومها. زرناه في بيته. وتحدثنا. أو على الأصح تحدث هو. كثيراً ومما قاله يومها: قبل سنتين كما تعرفون زرت بلاد الشام. لما جاءت الدعوة قبلتها، ولما دنا موعد السفر قلت لنفسي عن أي شيء يمكن ان اتحدث الى هؤلاء الشوام (وهو الاسم الذي يطلق في مصر على الآتين من لبنان وسوريا وفلسطين والأردن). تساءلت وطال تساؤلي وأخيراً قلت: يلا كلمتين على الماشي. لكنني وجدت نفسي، لما وصلت القدس وفي ما تلا من الزيارات، أتعلّم منكم. نعم تعلمت منكم. هذا دليل على جهلنا حتى شؤون جيراننا!».

كان هتلر قد ملأ الدنيا و«طرش» الناس بدعاياته؛ والمهم ان حزبه كان له برنامج اجتماعي اقتصادي تربوي سياسي مفصل، هو برنامج هتلر نفسه. فاغتنمت الفرصة وسألت مكرم عبيد فيما إذا كان للوفد المصري مثل هذا البرنامج: فكان جوابه: لا، المهم الحصول على الاستقلال، والأمور الأخرى تأتي حالاً وبالطبيعة.

كان محمد رفيق اللبابيدي طالباً بدار العلوم (التي انشئت في أواخر القرن الماضي معهداً مستقلاً، وضمت في الاربعينات الى جامعة القاهرة)، فكان بطبيعة الحال يحضر بعض المحاضرات في كلية الآداب بجامعة القاهرة. وفي أحد الأيام استأذن لي أستاذه في أن أحضر محاضرته. وكم كانت دهشتي لما دخلت القاعة الصغيرة فاذا بالاستاذ المحاضر هو الشيخ مصطفى عبد الرازق. لقد مرَّ على هذه الحادثة خمس وخمسون سنة (فأنا أكتب هذا سنة ١٩٨٨) ومع ذلك فصورة الشيخ مصطفى لا تزال ماثلة أمامي في زيه الأنيق ولفظه الدقيق ومعناه الرقيق وأدائه السوي. وبدا لي أن القاهرة لا تكفي. فمن يضمن لي أن أعود الى مصر وأتمكّن من زيارة الأقصر وفيها الكرنك وقبر توت عنخ آمون، الذي كان قد اكتشف قبل ما يزيد عن عقد من السنين، والذي قال فيه شوقي قصيدته المشهورة ومطلعها

درجت على الكنز القرون وأتت على الدنِّ السنون.

وكانت الحكومة المصرية قد هيّأت شيئاً سمته قطار الآثار. كان يخرج من القاهرة يوم الجمعة الساعة الثامنة مساء فيصل الأقصر الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، يقضي الزوار يومين في المنطقة ويعودون مساء الأحد ليصلوا القاهرة في الوقت المناسب للذهاب لأعمالهم. واقتنع صاحباي على مضض، بالذهاب معي. وابتعنا التذاكر الثلاث وثمن الواحدة مئة وثمانون قرشاً مصرياً يدخل فيها أجرة السفر وثمن الأكل ليومي السبت والأحد ورسوم الدخول الى الأماكن الاثرية والتنقل فيما بينها.

وزرنا الدير البحري وقبر توت عنخ آمون والكرنك. وقضينا ليلة في الاقصر نمنا فيها في القطار على

الطريقة التي نمنا فيها في السفر. ولم يندم صاحباي. لكنهما رفضا أن يرافقاني لقضاء ليلة رأس السنة ١٩٣٣ - ١٩٣٤ في ونتر بالاس في الأقصر، طيبة القديمة. ولم يمنعني ذلك التصرف من الاستمتاع بتلك الليلة.

وكان يتوجّب علينا، بوصفنا عرباً وضيوف مصر، أن نزور شيخ العروبة احمد زكي باشا. لست أحسب أن الرجل كان يغضب علينا «شخصياً» فيما لو لم نزره. لكن نحن، وأنا على الأقل، كنت لا شك أغضب على نفسي. أحمد زكي باشا كان صديقاً لعبدالله مخلص، وأغلب ظني أنها كانت صداقة مراسلة، لكنها كانت عميقة قوية. فالرجلان عالمان، وأحمد زكي نشر الجزء الأول من كتاب التعريف لابن فضل الله العُمَري، وكان في عمله قد قدّم لنا خدمة كبيرة.

وعلى كلٍّ فلا بد من زيارة شيخ العروبة. وشيخ العروبة لا يُستأذنُ في الزيارة ولا يُتَّعَد. بيته مفتوح للزوار في أوقات معينة. لذلك طببنا عليه، كما طببنا على لجنة التأليف والترجمة والنشر. ولقينا الترحيب والتأهيل، ولما أبلغته تحية عبدالله مخلص خصّني بقبلة ثانية عن صديقه ولصديقه.

وكان من الطبيعي، بعد هذه الزيارة، ان ندعى لتناول الطعام في منزله. والغالب على الدعوة في فصل السياحة والزيارة في مصر، في الشتاء، ان تكون للعشاء. فالرجل يعرف ان الحديث يحلو ويمكن ان يطول إذا كان فيه متعة، بعد العشاء. اما بعد الغداء فالغالب على الناس ان يتثاءبوا، كما لو كانوا في القطار. ولم تكن القضية قبول الدعوة أو الاعتذار عنها. أحمد زكي باشا كان يقول ننتظركم غداً مساء. فاذا كان الغد لا يصلح، لسبب ما، فعندها يختار الزائر اليوم الذي يحب.

قبلنا الدعوة، لكن صديقيّ قررا - يوم الدعوة - عدم الذهاب. وحسبنا انني سأوافق على تصرفهما وأمتنع عن الذهاب. لا. لم يذهبا، لكنني ذهبت أنا. وكان اعتذاري أن أحدهما مريض وكان لا بد لواحد منا أن يبقى معه. وقد اختار الآخر ان يقوم بذلك، وان يعطيني مجال هذا الشرف. وكانت ليلة من ليالي العمر.

لم يكن يومها كثيرون من العاملين في مجال الفكر أو حتّى في مجال السياسة في مصر، يعرفون ما فيه الكفاية عن قضية فلسطين وما يجري فيها. لكن أحمد زكي باشا - شيخ العروبة - كان يعرف. لذلك كان كلُّه آذاناً لما حدثته عن إعدام الأبطال الثلاثة الذين حكم عليهم لمناسبة حادثة البراق (حائط المبكى). هذه الحادثة ذكرت عنها ما يكفي قبلاً، لكن وصفها لاحمد زكي باشا، وقد حدثت في عكا وأنا فيها، كان كافياً لأن تدمع عيناه.

كان على كلّ شخص غير مسلم أن يدفع رسماً معيّناً لزيارة المساجد في القاهرة. وما كانت هذه لتحول دوني وزيارة المساجد. لكن لما زرنا أحمد زكي باشا أول مرة تحدثنا عن زيارة المساجد. فقال، متبرّعاً، ستجدون عندما تقدمون بيتكم في المرة القادمة أي عند دعوة العشاء، ستجدون هنا تصريحاً لزيارة جميع المساجد. وقد وجدت ثلاث رخص: واحدة لكل منا، وفيها إذن من وزارة الأوقاف بزيارة أيّ مسجد مجاناً. القضية كانت ان هذه الورقة يسّرت لي الزيارة، إذ أن الحصول على التذكرة بالدفع لزيارة أي مسجد قد تُؤخِّرك بعض الوقت حتى تجد الشخص المسؤول!

حضرت في هذه الزيارة للقاهرة عدداً من الروايات التمثيلية. منها الكثير حضرته منفرداً. صاحباي كانا يحبّان النوم المبكر. لينم الواحد مبكراً في عكا، أما في القاهرة! عماد الدين قضيت فيه أمسيات، مع الريحاني ووهبه والمونولوجيست هنا وهناك. ولما زرت القاهرة في السنة التالية، وكان رفيقاي شريف القبج وابراهيم مطر، اتهمني شريف القبج، الخفيف الدم الدميم الخلق (بسبب أنفه) بانني انما جئت الى القاهرة لافترش الرصيف في عماد الدين!

وبهذه المناسبة فشريف القبج، الذي كان تلميذاً في أيامي في دار المعلمين، كان في رجله اليمنى خلل كبير. لذلك نظم فيه علي السرطاوي قصيدة قال فيها:

أنـــف شـــــــريف القـــــبج   أنـــف كـــثـــيـــر العـــوج
مـــن ثـقـلـه قـــــــد بُلـيـت   أرجُـــــأُـــــه بـــالـــعَرج

لكن شريف القبج كاد أن يفترش رصيف عماد الدين معي، أما ابراهيم مطر فلم يستطع ذلك. فكان كثيراً ما يأوي الى الفراش مبكراً.

عكاء/ ٣٣/١٢/٢٦

عزيزي عيسى،

«اللغز» - هذا هو اسم الرواية التي عدنا الساعة من حضورها في مسرح رمسيس. ومسرح رمسيس هو مسرح يوسف وهبي. ومع ان الذهاب الى المسرح كان مرتجلاً فقد وفقنا، وكان حظنا طيباً. ولست أحب أن أعرض هنا لموضوع الرواية، فقد لا يكون فيها شيء إذا حاولت أنا أن أجردها من شخصياتها الفذة، وأبسطها قصة في بضعة سطور على هذه الصفحة. ولكن الذي يهمني من كل ما هناك الاسم - «اللغز» - مع انني سأنقله الى معنى آخر.

مساء الأمس حضرنا جلسة في مجلس النواب. مجلس كبير، بناء فخم، قبة ضخمة شامخة، نور قوي، مظاهر العظمة الممتازة، رئاسة، نيابة رئاسة، نواب، وزراء، حضور، ازدحام في الاروقة. وزير الحقانية يتقدم بتوضيح لقانون تقترحه الحكومة، يناقشه حافظ بك رمضان، وتحدث ضجة شبيهة بما يحدث في المجالس النيابية الأخرى في العالم الخارجي، ويحتج زعيم المعارضة (حافظ بك) ويخرج، ويرد عليه وهيب بك دوس من جانب الحكومة ثم يقوم عبدالرحمن البيلي من جانب المعارضة. ويعلو الضجيج بين الآونة والأخرى، ويطلب الرئيس حفظ النظام أكثر من مرة. وكل يدعي ان السلطة التشريعية قوية قوة عجيبة، حرة حرية متينة، ويغتنم الرئيس - رئيس المجلس - الفرصة، فيطلب من الموجودين الموافقة، فيوافقون. ونخرج نحن، وقد خيل الينا ان هذا البناء المتين الاركان يمثل حقاً حرية الحياة التشريعية. فاذا اتصلت باحد العارفين، قال لك ان وزير الحقانية هذا مقيد في كل أعماله - كزميليه وزير المالية والاشغال مثلاً - بمستر «...» هو المستشار لتلك الوزارة. فاذا حاولت ان توفق بين تلك المظاهر وبين هذه الحقيقة، تراءت أمامك كلمة واحدة - «اللغز».

وترى الناس يغدون في شوارع القاهرة ويرجعون، وتراهم - كثيراً - أزواجاً؛ سيداً وسيدة. فاذا أخذت الأمور على علاتها - أو على ظواهرها - قلت أخ وأخته، خطيب وخطبته، زوج وزوجه. اما اذا أردت أن تتعرف الحقيقة، فلا تعدم وسيلة توصلك اليها بعد بضع دقائق. فهما رجل وامرأة، جمعت بينهما شهوته وحاجتها. فهو يدفع الثمن، وهي تقدم البضاعة. وهذا «لغز» أيضاً.

ونقف ننتظر الترام. وقد ننتظر أحد قطر الترام بضع دقائق على الأكثر. فيتقدم اليك الباعة، يحمل الواحد بعض حاجيات المطبخ، وآخر ماكولات. ثم يتقدم أحدهم وبيده «باكيت الشوكولاته» - وهذه حدثت اليوم معي - فيقول «حاجة حلوه يا بك» - «حاجة لذيذة» - «مصري». «في اجنبي يا بك» «الدنيا برد يا بك». «عاوز أوريلك». «فمليات» - «حاجات نظيفة». «حلو حلو خالص - حلاوة». وهو يشير اليك بالشوكولاته لكنه لا يعنيها. انما يسألك ان كنت تريد ان تمتع شهوتك، فهو يدلك على ما تريد. والويل لك إذا مكنته من التمادي في الكلام. ولكن هذا أيضاً «لغز».

وأينما سرت في شوارع القاهرة يتقدم اليك أشخاص من كل الأنواع، والأشكال، والألوان، والأعمار؛ هذا يرجوك، وذلك يستعطفك، وذاك يؤملك. وكل يحمل تذاكر اليانصيب. «بقرش صاغ». كل جمعية، كل مدرسة، كل

ملجـأ، له يانصيبه أو «لوتريته» كما يقول المصريون. وقد ابتعت منه، وفتشت النمر الرابحة فوجدتني كالعادة، في عداد الخاسرين. وهذه التذاكر الكثيرة «لغز» أيضاً.

هذه بعض الغاز القاهرة، اخترتها ـ أو على الأصح ـ كتبتها كما جاءت ببالي الساعة «ارتجالاً». ومنها أيضاً أن أذهل الى درجة ان أضع «عكا» بدل «القاهرة» في أول الكتاب، فلما لاحظت الخطأ تركته شاهداً على الغاز القاهرة. اما الحقيقة فانني أقيم في «الاستقلال هاوس» ـ «شارع فؤاد الاول» ـ فاذا فكرت بالكتابة فهاك العنوان.

كنت أود أن أطيل أكثر، لكن الحبر انتهى أو كاد، وليس في مقدوري أن أحصل على حبر في الساعة الواحدة بعد نصف الليل. وأمامي أن أقرأ قليلاً عن المتحف المصري، ودار الآثار العربية والأقصر، فاننا مسافرون الى الاقصر مساء السبت من هذا الاسبوع وعائدون صباح الثلاثاء.

إليك والى زوجك وطفليكما تحياتي.

المخلص

نقولا

عكاء / ١٤/ ١/ ٣٤

عزيزي عيسى،

عودة الى حياة الهدوء التام، والبساطة المتناهية، بعد هذا الصخب والضجيج الذي صم مني الآذان عشرين يوماً متوالية.

هذا اليوم الثاني أقضيه في عكا، اذا جاز لي أن أعد الأمس يوماً، وهو يوم وصولي. فقد كانت الساعة العاشرة ينقصها ربعها الأخير لما دخلت البيت صباح الأمس. وقد كان طقس الأمس من النوع الثائر، اما اليوم فقد كان ربيعاً في فصل الشتاء.

ولقد حاولت ان اكتب اليك ثانية من القاهرة، لكن حال دون ذلك ما يكون فيه المسافر الذي يرى أيام الرحيل تقترب، فيرغب في أن يغب من هذه الحياة ما يستطيع، خشية أن يبقى هناك شيء لم يتذوقه. فشغلت ليلي باللهو البريء والقراءة عن نواحي القاهرة، وشغلت نهاري بالتجوال والتنقير عن مخلفات الماضي المصري في حفرياته وأهرامه، وعن الماضي العربي الاسلامي في مساجده ومدارسه القديمة. حتى لقد زرت من هذه ما يزيد عن الخمسة عشر. وكانت لي الى اكثرها زورة خاصة منفرداً عن صاحبي اللذين سبقاني الى فلسطين.

والحق فقد كانت لنا جولات ـ خصوصاً ما انفردت فيه ـ الى أحياء من القاهرة، أحسب ان كثيرين من أهل المدينة نفسها لم يطرقوها. ومما انفردت فيه صعدة الى قمة هرم الجيزة الأكبر. ومن هذه القمة أشرفت على القاهرة التي تتوسط متسعاً من الارض أخضر، لا يلبث حتى يحده نطاق من الرمال.

والحق انك قد تستطيع ان تتصور مدى القاهرة، واتساعها، ولكنك لا تستطيع ان تدرك ذلك حقاً قبل ان يتاح لك هذه الزيارة. فليست بيروت ودمشق وحلب بالشيء الذي يذكر أمامها. ويكفيك ان تركب الترام من نقطة وتسير في الخط نفسه الى آخره، حتى ترى أي مدى هذا الذي تجتازه، والذي تسير فيه.

وفي القاهرة ترى كل شيء، وتجد كل شيء. الماضي السحيق والحاضر الجديد. المدينة الغربية بكل مستحدثاتها، وحتى برطانتها الافرنسية، والجمود بكل مظاهره. الاحياء الكبيرة الراقية العظيمة، والأزقة القذرة المضطربة بوحولها. المتاجر الكبيرة، والحوانيت الصغيرة. ويستتبع ذلك انواع المعيشة المختلفة التي تستطيع أن تحياها هناك. فانت يمكنك ان تقضي يومك كله بقرشين، إذا جد بك الجد، ويمكن ان تصرف المئات

من الأوراق الخضراء أو الحمراء أو الزرقاء. وليس في قولي مبالغة اذا قررت ان القاهرة أرخص من حيفا والقدس، فضلاً عن ان الوسائل أكثر للحصول على حاجياتك.

احب ان اكتفي الآن بهذا القدر، فانني استشعر من نفسي ميلاً الى النوم. وقد خشيت ان أؤخر الكتابة الى الغد فتعيقني عنها شواغل. لكنني سأكتب اليك، وكنت أفضل لو اجتمع بك وأحدثك. أشكرك على الكتاب الذي بعثت به مع ألفرد. اليك والى زوجك وطفليكما تحياتي.

المخلص

نقولا

عكاء / ٣١ / ١ / ٣٤

عزيزي عيسى،

لي صديقة لبنانية تربطني بها مودة قديمة، ومراسلة متقطعة. حمل اليّ البريد كتاباً منها الى عكاء لما كنت بمصر، فالحق الكتاب بي. وتناولته بعد عودتي من نزهة في القناطر الخيرية، وهي احدى جنات الأرض لجمالها، فقرأته شغفاً كلفاً. فلما كان المساء، ذهبنا الى الأوبرا الملكية - وكان من الواجب علينا أن ندخلها ليلة لنرى المكان مع اننا كنا نعرف ان الفرقة التي ستمثل في تلك الليلة افرنسية. وانتظرنا ان يكون هناك غناء، أو موسيقى. ولكن كانت الرواية افرنسية من النوع الكوميدي. ولم نكن في حاجة الى أي تمثيل لنكوّن كوميدي. فقد كفى أن نكون ثلاثتنا في الأوبرا وليس فينا من يعرف من الفرنسية إلا «آمور»، وأنا أعرف بالاضافة «توجور» و«شكجور». فلما طال بي الانتظار، تركت صاحبي والأوبرا، بعد ان مللت هذا الخداع على النفس، ورحت الى الأوتيل. قرأت قليلاً، ثم فكرت في الكتابة الى صاحبتي اجابة لكتابها. فكتبت بعد السطر الأول والتحية والاعتذار ما يلي: ان لم يكن بالحرف الواحد، فهو بالمعنى الواحد.

"Marvelous, lovely, gorgeous are words that one uses because one lacks others, they represent only a miniature of the actual things that one sees in Cairo. This wonderful city contains everything, and there lies the secret."

ولم يكن عجباً أن أكتب اليها مثل ذلك، وقد كنت ذلك اليوم في حدائق القناطر الخيرية التي نقلتنا من كل شيء أرضي الى ما هو شبيه بالسماوي في وصف الشعراء والمؤمنين. والحق ان في القاهرة الكثير من مثل هذه الحدائق، التي تلقى فيها الجمال الطبيعي، وقد نظمته اليد البشرية.

ولكن أهذه اروع صورة أبقتها القاهرة في نفسي؟ لا، فهناك صور كثيرة تمتاز عنها، وتفضلها. ولكن اذا جئت أنتقي واحدة من هذه الصور لأجعلها صورة خالدة، أجد من الصعوبة الشيء الكثير. وليست الصعوبة ناشئة عن كثرة هذه الصور الرائعة فقط، ولكن هي نتيجة لهذه السرعة التي مرت بها هذه الصور علي.

فقد مرت عشرون يوماً، كانت، كما كتبت بالأمس الى صديقة في بيروت، لا تتسع لغير الحركة في النهار والليل. ولا تنس أن الحوادث والصور هذه تدور، إذا أردنا تعبيراً هندسياً أو جبرياً، على محورين لرسم بياني. المحور الواحد الوقت، والآخر المكان. فانت تستعرض في مصر كل ما مر على العالم من الحوادث، منذ ان عرف البشر البناء والكتابة، الى أن حلقوا في الجو طائرين. فهذه الاهرام وقبور الملوك في الجيزة، وهذه الهياكل القوية العظيمة المتينة الضخمة في طيبة والكرنك، وهذه اثار الدول التي تعاقبت على مصر، والحضارات التي ترعرعت فيها، تراها في المتحف المصري. ثم يطالعك العصر البيزنطي القبطي بكنائسه ونقوشه وأعمدته، ثم العصر

العربي الاسلامي بمساجده وقبوره ودار آثاره. فاذا تركت هذه في النهار، فعليك بمخترعات العصر الحديث ومنافعه، وآثاره الحية السائرة بسرعة الريح فوق الارض، وفوق الماء، وفوق الهواء. الست ترى معي أن محور الزمان أو الوقت طويل جداً، ويدور بسرعة هائلة لمن يريد ان يستعرضه في عشرين من الايام فقط، ولأول مرة؟

فكيف اذا جمعت الى ذلك محور المكان أو المسافة. فانت تنتقل من جبل المقطم والقلعة، الى مدينة الأموات (القبور الحديثة) الى الفسطاط التي لم يبق منها الا بقايا مدفونة تحت التراب، الى مصر العتيقة الى حي الأزهر والغورية الى العتبة الخضرا، الى شارع فؤاد الأول، والزمالك، وسيتي جاردن، الى الجزيرة والروضة الى الاهرام. الست ترى أن هذا الميدان واسع كل السعة، ممتد الى أنحاء بعيدة، وانه من الصعب على من يستعرض في هذا الوقت القصير ان يفاضل أو يميز؛ فكيف إذا أضفت اليه شعبة أخرى طويلة تمتد نحو سبعمئة ميل الى الجنوب حتى توصلني الى الأقصر؟

وتسألني بعد ذلك عن الصورة الخالدة التي انطبعت في ذهني، وتنتظر مني جواباً حاسماً في هذا الأمر؟ انك اذن لتكلفني شططاً. وما أحسب أنك تودني ان أتورط فيما لا قبل لي به. وإذن فكل ما أستطيع ان أفعله هو ان انقل اليك بعض هذه الصور التي تركت في نفسي بعض الأثر، سواء أكان مضطرباً أو واضحاً، لعلك تستطيع فيما بعد ان تكون من مجموعة هذه الصور رأياً. على أنني آمل ان نجتمع في عطلة الربيع، فيكون ثمة مجال للتحدث، وفي التحدث شفاء للغلة، قد لا تستطيعه الرسائل، سيما التي تحبرها الاقلام الضعيفة. ولتذكر قبل كل شيء أن هذه الصور التي أحاول نقلها اليك ليست مرتبطة قط بأي ترتيب مهما كان نوعه.

كنت قبل أيام في زيارة الاستاذ عبدالله مخلص، وكان الحديث عن مصر وعما فيها. وكان هناك شيخ في سنه وعقله، وان لم يكنه في زيه وشكله. وقد كانت له قبل سنتين الى مصر زورة. ولي في نفس هذا الرجل مكانة أحسد عليها. فالتفت إليّ وسألني «ما هي أهم الأمور التي أثرت فيك في مصر؟» وقد كنت توقعت مثل هذا السؤال كثيراً، لكنني لم استطع ان اهيىء له جواباً تاماً. لكن لا بد من اجابة هذا السائل فالتفت وقلت «أمران في الدرجة الأولى، الواحد فني، والآخر اجتماعي: اما الأول فهو هذه الأبنية الضخمة الخاصة - من نوع الفيلات - التي يقيمها المثرون هناك لسكناهم، والدور التي تقيمها الوزارات لمصالحها، والبنوك لأعمالها، والمتاجر لمتاعها. ان هذه الأبنية لها صبغة فنية محددة، فضلاً عن هندستها. فأما هندستها فليست تعنيني هنا. واما صبغتها الفنية فهي انهم يلجأون هناك الى تقليد عنصر فني في وضع الأعمدة، أو اقامة البلاكين، أو بناء الأقواس. فقد ترى الأعمدة الفرعونية بتيجانها النخيلية أو اللوتسية، وقد تقع عينك على دار لها بلكون يحيط بثلاث من جهاتها، وقد صنع على شكل رواق خارجي لهيكل يوناني قديم، وقد يتقابل نظرك مع قناطر لمداخل الدور، واقواس للشبابيك، على الطراز العربي الاسلامي. ولا شك أن هذه الروح الفنية تؤثر في مظهر الدار. وفي كل ما يحيط بها. ولا شك ان النوع الأخير أكثر شيوعاً في الأمور الرسمية وابنيتها. فهذه محطة القاهرة، لا يسعها الا ان تكون هندستها بحيث تسهل دخول القطر وخروجها، وهذا النوع من الأبنية لم يعرفه الرومان ولا اليونان ولا العرب. ولكن المصريين جعلوا المحطة بهذا النوع ولهذه الغاية، فلما جاء دور الزخرفة، لجأوا الى المشربيات، والمقرنصات، والأقواس والزخرف الارقم، مما زخرف به العرب ابنيتهم فكانت جميلة المنظر، دالة على الروح اللازمة للشرق. قديم منسق، وحديث منسجم معه.

اما الأمر الاجتماعي فهو انه لا يمكنك - إذا استثنيت بعض الأحياء البلدية - ان تفرق بين السيدة المسلمة والمسيحية. فليس هناك حجاب في الاحياء المتقدمة الراقية. وقد حدث مرة ان كنت انتظر الاوتومبيل، فراعني منظر مئات من الصبايا يخرجن في بدلة كحلية من الصوف، وعلى رؤوسهن جميعاً طاقية من نوع - بريه - وكان ظاهراً من الكتب وما اليها انهن تلميذات. فملت الى صديقي، وهو ممن أقام بمصر سنتين، وسألته عما اذا كن

تلميذات مدرسة تبشيرية. قال لا ثم اشار الى المكان الذي كن يخرجن منه فاذا به مدرسة تابعة للوزارة. واذا بصاحبي يضيف كل الطالبات هنا يلبسن هذا الزي، وليس هناك حجاب. وحدث انني كنت مرة بقرب مدرسة دار المعلمات السنية في حي السيدة زينب فرأيت بعض المدرسات المصريات، وعدداً من الطالبات، وليس هناك حجاب».

هذا ما أجبت به سائلي، ثم انتقل بنا الحديث وتشعب. وكنت بعد عودتي من المدرسة اليوم سائراً قرب بيتنا فقابلت سيدة انكليزية، فتحدثت اليها قليلاً بعد التحية، فسألتني عن اقامتي في مصر، وهل اعجبتني، فأجبت بنعم. فعطفت سائلة «وهل يممت قاعات الرقص هناك؟» فأجبت نفياً، فاستغربت وقالت «كنت أحسبك ستعوض في القاهرة عما فاتك في عكاء». قلت «لكن هذه الأماكن يجب ان لا يزورها الرجل بدون رفيقة. وقد كان في مصر رفاق ولم يكن لي رفيقات، فابتسمت وقالت رفاقك يعيشون في مصر، وليس لهم رفيقات؟ أليس هذا غريباً؟» قلت «أجل غريب، ولكن لست أنا الذي أقيم، والا لكان لي منهن عدد يضايقني بكثرته». قالت «أعرف ذلك عنك، ولهذا سألتك».

الست ترى أن لكل ناحية من التأثر يسأل عنها؟ فهذه سالت عن هذه الناحية لأنها تسرها. وأجبتها عما سألتني. فلو انها سألتني عما أثر بي رأساً. أكنت أجيبها بما أجبت به صديقي النصف شيخ؟ ما أحسب ذلك. ولعلي كنت أحدثها عن التياترو والسينما. ولعلي أجبت ذلك الشيخ عن غير قصد لأنني رأيت بسرعة ان هذه أموراً تعنيه، ولست أدري أتغيظه أم ترضيه؟

أحسب أنني سأقف من هذه الصور الليلة عند هذا الحد، وسأعود الى أخرى في وقت آخر. ولنعد الى التأمين.

ان المبلغ الذي أنا مؤمن عليه هو ٤٠٠ جنيه لمدة عشرين سنة والدفع نصف سنوي وهو عشرة جنيهات تقريباً للمرة الواحدة، والمبلغ الذي خصمه لي السيد اميل نصار هو خمسة جنيهات أي نصف القسط الأول، فدفعت في السنة الأولى خمسة عشر جنيهاً فقط. فاذا أمنت نفسك على ٥٠٠ جنيه لنفس المدة أي لعشرين سنة، وكان القسط السنوي نحو ٢٥ جنيهاً فيكون الخصم بمقدار ربع السنة الأولى. وسأكتب اليه انا الآن وأشير الى هذه الأرقام لأنه طلب ذلك في كتاب وصلني مع كتابك.

واقبل الآن مع عائلتك

تحيات المخلص

نقولا

عكاء / ١٥/٢/٣٤

عزيزي عيسى،

بضع درجات عريضة تصل بين اطراف القصر الجميل الذي أقامه ولي الأمر بمصر في «جزيرة الروضة»، بالنيل، فتنقل من الأول الى الثاني مظاهر العظمة حيناً، وأهل السرور حيناً آخر، وحظايا الحاكم آن، وعذارى القصر آنا.

خلت هذه الدرجات من كل هذه المظاهر التي ألفتها يوماً، ومر أحد أولئك الذين يوليهم القصر وأهل القصر نعمة. فيخلع على القصر وأهل القصر نظيم ثيابه، فرأى الدرجات، وأعجبه جمالها، واستعذب شكل النيل النجاشي، وشعر بهذه الموسيقى النيلية الممتعة، فاستحالت كل هذه أفقاً شعرياً في خياله، فجلس على درجة

واسند ظهره الى الاخرى، وأخذ يرسم خطوطاً وحروفاً، ويقطع هذه الحروف كلمات، ويفصل هذه الكلمات أبياتاً من الشعر؛ وهو آمن مطمئن، يستمتع بخياله، يستعذب صفاء الناحية.

ويمر من هناك أحدهم؛ أحد أولئك الذين يرون الحياة سحراً، والموت سحراً، والخلود سحراً؛ ويرون فيضان النيل عمل ساحر، ونقصانه سحر ساحر. أحد أولئك الذين تقمصت أرواحهم ارواح من عاصروا موسى وعصاه، وفرعون وثعابينه، فيلمح الشاعر، ويراه يخط ويرسم، فتتبادر صور السحر الى نفسه، ويرى في هذا الناسك رجلاً يريد ان يسحر النيل حتى لا يفيض. وتمتلىء نفس هذا الرجل بفكرته هذه، ويؤمن بها، ويعتقد بصحتها، وتأبى عليه ان يصدق غير هذا؛ وان يفكر بغير هذا، فيرى حتماً لزاماً عليه ان لا يحرم أهل مصر خير النيل، وان لا يعوقه عن الفيضان سحر أو رقية، فيدفع بالشاعر الى النيل ضحية، فلا يقف أحد له على أثر...

خشيت ـ وأنا على المقطم، وقد هممت بالنزول من الجهة الاخرى، أن يصيبني ما أصاب أحمد يوم جلس على درجات القصر. خشيت أن تملأ فكرة السحر رأس حارس القلعة والمقطم، فيفعل بي ما فعل ذلك باحمد. خشيت ـ وقد رآني أحمل هذه الآلة التي تلتقط الصور، وليس على رأسي غطاء، واكثر من الاسئلة عن كل شيء، وعن كل ناحية. خشيت ـ وقد سألته عن عين موسى، حيث يقال ان الله كلم النبي وخاطبه؛ ثم سألته عن القبور وما الى القبور، والموتى وما الى الموتى ـ خشيت حقاً أن يحسبني ساحراً جئت اتلقى الوحي عن الله، ثم اقترب من الموتى فأغير حالهم، واستطلع أسرار القلعة والجبل، فانقله عنهم الى حيث يعدمون فوائده، ويتعرضون لخطر الجيش المهاجم، والعدو الداهم. فيرى من واجبه ان يعترض سيري، ويوقف أمري، ويحتفظ بقومه، فيدفع بي من قمة الجبل الى أسفله، فيقضي على سحري، ولا يقف الناس على أثري.

خشيت منه ذلك فطلبت اليه ان يتقدم في السير، ففعل. وهذه الجهة من المقطم ان لم تحتل عليها في السير، دفعت بك الى حيث لا سبيل لك الى رؤية النور ثانية. دفعت بك الى السحيق، فإذا تبقت منك بواق، حملها الناس ـ ان عرفوا أمرك ـ الى احدى هذه الدور؛ والا فالوحش كفيل بما لا سبيل للناس الى ادراكه. اما نحن فاحتلنا، لأن هذا الرجل الذي يرشدنا خبير بالطرق، عارف بالأمور، بصير بالشؤون، ثم هو ينتظر شيئاً، وما كنا لنخيب له أملاً.

ولكن ما هذه الدور التي قد يؤويك الناس الى واحدة منها ان ادركوا منك فلول جسم مهدم مقسم زلت به القدم، أو دفعت به جهة المقطم؟ تستطيع ان تراها من رأس الجبل، وتستطيع ان تراها وان ترى مثلها من نواح أخرى من القاهرة. وهي تمتد امتداداً يكاد يبلغ اتساع امتداد عكاء، وأنت تقترب منها فتحسب انك تقترب من بيوت ومدينة. وانت مقبل حقاً الى بيوت ومدنية، ولكن ما أكثر ما يعروك من الدهشة إذا بلغت احدها. فعلى الباب سعف من نخيل، وفي الداخل صوت يرتل بعض آي القرآن الكريم، ويذكر الحياة الفانية الزائلة، ويحبب الى النفس الخلود المزعوم، ويحذر المرء عاقبة الاثم، ويؤمل المذنب بعفو الغفور الرحيم. وتشتد بك الدهشة اذ تلمح هذه الحالة في كل بيت، فاذا استعنت بادراك العين في توضيح ما تدركه الأذن، رأيت قبوراً في غرف هذه الدور وابهائها. واذا أنت في دور وفي مدينة، ولكنها دور الأموات، ولكنها مدينة الأموات. فانت إذن بين موتى، وفي مقبرة! وما تذكر عندها؟ اقول المعري، فتخفف الوطء حتى لا تؤذي اديم الأرض وهو بقايا تلك الأجساد؟ أم أنت تسترق الخطى حتى لا تؤذي قوماً ناموا هناك نومة أهل الكهف، فانت تريد لهم ان يحتفظوا بكل ما كان لهم حتى إذا آن لهم ان يبعثوا ـ ليثبتوا القيامة والبعث بالجسد والروح ـ كانوا غير منقوصين؟ أم أنت تذكر قصيدة «غراي» ـ «ملحمة في مقبرة كنيسة». وتذكر ما اصطنعه ذلك الشاعر الانكليزي من فنون الجمال وضروب الفلسفة والوان التفكير؟

قد تفكر بهذا أو ذاك، وقد تفكر بالاثنين معاً، وقد يجرك التفكير الى أمور كثيرة. ولكنني لم أفكر عندها، ولم

اهتم بالتفكير، وانما فكرت فيما بعد. لم أفكر عندها، ولم أهتم بالتفكير، لأنني كنت أقصد من هذه المقبرة مكاناً معيناً. فنحن في الامام الشافعي، ونحن قريبون من قبر سعد، فلا بد اذن من زيارة له. ونحن نستحث الهمم الى ذلك القبر، وإذا بالرجل يومىء الينا، «هذا هو». فاذا نحن في دار من دور مدينة الموتى. واذا نحن بمن يرتل القرآن الكريم، واذا نحن داخل الحجرة. والقبر عادي، لولا علم مصري أخضر يجلله، وزهرات تنثرها عليه ايدي الزوجة الوفية، لما أثر بك شيئاً. ولكنك انت اذ تزور قبر سعد، تزوره وفي نفسك ما فيها، فترى سعد يرفع اسم قبره، وتدرك ان المرء يستطيع ان يمجد الموت ويكسبه الاحترام، كما يستطيع ان يمجد الحياة ويكسبها الاحترام.

وتنتهي الزورة، ونخرج من المقام، ونرجع الى حيث بدانا في الصباح، فهذا السلطان حسن، والرفاعي والقلعة، وهذا الترام، وهذا شارع محمد علي، والعتبة الخضرا، وميدان الأوبرا وشارع فؤاد الأول، والأوتيل. وهذه الشكوى اسمعها من صاحبي على مشاق ذلك النهار، إلا أنها ممزوجة بالاعتراف بان تلك السفرة كانت ماتعة. اما الشكوى فوزرها علي، وأما المتعة ففضلها الى المقطم.

فاذا جاء وقت الهدوء فالى المضجع، وإذا أخذ النوم السريع بخناق صاحبي، فكرت في مدينة الأموات. ولست أرغب في أخذ العبرة، ولا اهتبال فرصة النصيحة. ولكن ما هذه العناية بالموت؟

هذه فلسفة مصر كلها، فيما اعتقد؛ الموت فوق الحياة، والموت أعز من الحياة؛ والخلود فوق الفناء. والحياة فانية زائلة، والموت ثابت خالد. فليترك المصري الحياة وشأنها، وليجعل للموت طريقاً قوي الدعائم، واضح السبل، حتى تبقى للموت قيمته.

خشي المصري الموت ورغب فيه، خشيه فاحتاط لكل ما قد يحتاج اليه في الحياة الأخرى، ورغب فيه فاعد له كل ما من شأنه ان يظهر بواسطته اعترافه بهذه الرغبة، واظهار الاحترام. فالمصري القديم، والمصري اليوناني والمصري القبطي والمصري العربي المسلم - المصري القديم والمصري الحديث - يلد للموت، ويبني للخلود. وما يشذ عن ذلك الا من عقل. اما الشعب بنفسه، والشعب «بعقله الاجتماعي»، فهو هو.

بنى المصري القديم الاهرام، واقام الهياكل، ونحت التماثيل، وترك من الأعمدة اجمات، ومن النصب الغرانينية القوية الكثير. فعل كل ذلك ليخلد، ليبقى. وقد خلد، وبقي. فهذه المئات تعقب المئات، وهذه الألوف تتلو الألوف، من الناس والأجيال والمسنين، وكل ما ترك باق. والمصري الحديث يكرم الموت، ويخشى الموت، ويرهب الموت، ودافعه في كل ذلك تلك الروح المصرية القديمة التي بقيت في نفسه، وفي عقله، دون ان يدرك أو يشعر. وانما نجد فرقاً بين المصري القديم والمصري الحديث في الطرق والوسائل التي يخلد فيها نفسه و«موته». فالقديم قوي ووسائله قوية ظاهرة بارزة، والحديث ضعيف واساليبه ضعيفة خافتة باهتة. اما فيما سوى ذلك «فالكل واحد».

أخشى أن يجرنا حديث الموت الى ما لا نرغب فيه من تشاؤم واضطراب نفسي، فلنخرج منه الى الحياة. الحياة التي نرغب فيها، والتي نفهمها وتفهمنا، ولنبتعد عن ذلك الموت الذي ينتهي بالانحلال، فيما أؤمن وتؤمن؛ والذي ينتهي باسرار «الحياة الأخرى» فيما يعتقدون، واعتقادهم متين.

ومن هذه الحياة الحالية ان «محمد ديب علي التهتموني» سيكتب كتابه غداً على آنسة عكية هي اسعاف حبيشي، أخت بهيرة حبيشي. وقد ذكرت الثانية لاعتقادي ان أم سامي تعرفها فهي خريجة دار المعلمات. اما الزواج ففي حزيران. وان بهيرة سيكتب كتابها على أحد خريجي الجامعة الاميركية يوم الجمعة القادم. وان شفيق درويش، وهو هذا الشاب النحيل الذي تعرفت عليه في الصيف، قد يكتب كتابه في بحر الشهر التالي.

ومن شؤون هذه الحياة ان الاستاذ سامي عيد يستعد ليصبح أباً. فقد تزوج في آب الماضي.

ومنها انني قد وفقت الى مختبر مدرسة الفرندز لاستعماله كما أشاء، وعندي هناك استاذ انكليزي يساعدني. وعلى ذلك فلست بحاجة الى التحدث الى الاستاذ الخالدي بعد. وأرجح ان اغادر عكاء في صباح اليوم الاول للفرصة الربيعية الى رام الله. وسازوركم في بيت جالا بضعة أيام ونتحدث... ونتحدث كثيراً.

والآن فالى لقاء آخر،

تحياتي اليك والى زوجك وأطفالك

المخلص

نقولا

الفصل الحادي عشر

في يوم من ايام ايلول / سبتمبر ١٩٣٥ جاءني كارل نصار، الذي كان يعمل يومها في شركة الملاحة الحيفاوية، بعد ان ترك العمل الحكومي، وطلب مني أن أساعده للتخلص من مأزق. كانت الشركة التي يعمل فيها تعنى أصلاً بالنقل والشحن، لكن بعض السفن كان فيه مكان لعدد محدود من الركاب. وكان الكثيرون يحبّون السفر مع سفن الشحن هذه لأن أسعارها أرخص، ولأن الركاب كانوا ينالون عناية خاصة من الربان ومساعديه. ثم ان هذه السفن تمر بموانىء كثيرة، وقد تتبدل الطرق السائرة فيها لأنه يطلب منها الاتجاه نحو ميناء جديد لنقل بضاعة منه. وعلى العموم فقد كان السفر على هذه السفن متعة. قال كارل ان المستر بريت، وهو موظف سابق كبير في ادارة المعارف في واحدة من الولايات الانكليزية، وصل الى حيفا على متن إحدى السفن. وهو يريد أن يتحدث عن المدارس والتعليم مع فئة معنية بذلك. ثم أضاف كارل انه دعاه لتناول الشاي في بيتهم بعكا، وستكون اخته غرترود موجودة بطبيعة الحال، لكن هذا لا يكفي. فهل عندي رغبة في الاجتماع به والتحدث اليه. قبلت لأنني أردت ان أخفف العبء عن كارل واخته غرترود.

جاء بريت مع كارل من حيفا، وجلسنا وتحدثنا. وقد بدا لي أن الرجل أراد أن يعرف الأشياء، فلم يتحدث عن عمله وادارة المعارف في الولاية التي كان يعمل فيها، بل سمع وسأل واستفهم. وكان مهذباً في حديثه وأسئلته، على غير ما عهدناه من الانكليز في فلسطين، واكثرهم من الموظفين والمبشّرين.

ودار الحديث حول أمور شخصية أيضاً: حول تعلمي أنا ودراستي، وقال الرجل يجب ان تؤمن وسيلة للذهاب الى جامعة في بريطانية. هذا ما تستحقه. وحدثته عن الصعوبات، وهي في ذلك الوقت إدارية وسياسية. اما الناحية السياسية فيها فأنها تعود الى أن مدير المعارف همفري بومن كان حريصاً على أن تكون البعثات، في غالبها، لشباب من الأسر النافذة في فلسطين، وذكرت على ذلك بضع أمثلة. أما الناحية الادارية فهي ان البعثات لا تنظر فيها لجنة أو هيئة معينة. القرار كان بيد مدير المعارف نفسه. وأخبرت بريت انني حاولت الحصول على بعثة عن طريق طلب رسمي، فلم أحصل حتى على الجواب. كانت ملاحظة الرجل الختامية حول الموضوع: إذا لم تنجح مرة جرِّب وجرِّب وجرِّب مرة أخرى.

وتفرق السامر. في تلك الليلة فكرت بالأمر. وقررت أن أكتب رسالة الى جيروم فارل نائب مدير المعارف، وقد كان يومها مديراً بالوكالة بسبب تغيب بومن في اجازة. فارل كان من نوع الرجال العلماء. لكن ماذا اكتب له؟

كانت ادارة المعارف تمنح، في حالات محدودة، إجازة مدرسية مدتها فصل دراسي واحد، يقوم خلالها الشخص بزيارة مدارس في انكلترا. وكان ثلاثة أو أربعة من العاملين في ادارة المعارف قد منحوا مثل هذه الاجازة. فضلاً عن ذلك فقد يسّرت إدارة المعارف لعدد قليل أيضاً - وهم من خريجي الجامعة الاميركية في بيروت أو من هم في مستوى ذلك - الذهاب الى انكلترا لقضاء سنة في معهد التربية التابع لجامعة لندن أو في دور المعلمين (أو المعلمات) للحصول على دبلوم في التربية. كان من الذين منحوا ذلك فهيمة نصر وحسن

الكرمي وجوليا سلامة وسائدة جار الله.

قررت أن تكون رسالتي الخاصة الى فارل حول إمكان الحصول على اجازة مدرسية لفصل أو بعثة تربوية لسنة. كتبت الرسالة ذلك المساء، وأودعتها البريد صباح اليوم التالي. كتبت الرسالة مساء الجمعة وخرجت في البريد من عكا صباح السبت. طلبت من فارل أن يخبرني فيما إذا كان أي من هذين ممكناً بالنسبة لي. وكنت انتظر منه جواباً بعد أيام.

لكن يوم الخميس التالي (أي بعد ستة أيام) بعث إليّ مفتش المعارف الذي كنا نتبعه، وقد نقل مكتبه من عكا الى حيفا، بأمر نقل تلفونياً من القدس، من فارل يقول فيه أنه يترتب عليَّ أن أقابله صباح الجمعة وفي الساعة الثامنة في ادارة المعارف بالقدس.

وصلني الخبر الساعة الثالثة بعد الظهر؛ وفي السادسة والنصف كنت في القطار الذي سينقلني الى اللدّ ومنها بالأوتوبيس الى القدس، فوصلتها حول منتصف الليل. وحسب المألوف ذهبت الى فندق ماجستيك.

دخلت ادارة المعارف قبيل الثامنة بدقائق من صباح يوم الجمعة، فكان أن لقني منسّى حنوش، أحد كبار موظّفي الادارة. لم يكتف بأن أظهر استغرابه، لكنه سألني كيف اترك مكان عملي وآتي الى القدس ولماذا أنا في الادارة، وكانت السنة الدراسية قد بدأت قبل بضعة أيام. كان جوابي بسيطاً. أنا لا أعرف لماذا جئت، فقد طلبني المستر فارل. وعندها تبدّلت اللهجة وأسرع ليتأكد من الموعد. وفي الساعة الثامنة تماماً كنت في مكتب فارل، مدير المعارف بالوكالة!

كانت الدقائق الأولى عبئاً ثقيلاً عليّ. كانت رسالتي اليه أمامه على الطاولة، وبدأ الحديث بقوله إن درجتي في ادارة المعارف لا تسمح لي بأن أُعطى إجازة مدرسية. هذه الاجازة تُعطى لمديري المدارس الثانوية ومساعدي مفتشي الألوية كي يفيدوا من زيارة المدارس في انكلترا، لعلّهم يقبسون بعض الترتيبات أو المناهج أو ما شابه ذلك. غلى الدمُ في عروقي وشتمت الرجل في نفسي وفكّرت هل كان من الضروري أن «ينتعني» من عكا الى القدس ليقول لي مثل هذا القول.

وزاد الغليان وارتفعت سُعُرُ الشتائم، وأيم الحق، لما انتقل الى الاقتراح الآخر. قال: سنة في معهد من معاهد التربية إضاعة للوقت. فكل ما يحتاجه المعلم كتاب في علم النفس وكتابان في المناهج التعليمية وادارة الصفوف. هذا كاف للمعلم الذي يملك المقدرة على التعليم، والذي لا يملكها لن يضرّه أن يقرأ هذه الكتب». والذي ضايقني، فضلاً عن هذا، قوله: «وأنت يا زيادة اجتزت امتحان المعلمين الأعلى ولذلك فأنت تعرف من علم النفس وتاريخ التربية وأساليب التعليم ما يكفي». ومعنى هذا، كما تصوّرت، «رح يا ولد انضبّ وبلاش مكاتيب ورسائل فارغة».

ونظر اليّ، بعد هذا كله، من خلال نظارتيه السميكتين، وكنت انتظر فعلاً أن يقول لي إنه فضّل أن يستدعيني الى مكتبه ليشرح لي ذلك. وكان الجواب المنتظر مني «شكراً».

لكن الرجل قال: «ولكن عندي بعثة جامعية لدراسة التاريخ في بلاد الانكليز. هل تقبلها؟» أنا أتذكر نفسي يومها. كنت مهيئاً لاتمام الهبوط الذي بدأته قبل نحو عشر دقائق، فاذا بي أراني أبدأ صعوداً مفاجئاً، حتى لكانني حسبت الكلام إما أنه كذب أو أضغاث أحلام. ولست استغرب ان يكون الرجل تعجّب من لهجتي لما قلت له «بالطبع». كانت الكلمة قوية في النبرة والمخرج كما كانت حركة رأسي التي رافقتها تظهرني وكانني قد خرجت من مأزق حرج أو استفقت من حلم مزعج.

وكأنه كان ينتظر هذه الكلمة فأضاف إنك ستدرس (أو ستتخصص) في التاريخ القديم، وهذا هو الذي تحبّه أنت. واتفقنا على هذا أيضاً. وتلا ذلك حديث دار حول قيمة البعثة. فقد كانت ٢٥٠ جنيهاً فلسطينياً (أي

استرلينياً من حيث القيمة) سنوياً، فقال ان ادارة المعارف رفعتها الى ثلاثمئة جنيه. ولما ذكرت له ان هذا المبلغ لا يكفي لاكسفورد أو كمبردج، قال على كل حال انت ستذهب الى جامعة لندن. وسألني فيما إذا كنت متزوجاً، فلما أجبت بالنفي قال ان هذا المبلغ يكفي بالراحة.

شعرت كأن المقابلة بلغت غايتها. كنّا قد بدأنا العمل في مدرسة عكا، مثل بقية المدارس الحكومية. لذلك التفت اليه وقلت «أظن أن هذه البعثة للسنة الدراسية القادمة !» فأجابني: «لا، أنا كتبت الى كلية الجامعة بجامعة لندن لأحجز لك مكاناً؛ وآمل أن يكون ذلك ممكناً. لذلك انتظر مني خبراً خلال عشرة أيام». ولما وقفت مودعاً وقف وقال لي اخترت لك هذه الكلية لأن استاذ التاريخ الكلاسيكي (تاريخ اليونان والرومان) فيها هو ماكس كاري».

تركت مكتبه وكأنني أسير على الغمام. الحلم الذي توقف عن كونه أملاً، وقد كان ذلك سنة ١٩٢٧، وظلّ يراودني رغبة صادقة، بدا وكأنه يتجسم واقعاً الآن.

ذهبت بعد الظهر الى رام الله. كان هناك اثنان من أعز الناس على قلبي ونفسي، خليل طوطح الذي كان يدير مدرسة الفرندز للصبيان، وعبدالحميد ياسين صديق دار المعلمين وما بعدها، وكان يومها يعلّم في المدرسة نفسها. أخبرتهما بما تم. إنني أذكر الى الآن أنني كنت أروي ما حدث وكأنني أفتّش عن الكلمات اللازمة. كنت لا أزال مأخوذاً بهذا الاتجاه الجديد الذي بدا لي.

ومما لا يجوز أن أنساه هنا أنه أصبح الآن بامكاني أن أترك أسرتي في عهدة أخي الفرد الذي أصبح موظفاً وبمعاش ثابت. ومن ثم فان العائق الذي وقف في الطريق سنة ١٩٢٧ زال واختفى.

وعدت يوم السبت الى عكا بطريق الناصرة إذ ذهبت لأحضر آخر عرس شاركت فيه بالناصرة، وكان لأحد أقاربي من جهة الأم. كان يومها من اقارب أمي في العرس سبعة وأربعون رجلاً من سليم شرش المتقدم بالسن نسبياً الى الشباب الذين لم أكن أعرف اسماءهم. اما النساء والأولاد فكانوا كثيرين.

يوم الأحد، لما عدنا الى عكا، أخبرت أختي ماري وأخوي الفرد وجورج بالأمر وقد سرّ الجميع مع أنهم أسفوا لأنني ساكون بعيداً عنهم لثلاث سنين (أصبحت أربعاً فيما بعد).

في عكا قصصت حديثي على اثنين: على أنيس صيداوي الذي كان لا يزال ينتظر إعداد المدرسة في حيفا لينتقل اليها ومجيء شريف النشاشيبي، المدير الجديد لمدرسة عكا، كي يسلّمه العمل؛ وعلى يوسف خليل وهو الزميل الذي كنت أحبه كثيراً وكان يحبني كذلك. أنيس قال مبروك وأضاف، كما قال لك فارل اسكت حتى تتم. أما يوسف خليل فكان موقفه غير ذلك. قال: «مرتبك الآن ١٨,٥٠ جنيهاً شهرياً، وبعد ثلاث سنوات سيصبح ٢١,٥٠ جنيهاً. وانت ستقضي ثلاث سنوات في لندن بعيداً عن أسرتك؛ وعندما تعود سيكون مرتبك حول ٢٥ جنيهاً. فهل تستحق القضية، أي فرق أربعة جنيهات، مثل هذه الغربة؟ بلاش يا شيخ!».

هنا يكمن الفرق بين الذهن المتفتح (أنيس صيداوي) والذهن المحدود (يوسف خليل). الأول رأى المستقبل ينبسط أمامي من حيث نواحيه الفكرية، فثلاث سنوات في انكلترا سيكون لها في نفسي أثر التطوير والتغيير والمشاركة العقلية والافادة من أجواء متقدمة. فيما لم يستطع الثاني ان يدرك منها سوى الجنيهات التي ستزيد في معاشي، ورأى أن الجنيهات الأربعة لا تستحق هذه الغربة.

والغربة هذه هي التي كنت أسعى اليها. سعيت اليها في رحاب الجامعة الاميركية في بيروت، التي كنت زرتها مع درويش المقدادي لماماً في صيف ١٩٢٥. ولما لم تتم المحاولة ولم تتحقق الرغبة، سعيت الى هذه الغربة عن طريق القراءة في هذه الكتب التي تصدر في بلاد الغربة. والآن يأتي من يضع بوابة هذه الغربة، التي كانت الى قبل أيام أبعد عني من عقاب الجو، أمامي ويأمرني بالدخول، ثم يقف يوسف خليل ليقول لي هذه «الغربة» لا تستحق أربعة جنيهات فرق المرتب الشهري.

أخذت أعدُّ الأيام؛ وأنا بين نسمة أمل تدفع، وموجة حلم ترفع، وخشية من الفشل توجع. ومرت الأيام العشرة، ثم تلاها الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، دون أن أتلقى خبراً أو اشارة. عندها استحوذ اليأس علي، وتأكدت من انني كنت كل هذا الوقت في حلم، إن لم يكن ذلك عالم أضغاث الأحلام.

كان، كما ذكرت من قبل، بين أصدقائي الكبار في المقام والمتقدمين في السن بديع الله بهائي. وكان من عادتي أن أمرَّ به صباح يوم الجمعة في طريقي من البيت، فأشرب عنده شاي الصباح، الذي يعده بنفسه. كانت حصّتي ثلاثة استكانات. وفي يوم الجمعة هذا، شربت استكانين فقط، ووقفت لوداعه، ولما احتج قلت له أحس بأن لي خبراً مهماً في مكتب البريد. والواقع انني أردت لنفسي أن أشعر بذلك كي أخفي عن نفسي، وعن الآخرين، ما كنت فيه من اضطراب ناشىء عن خيبة الأمل.

وصلت باب دائرة البريد فوجدت جبرائيل خوري امام المكتب. كان أنيس صيداوي قد ذهب لتسلم المدرسة في حيفا، وشريف النشاشيبي جاء عكا وتسلم عمله، لكنه ذهب لاحضار اسرته، وكان جبرائيل خوري يدير المدرسة وكالة. فاجأني جبرائيل هل وجدك الشاب الذي أرسلته اليك في البيت؟ ولما عرف أن الشاب لم يجدني قال لي: «جاء الآن تلفون من مفتش المعارف بحيفا انه يتوجب عليك ان تذهب الليلة الى القدس كي ترتب جميع أمور السفر وتأخذ القطار صباح الأحد الى بورسعيد لتسافر الى لندن. مبروك. جاءتك البعثة!».

كان صوت جبرائيل خوري - وهو بطبيعته صوت خفيض - يصل الى أذني كأنه آت من مناطق بعيدة؛ كنت أسمع الكلمات لكنني لم أتصور معناها تماماً؛ كنت أرى جبرائيل خوري وكأنه شبح اتشح ثياباً نورانية وهو يبتسم لي ابتسامة هادئة، لكنها كانت تترجرج في نظري.

ثم أدركت معنى ما قال لي: إذن فلأركض. أمامي بضع ساعات فقط. وكان أول ما احتجته «شنطة» أضع فيها ما قد أحمله من الثياب. ولم يكن من الممكن شراء مثل هذه في عكا. وإذن فلا بد من الاستعارة. أسرعت الى بيت نصار. استعرت الشنطة وأخبرت غرترود وأمها (وكانتا تعرفان الأمر، كما كان كارل قد اطلع عليه). وفي البيت وضعت فيها بدلة كحلية ثقيلة، وأخرى بنية، إذ ما حاجتي في لندن الى البدلات المصنوعة لعكا؟ وكانت ثمة بدلة ثانية رمادية لبستها. وضممت الى البدلتين القمصان والشعارات (أي الثياب التحتانية) والكلسات التي كانت نظيفة، وما كان أقلها. وهكذا أصبحت جاهزاً. وكان يترتب عليَّ أن أبعث خبراً الى أخي ألفرد الموجود في مركز تل المتسلم (مجدو) جنوب شرقي حيفا، ليأتي فيقابلني في حيفا ويرافقني الى القدس.

ودّعت من الأصدقاء في عكا من أمكن توديعه، وذهبت الى حيفا وفي الساعة السادسة كان ألفرد على المحطة، ودخلنا بعدها القطار. وجاء بعض الأصحاب لوداعي وكان بينهم أنيس عوض الذي كان يحمل بيده ليمونة أعطاني إياها وقال: «هدية المقرف ليمونة حامضة!». وما زلنا أنيس وانا نتذكر هذه الحادثة التي تعود الى آخر ايلول / سبتمبر سنة ١٩٣٥ (وأنا اكتب هذه السطور في ربيع ١٩٨٩).

في القطار تحدثت الى أخي عن امور يجب أن تُصنَع وديون صغيرة يجب ان تدفع. ولما وصلنا القدس منتصف الليل شعرت بأنني منهك فعلاً. ولم أكد ألقي برأسي على المخدة حتى انتقلت الى عالم آخر، عالم الرقاد الذي أجاد المتنبي في وصفه.

لكنني لما أفقت صباح اليوم التالي استغربت لماذا أنا في فندق ماجستيك بالقدس. ثم تذكّرت انني الآن أنا فعلاً اتخذ الخطوة الأولى لتحقيق حلم الحياة الأكبر في نظري!

في أربع ساعات أنجزت جميع الاجراءات اللازمة. بيتر اتنبره، مساعد مدير المعارف، كان قد هيّأ جميع الرسائل اللازمة لتقديمها في القدس أو في لندن. الشيء المهم في القدس كان ايجاد كفيلين يوقّعان معي على

الاتفاق الذي يتم بيني وبين ادارة المعارف. أرسلت أخي الفرد الى بيت جالا لاستدعاء عيسى عطاالله ليكون واحداً منهما. وكلّمت محمد كمال، الذي كان يعمل في سكرتارية الحكومة، فقبل وطلبت منه أن يكون جاهزاً في إدارة المعارف الساعة الثانية عشرة تماماً (هو محمد كمال ابو التلفزيون الاردني فيما بعد. توفي سنة ١٩٩٢).

كان كل شيء جاهزاً وحول الساعة الحادية عشرة والنصف اتصلت بمحمد كمال تلفونياً، فاذا به يخبرني انه لا يستطيع أن يترك عمله، وسألني ان أطلب من المستر فارل ان يبعث اليه بالعقد لتوقيعه في مكتبه.

أسقِطَ في يدي وأنا أكلّم اتنبره عن الأمر، ولم يكن بالامكان الحصول على شخص آخر. انتفخت أوداجي، وكاد الدمع ان يطفر من عيني - إذ تصورت الفشل مرة ثانية، أو ثالثة لا أدري.

كان مكتب اتنبره قاعة كبيرة لعل طولها كان لا يقل عن سبعة أمتار. فمكتب ادارة المعارف كان بناء أقرب ما يكون الى القصر المتواضع. وكان يجلس الى مكتب كبير في الجهة المقابلة من القاعة أحمد طوقان، الذي كان كبير مفتشي ادارة المعارف يومها. معرفتي بأحمد طوقان كانت محدودة جداً. كنت قد لقيته عدداً من المرات في زياراتي للكلية العربية، لما كان استاذاً فيها، لكن لم تكن بيننا صداقة. ولم يدر في خلدي أن أكلفه. لكن الرجل الكريم هو كريم نبيل دائماً. هو التفت الى اتنبره وأشار الى ما يشبه التوقيع، وهز اتنبره رأسه، فاذا بأحمد طوقان يشير الى أنه هو يوقّع العقد معي. وللمرة - لا أدري كم - عدت فصعدت على قمة الموجة. وانقذني الرجل النبيل، في الوقت الذي تخلّى فيه عني أحد أصدقائي الخلص.

زرت رام الله هذه المرة مودعاً. وعدت مع أخي الى الفندق وأنا أرتب أعمالي معه. قبيل منتصف الليل دخل علينا أديب عتقي. جاء ليودعني. قضينا ليلة طويلة، وفي الصباح ركبنا ثلاثتنا القطار من محطة القدس وفي محطة اللد غيّرنا الاتجاهات. سار أديب وألفرد الى حيفا، وأخذت أنا القطار القاصد بورسعيد عبر القنطرة. ولم أركب هذا القطار مرة ثانية إلا في صيف ١٩٣٩، لما عدت من انكلترا بحراً الى بورسعيد، ومنها أخذت القطار الى اللد. كانت أختي واخواي يومها بانتظاري في محطة اللد فانتقلنا الى القدس بسيارة.

تركت عكا في خريف سنة ١٩٣٥ لالتحق بجامعة لندن، ولست أحسب انني توقفت يومها لأفكر بهذه السنوات العشر التي قضيتها في عكا، وكيف أفدت منها، وما هو الزاد الفكري أو الروحي أو الاجتماعي الذي حملته معي منها وماهي الأخطاء التي ارتكبتها ومدى إفادتي منها. لم يكن ذلك ممكناً يومها. فأنا، في مدة اسبوعين، أخبرت عن احتمال الذهاب، ثم أخبرت بوجوب الذهاب حالاً وكل هذا تم بعد ان كنت قد قطعت الأمل من السفر الى جامعة للدراسة.

ولست أحسب أنني أوليت هذه الناحية من تفكيري ما تستحقّه من العناية خلال السنوات الأربع التي قضيتها في لندن وأوروبة. فقد كانت أمامي مجالات للتعرف عليها واكتشافها والافادة منها. لكن ذلك لم يعن أنني خلّفت أيام عكا ورائي نهائياً. إذ ليس من اليسير أن ينسى الواحد، أو حتى أن يقصي عن نفسه، مثل هذه التجربة التي حصلت عليها. كان لا بد من التذكر، والتذكر بكثير من الشوق. الشوق الى الاصدقاء، الى البلدة، إلى الاماكن التي كنت أغشاها. فهذه جميعها كانت جزءاً من حياتي، وجزءاً مهماً وحيوياً أيضاً.

ولعلي كنت أكثر تذكراً لأيام عكا لما عدت الى المنطقة وسكنت بيروت (سنة ١٩٤٩) قبل أربعين سنة بالتّمام والكمال. بيروت الواقعة على الشاطىء تذكّرني بعكا الواقعة على الشاطىء نفسه. بيروت كانت شيئاً آخر، لكن هناك القرب الطبيعي. فضلاً عن ذلك فقد استقرّ في بيروت عدد لا يستهان به من أصدقائي العكيين - إما من طلابي أو من أبناء اصدقائي. العدد كان كبيراً في الجامعة الاميركية بالذّات، وكان أكبر بكثير في المدينة نفسها. وكانت الجامعة تستقبل، سنة بعد سنة، ولسنوات عديدة في ربع القرن الذي عملته فيها أبناء اصدقائي وطلابي في عكا. أذكر أن شاباً دخل مكتبي في الجامعة وحيّاني وقال لي إنه تلميذي وإنه من عكا. ولم اتذكّر اسمه، لكنه

لما قال لي إنه عبدالرحيم فاعور، قلت له «أنت كذّاب، أنت لست من عكا، أنت من مجد الكروم». بُهت يومها. ثم قال جئت لأطلب مساعدتك في إدخال ابني في الجامعة؛ طلبت منه علامات ابنه. ولما رأيتها قلت يا عبدالرحيم ابنك يدخل الجامعة بسبب هذه الدرجة العالية التي حصل عليها. وليس ثمة حاجة للمنّة عليك (تحميلك جميلة، كانت العبارة التي استعملتها).

هذه العوامل كانت تثير في نفسي ذكريات عكية كثيرة، لكن لم أتوقف عند السنوات العشر مجتمعة لأقيِّمَ أثرها في نفسي. أما الآن فأنا أفعل ذلك. وأتساءل: ماذا كان أثر هذه السنوات العشر (١٩٢٥-١٩٣٥) في تكوين شخصيتي؟

إن الصفحات السابقة وضعت أمام القارىء صورة - ولو مقتضبة - للأحداث التي مرّت بي. وقد حاولت أن أضيف، بقدر الأمكان، صوراً للأشخاص الذين تعرفت اليهم: زملاء وأصدقاء السن وأصدقاء متقدمين عني سناً. وأحسب أنني تحدثت عن عملي. ولكن الذي أريد أن أفعله الآن هو أن أنظر الى تلك السنوات العشر نظرة متكاملة؛ نظرة من الداخل، بحيث تمكّنني من أن أتقرّى أثرها في تكويني.

ولنبدأ بالقراءة. كنت كثير القراءة المنوعة والمنظمة. المنظمة التي كان اساسها الاستعداد للامتحانات أولاً، وسدّ الثغرات الثقافية وما كان أكثرها. والذي أراه، بعد هذه السنوات الطويلة، أن القراءة والخطابة (وكنت أقبل الدعوات بدون تردّد) والكتابة (التي بدأتها بالمقتطف سنة ١٩٣٠ و ١٩٣١ ومنها كتابة الرسائل الاخوانية في موضوعات فكرية). درّبتني على الاستيعاب والتعبير والتنظيم.

كان عيسى عطاالله اقرب اصدقائي الى تقبل الأمور المختلفة في رسائلي الإخوانية. والذي وجدته في رسالة كتبتها له من عكا بتاريخ ٢٣ تشرين الأول / اكتوبر ١٩٣٠ (وهي أول الرسائل المحتفظ بها) انني أدافع عن نفسي في تهمة رماني بها. يبدو انني كنت قد كتبت شيئاً ضد الزواج فحسب هو أنني انتقص من شأن المرأة، وهنا جاء دفاعي الذي ورد فيه قولي: «والحق انني اعتقد اعتقاداً جازماً لا تشوبه شائبة قط ان المرأة هي مصدر الوحي والالهام لأكثر ما في الحياة من نتاج القرائح وآثار العواطف الفياضة التي تجول في النفس أعواماً ثم تنفجر ينابيع فياضة تملأ الحياة هناءة وغبطة، وتجعل من صحراء الحياة ظلالاً وارفة».

ومع انني عدت فاكدت كرهي للزواج، فقد أضفت قولي: «ولكنني لا اكتمك انه، ككثير من المبادىء والعقائد، معرض للتغيير والتحويل تحت تأثير ظروف خاصة لا أستطيع التحدث عنها الآن، لأنني لم أعرفها بعد».

لكن هذه القضايا الشخصية، على أنها كانت تشغل في رسائلنا حيزاً كبيراً، فانها لم تكن وحيدة. ففي ربيع سنة ١٩٣١ وقعت على ترجمة، كانت حديثة العهد، لمقال ديكارت في المنهج، قام بها محمود الخضيري. وقد قدم للترجمة بدراسة جيدة. وفي عدد من الرسائل التي كتبتها الى عيسى عطاالله في ذلك الربيع، لخصت له فيها المقدمة والترجمة. وكانت كتابة الرسائل حول هذا الموضوع بالذات سبيلاً لترسيخ فكرة الكتاب في ذهني. وكانت اسئلة عيسى وملاحظاته تأتيني وأجيب عنها بقدر ما يمكنني.

في صيف تلك السنة تقدم عيسى عطاالله الى الموضوع الرئيسي في امتحان المعلمين الأعلى وهو اللغة العربية. أذكر انه لما عاد يوماً الى بيت جالا وسألناه زوجته وأنا كيف يعتقد انه فعل في ذلك اليوم. فقال في امتحان الانشاء كانت هناك ثلاثة مواضيع واحد منها مقولته: لخص الاراء الواردة في كتاب قرأته حديثاً وناقشها. وقد اخترت هذا. وأنا أعرف ان عيسى لم يقرأ كتاباً (غير كتب الامتحان) في تلك الفترة. ولما استزدناه في قصته ضحك وقال كتبت عن المقال في المنهج، وقد اعتمدت على رسائلك، يا نقولا. فانتم تعرفون انني لم أر الكتاب.

وفي وقت لاحق من ربيع السنة نفسها (١٩٣١) قرات كتاب الآراء والمعتقدات لغوستاف لوبون (ترجمة عادل زعيتر) ولخصته في رسائلي لعيسى. لكن كتاب «المنهج» لديكارت كان اكبر اثراً في نفسي ومن ثم فقد كانت كتابتي عنه أدق وأنفع.

ووصلنا في صيف ١٩٣١ «شاعر في طيارة» لفوزي المعلوف. وقد حملني هذا الكتاب معه الى الآفاق العليا، لذلك لما كتبت رسالتي عنه الى عيسى (١٣ حزيران / يونيو ١٩٣١) كنت في درجة مرتفعة من حرارة الرومنطيقية.

ولما عدنا الى العمل في السنة الدراسية ١٩٣١-١٩٣٢ قرات أموراً تتعلق بالتصوف فكانت ثمة مجموعة من الرسائل (بدءاً من اواخر تشرين الأول / اكتوبر) فيها آراء وتاملات في التصوف. وقد انكرت فيها على بعض الشعراء ادعاءهم التصوف أو اتهامهم به.

وهناك كتب وموضوعات متنوعة كانت موضع اهتمامي والكتابة عنها في سنتي ١٩٣١ و١٩٣٢. وقد عثرت على هذه في الرسائل التي اعادها اليّ عيسى عطاالله. منها رباعيات الخيام التي نقلها وديع البستاني عن الانكليزية في سباعيات. وكان ان التقيت (في حيفا) وديع البستاني صحبة خليل السكاكيني، فكان ثمة حديث طويل جميل عن الرباعيات: خلاصته ان فتزجرالد الانكليزي قرأ هذا الأدب المسمى رباعيات الخيام (ولعله لم يكن كله للخيام) وتمثله، ثم نظم هذه الرباعيات بالانكليزية، فكانت خيامية الروح فتزجرالدية التعبير. وجاء وديع البستاني فقرأ الترجمة الانكليزية وأحاط بما تيسر له عن الخيام وعصره ومعاصريه وشعره وآرائه، فلما تمثل هذا عمد الى الترجمة الانكليزية فنقلها «سباعيات جميلة» لطيفة. ولعلّ البستاني دخل هنا في الشكل السباعي على الخيام أصلاً. لذلك فالذي نقرأه بالعربية من عمل البستاني هو خلاصةُ خلاصةٍ للفكر الخيامي الشعري التعبير.

وكان لي حديث عن نكبة البرامكة، واعتباري ان القضية لم تعد الأمر البسيط وهو أن الرشيد نقم على هذه الأسرة تفردها - تقريباً - بالسلطة على حسابه. ولأن الرشيد كان يرى أنه لا يمكن ان يكون للسلطة رأسان، وكان يرى أنه هو الذي يجب أن يكون الرأس، فقد أزاح الرأس الثاني من طريقه. ولا أزال أرى هذا الرأي، وكل ما رُوِيَ وقيل وعُلِّلَ به فهو هراء.

وقد كان لقراءتي كتاب شفيق جبري عن المتنبي، اثر في نفسي، لذلك فانني تحدثت الى عيسى عن المتنبي والمعري، وكانت ذكرى أبي العلاء حديثة عهد بيننا. كما حظي زكي مبارك بحديث طويل عن كتابه «ذكريات باريس».

وكان قد صدر في ذلك الوقت كتاب من قلم جون هاسفيلد (John Hasfield) شاعر العرش في بريطانية عن شكسبير. فتحدثت الى عيسى عنه باعتباره كتاباً لشاعر عن شاعر.

أما الموضوع الذي شغلني كثيراً في تلك الفترة فهو قضية الدين - من حيث ارتباطه بحياة الشرق منذ ان رفعت أعمدة الهيكل الأول الى قيام الحركة البهائية. فالبهائيون كان مركزهم حيفا، ومن ثم فمن الضروري ان تدخل «ديانتهم» في عداد الأديان والعقائد التي عرفها الشرق خاصة.

والذي أذكره، وقد رأيت تفصيله في الرسائل المذكورة، هو انه مرت بي فترة الحاد في تلك الأيام. هو إلحاد، كما تبينته فيما بعد، من نوع رفض الموجود جميعه، لا من حيث انكار الاصل. فقد ظلت في أعماق نفسي ذرة من الإيمان كبيرة. وقد تحدثت عن الحادي الى كثيرين (وكثيرات) يومها، على ما تبدى لي من الرسائل (نعم الى عدد اكبر بكثير مما كنت اظن) لكن لا يبدو ان الحديث كان حديث «مؤمن» بالالحاد. لكنه لم يكن ايضاً من أنواع التباهي الذي بدا عند كثيرين. وكانت قضية مخاطبة الأرواح شائعة يومها (وهي قضية لها موضة، إذ انها تعود

الى الظهور بين الآن والآن). وكان بطلها في انكلترا العالم الرياضي الفلكي الكبير السير أوليفر لودج (Oliver Lodge) الذي كان قد فقد ابنه في الحرب، فكان يسمع صوته وكان الابن يجيب عن اسئلة الأب بحركات واشارات. وأعرف ان مثل هذه الخزعبلات كانت ذات أثر سلبي في نفسي. وكانت مرتبطة، بشكل أو بآخر، بالشؤون الدينية الفولكلورية، لا الأصلية.

هذه الأمور جميعها كانت مواضيع حديث طويل أو أحاديث طويلة على الأصح.

وفي رسالة مؤرخة ٣٠ شباط / فبراير ١٩٣٢ قلت لعيسى انني اخذت نفسي بقراءة القرآن الكريم من أوله. فانا كنت قد حفظت من آيه الكثير على يد الشيخ سعيد مرعي في جنين. لكنني يومها أردت أن أتصوره «كلاً» لا مجزءاً.

أعود الى القول ان هذه الوسائل القراءة والخطابة والكتابة، إذا أُحْسِنَ استعمالها، وإذا تنبَّهَ صاحبها الى طريقة تطويرها، أدّت الى نتائج ذات قيمة كبيرة بالنسبة الى الشخص. وقراءاتي، وخاصة التي كانت تخرج عن دائرة الأعداد للامتحانات والتدريس، بالعربية وضعتني في صميم الحركة الفكرية الأدبية العربية، وبنوع خاص مما كان ياتي من مصر؛ كما أن قراءاتي بالانكليزية وجهتني نحو مجالات الفكر الأوروبي. لذلك لما ذهبت الى لندن لم يكن كل شيء جديداً علي. وأقصد النواحي الفكرية بشكل خاص.

فانا كنت قد قرأت بعض ما كتبه هـ. ج. ولز، وجورج برنارد شو والفابيون (الاشتراكيون الانكليز) وبعض علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة والفلسفة.

وكان مما أفادني في النواحي الفكرية، ولو عن طريق الحديث، الصحبة التي منحني اياها عبد الله مخلص والشيخ أسعد الشقيري وبديع الله بهائي وأصدقاؤهم.

على أن الأمر الذي وقفت أمامه حائراً في تلك السنوات فهو العلاقة بالمرأة والجنس. هذا هو العمر الذي يتعرف فيه الشاب الى المرأة؛ وقد تعرّفت الى عدد من الفتيات، تعرّف صداقة أو حب. وسأتحدث عن هذا فيما بعد. لكن الذي أعنيه هو المرأة والجنس. كان الأمر بالنسبة لي وأنا صغير قضية محيرة. لكن الأهم من هذا أنني، وأنا في جنين، ثم وأنا في دار المعلمين، مع استمرار الحيرة حول هذه القضية، أخذت تتخذ بالنسبة لي بعدين، لا أدري أصلهما ولا تطورهما وهما الخوف والقرف من هذا الأمر: الجنس. هل كان قرفي بسبب الحديث الكثير عن اللواط، وقرفي منه، سبباً في انتقال عدوى القرف (لا الخوف) الى العلاقة الجنسية الأخرى. وأنا صغير وليس في أسرتي رجل (لا أب ولا عم ولا خال) يمكن ان اسر اليه في هذا الموضوع، أو يمكن ان يسألني، مع الوقت، عن أمور من هذا النوع؟ على كل ان كان لهذا الأمر علاقة بالقرف، فلم يكن هو السبب الوحيد. كان أحد معلمينا في جنين، وهو يعلّمنا دروس الدين المسيحي (وكان هذا لسنة واحدة)، يكثُرُ من الاشارة الى أن هذا الأمر - أي العلاقة الجنسية - شرٌ وخطيئة. وجاءت هذه الدروس في فترة كنت فيها أقرأ الصلوات صباحاً ومساء بانتظام. فهل ارتبط الأمر في نفسي ارتباطاً عضوياً - الجنس والشر والخطيئة - واستمر هذا يعمل في عقلي (الباطن) لسنوات تلت؟

ويبدو أنه كان لتصرف رجال الدين في كنيستي أثر في هذه الناحية. فالكنيسة الارثوذكسية، مثل الكنائس الكاثوليكية، تقبل بالرهبنة أساساً للحياة المسيحية الصحيحة. وأنا قرأت، وأنا في عكا، عن الرهبنة الشيء الكثير. ولست أنكر أنني اعجبت بكثير من اوائل الرهبان مثل انطونيوس المصري. صحيح انني لما اطلعت على تصرف رهبان اخوية القبر المقدس (اليونان) في القدس، قرفت من الجميع، لكن لعل مزيجاً من الاحترام السابق والقرف اللاحق ظل يعتمل في نفسي، فيجعل من الجنس شيئاً قبيحاً.

هذه اسئلة أطرحها الآن، وأنا لا أملك الاجابة عنها، لكنني لا انكر قط أن مثل هذه التعاليم والأحاديث والدروس (الناقصة) يديرها معلم تحترمه، ويعيدها ويكرّرها، لا بد أن يبقى لها في نفسك أثر. وأود أن أشير هنا إلى أنني أنا. ولست أدري إذا كنت قد تحدثت الى آخرين من التلاميذ. كنت أرى أن هذا المعلم بالذات كان في حياته العائلية شيء من النشاز. ولعلي ربطت الأمرين معاً، أي أحاديثه وحياته العائلية.

على أنني يجب أن أذكر هنا، وأنا أقصد مدة وجودي في عكا، أمرين آخرين لا شك انهما كانا بعيدي الأثر في هذا الموقف من الجنس. هب أنني أردت فعلاً أن ألجأ الى ذلك. فمع من؟ لم تكن الفترة ولا المكان يسمحان بأن تكون لك صديقة تعاشرها، إلا إذا كانت يهودية. وهذه قضية أنا وأصدقائي بأجمعنا كنا بعيدين عنها. وإذا حدث أن كان هناك زوجة ناشزة، فانني لن أقدم على شيء معها، لاعتباري ان مثل هذا الأمر خيانة اجتماعية. هذا واحد من الأمرين؛ أما الثاني فكان الجنس يومها معناه، عندما لا يتيسر أو لا تجوز العلاقة التي ذكرت، زيارة بيوت البغاء. وهذا كان في نظري شراً كبيراً وخطيئة اجتماعية، إذ أقل ما قد ينتج عنه هو الاصابة بمرض من الأمراض الخبيثة.

ماذا كان يفعل غيري؟ أعرف بالنسبة لأصدقائي الخلّص، وأقول عنهم إنهم كانوا في وضع مثل وضعي، ولذلك كان الواحد منهم يتزوّج في أول فرصة ممكنة. وإذا لم أعرف امرأة جنسياً، فكيف كنت أعالج هذه القضية؟ أنا تعلمت شيئاً كثيراً من علم النفس وأنا صغير السن. لذلك كنت أطبق يومها قواعد سلوكية كثيرة منتزعة منه. وكان مما يدعو اليه علماء النفس ما يسمى «بالتسامي» أو التصاعد (من علوم الطبيعة) (Sublimation) فأنت تفكر بأمور مثالية وتقوم بأعمال كثيرة تمتص ما قد يكون عندك من قوة كان يجب ان تتجه اتجاهاً جنسياً؛ وقد تأثرت كثيراً بهذه الفكرة. وأذكر مرة انني جلست ساعة وبعض الساعة مع ميشيل خمار نتحدث عن هذا الموضوع بعد ان قرأنا جزءاً من فصل في كتاب في علم النفس كنا ندرسه معاً.

ولكن هذا كله لم يحل المشكلة. أنا كنت، بين الفينة والفينة، ألجأ الى الاستمناء. هذه العادة بدأت معي في جنين إثر البلوغ. وظللت ألجأ إليها لكن على قلة، لأنني، من حسن حظي، أنني قرأت مقالة علمية، وأنا بعد طالب في دار المعلمين عن الآثار الضارة لهذه العادة إذا أفرط الواحد فيها.

والواقع انني لم أعرف امرأة بالمعنى الذي ذكرته إلا بعد وصولي الى لندن في خريف ١٩٣٥. وهذه لها قصة ستأتي في موضعها.

أما تعرفي الى فتيات وميلي إليهن أو حبي لهن، فلم يفتني قط. وبعض هذه القصص مضحك فعلاً. فأول من ملت اليها، ولست أدري فيما إذا كنت أستطيع أن أسمي هذا حباً هي أ. ح. كانت قريبة لي، وصلة القرابة بيننا أن أباها وجدتي لأمي أبناء عم (حداد). وقد تنبهت اليها - مع انني أعرفها من الناصرة بحكم الزيارة - لما كانت طالبة في دار المعلمات بالقدس في سنتها الأولى، وكنت أنا طالباً في دار المعلمين في سنتي الأخيرة. ومن ثم فقد تعددت زياراتي لأهلها كلما كنت في الناصرة، أو عندما أذهب لزيارة جدي. وكنت ألقى من أبيها ن. كل رعاية وترحيب. أ. كانت جميلة الصورة، ذات بشرة حنطية صافية، وشعر كستنائي تسمح له بأن يطول ليتهدّل على كتفيها. وكانت تقوم تحت هذا الاطار من الشعر الجميل جبهة عريضة بعض الشيء وكانت ذات عينين عسليتين لامعتين، وأنف أنيق، وقوام جميل؛ ليس فيه ما يثقل لا في الردف ولا في الصدر، بل هناك تناسق تام. كانت إذا ألقت نفسه على الكنبة واستندت الى المسند وأطبقت شفتيها تمنيت ان تظل كذلك لاستمتع بالصورة، فاذا تكلمت خرجت كلماتها موسيقى أطرب لها، وأود أن تستمر في الكلام.

كانت أ. أصغر مني سناً بقليل. ولعلي لو فكرت يومها بالزواج، لكنت تقربت منها أكثر، واكتشفت موقفها مني. ومن يدري ماذا يمكن ان يكون هذا الموقف. لكن أ. لم تعرف شيئاً عن اهتمامي بها. لم أذكر كلمة واحدة عن

الموضوع.

كانت ك. ع. فتاة رائعة، كنت فعلاً أميل اليها. ومع انني لم أُلقِ كلمة واحدة حول الموضوع، فأنني واثق من أن موقفها مني شبيه باهتمامي بها. لكن لأنني لم أكن قد بلغت - في رأي نفسي - الموقع الذي يمكّنني من الاقدام على الزواج، فقد أدرت وجهي نحو الذي فطر السموات والأرض.

كان جمال ك. من النوع الأنيق الهادىء. فقد كان كل شيء فيها - من الرأس الى الكتفين الى الذراعين واليدين والقدمين - أنيقاً كأنه فُصِّلَ على مخرطة بيد فنان. كان شعرها الكستنائي الغامق وعيناها البنيتان اللتان تمثلأن الخفر وبعد النظر، وأنفها الدقيق عناصر هذا الجمال الأنيق الهادىء.

وكانت س. ق، وقد ذكرتها من قبل، تُعجبني كثيراً. كان يعجبني فيها جمالها الأسمر وشعرها الفاحم وعيناها الدعجاوان وقوامها الجميل المتناسب صدراً وردفاً، ومشيتها الموسيقية. وكنت، أفكر جدياً بالزواج منها. لكن الذي كان يخيفني أن تصبح أمها حماتي...

وفي صيف ١٩٣١ تعرفت، وفي بيت عيسى عطاالله في بيت جالا، على أوجين غاوي وأحببتها فعلاً. أوجين كانت جميلة: طويلة القوام منتظمته، لا يثقلها ردف ولا يضايقها صدر، فقد نظمت منذ صغرها على خطة درجت عليها، وبلغت الغاية. الوجه مستطيل قليلاً، البشرة رقيقة، الأنف دقيق، العينان سوداوان والشعر يميل الى السواد. ولعل عينيها كانتا أكبر أثراً من أي شيء آخر في وجهها. كبيرتان دون تسلط على جزء من الوجه أكثر مما تستحقان، وفيهما القدرة على الدخول الى القلب - الى قلبي. وكانت إذا مشت حسبتها ترقص. وكانت أ. تحبّ القراءة. ولعل هذا مما قرّبها إليّ.

تعارفنا، والتقينا، وكتبت لها، واتفقنا على الزواج. ولم يبق امامنا سوى الخطبة. ثم إذا بها تعدُل. عارضت أمها لأنها كانت ترى أن ابن أختها (وكان ثرياً) أولى بها وأنسب لها. ونزلت عند رغبة أمها. وانتهى كل شيء.

لكن الواقع هو ان الأمر آلمني. لست أدري تماماً الآن فيما إذا كان الألم سببه الفشل (بعد ان كادت الثمرة أن تُقطف) الشخصي أو النقمة على الذين وقفوا في الطريق أو الشعور (ضمناً) بجرح كبريائي. لكن رسالة كتبتها الى فوز، ابنة عيسى عطاالله الأولى، بتاريخ ٢٤ حزيران / يونيو ١٩٣٢ توضح شعوري الصحيح. وهي:

عكاء / ١٩٣٢/٦/٢٤

عزيزتي فوز،

لست تعرفين بعد من الحياة الا الصراخ، وليس لك من الزمن فيها اسبوع بعد. وقد جئت فجاء معك هم جديد لأبويك، هو تربيتك.

فوز - سيوليك ابوك عطفه لأنك ابنته. وستحبوك أمك حنانها لأنك ابنتها وفلذة كبدها. وهكذا ستنالين من عطفهما وحنانهما ما يغذو قلبك، وينشيء نفسك، ويجعل منك شخصاً حرياً بالحياة. فأنا مطمئن الى ان تربيتك سيعنى بها العناية الكافية.

فوز - تزوج ابواك عن حب، وقد لقيا من هذا الحب ولوعته الشيء الكثير. وعند أبيك مذكرات قد تقرأينها أيام صباك فتعرفين الادوار التي اجتازاها والتي مرا فيها. وقد تعينك هذه على تصريف حياتك.

فوز - ولكن اباك قد ينسى بعد سنوات ذلك، وأمك قد تختلف آراؤها عندئذ عن أرائها اليوم. وقد يرى الاثنان في سنة ١٩٥٠ غير ما يريانه في سنة ١٩٣٢، ولذلك اتقدم اليك بهذه النصيحة من الآن، لأنني خير من يمكن ان يقدمها اليك، إذ أنني اقاسي من جرائها شر ما يقاسيه مخلوق من الآلام.

فوز - النصيحة هي هذه. اذا وقعت في شراك الحب متى شبيت، وأحبك شخص وثقت من حبه، واطمأن قلبك الى هواه، فاثبتي على ذلك الحب وهذا الهوى. وإذا قاومك أبواك، لأن آراءهما تغيرت عنها الآن أو اختلفت، فلا توليهما من عنايتك شيئاً قط. لا تهتمي بهما.

فوز - ان قلبين الآن في عنفوان الشباب، وقد غذاهما الحب وملأ عليهما جوانب نفسهما، يكادان ينسحقان بين عقائد صماء، وعوائد خرساء، لم تسمع صدى الأنات، ولم ترحم الآهات، لأن أحدهما لم يجرؤ أن يضرب بهذه التقاليد والعوائد عرض الحائط.

فوز - متى عمر الحب قلبك، لا تهتمي بشيء، ولا تقفي عند شيء، وليكن همك عندها أن تكوني وفية في حبك، أمينة في حبك، جريئة في حبك، شجاعة في حبك، صلبة في حبك... وعندها يدين لك العالم، ويقف الكون إجلالاً لهذا الوفاء ولهذه الأمانة، ولهذه الجرأة، ولهذه الشجاعة ولهذه الصلابة.

فوز - هذه نصيحة أقدمها إليك، وهي النصيحة الوحيدة التي عندي. أقدمها لك وأنت بعد رضيعة في المهد، فستنفعك يوم يتاح لك أن يكون في يدك ترجيح كفة السعادة أو الشقاء، أو الحياة أو الموت.

فوز - اقبلي الآن تحياتي مع أخيك وأبويك

المخلص نقولا

أنا واحد من ابناء الحرب العالمية الأولى: ولدت في ٢ كانون الأول / ديسمبر ١٩٠٧، أي أن سنوات طفولتي جاءت قبلها. وكنت صبياً اثناءها (١٩١٦-١٩١٨). وانتهت (رسمياً) في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨، أي قبل أن أبلغ العاشرة ببضعة أسابيع. والسنوات الخمس الأخيرة من هذه الفترة (أي قبل ١٩١٨) قضيت ثلاثاً منها في مدرستين ذهبت اليهما في دمشق ومدرسة في الناصرة. أما آخر سنتين منها فقد مرتا عليّ وأنا أتدرّبُ في مدرسة الأزقة والشوارع في جنين، إذ لم يكن هناك مدرسة قطّ (والقصة مفصلة من قبل).

والوقت الذي قضيته في المدرسة في جنين لما فتحت (١٩١٩ - ١٩٢١) تعلّمت فيه كثيراً بالنسبة لكل ما كان، ولجميع من كان يشرف على تعليمنا.

لكن عندما أعود الى تلك الفترة والفترة التي تلتها في دار المعلمين، أرى، الآن، بعين التجربة والخبرة والسّن، ان شيئاً أساسياً كان ينقصنا؛ كنا نتعلّم لكن لم نكن نتثقف. لم يكن ذلك غريباً على تلك السنين. إلا أن الأمر الذي أستطيع أن أقوله هو أن قلة من المدارس، حتى في أيامنا هذه (سنة ١٩٨٩)، تعنى بالتثقيف. ومع انتشار التعليم وازدياد عدد المدارس، على اختلاف درجاتها، وحتى مع كثرة الجامعات وتوسّعها، فأن الاهتمام بالثقافة قليل، إن لم يكن معدوماً.

يومها - أيام شبابي - كان ينقصنا أشياء كثيرة. منها مثلاً الثقافة السياسية. في عشرينات هذا القرن، وحتى في ثلاثيناته، كان الحديث عن السياسة، في فلسطين مثلاً، يتناول الاضرابات والمظاهرات وأخبارها. والذي كان موضع عناية في رواية اخبار هذه الأشياء أمران: الأول أن الاضراب أو المظاهرة أو الاحتجاج كان موجهاً ضدّ بريطانية؛ والثاني، وهو الأهم في نظر رواة الأخبار، هو من وضع الاحتجاج أو دعا الى الاضراب أو قاد المظاهرة. كي يقال ان القيادة الوطنية هي التي قامت بذلك، فيما تخلف الممالئون لبريطانية. وفي المرة التالية يقول الفريق الآخر الشيء نفسه. وأود في الواقع أن أقول ان الثقافة السياسية تكاد تكون معدومة في عالمنا العربي. أعرف، كما تعرف أنت أيها القارىء، أن الجامعات فيها كليات أو أقسام للعلوم السياسية. لكن هذه الدروس الجامعية ليست ثقافة سياسية: إنها تعليم وتعلم وقد يكون فيها بحوث أكاديمية أيضاً.

ولنعد الى تلك الأيام. في دار المعلمين بدأت أتحسس معنى الوطنية والقومية. هذه أمور كان الفضل فيها

لاثنين من مدرسينا. الأول درويش المقدادي والثاني خليل طوطح. والأول كان يتحدّث عن الفكرة في دروس التاريخ.

وجاءت الرحلة التي قمت بها مع درويش المقدادي في صيف ١٩٢٥. رحلة دامت شهراً وأياماً قليلة. كانت الساعات التي نقضيها معاً منفردين كثيرة. فالمشي كنا نقوم به منفردين إلا حيث نحتاج الى دليل أو يرافقنا صديق وكان هذا قليلاً. فضلاً عن ساعات طويلة على الأكل أو في المقهى أو في الفندق. كنا نقرأ في الكتابين الدليلين اللذين حملناهما معنا. لكن مجال الحديث يظل طويلاً. كانت لنا أحاديث عن القومية وعن القومية العربية. لكن هذه الأحاديث كانت ضبابية. كان ذلك طبيعياً. فالفكرة كانت حديثة العهد في عالمنا. صحيح كانت هناك ثورة مصرية في سنة ١٩١٩. كنا نعرف عنها الكثير مما كتب في الصحف تخليداً لها وإشادة بفضل سعد زغلول وصحبه؛ وكانت هناك ثورة في العراق سنة ١٩٢٠ وكان عنها حديث أقل من الحديث عن ثورة مصر، لأن الصحافة العراقية لم تكن قد بلغت يومها لا اتقان الصحافة المصرية ولا سعة انتشارها. ومن ثم فالذي عرفناه عنها كان قليلاً. وكانت هناك مظاهرات واضرابات وحتى عصيان في فلسطين. وكانت سنة ١٩٢٥ ثورة سورية الكبرى قد بدأت. لكن هذه كلها كانت حركات وطنية - مصرية وعراقية وفلسطينية وسورية.

القومية العربية برزت أصلاً، ردّ فعل على ما قام به الاتراك الطورانيون من محاولات تربوية وغيرها لتتريك العرب - لغة في الدرجة الأولى. وكانت الثورة العربية الكبرى عربية في معناها العام. لكن هذه الثورة أجهضت في اليوم الذي تم فيه نجاحها - يوم دخل فيصل بن الحسين دمشق في أول تشرين الأول / اكتوبر ١٩١٨. ومع ذلك فان ما أثارته هذه الحركة من تطلعات أو آمال ظلت معلقة في الجو. لكن لم يكن هناك من جمع الخيوط وحاك منها قماشاً اسمه القومية العربية.

ومن هنا فقد كانت الأحاديث التي دارت بيننا - انا ودرويش - لا تعدو الشعارات - العرب أمة، وهذه الأمة لها تاريخ، وهذه الأمة يجب ان تتوحد.

وجئت عكا أعلّم فيها. وجرّبت أن أحصل على شيء مكتوب بالعربية حول القومية. كل ما وجدته قصائد جميلة ومقالات أجمل وأقوال لا تقل عن هذه وتلك جمالاً ومتعة. لكن ما هي القومية.

في عكا كان ثمة مجال للحديث حول هذه الأشياء مع أنيس صيداوي لما جاءنا مديراً لمدرسة عكا الثانوية (١٩٢٩-١٩٣٥). كان أنيس صيداوي قد عَمِل في السياسة - أي في الحركة الوطنية - في لبنان، وأُخرج من بلاده فذهب الى العراق، ومنها جاء فلسطين، وعمل في ادارة المعارف. وكانت ادار مدرسة عكا الثانوية أول عمل تولاه. بحكم هذه الجولات كان يمكن ان يتحدث المرء معه عن هذه المواضيع. لكن كنت أشعر، في أحيان كثيرة، أن أنيس لم يكن دوماً يتحمّس لمثل هذه الأمور. هل كان أنيس صيداوي قد ملَّ مثل هذه الأحاديث؟ هل كان قد تعبَ من ذلك كله؟ لكن كانت هناك لمعات عند الرجل أخذت منها بعض الزاد. إلا أن فكرة القومية أصلاً لم تكن أوضح بكثير عنده منها عند درويش المقدادي.

كان عليّ أن أتلمّس طريقي بنفسي. وكان لي من تدريس التاريخ والانصراف اليه (بعد ١٩٢٧) ما قد يعينني، لولا أنني كنت أُعنى بالتاريخ القديم، القديم جداً. إلا أنني أوَدّ أن أؤكد هنا أن هذه الدراسة للتاريخ القديم وضعتني في جوٍ مكنني من معرفة الجذور الأولى للحضارة التي قامت في أرض الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام (ولو ان المعروف عن بلاد الشام يومها كان نزراً بالنسبة للقطرين الآخرين).

إلا أن صديقاً لبنانياً لأنيس صيداوي نفي من لبنان، وحطّ رحاله في شرقي الأردن وفلسطين. هذا الصديق هو علي ناصر الدين، الذي زار أنيس وهو في عكا عدداً من المرات. في بيت أنيس التقيت بعلي. كانت رؤيا علي لقضيته العرب والقومية أقل ضبابية، بل أكثر وضوحاً. ولو أنها لم تكن قد اتخذت ابعادها البينة بعد. لكن

الحديث مع علي ناصر الدين كان مفيداً.

على أنني قبل الاستمرار في هذا القول أود أن أتوقف قليلاً وأعود الى تلك السنوات التي كنت فيها أحاول التعرف على معنى القومية ومعنى القومية العربية بالذات. أود أن أسجّلَ هنا بضعة أمور كنت تتسرّب الى نفسي تدريجاً وكانت ذات صلة بالفكرة القومية أو العروبية إذا جاز التعبير.

كنت قد أدركت، بسبب قراءتي المتنوعة والكثيرة ان مجموعة كبيرة من البشر هي عربية، وأنها تشعر بشيء من الزهو لأنها عربية؛ وأن هذه الجماعة المنتشرة من العراق الى المغرب الأقصى لها لغة واحدة هي العربية؛ وأن هذه اللغة، على ما حفظناه من قول حافظ ابراهيم، «وسعت كتاب الله لفظاً وغاية»؛ وان هذا الكتاب الكريم هو أصلاً حصن اللغة العربية الحصين. ثم انني قرأت اخبار النهضة العربية الحديثة (في القرن التاسع عشر) وأدركت ان المجال الأول الذي برزت فيه النهضة انها اعادت للغة العربية مكانتها من حيث انها عادت لغة علم وفكر، بعد ان هجعت طويلاً.

ومما أثر في نفسي كثيراً الدعوة التي أطلقها يومها خليل طوطح بوجوب استعمال اللغة العربية في جميع الكنائس. وتتلخص فكرته بأنه ما لم يعبد الناس الله بلغتهم الوطنية، فقد يظلون غرباء عن اللغة وعن العبادة. وقد وافقت هذه الدعوة هوى في نفسي لأنني كنت أنقم على «أخوية القبر المقدس» الارثوذكسية (اليونانية اللغة والعرق) لأنها كانت تحيي الشعائر الكنسية في كنيسة نصف الدينا (في كنيسة القيامة) باللغة اليونانية، ومن ثم فلم أكن أفهم شيئاً لا من قراءة الرسائل ولا الانجيل ولا العظة.

ومن هنا ارتبطت في ذهني قضية اللغة بالشعور الوطني العربي عامة ارتباطاً وثيقاً. وعرفت، ولو فيما بعد، الدور الهام الذي قامت به الجماعة الرائدة في احياء اللغة العربية ونبش كنوزها والبحث عن التراث وإحيائه الى درجة كبيرة.

سمعنا، حتى في وقت مبكر، عن أحكام الاعدام التي أصدرها جمال باشا عن طريق الديوان العرفي في عاليه (لبنان). لكن الناس كانوا يتحدثون عنها همساً. أولئك الذين حكم عليهم كانوا، في نظر الحكم التركي يومها، خونة تآمروا على الدولة (والوطن). وقد يكون الحديث أكثر في مكان دون مكان آخر. لما سكنّا جنين، وجمال باشا كان لا يزال سيد الموقف في بلاد الشام، كان الحديث عن مشانق الباشا اكثر. ذلك ان سليم الأحمد عبد الهادي، كان أحد زعماء الحركة العربية وكان قد علق على أعواد المشنقة. فكان من الطبيعي ان يتحدث الناس عن الشاب الشجاع.

لكن حتى بعد الحرب العالمية الأولى، وبعدها بسنوات، لم تدوَّن أخبار ما عُرِفَ باسم الجمعيات السرية. كنا نسمع نتفاً عنها ممن كان له يدٌ أو أصبع أو أذن فيها، لكن الأخبار المفصلة التي يستطيع الواحد منا أن يقرأها اليوم كانت لا تزال يومها في ضمير الغيب. ولم تبدأ المذكرات والمقالات بالظهور إلا في أواخر الثلاثينات ثم أخذت تتزايد خلال العقود الأربعة الأخيرة.

وهنا موضع لملاحظة تتعلق بالتأريخ لما يسمى اليوم الفكر العروبي في أيامه الأولى - في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. يخيّل إليّ أنه يمكن ان يقسم أولئك الذين أرّخوا لهذا الفكر (ومؤسساته وما الى ذلك) الى فئتين - الأولى التي نشأت في اجواء بورجوازية أو تأثرت بها؛ والثانية التي تأثر افرادها بالاتجاهات الماركسية أو عاشوا أجواءها. وكتاب الفئة الأولى يتحدثون عن بورجوازية عربية نشأت منذ منتصف القرن التاسع عشر ويرون أن هذه الجماعة (الصغيرة عدداً) هي التي اعتنقت مثل هذه الأفكار «العروبية» وثبتتها (واستشهدت في سبيلها). أما كتاب الفئة الثانية فينعون على هذه الجماعة البورجوازية انها

لم تستطع ان تخلق وعياً سياسياً عاماً، وترى ان هذه الأفكار «العروبية» كانت تحتاج الى الانتشار بين أهل الطبقة «الكادحة» كي تنجح.

والذي أود أن أقوله هنا ان الفئتين تبالغان في البحث عن قادة وزعماء ونشر وانتشار ووعي سياسي وتنظيم. إن كثيرين من الذين يكتبون ينسون الأوضاع التي كانت سائدة في تلك الأيام. الأوضاع السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية. هل صحيح ان جماعة بورجوازية كانت موجودة وبشكل واضح بحيث انها كانت تستطيع استقطاب الجماعات؟ هل صحيح أن الاتفاق بين البورجوازيين ـ الكبار والصغار ـ كان تاماً من حيث فهم الأفكار واستيعابها وتوضيحها؟ وهل كان باستطاعة هذه البورجوازية ان تصل الى الناس في المدن والبلدان والقرى؟ كيف كانت حال الطرق؟ الى أي مدى كانت الأمية معششة في المجتمع؟ والماركسيون يحاولون «خلق» بورجوازية ـ خاصة صغيرة ـ في المجتمع العربي، كي يوجهوا لها اللوم لأنها لم تفهم روح الجماهير.

ويمكن القول بأن الذي وقر في نفسي من هذا الذي سمعته حتى أواسط الثلاثينات من القرن الحالي هو ان روح الثورة كانت موجودة في نفوس العرب المشارقة ضد الاتراك، وروح الثورة كانت عميقة في نفوس المصريين ضد بريطانية، والثورة كانت تشتعل وتخمد وتشتعل ثانية في المغرب العربي ضد فرنسة وايطالية. وأن خير ما عبر عن هذه النواحي المختلفة من الثورة هو الشعر. وكان من الطبيعي ان يخاطب الشعر العرب فيشير الى أمجادهم ومآثرهم ليثير النخوة في النفوس ويملأ الصدور عزماً والقلوب حماسة.

هذا الجو الذي عشته انا؛ وأحسب ان هذا الجو هو الذي عاشه الكثيرون من أترابي. قد يكون ثمة من عمل ابوه أو جده أو قريب آخر له في الحقل السياسي، فكان يعرف أكثر مني بحكم الواقع؛ لكن الأكثرية كانت على مثل حالي: اراء وأفكار تدور حول العرب والعروبة والأمجاد واللغة، لكنها آراء وأفكار كانت تدور مع الهواء أو حتى مع الريح، دون أن يتاح لها مكان تقيم فيه أو قاعدة ترتكز عليها أو أعمدة تقويها، بحيث يمكن ان توضح نفسها، فتكون بذلك منظومة فكرية واضحة الأهداف بيِّنة الأساليب.

كان علينا ان ننتظر مدة حتى نصل الى هذا!

لما طلب مني ان أعطي دروساً خاصة في تاريخ أوروبة الحديث استعنت بكتاب باللغة الانكليزية تأليف استاذ اميركي اسمه هانيز (Haynes). وقد عَنْوَنَ قسماً من أقسام كتابه «الحركات القومية». هذا الكتاب كان أول ما وقعت فيه على توضيح لمعنى القومية. اعتبر المؤلف الثورة الفرنسية ناحية من نواحي الشعور القومي / الوطني الذي طالب بالتبديل والتغيير. وتطور الأمر بحيث أصبحت الثورة الفرنسية وحروبها قضية قومية (فرنسية) لكنها آلت الى التسلطية.

ووقفت في هذا الكتاب عند فخته (Fichte) الفيلسوف الالماني، الذي اعتبره المؤلف فيلسوف القومية الالمانية. ثم تحدث عن توحيد المانية وتوحيد ايطالية. فما الذي تعلمته من هذا الكتاب عن القومية؟

تناول المؤلف تاريخ فرنسة الحديث؛ وتبيَّن لي أنّ فرنسة وحدة سياسية لكنها كانت قد أصبحت وحدة قومية قبل الثورة الفرنسية. ولست أنوي تتبع هذا التاريخ الآن، لكن الذي اتضح لي ان فرنسة كانت دولة قومية برقعتها وشعبها ولغتها وحضارتها. وان الثورة الفرنسية ضد الحكم الملكي المستبد الجائر كانت نتيجة لهذا الوضع الذي بلغته البلاد. وحروب الثورة الفرنسية، أو حروب نابليون، كانت اندفاعاً لهذه القومية الفرنسية التي أصبحت تسلطية. أما ماذا كانت نتيجة الحروب فأمر لم يكن يعنيني.

كان من الانتصارات الكبيرة التي تمّت للجيش الفرنسي على أيدي نابليون انتصاره الكاسح في معركة يينا (Jena) ضد جيش بروسي سنة ١٨٠٦. اعتبر نابليون نفسه أنه قضى على القوة البروسية العسكرية، وان بروسيا قد أصبحت خاضعة لفرنسة. وتناول الفيلسوف الالماني فخته (Fichte ١٧٦٢ ـ ١٨١٤) القضية فكتب

وحاضر عنها كثيراً. وخلاصة ما قاله للالمان - لا للبروسيين وحدهم - إن الشعب الالماني أمة لها أرضها ودولها واماراتها ولغتها وحضارتها العريقة. مجموع هذه العناصر هي التي تجعل الالمان أمة. وإذن فلا بد لالمانية من أن تستعيد حريتها (عن طريق نصر عسكري بروسي)؛ ثم لا بد لهذا الشعب من ان تكون له حياة واحدة في دولة واحدة.

من هنا بدأت أتلمّس معنى الأمة - الأمة السياسية الفرنسية القائمة، والأمة الثقافية (Kulturnation) الالمانية الموجودة عناصرها وانما تحتاج الى توحيد. ومن هنا بدأت أتحسس طريقي نحو فهم القومية المرتبطة بالأمة.

وأسرعت لأرى ماذا تم لالمانية. فوجدت انها توحّدت سنة ١٨٧١، أي بعد خمس وستين سنة من معركة يينا. لكن بلداً آخر أوروبياً توحد في السنة نفسها (١٨٧١) وهو ايطالية.

هذه الامم - الدول الثلاث أوروبية. وأنا أبحث عن معنى القومية العربية. إذن يتوجّب عليّ أن أترجم هذه القواعد والأسس التي مرت بي عربياً، كي أرى إلى أي حدّ تنطبق على جماعتي.

ولم تكن القضية سهلة. كان علي ان استزيد من القراءة ولكن في كتب أجنبية. وقلّبتُ نظري في دور الكتب العربية وأماكن بيع الكتب وتتبّعتُ يومها القوائم التي كانت تصدر عن دور النشر العربية أملاً في أن أجد شيئاً يشفي الغلة عن القومية العربية. لقد عرض لي، بين الفينة والفينة، شيء يصح أن يطلق عليه «بلّة ريق»، لكنها بلة ريق ضعيفة. وظل الأمر بالنسبة لي ضبابياً. نعم كنت أتحدث عن أمجاد العرب، وأنا أدرس تاريخ العرب، وكنت أطرب عندما أقرأ شعراً أو نثراً قديماً أو حديثاً تُستشم منه رائحة العرب وحبُّ العرب، لكنني كنت أطلب شيئاً أكثر من رائحة الحب؛ كنت أطمع في أن أحصل على معرفة واضحة. ولم تكن هذه متيّسرة في السوق، لأن البضاعة لم تكن قد تم صنعها بعد، ومن ثم فلا وجود لها في الحوانيت.

وكان عليّ أن أعيد النظر جدياً في قضية القومية - القومية من حيث أنها شيء مطلق عام. أقرأ عنها، وأقلب ما اقرأه.

والذي استطيع ان اقرره هنا، هو انني لما تركت عكا (١٩٣٥) لأذهب الى لندن للدراسة، كانت قد تكونت لديّ مجموعة من القناعات (هذا التعبير الذي كان رائجاً يومها) تتعلق بالقومية، وشبه قناعات مرتبطة بفهمي للقومية العربية. فقد صرفت آخر سنتين في عكا وأنا اقرأ وأمعن في القراءة حول هذا الموضوع، ولكن عن أوروبة ودول أوروبة. وهذه القناعات التي أشرت اليها لم أكتب عنها مقالات ولكنني تحدثت عنها للطلاب، وألقيت عنها أحاديث (هذه هي التي يصرّ الناس على تسميتها محاضرات) في أندية عكا وحيفا ويافا، وكتبت عنها رسائل الى اصدقائي. وكانت موضع مناقشة مع نفر من الشباب الوطني العامل في المجال السياسي. لكن يظل سبيلي الى فهم - ولو متواضع - للقومية هو القراءة.

يمكنني ان ألخص ما توصلت اليه في الأمور التالية:

١ - القومية (وهي ترجمة لكلمة Nationalism وليست الوطنية المقابلة لكلمة Patriotism) - هي شعور وواقع: شعور بمعنى ان المرء يحس أنه فرد من جماعة، وواقع من حيث انه يعيش هذا الشعور مع الآخرين.

٢ - العنصر الأول الضروري لوجود الأمة ومن ثم قيام فكرة القومية هو الناس، الشعب، الأفراد.

٣ - ووجود الأمة يتم في رقعة معيّنة من الأرض. إذ لا يمكن ان تقوم أمة في فراغ.

٤ - وأفراد الأمة - هؤلاء الناس - يتواصلون فيما بينهم بلغة ترتبط بحياتهم وتنمو معهم زمناً ومكاناً.

٥ - والأمة لا تصنع في وقت قصير. انها شيء ينمو مع الزمن. الأمة هي نتاج التاريخ (الزمن) وهي صانعة التاريخ (الانجازات).

وهذا التاريخ الذي يمر على الجماعة كي تصبح أمة هو الذي يعبر عن كيانها ويحمل الأفراد فيها على التماسك. كما ان روحه هي التي تدفع الجماعة / الأمة الى الامام. فاذا تعطّل التاريخ في أمة، تعطّلت حركتها، وقبعت في جحرها. وقد تتحجّر.

هذه باختصار الاراء التي كانت قد تكونت لدي. وقد تتبعت هذه الأشياء في تاريخ أربع من الدول الأوروبية هي بريطانية وفرنسة والمانية وايطالية.

صحيح انني تعرفت الى بعض العناصر، لكن كانت لا تزال الصورة المتعلقة بالقومية العربية رومانسية شعرية. وكان لا بد لي من بعض الوقت كي تتضح المعالم العربية.

لكن الذي أخذت أُعنى به كثيراً هو التاريخ العربي. والتاريخ العربي لم يبدأ في العصر الجاهلي ولا بدأ مع ظهور الاسلام. هذان كانا دورين زمنيين في هذا التاريخ. فالتاريخ العربي وانجازات العرب ومآتي العرب لا يمكن ان تنفصل عن الانجازات والمآتي التي تمت في رقعة العالم العربي منذ ان بدأ الانسان يسير على طريق الحضارة.

وقد أعانني على هذا الغوص هو انني كنت معنياً أصلاً بالتاريخ القديم، القديم؛ لذلك كنت أرجع الى الجذور. وهذا أمر لذيذ شيّق، لكن متابعته لا تخلو من الجهد. والجهد لا يتعبني.

وكان من الطبيعي ان تدخل محاولة لفهم فلسفة التاريخ في هذا الاطار. لكنني لم أسمح لنفسي ان أتشعب كثيراً. ومع ذلك فقد كنت قد تعلّمت الكثير من التاريخ قبل ان أخضع لنظام خاص في فلسفة التاريخ.

أُنبئتُ صبيحة يوم الجمعة ٢٧ ايلول / سبتمبر ١٩٣٥ انه يترتب عليّ أن أذهب مساء ذلك اليوم من عكا الى القدس، وأن اكون في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي في ادارة المعارف المركزيّة كي أتمّ جميع المعاملات اللازمة بحيث اكون جاهزاً صباح الأحد للسفر الى لندن. لقد منحت بعثة دراسية لجامعة لندن.

عند الساعة الثامنة من صباح يوم السبت ٢٨ ايلول / سبتمبر استقبلني مساعد مدير المعارف، واعطاني التعليمات اللازمة. وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً كان جواز سفري عليه التأشيرة لدخول بريطانية وتذكرة الباخرة من بورسعيد الى لندن في جيبي، ومبلغ سلفة في جزداني. وذهبت الى رام الله لوداع الصديقين الكريمين الدكتور خليل طوطح وعبدالحميد ياسين. وفي المساء جلست مع أخي أوصيه القيام ببعض الأمور التي كانت مترتّبة عليّ، إذ انه بدا وكانني هربتُ من عكا. فمن كان يمكنه ان يصدق ان نقولا زيادة يعطى هذه المنحة الجامعية، ويؤمَرُ بالسفر خلال ساعات!

في المساء المتأخر دخل علينا الفندق اديب عتقي، الذي جاء من عكا ليودعني. في الساعة السابعة من صباح يوم الأحد كنا نحن الثلاثة في القطار الذاهب الى اللد؛ هناك يعود أخي وأديب الى عكا واستقلّ أنا قطار القنطرة الى بورسعيد. وقبل أن يتحرك قطاري تناول أديب قبعته ووضعها على رأسي - هديّة السفر.

امامي نهار طويل وجزء من ليل قبل أن أصل بورسعيد. والطريق الى القنطرة اعرفها من قبل، لذلك لم يكن فيها ما يدعو الى التأمّل الخاصّ. ولكن أنا كُلي كنت كتلة من التأملات. أولا هل صحيح هذا الذي أنا فيه، أم لعلّي في حلم؟ هل صحيح ان هذا الذي سعيت له مدة طويلة قد تحقق، وأنني أنا الآن لست مسافراً لقضاء عطلة في مصر. وما الذي ينتظرني في ديار الغربة. وهي ديار غربة، ومدة هذه الغربة ثلاث سنوات، وقد دامت أربعاً في واقع الأمر.

القطار يسير، وتسير معه افكاري، بل كنت أحس أحياناً انها استبطأت القطار فطارت. ثم أحسُّ بها، أو

ببعضها، تعود القهقرى الى عكا الى ما بقي علي مما لم اخبر به أخي. وهذه كنت أصفيها ثم أدون ما نقص في كراس صغير كي أعنى بها في أول فرصة. أما أمور المستقبل ـ الصور التي لا أدري لها شكلاً، الآمال المرتبطة بهذه الرحلة الطويلة، التجارب التي سأتعرّض لها ـ هذه لا مكان لها في كراستي. فانا كنت أرتّبُ الماضي بعض الشيء، لكنني لم أكن أخطط للمستقبل.

وكيف يمكنني التخطيط للمستقبل؟ كان المألوف في ادارة المعارف ان تبلغ الطلاب الذين سيمنحون مثل هذه البعثات الخبر قبل السفر بما لا يقل عن الأشهر الستة. وعندها يمكن التخطيط والقاء النظرة المستقبلية ولو على نطاق ضيق. لكن أن تخبر عن مثل هذا التطور الكبير في حياتك في ساعات، وتحمل على جميع أجنحة السرعة لتكون جاهزاً خلال أربع ساعات، فأمر آخر.

هذه الافكار ظلت تدور في رأسي، وتتقلب كأنها أصيبت بالعدوى مني فلا تستطيع هدوءاً بله النوم. وقد اجهدتني في الطريق فغفوت في مقعدي بالقطار، وحلمت أنني في عكا، وان كل هذا الذي أحسّ به: أنني في قطار وأنني مسافر الى لندن، إنما هو حلم. وأفقت مذعوراً.

وصلت الفندق في بورسعيد حول الساعة الحادية عشرة مساء. وعرفت من المسؤول عن الموعد الذي يجب ان اغادر فيه الفندق بعد ظهر الغد ـ يوم الاثنين ـ الى الباخرة. وسررت لأنني قررت أن أقضي الصباح في زيارة بورسعيد أولاً وان ابتاع حقيبة.

لما نزلت من العربة التي اقلتني من الفندق الى الميناء في اليوم التالي، حملت الحقيبتين بيدي، ولست أحسب انه كان فيهما أكثر من عشرة كيلوغرامات. وهجم عليّ العتالون (الشيّالون)، وفي محاولتهم نتش الحقيبتين من يدي كاد أحدهم ان يمزق سترتي. وأخيراً نجحت في حمل ما أريد بنفسي، حتى وصلت الى المكان الذي تخلصت فيه منهما بأن سلمتهما الى رجال السفينة، ودخلت السفينة وأُرشدت الى مكاني فيها.

كان أمامي الكثير من الوقت لاكتشاف سفينتنا. فقد كانت صغيرة، حمولتها ١٣,٠٠٠ طن فقط. كان اسمها (بالرانَلد Balranald) وكانت في سفرتها الأخيرة، إذ أنها بعد أن توصل ركابها الى لندن سترسل الى حيث تفك وتباع حديداً وخشباً وما الى ذلك. كانت قد بدأت رحلتها من استراليا، ومعنى هذا انه كان عليها ركاب قد مرت عليهم خمسة أسابيع وهم على ظهرها.

السفر في البحر متعة لمن عرفه ولمن عنده استعداد على تحمل الوقت الذي يصرف فيه. من قبل لم يكن أمامنا سوى البحر وسيلة للاسفار البعيدة. اليوم يسافر الناس بالطائرة. أما أنا فانني استمتع بسفر البحر الى حد انني مستعد للانتقال بحراً من مكان الى آخر عندما يكون لديّ متسع من الوقت. والسفينة يمكنها أن تزود الراكب بأمور كثيرة «يُقَطِّع» فيها وقته. هذه السفينة كانت صغيرة ومع ذلك فقد كانت فيها صالة سينما وغرفة جلوس ومكتبة وغرفة مطالعة ومقصف، وكان المرء يستطيع ان يمارس على السطح الأعلى أنواعاً من الرياضة متنوعة. لكن لما سافرنا على كوين اليزابث عبر الاطلسي سنة ١٩٥٧ كنّا، في الواقع، في مدينة عائمة. وزنها كان ثلاثة وثمانين الف طن، فيها ثلاث درجات للركاب. ركاب الدرجة الثانية، حيث كنا، كان لهم ثلاث قاعات كبرى وثلاث صالات للسينما تعرض أفلاماً مختلفة. وعلى ذلك قس.

المهم، للذين يضجرون أو يزهقون، هو أن يصاحبوا الركّاب. والمألوف في سفر البحر أن تبدأ الحلقات بالتكوّن في الأيام الثلاثة الأولى. ومن الطريف ملاحظته هو ان هذه الحلقات تصبح مغلقة فيما بعد. عدد افراد الحلقة الواحدة يتوقف على الهوايات. فلاعبو البردج يتكوّنون من «أربعات»، ولاعبو البوكر يبلغ عدد أفراد

الحلقة الواحدة ستة الى ثمانية. وهناك حلقات لاعبي الشطرنج. وهواة الموسيقى يتحلق حولهم، عندما يلعبون البيانو أو أيّ اداة موسيقية أخرى متيسّرة، فئات تختلف في أعدادها باختلاف مقدرة اللاعب وذوق المستمعين، ورغبتهم في المشاركة غنائياً أحياناً.

والسفينة تتيح لمن يحب القراءة الوقت الكثير لذلك، كما ان الذي يريد أن يكتب يجد حاجته من الورق والاقلام الحبرية. وما أكثر الذين يستفيدون من ذلك فيكتبون رسائل الى الأهل والأصدقاء، لذلك كثيراً ما يرى الواحد الركاب يحملون الرسائل لايداعها البريد عندما تقف الباخرة في مكان ما.

وما الذي فعلته أنا في الأيام التي قضيتها على ظهر الباخرة، وكانت عشرة، لأنني نزلت في بليموث ولم اتم الرحلة الى لندن. أولاً أتممت شريط الاحلام الذي بدأت في القطار. ثانياً صرفت بعض الوقت، بين بورسعيد ومالطة، المحطة الأولى، والوحيدة، التي وقفنا فيها، في ترتيب أمور كانت عالقة في عكا. وكتبت الرسائل اللازمة، وكانت عديدة، وأودعتها البريد في مالطة. ثالثاً استمتعت بهذا الأفق الواسع الجميل الذي كان البحر المتوسط يزوّدني به عندما تلتقي مياهه الزرقاء بقبة السماء. أما بعد أن أجزنا جبل طارق ودخلنا خليج بسكاي واتّجهنا شمالاً نحو انكلترا، تغيّر الجوّ. شحب وأسود وزمجر واكفهر، حتى في وسط النهار. لكنه ظل جواً واسعاً فسيحاً، تتنقل فيه فكراً وأمالاً وأحلاماً من بقعة الى بقعة دون ان تتحرك من مكانك.

كان الوقت عندي كثيراً. فانا لا ألعب أياً من أصناف الورق، لكنني لا أضجر من الوقت ولا «أزهق» فيه. الكتاب صديقي إذا مللت الجو، وأنواع الرياضة كثيرة وفيها متعة وصحة. وكنت أراقب الناس، لكنني لم أمت هما، لانني لم اراقبهم حسداً، ولا تطاولت على خصوصياتهم. راقبتهم يملون، فيذهبون الى المقصف. ويملون من المقصف فيصعدون الى السطح للتدخين. فيهم كثيرون كانوا يحارون إذا وجدوا انفسهم جالسين لبضع ساعات، فماذا يعملون وقد مرّت عليهم أسابيع على هذه السفينة وكل يوم فيه ساعات وساعات يجب ان تُقَطَّع!

كان على ظهر المركب عربيّان آخران: ركبا السفينة من بورسعيد، وهما مصريّان كان اسم الواحد «ماهر» وكان اسم الآخر نجيب. التقيا لأول مرة على الرصيف عند النزول الى السفينة. كان نجيب يدرس الطبّ في اسكتلاندا وكان عائداً اليها بعد عطلة صيف قضاها في مصر. أما ماهر فكان يسافر لأول مرة وكان يقصد درس الصيدلة في بلاد الانكليز. كانت معرفتهما باللغة الانكليزية ضعيفة جداً. لم تكن لغتي الانكليزية أفضل من حيث المفردات لكنها كانت أنجع في توصيل أفكاري. سألني ماهر يوماً، وكنا جارين في الكابين، لماذا يترك لك خادم الصباح كل يوم فنجان شاي وبرتقالة، فيما يسأل بقية الركاب فيما إذا كانوا يريدون فنجان الشاي أو البرتقالة! قلت له بكل بساطة: لما عرفت من هو الشخص الذي سيعتني بي في سفرتي أعطيته شِلنَين أي عشرة قروش مصرية؛ لذلك يعتني بي ويلمّع لي حذائي يومياً، وأحسب أنه ينتظر شلنين في نهاية الرحلة أيضاً. هذه الدنيا يا ماهر، لا تنتظر شيئاً بدون مقابل: أكان ذلك دعاءً أم ابتسامة أم شلنين!

وصلت السفينة بليموث، ونقلنا مع امتعتنا الى البر. كان أول ما لفت نظري هذا الخط الأخضر الذي هو الشاطىء يلاصق الفسحة الزرقاء التي هي البحر. ولما وصلنا الى البر، وجدت العتالين (الشيّالين) مصطفين؛ وعندما يأخذ أحدهم امتعة أحد الركاب، ينتقل الصف خطوة، وهكذا حتى نزل الجميع. لا صوت ولا هرج ولا مرج ولا محاولة تمزيق السترة.

وسألني الشيّال الذي حمل شَنْتَتَيَّ الخفيفَتين عن وجهتي، ولما أجبته لندن قال لي، وقد وصلنا مقهى مرتباً في محطة سكة الحديد وهي على البور: «تفضّل اجلس هنا. أعطني ثمن التذكرة، وأنا ابتاعها لك، وسأعود بعد

ساعة ونصف الساعة لأوصلك الى القطار».

صرفت لحظة لم أعرف فيها كيف أتصرّف. ثم ناولته النقود، وعاد بعد ساعة ونصف الساعة، وسلّمني التذكرة وأرشدني الى مكاني في القطار.

لما وصل القطار محطّة بادنغتون في ساعة مبكرة من المساء، كان المطر ينهمر. كان عيسى نخله الذي أخبر بسفري من القدس، والذي كتب إليّ رسالة تسلمتها في بليموث ينبئني فيها أنه سيكون في انتظاري على المحطة، ينتظرني وكان العتالون مصطفّين أيضاً.

نزلت وسلمنا واحدنا على الآخر وتقدمنا لناخذ تكسي فقيل لنا ان الدور للصف التالي من التكسيات. العتالون بالدور والتكسيات بالدور. وذهبنا الى ٩٥ كلوسستر تراس Gloucester Terrace!

عندها ـ وفي اليوم الأول لي في انكلترا ـ أدركت الفرق، أي فرق!

هذه رسالة بعثت بها الى عيسى عطاالله من الباخرة

Balranald
2/10/1935

عزيزي عيسى،

ما أحسب انك كنت تنتظر هذه الرسالة الآن؛ ذلك لأنك كنت تحسب، فيما اعتقد، أنني ساكتب اليك من مرسيليا. ولكن سفينتنا لن تمر بمرسيليا، لأن طريقها بورسعيد مالطة (وقوف بضع ساعات) ثم رأساً الى بليموث. وقد مر عليها الى الآن ٣٢ يوماً من استراليا الى هنا؟ واين هنا هذه؟ بين خطي عرض ٣٣ و٣٤ْ شمالاً، أما خط الطول فلست أعرفه تماماً، وقد يعرف عند الظهر، إذ يعلن للركاب، ولكن عند ذلك يكون هذا الكتاب في صندوق البريد.

باخرتنا صغيرة (١٣,٠٠٠) طن فقط، ولكنها مريحة فعلاً. والقوم (الرئيس والخدم) طيبون. وكثير من حاجات الأكل محمول من استراليا مثل اللحوم والبرتقال.

ليس في سفر البحر كثير يتحدث عنه، لأن المشاهد هي هي؛ بحر أزرق، يضطرب قليلاً، كما حدث أمس الأول، فيضطرب معه بعض الركاب، ويأوون الى مخادعهم، يرتمون، ويتقيأون وهكذا، ويصحو ويهدأ، فيهدأون معه، وتعود الى وجوههم النضارة، والى قنواتهم الهلالية الاتزان، والى معدهم مقدرتها على حفظ الطعام.

على سفينتنا بعض هنود لم اتعد التحية معهم، وانكليز، بعضهم لا يحيون بعد. ولكن هناك شابان مصريان؛ نجلس الى بعضنا كثيراً، وقلما نرى متفرقين، ونحن على الطاولة (الأكل معاً)، وعند النوم أنام مع أحدهم في مخدع واحد.

غداً صباحاً نكون في مالطة، حول الساعة السادسة، إذا كان الطقس حسناً (هكذا يقول الاعلان الرسمي). وسنرى إذا كان وقتنا يسمح لنا بالتجول في هذه المدينة الجزيرة، أو الجزيرة المدينة. وسنرى عن بعد تحصينها العسكري.

ساكتب اليك بعد ذلك، وساودع الرسالة البريد في بليموث أو لندن.

لقيت في القنطرة السيد بدران، واخوه موجود في لندن، فاعطاني عنوان بيت أخيه، ولذلك فساقصده.

الآن ساراجع بعض الخرائط التي عندي، منك ومن عبدالحميد، وسيساعدني أحد المصريين لانه يعرف شيئاً

عن لندن، أما هو فطالب في ادنبره، يتعلم الطب.
إليك والى اسرتك تحياتي الخالصة.

المخلص نقولا

القسم الثالث

في أوروبا ١٩٣٥-١٩٣٩ (١)

الفصل الثاني عشر

في غضون فترة لم تتجاوز الاسبوعين كنت قد انتقلت من عكا الى لندن. من شقة في مبنى لآل الجراح في عكا الجديدة أي خارج السور، الى ٩٥ غلوستر تراس (95 Gloucester Terrace) في حي بادنغتون بلندن.

وقد تبدّل كل شيء بالنسبة لي.

وكان أول ما لاحظته من التبدل قضية الدور (الصف، أو الطابور). العتالون (الشيالون) في بليموث والتكسيات في محطة سكة الحديد بلندن، بالدور؛ ورأيت هذا بعد ذلك في كل شيء. ينتظر الناس بالدور للشراء ولدفع الفواتير وللحصول على مائدة في مطعم. وقد تذكرت في أيامي الأولى بلندن مقالاً قديماً لشبلي الشميل كتبه سنة ١٩٠٧ (فيما اظن) يروي فيه انه لما كان في باريس (وكان قد عاد منها قبل مدة قصيرة) كان يقف في الصف ينتظر دوره ليبتاع طابع البريد. فلما عاد الى مصر، وذهب الى مكتب البريد في الاسكندرية، رأى الناس يتدافعون ويتدافشون للحصول على الطابع، فانزعج لذلك، وعاب ذلك على العرب، قومه. لست أذكر فيما إذا كان شبلي الشميل قد زهق وعدل عن ارسال الخطاب، أو انه دُفِشَ الى حيث تُباع الطوابع كما يحدث لنا حتى في هذه الايام.

وتبدل علي الانتقال. فانا في كل مكان زرته أو عشت فيه، كان انتقالي دوماً على سطح الأرض. لكن في لندن أخذنا ننتقل في قطار تحت الأرض. أذكر ان عارف البديري بعد زيارة له للندن (١٩٢٨) عاد الى عكا وجرب ان يصف لنا قطار تحت الأرض، لكن الذي أذكره ان ما قاله بدا لي، لما ركبت ذلك القطار في لندن، شيئاً بعيداً عن الواقع. فهل ان وصف شيء من هذا النوع صعب على من يحاول ذلك، أو أن الكلمات لا تواتي الوصاف أو ان السامع لا يستطيع تصوّر شيء بعيد الى هذا الحد عن تجربته، فلا يمكنه ان يدركه؟

وقد كانت هذه التجربة مدهشة حقاً. انما الذي حدث انه في اليوم الأول رافقني عيسى نخلة الى الكلية. وكان عيسى قد وصل الى لندن قبل ذلك ببعض الوقت، ومن ثم فقد أصبح خبيراً. والخبير لا يفسر للمبتدىء. فقد كان عيسى يقودني. ننزل، نبتاع التذكرة، ندخل القطار، نخرج منه نصعد الى السطح. في اليوم التالي ذهبت وحدي وقرأت التعليمات المتعلقة بالارصفة وارقامها واتجاهاتها والخطوط المختلفة التي تمر بالمحطة. وعندها سرت على هدى.

وقد عرفت فلسطين باصات تنقل الركاب من مكان الى آخر. لكن حتى باصات لندن كانت تختلف عن تلك التي عرفتها. فهي ذات طابقين. واكتشفت حالاً ان الركوب في الطابق الأعلى فيه متعة خاصة للاكتشاف والمراقبة.

وتبدل طعام الفطور الذي كنت أعطاه في البانسيون، (وهو نفسه الذي كان يُقدم لي فيما بعد لما سكنت عند أسرة أو في بانسيون أصغر). ففي عكا والناصرة والقدس ووو كنا نجد على الطولة لبنة أو جبنة ومع ذلك الزيتون أو الزعتر (الصعتر) والزيت. وقد يكون هناك مربّى أو دبس (هذا بعد الحرب العالمية الأولى). لكن في البانسيون الذي أقمت فيه يومها كان الطبق الأول اما فاكهة (وغالباً ما تكون موزة) أو نوعاً من الحبوب المطبوخة

(بوردج) مع الحليب والسكر. ثم يلي ذلك البيض مع الباكون أو مع السلسيسو أو يكون الطبق الثاني مكوناً من كبدة وسلسيسو. ولكن قد يكون هذا الطبق قطعة من سمك الكد المسلوق مع الصلصة (الصوص) البيضاء أو من سمك الهرنغ المقلو. وبعد هذا كله فهناك المربى أو المرملاد مع الزبدة. ويرافق ذلك كله الشاي (القهوة لم تكن تقدم مع طعام الفطور في بريطانية قط قبل الحرب العالمية الثانية).

وثمة فرق كبير، كما يبدو من الذي ذكرت، بين فطور عكا وفطور لندن، لا من حيث الكمية والتنوع فحسب، ولكن من حيث اعتبار السمك والكبدة أشياء تُقدم طعاماً صباحياً، فيما لا يمكن ان تقدم الجبنة أبداً. وقد لقي أصدقائي عنتاً كبيراً في مواجهة هذه المشكلة. فالبعض لم يتعود عليها قط، وظل يطالب بالبيض بدل السمك. واعتاد البعض ذلك على شيء من المضض؛ اما انا فلم أسمح لشيء من هذا ان يزعجني. وقد أخذت نفسي بالاعتياد على ذلك، دون مشقة، وأنا على ظهر السفينة. فهي بريطانية في كل شيء، واذن فهي، في طعامها، جزء من المطبخ الانكليزي.

وتبدل جو المكان الاجتماعي. صحيح انني كنت قد تعرفت الى القاهرة في زيارتين؛ وليس من شك في ان زيارة القاهرة وضعت أمامي معنى «المدينة»؛ لكن حتى القاهرة بدت صغيرة بالنسبة للندن. الناس «تنغل» بهم الشوارع، خاصة في ساعات الزحمة (Rush hours)، أي أوقات الذهاب الى الأعمال والعودة منها. الناس كثيرون وفي كل مكان وفي كل وقت.

ولم تكن كثرة خلق الله في لندن هي الأمر الوحيد الذي لفتني فحسب، بل كانت هناك المخازن الكبرى. صحيح انني كنت قد عرفت شيكوريل وعمر أفندي في القاهرة، لكن أين هذان من سلفردج أو هارودز. وقد كتبت الى شريف القبج، أحد الأصدقاء الاعزاء من أيام دار المعلمين، فقلت له انك تدخل سلفردج يا شريف (وإذا كنت تحمل من النقود ما يكفيك) وتخرج منه وقد اثثت بيتك ووضعت فيه خضاراً ولحوماً ومآكل جاهزة تكفيك لمدة، ولا ينقصك سوى العروس. هذه لا يمكن شراؤها عند سلفردج. أذكر انني في الليلة التالية كنت اتحدث مع المستر جورج، وهو أحد نزلاء البانسيون الدائمين، فذكرت له خلاصة ما قلته لشريف عن سلفردج، فعلّق جورج على ذلك بقوله: «اذا كان حظك جيداً، فقد تحصل هناك حتى على العروس!».

والفترينات في الشوارع كانت تجذبني، خاصة في المساء، حين يقل الناس. ولم تكن قد عرفت لندن يومها الابنية الاميركية التخطيط، أي ناطحات السحاب، بل كان الامتداد أو الاتساع الافقي هو الغالب على أبنيتها.

وأدركت، بعد وصولي بقليل، وبسبب من اهتمامي بملاحظة ما حولي ومن حولي، انني أعيش في اجواء متنوعة، وأنا جزء من كل منها، لكنني استطيع ان أكون، في الوقت ذاته، مستقلاً تمام الاستقلال؛ لا يفرض أحد عليك وجوده، ولا ينتظر منك ان تفرض وجودك عليه، ولا حتى ان تتكرم عليه بذلك. في البانسيون كنا ندخل غرفة الطعام (للفطور أو للعشاء) فكل ما ينتظر منك ان تطرح التحية، وتتلقى الرد. وطرح التحية والرد عليها أمران يتمان في شيء من الخجل والحياء. وكنا نجلس بعد العشاء في صالة البانسيون. كنت أشعر أنني جزء من مجموعة، لكن لم يكن أحد يتوقع مني أن أتخلى عن أي جزء من وقتي أو من تفكيري اكراماً له.

كنا نلعب سكربل (Scrabble). لكن اللعيبة الدائمين معروفون فيما بينهم. والذي يريد ان ينضم أو يكون فرقة أخرى فليس ثمة ما يمنعه. لكنه هو الذي يتقدم بالطلب مَجازاً طبعاً. وقد تقدمت بالطلب لانني أردت ان أتعلم اللعبة. اعجبني فيها انها سبيل لتعلم كلمات جديدة أو التاكد من تهجئة كلمات تعرفها. وكنت أنا بحاجة الى الأمرين. ولا ازال أذكر الى اليوم (بعد ٥٤ سنة - فانا اكتب في صيف ١٩٨٩) كلمات تعلمتها في تلك السهرات.

وقد عشت في وقت لاحق في بانسيون كنا فيه خمسة نزلاء فقط. واقمنا معاً سنة الا قليلاً، وكان الاتصال بيننا تحية الصباح - عند تناول طعام الفطور، وتحية أخرى، ويمكن احاديث مقتضية عندما كنا نجتمع في المساء

في غرفة الجلوس، وكان ذلك نادراً (هذا البانسيون لم يكن يقدم فيه طعام للعشاء).

وهكذا حيثما كنتَ - في الجامعة، في غرفة الاتحاد أو الجمعيات - في البانسيون، في الشارع، في كل مكان انت جزء من عالم كبير نسبياً، لكن العالم الأصغر يظل هو الأساس.

ومما عرفته بعد وصولي ببضعة أسابيع أمر يتعلق بالحرية الفردية. فقد رتب أصحاب لنا الذهاب الى حفلة. ومع انني كنت استعد لتقديم امتحان الدخول الى الجامعة (ولو انني كنت قد سجلت طالباً فيها) فقد شعرت انني بحاجة الى راحة. وكانت القضية بالنسبة لي اصطحاب فتاة. وكانت ابنة صاحبي البنسيون، جين، تستحق أن تصطحب. لذلك تحينت الفرصة لأطلب من أمها إذناً لها بمرافقتي. فنظرت مسز «بوش» (وهذا كان اسمها) اليّ مستغربة وقالت اسألها هي لماذا تسالني أنا. وفعلت ذلك، وقبلت دعوتي.

لكن الحرية الأوسع مدى والأعمق جذوراً، أدركتها في لندن بعد ذلك بمدة قصيرة. كانت البلاد مقبلة على الانتخابات العامة (البرلمانية) ولذلك فقد كانت الاجتماعات الانتخابية تعقد في كل مكان. في القاعات الخاصة وفي الأندية الحزبية؛ لكن الذي لفت نظري بشكل خاص هو الاجتماعات التي تعقد عند نواصي الشوارع. كانت المنطقة التي يقع فيها البانسيون يغلب عليها نفوذ حزب المحافظين (كان الحزبان الآخران هما حزب الأحرار وحزب العمال). لذلك كانت الاجتماعات تغلب عليها وجهة نظر المحافظين. وكان يقف مرشح الحزب في المنطقة، أو ممثل للحزب، يوضح دور الحزب (أيا كان حزبه)، ويتدخل أفراد من الأحزاب الأخرى للشغب الفكري. وقد يُرسل هؤلاء عمداً للقيام بمثل ذلك. والاسئلة تتوالى على المحدث، والناس بين مستفسر من اتباع الحزب أو معكر لصفو المناقشة أو متعمد الاشارة الى تقصير الحزب. حضرت أكثر من اجتماع على ناصية الشارع، وحضرت اجتماعاً في قاعة للحزب. ولم يمنع أحد من الدخول - الحزبيون وخصومهم رحب بهم.

ثم ذهبنا الى هايد بارك (Hyde Park) وهايد بارك حديقة واسعة تقع في غرب لندن. هي واحدة من عشرات الحدائق المنتشرة في المدينة. وبعض هذه الحدائق صغير. لكن هذه رئات لندن، كما يسميها ابناء العاصمة البريطانية. وفي زاوية من هايد بارك، تقع في شمالها الشرقي على مقربة من ماربل آرتش (Marble Arch)، كانت تقوم سوق عكاظ سياسية، إذا جاز التعبير. كل مؤسسة - ما دامت مسجّلة رسمياً - كان بامكانها أن تستأجر منصة خطابية، صغيرة أو كبيرة، وتستعملها للدعوة للفكرة التي تحتضنها. الافارقة كانوا يهاجمون الاستعمار البريطاني؛ الصهيونيون كانوا يدعون الى جعل فلسطين يهودية؛ ونحن استأجرنا فيما بعد منصة (باسم جمعية الطلاب العرب في بريطانية) عرضنا فيها قضية فلسطين من وجهة النظر العربية. لكن لم تكن جميع المنصات سياسية النزعة: كان هناك من يدعو الى التمسك بأهداب الدين كما كان ثمة من يدعو الى الالحاد. حرية الكلام كانت مضمونة. ويشترط في المتكلمين مراعاة أمرين الأول عدم اثارة الشغب، أو التسبب في اثارته؛ والثاني عدم التعرض للأسرة المالكة. هذه كانت تمثل الشعب البريطاني. اما الحكومة فيمكن أن تُمْسَح بها الأرض. هايد بارك كانت الصوت المعبر عن الشكاوي أكثر مما كانت صوتاً للمديح. وقد أدركت، بعد ان زرت هايد بارك وتحدثت فيها وجادلت هناك، معنى ما قاله أحد الكتاب السياسيين عن بريطانية يومها وهو: ما دام في بريطانية هايد بارك ومجلس اللوردات، فان الحياة السياسية فيها تظل تتبع خطاً معقولاً في المناقشات والاصلاحات. لعل في القول بعض المبالغة، لكن هايد بارك كانت يومها «مؤسسة» ملأتني سروراً وزودتني بامور كثيرة افكر بها.

ومع الوقت - وقد دامت اقامتي أربع سنوات - تعودت على أمور كثيرة لم تعد تبدو لي جديدة. لكن المهم هي المرات الأولى. كنت يومها طالباً في بعثة ادارة المعارف (حكومة فلسطين). فكان علي أن أذهب الى وكلاء التاج (Crown Agents) لقبض المبلغ المترتب لي. وقد ذهبت المرة الأولى. فلم أجد في القاعة أحداً - لا موظفاً، ولا طاولة

تشير الى احتمال مجيء موظف. وكان هناك باب عادي الى جانبه زر جرس وعليه كلمة «دق». دققت الجرس فخرج موظف سألني عن شأني. اخبرته وناولته الورقة (ليس الأوراق) التي فيها اشارة الى اسمي وانني طالب. رجاني بأن أنتظر قليلاً، وعاد بعد بضع دقائق. وهو يحمل ٧٥ جنيهاً استرلينياً وورقة (هي الايصال) التي طلب مني التوقيع عليها. (الخمسة والسبعون جنيهاً استرلينياً هي ربع المقرر لي سنوياً وهو ثلاثمئة جنيه استرليني). ثم قال لي في بلادنا لا نحمل مبالغ ضخمة من المال في جيوبنا ولا نبقيها في البيت. يجدر بك ان تفتح حساباً في بنك وتضع نقودك هناك. هذا الأمر لم يكن غريباً عليّ. فانا منذ ان فتح بنك بركليز فرعاً له في عكا (١٩٣٢)، ذهبت الى مديره السيد راهبه الذي كان يتمتع بكرش وجاهة لائق بمدير بنك، وطلبت منه ان يفتح لي حساباً فيه. لكنني سألت الموظف (في لندن) رأيه عن البنك الذي يقترحه، قال: «في هذه البلاد جميع البنوك متساوية في المسؤولية والخدمة. اختر بنكاً قريباً من منزلك أو كليتك». وهكذا فعلت. اخترت بنكاً قريباً من الكلية؛ فالمنزل سيتغير كثيراً.

كان لكارل نصار أخت (ماري) تقيم في انكلترا. فكان من الطبيعي ان ازورها مع زوجها. فرانك أوستن. وبعد الاتفاق على الموعد، اعددت شنطة صغيرة «لويك إند». وقلت لنفسي العائلة تعيش في قرية صغيرة، لذلك فمن الخير ان أحمل معي كتاباً إذ لن يكون هناك لا صحف ولا من يحزنون. وصلت بكردج (Puckeridge) وقد أظلمت الدنيا، نزلت من الباص وقصدت البيت. تعارفنا وتحدثنا.

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي سمعت حركة في البيت، فنزلت الى المطبخ فاذا بماري تعد فنجان الشاي المبكر. وهي عادة انكليزية يحافظ عليها محافظة تامة. ثم تناولت الجريدة وقالت نقولا هذه جريدة اليوم اقرأها قبل ان ينهض فرانك، انه لا يحب أن يؤجل قراءتها.

بكردج قرية تتكون من شارع واحد هو جزء من الطريق الرئيسي بين لندن وكمبردج؛ ومن الشارع تتفرع شوارع صغيرة الى البيوت. عدد سكان القرية كان يومها نحو ثلاثمئة نسمة. ولما خرجت أتجول فيها، وجدت أن القرية فيها مكتب للبريد (ومعناه خدمة التلغراف والحوالات المالية) ونحو خمسة اكشاك للتلفون، ومكتبة لتأجير الكتب. تصلها صحف الصباح في الساعة السادسة. كان فيها دار سينما ومقهيان ومطعم يعلوه فندق فيه ثلاث غرف للنوم. هذا أيضاً شيء جديد بالنسبة لي. هذه القرية تتميز على عكا والناصرة وجنين، لا على قرى في بلدي فقط.

وما دمت قد اشرت الى الحوالات المالية البريدية، فالترتيب المتبع يومها هو أن القرية التي ليس فيها مكتب للبريد كان موزع البريد يأتيها من أقرب مركز لذلك حاملاً معه لا الرسائل فحسب، بل قيمة الحوالات البريدية (ضمن حدود معينة) فيسلم المبلغ لصاحبه ويأخذ توقيعه. كما ان الرزم البريدية كانت يومها تحمل الى العنوان، وإذا كانت الرزمة آتية من الخارج ومن المتوجب دفع رسم جمركي عليها فان موزع البريد يتقاضى الرسم ويعطي الايصال، إذ أنها تكون قد فتحت في مكتب الرزم البريدية الرئيسي وحسب المطلوب عليها. وكان على الشخص المعنونة رزمة باسمه الحق في أن يرفض تسلمها، فيعيدها الموزع الى مكتب البريد.

لست ادري هل اعتبرت هذه الأمور «صدمات» يومها؟ أحسب انه لو كان عندي من الوقت ما يكفي لتخطيط انتقالي الى لندن وتحضير الثياب اللازمة والقراءة عن المكان الذي أقصده، لعلي كنت اقف من الأمور موقفاً مختلفاً. لكني لم أُعْطَ الوقت الكافي لذلك كله. والواقع اذا كان ثمة صدمة أصلاً فقد جاءت لما قيل لي احمل شنتطتك واذهب الى لندن. وفي الطريق، عندما كان يتاح لي ان أفكر في هذا الذي كنت أنا مقبلاً عليه، كنت أنتظر فرقاً وفرقاً كبيراً. لكن انتظار الفرق شيء، وعيش هذا الفرق شيء آخر. والذي أذكره عن الأسابيع الأولى في لندن انني لم أكن «كالبدوي الداخل على مدينة»، كما يقال في مثل هذه الحالة. لا، كنت انظر حولي، اسأل من

يعرف، واتفحص دليل لندن للباصات وقطار تحت الأرض، واتعلم واتصرف. ولا شك انني كنت أخطىء، وقد أخطىء حتى هذه الأيام اذا أنا ذهبت الى مكان جديد (أو حتى في لندن نفسها). لكن المهم في مثل هذه الحالة ان لا يتكرر الخطأ بسبب الاصرار على ارتكابه.

وكان عليّ أن ابتاع بعض الثياب: بدلة وحذاء وجوارب صوف وقفازاً. وهنا فوجئت بشيء يختلف عما الفت في أكثر الأماكن التي عرفتها. لم تكن ثمة مساومة. فالسعر هو السعر، وكل ما تحتاجه هو ان تختار ما تريد أو تطلب ذلك اذا لم يكن معروضاً، وتجمع حاجاتك، ويجمع صاحب المحل أو البائع فيه أرقامه، وتتبادلان الحاجة بالنقود.

أنا واثق من ان الكثيرين من القراء سيزورون عند قراءة هذه الملاحظات العادية. فقد أصبحت لندن وباريس ونيويورك وغيرها «مربط» خيول العرب، وأصبح الذين يربطون خيولهم أو حتى حميرهم هناك الافاً؛ هذا صحيح. لكنني أنا لا أكتب دليلاً لهؤلاء الذين يربطون خيولهم هناك، فهؤلاء يذهبون، لأن معهم من النقود الكثير، الى المخازن الكبيرة ويبتاعون منها ما يشاؤون. إذ المهم في هذا كله ان يقول أحدهم، أو ان تقول إحداهن، هذا من عند هارودز مثلاً.

انا لا أكتب الى العالمين الخبيرين، ولا أكتب دليلاً لأحد، انا أدون ما أذكره وما انطبع في نفسي يومها اذ انتقلت من عكا الى لندن. كان ذلك سنة ١٩٣٥، وكنت أنا آتياً من بلد صغير متواضع.

هذه الأمور التي قد تبدو صغيرة قليلة الأهمية هي التي كانت تقوم عليها حياتي. وفي اطارها كان عليّ أن أتكيّف. ولأنني عودت نفسي - إذ عودتني الحياة - على التكيف والاستعداد التام لذلك، كان بامكاني ان أفيد من الجو الجديد - الجديد بكل ما فيه.

كنت، وأنا في عكا، قد قرأت كتاب نورمان بينز (Norman Baynes) «الامبراطورية البيزنطية»، وكتاب هارولد لاسكي (Harold Laski) «الشيوعية»، وكتاب ج. ك. تشسترتن (G.K. Chesterton) «أرض المعركة - سورية». وكنت قرأت عن اليوت سميث (Elliot Smith) استاذ الجراحة في كلية القصر العيني (كلية الطب في جامعة القاهرة فيما بعد) الذي عني - الى جانب الجراحة - بتاريخ مصر القديمة ودراسة المومياءات، والذي خرج بفكرة هي ان حضارة العالم بأجمعه مصرية الأصل - جذوراً وفروعاً وانتشاراً. وقد عرفت عن هذا العالم عن طريق المقالات التي كتبها سلامة موسى عن أفكاره. فهذا الكاتب المصري الذي كان، الى جانب سليم حسن ومحمود طاحون، من دعاة الفرعونية، طبّل لسميث وزمّر. ولست أزعم انني انحزت الى جماعة سميث وغيره. هذه اسماء كانت لها في ذهني مكانة، وفي أذني رنة. لكن في عكا كنت اقرأ لها واقرأ عنها وهي بالنسبة لي كانت في بلاد الواق واق التي أصبحت، منذ صغري، مثال المكان البعيد النائي الصعب المنال.

والآن أنا في لندن. وفي أول درس أحضره في تاريخ اليونان أجد ان «معلمنا» هو نورمان بينز. وبعد بضعة أيام كنت انتقل من مكان الى آخر في كليتي فاذا بي أقف مشدوهاً أمام مكتب عليه لافتة باسم اليوت سميث. وقبل ان يمر علينا وقت طويل دعت الجمعية التاريخية في الكلية تشسترتن لالقاء محاضرة علينا. أما هارولد لاسكي فقد تحدث الينا بعد نحو ثلاثة شهور.

هذا نوع آخر من التبدل في الحياة. انا الآن في بلاد الواق واق الفكرية، وهنا كان علي أن أتكيف واستفيد. وأنا أزعم، غير مبالغ ولا متبجح، انني بحكم هذا الاستعداد للتعلم والتكيف والاستفادة نالني من تلك الأيام في لندن قسط كبير من التثقيف، لست أحسب ان كثيرين ممن كانوا زملاء لي يومها افادوا منه بقدر ما أفدت.

كلية الجامعة (University College) هي واحدة من نحو خمسة وستين معهداً للدراسات المختلفة تتبع جامعة

لندن. فجامعة لندن التي أسست سنة ١٨٣٦ بدات بهذه الكلية. وقد كانت تختلف يومها عن مؤسسات التعليم العالي في بريطانية، مثل جامعات اكسفورد وكمبردج وغلاسكو وادنبره مثلاً، بامور ثلاثة: أولها انها قبلت طلاباً من طائفة الكاثوليك فيها منذ تاسيسها. وثانيها انها قبلت الطالبات. وقد كان التعليم الجامعي حتى يومها لا يسمح به لا للكاثوليك ولا للنساء. أما الأمر الثالث فقد كان خاصاً بكلية الجامعة (كليتي) وهو انها لم تُبْنَ فيها كنيسة ولم تفتح فيها دائرة (قسم) للاهوت. (وقد كانت لكليات أخرى من جامعة لندن كنائس وفيها دوائر (أقسام) لدراسة اللاهوت مثل كلية الملك (King's)).

نحن الآن في ديار العرب عندما نتحدث عن «كلية» نفهم من ذلك نوع التخصص ـ كلية الآداب، أو العلوم أو الطب أو الهندسة الخ. وقد تكون في بعض الجامعات المتأثرة بالنظام الاميركي كلية واحدة للآداب والعلوم.

لكن كلمة كلية في الجامعة البريطانية الكبرى لا تعني هذا. كلية الجامعة (في جامعة لندن) كانت في الواقع جامعة كاملة. فقد كان فيها أقسام كبيرة (تعادل الكليات عندنا) للطب والعلوم والقانون والآداب، ولقسم الطب مستشفاه الخاص به. كان عدد الطلاب لسنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ (السنة الأولى لي فيها) ٢٣٠٠ طالب (وطالبة). (أصبح عدد الطلاب ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ سبعة الاف وخمسمئة). وكليات جامعة لندن ومعاهدها منتشرة في أنحاء المدينة، وذلك بقصد التيسير على الطلاب الوصول الى تلك المعاهد. لكن هذا، مع انه روعي في أول الأمر، تبدل مع الزمن. إذ أن البعض من هذه المؤسسات كان تخصصياً تاماً. فمعهد الدراسات الشرقية والافريقية واضح مجاله من التسمية. ومدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية ليس فيها اقسام للهندسة أو العلوم.

فانت كطالب، تتسجل في جامعة لندن، ولكنك، شأني أنا، تدرس وتحضر المحاضرات في كلية الجامعة. وقد يكون من الضروري ان تحضر مساقاً يعطى في كلية أخرى. فما عليك الا ان تحزم أمرك وكتبك وتذهب هناك عدداً من المرات في الاسبوع حسبما «تدعو الحاجة». ففي سنتي الأولى كنت أذهب يوماً في الاسبوع من كلية الجامعة، في غورستريت (Gower Street) الى معهد الدراسات الشرقية (لم تكن كلمة افريقية قد اضيفت اليه يومها) وكان يقع في فنزبري سركس (Finsbury Circus). وذلك قبل ان يقام مبناه الجديد القريب من دار مجلس شيوخ الجامعة (Senate House). وفي سنة تالية كان عليّ أن أذهب الى كلية بدفورد (Bedford College) ـ وهي كلية للبنات فقط ـ لان أحد أساتذتي ـ ماكس كاري (Max Cary) اختار ان يلقي محاضرته الاسبوعية هناك، بدل كلية الجامعة. ولكن كان ثمة طلاب (وطالبات) ينتقلون مسافات أبعد ـ مثل الانتقال من كلية هولوواي (Holloway College) الى كليتي، والمسافة كانت تحتاج الى أكثر من الساعة لاجتيازها، والواحد يتنقل في الباص والقطار.

كان لأكثر الكليات والمعاهد (وليس للكل) دار لاقامة الطلاب. كان لكلية الجامعة دار من هذا النوع. وكانت تتسع لنحو ١٦٠ طالباً (أظن انه كان هناك دار للطالبات تتسع لنحو مئة طالبة). ومن الواضح ان ما يزيد عن ٨٨٪ من مجموع طلاب الكلية لا يجدون اماكن للاقامة في هاتين الدارين. والواقع ان الطلبات كثيرة، وقد يمر على الطلب سنة أو سنتان قبل ان يقبل الطالب أو الطالبة في أي من الدارين.

فضلاً عن ذلك فان معاهد متعددة لم تكن لها دور اقامة خاصة بها. ومن هنا فان من الامور المهمة للتلميذ ان يفتش عن مكان مناسب ـ مناسب من نواح كثيرة.

كان يوجد في ادارة الجامعة المركزية لوائح طويلة باسماء العائلات التي يمكن تُوَجِّرَ عندها غرف ـ مع الفطور والعشاء. كما كانت هذه اللوائح فيها الكثير من البنسيونات والنوادي الدولية التي تقبل الطلاب الاجانب خاصة. والمعروف ان المكتب الذي يعد هذه اللوائح يكون الموظفون فيه قد زاروا هذه الأماكن ـ البيوت أو البانسيونات أو الأندية.

كانت اللوائح تحتوي العناوين والأسعار الاسبوعية، فكل شيء كان يعبر عنه اسبوعياً ـ ولا يزال هذا ساري

المفعول في أمور كثيرة في لندن وغيرها.

لما وصلت الى لندن نزلت في البانسيون الذي أشرت اليه. وكان يقيم فيه قبلي عيسى نخلة وداود ابوغزالة وعلاء الدين النمري ثم جئت أنا، وبعد نحو اسبوعين وصل فرح رفيدي. كان داود قد تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت وجاء لندن ليدرس القانون. وعيسى نخله كان طالباً للقانون ولكن من الدراسة الثانوية راساً (من الكلية العربية) وعلاء الدين كان في مدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية، وأغلب الظن انه جاء من المدرسة الثانوية، لكن بعد ان عمل بضع سنوات. وفرح رفيدي كان قد تخرج من الجامعة الاميركية، في الفيزياء والرياضيات، وجاء لندن ليدرس تقنية المواصلات في الكلية الامبراطورية للعلوم (والتكنولوجيا فيما بعد) من جامعة لندن. وكان قد منح بعثة من ادارة البريد والبرق والهاتف. انا كنت قد تعرفت على فرح رفيدي في رام الله يوم ذهبت لأودع خليل طوطح وعبدالحميد ياسين، وعرفت يومها انه قد يحصل على البعثة. لذلك لما وصل قمت نحوه بما قام به عيسى نخله نحوي قبلاً.

ليس في القول بان امزجتنا كانت مختلفة ما يعيب احداً. وأنا لست هنا في معرض تحليل هذه الامزجة والنزعات. لكن وجدتني أقرب قليلاً الى داود مني الى الآخرين. والمهم انني انا كنت قد اعتزمت، وأنا في الطريق الى لندن، ان أسكن مع أسرة وقصدي الأول من ذلك تعلم اللغة الانكليزية. لكن لأنني كنت مقبلاً على امتحان، وكان عليّ أن أعد بعض مواده، رضيت بالبانسيون الذي نزلت فيه، وبقيت هناك الى أن قدمت الامتحان ونجحت. ثم بدأت البحث عن مسكن عند أسرة.

في اليوم الأول الذي قضيته في لندن كان علي أن أقوم بعملية التسجيل. وصلت الى الكلية وأرشدت الى مكتب التسجيل. كان اسم المسجل المستر فورستر (Forrester). دخلت مكتبه وسلمته الأوراق التي أحملها من ادارة المعارف بالقدس ومعها نسخة من كتاب قبولي طالباً في الكلية. تصفح الأوراق وذكرني بانني يجب ان اتقدم الى امتحان الدخول، وصب بعض جام غضبه على ادارة معارف (فلسطين) لأنها لا تتخذ الخطوات اللازمة ليقدم الطلاب الامتحان قبل مجيئهم الى لندن. وتناول بطاقة عن يمينه ناولني اياها لأكتب اسمي ونوع التخصص الذي أنويه في المستقبل. وقال لي، لما قرأ ما دونت، الآن خذ هذه البطاقة الى المستر سولومون (Solo-mon) وارشدني الى مكتبه.

لم يكن مجال للشك في أن المستر سولومون كان يهودياً. شعره الاسود وحاجباه السوداوان ووجهه المصفق وقسماته التي ينقصها شيء كثير من التناسق. وكان هذا «المشير» لجميع أقسام الدراسات الأدبية والقانونية (وكان هناك مشيران آخران - واحد للطب وآخر للعلوم والهندسة).

رد سولومون على تحيتي وتناول البطاقة وقال اخترت التاريخ (القديم) واللغة الالمانية والجغرافية واللغة العربية لهذه السنة. اللغة العربية نقبلها لغة كلاسيكية موقتاً. فانت تنوي التخصص في التاريخ الكلاسيكي (اليوناني الروماني) بالدرجة الأولى وهذا يتطلب منك ان تتعلم اللغتين اليونانية واللاتينية. تنبّه للأمر. وتذكّر انك يجب ان تجتاز امتحان الدخول. ونظر اليّ من فوق نظارته، ثم قال انا واثق من انك ستجتاز الامتحان. إذا احتجت الى شيء زرني هنا. ولم أر فورستر بعد ذلك، (لأن دفع الرسوم الجامعية كان في مكتب آخر) وقابلت سولومون مرة واحدة بعد نحو خمسة شهور. بعد ذلك كانت علاقتي الوحيدة مع الاساتذة. وما كان أجملها من علاقة وأمتعها من أيام!

يرى المعنيون بالدراسة الجامعية ان الاصل فيها هي العلاقة التي تنشأ بين الاستاذ والطالب، خاصة عندما يصل الأمر الى درجة التخصص. وأنا، بعد هذه العقود الطويلة التي عملت - ولا أزال أعمل - في التدريس / من مدرسة في قرية (١٩٢٤-١٩٢٥) الى مدرسة ثانوية الى ثانوية من درجة الكلية الى الجامعة (وانا اكتب هذا في

صيف ١٩٨٩) / أقول ان التعليم، في أدواره المختلفة أساسه العلاقة التي تنشأ بين المعلم والتلميذ / الاستاذ والطالب. انت لا تستطيع ان تفيد ولداً عمره عشر سنوات ان لم يشعر هو بأنه قريب منك، وان لم تحس أنت بانك قريب منه. الصلة أساسية وضرورية. وهي تتبدل اسلوباً، وتتوسع مجالاً، وتتعمق بحثاً، أي أنها تتطور في الدرجة، ولكن الأصل الأصل هو الاحساس بالترابط بين الشخصين. أقول هذا وأنا قد لا أعرف من علم النفس نظرياً، أو من أصول التربية والتعليم كتبياً، الكثير، بل لعل الذي أعرفه نظرياً قليل. لكن خمساً وستين سنة في التعليم على المستويات التي أشرت اليها تسمح لي بأن يكون لي رأي. قد يزور بعض العاملين في حقول النظريات السيكولوجية والتربوية إذ يقرأون هذا، ولكن ازورارهم لن يضرني، انما الذي يضرهم ويؤذي تلاميذهم وطلابهم ويسيء الى التعليم هو الاكثار من النظريات والتقوقع حول القواعد المستخرجة من جداول تعطيك في نهاية المطاف معدلات رقمية، فيما كان الواجب ان يعنى المعلم بالمفارقات الشخصية بين تلاميذه وطلابه كي يتيح لكل ما ينفعه ويعينه ويأخذ بيده.

ولأعد الى اساتذتي في كلية الجامعة (بلندن). لم تكن القضية قضية محاضرات نسمعها ونقرأ عن موضوعاتها لنتقدم الى الامتحان. بالنسبة لي كان هناك أمور جعلت استفادتي شخصياً من وجودي أربع سنوات في هذه الكلية (منها فصل دراسي قضيته في جامعة ميونخ بالمانية) اكبر بكثير حتى من الفترة التي قضيتها فيما بعد وأنا أعد رسالتي للدكتوراة. وأول ما أحب أن أشير اليه انني بدأت هذه الدراسة (للحصول على البكالوريوس) وأنا قد قاربت على انهاء السنة الثامنة والعشرين من عمري. وكنت قد درست على نفسي (لما تقدمت لامتحان شهادة المعلمين العليا / للتعليم الثانوي) كثيراً، ودربت نفسي على شيء كثير مما يجر به الواحد عادة في الجامعةمن حيث اعداد المادة وتطوير منهج خاص بذلك. والأمر الثاني هو انني، لما ذهبت الى جامعة لندن طالباً، كنت أعرف تماماً المجال الذي أنوي العناية به، وهو التاريخ القديم مع التركيز على دور اليونان والرومان فيه. كما انني كنت قد زرت أماكن التنقيب عن الآثار في فلسطين والساحل اللبناني. فاذا جمعت هذين الأمرين انتهيت الى نتيجة لعلها كانت الأهم، من حيث ترتيب عملي في الجامعة، وهي درجة من المعرفة والنضوج الفكري لا يستهان بها، وهذه كانت مصحوبة بثقافة عامة واسعة الأبعاد. وجميع هذا، من حيث علاقته بالتاريخ بشكل خاص، هو انني لم اكن قد ارتبطت - ولم أرتبط بعدها - بمدرسة تاريخية خاصة أو فلسفة للتاريخ معينة، بحيث أفتش عن الأشياء التي تتفق معها، فاقبلها، وإذا اختلفت أرفضها. كنت مفتح الذهن، مفتح العين، مفتح الأذن - وكانت هذه الأمور عندي تستحق التفتح.

هذا من حيث استعدادي الشخصي. في السنة الأولى تلقيت تدريباً في الترجمة من العربية الى الانكليزية على يد تريتون (Tritton). ذلك أن استاذ اللغة العربية في معهد العلوم الشرقية يومها غب (Gibb) قال، بعد حديث قصير، انه لا حاجة بي الى حضور درس اللغة، لكن الترجمة مفيدة. والترجمة التي دربنا عليها كانت في مختارات من كتاب الطبري (التاريخ). وكنا يومها أربعة في صفه - ولا أقول في محاضرته - وقد أصبح اثنان من زملائي، فيما بعد علمين من أعلام العمل التربوي والعلمي في مصر - عبد العزيز عبد المجيد وعمر الدسوقي. وقد غاب الثالث عني أسماً ومكاناً بعد تخلفه عن العمل معنا.

وكان غب يحاضر في المؤسسات والنظم الاسلامية. ولأن العدد كان صغيراً - كنا حول العشرة - فقد كان ثمة مجال **للتحدث** حول الموضوعات. أقول **للتحدث لا للمناقشة** لأن الأمر كان حديثاً فعلاً. فقد يثير أحد الطلاب سؤالاً، وبدل ان يتنطّع غب للاجابة عليه (كما يفعل زملاء لي في الجامعة الاميركية مثلاً) كان يعيده الينا كي نقول ما نعرف أو لنثير نواحي أخرى من السؤال. أذكر مرة ان الساعة والنصف (هذه كانت مدة المحاضرة) صرفت في مثل هذا الحديث. وختم غب الحديث (والوقت) بقوله: لعلنا نتم حديثنا في المرة القادمة. وقد فعلنا،

لكن لم نصرف وقت محاضرة كاملة.

وكان بين اساتذتي يومها في كلية الجامعة (في الجغرافية) ابركرومبي (Abercrombie) أحد كبار العارفين برسم الخرائط في بريطانية. والذي كان يتكلم قليلاً ويستعمل اللوح الأسود والطبشورة والخرط المختلفة المقاسات والدلالات كثيراً. والذي أود أن أؤكده هنا هو أن هذا كان مفيداً لي لا من حيث التعلم فقط، ولكن لما عدت الى فلسطين وعهد اليّ بتدريس الجغرافية الى جانب التاريخ القديم، لجأت الى طريقة ابركرومبي في تعليمي - ولو على درجة أدنى لأن المادة الخرطية لم تكن متوفرة بالنسبة لمنطقة المشرق العربي يومها (سنة ١٩٣٩).

أما الاستاذ تشبس Chubbs فقد درسنا الجغرافية الطبيعية. كانت معرفة تشبس، بقدر ما كان بامكاني الحكم على ذلك، عميقة ودقيقة. لكن الرجل كان فيه شيء من عي اللسان. ومن هنا كان الاطلس الرفيق الأساسي له ولنا. ونعم الرفيق.

لكن الذي أثار في نفسي كل ما يمكن من الحب للجغرافية الاقليمية فهو الاستاذ فوست (Faucett). معرفة لا يشق لها غبار، لغة تطربك يضاف الى ذلك روح خفيفة، وحس بالنكتة. الشيء الوحيد السيء فيه ان صفه كان يحضره نحو خمسين طالباً، لعلي أنا الوحيد فيه الذي لم يكن مجال تخصصه المستقبلي الجغرافية.

وقد ذكرت انني لما دخلت لحضور المحاضرة الأولى في تاريخ اليونان وجدت أمامي نورمان بينز - أستاذ التاريخ البيزنطي في جامعة لندن. وكنا أربعة عشر شخصاً. وبينز يثير فيك الرغبة للقراءة فضلاً عن اثارته اياك للمناقشة؛ أو فلأقل انه اثار في الرغبة للقراءة. (وقد حضرت على بينز فيما بعد في تاريخ البيزنطيين وغير ذلك، وسأذكره في حينه). لكنني أود أن أروي قصة حدثت في اثناء حضوري هذا المساق. وصلنا الى الالياذة وحصار طروادة. وبينز كان مغرماً بهوميروس. لكن هذا لم يحل دونه ودون انتقاد الشاعر القديم، صاحب الملحمة المُلهِمَة. لذلك قال في احدى محاضراته ما معناه: تصوروا ان هوميروس يقول ان الجيش اليوناني المحاصر لطروادة أوقَدَ النار في الخلاء، وطبخ من الطعام ما يكفي للجنود. كيف يمكن ان توقد نار في الخلاء؟ وكيف لا تطفئها مياه الأمطار المتساقطة؟ وكيف تظل النيران متقدة كل هذه المدة؟ أليس معنى هذا أن هوميروس كان يروي شيئاً منتزعاً من مصدر آخر لا علاقة له بحصار طروادة؟» وبينز كان من عادته - وقد كان يلبس القبة (الياقة) المنشاة اليابسة - ان يتحمس لآرائه. وعلى كل فالمجموعة صغيرة.

لما انتهت المحاضرة سألته فيما إذا كان وقته يتسع لمقابلتي لبضع دقائق فقال - «تعال يا رجل» (واستعمال كلمة يا رجل كان شيئاً مألوفاً في كلام بينز). ذهبت معه الى مكتبه وهناك شرحت له ان نظرته لهوميروس واتهامه إياه لا يقوم على منطق. قلت «انك يا سيدي تقيس الأمر في آسية الصغرى - حيث كانت طروادة - على بريطانية. هنا تسقط الأمطار طوال السنة. لكن في البلاد التي آتي أنا منها تكون السماء صافية عدداً كبيراً من أشهر السنة قد يصل الى ثمانية أشهر. وإذن فمن الممكن ان توقد النار في الخلاء لساعات طويلة، وان يطبخ الطعام اللازم لعدد كبير من الجند إذا هيئت المواقد اللازمة». ثم أخبرته كيف ان جدتي (لأمي) كانت تطبخ على موقدة في الخارج لمدة سبعة شهور على الأقل. وكل ما تحتاجه ثلاثة حجارة (لم أدخل معه في تفسير ثالثة الاثافي)، على أن يكون هناك جدار أو ما يشبه ذلك يحمي النار من الهواء.

نظر اليّ بينز وقال «لماذا لم تقل هذا في الصف؟». فكان جوابي انني تأدبت (الكلمة التي استعملتها خجلت). شكرني الرجل، وخرجت أنا مسروراً، بانتصاري لهذا الشاعر الأعمى القديم.

لما دخلنا قاعة المحاضرات في المرة التالية قال بينز «السيد زيادة عنده شيء يريد ان يقوله يتعلق بالمحاضرة السابقة». ودعاني للكلام. شرحت للطلاب ما قلته له، وبشيء من التفصيل حتى مع استعمال اللوح لتصوير مخطط للموقدة.

لما انتهيت قال بينز «أود أن أعتذر لهوميروس. فقد مرت على نحو عشر سنوات وأنا اتهمه. اما الآن فقد دلني السيد زيادة على الشيء الصحيح. فشكراً له ولن أعود الى اتهام هوميروس».
بينز أخذ مني رأياً. أما أنا فقد تعلمت درساً.

هذه الحادثة أوجدت علاقة خاصة بيننا، استمرت طيلة المدة التي قضيتها في الكلية. وبقطع النظر عن المساقات التي حضرتها معه فيما بعد، كان كثيراً ما يلقاني في ساحة الكلية فيستوقفني ويحدثني. حدث مرة ان رآني خارجاً من الكلية يوم جمعة ومعي شنتة صغيرة، فقال لقضاء ويك اند بعيداً عن لندن، فأجبته بالايجاب. فأضاف «وأنا أيضاً ذاهب، ولكن غداً. انما هل تعرف، يا رجل، ما الذي سأفعله في القرية الذاهب اليها؟». وكان من الطبيعي ان لا أعرف، ولا انتظر هو ذلك، فأضاف «سألقي خطبة هناك عن القصة البوليسية الحديثة في انكلترا». استغربت. ولكن الرجل، لا أدري فيما إذا كان قد أدرك استغرابي، ام انه كان يتم حديثه اذ استمر بقوله: «يجب ان يستريح المرء من التاريخ البيزنطي كي يظل يلتذ به ويستمتع بالعمل في حقله». درس آخر من بينز.

وجاء دور تاريخ الرومان. وجاءنا استاذ هو ماكس كاري (Max Cary). كاري أصيب بقنبلة انفجرت على مقربة من رأسه في الحرب العالمية الأولى. لذلك أصبح سمعه ثقيلاً وصوته مزعجاً. وكنا نسميه «دونالد دك» بسبب ذلك. كاري كان له عليّ تأثير كبير فيما بعد. أما الآن فكان مساقه عادياً. لكنه كان ينصحنا بقراءة كتب أو فصول منها. وكنت أنا أفيد من ذلك حتى يومها. وماكس هو المؤرخ الكبير الذي انشأت جامعة لندن كرسي التاريخ القديم اكراماً له. فقد كان أول من شغله.

في سنة ١٩٣٥، بعد وصولي الى جامعة لندن بمدة قصيرة، نشر كاري كتابه «تاريخ رومه». ولما جاء يعطينا المساق الخاص بتاريخ رومه، أخذت بقراءة الكتاب. وكان ثمة بضعة أمور تستحق استفساراً مني. فكان كاري يطلب مني، بين الحين والحين، ان أذهب الى مكتبه ليجيب عن اسئلتي. وقد قال لي مرة: أنت مهتم بالموضوع أكثر من الباقين، لذلك فأنا مستعد أن أعطيك وقتاً خاصاً بك.

ويجول بخاطري الآن (١٩٨٩) سؤال. هل يا ترى كان القصد من التحدث الى كاري عن كتابه الافادة فقط، أم كنت أرغب في لفت نظره اليّ؟ إذا كان مثل هذا الشيء قد ساورني، ولا استغرب ذلك. فمما لا شك فيه ان الأمر لم يؤثر على كاري قط. كان الرجل، كما قال زميله بينز عنه، قطعة من العقل المتحرك. آراؤه الجيدة والمنعشة هي التي تتعلق ببحوثه. واضاف بينز «ليس بيننا من يعرف أي شيء عن كاري خارج كتاباته ومحاضراته». كان لي مع كاري، صلات علمية قوية لمدة سنتين. ومع ذلك فلا هو دعاني الى بيته، ولا تحدثنا مرة واحدة عن شيء خارج الدراسات الكلاسيكية. اما بينز فمع ان علاقتي به كانت أقل فقد دعاني الى منزله، وهناك تحدثنا عن كل شيء يمكن لاثنين في مثل علاقتنا ان يتحدثا عنه. وكانت آخر مرة رأيت فيها بينز سنة ١٩٤٧. كنت قد عدت الى لندن لأعمل للدكتوراة؛ وفي يوم من أواخر خريف تلك السنة كنت داخلاً الى المتحف البريطاني، فاذا بينز امامي على الدرج. استوقفته وذكرته بنفسي، فتذكرني انني كنت تلميذاً عنده قبل الحرب. كان بينز قد بدا عليه الهرم والتعب؛ وكان ايام الحرب قد انصرف الى ترجمة خُطَب هتلر الى الانكليزية (ظهرت في ثلاثة مجلدات)، فلم يعط الدراسات البيزنطية حقها، وآمل يوم تحدثنا، ان يعود الى ذلك. لكن بينز لم يعمر بعد ذلك طويلاً. ويظل الرجل بالنسبة لي، واحداً من الذين أثروا في تكويني الفكري، لا بعلمه فقط، ولكن بمواقفه «الحرة» و«الانسانية»!

كان نظام البكالريوس (الاجازة) في جامعة لندن يومها يتبع اسلوبين: الواحد عام والثاني من درجة الشرف. الأول يأخذ فيه الطالب خلال السنتين الأخيرتين من دراسته الجامعية ثلاثة مواضيع، تكاد تكون متساوية من حيث المساقات وعدد أوراق الامتحان النهائي. وكان هذا الاسلوب هو الذي يتبعه اكثرية الطلاب

لانه أيسر. أما الاسلوب الآخر فان الطالب يقتصر في دراسته، خلال السنتين الاخيرتين، على موضوع واحد. انا، بالنسبة لي، وقد سمح لي ان اتبع هذا الاسلوب، كان موضوعي التاريخ القديم (مع شيء من تاريخ العصور الوسطى في أوروبة). فكان كل مساق أحضره هو في التاريخ، وكل امتحان اتقدم اليه في النهاية هو في التاريخ، مع العلم بأن بعض مواد الامتحان كان عليّ أن أعد تفاصيلها بنفسي. فضلاً عن ذلك فقد كان على طلاب التاريخ (القديم أو الأوروبي) ان يقدم واحدهم امتحاناً في لغتين أوروبيتين، من لغات أربع معينة وهي الالمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية. ولم يكن من الضروري ان يعين الطالب اللغتين اللتين يختارهما مسبقاً؛ يوم الامتحانين المعينين للغات يختار أي اثنتين من اللغات الأربع ويترجم الأوراق المعطاة له الى اللغة الانكليزية. لأن الاستعداد لامتحان اللغة كان شأناً خاصاً بالطالب، وهو مسؤول عنه. فضلاً عن ذلك فقد كان عليّ، ما دمت اعتزمت ان أتخصص في تاريخ اليونان والرومان، ان أتعلم اللغة اليونانية واللغة اللاتينية، بحيث استطيع ان اقرأ النصوص والنقوش والمصادر الاصلية (وفي مقدمة هذه ما كتبه يوليوس قيصر عن حروبه وما دونه شيشرون عن عصره).

ولما درست هذا الجزء من عملي، أي تعلم اللغات (وكنت قد بدأت الالمانية جدياً) رأيت ان سنوات ثلاثاً لن تكفيني، لذلك قررت ان اطلب من ادارة المعارف ان تمدد البعثة الى سنوات أربع، بسبب قضية اللغات هذه. مثل هذا الطلب كان يحتاج الى توصية من الكلية. فذهبت الى المستر سولومون، وشرحت له القضية، وقلت له انني ساكتب الى الادارة، وان مدير المعارف قد يسأله رأيه في الموضوع. فكان جواب الرجل العملي: «اسمع. ساكتب انا الآن رسالة الى مدير المعارف، وأبعث بها اليك؛ أرفقها أنت مع طلبك، وبذلك نوفر الوقت».

هذه كانت المرة الثانية والأخيرة التي لقيت فيها سولومون. بعد يومين كان كتابه بين يدي وكانت رسالتي جاهزة. ارسلت الاثنتين الى مدير المعارف وبعد ثلاثة أسابيع جاءتني الموافقة على طلبي. ووزعت تعلم اللغات بحيث أفيد من الوقت. وقد تعلمت من الالمانية الكثير، وعلى أصول دقيقة، وهو الذي لا يزال يفيدني الى الآن. لكنني لم أوفق في تعلم الفرنسية. ولذلك لما جاء وقت امتحان اللغات اخترت من اوراق الفرنسية تلك التي تخص العصور الوسطى. ذلك بأن معرفتي في اللغة اللاتينية كانت عونا لي على الترجمة هنا. (ولكنني أسرع الى القول انني أهملت فيما بعد اللغتين اليونانية واللاتينية، ونسيتهما كلياً).

صلتي بكاري تمتنت واتسعت خلال السنتين التاليتين. فقد سجلت لحضور مساق في التاريخ الروماني في عصر الجمهورية. ولما ذهبت الى مكتب الاستاذ كاري، حيث اعتزم اعطاء المساق، وجدتني الطالب الوحيد. وقد غلب الظن عندي ان الاستاذ سيلغي المساق. لم أتصور أن الرجل الذي يشغل كرسي التاريخ القديم سيصرف وقته على طالب واحد. لكن كاري لم يفكر بذلك. بعد ان رحب بي قال لست أحسب يا سيد زيادة انك تنتظر مني ان اعطيك محاضرات؛ لذلك فالذي اقترحه هو ان تكتب بحثاً قصيراً مرة كل اسبوع عن موضوع نتفق عليه مسبقاً وتتأكد ان يصلني قبل موعد اجتماعنا بيومين. وعند الاجتماع نناقش الموضوع. وهكذا قضيت سنة دراسية كاملة وأنا أتدرب على البحث والتعبير وكانت هذه تجربة مهمة لي. وما دمت في سبيل الحديث عن العلاقة بكاري فلأقل انني في السنة التي تلت ذهبت الى مكتبه بعد التسجيل فوجدت انني الوحيد الذي اعتزم أخذ تاريخ رومه في أوائل عصرها الامبراطوري. هذه المرة لم انتظر الغاء المساق. ولكن كاري قال هذه السنة ستكون البحوث أطول وتكون مرة كل اسبوعين. وهكذا كان، ومرة ثانية دربت على يد هذا الرجل المثير فكرياً وعلمياً وتدريباً، دون ان يكون بينك وبينه اي صلة أخرى. أقصد الناحية الاجتماعية. ولست أذكر ان كاري سألني حتى عن بلادي وعن العمل الذي ساقوم به في المستقبل.

في سنة ١٩٥٩ كنت أحضر ندوة في كراتشي. وكان غوستاف فون غرونباوم بين الحضور، وفيما نحن

نسير مرة التفت اليّ غرونباوم وقال: «قل لي يا زيادة على من تدربت انت في دراستك للتاريخ الاسلامي. فنحن لم نكن قد سمعنا عنك طالباً متدرباً في هذا المجال، وانما فجأة طلعت علينا بالبحوث التي قدمتها لمؤتمري المستشرقين في استانبول (١٩٥١) وكمبردج بانكلترا (١٩٥٤) فضلاً عن بحثك عن ادارة بلاد الشام في عصر المماليك الأول». فأجبته «أنا، يا غرونباوم، لم أدرّب على يد أيّ من الباحثين في التاريخ الاسلامي. انا دربت أصلاً على يد ماكس كاري لما كنت اطلب العلم في جامعة لندن في التاريخ الكلاسيكي». ابتسم الرجل وقال: «ظننت أن تدريبك أصلاً كان خارج الحقل الذي تعمل فيه الآن».

كان يترتب علينا، طلاب التخصص في التاريخ، ان نحضر شيئاً اسمه «صف البحوث». كان أول من وقعت تحت يديه لو باتورل (Le Patorell)، وهو محاضر حديث التخرج من جامعة اكسفورد، كان يحاضر (هو وبارلو Barlow وبندوف Bindoff) عن تاريخ انكلترا في العصور الوسطى. وحصته هو كانت عن تاريخ انكلترا الدستوري، الموضوع الذي أغرمت به وقرأت فيه كثيراً. صف البحوث كان المقصود منه التدريب على البحث والكتابة في مقالات يعدها الطلاب مسبقاً وترسل الى الاستاذ، ثم تناقش في الصف. وقد كان يستحسن ان يعد الطالب أكثر من نسخة واحدة لتوضع بين ايدي بعض الطلاب لاغناء المناقشة. كان عدد الطلاب محدوداً بستة، وكان في كل اسبوع تتاح الفرصة لدراسة ثلاثة بحوث فقط (في ساعة ونصف الساعة). ولو باتورل كان دقيقاً جداً. ولما جاء دوري كتبت بحثاً عن الرهبنة المشرقية واثرها في تطور الرهبنة في العصور الوسطى. وجاء دور الحديث حول البحث وكان الرجل قد أعد نقاطاً وأسئلة يوجهها اليّ والى الطلاب الآخرين. ولما انتهى العمل سألني فيما إذا كان وقتي يسمح لي بمرافقته الى مكتبه. وهناك قلب صفحات بحثي وأراني التصحيحات اللغوية الكثيرة التي أعدها للصفحات الأولى (كان البحث في نحو ثلاثين صفحة)، وقال لغتك يا سيد زيادة ضعيفة جداً، وهذا أمر غير مقبول في طلاب كلية الجامعة، وعند طلاب التخصص بشكل خاص. وكان ان شرحت له ان هذا كان أول بحث اكتبه بالانكليزية، وأوضحت له كيف تعلمت الانكليزية. استغرب طبعاً ثم قال على هذا الأساس فانت أجدت الكتابة، لكن هذا لا يكفي للمستقبل.

بعد سنة ونصف السنة عدت اليه ثانية في صف البحوث؛ وبعد ان ناقشني في البحث في الصف، طلب مني أن أرافقه الى مكتبه. فعلت ذلك. فكان ان هنأني على تقدمي وقال لي: كنت أود أن أشير الى ذلك في الصف، لعلي أحث الباقين - من ابنائنا - كي يقتدوا بك لكنني خشيت ان تتضايق». ولما أطلقت له الحرية اشار الى القضية في الاجتماع التالي.

وكان ان حضرت صف البحوث هذا على ايدي بينز أيضاً. وكنت وحيداً عنده. لذلك طلب مني أن أكتب بحثين فقط في الفصل، لكن يجب ان يكونا بحثين جيدين. وكان له ما أراد ولي الفائدة. وعند مناقشة الثاني من هذين البحثين دعاني الى بيته. شربنا الشاي في مكتبه، وتحدثنا عن البحث وغيره من الأمور العلمية، وغيرها كذلك، على مدى نحو ثلاث ساعات.

ولأنني كنت قد حضرت محاضرات في تاريخ الشرق القديم على يد المدرسة الشابة مرغربت درور (Margaret Drower) فقد أرسلت اليها لأحضر فصلاً في صف البحث عندها. ومع ان المألوف ان تمتد الفترة التي يحضر فيها الطالب صفوف البحث فترة سنتين، فقد امتدت حصتي ثلاث سنوات. لذلك فقد حضرت ثمانية صفوف بحث (بدل الستة العادية). اما التاسع فقد تغيبت فيه عن جامعة لندن إذ ذهبت الى جامعة ميونخ.

والفضل في هذا يعود الى بينز. كنا نتحدث يوماً، فاذا به يلتفت الي ويقول: اسمع يا رجل. انت معني بتاريخ العصر الهلينستي. يجب ان تذهب الى جامعة ميونخ لتحضر دروس ولتر أوتو (Walter Otto)، فهو واحد من كبار الاختصاصيين في الموضوع. سأكتب اليه اليوم واسأله عن الموعد الذي سيحاضر فيه عن هذا الموضع،

وعندئذ نرتب لك إذناً من الكلية هنا لتتغيب عنا وتحضر في الموضوعات الكلاسيكية في ميونخ».

وبعد فترة وجيزة استدعاني بينز الى مكتبه وأراني جواب أوتو. وعلى هذا الأساس رتبت ان أقضي الفصل الأخير من السنة الدراسية ١٩٣٦-١٩٣٧ في جامعة ميونخ. ولاوتو معي موقف سأتركه الى مكانه من هذه الصفحات.

كان علي، بعد ان اجتزت امتحان الدخول (أعلنت النتيجة يوم عيد ميلادي ٢ كانون الاول / ديسمبر ١٩٣٥)، ان ابدأ بالبحث عن مكان لسكناي. كانت قد تحددت مع الوقت مناطق يؤمها الطلاب للسكن. ولعلّ الباعث الاصلي لها كانت رغبة ابناء البلد الواحد ان يكونوا قريبين بعضهم من البعض الآخر. فمنطقة سويس كوتاج (Swiss Cottage) كان فيها عدد من الطلاب العرب، وهامستد (Hampstead) كانت معروفة بالطلاب الهنود (أي الهنود والباكستانيين قبل الحرب العالمية الثانية). والطلاب الذين كانوا يذهبون للتخصص في الطب كانوا يقيمون، في الغالب، على مقربة من المستشفيات التي يعملون فيها.

وقد رغب اصحاب لي على الاقامة في سويس كوتاج. لكن الطريقة التي اتبعتها في البحث عن مسكن كانت تقوم على أسس خاصة. أخذت اللائحة من مكتب الجامعة وقارنت بعض المناطق بالبعض الآخر على خارطة للندن. واخترت عدداً محدوداً منها بحيث لا تكون بعيدة كثيراً عن الكلية. ثم زرت هذه الجهات لأتأكد من انها طليقة غير مكتظة بالمساكن والمخازن، وانها تحوي حديقة عامة. ولما أعجبتني واحدة منها هي هندن الوسطى (Hendon Central) طرقت الأبواب التي أحمل عناوينها. واهتديت الى المنزل الذي أردت. اخترت بيت السيد كلمنت وايلمان (Clement Wileman) في ٧٨ فيفيان افنيو (78 Vivian Avenue). المنزل يبعد عن محطة قطار تحت الأرض نحو دقيقتين. والقطار ينقلني رأساً الى محطة غودج ستريت (Goodge Street)، أي بدون تغيير. ومن هناك امشي نحو ست دقائق الى الكلية. كل ما أحتاجه من المنزل الى الكلية نصف ساعة. وهندن الوسطى كانت شبه منطقة ريفية. كنت أتناول طعام الفطور ووجبة العشاء في المنزل. الغداء في الكلية؛ لكن تأكدت انه يوجد هناك مطعم نظيف قريب من البيت فيما اذا بقيت يوماً في المنطقة. وكان هناك دار سينما تعرض الافلام بعد عرضها في الجزء الغربي من لندن بنحو أربعة شهور، لكن التذكرة فيها كانت تكلف ربع ثمن التذكرة في المدينة. وعلى كل فأنا لم يكن يهمني ان اتناقش حول الافلام؛ كنت أذهب الى الدار كنوع من التغيير.

لما ذهبت لاستئجار الغرفة كانت السيدة وايلمان هناك. وقد أعجبت بنطقها للغة الانكليزية. وبعد ان انتقلت الى غرفتي قلت للزوجين انني أريد ان أتقن الانكليزية كتابة وكلاماً. والكتابة حصة الكلية والمحاضرات والبحوث التي أعدها، لكن الكلام أمر منوط بهما. ولذلك كانا يصححان لي أخطائي، واتقدم اليهما بالشكر كل مرة.

قضيت عند هذه الأسرة سنتين. ولما عدت سنة ١٩٤٧ الى لندن ذهبت لزيارتهما وطلبت منهما ان يقبلاني ثانية، وكانا قد بلغا السبعين من العمر؛ ومع ذلك قبلا أن أقيم معهما. ثم لما جاءت زوجتي مرغريت وابني رائد، أقمنا عند هذه الأسرة قرابة السنة.

وأود أن أشير هنا الى انني لم أشعر بالغربة في لندن، ولا في غيرها من البلاد أو المدن التي زرتها أو أقمت فيها في أوروبه. أقرر هذا لأن أكثر الشباب الذين ذهبوا الى انكلترا من فلسطين كانوا يتحدثون عن الغربة والوحدة والوحشة و«يلا نخلّص ونرجع»! هل كان شعوري سببه انني انتظرت طويلاً حتى حصلت على ما أملت، لذلك كان همي منصرفاً الى الافادة لا الى الشعور بالغربة؛ فيما كان الباقون من الجماعة الذين انتقلوا رأساً - وهم في أول الشباب - الى انكلترا دون ان يمروا بدور التحرّق للدراسة الجامعية؟ أم هل كان للعمر اثر في ذلك؟ أحسب ان العمر كان يجب ان يؤيد الشعور بالغربة! ام هل أن السنوات العشر التي قضيتها - بعد وفاة أمي - وقبل وصولي الى لندن - اخرجتني، بحكم ظروفي، من ابعاد الدلال والتمييع، فكنت استطيع ان اتحكم في الأمور تحكماً لا شعورياً؟ لأنني لم أكن أحس بأنني أجلس فأفكر بالوحشة ثم أقرر أن أغالبها أو أقاومها. لعلّ

تصرفي كان نتيجة هذا كله. المهم انني تعاملت مع جوي الجديد لا على أساس تحدٍّ يجب أن أجابهه بالاستجابة له متغلباً عليه. كان موقفي منه انه جو جديد يجب ان أفيد منه واستمتع به واكتنز من خبرات القوم الجديدين عليّ ما يغنيني ويثري حياتي. وأحسب انني وفقت في ذلك.

بعد تجربة في قراءة الصحف اليومية استمرت بضعة أسابيع قررت أن أحصل على المورننغ بوست (Morning Post)، التي اندمجت فيما بعد بالدايلي تلغراف (Daily Telegraph)، فانتقلت الى هذه. أما جريدة المساء فكانت الايفننغ ستاندارد (Evening Standard). ولا أزال الى الآن ابتاع التلغراف والستاندارد عندما أزور لندن. لكن المهم هو انه خلال السنتين اللتين قضيتهما في بيت وايلمان تثقفت سياسياً - بالنسبة للاحزاب البريطانية. كلمنت وايلمان كان من حزب الأحرار، فكان يحمل الى البيت مساء جريدة الحزب وهي الايفننغ نيوز (Evening News). وزوجته كانت تقرأ جريدتي الصباحية لأنني كنت أتركها لها. وفي المساء - بعد العشاء - كنا نستريح في غرفة الجلوس (حيث تقدم لي سيدة البيت فنجان قهوة - أما هما فلم يكونا يشربان القهوة أبداً). ونسمع نشرة الاخبار على راديو «على قد الحال»، ثم نتناقش سياسياً. فالسيدة كانت من حزب المحافظين. وكان الزوجان يفزعان اليّ عندما يختلفان - وكان يختلفان دوماً - لتحكيمي. المهم ان هذا كان الذي أريده أنا. لا أقوم بدور الحكم، ولكن بدور المتعلم.

وقررت أيضاً أن أقرأ الصنداي تايمز (Sunday Times) الاسبوعية، وان كنت ابتاع الصنداي ابزرفر (Sunday Observor) أحياناً. وهذه الجريدة كانت مدرسة لي في مراجعة الكتب والنقد المسرحي. وأذكر أنني كنت مرة أتحدث مع المرحوم الدكتور فؤاد صروف (وذلك لما كنت بعد في فلسطين، وكان هو في زيارة للقدس) عن مراجعة الكتب في المقتطف وغيرها من المجلات. فسألني فيما إذا كنت قد عنيت بهذه الناحية عملياً، فأجبته ان لا (فيما بعد عملت في ذلك سنوات لاذاعة الشرق الأدنى ولهيئة الاذاعة البريطانية / القسم العربي ولعدد من المجلات)، ولكنني أشرت الى تتلمذي على نقاد الصنداي تايمز.

أما فيما يتعلق بنقد المسرح في لندن فكنت أقرأ ما يكتبه جايمز اغات (James Agate) وكان يومها من كبار النقاد المسرحيين. وقد نشر فيما بعد مجموعة مقالاته في الصنداي تايمز في ثمانية ملجدات بعنوان "Ego" (أي «أنا») على ما أذكر. وقد دار حديث حول هذا الكاتب بيني وبين المرحوم الدكتور بشر فارس في منزل المرحوم الدكتور زكي محمد حسن في احدى زياراتي لمصر، فكان لفارس تعليق دقيق على مهارة هذا الكاتب. وتذكرنا كلانا حادثاً نقدياً يتعلق بهذا الكاتب (وأنا كنت يومها في لندن، وأظن انه هو كان في باريس) وهو ان اغات هذا نقد مسرحية بعد عرضها الأول كان اسمها عبر الاردن (Across The Jordan) فكانت النتيجة انها لم تتم الاسبوع الأول من عرضها؛ إذ أحجم المشاهدون عنها، وسحبت من العرض. أظن أن هذا حدث سنة ١٩٣٧.

الواقع ان كل شيء مرّ بي كان مدرسة لي. وقد كنت تلميذاً ناجحاً بالنسبة لنفسي. تعلمت من الذين سكنت في منازلهم، وتعلمت من اساتذتي، وتعلمت من الذين - على الأصح اللواتي - أحببتهن وأحببنني، وتعلمت من الصحف، وتعلمت من المخازن ومن المطاعم ومن حفلات الكلية.

وما دمنا قد وصلنا الى حفلات الكلية، فلأقل ان لندن قبل الحرب كانت محافظة. كانت الفنادق والمطاعم الكبيرة يؤمها الناس بثياب السهرة. وهذا كان طبيعياً. لكنني اكتشفت ان حفلات كلية الجامعة - كليتي - كان يقتضي حضورها ارتداء ثياب السهرة. عرفت هذا لما أعلن عن حفلة تقام فيها لمناسبة عيد الميلاد (قبل عطلة العيد طبعاً). في تلك المناسبة ذهبت الى محلات موسّ اخوان (Moss Bros) واستاجرت بدلة سهرة بمبلغ عشرة شلنات (نصف جنيه). لكن لما اقترب شهر آذار / مارس وفيه تقام احتفالات لذكرى تاسيس الكلية وفيها حفلتان تقتضيان ثياب السهرة - الواحدة البدلة العادية (Evening Dress) والثانية البدلة ذات السترة الطويلة الاطراف

(Tails)، قررت ان لا استأجر. ذهبت الى خياط صغير، كنت قد تعرفت عليه وعملت عنده بدلتين، وطلبت منه أن يخيط لي بدلتين للسهرة. وبذلك أصبحت مستقلاً: استطيع أن أقبل أي دعوة أو اشتري بطاقة لأي حفلة، والبدلتان معلقتان في البيت لحين الطلب.

قررت في السنة الثالثة لوجودي في لندن ان أسكن على مقربة من الكلية. وقد اخترت بانسيون كان يقع في ٤٧ ميدان تورنغتون (47 Torrington Square). كان يبعد عن كليتي بضع دقائق فقط. ومع ان العشاء كان يقدم فيه لمن يريد فانني لم أرتبط بذلك. اشتركت يومها في جمعية الشبان المسيحية، التي كانت على مسيرة بضع دقائق من البانسيون. فكنت، في أكثر الأيام أذهب الى نادي الجمعية فاسبح واقرأ بعض الصحف واتناول طعام العشاء وأعود بعد ذلك الى البانسيون للعمل. وقد كانت الاقامة فيه مريحة. والذي يجلب الراحة لك، مع ان المقيمين فيه كانوا كثرة، هو، ما ذكرته من قبل، انك تستطيع ان تكون في منتهى الاستقلال حيثما أقمت. لست أذكر تماماً المبلغ الذي كنت أدفعه في البانسيون. عند وايلمان كنت ادفع ثلاثين شلناً أي جنيهاً ونصف الجنيه في الاسبوع: للغرفة وطعام الفطور والعشاء وغداء يوم الأحد. ولما انتقلت في السنة الأخيرة الى ايلنغ (Ealing) أقمت في بنسيون صغير. كنا خمسة أشخاص. ومع انني عشت فيه سنة كاملة فان واحداً فقط من الخمسة، ويبدو انه كان زهقاناً، دعاني «لفنجان شاي» في الحي.

في هذا البانسيون كان يقدم الفطور فقط، لكن السيدة سميل، صاحبته، عرضت علي، بوصفي اشتغل (في الدرس) ان تؤمن لي عشاء بسيطاً إذا طلبت ذلك مسبقاً. في هذه السنة (١٩٣٨ـ١٩٣٩) كنت أذهب الى الكلية يومين في الاسبوع فقط. وكانت المكتبة العامة في ايلنغ غنية جداً، فكنت أستطيع ان استعير منها أكثر الكتب التي تلزمني للدروس وللاستعداد للامتحان النهائي. وقد كان هذا من حسن حظي، إذ وفرت الوقت الكثير. والمكاتب العامة في لندن، وفي غيرها من المدن الانكليزية والالمانية والاميركية التي عرفتها فيما بعد، شيء أساسي في حياة أي جزء من المدينة. وهي واحدة من مسؤوليات المجلس البلدي المحلي. قاعات المكتبة متعددة. هناك قاعة للصحف يجلس القراء فيها على مقاعد مريحة، ويجد الواحد الصحف الكبيرة والمحلية. وهناك قاعة أو قاعات، للمراجعة. هذه تجد على رفوفها الموسوعات والمعاجم والكتب الدليلة ومجموعات من الاطالس. اما الكتب التي يمكن ان تعار فتشمل مئات من كتب التاريخ والأدب والفلسفة والعلوم؛ هذا الى الاف من الأدب القصصي وغيره. وكل قاعة وكل جزء من المكتبة فيه عدد من المشرفين عملهم، مساعدة القراء إذا طلب منهم ذلك.

ومن انفع الاقسام في المكتبات العامة القسم الخاص بالصغار. والصغار هم صغار. الكتب كثيرة، وثمة أدوات للعب المخطط، يتم تحت اشراف مرشدات.

سيقول بعض من يقرأ هذا ليس في هذا المقول جديد. فنحن نعرف عن وجود مكتبات عامة في الدنيا. وفي عالمنا العربي مكاتب عامة كبيرة في أكثر المدن. صحيح. لكن أولاً كلمة مدن هنا تحتاج الى تحديد فهي المدن الكبرى فقط. وقد يقتصر الأمر على العاصمة. ووجود مكتبة واحدة أو اثنتين أو ثلاث في مدينة كبيرة ينفع القلة، لكن أكثر الناس لا يفيدون منها. المهم ان تكون المكتبة بحيث لا تكلف جهداً ولا نفقة كبيرة في الانتقال اليها؛ هذا من جهة ومن جهة ثانية يجب ان تتسع للعدد الكبير من القراء. وأمر آخر هو في غاية الأهمية ان تفتح المكتبة ابوابها في الأوقات التي يستطيع الناس ان يذهبوا اليها بعد الفراغ من اعمالهم أو في طريقهم منها واليها.

وعلى كل فانا لا أكتب لاعلم أحداً. أنا قضيت عشرة أعوام في عكا، وكان يترتب عليّ أن ابتاع كل كتاب احتاجه. فكان وجود المكتبة العامة، والتي تستطيع ان تستجيب لحاجات القراء المختلفة على هذا الشكل، أمراً ترك في نفسي اثراً كبيراً. وانا منذ ذلك الحين، ومنذ ان عدت من لندن، «أصرخ» بوجوب انشاء مكتبات عامة متعددة حتى في المدينة الواحدة.

أنا اكتب هذه المذكرات، مسوّداً عدداً كبيراً من الصفحات، على دفعات. أتوقف عن الكتابة عندما أحب، وأعود اليها عندما أرغب. ومن عادتي أن أفتح التلفزيون (أو التلفاز ان كنت تصر على ذلك) لا لأشاهد برنامجاً معيناً، ولكن لاستريح من عملي، مهما كان نوع العمل. فاذا اعجبني البرنامج صرفت عليه بعض الوقت، وإلا تركته. واليوم - قبل نحو الساعة - رغبت في مشاهدة التلفزيون للاستراحة، فكان البرنامج مسابقة في كرة القدم بين شتوتغارت وكولون (وكان المعلق يلفظ اسمها كولونيا). وأنا أحب مشاهدة لعبة كرة قدم جيدة. فتابعتها. وقد تغلبت كولون على شتوتغارت بثلاثة أشواط للاشيء.

ولكن ما هي العلاقة بين برنامج التلفزيون (صيف ١٩٨٩) ومذكراتي؟ تذكرت وأنا أشاهد الفلم أموراً قديمة، ومرت أمامي صور تعود الى عقود من السنين خلت. هذه الذكريات هي التي حملتني على تدوين هذه المقدمة القصيرة. أول ما تذكرت انني أنا، وأنا لم أكن أجيد من لعبة كرة القدم سوى الركض وراء الطابة (الكرة) وقد ألحق بها وعندها أضربها ضربة كانت في أغلب الحالات تأتي عوجاء لوقاء ولكن ضعيفة أصلاً. ومع ذلك فقد مرت عليَّ مدة وأنا أدرب فرقة المدرسة الثانوية بعكا على لعب كرة القدم. ما في غيري، أو ما في في الميدان غير حديدان؛ والمدرسة يجب ان يكون لها فرقة؛ والفرقة تتدرب باللعب أمام فرقة أخرى من المدرسة، لكن بين حين وآخر نُزار أو نزور، وكانت كرة القدم احدى مواد الضيافة الرئيسية في الحالتين. ومع كل هذا فقد نجحت في التدريب على الأقل من حيث النظام وتمرير الطابة (الكرة). تذكرت هذه الفرقة (أو على الأصح الفرق) التي دربتها وأنا «أتفرج» على لعب بين فريقين المانيين مشهورين، وعلى ملعب مدهش؛ وكان ملعبنا تراباً وكانت أحذية التلاميذ على قد الحال!

والأمر الثاني الذي تذكرته كان مرتبطاً بكولون. في الاسبوع الأول من شهر نيسان / ابريل (١٩٣٦) سافرت بالقطار من لندن الى ميونيخ. وكان القطار قد نقلنا من اوستند (الميناء البلجيكي) الى كولون، وهناك بدّلنا القطار الى ميونخ. والمهم هنا هو كولون بالذات. في أعقاب الحرب العالمية الأولى فرضت معاهدة فرساي على المانية. ولست أريد التحدث عن الشروط التي فرضتها دول الحلفاء على المانية لمنع عودتها الى انشاء آلة حربية على غرار ما كان عندها سنة ١٩١٤. ولكن واحداً من هذه الشروط كانت كولون مرتبطة به. فهذه المدنية تقع في وادي الراين، ومن روافده نهر الرور (Ruhr). وقد كانت فرنسة احتلت هذه المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى لخلاف وقع حول التعويضات. وأخيراً في سنة ١٩٢٥ وقع اتفاق لوكارنو، الذي حدد أموراً كثيرة، كان منها تحييد «أرض الراين» بحيث لا يدخلها جيش الماني قط. وقد قبلت الحكومات الالمانية المتعاقبة هذا الوضع. لكن سنة ١٩٣٣ عين هتلر مستشاراً للرايخ (الالماني) وفي السنة التالية أصبح زعيم الرايخ (أي رئيس الدولة). ومن مركز القوة هذا بدأ هتلر يتحلل من قيود معاهدة الصلح وملحقاتها. وفي شهر نيسان (سنة ١٩٣٦) ألغى القيد الوارد في اتفاقية لوكارنو والذي يحيد أرض الراين وأمر الجيش الالماني بالدخول الى المنطقة.

لما مررت انا بكولون، بعد ذلك بأيام فقط، كانت أحذية الجنود تقرع في قاعات المحطة الكبيرة، وكان القوم جذلين لذلك مسرورين به، وقد اعجبهم الجنود المسلحون وهم يدخلون بلدهم ومنطقتهم بعد نحو ست عشرة سنة. بعد بضعة أسابيع قال لي الماني، كان صديقاً لعمي (شقيق أبي) الذي كان يقيم في المانية، «الالماني يشعر بانه عريان اذا لم يلبس ثوب الجندية»... لما قال لي ذلك تذكرت الجنود في كولون؛ لكنني رأيتهم كثيراً في المانية بعد ذلك.

أما شتوتغارت فقد تذكرتها لشيء آخر يعود الى سنة ١٩٣٧. كنت أكثر التنقل على البسكليت في المانية؛ واتنقل مسافات (بلغت في مجموعها نحو ٣٠٠٠ كيلومتر تقريباً). وفي يوم خططت لزيارة تبدأ من ميونخ الى شتوتغارت ثم الى فريبورغ فالغابة السوداء فبحيرة كونستانس فميونخ. ونصحتني السيدة شريفر، التي كنت

أسكن في بيتها، ان لا أطيل المسافات. ولكنني في اليوم الأول سافرت من ميونخ الى شتوتغارت - مسافة ١٥٥ كيلومتراً، دفعة واحدة. وقضيت يوماً فيها أزورها واستمتع بمدينة كانت يومها (قبل ثلاث وخمسين سنة) مدينة امفتياترات طبيعية، تغطي المساكن سفوحها وتفرق بين المنازل الحدائق الغناء، حتى اذا وصلت الى وسط الامفتياثر وجدت الصخب والضجيج اللذين كانت تتميز بهما كل مدينة كبيرة. وقد زاد هذا ولا شك هذه الايام. وكانت آخر مرة اجزت على مقربة منها سنة ١٩٧١ - ولكن في القطار عبر محطتها فقط!

ولما انتهت مباراة كرة القدم، وتغلبت فيها كولون على شتوتغارت، اقفلت التلفزيون، وجلست اكتب هذه الكلمات. وقبل ان انسى. ان ماء كولونيا المعروف انما يسمى بذلك لأن كولون تدعي انها هي أول مدينة استخرجت هذا العطر - لعلّ المقصود شكلاً معيناً من الصناعة. وهناك صنف من عطور كولون اسمه ٤٧١١ (4711). والقصة المتعلقة باسم هذا العطر، على ذمة حفيدة منتجه، نقلا عن غدرون شريفر، هو أن هذا الرجل، الذي انتج اصنافاً متعددة، كان هذا الصنف آخر ما انتج. وكان عدد ابنائه قد أصبح أحد عشر - من هذا العدد أربع بنات وسبعة صبيان. فجمع الرقمين وأطلق على هذا الصنف اسم (4711)، أي ان رقمي الاربعة والسبعة عندما يجمعان يؤديان رقم أحد عشر.

أما غدرون شريفر فلها في هذه الصفحات موضع خاص بها.

خلال السنوات الأربع التي قضيتها في الغرب، تعلمت أموراً كثيرة. وكان هذا التعلم، في غالب الحالات، أساسه الاكتشاف لا السماع والقبول. ومما لا أشك فيه ان اكتشافي لشؤون انكلترا، ممثلة بلندن خاصة، كان الأوسع والأعمق؛ وكان يلي ذلك تعرفي، مكتشفاً أيضاً، على المانية؛ ثم تأتي معرفتي لفرنسة، خاصة عبر باريس وبيزانسون، وهي الأقل عمقاً والأضيق أفقاً. ولم يعد ذلك الى المدة التي قضيتها في كل من هذه البلاد فحسب، فقد كان ذلك عاملاً مهماً؛ ولكن أحد الأسباب الرئيسية كان معرفتي باللغة. فانا أعرف الانكليزية والالمانية، فيما لا أعرف اللغة الفرنسية الا قراءة.

أقول اكتشفت أموراً كثيرة عن كل من هذه المدن الكبيرة. وقد كان الانطباع الأول الذي وقر في نفسي بعد الزيارة الأولى لباريس (١٩٣٧) هو ان هذه المدينة غانية تجيد تجميل نفسها وتحسن اختيار زيها وثيابها، وهي معروضة يمكن للمرء ان يراها، ويرى جمالها، آيات وانجازات، دون جهد أو ارهاق. فانت إذا انتقلت، كما انتقلت، ماشياً متمهلاً من قوس النصر عبر الشانزليزيه الى الكونكورد والتويلري (اللوفر)، رأيت من باريس جبينها المشرق، وصدرها الناهد، يتوسطه يومها، مقهى هنغارياً، وسرتها المخفيّة تحت ثوب من الحرير الصيني أو الليوني الشفاف. ومن الكونكورد تتجه نحو ساكري كير (القلب الاقدس) أو نحو الحي اللاتيني، حي توفيق الحكيم وزكي مبارك وغيرهما. وكان البعض صادقاً والبعض مهوّشاً فيما كتب. فقد يسطو على حساء البصل الذي صنع لغيره، أو يفترض نفسه انه يرافق حسناء كان صديقه قد اقتنصها (ولم يكن الاقتناص في باريس صعباً قط، ولا في يوم من الأيام). وأنت إذ تسير في أي من الاتجاهين تجاري فخذي باريس. لكن لأن باريس قد تعبت من هذا الاستلقاء فقد حنت ركبتها اليسرى كي يتم لساكري كير الارتفاع المناسب. اما الرجل اليمنى فتتجه نحو مطاعم اليونان حيث يقدم الأوزو (العرق) مع فجلة وحبة زيتون تقليداً للمازة الشرقية (يا عيب الشوم)، أو يوضع امامك صحن فيه ثِمّنٌ (أي أرز) ولحم، كي لا يحسب عبدالملك، صديقنا العراقي، انه بعيد عن جو بلده.

فاذا تعبت من البصبصة أو الحسمسة أو المصمصة، أو أفلت الصيد منك إذ اكتشف انك طفران تريد متعة مجانية أو شبه مجانية (أي على حساب الأخرى)، وأدركت انك بحاجة الى أن تطهر نفسك من الآثام، على تباين أنواعها؛ فامامك الكنيسة الكبيرة المدهشة التي تقتعد سكري كير، أو جامع باريس. والفرق بين الاثنين كبير، لا من حيث العبادة والتعبد، فالذي يريد الاتصال بالله لا يعجزه المكان. ولكن كل ما قد تحصل عليه في الكنيسة أن

يكون الوقت ساعة تقديم القربان فتحصل على بركة تعتمد قطعة من الخبز صغيرة وملعقة من الخمر التي قد تكون معتقة. اما اذا ذهبت الى الجامع فان حظك يكون أوفر: اذا ان مطعماً يقوم الى جانب الجامع يقدم الطعام الذي يعد في شمال افريقية - خاصة في الجزائر - وهو الكسكس (أي ما نسميه نحن في المشرق المغربية، بعد ان شرّقناها كثيراً).

ليست هذه باريس كلها. لا أبداً. لكن متى عرفت انت خطوط الارتفاع الأساسية في هذا الجسم، ورأيت الطرق التي يترتب عليك ان تعبرها، يصبح التعرف على الأجزاء الأخرى يسيراً نسبياً. والذي يقرر ما الذي تريد ان تتعرف عليه يتوقف على مزاجك. فأماكن اللهو لا عداد لها، وأماكن المتعة العقلية لا حد لها، وأماكن التثقف كثيرة. «أطلب تجد، اقرع يفتح لك».

أما لندن فلا تعرض نفسها على هذا الشكل. لندن يجب ان تكتشفها جزءاً جزءاً وقطعة قطعة، وكما يقول المصري، وقوله آية في دقة التعبير «حتّة حتّة». وقد يعجزك الأمر اذ لا تدري أين تبدأ؟ من هايد بارك؟ لا. من ميدان بيكادلّلي؟ لا. من ميدان «الطّرف الأغرّ» (ترافلغار)؟ لا. من اكسفورد ستريت؟ لا. هل لك ان أخبرك اين بدأت أنا؟ لا، هذه ليست نصيحة، ولكنها تجربة. كان من الطبيعي ان تكون احدى نقط الانطلاق بالنسبة لي الكلية وما يدور حولها. صحيح، لكن هذا هو الشيء «الرسمي»، ونحن هنا نريد ان نكتشف المدينة. بدأت أنا بالمسرح وبعد زيارات قليلة للمسرح انتقلت الى دار الأوبرا. ولم أذهب الى الكازينو الا بعد نحو سنتين ونصف السنة ولما وجدت رفيقة تستحق ان ينفق عليها ما ينفق في الكازينو - للعشاء والرقص فقط. ومن هي؟ ما لك تستعجلني. سأحدثك عنها؛ اطمئن الى ذلك.

ولندن تُسْتَكْشَفُ في المطاعم على تباين مشاربها. والقضية تتعلق بالجيبة، وطريقة التخلص مما في الجيبة. ولاذكر على سبيل المثال مطعمين في لندن هما مطعمان هنغاريان: الواحد اسمه هنغاريا (ولعله لا يزال موجوداً) والثاني اسمه تشاردا (وقد زال من الوجود). المطعم الأول مصيدة مالية. ويكفي ان تعرف ان المكان لم يكن يقبل الآكلين الا اذا كانوا بثياب السهرة الرسمية. وقد دخلته مرة بدعوة. الدعوة رتبها صديقنا المرحوم موسى عبدالله الحسيني، وكانت المناسبة وجود الزعيم المصري علي علوبة باشا في لندن؛ فاراد البعض تكريمه. مكان فخم، لن أصرف وقتاً ولا جهداً في وصفه، واكل هنغاري (فرضا) وخدم وحشم حول كل زاوية. والمفروض ان تدفع الى أكثر هؤلاء، اما لأنه يقدم لك خدمة أو لأنه يبتسم لك أو لأنه يُحييك. أذكر ان العشاء للشخص الواحد - مع بعض الشراب والقهوة - قارب الجنيهات العشرة. والذي أذكره ان المضيف سأل المدعويين فيما اذا كانوا يرغبون في الدراق (ولم يكن في لائحة الأكل) فاظهر واحد منهم رغبة. فكان ثمن الدراقة الواحدة جنيهاً.

أما مطعم تشاردا، الذي كان يقوم على بعد نحو عشر دقائق (مشياً) من الآخر، فقد ذهبت اليه مرات عديدة؛ لأن العشاء (وهو أثمن عادة من الغداء) كان قلما يتجاوز العشرة شلنات (أي نصف الجنيه) للشخص مع «شوية» نبيذ هنغاري وقهوة أيضاً - لكن بدون دراقة.

لكن الذي ذكرته عن باريس لا يعدو كونه اشارة الى واحدة من الطرق الصالحة للتعامل معها. وما قلته عن لندن هو أقل من لمحة لنوع المدينة. فالمدينتان فيهما أكثر من ذلك بكثير. فيهما زوايا وخبايا تحوي صنوفاً من الحياة، وضروباً من الفن، وأنواعاً من الفكر، فضلاً عن أماكن الخلاعة والتخلع والعهر. وفي كل منهما متاهات واسعة، هي متاحف ومكتبات ودور للنشر ومراكز الصحف واندية خاصة لفئات وطبقات من الناس والجيوب. وبهذه تتميز لندن عن باريس. فلندن - وبريطانية عموماً - هي مخترعة الأندية والحافظة لشخصيتها والعاملة على تنميتها. والنادي في بريطانية له كيانه وشخصيته وتقاليده.

ولعلّ السبب الرئيسي في أن لندن وباريس، فضلاً عما اشرت اليه من سبل التعرف عليهما، لهما هذه الزوايا

والخبايا هو ان كلا منهما لها تاريخ طويل. والتاريخ هو الذي قد يعقد الأمور. انه يربط حادثة بمكان، ثم يتخذ من ذلك المكان بقعة يعنى بها، ثم تنشأ حول البقعة تقاليد قد تكون مرتبطة بالحادثة وقد لا تكون، ولكن الزمن يربطها بها. وهنا تصبح القضية متشابكة الخيوط، وعندما يأتي المؤرخون والاثريون لدرس البقعة والمكان الحادثة يزيدون في شربكتها ولخبطتها. اما بالنسبة للزائر أو للمقيم الذي يريد ان يتعرف الى المدينة فهي محطة من المحطات أو معلمة من المعالم؛ يسمع قصتها فتترك في نفس كل من الزوار أثراً خاصاً. فقد تضحك البعض كما تبكي الآخرين. فالناس عندما يزورون مكاناً لا يتجردون من شعورهم الخاص أو مزاجهم الآني. وهذه الأمور هي التي تعطي الصورة التي نحتفظ بها للمستقبل أبعادها، وترسم لها خطوطها، وتوحي لنا بألوانها. وما أكثر ما تكون هذه الصورة بعيدة كل البعد عن الذي حدث - أو ظُنّ انه حدث - في تلك البقعة أصلاً.

وعندما تقيم في مدينة وقتاً طويلاً فانك، إذا كنت مثلي ترغب في المشي وفي التعرف الى الأماكن، توسع نطاق تجوالك، أو كما كان يقول معلمنا (في جنين) زكي بك، توسع البيكار (فقد كان يعلمنا الهندسة). وهنا يصبح ادراكك لنواحي الحياة في المدينة أعمق، وتصورك لظلالها أدق، واتصالك بها الصق. وكل هذه أمور تبقى معك عندما تدخل شغاف القلب ومعاقل الدماغ.

فانا مثلاً أحب لندن حب معرفة وادراك وتفهم. وهذا جميعه نتيجة هذا الالتصاق بالبلد ومعالمه والاحتكاك بأهله. وغرامي بباريس غرام من يحب ان يرى، بين الحين والآخر، فتاة علق بها في وقت من الأوقات، ويحب أن يذكرها كما كانت لا كما صارت. إلا أن المدينة، مثل الانسان، لا تظل على شكل واحد. فهي تترهل فتتسع، وتقبل جميع أنواع الأطعمة (أي الناس) لذلك تتبدل ألوانها، وتتعدد اللغات فيها، وقد تتنافر الأصوات أيضاً. وقد أصاب هذا كله لندن وباريس، بالنسبة الي. فالمدة التي تفصلني اليوم عن ايامي الأولى فيهما هي نصف قرن (ويزيد) أي خمسة عقود (وشوية).

وما لي اقتصرت على لندن وباريس وتركت برلين؟ لا لم أتركها. لكن برلين كانت تختلف عنهما يومها اختلافاً بيناً. أولاً برلين أحدث من المدينتين الأخريين عهداً - في النشوء والتطور وفي صيرورتها عاصمة للدولة الالمانية. إذ أن هذا يعود الى سنة ١٨٧١ فقط. ومع انها تحتوي على زوايا وخبايا، فان الموجود من هذه فيها حديث نسبياً. لذلك فقد كانت الشوارع الرئيسية فيها أكثر استقامة من مثلها في المدينتين الأخريين. فضلاً عن ذلك فقد زرت برلين، والمانية، في أيام هتلر. وقد كان من المظاهر المألوفة في البلاد ان ترى الجنود أكثر مما كنت تراهم في باريس أو لندن. ومع ان في كل من بريطانية وفرنسا مدناً كبيرة لها شخصيتها المميزة، فان المدن الالمانية الكبرى لها من الشخصية ما قد يفوق برلين قِدَماً وأثراً وعرفاً. ولنقدم على سبيل المثال ميونخ وكولون وفرنكفورت - وهي من المدن التي عرفتها معرفة مباشرة. فكل من هذه كانت عاصمة لملكة أو دوقية أو امارة قبل ان تقوم أسرة هوهنتزلرن باتخاذ برلين عاصمة لها في القرن الثامن عشر، وهو القرن الذي كان فيه الباستيل قد تعب من استقبال ضيوفه الملكيين، وكان يتوق الى من يخلصه منهم؛ وقد تم له ذلك سنة ١٧٨٩.

ولكن الحكومة الالمانية بعد توحيدها (١٨٧١) عنيت بعاصمتها عناية فائقة فزخرفتها وزينتها وهيأتها لتكون عروساً ملكية. وكان شارع انتردن لندن يسحرك بأشجار الزيزفون القائمة على جانبيه وبمتاجره ومطاعمه ودور الفن القريبة منه. وقد انتهى أمر هذا الشارع. فقد زرته سنة ١٩٧١. نصفه في برلين الغربية، ولا تزال فيه حياة صاخبة لكنها حياة تشعر دوماً بأنها يجب ان تتوقف عند نقطة، بعد ان كانت، قبل الحرب تنطلق الى حيث تشاء. والنصف الثاني في برلين الشرقية لا يشعر بقيوده فحسب، ولكنه يحسد نصفه الغربي على ما فيه من حياة ونشاط وكأنه يأمل - وفي نفسه غصة الماضي - أن يعود الى الانطلاق الذي كان يعرفه قبل

ان تشحن برلين والمانية بما شحنت به، فانتهى الأمر بها الى تقسيم حتى في شارع برلين الرئيسي! (وقد عاد الى الشارع مجده سنة ١٩٩١).

لكن هذا الشخص الذي وجد نفسه في لندن في خريف ١٩٣٥، والذي رسم لنفسه ان يكتشف هذه المدينة وما قد يتبعها من مدن وبلاد، ماذا كانت معطياته وأدواته المعنوية والمادية؟

لأعد الى ذلك الوقت، محاولاً، بقدر الامكان، ان ارسم لنفسي صورة مستمدة، بطبيعة الحال، من مقومات شخصيتي التي كانت قد تمت ونمت الى ذلك الوقت؛ على أنني أنوي أن أضيف اليها بضعة أمور كانت قائمة في نفسي لم تبرزها أجواء عكا، الا ان أجواء لندن فرضت خروجها الى الضوء. لم تكن هذه الأمور جديدة. هي موجودة، لكن لندن ضغطت عليها فأخرجتها من مكمنها، بحيث أصبح لها دور في تحديد بعض طرق الاكتشاف هذه.

انا مسيحي ارثوذكسي عربي؛ وليس لورود هذه الكلمات على هذا النحو أي دلالة خاصة: إذ أن المهم هو المحتوى في مجمله، وخير تصور للاطار الصالح لفهم محتوى هذه الكلمات من حيث «كليّتُه» هو اعتبار الالفاظ الثلاثة خطوطاً تكون ثلاثة اضلاع لمثلث، وأكون أنا المساحة التي يحيط بها المثلث، دون الالتفات إلى أي حجم للرقعة أو طول للاضلاع.

ومن هنا فقد لا أتقبل كل مقولة للكنيسة المسيحية، وقد لا أرفض أموراً بعينها رفضاً تاماً، لكنني أظل مسيحياً في اطار الايمان العام. ولست أدري لو انني تقدمت - يومها أي سنة ١٩٣٥ أو اليوم أي سنة ١٩٨٩ - الى السلطات الكنسية لأجيب أجابة دقيقة عن بعض الاسئلة التي توجه الي، فيما اذا كنت أنجو من شيء اسمه الحرمان (ولو ان كنيستنا لا تمارسه الى الحد المتوجب عليها). ومع ذلك فانا مطمئن الى ان ايماني ينفذ الى أبعد من أية سلطة كنسية، وأنه اذا بلغ مصدر الايمان الكلي يظل مقبولاً هناك، لأن هذا المصدر بالذات أوسع أفقاً وأبعد نظرة وأنفذ بصيرة من كل ما حدده به البشر على اختلاف نحلهم ومللهم وايديولوجياتهم ومذاهبهم.

وأنا ارثوذكسي، بمعنى أنني اتبع هذه الكنيسة الشرقية الأصيلة المعتبرة أم الكنائس بسبب انني ولدت فيها. هذا لا يمنعني من التعبد في أي من الكنائس التي أدخلها؛ وقد تعبدت - بمعنى أنني اتصلت بمصدر الايمان مباشرة - في أماكن غير الكنائس. فارثوذكسيتي، من حيث انها ضلع من هذا المثلث، تمثل الناحية الاجتماعية من تصرفي في الاطار الكنسي أو الديني.

وأنا المسيحي الارثوذكسي ماذا كان موقفي من المسيحيين من اتباع الكنائس الأخرى. في المجتمعات التي عشتها في فلسطين كان هناك من الكنائس التي اتصلت بها، مجاورة ومعايشة ومصادقة، كنيسة الروم الكاثوليك أو على الأصح جماعة من ابناء هذه الطائفة، وكان هناك جماعة من اتباع الكنيسة الأسقفية (البروتستانتية) ومن الكنيسة اللاتينية. ولم أكن أشعر أنا بفرق أو خلاف بيني وبينهم، لأنني أنا لم أهتم بنواحي الخلاف بين كنيستي وبين الكنائس الأخرى. أما ماذا كان شعورهم نحوي؟ أو نحو كنيستي، فليس لي أن أعرف أو أعمم. لكنني استطيع ان أروي قصة حدثت لي مع القس أسعد منصور، راعي كنيسة الناصرة الاسقفية. جدي لأمي اختلف في وقت من الأوقات مع المطران الارثوذكسي (أو لعله اختلف مع وكيل المطران) في الناصرة. ولست أدري سبب الخلاف أو نوعه؛ فماكان منه الا ان «التحق» بالكنيسة الاسقفية لاغاظة خصمه الديني، وأخذ يتردد على الكنيسة للصلاة. في الصيف الذي تخرجت فيه من دار المعلمين، وكنت أقضيه في الناصرة، ذهب جدي لزيارة القس أسعد منصور، واصطحبني. وانا لم يكن لدي ما يمنعني من مثل هذه الزيارة. اثناء الحديث قال القس أسعد، موجهاً كلامه الى جدي، لكن كان يريدني أن أسمع كل كلمة: «الآن نقولا ضمن مستقبله في الحياة. بقي عليه ان يختار الطريق الروحي الصحيح!» ولم تفتني، بالطبع، ملاحظة القس. فاجبته:

«لكنني يا حضرة القس طريقي الروحي معرف خلال كنيستي الارثوذكسية». وابتسم القس ولم يعلق. ولعله خطر له ان الوقت سيحين. وقد حان الوقت اذ عاد جدي الى كنيسته الارثوذكسية؛ فتزوج للمرة الثانية في حضن الكنيسة الاصلية، ولما توفي بعد ذلك بنحو عشرين سنة جُنِّز ودفن ارثوذكسياً.

واذن فالضلعان اللذان ذكرت كانا يزودانني بالايمان المسيحي ضمن ابعاد ارثوذكسية، على شيء كثير من التوسع في هذه الأبعاد تحرراً من القيود. أما الضلع الثالث، أي انني عربي، فقد كان أهم من مجرد ضلع. ولعلي أحسن تعبيراً إذا أنا اعتبرته قاعدة المثلث. عندئذ أستطيع ان اعتمد عليه في توضيح أمور كثيرة. ولنترك جانباً قضية القومية العربية ومفاعلاتها والوحدة العربية ومتناقضاتها التي كنا ندور في جوها في العشرينات والثلاثينات؛ ولنعد الى ناحية الشعور العفوي المنبثق من داخل نفوسنا والمتمثل، بشكل خاص، بلغتنا. هذا هو الشعور العربي الذي كانت جذوره، فيما أشعر انا، مرتبطة بالأرض التي أحيا فوقها، والتي كانت حباله تشدني الى أولئك الذين اعيش بينهم؛ ولم يساورني قط شك في هذا الانتماء، بل الذي استطيع ان اسميه ولاء دون قيد أو شرط.

فأنا العربي المسيحي الارثوذكسي عربي في ثقافتي ـ البسيط منها والمعقد، الحديث منها والقديم ـ عربي في نظرتي الى الأمور أي أنني أراها من منظار عربي اداته وآلته هي اللغة العربية. ومن هنا كنت أشعر ببعض الفرق بيني انا المسيحي العربي وبين المسيحي الأوروبي. هذا بقطع النظر عن أي نقاش حول شؤون الدين أو حتى التحدث عن القضايا الدينية حديثاً عادياً. كان الفاصل بيني وبينه أولاً وقبل كل شيء اللغة. فهو يتكلم الانكليزية أو الالمانية أو الفرنسية أو غيرها واذاً فهو مختلف عني. في كنيسة القديس بولس الاسقفية (في القدس) وفي الكنيسة المماثلة لها في عكا كانت الرسائل تقرأ بالعربية وكان الانجيل يتلى بالعربية وكانت الترانيم عربية كما كانت العظة بالعربية. فهي، بقطع النظر عن أي فرق في التفسير اللاهوتي بيني وبين اتباع تلك الكنيسة، كانت اللغة العربية تجمع وتربط وتوثق الصلات. وفي كنيسة القديس جورج الاسقفية (في القدس) كانت هذه الأمور جميعها ـ القراءات والعظة والترنيم ـ تتم باللغة الانكليزية. كانت المعاني واضحة وكانت العظة، في أحيان كثيرة، خيراً من بعض العظات بالعربية، لكن يظل هناك فاصل.

هذا النوع من الشعور كان واحداً من العوامل التي أثرت في السبل التي سلكتها في اكتشافي للمجتمع الجديد الذي وجدتني فيه في خريف ١٩٣٥ وما تلا ذلك. انا لم أخلق هذا الجو؛ ولا أوجده الآخرون. لكنه وُجِدَ، وبشيء من الطبيعيّة، وشعرت بوجوده لما قيل لنا أننا نعيش في جو مسيحي. صحيح لكن الذين حولي لم يكونوا مسيحيين عرباً. ولم يقم هذا حاجزاً بيني وبين الناس الذين اردت أن أتعلم منهم مكتشفاً نواحي الحياة عندهم؛ لكن كنت، مع ذلك، أشعر بوجود هذا الفارق. والواقع ان هذا الفارق قوّى شعوري الأصلي الذي كنت أقول به دوماً، والذي ما فتئت أقول به منذ ذلك اليوم وبشكل أقوى، وهو ان المسيحية العربية ـ مسيحية العرب ـ بصرف النظر عن المذهب أو المكان والزمان، هي مسيحية لها صورتها وطعمها ونكهتها ومقوماتها الخاصة، وهي، بشكل عام، تختلف عن المسيحية الغربية، حتى ولو كانت الجماعة هنا (أي في دنيا العرب) من المذهب نفسه المنتشر في الغرب.

وما أكثر ما تذكرت، وانا أدير هذا الأمر ـ أي قضية المسيحية العربية ـ على وجوهه قصة رواها لي المرحوم محمود العابدي، صديق العمر من أيام دار المعلمين (١٩٢٢ ـ ١٩٢٤).

في العشرينات قامت في فلسطين حركة ارثوذكسية عربية كانت تريد اختراق جدار أخوة القبر المقدس بوجوب تعيين مطران عربي لمدينة الناصرة، بدل كليوبا الذي توفي في ذلك الوقت. وتقوت الحركة بسبب التشجيع العام الذي نالته. وأسست لجان وجمعيات ارثوذكسية (عربية) في انحاء فلسطين، لبث الفكرة

وتوضيحها. وأخيراً انتخبت لجنة عليا في القدس. وهنا تبدأ قصة محمود العابدي.

بما ان شرقي الاردن (كما كان يعرف يومها) تابع للبطريركية الاورشليمية (المقدسية) فقد رؤي أنه من الضروري ان يزور وفد من اللجنة العليا لاطلاع الجماعة الارثوذكسية في الاردن على الوضع والحركة والمخطط. واختير الوفد واتجه نحو الكرك، فقد كانت يومها تحوي أكبر جماعة ارثوذكسية في المنطقة.

كان الوقت أيام الربيع وكان أهل الكرك مربعين، أي أنهم كانوا يتركون المدينة وينصبون خيمهم في البر الواسع. فلما وصل الوفد الفلسطيني الى المربع ارشد الى الخيمة الكبيرة ذات الأعمدة الثلاثة. فاستقبل بما يليق بضيوف. ومن عادة البدو ان لا يسألوا الضيف عن حاجته أو سبب مجيئه، ولا يجوز للضيف ان يذكر غايته قبل ان يتناول أول وقعة طعام على الأقل. ونحرت الذبائح، وأعد الطعام، وتناول الضيوف منه شبعهم، ودار الحديث؛ فتولى كبير الوفد الفلسطيني شرح القضية الارثوذكسية الوطنية من أولها حتى يومها، وطلب من الجماعة العون والمساهمة بكل وسيلة. ولم يقاطع الرجل وهو يتكلم.

بعد ساعة من الحديث قال المضيف: «أهلاً بكم وسهلاً. لكن انتم نزلتم عند الجماعة الأخرى (أي المسلمة). فأولاد عمنا النصارى نصبوا خيامهم في الجهة الثانية. لكن انتم الليلة ضيوفنا، والصباح رباح».

اضاف محمود العابدي انه كان مع الوفد الفلسطيني شاب حديث العهد بالعمل السياسي، فالتفت الى جاره، وهو ابن المضيف، وسأله: «ما هو الفرق بينكم وبينهم؟».

فكان جواب الشاب: «والله ما ندري. لكن أولاد عمنا يصلون في الكنيسة، ونحن نصلي في الجامع!».

وكان العنصر الثاني الذي أثر في محاولاتي لاكتشاف المجتمع الجديد، وفي بريطانية خاصة، هو انني آت من فلسطين ـ من بلد كانت بريطانية تطبق فيه سياسة الانتداب التي كان وعد بلفور (أي اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين) الاساس فيها. وقد عرفت المواقف القمعية التي لجأت اليها حكومة الانتداب لتيسير نقل الاراضي الى اليهود، والمحاباة التي كان اليهود يعاملون بها. كما شهدت (ولا زلت الى اليوم اتذكر) يوم اعدام الزير وجمجوم وحجازي في عكا (١٩٣٠).

وأنا الآن في العاصمة التي تطبق القرار السياسي الذي اتخذته ايام الحرب العالمية الأولى؛ وأنا وجهاً لوجه امام اولئك الذين يفعلون ببلدي الكثير. وقد زاد الطين بلة مع الوقت قيام الاضراب ثم الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٦ـ١٩٣٩) وانا في بلاد الانكليز.

هل يمكنني ان اكتشف هؤلاء القوم وماعندهم من مناقب واتعلم منهم؟ وقد سألت نفسي هذا السؤال مرات ومرات؛ وانا واثق من ان هذا السؤال مر بخاطر كل منا مرة ومرة. ولكنني وجدتني راغباً في أن أتعرف الى هؤلاء القوم واكتشف شيئاً من اسرار الحياة عندهم، مما قد يعينني في مستقبل حياتي. كنت قد قرأت كتاب سر تقدم الانكليز السكسون، الذي نقله فتحي زغلول الى العربية. وجربت أول الأمر ان أرى الحد الذي أدركه مؤلف الكتاب (وهو فرنسي) عن سر هذه الجماعة. لكنني تخليت عن هذه الفكرة وقررت أن أسبر غور الأمور بنفسي، وعلى طريقتي. وكان من حسن حظي انني لم أمل الى علم الاجتماع أو ما يمت اليه بصلة. إذ أنني كنت لجأت الى أساليبه ووسائله من استبانة ترسل الى فئة من الناس ترى انت أنها تمثل قطاعاً معيناً من المجتمع، وتحصل على الأجوبة وتحسب الحسابات وتخرج بما يسمى معدل. والمعدل تعتبره أساساً ومن يخالفه لا بد ان يكون شاذاً. وقد نسيت ان المعدل ذاته الذي ترتكز اليه لم يزد عن كونه نقطة التقاء الشواذ من الجانبين.

صحيح انني كنت اعنى بالتاريخ، وبالتاريخ القديم بنوع خاص، وقد يحملني هذا على الحكم على أساليب «الاكتشاف» وفق فلسفة تاريخية معينة. الا ان هذا لم يكن هو الذي حدث. فمن الجهة الواحدة لم اتخذ لي فلسفة تاريخية ايديولوجية المنحى بحيث تقيدني. اما من الجهة الأخرى، فانني لم أنو الحكم على الناس حكماً زمنياً

تاريخياً. كنت أريد ان اتعرف اليهم افراداً، فذلك ادعى الى اكتشاف مشاربهم واتجاهاتهم.

وكان ثمة عامل آخر كان له بعض الأثر في تعيين سبل اتصالي بالناس. وفي الجامعة قبل كل شيء. فقد كانت سني تزيد نحو عشر سنوات عن معدل سن الطلاب والطالبات الذين يحضرون المحاضرات معي. وهذا يبعدني عنهم كما كان يبعدهم عني. فمن الطبيعي ان اكون اكثر احتراساً في حديثي معهم واختلاطي بهم. وقد شعرت بهذا خلال السنة الأولى خاصة. فالموضوعات متعددة، والتبديل في المساقات والاساتذة قد يحدث فصلاً بعد فصل، والسنة الدراسية في انكلترا هي ثلاثة فصول لا فصلين اثنين (على الطريقة الاميركية)؛ وكنت عضواً في اكثر من جمعية، لذلك كانت الأمور على ما يرام من هذه الناحية. لكن الشيء الذي لاحظته في نفسي، ولعل ذلك كان بسبب سني، هو انني كنت أحظى باحترام التلاميذ أولاً، وثانياً إذا حاولت التقرب من أحدهم كان يعتبر ذلك اهتماماً به مني يستحق العناية من جهته.

لم يكن لون وجهي ما يحمل الآخرين، أي الانكليز، على الحذر في تصرفهم نحوي. فقد كان هناك شعور خاص نحو الملونين. وكانت أسر كثيرة ترفض ان تؤجر غرفها للهنود مثلاً. أذكر وأنا افتش عن غرفة في أول عهدي بلندن ان سألتني صاحبة البيت (بعد ان حصلت على المعلومات وقلت لها انني سأتصل بها تلفونياً لاخبرها عن قراري) قائلة: «هل ستقيم أنت بالذات في الغرفة؟» استغربت السؤال، ولكنني اجبتها بالايجاب، ثم استفسرت عن سبب سؤالها. فقالت: «نحن لا نؤجر هنوداً هنا، لذلك خشيت ان تكون انت وسيطاً لاستئجار الغرفة ثم يأتي هندي فيقيم فيها».

ولم يكن في اسلوب استعمال السكين والشوكة ما قد يحول بيني وبين الناس. فالانكليزي كان، ولا يزال، مثل بقية الاوروبيين، حريصاً على أن تُمْسك السكين باليد اليمنى والشوكة باليسرى، فيكون القطع (للحوم) والأكل عملين متلازمين (الاميركي يقطع اللحم بالسكينة بيده اليمنى، ثم ينقل الشوكة اليها وياكل). اذكر هذا بمناسبة تعود الى أيامي في لندن. فقد دخلت يوماً مطعم جمعية الشبان المسيحية لأتناول طعام الغداء. وبعد ان جلست الى احدى الموائد جاء شخص واستأذن في ان يجالسني، ولم يكن سبيل لمنعه. قد تضايقت قليلاً سيما وان الموائد الخالية كانت كثيرة في قاعة الطعام. ولم يلبث ان بدأ الحديث معي وسألني من أين أنا وأضاف قبل أن أجيب انه متأكد من انني لست اميركياً، لانني آكل على الطريقة الأوروبية. ولم يظن انني انكليزي لانني لم أكن بعد قد اتقنت «لفظ» الانكليزية. ودار بيننا حديث ممتع عن الدنيا والناس. وقد أدركت يومها انه ليس من الضروري ان يكون كل داخل عليك متطفلاً مضايقاً. الرجل اراد الحديث مع شخص آخر، لا أكثر ولا أقل.

ولكن هل معنى هذا انني قضيت هذه السنين الأربع وأنا أمتص ما عند القوم كالاسفنجة؟ وهل مرت أيامي جميعها هانئة وادعة؟ أحسب لو أن هذا الذي حدث لكان وضعي مثل بعض الأصدقاء الزملاء الذين قضوا سنوات يطلبون العلم في لندن وغيرها وباريس وسواها والمدن الاميركية ثم عندما يعودون لا يبدو لذلك اثر في حياتهم لا فكراً ولا اجتماعياً ولا لغة. وكل ما يحدث انهم **تعلموا** التاريخ أو الأدب أو الهندسة على اختلاف انواعها والكيمياءعلى تنوع تخصصاتها.

لا أنا تفاعلت مع الجو الجديد. تفاعلت مسالماً، وتفاعلت مخاصماً، وتفاعلت متأثراً وتفاعلت مؤثراً. وقد تبدو هذه الأشياء متناقضة الى درجة كبيرة، لكن الحياة الجادة النافعة لا تسير على وتيرة واحدة. لا بد لها من ارتفاع وانخفاض ومن اتجاه نحو اليمين وسير نحو اليسار، ونظرة فيها حب وأخرى فيها ازورار. والذين لا تمر بهم أمور من هذا النوع هم من عبيد الله البطالين (ولو انهم بلغوا من العلم الكثير الكثير) بالنسبة لأنفسهم أولاً وللذين سيعنون بهم ثانياً.

والذي أراه ان بعض ما أصابنا - في بلاد العرب - من توقف عن السير اماماً في الميادين العقلية والفكرية يعود الى عبيد الله البطالين هؤلاء. وهم الذين يجترون أقوالهم - وقد لا يكون فيها حتى آراء - يوما بعد يوم، فتصبح حياتهم «الفكرية» مثل حياة الروبوت تتكرر عناصرها وتتجمد مع الزمن. وعندها يدعون انهم يحافظون على التراث والتقاليد. وهم حافظوا على التقاليد، لكنهم لم يفهموا التراث لأنهم لم يخضعوا انفسهم وآراءهم ولو لبضع صغير من مباضع الجراحين.

ومثل هذه الأمور لا تقع دوماً وفق خطة مرسومة أو برنامج معد. انها تأتي، في أكثر الحالات، ردات فعل لأمر يعرض لك، أو استجابات لتحديات، كبرت هذه التحديات أو صغرت. وحتى قوة هذه التحديات وضعفها لا يتقيد بقيود معينة أو معروفة أو مقبولة. فهناك الخلفيات السابقة التي قد تكون محبوسة في النفس فتنفجر بسبب تحد بسيط، وعندها قد تكون الاستجابة غير مناسبة. ولكن متى وقعت أصبحت جزءاً من تجربة المرء، وليس له أو ليس باستطاعته ان يمحوها. وقد يأتي تحد عنيف قوي كان يجب ان تكن الاستجابة له سُخطاً وغضباً، لكن الجو النفسي الداخلي والخارجي لا يسمح لذلك؛ ومع ذلك فهي تجربة تسجلها النفس أو العقل كما حدث في الحالة الأولى.

على أنني أقول هذا، وأنا أشعر أن الكثيرين سيعتبرون هذا النوع من الكلام فارغاً، انني لم أثر، الا في النادر للأمر البسيط. فانا لم أغضب ولم ارم الانكليزي بالجهل لأنه لم يكن قد سمع باسم الموسيقار عبدالوهاب سنة ١٩٣٥! نعم غضب صديقي وانفعل وقال ان مثل هذا الأمر يدل على الجهل الفاضح، ولما روى لي القصة وحاولت أن أشرح له المشكلة كاد ان يتهمني بممالأة الانكليز في تجاهلهم المقصود لموسيقار كبير مثل محمد عبد الوهاب.

فلما سألني أحدهم عن الوقت الذي اعتنقت فيه اسرتي المسيحية، مضيفاً ان المسيحية نشرها في ربوع بلادي - وفلسطين بالذات - المبشرون الانجيليون (ولم يعرف حتى بوجود مبشرين من الكاثوليك)؛ لما سألني هذا السؤال أخذت من الوقت ما يكفي لأن أقول له انني أنا متحدر من القبائل التي اعتنقت المسيحية في القرن الرابع للميلاد، أو حتى قبل ذلك. ولما سألني أول خياط أعد لي بدلة في لندن عما اذا كنت لبست بدلة قبل قدومي الى بلده، أوضحت له الأمر بالتي هي أنفع.

ولكن لما حضرت مرة خطاباً القاه الاستاذ برودتسكي الزعيم الصهيوني عن قضية فلسطين وقال والأمير فيصل وافق على مجيء اليهود الى فلسطين وقفت وسألته - وقد وضع السؤال بشكل يوحي بالجواب - قائلاً: «الا يعرف الاستاذ برودتسكي ان الأمير فيصل، كما روى الدكتور قدري، اشترط تحقيق الوعود الانكليزية مقابل الموافقة؟» أجاب «أنا لا يهمني لا الدكتور قدري ولا غيره». عندها شعرت بأمور ثلاثة: الدم يغلي في عروقي والغصة تعتصر قلبي ومثل الدمع يتجمع في المآقي. ولعلّ هذه كانت جميعها ردات فعل لوقاحة الرجل ولانعدام النصير وتعثر العرب - في فلسطين وغيرها - في تنظيم الدعاية للقضية والعمل لها. كان هذا قبل قيام الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩).

الفصل الثالث عشر

لندن التي عرفتها في السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية كانت انكليزية في كل مظهر من مظاهر الحياة فيها، سحنة ولغة ولوناً وأشكال نفوذ ومطاعم ومشارب وحانات. لم يكن هناك من الأجانب الا القليل نسبياً، ولم تكن ترى في الشوارع سوى الشعب الانكليزي ولم تكن ترى في المطاعم سوى الانكليز. صحيح أنه كان هناك عدد كبير من المطاعم الأجنبية، لكن كان يترتب عليك أن تذهب اليها لا أن تأتي هي اليك كما هي الحال اليوم في سنة ١٩٨٩. فاذا أردت أن تذهب الى مطعم ايطالي، فهناك منطقة كانت تختص بهذا النوع من المطاعم مبدأها «توتنهام كورت رود» و«شارلوت ستريت». واذا أردت وأنت شرقي ان تبتاع شيئاً من البامية أو الثوم أو البصل، فكان عليك ان تذهب الى «هيلينك ستورز» في «شارلوت ستريت» لتبتاع هذه الأشياء مع العدس والبرغل إذا لزم الأمر. وإذا رغبت في أن تأكل في مطعم أجنبي، عليك إما أن تذهب الى واحد من هذه المطاعم التي كانت مرتفعة أسعارها ومرتبة أمور الدخول اليها باللباس الرسمي، أو أن تذهب الى «سوهو» حيث تعثرعلى المطاعم التي تريد من صينية وهندية وافريقية وأوروبا شرقية واوروبا اوسطوية وما شابه ذلك. ولكن المهم ان الجو العام في لندن كان جواً انكليزياً، فيما تجد اليوم مثلاً (في هذا العام) أماكن تكاد لا تسمع فيها سوى اللغة العربية مثل «ادجوار رود» وأماكن تكاد لا تسمع فيها اللغة الانكليزية البتة. هذه كلها لم تكن موجودة في السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية التي قضيتها في لندن. ومع ذلك فقد كنت تسمع بين حين وآخر أحد الناس يتكلم العربية أو شخصاً آخر يتكلم اللغة الاردية أو شخصاً ثالثاً يتكلم اللغة الامريكية بحيث يتضح الفرق بينها وبين اللغة الانكليزية. صحيح انه كانت ثمة مواسم للزوار من الخارج، وهذه المواسم كانت تكثر في لندن فيها جماعات المتكلمين باللغات الاسكندنافية والفرنسية والايطالية والالمانية، لكن هذا كله كان شيئاً خارجياً بالنسبة الى جو المدينة اللندنية وبالنسبة الى الحياة في لندن.

هذا ما عرفته يومها. وهذه الأمور كلها تظل في نفسي وثيقة الصلة، مرتبطة بالحياة، واضحة الصورة، مكتملة الأجزاء المختلفة من الحياة لأنني عشتها سنوات. وعلى كل، فما الذي تعلمته من هذه الإقامة الطويلة في لندن، ولسنوات أربع؟

تعلمت أولاً وممارسةً معنى الحرية في الواقع. تعلمت ذلك لأنني رأيت الناس أحراراً، يتصرفون أحراراً، يعيشون أحراراً، يتحدثون أحراراً، يكتبون أحراراً، ويسمعون ويناقشون أحراراً. لماذا؟ لأن هذه البلاد كانت قد عرفت معنى الحرية من حيث انها تقييد للحاكم سنة ١٢١٥ للميلاد لما نشرت «الماغنا كارتا» التي نص فيها على حرية الشعب الانكليزي. ومن ذلك الوقت الى حين جئت أنا الى انكلترا، كانت هذه الأمور تتطور يوماً بعد يوم، سنة بعد سنة، جيلاً بعد جيل. صحيح ان هناك رؤوساً سقطت. صحيح ان هناك ثورات قامت. لكن المهم في النهاية أن هذه القواعد ظلت مستمرة، وظل الشعب الانكليزي يفهم معنى الحرية ويمارسها. وأنا تعلمت هذا من وجودي هناك. تعلمت ان المرء يستطيع ان يقول ما يشاء، وأن يكتب ما يشاء، وأن يتحدث عما يشاء دون ان يرى خلفه البوليس أو الشرطي يقوده الى المخفر دون أي أمر من مركز قضائي أو من هيئة لها الحق في أن تلقي

القبض عليه أو على الأقل أن توجهه الى حيث يجب ان يحاكم. على سبيل المثال، في تلك الأثناء التي قضيتها في انكلترا حدث ان أحدهم اتهم بانه سطا على متجر. ذهب الشرطي الى بيته لتبليغه بأنه متهم بذلك. ولكن الشرطي نسي ان يحصل علي أمر بالتبليغ من القاضي، ولم يقبل الشخص المتهم بهذا التبليغ لأنه ينقصه امر القاضي. واضطر الشرطي ان يعود الى رئيسه وان يطلب هذا الرئيس من القضاء ان يصدر الأمر بالقاء القبض على المتهم للاحتفاظ به تمهيداً لمحاكمته أو على الأقل التحقيق معه. وكانت النتيجة ان هذا تم وأن الرجل قيد الى مركز البوليس للتحقيق معه بناء على أمر من القاضي، لا من الشرطي ولا من ادارة البوليس أو الشرطة. وذهب وسئل وحقق معه وثبت عليه فيما بعد انه كان مجرماً، ولكن الشرطة لم تحتفظ به الى موعد الحكم عليه الا بامر من القاضي.

هذه واحدة. الأمر الثاني المتعلق بالحرية كان فيما يتعلق بالصحف. كنت اقرأ كما قلت «المورنينغ بوست» ثم انتقلت الى «الديلي تلغراف» لما احتجبت الأولى وضمت الى الثانية، وكنت اقرأ «صنداي تايمز» يوم الأحد و«الايفننغ ستاندرد» في المساء. هذه القراءة للصحف كانت نتيجتها اني عرفت فعلاً معنى الحرية الصحافية. ليس المهم ان تكون الصحافة قادرة على التهجم، ليس المهم ان تكون الصحافة قادرة على الاتهام، المهم ان تكون الصحافة طريقة للحرية، وسيلة للتعبير عما يشعر به الناس. ايضاً، الصحافة كانت وسيلة للتثقيف. هذه قضية أخرى. لا أقول ثانية ولا ثانوية، ولكنها قضية أخرى. القضية الأولى كانت بالنسبة لي أنني عندما اقرأ ما يسمى «رسائل الى رئيس التحرير» في «التايمز» أو في «الديلي تلغراف» أو غيرهما اشعر ان هناك حرية فعلاً. فقد يقول الكاتب ان رئيس الوزراء اعلن في موقفه في مجلس العموم بما يأتي والذي نعرفه نحن يختلف عما قاله رئيس الوزراء، فهل رئيس الوزراء يريد ان يخفي أمراً أو أن الحق الى جانبه، وان الخبر الذي أذيع قبلاً هو خطأ؟ وتجد بعد يومين أو ثلاثة تصريحاً من واحد من المسؤولين، إما عن طريق مكتب رئيس الوزراء أو عن طريق الشخص الآخر، يعترف بالخطأ. وعندئذ تشعر انك أنت أصبحت على معرفة وثيقة صحيحة بما يكفي ان يسمى «حرية الرأي». ثانياً، بالنسبة لهذه الحرية فان الناس فعلاً يشعرون أنهم أحرار ويعيشون في بلد حر ويتصرفون بحرية، ولكن القانون لا يسمح لهم بأن يتجاوزوا هذه الحرية. مثلاً، اذا كان القانون يعاقب الشخص الذي يجتاز الطريق واللون أمامه أحمر، فهو يعاقب. لا يمكن ان يقول: أنا حر في اجتيازي هذا الطريق لأنني حر في بلد الحرية. لا، هناك حرية وهناك قانون. والحرية تخضع للقانون بالنسبة لمجموع الشعب. مثل آخر يمكن ان يقدم: الناس يجتازون الشوارع على اعتبار انهم مشاة. القانون يقول: إذا كان الضوء أحمر تقفون. إذا كان الضوء أخضر تجتازون. يكون الضوء أحمر ويأتي واحد مثلي انا وهذه حدثت معي تماماً: أحمل جريدة وأقطع المكان في الوقت الخطأ. لا يأتي السائق الذي له الحق في أن يجتاز هذا فيزعجني لا بالتزمير ولا بأي وسيلة أخرى، وينتظرني حتى أجتاز المكان الذي لا حق لي فيه على اعتبار انني أخطأت أنا. فلا يجوز له هو أن يرتكب خطأ اكبر ويقتلني نتيجة لذلك.

هذه الحرية التي تعلمتها أنا في بريطانيا والتي لم يتح لي أن أمارسها قط في فلسطين، حملتها معي فيما بعد الى لبنان. وفي لبنان، بين سنة ١٩٤٩ وسنة ١٩٧٥ أدركت تماماً معنى الحرية. ما كنت قد تعلمته في انكلترا نظرياً، وما شاهدته من التصرف استطعت ان أطبقه في لبنان عملياً. أنا كمواطن لبناني كنت حراً في انتخاب من يمثلني في المنطقة. أنا كمواطن لبناني كنت أشعر أنني أستطيع أن أكتب في الجريدة نقداً لأي تصرف قامت به الحكومة أو أفراد من أعضاء الحكومة على اعتبار أن من حقي أنا أن أتنبه الى ذلك وأن انبه اليه.

وقد كان تأثري بمدى هذه الحرية ومعناها التي عرفها الانكليز في بلادهم والفرنسيون في بلادهم قوياً، انما كنت أقابل هذا الوضع في هذين البلدين مع الوضع في المانيا. وقد قضيت في المانيا تسعة شهور في أيام

الحكم النازي. هناك كان الناس يقرأون شيئاً واحداً ويسمعون شيئاً واحداً، وينتظر منهم ان يفكروا بطريقة واحدة، هي الطريقة التي كان يفرضها الحزب، والحزب كان دائماً تابعاً لهتلر. فلم تكن القضية قضية حزب واحد يحكم وانما كانت قضية شخص واحد يأمر فيطاع.

دخلت عليَّ يوماً السيدة «شريفر» وأنا في غرفة الجلوس في منزلها الذي كنت أحتل فيه غرفة، وناولتني كتيباً صغيراً وضعه «غوبلز»، وزير الاعلام (كما كنا نسميهم في ذلك الوقت)، عن الشيوعية. قلّبت صفحات من هذا الكتيّب ثم دفعت به جانباً. سألتني: لماذا؟ قلت: هذا شيء سمعته كثيراً في هذه البلاد عن الشيوعية وفيه كثير من الكذب. قالت: هل تعني بذلك أننا نحن نكذب والانكليز دائماً صادقون؟ قلت: لا، الجميع يكذبون. كل ما هناك أنني لا أستطيع في المانيا أن أبتاع كتاباً يدافع عن الشيوعية أو على الأقل يوضحها توضيحاً صحيحاً. أما في لندن فأنا أستطيع أن أمر «بتشارنغ كروس رود» حيث توجد المكتبات الكثيرة، حوانيت بيع الكتب الجديدة والمستعملة والقديمة فأجد عشرات الكتب، البعض يحمل على الشيوعية والبعض يؤيدها، وهناك فريق يضعها في مكانها الصحيح، فأقرأ وأحكم، أما هنا فالحكم صادر وعليّ أن أتقبله. فالقضية ليست قضية كذب وصدق وانما هي قضية وجود الأشياء التي نريد أن نقرأها بالطريقة الممكنة.

في المانيا، وفي ذلك الوقت (١٩٣٦-١٩٣٧) كان هناك استعداد للحرب. الاستعداد كان واضحاً في كل شيء. لا في كثرة الجنود الذين كانوا يظهرون في كل مكان في المانيا، ولكن في ما كان يعانيه السكان حتى في سنة ١٩٣٦ قبل الحرب بثلاث سنوات تماماً من تقنين في كل شيء. والأمر بسيط. الاستعداد للحرب معناه الانفاق على التسليح والتسلح. واذن، فهذه هي القضية؛ هذا الأمر يستهلك قسماً كبيراً من موازنة الدولة وموارد البلاد. وعندئذ، فان الاشياء التي يجب أن تستورد من الخارج لا تستورد لأن الدولة لا تستطيع ان تدفع ثمنها. ومعنى هذا إذاً، أن الناس يجب ان يكتفوا بالموجود، والموجود قليل.

دخلت السيدة «شريفر» يوماً تحمل زجاجة عطر قديمة لا تزيد في سعتها عن خمس ليتر ولم تكن مملوءة تماماً بالزيت، زيت الزيتون، وقالت: نحن في هذا البيت خمسة أشخاص بدون «إلزا» (إلزا كانت الخادمة)، هذه حصتنا من الزيت لأسبوع كامل.

في المانية، في الفترة التي قضيتها والتي امتدت عبر سنتي ١٩٣٦ و١٩٣٧ لم يكن هناك ورق تواليت للبيع. وكان الناس يستعملون ورق الجرائد. ويمكن القياس من مثل هذا: الاستعداد للحرب وكبح الحريات، أظهر لي ما كانت تتمتع به بريطانية، لندن مثلاً، وباريس، من بحبوحة من جهة وحرية من جهة أخرى.

لما ذهب تشمبرلين، رئيس وزراء بريطانية، الى ميونيخ لزيارة هتلر والتحدث معه عن شؤون السلم والحرب، عاد الى لندن يحمل ما سماه «اتفاق السلم»، لم تُكِل كل الصحف المديح للرجل كما لو كان نيفيل تشمبرلين في ذلك الوقت زعيماً في المانية، حتى صحافة حزب المحافظين (حزبه)، لم تكن متفقة تماماً على أن الخطوة التي اتخذها كانت صحيحة. انتقد الرجل. انتقد في الصحف. وانتقد في غير الصحف. وكانت شمسية تشمبرلين موضع تنكيت وتهزئة على اعتبار أنها تمثل سياسته لا أن سياسته تمثل الرأي العام البريطاني.

كان ونستون تشرشل يدعو بريطانية الى التسلح لأن المانية تتسلح. ونستون تشرشل كان يدرك، وكان كثيرون غيره يدركون، ان المنافسة لم تعد في أوروبة بين فرنسة وانكلترا، وانما أصبحت، منذ أيام الحرب العالمية الأولى، منذ أيام القيصر وليام (ولهلم)، امبراطور المانية قبيل الحرب العالمية الأولى، بين المانية وبريطانية. المانية كانت في أيام وليم تريد أن يكون لها حصة في الاستعمار العالمي، وهتلر كان يريد ان يعيد لالمانية سمعتها ونفوذها ومستعمراتها.

وما دمنا قد أشرنا الى المستعمرات، فلننظر الى هذه القضية كما كانت بريطانية تراها.

كانت بعض الصحف البريطانية تناقش هتلر في قضية المستعمرات. وقد ذكر في احدى هذه الصحف ان المانية كانت تستفيد من مستعمراتها في افريقية بما لا يتجاوز اثنين في المائة من قيمة تجارتها الخارجية، وان مثل هذا المبلغ الزهيد لا يستحق كل هذا التسلح. ولكن الذي لم تشر اليه الصحيفة هو ان هتلر لم يكن يهتم باستعادة هذه المستعمرات من أجل ما يمكن ان تدرّه على المانية من الربح. كان يهمه ان تكون لالمانية كلمة في العالم، ان تستعيد سمعتها وشهرتها ومنزلتها كدولة كبيرة. وكان يعتقد ان معاهدة فرساي ظلمت المانية ولم يكن هو الوحيد الذي يعتقد ذلك. فهناك عدد كبير من المؤرخين الذين أرخوا للحرب العالمية الأولى والذين كتبوا عن معاهدة فرساي كانوا يرون انها ظلمت المانية اكثر من اللازم. المهم في الموضوع هو ان نعود الى قضية الحرية.

في المانية كان هناك صوت واحد يسمع، صوت واحد يمكن ان يتكلم، صوت واحد يأمر وينهي ويطلق الحرية ويكبلها. وفي فرنسة وانكلترا كانت هناك أصوات. أصوات تختلف مع رئيس الوزراء البريطاني، وأصوات تختلف مع دلادييه رئيس وزراء فرنسة. وكان هناك مناقشات عامة في الأندية، الأندية السياسية، في المجتمعات، في الندوات التي كان تعقد لمناقشة السياسة العامة. الحملات كانت قوية. في الوقت نفسه، كان هناك من الانكليز أنفسهم من يرى أن هتلر كان مصيباً في تصرفه وأنه يجب ان يؤيد، بل بلغ الأمر بالسير أوزوالد موزلي أنه همّ بان ينشىء في بريطانية حزباً على غرار الحزب النازي الذي كان قد انشأه هتلر في المانية.

بهذه المناسبة، النازية الالمانية والفاشية الايطالية أثرتا في منطقة الشرق العربي تأثيراً لا يستهان به في تلك الأوقات. التأثير كان منذ أن بدأ هتلر وموسوليني (موسوليني بدأ قبل هتلر بمدة طويلة) تنظيم الأحزاب. ولذلك فان تنظيمات سياسية قامت في الشرق العربي على غرار النازية والفاشية من حيث سلطة الزعيم أولاً ومن حيث التدريب شبه العسكري لهذه المنظمات. فجماعة القمصان السوداء في مصر التي انشأها أحمد حسين كانت تقليداً لهذين. والحزب القومي السوري الاجتماعي الذي انشأه انطون سعادة في لبنان وسورية (في بلاد الشام) كان يقوم على هذا الأساس. وحزب الكتائب الذي أسسه بيار الجميل في لبنان كانت له تنظيمات مشابهة جداً للتنظيمات التي عرفناها عن النازية والفاشية.

من هذه الأمور، هذه الدعوات، احياء ايطالية، انعاش الامبراطورية الايطالية، العودة بالمانية الى مستواها الذي كان من قبل، هذه كانت اشياء تلذّ لنا نحن ابناء العالم العربي، وخاصة في المشرق لأن شمال افريقيا كانت معاركها مع الاستعمار تختلف اختلافاً بيّناً عن المعارك التي كانت تقوم في الشرق العربي.

في الشرق العربي كانت مثلاً الدعوة الى القومية العربية، الدعوة الى الوطنية، الدعوة للاستقلال، الدعوة... كل هذه الأمور كان يساورها ويباطنها ويسير معها دعوة الى الأحياء، إحياء الأمجاد القديمة. ومن هنا كان هذا التأثر المباشر بالحزبين أو بالتنظيمين الفاشي والنازي.

ولا أكتم عن نفسي، ولا أكتم عن قرائي أنني انا شخصياً تأثرت لما كنت في المانية في أول الأمر خاصة بهذا الذي شعرت أنه إحياء لبلد هُزم في الحرب العالمية الاولى وديس بالنعال على أيدي أجانب.

تأثرت بهذه الدعوة الى إحياء المانية وكأنها كانت دعوة لأن تنتعش بلاد العرب. لكن، بعد مدة من إقامتي هناك وبعد ان أدركت ما فقده الالمان من معنى الحرية، أو على الاصح ما يمكن أن افقده انا لو أنني قضيت السنوات الأربع في المانية بدل ان اقضيها في لندن، أدركت ان في الحياة شيئاً اسمه «حقوق»، وأنا قد حرمت هذه في فلسطين. في فلسطين لم يكن من مصلحة حكومة الانتداب ان تطلق الحريات لا العامة ولا الخاصة. التقييد كان في أمور كثيرة، والتقييد كان أساسه ان هناك سياسة الوطن القومي التي يجب ان تنفذ، ولا بدّ لهذه

السياسة من أن تقبل ولو على أسنة الحراب. وقد نفذّت على أسنة الحراب وكان من الطبيعي أن لا يكون في البلد حرية سياسية أبداً.

ولم تكن الحرية السياسية هي الشيء الوحيد الذي تعلمته اثناء إقامتي في لندن، ولكن كان هناك الحرية الفكرية أيضاً. والحرية الفكرية التي أقصدها هي التي تأخذ وتعطي بحرية تامة. تأخذ عندما يعتاد الفكر على الانفتاح وقبول الآراء ومناقشتها مناقشة دقيقة علمية منطقية. وعندما تصبح هذه الآراء ملكاً له، أي جزءاً منه، بحيث يمكنه ان يعبّر عنها بلغته وبطريقته وبحريته، ينشرها بين الناس كتابة أو حديثاً أو بأي طريقة أخرى.

وفي الحالين، في حالة الأخذ وحالة العطاء، في حالة التعلّم وفي حالة نشر الأفكار، يتصرف المرء فكرياً بحرية تامة. قد تكون هذه النقطة صعبة من حيث نقلها الى القارىء، ولكن يمكن لأي واحد منا أن يصوغها بالطريقة التي يريد متى اتضحت الفكرة التي هي محور الكلام. والفكرة الأصلية هي انفتاح الذهن على قبول الجديد باستمرار ومناقشته وحذف ما يريد المرء أن يحذف منه والإبقاء على ما يحتاجه، ثم تصبح هذه الأشياء التي تعلمها، معلومات كانت أو أفكاراً جديدة أو حتى اسلوباً في التعبير جديداً، جزءاً منه؛ عندئذ تتضح الفكرة وتصبح قضية بيّنة سليمة.

الى جانب هذا كله، كانت هناك الحرية الاجتماعية. الحرية الاجتماعية تختلف عن الحرية السياسية في أنها تمسّ المرء شخصياً في مناحي حياته. وأنت كانسان، وكما قلت من قبل، تريد ان تكون حراً في تصرفك الشخصي. هذا كان موجوداً في الغرب، كان موجوداً في انكلترا، كان موجوداً في فرنسة، حتى في المانية بالذات كان موجوداً، لأن هذا التقييد لا علاقة له بالنظم مباشرة.

ماذا تلبس! كيف تلبس! كيف تظهر أمام الناس وفي المناسبات. جميعها كانت أموراً تخضع لقاعدة واحدة، قاعدة الحرية الشخصية باستثناء مناسبات خاصة كان يجب ان يرتدي فيها المرء ثياباً معينة وبشكل متفق عليه من قبل. ومع ذلك فلم تكن أنت كشخص حراً في التصرف إلا في حدود: لا يجوز لك أن تؤذي الآخرين. عندما يبدو من تصرفك أنه قد يؤدّي الى إيذاء الآخرين، تفقد أنت حريتك الاجتماعية. فأنت لا تستطيع أن تفتح الراديو على أعلى الأصوات في بيتك وتقول: أنا حر في بيتي. هذا لا يجوز. وهناك ساعات معينة يترتب على المرء فيها أن يوقف أي صوت يمكن أن يصل الى الجيران عن طريق بعض الحيطان الرقيقة.

وحرية الفكر التي تعلمتها شملت أموراً لم تكن مألوفة عندي وفي بلدي. وفي الجو الذي كنت أعيش فيه لم يكن من اليسير أن يطلق المرء لنفسه حرية التفكير ولو في غرفة مقفلة النوافذ والابواب، لأنه قد يحاسب على ذلك من السماء. لكن، في انكلترا وفي فرنسة وجدت أن الناس لا ينتظرون عقاباً من السماء يأتي على أيدي الناس على الأرض، فاذا كان هناك خطأ يجب أن تعاقب عليه السماء، فليكن للسماء نصيب عندما تريد، ولا يتبرع هنا شخص وهناك شخص في الدفاع عن الله والملائكة والنبيين.

من هنا كانت هذه الحرية بالذات التي تعلمتها من الممكن ان تصبح صدمة لو أنها جاءتني مفاجأة. أما وقد ادركتها تدريجياً، واستوعبتها يوماً بعد يوم، وعشتها فترة بعد فترة، لم تكن صدمة، لكنها كانت شيئاً منعشاً أيقظ ما كان في نفسي من مقدرة على التفكير، وسمح لهذا التفكير ان ينطلق بدون قيد ولا شرط.

القانون كان يمنع الناس من أن يثيروا قضايا قد تعود على المجتمع بالضرر، لكن القانون هو الذي كان يطبّق هذه الأمور عن طريق القضاء إذا اقتضى الأمر. أما في بلدي، فكل واحد يحسب انه يتوجب عليه ان يدافع عن السماء ويدفع عنها الأذى عندما يخطر في باله أن فرداً من الأفراد اعتدى عليها أو اساء اليها.

ومن هنا، كان هناك تقييد حتى لحرية البحث العلمي، في العلوم الطبيعية وعلوم الاحياء في بلادي. لكن الأمر أخذ يتحسن في الثلاثينات وفي الأربعينات. إلا أن الذي أوقف هذا التحسن أو هذا التطور هو فقدان الحرية

السياسية. فأصبح الأمران، الحرية السياسية والحرية الفكرية وحرية البحث العلمي مرتبطة الواحدة بالأخرى، ولم يكن هناك سبيل للفصل بينهما، ولذلك تراجع الفكر الحر والبحث العلمي الدقيق الذي يمكن أن يحسب البعض انه اساءة الى السماء.

هذه المقدمات كانت في رأيي ضرورية ولازمة كي أتمكن من التحدث عما جرى لي وعما جربته واختبرته. وأريد أن أعود هنا الى قضية الجنس والمرأة. كانت التجربة الأولى لي مع امرأة في لندن وفي شارع «توتنهام كورت رود» في أحد الأماسي في أواخر خريف تلك السنة ١٩٣٥، التقيتها في الشارع وذهبت معها الى غرفتها وهناك ضاجعتها. فماذا أثر ذلك في نفسي؟ لا شك في أنني شعرت بلذة العمل الجنسي على اعتبار ان هذا شيء طبيعي. لكن بعد ان خرجت من الغرفة، شعرت بالتقزز وشبه قرف من العمل كله. هل يا ترى كان ذلك بسبب أن هذه المرأة التي وقعت عليها في أول مرة كانت بغياً؟ لا أدري. أذكر أنها كانت جميلة، وأذكر أنها دلتني على أمور لم أكن أعرفها، وأذكر انني أقمت في الغرفة معها بعض الوقت، وأذكر أننا مارسنا، اذا كان هذا يمكن ان يكون ممارسة، العملية الجنسية مرتين. لكن، لما خرجت شعرت بالتقزز، وزاد موقفي من الجنس، موقفي السلبي، سلبية، بحيث أنني لم أقترب من بغيّ بعد ذلك الا في المانية، في برلين، في صيف ١٩٣٦. هناك شيء مهم، هو أنني تعرفت الى فتيات، تلميذات وبعض موظفات في المكاتب، وكنت في بعض الأحيان أمارس عملية الجنس معهن. لم أشعر بالقرف أو من التقزز مع ان البعض منهن لم يكن جميلات جداً. فهل يا ترى مجرد شعوري أن هذه التي كنت أتعامل معها لم تكن بغياً كان له علاقة في الموضوع؟ لا أدري. ولكن الذي أدريه هو أنني قضيت ثلاثة أسابيع في برلين في صيف سنة ١٩٣٦ مع «نورا». ونورا كانت أختاً لفتاة رافقتها في السفر من المانية الى انكلترا، وقابلتها بعد ذلك مرتين أو ثلاثاً. ولما عرفت أنني ذاهب الى المانية، أعطتني رسالة الى أمها وأبيها، وهدية لأختها. وبعد أيام من وصولي الى ضاحية من ضواحي برلين، حيث كانت تقيم أسرة عمي، اتصلت بالتلفون، كلمت الأم وذهبت لاعطائها الرسالة والهدية لابنتها. وكانت الأسرة المكونة من الأب والأم والأخت مجتمعة على فنجان من الشاي، وسلمت الرسالة والهدية، وشعرت بأن نورا يمكن أن أفيد من صداقتها أو صحبتها في الفترة التي سأقضيها في المانية، في برلين.

وهذا ما حدث فعلاً، كلمتها بالتلفون في اليوم الثاني وتقابلنا. ذهبنا للمسرح أو للسينما، ثم أوصلتها الى البيت. وفي البيت، هناك دعتني للدخول، فدخلت. وكان الأمر بسيطاً. لم يكن في البيت أحد. ولذلك أخذنا حريتنا. وكان من اليسير ان أخرج معها لأنها لم تكن تعمل أو تشتغل، وكانت جميلة، وكانت خبيرة. وهذه الأسابيع الثلاثة التي قضيتها معها في برلين، كانت مهمة في حياتي. ثم دعوتها للخروج معي، فرافقتني اسبوعاً كاملاً في نزهة في جهات جبال «الهرتس»، وكانت النتيجة أنني لما تركت برلين، تركتها مرغماً. لا أقول انني لم أعشق نورا، لا، لكنني أحببت في نورا، أو على الأصح وجدت في نورا ما كنت آمله. ونورا كانت، بين اللواتي تعرفت اليهن في أوروبة وحتى بعد عودتي الى القدس بمدة قصيرة، الوحيدة التي قربتني من الجنس ايجابياً، ومن المرأة بشكل طبيعي. نعم، هذا هو الواقع. كان هناك غير نورا: كات وهوب وبتي.. تعرفت اليهن. وكانت هوب الأفضل، أو الأقوى أو الأحسن أو الأنسب بالنسبة لي بعد نورا. لكن لم تطل عشرتي لها، فقد حدث أن تعرفت، في ذلك الوقت، الى جوزفين وأحببتها. وفيما بعد، خطبتها ولكننا لم نتزوج.

ليس من العسير على أي شاب أن يتعرف الى بنات في أوروبة وانكلترا في ذلك الوقت واليوم. وليس من العسير ان يبلغ بالبعض منهن أو بالاكثر منهن أقصى ما يمكن ان يطمح به رجل شاب. ولكنني أعرف عدداً كبيراً من أصدقائي الذين بعد ان عادوا من أوروبة كانوا لا يتحدثون الا عن علاقتهم بالبنات. وفي أوروبة كنت ألقاهم، فكانوا لا يتحدثون الا عن هذا الأمر.

أنا أظن أن عدداً كبيراً منهم كان يبالغ فيما جرب وفيما فعل، وأن عدداً كبيراً منهم كان يؤذى في ماله وهو يحاول التقرب من فتيات غير مناسبات. لكن، كل هذا لا يهمني أنا. أنا جربت، وأنا أتحدث عنه من حيث أنه تجربة، تجربة مرّت بي، ولم تقتلني هذه التجربة لانني لم أسمح لها أن تنال مني أكثر مما كنت مستعداً لاعطائها. لذلك أذكر هذا باعتبار انه نوع من الأشياء التي مرّت بي وأنا في أوروبة. إلا أنني أريد أن أشير الى حادثة بسيطة جرت لي مع بغي في مرسيليا، وكان ذلك في أواسط شهر تموز / يوليو سنة ١٩٢٩ وأنا عائد من انكلترا الى البلاد. وقفت الباخرة واسمها «ستراثنافار» في مرسيليا ونزلنا كما نزل الركاب، وكانت المناسة اليوم الرابع عشر من شهر تموز وهو يوم الثورة الفرنسية «هدم الباستيل». فكان الفرنسيون في مرسيليا مجانين. فجننا نحن معهم، وانفصلت أنا عن الثلاثة الآخرين الذين كنا مسافرين مع بعض على ظهر الباخرة، وذهبت الى دار للبغاء واخترت واحدة ودخلت معها الى الغرفة. ولم نكد نتعرى حتى عاد اليّ التقزز بكل أنواعه، وأدرت ظهري لها ولبست ثيابي وخرجت بعد ان دفعت المبلغ المطلوب. من الصعب عليّ أن أتأكد من السبب بعد كل هذه المدة. لكن الشيء الذي أعرفه أنني تقززت فلم أقترب منها على أنها كانت جميلة جداً، ولعلها كانت ماهرة أيضاً لأنها بنت الكار والصنعة.

وأخذت نفسي بتثقيفها تثقيفاً عاماً من خارج الكتب. وكان أول ما فعلته في هذه الناحية هو الذهاب الى المسرح. كانت المسرحية الأولى التي حضرتها في لندن اسمها «الجنس المسيطر» (Dominant Sex) وكانت في مسرح من مسارح Strand ستراند. كان قد مرّ على هذه المسرحية ست سنوات. وهذا كان أمراً غريباً بالنسبة لي. لكن الذي عرفته فيما بعد، من تجربتي مع المسرح البريطاني وفي لندن بشكل خاص هو أن مسرحية قد يستمرعرضها على جمهور المتفرجين اكثر من ذلك بكثير. فمسرحية ماوستراب مثلاً، التي وضعتها أغاثا كريستي قصة، ثم جعلت مسرحية، استمر عرضها ستاً وثلاثين سنة، قبل ان يتاح لي مشاهدتها. والمسرح كما خبرته وعرفته مجال وموضع للتثقيف لأنه يعرض قضايا مختلفة ويحملك على متابعتها مباشرة بظهور الأشخاص الأحياء أمامك. وهذا هو الفرق الرئيسي بين المسرح والسينما. في السينما ترى الصور وتسمع الأصوات، أما على المسرح فأنت تشاهد الناس، تشاهدهم يتحركون، ذاهبين عائدين، مرحين غاضبين، مبتسمين متوترين، متألمين ومسرورين. وكل يعرض عليك، عن طريق الحوار المسرحي، مشكلته أو قضيته أو نكتته أو مدعاة سروره أو سبب حزنه أو عنصر آلامه. وعندئذ تستطيع أنت أن تشارك حسياً ومباشرة، لا كما تشارك عن طريق السينما. وفي رأيي أنا شخصياً أن وسائل التثقيف الثلاث، أي المسرح والكتاب والسينما، تختلف اختلافاً بيناً واحدها عن الآخر، ولكنها تتمم بعضهاالبعض. أنا حضرت أول رواية تمثيلية في حياتي لما كنت طالباً في مدرسة جنين الابتدائية. ولما كنت في دار المعلمين في القدس، حضرت بضع روايات، منها بالانكليزية ومنها باللغة العربية. كانت مجموعة من الانكليز الهواة يقومون بتمثيل رواية من روايات شكسبير مرة في السنة. وفي السنوات الثلاث التي قضيتها في دار المعلمين، حضرت ثلاثاً من هذه وحضرت بضع روايات عربية. وفي الفترة التي قضيتها مدرساً في عكا، جاءت الى حيفا فرق مصرية، فرقة يوسف وهبي وفرقة الريحاني «كش كش بيه». وذهبنا من عكا الى حيفا وشاهدناها. وفي زيارتي للقاهرة، شاهدت اكبر عدد ممكن من الروايات التمثيلية، المضحك منها والمبكي، المؤسف والسار، ولكن هذا كله لم يكن شيئاً بالنسبة للذي كان يمكن ان أشاهده في لندن. هناك المسارح كثيرة والممثلون محترفون على الطريقة التي عرفتها في مصر مثلاً، والموضوعات كثيرة والكتّاب الذين يكتبون المسرحيات وراءهم تجربة طويلة تعود الى أربعة قرون، ومن ثم كان الفن المسرحي والإخراج المسرحي والتأليف المسرحي، هذه كلها مجتمعة، اداة للتثقيف على شكل لم اكن قد ألفته

من قبل. ومن هنا لما ذهبت الى المانية، حرصت على أن أزور المسرح الالماني في ميونيخ وبرلين. وقد أتيح لي الشيء الكثير من ذلك. ولست هنا في معرض المقارنة أو المقابلة بين المسرح الألماني والمسرح الانكليزي كما عرفتهما في ذلك الوقت، فأنا معرفتي بالمسرح الالماني محدودة من جهة، ومن جهة أخرى الروايات التي شاهدتها قليلة. في لندن شاهدت عشرات من المسرحيات في الفترة التي قضيتها هناك.

والناحية الثانية التي لجأت اليها في سبيل هذه الثقافة العامة العميقة هي المحاضرات العامة. والمحاضرات العامة كانت مبدئياً على نوعين: النوع الأول ما كان يلقى في كليتنا في وفي كليات أخرى من جامعة لندن وفي الجمعية الجغرافية وجمعية آسيا. هذه محاضرات هي على العموم تخصصية بمعنى أن الذين يتحدثون كانوا علماء.

هذه المحاضرات الخاصة التي تلقى في الأماكن التي ذكرت، كان يُسعى اليها باستمرار وكنت أترقبها بالاعلانات المختلفة. لكن كان هناك محاضرات عامة جداً. على سبيل المثال، ألقى أحد المتخصصين بالتزلج محاضرة عن التزلج مع صور في جمعية الشبان المسيحية. ذهبت وحضرتها. هناك كانت محاضرات تتعلق بأنواع الالعاب، محاضرات تتعلق بالكتب، بمعنى استعراض للكتب بشكل عام للجمهور، لا للمتخصصين ولا للمثقفين ثقافة عالية. هذان النوعان من المحاضرات كانا مصدر تثقيف وتثقف لي. وفي مدينة كلندن، يمكن للمرء ان يقضي ساعات كل يوم إذا شاء في الاستماع لهذه المحاضرات. فهناك الذين يدعون الى الحرية والذين يتحدثون عن الشيوعية والذين يخطبون ودّ البوذية والذين يدافعون عن المسيحية البروتستانتية والذين يدافعون عن المسيحية الكاثوليكية، فضلاً عن أولئك الذين يتحدثون عن الأفكار المختلفة، وفي كل مكان. يضاف الى هذا القضايا الوطنية الخاصة، مثلاً كان هناك قضية فلسطين التي كانت تهمنا نحن بشكل خاص. ولذلك، كنا نعمل فيها أو نشتغل من أجلها بشكل يتفق مع مقدرتنا كطلاب، ونريد أن نتحدث عن قضيتنا حديثاً خاصاً لتوضيحها. فالمحاضرات والمسرح نفعاني وأفاداني؛ استفدت منهما كمصدر للتثقيف.

وهناك شيء مهم جداً يلاحظه الذي يأتي الى لندن، وهو عيد الميلاد. نحن كمسيحيين كنا نحتفل بعيد الميلاد ولو أن المألوف في بلادنا في المشرق العربي، في فلسطين ولبنان وسوريا والأردن وفي مصر، أن يعنى الناس بعيد الفصح، عيد القيامة، عيد الربيع، عيد الولادة الجديدة الروحية والطبيعية والبشرية. لكن عيد الميلاد عيد له قيمه الدينية وهناك احتفال مخصوص معيّن يقوم به البعض. وكان من المألوف مثلاً في بيتنا الصغير في فلسطين أن نطبخ يوم عيد الميلاد دجاجة كبيرة محشوة، ولأنها كبيرة ومعتقة كانت تحتاج الى نحو خمس ساعات على النار، على بابور البريموس. ولكن هذه طبخة عيد الميلاد التقليدية مع شيء من الكبة والملحقات الأخرى. وهناك من أخذ عن الغربيين الذين عاشوا في فلسطين، من الكاثوليك ـ الكاثوليك اللاتين أقصد والبروتستانت ـ قضية نصب شجرة لعيد الميلاد. لكن هذه الأمور لم تكن عامة. الشجرة لم توجد في كل بيت مسيحي في تلك البلاد. في فلسطين كانت موجودة الى درجة ما في القدس، لكن في أحياء معينة. في حيفا وفي يافا كذلك الأمر. يمكن في بضعة بيوت في الناصرة. في عكا أكثر الذين أعرفهم وكانوا يقيمون شجرة عيد الميلاد هم من الأجانب. فلما ذهبت الى لندن أنا، رأيت أنهم اعتباراً من اواسط شهر تشرين الثاني / نوفمبر ان لم يكن قبل ذلك، تبدأ المخازن الكبرى بتزيين واجهاتها بهدايا عيد الميلاد وشجر عيد الميلاد وبابانويل (Father Christ-mas أب عيد الميلاد) حاملاً الهدايا على ظهره لينقلها الى الأطفال. ومع هذا التزيين الكبير كانت هناك ترانيم عيد الميلاد الخاصة. كل هذه الأشياء كانت، لا أقول جديدة عليَّ فقط، ولكنها كانت مؤثرة فيَّ وفي أخواني حتى غير المسيحيين منهم. والسبب في ذلك أنها أصبحت تشمل الجميع، فهي عادة اجتماعية دينية عائلية، ولذلك لا بد أن

يتأثر المرء بها. البانسيون الذي كنا نقيم فيه زيّن شجرة عيد الميلاد. الأشخاص الذين زرناهم أو زارونا أو تعرفنا اليهم كان عندهم اشجار عيد الميلاد. وأنا، عيد الميلاد الأول الذي قضيته في انكلترا، قضيته عند بيت «اوستن» في «باكريدج»، القرية التي وصفتها من قبل وذكرت تأثري بها وانطباعي عنها في حينه.

بمناسبة عيد الميلاد ذهبت الى هذه القرية الصغيرة. كل مكان كانت فيه شجرة لعيد الميلاد: المقهى، المطعم، الدكاكين المختلفة، مكتب البريد، المصور الذي كان هو نفسه موزع البريد. حتى مكتب البوليس كان فيه شجرة عيد الميلاد. أما البيوت، فكل بيت كان فيه شجرة عيد الميلاد. وقد قضيت هناك أياماً جميلة.

قضيت أيام عيد الميلاد في هذه القرية الصغيرة. الأكل كان ديك الحبش (أو الديك الرومي) وهو محشو بطريقة خاصة أساسها وضع الكستناء وأشياء أخرى في داخله مع اللحم بدل الأرز. فالأرز ليس من الحبوب التي ياكلها الانكليز والاوروبيون عموماً الا اذا كانوا يتناولون في ايامي تلك على الأقل، طعاماً صينياً أو هندياً أو ما يشبه ذلك.

الحفلات في هذه القرية كانت حفلات عائلية بيتية. فمثلاً أسرة «لونغ» دعت، وهم أصدقاء لأسرة «أوستن»، هذه الأسرة لقضاء أمسية عيد الميلاد عندها، وكنت أنا مع الموجودين. كان هناك من عائلة «لونغ» نحو سبعة أشخاص ونحن كنا أربعة. وهذا عدد لا يستهان به بالنسبة للقرية. لكن لم يكن هناك حفلة ساهرة كبيرة في القرية. الذين أرادوا من الشباب ان يحتفلوا بعيد الميلاد بشكل عام، كان عليهم ان يذهبوا على الأقل الى مدينة «هارتفورد» التي هي عاصمة مقاطعة «هارتفورد شاير».

في السنة التالية، في سنة ١٩٣٦، قضيت عيد الميلاد ورأس السنة في مدينة «توركي» وقد كانت من الأماكن السياحية الكبيرة في انكلترا في ذلك الوقت. وفي أوتيل «توركي» هذا الذي نزلت فيه، اقيمت حفلات بدءاً من ليلة عيد الميلاد وانتهاء بصباح يوم رأس السنة. فهناك حفلة ليلة عيد الميلاد في ٢٤ كانون الأول / ديسمبر، وهناك غداء عيد الميلاد في يوم العيد في ٢٥ من الشهر نفسه، وهناك ليلة رأس السنة. لكن، بين هاتين الحفلتين، بين غداء عيد الميلاد وليلة رأس السنة، كان هناك شاي من هنا ونزهة من هناك لأن هذه كانت جميعها جزءاً من اسبوع عيد الميلاد ورأس السنة في هذا الفندق.

الفندق كان مريحاً جداً، لا أقول فخماً جداً، فأنا لم يتح لي في تلك الأوقات أن أذهب الى فندق فخم الا لزيارة شبه رسمية قد أذكر بعضها في المستقبل. لكن الفندق كان مريحاً، نظيفاً، والاحتفالات كانت مرتبة، كل شيء كان منظماً. وهنا يجد الواحد المجال، لا أقول للتعرف على الانكليز، فالتعرف على كل ينتهي بانتهاء هذا الاسبوع، ولكن يتعرف الى تصرفهم، يتعرف الى طريقة معالجتهم للأمور في حفلات من هذا النوع، يتعرف الى الاسلوب الذي يتبعونه في ترتيب الحفلات، وهذه أمور كلها مفيدة ونافعة.

هذا الفندق، جاءني فيه وأنا هناك ضيفان، واحد اسمه نور الدين عبدالهادي والآخر فرح رفيدي الذي يرد اسمه كثيراً في هذه المذكرات بالنسبة للفترة التي قضيناها في لندن. كان المفروض ان نلبس ثياب السهرة في كل حفلة من حفلات المساء، ليلة عيد الميلاد، ليلة رأس السنة وما بينهما، وجاء هذان الضيفان في ليلة رأس السنة. أهلاً وسهلاً. ولكن كيف السبيل للوصول الى قاعة الحفلة؟ فرح رفيدي قرر أن لا يشترك لأنه ليس لديه بدلة رسمية ولم يُرد لا هو ولا أنا أن يتعرض أي منا لانتقاد. نور الدين عبد الهادي شاب طويل أشقر وسيم، ولذلك لجأ الى الحيلة. كان يلبس بدلة ذات لون كحلي غامق. فخلع الجاكيت، وجاء بالشال الذي يلفه عادة على رقبته، وهو من الحرير الأنيق، ولفّه على خصره، وخلع ربطة الرقبة من مكانها، شالها، وفتح القميص الحرير فتحة خفيفة واعتبر ان هناك شيئاً يدور حوله هو إما مسبحة أو ما يشبه ذلك وضعها حول رقبته، لكن ظهرت وكان لها شرابة من الذهب، ودخل بهذا الشكل الأنيق اللطيف الذي يقوم على جسم فيه وسامة وقسامة، دخل الى

القاعة ولم ينتبه أحد الى أنه لم يكن يلبس بدلة السهرة الرسمية لأنهم بهروا بمظهره. على كل، قضينا ليلة لطيفة وانما صديقنا لآخر قضاها في الغرفة ولكنه جاء ليتناول طعام العشاء معنا بإذن خاص.

هذان نموذجان من عيد الميلاد حضرتهما في انكلترا، واحد عند أسرة في أول سنة والثاني في فندق عام من النوع الجيد. لكن في السنة الثالثة، اي في سنة ١٩٣٧، عدت فقضيت يوم عيد الميلاد عند أسرة «جوزفين» وسأتحدث عن جوزفين فيما بعد. والمهم أن فرح رفيدي تعرّف بالمصادفة على جوزفين وأمها، ولأنهم يعرفون أنه صديقي دعته الأسرة لقضاء يوم عيد الميلاد، وهذا يعني تناول غداء العيد معها، وقبل فرح رفيدي الدعوة مبدئياً ولم يخبر الأسرة ولم يخبرني نهائياً. وقبل عيد الميلاد بنحو عشرة أيام سألتني أم جوزفين: هل ينوي صاحبك ان يحضر عيد الميلاد، لانني أريد أن أعرف وزن ديك الحبش الذي أبتاعه؟ الآن، نحن كنا أصلاً أربعة وفرح رفيدي يكون الخامس، والسيدة تريد أن تعرف هل أننا سنكون أربعة أو خمسة حتى تقرر وزن ديك الحبش الذي يجب ان يبتاع. أنا بالنسبة لي لأنني كنت قد عرفت شيئاً من هذا التصرف عند الانكليز، لم استغرب القضية أبداً. لكن فرح استغرب لما طلبت منه ان يقرر حالاً فيما إذا كان سيقبل الدعوة أو لا، استغرب خاصة لما عرف السبب. لكن في النهاية قبل الدعوة، فأخبرنا السيدة وابتاعت ديكاً من الحبش لخمسة لا لأربعة أشخاص.

هذه ناحية من النواحي التي يجب ان يشار اليها بالنسبة للانكليز، أن الأكل والطبخ على قدر الحاجة وليس لإظهار الوجاهة أو الكرم غير اللازم. فالانواع أصلاً ليست كثيرة. ولا يزال هذا الأمر معمولاً به في أوروبة وفي اميركا؛ في الولايات المتحدة، في عيد الميلاد وفي غير عيد الميلاد، في الحفلات العادية وفي الحفلات الخاصة التي قد تشمل عشرات من الأشخاص لا يقدم هناك هذا الأكل الكثير الذي يقصده منه عندنا إظهار الوجاهة والكرم وفي النهاية قد ينتهي الى حيث لا يستفيد منه أحد.

فالأوروبي والانكليزي والاميركي، من هذه الناحية حريص: عنده عشرة أشخاص للعشاء ويريد ان يعمل، أن يعدّ، أو السيدة تريد أن تعدّ كمية من الأكل تكفي لعشرة أشخاص او اكثر بقليل، إذ قد تزيد حصة اثنين.

وكان ان جاءنا في شهر اذار من سنة ١٩٣٦ عيد الكلية، كلية لندن الجامعية، أي كليتي التي كنت أدرس فيها. وعيد الكلية يستمر الاحتفال به اسبوعاً كاملاً. واسمه في الواقع «فونديشن ويك» (Foundation Week اسبوع تأسيس الكلية). والأشياء التي يعنى بها في هذه المناسبات، أولاً، خطاب عام يلقيه واحد من كبار رجال الفكر أو السياسة. وقد ألقى في واحد من هذه المناسبات الخطاب انطوني إيدن لما كان وزيراً للخارجية في بريطانية. ثانياً، ندوة تتناول مشكلة من المشاكل يسهم فيها البعض من رجال الفكر تتناول موضوعاً فكرياً في اكثر الحالات يرتبط بمهمة الجامعة والعمل على تطويرها للأمام. ثالثاً، حفلة استقبال تهيئها الكلية مشتركة فيها بين الادارة والطلاب، أي جمعيات الطلاب، يدعى اليها أكبر عدد ممكن من خريجي الكلية الموجودين في انكلترا أو في الخارج. وهناك أيضاً حفلات خاصة بالطلاب تقيمها الجمعيات الطلابية المختلفة بالتناوب والاتفاق والتنسيق. هذه تشغل يومين أو ليلتين (أمسيتين)، من المألوف ان تكون واحدة منهما لقسم العلوم والطب وواحدة لقسم الآداب، لكن الدعوة تشمل من هنا وهناك. انما هذه اعمال للطلاب. ويأتي بعد ذلك نوع من المسرحية، هي استعراض أكثر منه مسرحية مقصود منه اعادة الوقت والزمن والطريقة التي انشئت فيها الكلية وظروفها. يأتي هذا في ناحية استعراضية وفي الاستعراض تذكر هذه الأشياء على الا يكون الأمر خطاباً في خطاب في خطاب..

ثم تأتي الليلة الأخيرة من احتفالات الكلية وهي ليلة العشاء والسهرة التي تبدأ عادة حول الساعة التاسعة مساء وتنتهي حول الرابعة صباحاً. وإذ كان يترتب على الطلاب، لا على المدعوين فقط ان يلبسوا ثياب السهرة في يوم الاستقبال للخريجين وفي أيام حفلاتهم، فقد كان يترتب عليهم في هذه الليلة، ليلة العشاء الراقص، ان

يلبسوا الثياب (أو الجاكيت) المعروفة باسم «تايلز» أو «الذنب». وانا، كما ذكرت، وجدت من أول الأمر انه الأفضل لي أن أبتاع البدلتين فتكونان معلقتين حاضرتين عند اللزوم، ولذلك لم أجد صعوبة في حضور هذه الحفلة. لم اذهب الى «موس اخوان» كما حدث من قبل لمناسبة سابقة فاستأجر البدلة بعشرة شلنات لليلة الواحدة.

هذه الحفلات، حفلات التأسيس، أذكر منها مرة كان خطيب الحفلة «ليدل هارت». ليدل هارت كان المراسل العسكري، أو الحربي إذا شئتم، لجريدة «التايمز» في الحرب العالمية الأولى، وكان يعتبر من كبار المؤرخين والكتاب والصحافيين العسكريين في بريطانية. وبهذه المناسبة، فالرجل عاش حتى كتب تاريخاً للحرب العالمية الثانية لا للحرب العالمية الأولى فحسب. هذا الرجل القى محاضرة عنوانها «نتعلم من التاريخ أننا لا نتعلم من التاريخ»، وكانت محاضرة ممتعة جداً ذكر فيها أمثلة كثيرة لرجال حرب ورجال سياسة ورجال فكر الذين وضحوا دروساً في الحياة التاريخية وانتقدوا الأخطاء التي تمت على أيدي هؤلاء القواد أو الساسة ثم وقعوا هم أنفسهم فيها فيما بعد، أو وقع فيها الذين قرأوا هذه الكتب وكان من المفروض ان يتعلموا درساً منها!

والمرة الثانية التي أذكرها كانت لما تكلم «أنطوني إيدن». وقف انطوني إيدن ليتكلم فقال: كنت هيأت خطاباً لهذه الليلة، ولكن اعتداء هتلر على تشيكوسلوفاكيا أمس الاول حملني على تغيير كل الخطاب، وها أنا أغتنم هذه الفرصة لأتحدث عن هذه القضية بالذات، هتلر وموقفه من اوروبة...

أريد أنا أن أتحدث عن هذه الأشياء التي ذكرت، من حيث انها مجتمعة تقوم بعملية التثقيف للناس. التثقيف في انكلترا كما عرفته وكما أفدت منه في ذلك الوقت هي عملية متكاملة. أنا شخصياً، في إقامتي في عكا، عملت على تثقيف نفسي عن طريق القراءة، ولم يكن هناك سوى القراءة. أما حتى الراديو، من حسن الحظ، لم يكن قد انتشر، ولما انتشر يومها كان أفضل منه الآن في العالم العربي الى درجة كبيرة.

المهم، القراءة كانت السبيل الوحيد. لكن الاجتماع بالناس لم يكن يثير مشكلات. كان يثير قضايا شخصية داخلية تحملك على الاستفادة منها إما لأنك تنتبه الى أخطائك فتحاول الا تخطىء مرة ثانية أو أنك ترى تصرف الناس، فاذا أعجبك هذا التصرف، قبسته، أو أنك ترى الخطأ في تصرف الناس فتتجنبه.

هذا من جهة، من جهة ثانية، هذه الحركة الدائمة في المحاضرات العامة والخاصة والمتخصصة، هذه الحركة الدائمة في المسارح، هذه الحركة الدائمة في المطاعم، في الأندية. الأندية في انكلترا مهمة جداً، وفي الفترة التي قضيتها في هندن اشتركت في ناد للتنس في الحي ولما سكنت على مقربة من الكلية اشتركت في نادي «جمعية الشبان المسيحية»، وفي جميع هذه الحالات كان يمكن للواحد ان يكون، كما سبق وذكرت، مع الجميع ومنفرداً، يفيد، يلتذ، يشعر بدفء الجماعة لكن دون أن تفرض عليه الجماعة ان يكون جزءاً منها والا حسبوه متنطعاً، متكبراً أو ما يشبه ذلك. لا... لا.

فمن هنا عندما أعود أنا بالتفكير بتلك الايام أتذكر كيف أنني شعرت بأنني اصبحت جزءاً من مجتمع فيه عناصر الثقافة تتكامل، وللمرء أن يأخذ منها ما يستطيع أن يقبسه ويهضمه ويفيد منه.

لا بد ان هناك آلاف من الناس لم يذهبوا الى محاضرة في حياتهم، وهناك آلاف من الناس لم يذهبوا الى المسرح، وهناك آلاف من الناس لم يقرأوا الا كتباً قليلة، لكن المهم ان المجتمع بكامله يمكنه أن يحصل على هذه الأمور إذا أراد. وأريد أن أضيف ان المكتبة العامة التي أشرت اليها من قبل، كانت مهمة جداً لانها تيسّر للناس ان يقرأوا الكتب دون أن يدفعوا ثمنها، ومنها آلاف الكتب للكبار والصغار، القصص والفنون والعلوم والشعر والأدب وغير ذلك، كله موجود.

هذه هي قضية مهمة جداً، أفدت أنا منها كثيراً، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعتبر أنني يجب أن اكون دائماً جزءاً عاملاً أو عضواً فعالاً في الجماعة التي تحيط بي، صغيرة كانت أو كبيرة.

اعتاد القارئ في العالم العربي على سياسين
وقياديين يكتبون مذكراتهم،
وظل رجال الفكر اقلية في هذا المضمار.

الدكتور نقولا زيادة يخرق هذا التقليد ويطل
بمذكرات وذكريات
لا تتحدث عن السياسة والحروب
بل عن رجال الفكر والتاريخ والتقدم العلمي والفكري
والاجتماعي من خلال علاقات مميزة
مع شرائح كبيرة من الرجال - القادة
ومن الرجال العاديين الذين عايشهم وعاصرهم
وامتزج معهم علميًا وعمليًا.

فهو لم يعش في برج عاجي بل عاش واحدا من الناس
يحاول ان ينقل اليهم،
كما نشهد من هذه «الايام»،
ما ملك عقله من معرفة ورؤية.

ولعل الدكتور زيادة هو اول كاتب يعري نفسه هذه
التعرية التامة التي نشاهدها على صفحات
«ايامي» في جزئيه الاول والثاني.